

جِازُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الاستاذ عجاج زويهن

وفيه فصولٌ وتعليقاتٌ وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الإمير شكيب أرسلان

المجلد الرابع

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عنت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر

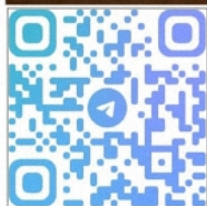


مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

رابطہ بدیل
lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسْرٍ وَأَعِينُ

فهرست

المجلد الرابع

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

- الفصل الثالث : سيطرة الغرب على الشرق من صفحة ١ — ٣٨
- الفصل الرابع : فى التطور السياسى من صفحة ٣٩ — ٦٥
- اللورد كرومر للامير شكيب من صفحة ٦٦ — ٦٨
- العرب ديموقراطيون للامير شكيب من صفحة ٦٩ — ٧٠
- الفصل الخامس : فى العصبية الجنسية من صفحة ٧١ — ١٥٦
- المساواة فى الشريعة الاسلامية للامير شكيب من صفحة ١٥٧ — ١٦٠
- تاريخ نجد الحديث : آل سعود وآل الرشيد للامير شكيب من صفحة ١٦١ — ١٧٢
- الترك أيضاً للامير شكيب من صفحة ١٧٣ — ١٧٦
- الفصل السادس : فى العصبية الجنسية فى الهند من صفحة ١٧٧ — ٢٠٢
- الفصل السابع : فى التطور الاقتصادى من صفحة ٢٠٣ — ٢٢٨
- الفصل الثامن : التطور الاجتماعى من صفحة ٢٢٩ — ٢٥٢
- الفصل التاسع : القلق الاجتماعى والبلشفية من صفحة ٢٥٣ — ٢٨١
- خاتمة فصول الكتاب صفحة ٢٨٢
- خداع الأور بين للعرب والمسلمين للامير شكيب وفيه ثلاث وثائق بامضاء جلالة ملك
بريطانيا العظمى باحترام استقلال العرب والدين الاسلامى من صفحة
- ٢٨٣ — ٢٨٦
- تاريخ الممالك الاسلامية الهندية للامير شكيب من صفحة ٢٨٧ — ٣٢٢
- فرقة المعتزلة للامير شكيب من صفحة ٣٢٣ — ٣٢٥

فرق الخوارج : المحكمة والازارقة والنجدات والبيهسية والعجاردة والميمونية
والأباضية والثعالبة والصفيرية وفتوحات الأباضية في المغرب والهند وحروبها
الكثيرة ودولها وخلفاؤها قديماً وحديثاً للامير شكيب من صفحة ٣٢٦ - ٣٤٨

البكطاشية للامير شكيب من صفحة ٣٤٩ - ٣٥٠

الباية للامير شكيب من صفحة ٣٥١ - ٣٦١

المبادئ الاشتراكية في الاسلام للامير شكيب من صفحة ٣٦٢ - ٣٦٣

الشهيد أنور باشا ورفقاؤه وفيه بحث جامع عن سيرة أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا
وأعمالهم في السلطنة العثمانية وخارج السلطنة والثورة العربية وأسبابها بقلم الامير
شكيب من صفحة ٣٦٤ - ٣٩٥

سيدي احمد الشريف السنوسي رضي الله عنه بقلم الأمير شكيب من صفحة ٣٩٦ - ٤٠٨

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيراً في تطوّر الشرق في هذا العصر، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر، لا بل تندفق على كل بلاد وتطمو على كل رقعة، حتى غدا التغرب^(١) من أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الاسلامي، حتى وفي الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة. وسنبسط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوربية من التأثير الشديد في تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة، ولكن الاحتراز الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوربية هي السبب والعامل في جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة في العالم الاسلامي. فقد سبق لنا الكلام مبسوطاً، مبيناً فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامي ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالا شديداً، فيدثر منها ما يدثر، ويستجد فيها ما يستجد، وتتلاشى قوى وتتولد أخرى، وذلك جميعه، على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج، انما هو بحد ذاته تجدد قائم في الباطن، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره

(١) مرادنا « بالتغرب » Westernism التخلق باخلاق الفرنجة والتشبه بهم وأخذ أخذهم في طراز المعيشة وأساليب الحياة. ويشمل ذلك المحسوس كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات، والمعنى كإقتباس الأفكار والآراء الاجتماعية والسياسية. والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة. « المغرب »

بما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدد عنه . وعلى ذلك فما هو واقع مشهود في العالم الاسلامي اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب ألا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به فحسب ، بل انما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغاً في بوتقة شرقية وفي قالب اسلامي . ويجب فوق ذلك ألا يغيب عن الازهان ان الشعوب الاسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست ، كما يقول بعضهم ، شعوباً متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالي ، حضارة هي نتاج اسلامي صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم . ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالي ، وفروع ذروات المجد فيما مضى ، أننا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الاسلامي تجديداً حقيقياً ، صحيحاً رائعاً ، ولا غرابة في ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران .

ان سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث العظمة والخطورة ، والمدى والمجال . فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم ، لا يعدُّ بالإضافة الى سيطرة الغرب اليوم شيئاً مذكوراً . والغريب في حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق ، والمسالك الحديدية ، والبرد ، والبرق ، والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوخ جديد الآراء والافكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي . وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق وترسو في كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفرّ البضاعات والارزاق الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعاً . فالأمم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الخالي تحيا حياة الثلاثين قرناً التي كرت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائي في مغانها ومراحها ، وانتسخت العادات والافكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساخاً كاد يكون تاماً ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبديلاً كبيراً . وسنفصل الكلام

في الفصول التالية على ما هية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوها : جاعلين الكلام في هذا الفصل تمهيداً لما سيحجى فنقول : —

ان عوامل التغرّب هي أكثر تغلغلا وانبثاقاً في الأقطار الاسلامية الطويلة العهد في الحكم الأوربي، منها في سائر الأقطار. وهذا الأمر ظاهر مثاله فقد كان انتشار الحكم المعروف بحكم «الراجا» في المقاطعات الهندية السحيقة ضرباً من العجائب، فسيادة الحكم والادارة في الهند قاطبة انما كان على يد مسكوكات النقود، والبرد، والقطر الحديدية، ومحاكم القضاء، والمساعدة على نشر التعليم والتهديب، والاغاثة عند نشوب المجاعات وغير ذلك. ولم يكن انتشار عوامل التغرّب في الأقاليم حيث السلطة الاوروبية اسمية بطيئاً، فلذلك لم يمض غير اليسير من الزمن حتى بدلت العادات القديمة تبديلاً، وشاعت أسباب الرفاهية الغربية ووسائل التبسط في شؤون الحياة كمصاييح الغاز والمطارز وما أشبه شيوعاً عاماً، ونشأت بطبيعة الحال على أثر ذلك حاجات اقتصادية حديثة لم تكن تعرف من قبل، وتحسنت حالات المعيشة تحسناً مذكوراً، وعلى الجملة فقد كان التطور كبيراً شاملاً.

وكان الارتقاء العقلي والخلقي والتهديبى مشرباً روح التغرّب، وقد سبق لنا الكلام فأبنا مبلغ ما كان للآراء وروح الحضارة الأوروبية من التأثير العميق في نفوس الأحرار من المصلحين المسلمين. غير أن الأمم الاسلامية في الشرق على العموم لم تقبل على اتحال الأفكار والآراء الغربية اتحالا شديداً ما أخوذاً به الى حد امتزاجه بطبائعها وأخلاقها، مثل إقبالها على استعمال الادوات المادية للحضارة الغربية، ولا سيما ما كان شأنه من هذه الادوات لتوفير الرفاهية والرخاء، فشيوع التبغ مثلاً انما كان سريعاً في كل أمة شرقية وفي مدة نصف قرن باتت مصاييح الغاز مستعملة في كل صقع اسوي، حتى في أواسط آسية والصين. وأما العادات الغربية كتلك التي في أزياء الملابس والتعليم وما أشبه فقد كان الاقبال عليها قليلاً، الا عند طبقة معروفة. وما اتخذ واقتبس من هذه العادات لم يتلق بحذافره على صورته الاصلية بل كانت مقتضيات البيئة تغير منه ما تغير حتى تذهب بصفاته وخواصه الغربية وتجعله على ايلاف للبيئة. وما زال الشرق الاسلامي يعترف بتفوق الغرب ومبلغ ما بلغه من ضرر وب التفنن والاكتناه، لكن قابلية الامم الاسلامية

للاخذ عن الحضارة الغربية قد ونت وضعفت ، وكاد الميل الى اقتباس مبتكرات الغرب من الآراء والافكار يضمحل ، فتلا ذلك روح عدائية شديدة للحضارة الاوروبية وأبنائها .

وأظهر ما يكون التغرب في الطبقتين العليا والوسطى ، ولا سيما في أولئك المتهذبن على الطراز الغربي ، وهم الاقلون في كل بلد من بلدان المسلمين ، وعددهم ومبلغ ما لهم من السلطة ونفاذ الكلمة فعلى تفاوت في موضع موضع : يقولون باقتباس الافكار والآراء الغربية ، ولكنهم يختلفون في القدر الذي يقتضى الحصول عليه . فمنهم من يقول باقتباس الفضائل الغربية الصحيحة مضافة الى ما في تراث آبائهم وأجدادهم من الفضائل العليا والفلسفة السامية بحيث يكون لهم من هذا وذاك مزيج جامع بعناصره ومواده لاحسن الحضارتين الشرقية والغربية ، ومنهم من يقول باهمال هذا التراث ولو كان شأنه حسناً مهما كان ، وبالاندفاع للتغرب والانكباب عليه بأوسع نطاق ومنهم من يتظاهر بالتغرب تظاهراً من ورائه المقت والشناة للحضارة الغربية .

يؤخذ من هذا التغرب ان غالبه هو في الظواهر . فلهندى مثلاً ، والتركي والمصرى الحائز اجازة جامعة غربية والذي يفصح التكلم بعدة ألسنة أوروبية والامير والباشا والمثري المقتنى عدداً من السيارات ومن عاداته أن يؤم حمامات أوروبا كل عام ، جميع هؤلاء انما يبدون للعين في أول الامر كأنهم غربيون ، فيرتدون الاثواب الغربية ، ويتناولون على موائدهم الاطعمة الغربية . ولكن وراء هذه المظاهر والاعراض تفاوتاً في أسلوب الحياة ، تفاوتاً تظهر عنده الخواص والميزات الخلقية ، فتبتدأ هذه المظاهر باهرة مغشاة بتعشق التغرب ، ثم تأخذ بالتلاشى حتى تنتهي عند مقته وكرهه .

على أن هذه الصور المختلفة للتغرب لا ترى مستقلة متميزة في طبقة معينة ومكان معلوم ، بل انها في كل طبقة من طبقات الأمة وفي كل بلد شرقي فلذلك ترى الشرق من أقصاه الى أقصاه سائراً في سبيل تحول عجيب ، عظيم الماهية ، سريع الحصول ، حتى حد الطفرة ، مما لم ير الغرب له مثيلاً في جميع ما مضى من الأدوار . ان حضارتنا الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها . نشوءاً طبيعياً متدرجاً ، مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء . أما الشرق فهو في كثير من مواضع الانقلاب

يطرف في تحوله طفوراً ، اذ ان ما يأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة ان غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق هذا التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني وغير ذلك .

فاختلطت الجواهر بالاعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشؤون بعضها قبل أوانه وبعضها الآخر بعد أوانه : وفي مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلي والخالقي تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . فصارت الآباء لا تفهم أغراض أبنائها والابناء تتنكر لآبائها . وأنشأ التنافر يشتد بين القديم والجديد ، . بين المولوي الفاني والحديث الطريف ، وربما قام الفرد على نفسه فقاتلت سجيته وخلقه خلقه . وقد وصف السرثالنتين تشيرول هذا العراك الهائل في الهند بقوله : « أمواج وغمارٌ تتلاطم وتتكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وآراء وأفكار غريبة تتدفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت أجيال طوال . فبعض يأخذ ولا يحسن الأخذ ، وبعض يعرض ويلعن ، وعقائد تتبدد ثم تعود فتحيا ونظم صناعية مضطربة ، ومناهج تعليم وتهذيب غير مستمسكة ، ومبادئ غريبة في أفق الادارة والتدبير والقضاء تنتشر في مجتمع متنافر الوحدات ، وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارها على الحالة الأولى من السداجة ، وتصادم عنيف مستمر لا بد منه بين أقوام السكان ، والحكام الغرباء ، وحروب مستديمة الاتقاد . وبعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقي جبار في الشرق الأقصى» .

ان هذه الكلمات وان كان قائلها قد عني بها وصف الحالة في الهند على الخصوص ، فهي تصح أن تتخذ تمثيلاً لصفة الحال في كل بقعة من بقاع الشرقين الأدنى والاوسط . قال أحد كتاب الفرنسيين في هذا الشأن : « الحق أن الشرق على العموم ، والعالم الاسلامي على الخصوص ، لفي دور من الانتقال عظيم . يجوز الشرق اليوم برزخاً فيه يعارك الماضي الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

هذا هو السبب في تنكر اخلاق الكثير من متغربة الشرقين « كالبابو » الهندي و « الأفندي » التركي . ولا جرم ، فكل انقلاب عظيم وتحول كبير لا بد من أن يرافقه قدر من المفسد والسموم ، فتغرب الشرق اليوم هذا التغرب الذي سيقف بالضرورة عند

حد ، إنما فيه حسنات وسيئات . والاصلاح والانقلاب في أمة ، ولو اقتضتهما الضرورة أشد اقتضاء ؛ ان هما في الواقع الا القضاء على القديم وادخال الجديد الذي لا يخلو من البذور الفاسدة التي لم تكن من قبل . وقد قال اللورد كرومر في هذا الصدد : « انه ليرتاب فيما اذا كانت هذه الشعوب الشرقية المتدلية تعترف بالثمن الذي ينبغي أن يؤدي لقاء ما هو منقول اليها من الحضارة الغربية . أما المنافع المادية التي أصابها أهل الشرق من الحضارة الغربية فهي عظيمة بلا جدال . وأما المنافع المعنوية فلا يستطيع حتى اليوم الوقوف على مبلغ تأثيرها في الفرد والمجموع »

وسيئات التغرب وحسناته ظاهرة ظهوراً بيناً في طبقة الاقلين الذين يعرف فيهم التهذيب الراقى . أما هؤلاء فبعضهم يرتاحون كل الارتياح الى الروح الغربية ، والبعض وهم أكثر عدداً ، قد أدركوا برزخ التنازع بين القديم والجديد فذهبوا فريسة القوتين المتناصرتين . قال اللورد كرومر يصف متغربة المصريين : « انهم مسامون وليس فيهم خواص اسلامية ، واوربيون وليس فيهم خواص اوروبية » . وقال كاتب انكليزى واصفاً ما هو منتشر في الهند من مظاهر التغرب : « قصور مغولية نعمة مزدانة بالمتاع والاعنات المجلوب من بريطانية هذا جميع ما استطعنا عمله في الهند ، فانتالم نحمل الهندي على أن يمقت حضارته الشرقية وينبذها نبذاً خسب ، بل حملناه فوق ذلك على اتخاذ الاعراض والغث من حضارتنا بديلاً منها ، فبات الهندي وحالته العقلية تمثل مزيجاً من مجموع عناصر ضارة ، بعضها أسويى باق وبعضها الآخر أوروبى مجلوب . وليس ذلك بالمستغرب وقد أصبحت حضارة الهند خليطاً لامثيل له في العالم ماضياً وحاضراً ، بحيث انقلب الهندي اليوم متطوحاً واستمسك بأمور عدها فضائل وليست من الفضائل بشيء ، وغرته الخدع وأخذت بلبه الاعراض . . . نحن حاولنا أن نرقى بالعقل الشرقى الى مستوى الكمال الغربى والبيئة الغربية ، فخبطنا دون ذلك شرحبوط ، اذ قد أفضينا به الى حالة عقلية أدبية الفساد يغشاها وعوامل الخلل والدخل ضاربه فيها » .

فهذه المفاسد الناشئة عن تيار التغرب انما هي من الأسباب الكبرى في انتشار روح البغضاء والكراهة في أصقاع الشرق لكل شىء غربي ، وقد عمت هذه الروح حتى شملت الكثير من أولئك الواقفين على طنائع حضارة الغرب وعمرانه حق الوقوف ، فساعد ذلك

كله على ازدياد الروح الرجعية المقاومة لسيطرة الغرب السياسية .
حقاً ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق هي الأمر الشاغل من الخطورة والشأن
أكبر مكان . وقد أئنا فيما أسلفنا من الكلام على بيان موجز في فتح اوروبه للشرقين
الأدنى والأوسط خلال القرن الماضي ، وكيف كان العالم الاسلامي اذ ذاك متديلاً لاحول له
ولا قوة حيال ذلك السيل من الفتح السياسي والاقتصادي . وفي الواقع ، فان ذلك الفتح
الاقتصادي قد كان العامل الأكبر في سرعة تقدم اوروبه و بلوغها أوج الكمال وقنة العظمة
أما أمر اخضاع البلدان الشرقية فقد كان بعضه يتم على يدي القوى العسكرية كحملة
فرنسة على الجزائر ، وفتح روسية لأواسط آسية ، وغزوة ايطالية لطرابلس الغرب ، وبعضه
الآخر على يد الوسائل الاقتصادية الصرفة وذلك ماهو معروف بـ « الفتح السلمي » أعني به
القبض على خناق بلاد شرقية مستقلة استقلالاً مخترق السياج ، برؤوس الأموال الغربية
تمدها الدولة الفاتحة تلك البلاد على شكل القروض والامتيازات ، ومتى ماتم ذلك أخذت
السيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً حتى تنتشر انتشاراً يطبق البلاد ، وعلى هذه الطريقة
تم فتح مصر ومراكش و بلاد العجم ، بينما كانت الهند من قبل ذلك تستعمرها « شركة
الهند الشرقية » بوسائل تجارية بحثة . على ان خطورة هذا الفتح السلمي لايعتبر قدرها
على الغالب حق الاعتبار .

فلننظر في شيء من وسائل هذا الفتح وهو امتيازات القطر الحديدية ، فقد قال
الدكتور ا . ج . ديولون الرجل الخبير بالسياسة الدولية في هذا الشأن : « القطر الحديدية
اليوم باتت من أفضل الوسائل لانتشار الاستعمار وامتداده ، إذ متى ما أنشئت هذه الشرايين
في جسم بلاد منحطة وتغلغت في أحشائها وأطرافها ، لاتلبث أن تنقلب أذرعاً حديدية
خناقة حول عنق البلاد ، تمتصه من دماها وسالبة من قواها ما استطاعت » .

ليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نخوض في البحث هل كان الغرب على حق أو
باطل في تسلطه على الشرق هذا التسلط الاقتصادي الهائل ، فقد بحث الباحثون في هذا
الموضوع واستقصوه من جميع وجوهه ، والقارئ الكريم مطلع على مثل هذه المباحث
مما نحن بغنى عن ذكره . غير ان هناك أمراً لايمتثل الجدال ، وهو ان هذا التسلط انما
كان مما لا بد منه ولا حيدة عنه . فقد طلع القرن التاسع عشر على العالم والشرق والغرب

شنان ماهما تقدماً وعمراً ، وبأساً وقوةً ، الغرب جبار عنيد ، شديد البأس ، مجدول الساعدين ، يتدفق قوة ونشاطاً ونمواً ، يتخطى حاملاً على منكبيه أكبر حضارة عرفها الانسان سائراً بها نحو معقل الغاية العليا ، والشرق متناقل متحامل ، قليل المنة ، سلب العزم . فكان المتوقع انقراض الأول على الآخر وإنشأ مخالبه في كل موضع من مواضعه وما يعيننا جد العناية بهذا المقام الا اعتبار ماهية التأثير الذي كان للسيطرة الغربية السياسية في مجرى انقلاب الشرق على العموم ، ومبلغ تأثر الشرق بتلك العوامل المتسلطة عليه . ومما لاشك فيه ان السبب الأكبر في مبلغ هذا التأثير انما هو التغرب على ماسبق وصفه . وقد كان من ديدن الحكام والمتسلطين الغربيين انهم متى قبضوا على أعنة الحكم في بلاد شرقية يشرعون بمقتضى الضرورة في نشر المؤثرات والعوامل الغربية جاهدين في تقريب متناولها وفي ذلك أسباب . ففي المقام الأول كانت الدولة المتسلطة ترى من مصلحتها أن تحمل السكان على طائفة رؤوسهم لها وانقيادهم الى حكمها وأمرها ، وأن تسعى في توفير أسباب العمران المادى ، وصيانة السلم والأمن ، لكيما يتسنى لها بذلك كله الاتفاع واستدرار الخيرات وابتزازها ، وذلك لا يتم لها الا بالقضاء على الحكومة الأهلية المستبدة ، القليلة الحول والطول وأن تقيم مقامها حكومات استعمارية منيعة الجوانب ، شاكية السلاح ، شديدة الشكيمة ، فتقوم هذه بتثبيت النظام وتمهيد سبل الصناعة ، وانشاء أسباب العمران كقطر الحديد والبرد والمعاهد الصحية وغير ذلك . ولكن هذه الحكومات الغربية لم تقصر همها على الترقية المادية فحسب ، بل سعت في سبيل ترقية الأمم الداخلة في حكمها الترقية الاجتماعية والعقلية والأدبية .

فبهذا الاعتبار قد عرفت في الدول الغربية التي شيدت ممالك الاستعمار خلال القرن التاسع عشر روح أرقى من تلك التي عرفت من قبل في الدول الاستعمارية السابقة من اسبانية والبرتغال وهولندا وشركة الهند الشرقية الانكليزية وهي روح الجشع والنهم والاستنزاف . ففي القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخذت تشعر شعوراً حقيقياً عميقاً بالغاية الفضلى المثلى وهي « واجب الانسان الأبيض » ، وكان بناء الممالك الاستعمارية في القرن الماضى يشتملون في نفوسهم على عواطف حب المصلحة وابتغاء المعالى والمطامح في سبيل اعلاء شان الوطن ، وفوق ذلك على شعور أنبل وأشرف الا وهو الشعور

بالواجب الكبير ، واجب ترقية الشعوب والأمم التي دانوها لهم وأدخلوها في حكمهم ، يحملهم على ذلك سبب كونهم حملة مصابيح العلم والعرفان ، فشرعوا ينشرون أسباب الحضارة الغربية ويعممون طرق فوائدها ، معتقدين الاعتقاد الراسخ كله ان امتداد السيطرة السياسية الغربية انما هو الذريعة الفضلى ، وربما الوحيدة ، لانهاض الجانب المنحط المتدلى من العالم وللأخذ بنصرته في سبيل التجدد والارتقاء .

وقد وصف العلامة « رمسى موير » وهو من كرماء أرباب مذهب التوسع الامبراطوري ، هذه الحقيقة بقوله : « من الحق الذي لا يمارى فيه ان توسع الأمم الاوروبية التوسع الاستعماري ، كاد يكون الذريعة الوحيدة التي انتشرت على يدها الحضارة الغربية في جميع رقع العالم المعمور ، فبات على أثر ذلك وحدة اقتصادية كالحلقة المفرغة ، وأمست جميع شعوبه وأممه تسير على نظم سياسية أدناها صائر الى مماثلة أرقاها . وهذا مما يحملنا على الاعتقاد أن العالم بأسره هو مسوق الى الانضواء تحت نظام عالمي عام ، قائم على طراز شامل لم يحلم بمثله المتقدمون . فلولاء الفتوح الاستعمارية الغربية لظلت الاميركتان واستراليا وجنوب افريقية بلداناً مقفرة يضرب في أرضها شتات الهمج ، ولبقيت الهند وغيرها من بلدان منابت الحضارات القديمة ومناشئ العمران السالف ، عرضة لدواهي الاجتياح والتدويج ومستقراً للبغي والاستبداد على نحو ما كانت الحال عليه في الحقب المتطاولة في القدم ، ولكان العدل والقسط والقانون والحرية السياسية شيئاً غير مذكور ، ولأمست الشعوب التي كانت متدلية تتخبط حتى اليوم في معارثها ، مستغرقة في حالة البربرية . فاذا غدونا نرى اليوم في الشرق هذه العقائد السياسية الغربية ، عقائد الجنسيات والاستقلال والحكم الذاتي هائجة غالية المراحل - مما هو في الواقع من خير نتاج الحضارة الغربية وثمراتها الطيبة فاذللك لعمري الا نتيجة من نتائج فتح أوروبا الاستعماري » :

وقد أصاب اللورد كرومر في وصفه أدب الاستعمار الحديث بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة . ويجب أن تكون أصول أحكامنا التي هي الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسي والاقتصادي والأدبي ، قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية في بناء الامبراطورية . ان المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جلياً في حسن

التصرف بما في أيدي هذه الامبراطورية من القوى . فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء ، ولينا وجوهنا شطر المستقبل رفيعي الجباه لانحشى أن يعرونا ماعرا الامبراطورية الرومانية من قبل من الفساد والدخل ، وان لم نستطعه فكنا فيه من الجهلاء الأغبياء ، فقد استحققت الامبراطورية البريطانية الانهيار من عل ، ولسرعان ماتتناثر حلقاتها وتبدد بعد الاجتماع .»

على هذه القواعد قامت مبررات الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر . وسواء كان مقدرًا لهذا الاستعمار البقاء طويلا أم التلاشي فالاضمحلال ، فما لاريب فيه أن امتداد سيطرة الغرب السياسية وانتشارها في آفاق الأرض قد ساعدا على انتشار المؤثرات الغربية مساعدة كبيرة . على ان الأمر الذي يُتساءل فيه هو هذا : هل كان الشرق يستطيع بنفسه ، فيما لو ترك حراً من هذا الخناق الشديد والسلطان القاهر والسيطرة المكروهة ، أن ينهج مناهج الغرب ويأخذه إخذة في النهوض والارتقاء ؟ فعلى التسليم بهذا ، يجب ألا يغرب عن البال أن الشرق لو ترك وشأنه لكان حتى اليوم ما برح بطيء التحدى والأخذ عن الغرب متناقل النهوض . زد على هذا أن الزمان ليأبى كل الابداء أن يوسع أمة في يومها على حساب غدها ، فعلى هذا من قال انه كان على الغرب الشديد النامي ، الآخذ سلطانه في الامتداد والانتشار مشرقاً ومغرباً في القرن التاسع عشر ، ان يربأ بنفسه فيتنكب طريق التسلط على الشرق ، بل يتركه وشأنه يفعل كيف شاء قدر ماشاء بالمؤثرات والعوامل الغربية فيقبل ويرفض ، يجذب ويدفع ، يحب ويكره ، يتقبل الأرزاق والبضاعات غير مؤد لأثمانها يستقرض القروض المالية ويبذرها تبذيراً ، يدعو الغربيين اليوم الى دياره وغداً يهب لطردهم أو حز غلاصمهم ، فمن قال هذا ، فأنما قوله لآجيئه المنبآت الصادقات من حقائق التاريخ ، ولا تؤيده سنة العمران البشرى .

فالحق أن الضغط الغربي انما كان من أحكام الزمان القاضية بسيطرة القوى على الضعيف . وهذا الضغط العميم العنيف الذي طال عهده قد دك أسوار جود الشرق دكاً ، وحطم سلاسل رق الشعوب الشرقية تحطيماً ، وهز المشرق من أقصاه الى أقصاه فاهتز وتناثرت منه باليات أثوابه ، وأخرجه من الظلمات الى النور ، وساقه في طريق العمل ، وأراه من الحقائق في اليقظة غير ما كان يراه من أضغاث الأحلام في الهجعة . واننا سنفصل

الكلام في الفصول التالية على ما كان لسيطرة الغرب على الشرق من التأثير في نفوس الأمم الشرقية فأخذت تنفعل وتبدل وتحول طيلة جميع القرن الخالي . ولكننا في هذا المقام نسير في مجمل المراد من القول قاصرين الكلام على السيطرة الغربية في دورها الحديث الذي وليه انقلاب الشرق بعامل رد التأثير مقاوماً معادياً للغرب .

ان الضلالة الكبرى والمزاعم الباطلة التي اشتملت عليها نقود النقدة في شأن سيطرة الغرب على الأقطار الشرقية ، انما هي ناجمة بجملتها عن عدم التمييز والفرق بين ماهية استعمار القرن التاسع عشر واستعمار القرن العشرين . أما استعمار الأول فقد كان ضرورة لا بد منها ولا منتدح عنها ، وقد أتى غالبه بنفع وخير كما قدمنا الكلام على هذا . وأما استعمار هذا القرن فلا يمكن أن يحمده مسيره ولا مصيره . ما كادت تطلع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافة قد نفضت عنها خلقانها ، وبددت غيب جهلها وتعصبها ، وحطمت عقال خجوها ، وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة التي لم تحو غير آثار حضارات مندرسة ومدنيات منقرضة ، وأنشأت تمهد لها مهياً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء . وكان الشرق قد أكمل تلقى دروسه ، وأنهى أخذها عن الغرب ، فشرع من بعد ذلك في تطبيق العلم على العمل لايهاب ولا يوجل فكان يجب على الغرب ، من قبل العقل والمنطق ، أن يوقن ان هذه الشعوب الشرقية ذات التوارخ المجيدة الحافلة بصور المجد والمعالي ، والتي قد استيقظت الآن فهبت تواقفة متعطشة لاستعادة ماضي شأنها وغرر سالف أيامها ، يجب الرفق بحالها ، واقامة الوزن لنهضاتها ، وانتهاج المناهج الفضلى في مراعاتها ، واعتبار الفرق بين بارحتها ويومها وكرها ويقظتها ، وان شئت فقل كان يجب على الغرب من حسن النظر والحكمة أن يبدل موقفه على مقتضى تبدل الأحوال ، فيزيد في توسيع نطاق الحرية الصحيحة للأمم الشرق وشعوبه فيكون لهن في سيرهن وجهادهن نصيراً ، لا حائلاً دون مبتغاهن وعدواً لآمالهن .

ان الشرق قد تبدلت شؤونه ، غير ان سياسة الغرب الجائرة لم تتبدل . بل ان مبادئ الحرية التي سادت في الغرب ، ونودى بها غالب القرن التاسع عشر ، هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فزقتها شرمزق وبددت صورها كل مبدد . اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب

الكونية العظمى . وكانت قد اشتدت نهمة أوروبا وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار . ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثل . فنجم عن ذلك أن باتت سيطرة الغرب على الشرق في صدر القرن العشرين غاية مابعدھا غاية في الارهاق وشد الخناق ، من حيث يجب اللين والرهو ، وطفقت أوروبا تتجهم في وجه الشرق المستيقظ الناهض ، وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروحه الهائجة ، فأساءت اليه بذلك في سنوات معدودات اساءة تفوق جميع ماناله منها من الشر والهوان طيلة مئتي سنة خلت . وكانت السياسة التي جرى عليها ساسة أوروبا الحدباء في مناجزة نهضات الأقطار الشرقية المجاهدة في سبيل الاصلاح والذود عن حياض استقلالها كتركية وبلاد فارس ، عاراً وشناراً على الساسة الأحرار السابقين الذين كانوا منذ جيل مضى ، وجناية كبيرة على الأحرار المعاصرين ، كما تشهد بهذا كلمات خالدات قالها الكاتب الانكليزي الشهير « سدني لو » سنة ١٩١٢ وهي : —

« ما أشبه غالب الدول النصرانية في سلوكها هذا الذي ما برحت سالكته منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية ، بعصاة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل ، فيشخنون فيهم ثم ينقلبون بالغنائم والاسلاب . ما بال هذه الدول لا تنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة في سبيل النهضة ، وعلام هذا العسف الذي تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الكبي لاننياش ما بين أيدها وما خلفها . ان هذه الدول الغربية النصرانية هي بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة أن القوى الشاكي السلاح يحق له الانقضاء على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة . أجل ، ان هذه الدول قد تجردت عن كل حسنة في معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشد الجيوش الشرقية همجية في الزمن القديم .

« ان أعجب ما رآه تاريخ العالم خلال الخمس والعشرين سنة الماضية هو يقظة آسية هذه اليقظة الكبرى ، بعد رقدة استغرقت فيها قروناً . قد استفاق الشرق مذعوراً فأخذ يجهد الغرب ويزجه في حلبة العمران ، وكانت اليابان أولى الأمم الشرقية المنبرية الى هذا الميدان ، فكان انبرأؤها هذا - لحسن طالعتها - في عهد ما بلغ فيه الجشع

الاستعماري مبلغه اليوم ، وكانت حقوق الأمم والمعاهدات ما برحت تحترم بعض الاحترام . فعلى ذلك لما هبّ ساسة اليابان الدهاة في القرن التاسع عشر يشيدون وبينون ، ويذودون ويزاجون^(١) لم تذعن أوروبا لهم ولم تبادر لسد السبل في وجوههم ، بل اتنا نحن الغرب رأينا الى النهضة اليابانية بعين الرضى والارتياح ، والاعجاب والاعظام ، فتركنا أبناء « نون » وشأنهم يغامرون الصعاب ويدلون في سبيل الحياة . غير انه لمن اليقين الثابت لو استأخرت ثورة النهضة اليابانية ثلاثة عقود من السنين ، لكان نبأ اليابان لدينا اليوم غير نبأ ، ولكانت اليابان الحديثة وهي اذ ذاك في ابان محاضها ، قد أحاطت بها من كل جانب الدول الغربية العظمى المسلحة احاطة السوار بالمعصم ، ومدت كل منها يدها الى شىء من المتاع تغتصبه اغتصابا . حقا انه قد كتب لليابان السلامة والنجاة من مخالب الاستعمار الذى انتشب في العالم بعيدئذ اياما انتشاب ثم لما أخذت الاقطار الشرقية الاخرى تهب جاهدة لاقتفاء أثر اليابان واحتذاء حذوها ، طفتت تالقي جداً عاتراً وحظاً منحوساً ، وفي خلال العشرين سنة الخالية ثارت نائرة الاستعمار في أوروبا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضاً ، وخلعت وزارات المستعمرات العذار تريد التهام العالم التهاما ، فأحدث ذلك رد فعل أسوأ ما يكون في الامم الشرقية المجاهدة مشتعلة بنار اليأس لانشاء النظم الدستورية واقامة سلطان الشورى . وما كان ذنب هذه الامم التى انهالت عليها جلات أوروبا المنكرة سوى أنها أخذت تسمى في أن تقوم بالارشادات والتعليم التى ظل المستشارون والحكام الغربيون النصارى يلقنونها الشرق تلقينا طيلة سلسلة من الاجيال .

«وان الفرد ليخال عند الوهلة الاولى أن متى ما أخذت هذه الشعوب والامم الحافظة لتعاليم أوروبا عن ظهر القلب ، تسير في سبيل الاصلاح والترقى مع الشدائد الصعاب تسارعت الحكومات الاوروبية للاخذ بنصرتها وشد أزرها والارتياح الى نهضتها ، أو على الاقل تركها وشأنها تغالب ما تغالب وتجاهد ما تجاهد في سبيل تشييد بنائها بأيديها ، غير أنه ما كان أبعد هذا عن الواقع ، إذ أنشأت الدول الغربية الواحدة تلو الاخرى تنقض عند ما

(١) اقرأ ماحررناه في الرد على مقالة « مجلة باريز » فى عرض الاستشهاد من كلام ذلك الوزير اليابانى

لعثمان نظامى باشا مما يؤول الى كون الغرب لايعرف سوى القوة (ش)

تلوح لها سانحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتتناش بلاداً ثم تجعلها حانية عنقها الى نير الاستعمار .»

وقد أسلفنا كلاماً في موضعه يننا فيه كيف كانت تتوالى حملات الاستعمار على العالم الاسلامي آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكيف محت دول الحلفاء الظافرة استقلال ما كان لم يزل باقيا من الممالك الاسلامية عند ختام الحرب العامة ، وكيف أشعلت أوروبا بذلك نار غضب المسلمين فباتت قلوبهم مكتوأة تحتدم غيظاً وحنقا وبأساً من الغرب ومقتاله . وقد تقدم الكلام مسهباً في الفصل السابق على نشوء الجامعة الاسلامية وعملها وتأثيرها في نفوس المسلمين . وفي الفصول التالية سنسبسط الكلام على نشوء العصبية الجنسية الشرقية غير أنه يجب ألا يتبادر الى الذهن أن هذه الحركات السياسية الدينية انما هي جميع الصورة التي تتجلى فيها روح عدااء الشرق للغرب : إذ أن هناك غير ما ذكرنا تطورات اقتصادية واجتماعية ، ونشوء حركات قومية ذات تأثير عميق . وليبيان طبائع عدااء الشرق للغرب هذا العدااء المسوق اليه الأول بعامل رد التأثير نأتى للكلام على هذا موجزاً فنقول :

ظلت روح العدااء للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت . ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام فابرح الكره للغرب شائعا عمياً ، بيد أنه - على توالى الأيام - صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان . وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول . وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساساً للقيام بما أنشأوه من الاصلاح الاسلامي باعتبار جهته الدينية والمدنية فقد جهد ساسة تركية الاحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الاخير من القرن الماضي جهداً كبيراً للقيام بالاصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الاقطار الاسلامية الاخرى في سبيل الغاية عينها . وخير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، والى القارئ الكريم لباب الخبر : ان هذا القائد المقدم ، الجركسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويتمكن عنده تمكناً كبيراً ، فاستوزره وسلم اليه مقاليد الأمور . وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا

بسياحة الى أوروبا فطاف في ممالكها وشاهد صور عمرانها وحضارتها، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه ، وإذ اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل الى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعيناً بها لانهاض البلاد. واسعادها ، واعتقد ان هذا العمل سهل القيام به قيما يتلوه تجدد تونس في عهد قريب . ولم يكن خير الدين بغياً للغرب ، غير انه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدققين من الغرب اذا اتوانت الممالك الاسلامية في الاصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغي شديد الابتغا ، وملاء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد ، أن يسوق أهل بلاده وبنى قومه في طريق التجدد. والعلو والارتقاء ليلبغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها وتقوم بالذيادة عن حياض حريتها واستقلالها .

واقنع الباي كل الاقتناع بأراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوض اليه تنظيم شؤون البلاد وأطلق يده لاتعلوها يد في القيام بضروب الاصلاح فظل خير الدين حقة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل مذلا جميع مالمقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين، غير أن منيته عاجلته باكراً فانتقل الى جوار ربه تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسة فبسطت سيطرتها على تونس . وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها انه ألف كتاباً قيماً موسوماً بـ «أقرب المسالك في معرفة أحوال الامم والممالك»^(١) استنهض فيه هم أبناء بلاده

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين المسلمين في القرن الماضي . وكتابه أقوم المسالك هو من خيرة ما ألف لكسر قيود الجلود الضار القاتل وحطم سلاسل التقليد الاعمي المنهى عنه في الشرع وايقاظ المسلمين الى انهم ان لم يبادروا الى التسليح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل فجاءت دعوة خير الدين متأخرة اذا كان تكالب أوروبا شديداً وضربها وحياً وسبات الاسلام لايزال عميقاً فم جميع ماتكهن به خير الدين . ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين الى الاستانة وولاه السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى منتدبا اياه لاصلاح المملكة الا انه لم يعمل برأيه فاتمى الأمر باقله وبقى في الاستانة الى أن توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلفه طاهر بك وهو من الأدباء الافاضل وصالح باشا الدمداد الذي شنقه الاتحاديون بتهمة الكون بمؤامرة قتل المرحوم محمود شوكت باشا وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم لكونه زوج ابنة أخيه. أى صهر الاسرة المالكة فلم تثمر شفاعته ولخير الدين باشا أيضاً ولد سمه محمد بك وهو وأخوه طاهر الآن بتونس . (ش)

واستفزههم الى التجدد والترقي وحذرهم من سوء عقبي التواني . فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الأحرار ورجال الاحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة وافريقية الشمالية خاصة حيث كاد الكتاب يقدر عند أهل تونس والجزائر اذ كان باعثاً قويا على استيقاظ العصبية الجنسية . ففيه استصرخ خير الدين بنبي، قومه لتعظيم الاغلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي افتخاراً بالغاً حد القعود بهم عن استئناف طلب العلي طريفاً ، ودعاهم للوقوف على مافي العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران . ومما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوربة وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفواً بلا نصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم واكتناه أسرارها اكتناهاً توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الأرض واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا انما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في افاق الممالك الغربية لثالث لهما : العبد والحرية . وقد كان العالم الاسلامي في الأجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان في بحبوحة من الحرية ، سالك سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجنات ؛ وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل — روح الحرية والعمل والارتقاء . اننا قد آثرنا ايراد ذكر خير الدين باشا التونسي على ذكر غيره من أحرار الترك وسائر المسلمين مثالا لكلامنا لأن في هذا المثال تتجلى الصفة العامة التي كان عليها سائر أحرار المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر للاخذ عن الغرب ، وقد كانوا حتى عهدئذ بعداء من البغض له . غير انه على توالي الأيام انقلب كثير من الأحرار اعداء أشد للغرب لأسباب عديدة أهمها توالي الاعتداء الاوربي السياسي ، فباتوا بسبب ذلك يكرهون ويمتقون روح الحضارة الغربية بأسرها .

وقد اشتدت روح العداة للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالى . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة ^(١) في هذا الصدد : « ان هذه الدواهي التي دهتنا والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة . قد جدت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتواثق الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا مقتنا وكرهاً وعداء للبغاة المعتدين علينا »

وللدلالة على مبلغ الكشاحة والعداوة اللتين اتقدت نارهما فى قلوب المسلمين نور
كلمة قالها أحد كبار كتاب الترك بعيد ان وضعت الحرب البلقانية أوزارها : « أجل ! اننا
قد بؤنا بالكسرة والحيف ، بعد ان هب العالم بأسره بحالنا ويقاتلنا ، والسبب فى ذلك
انما هو لاننا قد صرنا الف التأتى فى آرائنا نبتغى تهذيب عقائدنا متقربين من الحق معرضين
عن الباطل فى سبيل الحضارة والانسانية . ان الجيش البلغارى قد علمنا درساً لانساء ،
وهو انه يجب على كل جندى فى ساحة الحرب أن يقاىل مقاتلة البربرية والوحشية ،
ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذيحاً ، ويسلب وينهب
السكان الآمنين ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم ، وعلى ذلك فلنبج هراقة
الدماء والبغى ، ثم نصرخ من بعد ذلك : الوحشية الوحشية ! كما فعل جيش الملك فرديناند .
لسرعان مايلتفت العالم المتمدن اليانا ^(١) ويرعى من كرامتنا ويعلى من مقامنا ويحبنا حباً
جاً ^(٢) !! »

ولما نشبت الحرب العامة هلى كثير من المسلمين وكبروا فرحاً وابتهاجاً بأن الدول
الغربية قد أدركت اليوم الذى فيه انبرت تفتى بعضها بعضاً ، وتلقى جزاء عجبها وغطرتها ،
وتجبرها وبغيا ، وقد وصفت صحيفة من كبرى الصحف التركية الدول الاوربية فقالت :
« ان الدول الأوربية لا يحاولها أن تتفقد معايبها وشروطها ومفاسدها فتصلحها . ولكنها
غير عالينا حتى التناهى ، فلا قلب يطيب لها الا بمعالجة شؤنا ولا عين تفرلها الا بالقيام
على طرق اصلاحنا ، فلذا نجدها على الدوام تتدخل فى كل حال من أحوالنا وأمر من
أمورنا ، بل لاتى تأمرنا وتنهانا ، وفى كل يوم تنشب مخالبتها فى حق من حقوقنا وشطر
من مملكتنا وتغرس مباحها فى لحوم أجسامنا الحية وتقتطع منها ماشاءت كيف شاءت ،

(١) أرسلت احدى الجمعيات الاميريكية بعثة الى البلقان للفحص عما روى من الفظائع التى ارتكبها البلغار
واليونانيون والصرب بالمسلمين سنة ١٩١٢ فثبت لديها كل ما قيل بل زيادة على ماشاع وحررت خلاصة
الفحص وقررت ان الترك كانوا ارحم جداً وأرأف وأشرف فى حربهم من الأمم البلقانية المسيحية . لكن
الصحف الاوربية لم تنشر هذا التحقيق ولا اشارت اليه وكان اكثر الأوربيين ينظرون الى ما حل بمسلى
الروملى بنظر شامة ونادر منهم من قبج تلك الفظائع أو احتج عليها . (ش)

(٢) احمد امين كتابه « ارتقاء تركية الجديدة مقيساً بارتقاء صحافتها » نيو يورك ١٩١٤

The Development of modern Turkey as measured by its press .

ونحن حيال ذلك نكظم غيظنا ونحبس على ما في نفوسنا من روح الثوران والحيثان ونثني بعض سواعدنا على بعض وندمدم والنار تكوى جوانحنا : عسى الله يسلط بعض هذه الدول على بعض شر التسليط ! فتتذبح وتتناجز ! وها انظروا - هاهي الدول الغربية النصرانية تنهش بعضها بعضاً كما ابتغى التركي^(١) .

وليس الساسة ورجال الصحف هم وحدهم المتضرمة صدورهم عداء للغرب ولسيطرته السياسية ، بل ان هذا العداء عميم في كل أمة اسلامية على اختلاف الطبقات من الأمراء حتى السوقة . وكل طبقة على أسباب في هذا ، أما الأمراء والحكام الوطنيون فانهم وان استبقوا على عروشهم ومناصبهم ، وأعليت مظاهر كرامتهم ومنزلتهم ، وحفظت مرتباتهم ومخصصاتهم فانهم مع ذلك كله لم ينفكوا يحنون الى سابق عهدهم وسالف حالهم ، ويندبون خسارة خسروها هي ذهاب ما كان في أيديهم من أزمة الرق والبعودية والاستبداد . قال أحد « راجوات » الهند آسفا منفعلاً بألم الذكرى : « أتعلم يا صاح ! اني لقد فقدت جميع ما كان في يدي من السلطة ، فبت اذا شئت اليوم ابتياع قلم لدواتي أو نصل لرحي وجب على ان أستاذن المندوب المقيم عندنا في هذا الأمر » . وحقاً ما أشبه هذه الكلمة بأخرى قالها ذات يوم الخديوى توفيق باشا الى أحد وزرائه في أوائل عهد الاحتلال ، وكان يشهد استعراض الجنود البريطانية : « أتخسبني أني مرتاح الى هذا المشهد ؟ اني والله ما رأيت قط خفيراً بريطانياً في سوق من أسواق هذه المدينة الا حدثتني نفسى بالوثوب من مركبتي خارجا والانقضاء عليه فلا أنفك عنه حتى أخنقه بكلتا يدي بخنقا »

وأما أهل الطبقة العليا فهم على مذهب أمرائهم وملاوكهم ، ولا جرم فانهم يأسفون للعهد المنقضى وقد كانوا فيه أصحاب الكرامة والمناصب والخطط في الحكومة والدولة . وأما المتهدبون تهديباً غربياً وهم أهل الطبقة الراقية فانما يشاركون غيرهم في العداء للغرب ، لأنهم يعتقدون أنهم أنفسهم أرباب الحق الجدر بتولى مناصب الحكومة ، فلذلك يفتنون شر المقت ان يروا المناصب الادارية الكبرى يشغلها الغربيون الأجانب ويتقاضون عنها

(١) مجلة « ليتراى ديجمت The Literary Digest » ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٤ تقلا عن جريدة (طنين) التركية الصادرة في القسطنطينية . والحق يقال ان هذه الحال التي تمثلت فيها جميع صور المقت والكراهة للغرب عند شوب الحرب العامة لم تكن مقصورة على المسلمين فحسب ، بل شملت العالم وجميع الشعوب غير البيضاء .

فاحش المرتبات . وهناك عدد من الأحرار العارفين الذين يعتبرون قيمة التدريب المكتسب من السيطرة الأوربية حق الاعتبار ، ويتلقونها مع فقدان الاستقلال الى أجل ما ، على أمل انه متى مارسخت أصول الادارة والتدير فى الحكومة ، واستقامت مجاريها ، واتسق سننها اتساقاً يكفل معه رد الفعل والفضى ، انتهت هذه السيطرة وانقضى عهداها فلت محلها الحكومة المنتظمة المقتررة وسدت جميع فراغها . غير أن هؤلاء الاحرار هم الأقولون فلا يستطيعون امتلاك الكلمة النافذة فى المجموع ، وهم فوق جميع هذا مكروهون ومعيرون انهم عشاق الزلنى من الأجانب يبيع الشمم والاباء ، دائرون مع الأيام كيف دارت دون استقرار على حال ، ولذلك باتوا على شقة خلاف متسعة بينهم وبين الكافة والسواد الأعظم .

وربما يتبادر الى الأذهان عند أول وهلة ان الكافة من المسلمين ليرتاحون ويطمئنون الى السيطرة الغربية ، ولا سيما عند ما يقارنون بين عهد ماض وعهد حاضر ، بيد أن الواقع على خلاف هذا ، اذ أنه مع ما أتت به السيطرة من الفوائد الاقتصادية فنجا أهل الطبقة العاملة فى الأقاليم والمدن من استبداد الأمراء والطبقة العليا ، فأصبحوا من بعد ذلك فى بحبوحة من الدعة والأمن ، والنظام والعدل ، بحيث عادوا لا يخشون أحداً ينازعهم مافى أيديهم وثمرات تعبهم ، فانهم مع كل هذا ينفرون من الغربيين وينظرون اليهم شزراً على أنه ليس من العدل أن يقال ان المسلمين أجعين لا يقدرون قدر شئ من فوائد السيطرة فالواقع انهم يفعلون ذلك ولكنهم عند ما يراد اعتبار صلاتهم المعنوية بأرباب السيطرة فهم لا يعدون حد احترام الحكام الغربيين الذين بين ظهرانيم احتراماً قليلاً ، وهم عن حبههم حباً بعداء كل البعد ملاح صبح وذر شارق . زد على جميع هذا ، فان الأيام تذهب على التوالى بأهل الجيل الذين كانوا على نعم فى العهد الماضى ، ثم يخلف من بعدهم خلف يتناولون خيرات العصر على غير مانصب ، ثم يشكون من نقائص النظام الحالى ، ويعيرون الوطنيين الهائجين آذاناً صاغية ، ويتشاركون ويتوائمون جميعاً على طلب الاستقلال ، ويندبون عزاً غاب ومجداً فات .

وحقيقة الأمر ان الشرقى على العموم لم يزل يحن الى منهج حياته القديم ، وعلى كونه يعترف بحسنات العصر الحديث وفوائد مستحدثاته ، فانه ليتوجد للماضى ويحيى

ذكرياته ما استطاع . فالمثل المشهور عند المسلم من هذا القبيل هو : الحاكم المسلم ظالماً خيراً من الحاكم الأجنبي « الكافر » عادلاً . فعلى هذا لا بد لكل حكومة استعمارية ، ولو كانت منورة مهتما كانت ، من أن تصطدم اصطداماً عنيفاً بمقت المسلمين للحكم النصراني . قال أحد الحكام الروسيين في أواسط آسية ينسب الحكام الأور و يبين عامة الى أمر : ان المسلم الورع لا يطبق حكم الكافرين^(١)

زد على هذا ان الكثيرين من الشرقيين قد يعترفون بفائدة تذكر من الحكم الأور و بى ، واذا اعترفوا بذلك حسبوه أشبه بالغرم يفوق الغنم أضعافاً . على ان الأشياء التي كثيراً ما نفخر باعطائها للشرق - راحة ونظاماً وعدلاً وأمناً - لا يعتبر الشرق قيمتها حق الاعتبار ، وما يميزها المنزلة العليا من الشأن كما نخال نحن . ذلك ليس لأنه لا يبالي جد المبالاة بهذه الأمور ، بل لأنه يؤثر نيل الأقل منها على يد الحكام الوطنيين من أبناء قومه الذين يشاطرونه سراءه و ضراءه ، و بؤسه ونعيمه ، على الكثير منها بنيله على يد المتسلطين الأجانب . ولنعتبر شأن « العدل » وهو أساس الحكم : قال كاتب انكليزى بهذا الصدد : ان الاسيوى لا تطيب نفسه بالعدل من حيث ان العدل تطيب به النفوس ، فهو لا يعبأ بهذا كثيراً متى ما استطاع أن ينال عوض العدل عطف الحاكم عليه ، عطفاً مفهوماً عنده كالعدل غير المفهوم . . . هذا هو السبب الحقيقي في كون الاسيوى يؤثر كل الايثار حكم حاكمه الوطنى وان سيئاً على حكم الأجنبي وان بالغا حد الكمال . فانه متى ما كان في حكم أبناء وطنه شعر بكونه محكوماً من قبل حكام يحسنون تفهم شؤونه وأحواله عن كسب ، ويعتبرون بعين العطف الأسباب والدواعى التي حملته على ارتكاب الذنب والجناح وان أزلوا به أليم القصاص .

ولننظر في شأن النظام أيضاً ، ان الشرقي على العموم لا يعتبر ما في حياتنا هذه من السير المنظم المنسق ، بل هو ينفر من ذلك نفوراً . والسبب في ذلك انما العهد الذى ظل طيلته فيما مضى الفاحية التوانى والكسل والفتور ، تلك الحياة التي وان كان فيها الظلم

(١) لم يصادف الى الآن ان أمة غير مسلمة تولت أمور أمة مسلمة بالإحسان لنعلم كيف يكون شعور المسلمين بازائها ونظن انه لو وقعت أمة غير مسلمة الى ذلك لهان الأمر جداً وساد الوثام وتحابت هاتان الأمتان تحاباً تاماً فان العدل يغلب كل الموانع ولكن أين هذا العدل . . . (ش)

والجور فقد كان فيها العطف والشفقة . بسبب ذلك هو لم يبرح حتى اليوم يكره النظم المستحدثة كقوانين الصحة والأمن العام كرهاً غريزياً ، بل يريد أن يبقى على منهجه القديم العهد ، وان ناله من ورائه ماناله من الضرر ، ضرر يستطيع دفعه عنه بالرشوة والاستعطاف تارة والمكابرة والاستقصاء طوراً . قال أميركي مرة لأحد أهل الفيلبين في عرض حديث جرى بينهما في شأن الاستقلال :

– ماذا ترى تستطيع عمله مستقلاً مالا تستطيع عمله الآن تابعاً محكوماً ؟

فأجابه :- لو أردت أن أبني بيتي في وسط هذه الجادة لاستطعت ذلك مستسهلاً .

– وان هب جارك لمعارضتك في مرادك واستطاع أن يحول بينك وبينه ؟

– لأوقعتُ به

– وان أوقع بك ؟

فأجاب بهز منكبیه .

فسواد الشرقيين مابرحوا ، بالرغم مما يتدفق على الشرق من الغرب منذ أول القرن الماضى من الأفكار والآراء والمناهج والاساليب والمؤثرات والعوامل المختلفة ، يرتاحون الى البقاء على القديم البالى ، وانهم يعتقدون فوق هذا أن من أكبر مبتغيات الحكم الغربى حملهم على التغرب عادات ومجتمعاً ، وعلى تبديل الموروث من منازعهم وأساليب معاشهم ، الأمر الذى يحملهم على مقاومة التيار الغربى ما استطاعوا الى المقاومة سبيلاً . وكلما أتت الحكومات المستعمرة اليهم بشىء جديد وأمر مستحدث قاموا في وجهها يفسدون ذلك عليها بالعناد والمشاقة . من ذلك على سبيل المثال أمر التلقيح الاجبارى الذى ظل أهل الجزائر يقاومونه عدة سنوات ، وقد كانت الحكومة الفرنسية تبسط لهم منافع التلقيح وفوائده اتقاء من سريان وباء الجدري فيهم ، فكانوا يجيبونها انها انما تريد بتلك الحيلة المصطنعة تعقيمهم لاتلقيحهم ، بحيث يتناقض عددهم على التوالى ويكثر سواد المستعمرين الفرنسيين . فأخذت الحكومة تبين لهم فساد وهمهم مستدلة بارتفاع مستوى الموائيد الأهلية ارتفاعاً غير مسبوق المثل ، ومستعينة بأرقام الاحصاء ، فهزوا منا كبهم مستهزئين ،

وظلوا على المقاومة مثابرين (١)

وقد وصف الكاتب الفرنسي « لويس برتران » (٢) ، العالم الخبير بشؤون الأقطار الإسلامية ، مثل هذه الحالة بقوله : -

« ان جميع هذه الشعوب ، ولها من شعائرها الموروثة وعاداتها وفواعل البيئة كثير من المنفردات التي تحملها على استنكار فضائلنا الاجتماعية ، فلا تطيقن احتمال شيء من أعباء أنظمتنا وادارتنا ولا من أي نوع من أنواع الحكومة المنظمة ولو كانت عادلة وشريفة مهما كانت . وظاهر السبب في ذلك ان الشعوب هذه قد أتقنت خفاة من عهود المظالم والشقاء والفوضى فما برحت باعتبار صفاتها النفسانية على مستوى ليس أرفع من مستوى سوقة بلادنا ، وما زالت تنفر من النظام وتحاول ان تلوذ بالفرار من رجال الدرك والضابطة . فانه لضرب من العتب كلما حاولنا اقناع عرب افريقية الشمالية أن الفضل في انجائهم من عمال الترك المستبدين القاهرين انما هو عائد للحماية الفرنسية اذ باتوا في ظلها من بعد ذلك لا يخشون منهبة ولا مذبحه ولا نار نزاع تؤرث فيما بينهم ، أعرضوا عنا وأساءوا ظنهم فينا . والأمر الذي يحارون عند فهمه أكثر من سائر الأمور هو : دفع الضرائب في سبيل أمور وشؤون لا يعرفون لها من قيمة . وما كان أعظم السخط الذي اشتعلت ناره في المدن الجزائرية عند ما أصدرت دائرة الصحة قانونها الموجب القاء الكناسات في مواقيت مضروبة . وقد لاحظت شيئاً من حال على هذه الصفة في القاهرة عند ساقية الجير والعجلات السوقين بقوانين الشرطة البريطانية .

« على أنه ليست أنظمتنا البلدية والادارية هي جميع ما قبل لهذه الشعوب باحتماله ، بل ينطوي تحت ذلك جميع عاداتنا ، بل جميع النظام السائد في حياتنا المدنية . مثال هذا : يسير القطار بين يافا والقدس و يقف في مسيره عند محطة بالقرب منها قبر أحد الأولياء . والقطار لا يستطيع بحكم القانون ان يطيل موقفه عند هذه المحطة اكثر من دقيقة . فلما

(١) هذا شأن كل عامة جاهله ولا أظن الا أن عامة الافرنج لأول عهد حضارتهم قد قاوموا هذه التداير النافعة كما قاومها الجزائريون في هذا العصر . (ش)

(٢) كتاب : « السراب الشرقي » (باريس ١٩١٠) Louis Bertrand, „Le Mirage Oriental“

وصلنا اليها دهشنا اذ رأينا جميع الركاب المسلمين قد هبطوا من القطار فافتروشوا البسط فأخذوا فى السجود والركوع فأخذ مدير المحطة يناديهم بصفارته ، وتلاه مسير القطار يستصرخهم مشيراً اليهم انه سائر بدونهم ، فلم يبالوا بجميع ذلك أقل المبالاة ، فاضطر نفر من عملة القطار الى النزول مستشاطين غضباً وأرجعوا المصلين الورعين قسراً الى القطار . فدام الأمر ربع ساعة على عناء ومشقة (١) .

« هذا مثال شوهد اتفاقاً . فالغريب فى أمر هذه الشعوب انها لم تفقه معنى رقابة النظام ولا ألفت فى حياتها سيراً منظماً بعد » .

ان هذا الكلام انما لوصف السواد الجاهل ، ولكنه يدل على تلك الصورة العقلية النوعية التى ما برحت ترى فى سائر الطبقات من الشعوب الشرقية على تفاوت . لأن العادات التى عرفت قروناً عديدة لا يستطيع تبديلها سهلاً . ويجب ألا يغرب عن البال ، ان الطبقات العليا كانت مستطبعة ، فى الادوار السابقة قبل ان أخذ الشرق ينقلب ويتحول ، ان تستمتع حق الاستمتاع بالحرية الذاتية « أو الحرية الشخصية » المملوءة تخيلات ووساوس . فلذلك وان كان أهل هذه الطبقات اليوم اكثر من غيرهم استعداداً لاعتبار قيمة ما يجب أخذه عن الغرب ، فهم من حيث اضافة حاضرهم الى ماضيهم ، يحسبون انهم خامسون شيئاً كثيراً .

فالشركيون كافة على اختلاف الطبقات ، ما برحوا اذا ماجرت على ألسنتهم ذكريات الماضى السعيد ، أسفوا لفواته وتوجدوا على انقضائه ، وقالوا نعمته فانت وسعادة طويت . فكل من الامير والباشا والنديم يعد الحياة على نحو ما كان يستلذها فردوساً شرقياً . وفوق جميع هذا كان الامير على الدوام معرضاً ليهجور به بلاء سلطانه القاهر أو ملكه العاقى قتلاً أو ذبحاً ، وكان الباشا لا يعلم متى يصدر أمر مولاه بأن تنتزع روحه من بين جنبيه ، وكان النديم يلقي شر التعذيب عند ماتهب فى رأس سيده عاصفة الهوى . ومع كل هذا فقد كانت « الحياة الشرقية » حياة غبطة وحبيرة وكان كل فرد من هؤلاء متميز المرتبة عن سواه

(١) فى هذه الحكايات مبالغات واطلاقات لاصحة لها وانما يبتغون بها تبرير سياسة تسلطهم على الشرقيين . ولكن من الجهة الاخرى لها أصل كاف لأن ينفر منه ذوو الاسلام الصحيح الذى ينهى عن العبادة عند القبور لاسيما اذا كان القطار على وشك السير . (ش)

باخلاقه وصفاته وبماله من الذكر في ابناء بلاده ، فكان من على هذه المرتبة التي لاشبيه لها في أوربة باستطاعته أن ينتهك حرمة القانون ، فيركب رأسه في كل ماشتهى وابتغى أخيراً أم شراً ، ودأبه الملق والمداجنة والمداهنة الاسيوية ، والخنوع المقرون بالطاعة العمياء لعات كبير لا يرى لنفسه من سعادة غير سعادة التحكم بالرقاب واستئلال النفوس . وكان حول كل متسلط قاهر انيف من العشاء والجلساء يشاطرونه في نعمه وترفه ، ومستلذاته ومنغمساته . وكانت سلطة السيد على المسود والحاكم على المحكوم سلطة معلقا بها حبل الموت العاجل أو الحياة المفعمة قلقاً وجزعاً . وكان اقتناء الحظايا من أشيع ضروب مشتبهات الحياة ، وكان تقبيل الذبول وحنو الاعناق ، والتذلل وبذل ماء الوجوه مما لاحدله ولا قياس .

ولرب سائل يسأل كيف كانت حال الطبقة الدنيا ، الفقيرة المسكينة ، بين أيدي هؤلاء المستبدين الجائرين ؟ كان الفقير الضعيف في غالب أحواله على لاشيء ولكنه كان يستطيع أن ينال كل شيء ، إذ أن الحياة الماضية في الشرق كانت مائتة في به القرعة ويجود به البخت والطالع ، فكان كل فرد وان صعواكا يستطيع ان ساقه الجد والحظ لاسترضاء سيد غطريف ، أن يصيب نعمة بعيدة الضفوة وشهرة جوابة . وهذا في الواقع مما يتقبله الشرق تقبلاً ملائماً لطباع مزاجه . ولا جرم فالخط وسرعة قلبه ودوران دولابه في الشرق انما هو أمر مألوف شائع مرغوب فيه ، وله من الشأن ما ليس للشبات والاقدام الموقن فيه والطمائينه في الغرب (١) .

وأحب السير في الشرق تلك التي تقص فيها أحداث السعود والنحوس التي نجمت أو غابت على حين غرة ودارت دورتها في ليلة وضحاها ، كصعلوك استوزر أو وزير تصعلك . وما برحت الكثرة الغالبة في الشرقيين تعتبر أن الحياة انما هي تقلبات الأيام ، والزلفى من ذوى الجاه ، وسعود الحظوظ ونحوسها ، وليس المعول فيها على الاعتماد على النفس وحسن القيام بالأمور على أمانة وكفاية . هذه هي صور الحياة التي كان يعقبط بها الشرقيون من قبل ، غير أنه بعد انتشار التغرب بدأت الحياة الشرقية تنتقل من دور البخت والحظ الى دور العمل الذي لا يصح فيه الا الصحيح . قال أحد كتاب الانكليز عانيا

(١) مع الأسف تقول ان أكثر ما يصفه المؤلف هنا صحيح وهو السبب الأول في انحطاط الشرق عن

شان مصر الحديثة : « قد يمكن أن يكون حكمنا وافيًا بيد أن الشرقيين يستثقلونه ويتبرمون منه . كان الحكم القديم أشبه بثوب خلق بال من أى موضع جذبته تنأر قطعاً ، ولكن الشرقيين كانوا يحسبون نفوسهم أنهم به محتالون ، وكان متقلباً كرىشة فى مهب العاصفة ولكن كانت فيه قوى سحرية تأخذ بالالباب ، مرة قال مصرى لأحد حكام الانكليز : « نعم ! ولكن فى الدور الماضى كان المتسول يقف على باب أحد العطاء فان رأته سيدة ذات شأن ومال فهو يته ، جعلته فى اليوم التالى أميراً يجر مطارف النعم الكبرى والسعادة العظمى ، فلماضى — ماضى التملق والمداهنة — كانت تحل فيه المراعاة محل العدل ، وكانت الحياة كثيرة النحوس والسعود فى مصر ، بلاد يوسف وهرون الرشيد واسماعيل باشا » (١) .

واذ قد بات كثير من الشرقيين يخشون ضياع جميع ما فى أيديهم من العزيز العالى ، فليس من الغرابة فى شىء أن نرى المحافظين وهم كثير يندبون الماضى ويبيكون « عصرأ ذهبيا » ودوراً كان فيه من الخير أكثر من جميع ما أتاهم الغرب به ، وان تراهم وقد ارتبطت عروتهم بعروة فريق الأحرار ، فباتوا جميعاً ناقين على التغرب أشدّ النعمة ، فهبوا الى قتاله ومقاومته ومناهضته بسلاح الرجعية وأسباب رد التأثير . فكانت النتيجة استقواء روح العداء لكل شىء غربى ، وظهور هذه الروح احياناً مظاهر الغلو والتشدد البالغ الحد . قال « لويس برتران » الآنف الذكر : « حضرت يوماً مجلساً من مجالس أهل القاهرة فسمعت فيه خطيباً يقول فى الناس ان فرنسة هى مدينة للاسلام بثلاثة أمور ذات شأن : (١) بحضارتها وعلومها ، (٢) بنصف مواد معجمها ، (٣) بجميع ما هم عليه الفرنسيون من الفضائل الخلقية والعقلية ، اذ يحتمل أن يكون جميع المصلحين الذين جاهدوا فى سبيل الحرية منذ الأجيال الوسطى حتى عهد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ — مثل الالبيجيين والكلفينيين وسواهم — من نسل عرب الأندلس . وعلى ذلك فلم يبق سوى أن تلحق فرنسة بمراكش . وقد بات غلاة الوطنيين من أهل مصر مشغوفين بزيارة اسبانية للطواف فى حدائق قصور اشبيلية وقصر الجراء فى غرناطة والبكاء على عز الاسلام الدفين

(١) ه . سبندر : « انكلترة ومصر وتركية » تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦

ومجد العرب الفقيه في ربوع هاتيك البلاد .

أضف الى ذلك أن شأن الهندويين (الهندوس) في هذا الأمر كشأن المسلمين . فهم أيضاً يتفجعون حزناً على « عصرهم الذهبي » الفائت ، بل يفوقون جيرانهم مغالاةً واغراقاً في هذا . اذ يعتقدون الاعتقاد الراسخ كله ان هندستان انما هي منشأ جميع الأديان الصحيحة ، وموطن ضروب الفلسفة والتهذيب والحضارات والعلوم والاختراعات وغير ذلك ، ويحتمون القول بانه متى ما انقضى عصر الانكساف الحالى في الهند (هذا الانكساف الناشئ بطبيعة الأمر عن الحكم البريطاني) عادت الهند مشرقة الشمس وهاجة الضياء رافلةً بحلل المجد الزاهر ، مجاهدة في سبيل تنجية العالم بأسره ، وانه مامن شئ جديد تحت الشمس . أما السبب في هذا الغلو فهو أنهم على ما زعموا قد عثروا في الكتب الفيدية المقدسة وغيرها من كتب الهندو الدينية على بينة لا تدحض ولا تنقض ما آلاها أن حكماء الهند الأقدمين قد سبق لهم فأنبثوا بمستحدثات هذه العصور الجديدة . ومن ذلك ما هو حديث الانشاء كالطائرات التى تلتقي القنابل المفرقة من عل ، وكعصبة الأمم الممثلة لجميع شعوب الدنيا وأممها .

على ان جميع هذا التبجح بفخر زائل وعز منقوض ليس من شأنه أن يجدى أهل الشرق نفعاً وأن يعود عليهم بطائل . فالشرق مثل الغرب ، له فضائل وحسنات ، وشرور وسيئات ، غير أن هذه الأخيرة قد ظلت طيلة الالف سنة الأخيرة تمتد بأفقها فوق أفق الأولى حتى أمسى الشرق متعثراً متخبطاً في مهاوى الانحطاط . أما اليوم ، وقد تغلغلت فيه المؤثرات الغربية من كل صوب أبعد متغلغل فانتشى ريح الحياة ثانية . فأخذ يستيقظ وينهض . على أن نتيجة هذا لن تكون ان الشرق سيتغرب تغرباً تاماً مشتتلاً على التحدى الكلى والانقلاب المطلق العام . فليعلم العلم اليقين أن الشرق شرق ثم شرق ، متميز بما في أمزجة شعوبه من الطبائع والعناصر ما كرم الملوان وتعاقب الجديدان . غير انه لا بد لهذه الأمزجة من التطور تطوراً مؤلفاً لروح العصر والبيئة وذلك بالضرورة لما هو متسلط عليها من الطوارئ الغربية ذات الفواعل والعوامل والمؤثرات . فعلى ذلك اذا ما برح الرجعيون على حالهم من الرد والمقاومة للأفكار الغربية ، كانوا بعملهم هذا كأنهم يطيلون

عهد انحطاط الشرق ووهنه ، ويجذبون بأطراف الأمم الشرقية الى الورااء فيوقفونها عن السير والتقدم .

ليس أمر هذه الروح الرجعية بالغريب . فان عوامل التغرب ، أعنى عوامل التجدد التى فى عالم الفعل لاعالم القوة لتتغلغل فى بينات فيها الدائر والبالى مرغو بين فيهما واخلق والمتلاشى مستمسكا بهما ، فالرجعية لا بد منها فى دور مثل هذا الدور ، حتى ولو كانت السيطرة الغربية خيراً كل الخير وكان الغربيون المتسلطون ملائكة من نور . غير ان التغرب له سيئات تصاحبه لأن ذلك من طبيعة الانقلاب . أضف الى هذا أن الفساد قد تسرب وانتشر فى تلك البواعث التى كانت تحمل حملة الألوية للحضارة الغربية على خدمة الانسانية والأخذ بنصرة المستضعف . وهذا الأمر مما قوى ساعد الرجعيين فزادوا فى ادلاء الحجة الأدبية قائلين هذه معايبكم مكشوفة تكذبكم فيما تدعون . وفوق جميع هذا فان الانتقال من دور الى دور لا بد له من أن يجتاز محاضاً شديداً ، ولا سيما متى ما كان التطور اقتصادياً واجتماعياً . وقد يطرأ عليه من الأسباب والقواعد الخارجية ما ليس فى الحساب فيزيده ذلك ألماً وشدة . ان مجرد وجود الغربى فى الشرق متسلطاً بغاشم قوته وباهر تقدمه وعجيب آلاته وأدواته ، لداعية دائمة تنغص على الشرق عيشه ، وتغضبه وتثير منه ماثير ، فينقلب يريد لنفسه العزة ، وكيف يناها وهو كيف مادار دارت معه أغلال الذل وقبود الاستعباد . هذا هو الواقع . ولكن لعل وجود الغربى هكذا هو من شروط الضرورة فى تجدد الشرق كما أن ذلك مما لامنتدح عنه بسبب انحطاط الشرق وقلة ما هو عليه من القوة والحول . على ان السيطرة بجملتها لم تبرح علة النعمة والهياج والاضطراب ولو كان فيها من نفع وفائدة وخير مهما كان . واليك السبب : ان الأورو بين فى الشرق من شأنهم أن يشوبوا كل شىء ويغيروا صورته ، ويبدلوا العادات تبديلاً متدرجاً ، ويرقوا المعاش فيرتقى مستوى الحياة ، ويبنوا المنازل والمساكن فى النواحي المعتزلة عن سائر المدائن والحواضر وقيموا فيها متنعمين ولهم من قوانين الاستثناء والامتيازات والاعفاء ما يكسبهم الميزة العليا على أهل البلاد . ففى قلب القاهرة مدينة انكليزية ، وفى الجزائر المزخرقة بالنقوش المغربية الشرقية « باريس الصغرى » ، « وپيرا » الأوروية فى القسطنطينية تباهى القسم المعروف باسلامبول التركية . فلم لا يكون ذلك من أسباب التبرم فالغضب فالاضطراب ؟

وأما الهند فرصعة ترصيعا بالضواحي البريطانية ، وما الحواضر الكبرى مثل كلكتة وبومباي ومدرس سوى مدائن أوربية محتطة في بلاد هندية فيها جميع الأبنية الفخمة الغربية الطراز والاسلوب ، دون بعض الأبنية الحديثة التي أخذ يظهر فيها الأسلوب العربي الهندي . وأما الشوارع والجوادث فجميعها معروف باسماء انكليزية ، أسماء نواب الملك ومن سلف من الحكام والمتسلطين والقواد الذين شهدوا فتح البلاد^(١) ، والذين اشتركوا في اخراج الثورة - أبطال تقع العين على تمثيلهم المنصوبة في كل ساحة ومنعطف وثنية . والبيوت التجارية هي انكليزية وجميع من فيها من المدبرين من الانكليز والاوراسيويين (مزيج الأوربيين والاسيويين) يتجرون بالبضاعات الانكليزية والمركبات والسيارات الانكليزية تنساب رائحة جائية في أسواق المحل المعروف « بانكلترة القديمة » . وحيثما بحث المستقصى في سائر دوائر الحياة وجد مساعي الانكليز وافرة وجهودهم كبيرة لاحداث أسباب الانقلاب الاجتماعي على حسب ما يستصلحون لشؤونهم ويريدون لحياتهم وأما الهنود فكلمهم الا القليل يقيمون في النواحي القديمة القنرة ، كتلك المعروفة في مدرس « بالمدينة السوداء » . أضف الى هذا ان ليس هناك من الوسائل والأسباب مايسهل الاختلاط الاجتماعي بين الانكليزي الغريب والهندي الوطني ، سوى القليل الذي لا كبير شأن له كندية الرياضية البدنية حينما يتلاقى هذان كلاهما على مستوى واحد من المنزلة الاجتماعية . أما غير هذه الأسباب النزرة فيكاد يكون معدوما . وقليل من الغرباء من يلذ له التجوال في الأسواق الوطنية اللهم سوى المبشرين ورجال جيش الانقاذ والسياح الذين مرادهم رؤية كل غريب . وأما سواد الغربيين المقيمين في الهند فقد أمسوا لا يحفلون البتة برؤية تلك الأقوام الهندية السمراء .

وهذه الحال في الحواضر والمدن تشهد على صفتها هذه في جميع الأقاليم وسائر المقاطعات بنطاق أضيق ولكن مع قيام الميزة واعتبار الفرق . فعلى ذلك ، الاوربي في أي قطر من أقطار الشرق إنما هو غريب أجنبي دخيل ، حياته مختلفة عن حياة أهل البلاد وفي الامر موضع للنكايه وهو أن هذا الاوربي المختلف بأسلوب حياته وطراز معيشته ،

(١) كما سموا شوارع بيروت باسم المارشال فلان والجنرال فلان ممن غاب على البلاد العربية وابتزها

(ش)

استقلالها ؛ وهذا منتهى الحفارة لاهل البلاد

المنفرد بمنزله ومجتمعه ، غريب دخيل وحاكم متسلط معاً ، وظاهر أبداً مظهر السيد المطاع والامر الناهي . ومن تدبر الأمر وجد ان ذلك ناشئ عن طبيعة الحال ولا مرد له . ومن المعلوم ان هناك كثيراً من الأور وبيين الذين يعدون من فسدة الأخلاق وأردياء الطباع والسجايا ، ولكن أمر هؤلاء لا يحمل على الرجوع عن تقرير السبب الحقيقي وهو : أن الأور وبني قد استطاع ، وان كانت الليالي حبالى يحملن من الأجنة ما يحملن ، أن ينشئ سيطرته وسلطانه في الشرق لهبوط هذا عن مستوى الغرب وقصوره عنه قصوراً كبيراً ، وما دامت هذه حال الشرق فالأور وبني في ربوعه لا يبرح الحاكم فيه المتسلط عليه . ولكن يجب على هذا المتسلط الغريب أن يحكم حكماً عادلاً ويقيم وزناً سياسياً حقاً لارتفاع مستوى الشرق في التقدم والعمران والارتقاء ، وأن يدأب في نفث القوة فيه وشد أزره حتى تكتمل قوة شعوبه وأمه ، الى حد تسمى عنده جديراً باطلاق حبلها على غاربها والقيام على شؤون حكم نفسها بنفسها فالغربي ما دام في الشرق فهو فيه الحاكم السياسي المسيطر والافليس له سوى أحد الامرين اما الحكم حكماً صالحاً هذه صفته واما زم الحقائق والرحيل . زد على هذا يجب على الغربي ما دام في الاقطار الشرقية أن يحكم بحسب حكمته الخاصة ومداركة الصحيحة ونيته الصالحة ، راعياً لشعوب أهل البلاد الشعور القومي المزداد ، معتبراً للعاطفة الجنسية ومنزلها المنزلة اللائقة . فكلمة اللورد كرومر التي قالها في هذا الصدد وتجاوبت أصدائها في جميع آفاق الحكومات الاستعمارية لن تنسى وهي : « في حال حكم الشعوب الشرقية يجب في المقام الاول إتباع ما هو خير وصالح لهذه الشعوب ، ولكن ليس من الضرورة على الدوام اتباع ما تخاله هي لنفسها خيراً ومصلاً » .

أجل ، لم يكن بدّ مما كان وهذه الحقيقة لا تحتاج الى زيادة ايضاح . ومع هذا فان كثيراً من متهذبة الشرقيين لا يعدون السيطرة الغربية سوى دواء مر المذاق تعافه النفس وتنقبض منه شديداً ، بينما كثير سواهم لا يحسبون السيطرة سوى أداة للذلال والهوان والاصغار ، والحكم القاهر الذي لا يطيقون النزول عليه . وليعتبر في هذا المقام ان بعض ما هو عليه الغربي من الفضائل انما هو من جملة الأسباب التي تحمل سواد الشرقيين على استئثار وطأته والنفور منه . قال مرديث طونسند^(١) : « ان مثل الغربي في آسية مثل

رجل شأنه أبداً أن يدعو جاره ليعمل على أثر تناول الطعام ، وليكون شديد اليقظة عند اشتداد الوسنة ، وليقوم على شؤون واجبة ميقات الطرب ونهب اللذات - هذا هو الغربي في آسية وهو مع ذلك الحاكم المتسلط .

أضف الى ما تقدم من الاسباب التي من أجلها يلقى الغربي في الشرق كرها ومقتا ، سبباً آخر هو من الخطورة بمكان : ان هذا المسيطر الغريب الدخيل الحال بين ظهراني القوم هو المتسلط القاهر من حيث كونه غريباً عنهم جنساً ودماً وعرقاً . ان هذه القضية الجنسية شأنها كبيراً لا يستهان به ، وهي على خطورتها التي لا ريب فيها مستعجمة المذاهب الى حد بعيد . اذ أن غالب شعوب الشرق الأدنى والاطلس التي نعني بشأنها في هذا البحث هي على الجلالة من الصنف المعروف « بالصف الاسمر » من أصناف البشر . ولكن هذا ليس بالصحيح كل الصحة عند من يريد التعمق والاستقصاء في علم الاجناس البشرية ، لانه لا يسعنا باعتبار حقائق هذا العلم أن نعد جميع العروق التي يتألف منها النوع الاسمر عروقا سمراء من حيث الأرومة والاصل ، متميزة بفوارقها وخواصها ، ونطلق عليها اسم « الجبل الاسمر » ، كما يسعنا أن نفعل ذلك في قضية العروق التي يتألف منها « الجبل الأبيض » أو تلك التي يتألف منها « الجبل الأصفر أو المغولي » في الشرق الاقصى ، والسبب في ذلك أن أقطار الشرقين الأدنى والاطلس لم تبرح على كروور الازمنة المضطرب الكبير الذي أخذت تختلط فيه عروق الاجيال المختلفة اختلاطاً متواليًا شديداً ، لان كثرة الفتوح والهجرات كانت على الدوام سببا في تدفق العناصر الجديدة الغربية على هذه الأقطار والامصار ، فكثرت تباينات الاصول واختلطت عروق الانساب ، وتعددت طبائع الامزجة المكتسب بعضها عن بعض ، فعلى ذلك غدت شعوب الشرقين الأدنى والاطلس اليوم متشابهة الالوان . فمنها ما غالب لونه اسود كاهنود الجنوبيين وعرب اليمن ، ومنها ما غالب لونه أصفر كشعوب بلاد جلايا وأواسط آسية الذين يجرى في عروقهم كثير من دم الشعوب الصفراء في الشرق الاقصى ، وقد كان من شأن هذا الاختلاط المتباين انه نفى نشوء مثال جامع لتنام الحقيقة والاصواف التي ينبغي أن تشاهد في عروق « الجبل الاسمر » الضاربة في الشرقين الأدنى والاطلس ، كما يشاهد مثل ذلك في عروق الشعوب البيضاء والصفراء ، ولما كان المثال على هذه الصفة معدوما في هذه العروق ، ومثله كائنا في الجيلين الآخرين ، فلم

ينشأ بطبيعة الحال مثال من الحضارة ونموذج من التهذيب جامعين للعناصر والفوارق التي تتميز بها العروق السمراء عن سواها . على أن هناك نزعة عصبية قد قامت مقام ذلك . المثال العنصرى المدوم ، نزعة دينية رابطة لجميع الشعوب السمراء بعضها مع بعض إنما هي الاسلام وجامعته المتماسكة وعروته الوثقى . ولكن الاسلام في الهند وهي أكبر مضطرب للشعوب السمراء لا يدين به هناك أكثر من خمس السكان . ولما كانت حدود العالم الاسلامي قد ما شت في الغالب الحدود الانثولوجية لعالم الشعوب السمراء ، فقد أخذت من بعد ذلك أمواج بحر الاسلام تمتد الى جهات غير تلك فطما الاسلام على بعض الشعوب البيضاء الصرفة في شرقي أوروبا وكثير من الشعوب الصفراء البحتة في الشرق الاقصى ، وأقوام لا عد لها من زنوج افريقية

بيد أن قواننا على الاصطلاح « الجيل الاسمر » أو « العالم الاسمر » لا يبرح دالا على حقائق ثابتة من حيث أصلية هذه الشعوب ومنحدرها ، حقائق يعترف بها العلم وتقر بها السياسة على ما هناك من تكاثر الامتزاج والاختلاط . إذ أنه لمن المقرر أن هناك صلة امتزاج متبادلة فيما بين هذه الشعوب السمراء ، صلة ترد الى أصلها الأول ومنشأها الأقدم ، وهي وان كانت مستعجمة الصفات لبعده متغلغلها ومستسرة الآثار لتنكر مسالكها ، فكأنه حية متى ما تهيأت لها الأسباب بدت بارزة عن ظل الاشكال وظهرت أذنة بالجلاء . وأوضح مظاهر هذه الصلة في جميع شعوب الشرقين الأدنى والاوسط إنما هو انسياق جميع الشعوب بفعل الطبع والغريزة الى الاعتقاد في نفسها والتبادل فيما بينها انها مؤلفة من سلسلة من الشعوب الاسيوية متصلة الحلقات متوائمة الأجزاء . ولو كان هناك ما كان من التعادى بين قبيل منها وآخر . وما برح هذا الشعور الاسيوى الذى بات من العوامل المستقرة فى عناصر الامزجة يراقبه المؤرخون ويشيرون اليه منذ أكثر من عشرين مئة من السنين ، وهو ما انفك حتى اليوم كما كان فى أمس صحيحاً ثابتاً ، حياً نامياً .

فهذه الاختلافات الكبرى فى عروق الأجيال البشرية إنما هي الاختلافات التى هى أعرق قدما وأبعد أساسا ومنشئا ، وأبقى عهداً وتاريخاً ، وأشق استئصالاً اذا أريد استئصالها وأشد مقاومة لكل طارئ عليها ، فى جميع هذا الوجود الانسانى والعمران .

الاجتماعي . وليس أمرها مقصوراً على اختلاف ألوان البشرة فحسب ، فان السحنة وطول القامة وتكوين الشعر وغير ذلك انما هي اختلافات ظاهرة مرئية وليست عند الاعتبار حق الاعتبار الارموزياً الى الاختلافات العقلية والذهنية والنفسانية الباطنة ، الدالة على اختلاف في الطبائع والأمزجة والمدارك والآراء ، ذلك الاختلاف الذي غدا بسببه كل جيل مكتسباً من الفوارق والخواص ما يميز به عن سواه تميزاً ترى معه شقة البون والفرق نغصية بين هذا وذاك .

إذاً فالفوارق التي تفرق بين الشرق والغرب انما هي فوارق عرقية جيلية عنصرية دموية . وعلى الجلة فان الشرقيين الأدنى والأوسط اللذين يتألف منهما « العالم الأسمر » هما يختلفان اختلافاً هذه صفته عن « العالم الأبيض » مامن سبيل البتة لازالته ومحوه . أما محاولة القضاء على هذا الاختلاف بوسائل الاختلاط الدموي والاتحام النسبي كما يتوهم بعضهم فهو ضرب من الجنون والمستحيل الذي لا يدرك . ان الشرق والغرب ليستطيعان تقارض المعاونة والأخذ بنصرة بعضهما بعضاً وأمر ذلك متيسر بالمفاهمة وحسن الوقوف على الآراء والمقاصد والغايات . الشرق والغرب كلاهما قد خدم بنى الانسان والحضارة فيما مضى من الدهر خدمة جلية باقية ، وكلاهما مستطيع بعد خدمة أوفى وأجل في المستقبل . غير ان ذلك ليس بالمستطاع الا إذا روعيت الشريعة الكبرى وهي أن يظل الشرق شرقاً والغرب غرباً ، عنصراً ومزاجاً . فان الاختلاط الاثنولوجي النسبي مفسدة لفسانية كل منهما فيتأثر ذلك فساد دموي هائل لا بد من أن يعقبه انحطاط فسقوط .

ان الشرق والغرب كلاهما يعلم هذا الأمر حق العلم بسائق الطبع والغريزة والدليل المؤيد لهذا هو هذا الاستهجان الذي يظهره كل منهما لما هو مشاهد بعض المشاهدة اليوم من اختلاط الجيلين الشرقي والغربي الاختلاط الدموي المعروف نسله بالنسل « الاوراسيوى » قال مرديث طونسند : « ان شقة الاختلاف بين الانسانين الأسمر والأبيض لتفوق القياس والحد ، وقد كانت طيلة جميع ما كر من العصور فارقاً عظيماً وما برحت هكذا حتى اليوم . فالرجل الأبيض لا يتزوج المرأة السمراء والأسمر لا يتزوج البيضاء مالم يكره على ذلك كرها لا قبل له بدفعه » .

وما تقدم من موجز الكلام على الاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والجيلية بين الشرق والغرب كاف لتمثيل الفوارق المتباينة الناشئة عنها التباين في العلاقات بين العالمين ، والتي من شأنها أن تعمل عملها حائلة دون الاقتباس من الغرب ، الاقتباس الذي ما انفك سائراً سيره . واتنا سنين في الفصول التالية مجال هذا الاقتباس ومبلغ ما وصل اليه حتى اليوم . غير ان عوامل الاختلافات المذكورة تدل عند تدبر ماهيتها حق التدبر على امكان حصول الرجعية ورد الفعل شديدين بحيث يستطيع بهما الوقوف على مبلغ ما يؤخذ عن الغرب ويقتبس منه بعض الوقوف .

بقيت الحقيقة الثابتة يجب أن تقال : ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق ، وان طال أمدها ما طال وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت ، هي قائمة على أساس متداعي الأركان متضعع الجوانب سريع التقوض والتزلزل . وما دام المتسلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجنب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئاً من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئاً من الود والمحبة والاخلاص ، ولا غرابه في الأمر ما ظلت منزلتهم أبداً منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المكروه . زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يتناقضان ويتقلصان ظلاً ويخفان وطأة ، بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء . ولا يغربن عن البال ان الذي كان عند أهل جيل سالف داعية للرضى والارتياح ، قد غدا عند أهل الجيل التالي ، سبباً لتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال الى ما هو خير منه وأفضل . هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقيين قد شرعت تهيم ، واخذت أوصالها تتفكك ، وبنائها يتداعي ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزداداً ، وفسادها يظهر ، جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية . فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشاركة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد مالا يستطيع وصفه ولا يعلم حده . وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولا قوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعاً مشؤوماً . غير انه لما دمرت دولة أسبوية دولة أوروبا من الطراز الأول ، وخضدت شوكتها ودقت عنقها دقاً ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب

المشارك ورقعة من رقاعها ، فادت آسية وأفريقية من اقصاهما طرباً ، وجرت في عروقها نشوة الظفر وحيا النصر ، وعدوا الانتصار الياباني العجيبة العظمى والآية الكبرى (١) ، وصف مبشر اسكتلندي ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وابتهاجاً ، وترنحت ترنج- الثمل الجذلان ، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والخواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلاً ، طوافين الليل كله حول المعابد والهاكل . وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك الغضون : لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية . وأخبرني فنصل عثمانى أقام طويلاً في آسية الغربية- ان الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم وجعلوا لاهتمون بأمر سوى ارتقاب الانباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها . أجل ! ماتت آسية من أقصاها الى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظاً فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق تواقفة لمغامرة الأهوال في سبيل بقائها ، وهبت آسية هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكراً جديداً ونبأً حديثاً » .

ومما لا يحتاج الى برهان ان الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها الى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه انما كانت وسيلة عارضة لاعلة في تنبه آسية وافريقية تنبه الاعتزاز ، فراحنا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الواثق بنفسه ، الساعى في مطلب أمر لا يلوى على شىء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفقت الافكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمنحاً لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة الى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابراً انكارها على

(١) للاطلاع على ما كان للحرب الروسية اليابانية من شديد التأثير العجيب في نفوس الشرقيين على العموم والمسلمين على الخصوص اقرأ : -

F . Farjanel , " Le Japon et L' Islam " ١٩٠٦ تشرين الثاني
(Revue du Monde Musulman)
A , Vambéry , ١٩٠٥ نيسان « اليابان والعالم الاسلامي »
" Japan and the Mohammedan World " (Nineteenth Century and After)

اختار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة فى الشرق - هى حركات التجدد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف الى ماتقدم ان هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيراً عميقاً فى قضية الشرق وتطورها ازاء سلسلة جلات الاعتداء الاوروبى التى استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافاً شديداً . ومن الغريب العجيب انه بعيد ان ظفر الشرق الأقصى فى ردة عادية الاعتداء الاوربى عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت جلات الاعتداء الاوربى تتوالى على الشرقين الادنى والوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شرمزق . وقد وصفنا فى ماتقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التى زارها العالم الاسلامى متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الادبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الاوربية الحديثة تنقلب غاية فى الجشع والنهم . فلذلك جدير بنا الآن ان نعلم علماً صحيحاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير فى هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة فى جميع الاقطار الشرقية . من المعلوم ان الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعمارى بن سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ ، انما كان فى دور عصب . قال ارمينيوس فامبارى بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سديداً : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب فى العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثيقة ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة احكاماً بين الامم والشعوب الاسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك فى قرارات صدور المشاركة أيماتوغل . أمن العدل والحصافة فى شىء يأتى أن نرى نار العداة تزداد تأريثاً وابقاداً بسبب هذه الجلات العدوانية المحضة التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وان نستعجل العالمين الشرقى والغربى للاشتباك فى نضال هائل ومعمعان رائع ، وان ننفث سماً زعافاً فى برعم الحضارة الاسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذى أخذ يتفتح عن اكمامه فى اقطار المشرق كافة ؟ »

ومما لامشاحة فيه ان الحرب الكونية العظمى قد أفضت بالحالة الى المأزق الحرج والساعة العصبية ، اذا التفت الشرق سنة ١٩١٤ فرأى الامم الاوربية التى كانت مابرحت حافظة لشىء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية ، قد انزرت تتناحر فى سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلاً لها قسوة وفضاعة ، وتتناجز مدفة بعضها بعضاً نحو

الجزرة الهائلة والنيران الجهنمية . ورأى وحدة الجبل الابيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية والنقائص الادبية فزعزعتها وهدمتها تهديماً ، فوقفت كل أمة من الاخرى وبينهما غور سحيق وهوة بعيدة . ولم يكن لدى الامم الشرقية من سبب للتأسى والصبر على بلوى الجائحة الكبرى سوى ذلك البيان الحر الذي نقش ساسة الحلفاء حروفه في أعلام دولهم ورايات جيوشهم . ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الاسرار تنفضح ، فذاع للملأء كافة انه في الحين الذي كان فيه اقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون الى انحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التي في سبيلها آثرت دولهم الانغماس في الحرب الزبون ، غاية تحرير الشعوب المستعبدة واطلاق الامر للأمم المستضعفة في اختيار حكمها وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الاقطاب والساسة في الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلةً من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الادنى ، مدفوعين الى ذلك بروح الجشع الكبي ، تلك الروح الاستعمارية التي لم يسبق لها من مثل في تاريخ الانسان ^(١) . ولما حان انعقاد مؤتمر الصالح الذي ولى الحرب ، أتى بطائفة تلك المعاهدات ، لا بالخطب الحرة التي أذاعها الاقطاب والساسة ، وجعلت أساساً بنيت عليه التسوية الشرقية ، وموآدها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الادنى والاوسط اخضاعاً تاماً ، واقتيادها بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظعها .

فاشتعل الشرق حنقا وغلت مراجل غضبه غلياناً هائلاً ، وطفق يهتاج اهتياجاً جاوز فيه في وقت قليل حدود الشكوى الاسمية الكلامية التي كانت من شأنه قبل الحرب ، الى المقاومة العملية الفعلية ، وشق عصا الطاعة على المستعمرين ، وعمد الى الوقوف في وجههم موقفاً ما سمع بمثله من قبل . وما هي الا فترة حتى انقلب ثوران الشرق قتالاً وجداله جليلاً قد أكرها الدول الأوروبية على التقليل من غلاؤها ومطامعها الاشعبية ، وبما لا ريب فيه أنها ستكره من جراء هذا القتال أيضاً للإقلاع عن سائر مطامعها عما قريب . وانا سنفصل الكلام على هذا الثوران المتأجج النار اليوم في الشرق في ما يتلو من

(١) من جملة هذه المعاهدات اتفاق فرنسا وانكلترا سرا على اقتسام سورية وفلسطين بينما انكلترا

تعاهد صاحب الحجاز على استقلالهما من جملة البلاد العربية (ش)

الفصول ، مجتزين بصفوة القول فى هذا المقام أن الحرب الكونية العظمى قد مزقت السيطرة الأوروبية فى ربوع المشرق شرمزق ، وكشفت عن عيون الشرقيين فرأوا تضعع الغرب ووهن عظمه . حقاً قد اقتبس الشرق من الحرب العامة طائفة من بليغ الدر وس والعظا . نذكر على سبيل المثال أمراً واحداً وهو أن قد جندت الملايين من المشاركة والزئوج من كل صقع من أصقاع آسية وأفريقية ، وسيقت مقاتلة وعملة الى ميادين الحرب التى أشعل نارها أبناء الجيل الأبيض . ومع أن غالب هذه الكتائب قد استخدم للقيام باعمال فى المستعمرات ، فقد أتى باكثر من مليون منها الى ساحات الحرب فى أوروبا ، حيثما اشتركوا فى تقتيل أبناء الجيل الأبيض ، وهتكوا حرمت النساء البيضاء ، وذاقوا لذة الشرف الوطنى الذى يتنعم به أبناء أوروبا ووقفوا على مواطن الوهن والضعف فيهم ثم قفلوا الى أوطانهم يخبرون أبناء قومهم عما شاهدوا وخبروا ، ويتلون عليهم النبأ العظيم من أوله الى آخره (١) وقد عرفت آسية وافريقية اليوم ما كاتت لا تعرفانه من قبل ، ومن الثابت الذى لا يرتاب فيه انهما ستحسنان كل الاحسان الاتفاع من هذه المعرفة الثمينة . والأمر الأعظم شأننا وخطورة فى جميع القضية أن الشرق قد بات يوقن شديد الايقان أن سلم مؤتمر فرسايل ، تلك السلم الموهومة التى من مزاعمها أنها بسطت الطمأنينة والراحة فوق أوروبا ، ليست بسلم البتة ، ولكنها الجشع وحب الذات والأنايه والطمع يتبرأ منها العدل وتنكرها السياسة الرشيدة ، جميع ذلك مما أبقى الجروح القديمة على فسادها فلم ينلها برء ولا شفاء ، وفوق ذلك كله جرح الشرق جروحا جديدة راحت أمم الشرق وشعوبه من بعدها نزي فى ترى بعينيها دماءها سيالة . فأوروبا اليوم وهى على حالها هذه

(١) من أراد التوسع فى الاطلاع على ما كانت للحرب العامة من التأثير فى شعوب آسية وافريقية فليطالع : -

« انحطاط أوروبا » (باريس ١٩٢٠) A - Demangere , "Le Déclin de L' Europe"
 « بقطة آسية » (نيويورك ١٩١٩) H . M . Hyndman , "The awa Kening of Asia"
 « الثورة الصامتة فى الهند » (نيويورك ١٩١٩) A.B. Aishes , "India' s Silent Revolution"
 كتاب المؤلف : ,, " Rising Tide of colour against white world souprenaecy , ,

مضطجعة على فراشها مساوية القوة ، متململة من شدة الآلام والبرحاء ، وآسية وأفريقية واقفتان حياهما موقفا كثرت فيه العوامل والأسباب التي تحملهما على تمزيق ما هو حائق بهما من الأطماع الاوروبية ، واقصاء البلاء النازل المنتشر والداهية الحالة الشاملة .

هذه هي الحالة اليوم : الشرق يهتاج ويتنازعه عاملا القديم والجديد مواجهها الغرب المتقطع المتقسم المتعثر في اذيال خزيه وعاره . وربما ما اجتازت علاقات العالمين الشرقي والغربي في يوم سالف مأزقا حرجا كانت فيه معرضة مستهدفة لخطر عميم مثل هذا المأزق المجتاز اليوم وهو منذر بالنوازل اذا قدر لها النزول لا سمح الله كانت البلاء العام طباق الدنيا . والأمر الذي يجب ألا يغرب عن البال بعد جميع ما تقدم أن هذا الشرق الجديد العجيب القائم في وجهنا اليوم انما غالب السبب في قيامه هذا هو السيطرة الغربية المنتشرة فيه انتشاراً لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة خلت . ولبيان العوامل الكبرى في انتشار هذه السيطرة ونتائجها ننتقل للكلام على ذلك في الفصل التالي

الفصل الرابع

في

التطور السياسى

سنن الشرق وتقاليده السياسية الفاسدة انما هي الآفة التي كانت وما برحت ناخرة في عظمه . فلم ينفك الاستبداد منذ العصور الاولى والحقب القديمى أغلب صفة ، وأبرز صورة في آفاق الحكومات المشرقية - أعنى به استبداد الحاكم الفرد ، والسلطان المطلق ، مسترقا للرعية ، متصرفا في شؤون الناس ومتاعهم وحطامهم وجميع ماملكت أيديهم ، ومتمتها لشرف نفوسهم وكرامتهم ، وجاسوسا على حياتهم حركاتها وسكناتها في مغداهم ومراحهم ، كما شاء وبغى . ولم يكن هناك غير الدين زاجرا للاستبداد ومنهنا عن التماهى في بعض المواضع . وبعض النقدة من أهل العلم يضيفون العادة الى الدين ويعتبرونها عاملا مشتركا معه في كف المستبدين وردعهم ، غير ان ذلك ولولم يخص بالذكر فانه مما ينطوى تحت الدين ، لائن العادة في الشرق من شأنها دائما أن تتخذها من الدين كنفها ومتقى ، ومن المعلوم أن المقصود برجال الدين هم جميع الوزعة والخدمة الدينيين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم بحيث يتألف من مجموعهم طبقة من الناس لها امتيازات ، وحقوق مستثناة ، ولكن الاستبداد الشرقى ، مع كل ما كان للدين من قوة حائلة دون طغيانه ، لم يقف عند حد وما عرف له قياس ، اذ كان في استطاعة العاقى المستبد مادام خاضعا لمعتقد الدين ومحترما لرجاله ، ان يفعل ما شاء متى ما شاء من الافاعيل على غير حساب . هذا ، واننا نرى فرعون في فجر التاريخ يرهق المصريين أشد الارهاق كما تطيب نفسه وتقر عينه برؤية قبور الاهرام الضخمة العظيمة . وما برحت الحياة الشرقية في جميع أدوار التاريخ حياة النذل والاستعباد والرق السياسى .

على أن الاختبار البشرى قد أفاد الافادة التامة ، الجامعة المانعة ، ان الاستبداد

لشر مطية تمطيها الحكومة المستبيحة لنفسها التطوح في البغي والجور والعتو . ولكن بعضهم يقول هناك « المستبد العادل » النازل من الرعية منزلة الأب من الأسرة ، يحيط به المشيرون الحكماء والأعوان الحصفاء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بكلمة تجرى على لسانه أو يجرى بها قامه انما جميع ذلك وهم وخيال لا ظل لهما من الحقيقة اذ قليل ثم قليل هو « المستبد العادل » الذي صدق خبره خبره ، وأقل منه من يخلفه خلافة نعمت الخلافة . فالمستبد العادل له في الغالب ولد فاسد الخلف والترية لا يروقه شيء في جميع ملك أبيه سوى الفخمية والعجب والزهو ، وحفيد أسوأ خلقاً وأشد فساداً ركبت فيه طباع الذأم والمنكر ، فيأخذ كل منهما بدوره في ارهاق الرعية وسومها ضروب الذل والهوان حتى يوردها بالتالي موارد الدهورة والتهلكة . وكثيرا ما شوهدت الثلاثيات المشؤومة - داود فسلیمان فرحبعام - تتكرر تاليا بعضها بعضا في جميع العصور التاريخية

زد على ذلك فان المستبد العادل ، ولو كان على حسن عمل واستقامة مسلك فلا يكون خالصاً من طائفة من العيوب والشوائب . والبلية في جميع المستبدين ، الصالحين والظالمين ، ان أعز مراد يملكه كل منهم هو أن يحكم فرداً مطلقاً سيداً مطاعاً ، منه العفو اذا شاء ، وله الأمر والنهي في جميع الأمور . وربما افتتن بغانية أو حبيب معشوق في ليلة تهب في رأسه سورة الهوى ، أو أصابه سوء هضم أفسد عليه تصويره ، أو عرته سويداء ذهب بصفوه وجبرته فراح را كبا رأسه في متطوح فاسد ، تاركا عرشه ومملكته عرضة للسقوط والانهار

الحق أننا معشر الغربيين ، لم نذق شيئاً من مر الاستبداد للاستبداد الشرقي ، في عصر من عصورنا الخالية ، حتى ولا ذاق أجدادنا القدمات شيئاً من مثل ذلك في عهد الأمبراطورية الرومانية . فلذلك يصعب علينا أن نتصور الاستبداد بجميع طبائعه تصوراً تاماً وتمثل أهواله تمثلاً كاملاً . اننا في جاري العادة متى ما ذكرنا سير المستبدين العادلين ، جئنا على ذكر الحكام المطلقين المنورين الذين حملت أوربة عروشهم في القرن الثامن عشر مثل فردريك الكبير وأنداده . غير أن هؤلاء لم يكن طراز استبدادهم على نحو ذلك الذي كان عليه مستبدة الشرق ، فان فردريك مثلاً كان ملكاً مطلقاً ولكنه لم يستبدر عيته ويسترق شعبه ، اذ الشمم والاباء كانوا ملء نفس كل ضابط وأمير ونائب من

الخاصة حتى وكل فرد من أفراد العامة ؛ فلم تكن طاعتهم العمياء لفردريك إنما لسبب كونه ملكاً عليهم خصب ، بل لأنه كان أبعد أهل بروسيه همّة وأشدّهم عزماً وأنفذهم حزماً وأبلغهم مناداة في سبيل الزيادة عن سياج الوطن والدولة . فلو اعوج يوماً من الأيام والتوى عن القصد بحيث انقلب ملكاً مستبداً كسولا ، عاتياً باغياً ، هب البروسيون الأبابة الطائعون ، ومشوا اليه يقوّمون اعوجاجه بسيوفهم ويقيدون سلطته وسلطانه .

إنما الحالة في الشرق على خلاف هذا . ففيه قد كتبت شريعة موجزة في جبهة كل شرق ، شريعة ليس لها مثل « في الوصايا الأوربية العشر » وهي : « عليك أيها الشرق أن تجلّ الرجل الذي يقيمه الله عليك ملكاً ، وتقده وتعبده . فإذا أحبك أحبه ، وإذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهد فأحبه على ذلك أيضاً ، وإياك أن تحول عن هذا له لأنه سيديك وأنت عبده ، ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الاداة بأداته^(١) . إن الملك الشرقى من شأنه أن ينقبع في زاوية من زوايا قصره على كثير من حرمه ، تاركاً شؤون الدولة واعبائها على كاهل وزير من وزرائه مطلق اليد والمشيئة ، فاعل ماشاء في مصالح الرعية وحياة أفرادها . وقد يحدث في ذات ليلة أن يتغنى الملك أو السلطان استرضاء راقصة من الراقصات الواقفات بين يديه في مقصورة من مقاصير حرمه ، فيبعث الى وزيره زنجياً خصياً شاكى السلاح ، واذ يصل هذا الى الوزير ويبلغه أمر مولاه لسرعان ما يهبّ الوزير فيخلع عنه رداء الوزراء ويمد بعنقه ليرشف كأس جامه خنقاً أو غير ذلك من ضرب الموت . هذا هو الاستبداد الذي عرفه الشرق .

بل هذه هي سنن الشرق وتقاليده السياسية التي حالت دون انتظام حكوماته واستقرار دوله ، فأقصته عن كل سبيل من سبل الارتقاء والعمران ، فتاريخه في الواقع إنما هو تاريخ السعود والنحوس ، والصعود والهبوط ، والظهور والاختفاء ، ما بين غمضة عين وانتباهتها . فالرجل المقدم هو الذي كان يقارع غيره في ساعة يشتد فيها الاضطراب والقلق ، لنيل

(١) الشريعة المحمدية لاتعرف شيئاً من هذه الاوصاف للملوك ولا للخلفاء . ومثال الخلفاء الراشدين كاف لبيان أحكام هذه الشريعة . وان كون السلطان هو ذاتاً مقدساً غير مسؤول ليس هو من أوضاع الاسلام في شيء بل أخذته الترك عن الافرنج . وان الامة العربية خليصة هي من فطرتها : لا تقيم على الضيم ، ولا تعرف الذل للملوك والسلاطين ، ولا يبهر أعينها التاج والصولجان . وقد أوضح كل ذلك ستودارد فيما يلي . (ش)

منصب يستطيع به القبض على وسائل السلطة ، فان أحجم جباناً هيباً ، سبقه خصيمه الى نيل ما قصر هو عنه . ثم يأخذ هذا الفائز الظافر يقوم بشؤون الحكومة والدولة على أساليب مضطربة فاسدة ، مستحشاً من كان فى أمره من العمال والموظفين على حسن العمل منذراً إياهم بشديد العقاب عند وقوع شئ من التفريط أو الخيانة ، عقاب ككسرى فارس الذى أتى بأحد مرارته الظلمة حياً فسلخ جلده ثم جعل الجلد شيئاً من فراش الأريكة التى دعا مرزباناً آخر عادلاً للجلوس عليها وأمره بأن يقضى فى مصالح الرعية .

وما دام الملك حياً فالأمور سائرة هذا المسير . ولكن بعدموته يخلفه ابن يتظاهر فى أول أمره بأنه مقتف لآثار أبيه اقتداراً وعدلاً ، وهمة وحسن سيرة ، ثم لا يلبث أن يبرح خفاؤه عن صريحه فيكون فاسد التريية والخلق . ولاغرابة فى شأنه اذ قدر ربي وترعرع فى مقاصير الحرم ومن حوله حاشية من اذلاء العبيد وسيدات الغواني ، فألفت نفسه العجب والزهو ، وأطلق لهواه العنان ، فنشأ رضيع الاستبداد منغمساً فى المآثم والمفاسد ، فولد هذه خلاقه وطراز تربيته وثقيفه أيستطيع خلافة والده واتهاج منهجه فى تدير الأمور وسياسة شؤون الدولة ؟ اذ بعيد ما يطبق الموت جفنى والده ثم يستولى هو على العرش الموروث لن يلبث أن يدهم الملك فساد يقضى به الى الوهن والتفكك . والأمر طبيعى لا يمكن أن يكون بخلاف هذا ، لأن الملك الراحل لم ينشئ حكومة صحيحة منتظمة متماسكة القوى ، سائرة بذاتها بفعل نظامها ، نامية نمو الجسم السليم الأعضاء ، كما هو شأن الحكومات فى الغرب . فضباط الجيش مثلاً كانوا يؤدون خدمتهم عهد الملك السابق يحملهم على ذلك داعى الخيفة والرهبية ، أو الود والاخلاص ، لسبب ماقد يكون بين سيد ومسوده ، ولكن ليس قياماً بواجب يحمل عليه الشعور القومى والروح الوطنية . ومتى جاء دور الحفيد بلغت الأمور منتهى الفساد ، فذهبت بقية السلطة من بين يديه الواهيتين ، وخرج عليه كثير من الأمراء المستبدين فى أنحاء مختلفة وتقدم أعظمهم وأشدهم بأساً للجلوس على كرسى الملك المتضعع المترزل ، وتقلد أزمة الأحكام ، مدعياً أن ذلك هو خير للملكة وأفضل من أن تتلاشى كل التلاشى فتغدو عرضة لجائحة غارة أجنبية ، وهكذا دواليك ، حلقات تكرر الواحدة تلو الأخرى ، وكل مؤلثة من داود فسلیمان فرجعام .

هذا هو تاريخ الشرق السياسى على الايجاز . غير أن الشؤون والأحوال أخذت

تتبدل وتستقيم ، والاعوجاج يقل ويقوم . ذلك نتيجة فعل العوامل السياسية الناحية منحى الحرية ، وثمره الصدمات الضاربة في مقاتل الاستبداد . وهذه الصدمات المقاومة بعضها بعضاً ناشئة عن عوامل داخلية وبعضها ناشئ عن عوامل غريبة طارئة من خارج .

على أن الواقع أحرى بأن يعلم ، فالشرق لم يبن جيعه في يوم من ماضيه مستقراً للاستبداد ومنبتاً للظلم والجور . بل ان بعض شعوبه وأمه في بعض الأصقاع (وغالبيهم بدو ومن أهل الجبال) قد عافت نفوسهم الضيم وأبت الخنوع لحكم الاستبداد . وقد كان العرب دائماً هم الأمة الشرقية الحرة التي احتفظت حريتها وصاتتها بدماء مهجها على توالى العصور .

وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدها الأول على أساس الشورى والشرعية الدينية وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامى . وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورية ملكاً عضواً ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب - عشاق الحرية والاستقلال - يعودون أدراجهم الى الصحراء غضاباً متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين ، والمعزلة الحرة ، حية في زوايا الأدمغة وألواح الذاكرة ، مستعدة استعداداً طبيعياً غريباً للظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يزود عنه كل عربى زياد قرّح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء . وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والاسلام اسلاماً . فن ترى يستطيع أن يتعاضد عن القول الذى قاله صاحب الرسالة : « انما المؤمنون إخوة » و « المسلمون أحرار » وعمما هو مدون في صحف التاريخ الاسلامى في غرر أبناء صدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السعادة » . أو لم يظل المسلمون الأحرار النازعون نزعة الاستقلال، حتى في أشد الليالى حلكا ، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبى بكر التي خطبها في العرب بعيد مبايعته بالخلافة :

« قد وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمتم فاعينوني واذا زغت فقوموني »
فالاسلام في عهده الأول انما كان شمس الحرية مشرقة وهاجرة ، وديناً تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الاسلامى فيما بعد من الوهن والتدلى

بحاجب عن النصف جوهر الاسلام وحقيقة صفائه . فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار : « انما هي ديموقراطية شوروية جوهرأ واصلا ، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجل قامبارى هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله . « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضى باسية الغربية الى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب في ذلك انما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التوا عن الصراط المستقيم والسبيل السوى ، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا في انتحال التآويل القرآنية انتحالا منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية ، وتشددوا في الدين تشدداً باطلا برؤ منه الاسلام ^(١) وناصروا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء فقضوا على جميع ذلك قضاء ، خالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية ^(٢) » .

(١) من أكبر المسؤولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء ، فانهم الا نادري منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا وجعلوا دينهم التزلف الى الأمراء بتسويغ جميع موبقاتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلما أتى أحد الملوك أو الأمراء المستبدين عملاً منكرأ الا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها وتجرىف الكلم عن مواضعه ورواية الضعاف والموضوعات الى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلفى والجائزة . وما زالوا يتادون في غيهم هذا - والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا - حتى صاروا يتقربون بهذه الأشياء نفسها الى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها خراب الاسلام وهلاكه ، فكلما سقطت مملكة اسلامية في يد دولة أجنبية أو نهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة الأجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لاغراضها المتفتن من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى اهوائها . وحسبك ان عدداً عديداً من علماء سورية افتوا أثناء الحرب العامة بيني الشريف حسين أمير مكة تقر بألى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب واحتلوا سورية بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسيناً الذي كان عندها من قبل باغياً خارجاً على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيين الشام فضضت ايديها ثانية من صاحب الحجاز وجعات تفتى بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسيناً أجنبياً . أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون وكلمة عاتبهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : انما هذه تقيية نبتغى بها النجاة من الظلام . والصحيح ان عذرهم غير مقبول وان عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وان دعواهم مداراة الظلام هي باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفساف ، وطلاب وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا وذاك مفتياً وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجره امضائه تقدأ دراهم معدودة ، ولا نعلم الى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعممين ، وينظرون الى العزائم لا الى العرائم . (ش)

وقد أبنا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه في القرن التاسع عشر، وبسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصوراً على الإصلاح الدينى فحسب ، بل تناولت الإصلاح السياسى أيضاً ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمراءه وملوكه وسلاطينه العسفة الظلمة . ونقول الآن : انه بينما كان الإصلاح السياسى الحرسائراً مسيره على اتساع فى الحركة والانتشار فاذا بتيار سياسى جديد قد هب عليه من جو أوروبا فاعترض سبيله وقام فى وجهه . وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين ، وقد أيقنوا بحال تضعع الشرق الاسلامى وتشتت أمره حيال تقدم أوروبا وشدة حولها وبأسها ، طفقوا يسعون وراء الإصلاح متذرعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذ راموا صدق المسعى وابتغوا التجدد الحقيقى فلم يغرب عن باهم أن بلوى الشرق الاسلامى انما غالبها مستقرٌ فى حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم . وشارك الأمراء الحكام ، أهل الفكر وطلاب الإصلاح فى هذا ، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية واكتناه أساليبها والوقوف على جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها وتنجيتها من شر المهالك ، ثم سوقها فى سبيل التقدم والارتقاء . وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركية ومحمد على فى مصر خير مثالين ظهرا بالطرز الجديد من سلاطين الشرق وأمراءه ، وكلاهما كان حدمه فى أوائل القرن التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه الى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطا بين حالة المستبددين العاديين الأوروبين والمستبددين الشرقيين . وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين ، طابى التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك تنظيماً صحيحاً خالياً من المفسدة والعيب ، كما يتسنى للحكومة هذه أن تسير - بنفسها وفعل نظامها - سيراً مطرداً كسير الحكومات الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئاً من رقابة النظام ، ولا يقومون بواجب الاخشية العقاب .

وثابر محمود الثانى ومحمد على ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج

هذه السياسة الرشيدة الحديثة، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذى بدى بعاليه وظهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ولا جرم، فانه قد كان فى استطاعة السلطان أو الأمير ابتناء القلاع وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبى، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والاحكام المتزيين بازياء غربية، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التى تأتى بها الحكومات الغربية، لان معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون فى الواقع لا يعلمون شيئاً من أسرار تقدم الغرب وارتقائه وأسباب حضارته وعمرانه، فلذلك كانوا عجزوا عن القيام بالاعمال على الطريقة الغربية الصحية، لانه ليس فيهم الكثير الكافى من روح الاقدام والمضى فى العمل، ولا هم يقبلون من أنفسهم غيراً على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ولا أفوها بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الاعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لامر مولاهم وسلطانهم. هكذا كانت الحالة فى بدء الامر: بيد أنه على توالى الايام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثين. وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلاً فظل أمرها مقصوراً على اكتساب المظاهر الغربية من خارج، لانها لم تنل كثيراً من أسرار المعاصرة والجدوة التى هى شرط لازم فى حال كون كل حكومة منظمة راقية.

أضف الى هذا أنه فى غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرزاً عن سبق ذكرهم يقومون أحزاباً مؤلفة، وغايتهم انما هى اقتباس جميع الابتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال. وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً متوالياً من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكاراً وآراء غربية اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعليم والتهديب فى المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربى. وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية فى تركيا نشوءاً محسوساً. وفى سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عالياً وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور.

بيد انه قد عقب هذا الفلاح الذي نبيل على يد الأحزاب الاسلامية السياسية الحرة ، دور ظهر فيه رد الفعل ، اذ بات الحكام المسلمون الجالسون على أرائك عروشهم يخشون كل الخشية عقبى انتشار المنازع الحرة في رعاياهم ، فوطنوا نفوسهم على استبقاء سلطتهم المطلقة في أيديهم ، لا ينزلون عنها ، ولا يرغبون فيما دونها . فلهذا لما ارتقى السلطان عبد الحميد العرش لم يلبث أن فض البرلمان العثماني وقوض بناءه تقويضاً ، ثم طفق يضطهد الأحرار ويتناولهم بكل ضرب من ضروب التعذيب ، حتى تسنى له استرداد معظم السلطة المطلقة ففض عليها بالنواجذ . وظهرت في بلاد العجم حركة سياسية حرة فأضمر الشاه لها المناهضة خنقها وليدة في مهدها ناهجاً بذلك منهج عبد الحميد . وفي مصر كان حكم الخديوي اسماعيل اسرافاً وتبذيراً ، فجاء خاتمة للحياة السياسية الوطنية في مصر ، فآل الأمر الى التدخل الأوروبي في شؤون البلاد ، ثم بسط الاحتلال الانكليزي ، وظلت حتى ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ ، أمارات المنازع السياسية الحرة تظهر ظهوراً ييناً في هذه الأقطار الاسلامية التي كانت بعد محتفظة استقلالها ، وكانت الحركات الاصلاحية سائرة سيراً حسناً وراء ستار من الخفاء .

وأخذ الشبان المسلمون المتمشية في عروقهم روح الوطنية يفرون الى ديار الغربه سعياً وراء غرضين : طلب العلم ، وانشاء الدعوات السياسية الحرة المنظمة . فلجأوا الى أكناف عديدة مثل سويسرة ، واتخذوا فيها ملاذاً لهم . ثم شرعوا ، وفيهم شبان « تركيا الفتاة » و « ايران الفتاة » يصدرن مئات النشرات والكتب الأدبية الثورية ، ويبعثون بها خفية الى أبناء أوطانهم المسومين الذل والهوان ، فيتلوها هؤلاء باشتياق ملتهب .

وما انفكت أصوات طلب الحرية تتعالى على توالى الأيام ، وتشتد قوة وبأساً ، وتجوب البلاد وتخرق الآفاق ، وتعم طبقات الناس . فقد قال أحد شعراء الترك ، شادياً باسم الحرية في ذلك العهد : « ان مانجل ونعظم من جميع ما نراه من نتاج التهذيب الأوروبي والحضارة وثمرة العلوم والفنون انما هو الحرية . كل شيء يستمد نوره من كوكب الحرية المنير . الأمة المساوية الحرية فلا حول لها ولا أمل في ارتقاء معارج العمران . السعادة بلا الحرية مستحيل لا يدرك والوجود الانساني والحياة الصحيحة بلا سعادة تكفلها الحرية انما هي وهم باطل وخيال خادع . عش أبداً يا كوكب الحرية ماالتهبت القلوب شوقاً اليك وتزاجت أنفوس عشاقك على فداك » .

ومنذ ختام القرن التاسع عشر أخذ كبار أهل الرأى الصحيح والنظر السديد من الأور وبيين يراقبون الحركات السياسية الحرة تضرب كالبجر جاشت غوار به من جانب الى جانب ، تحت وجه الاضطهاد وسطح الاستبداد . ولما زار المستشرق الكبير ارمينوس فامبارى القسطنطينية ثانية سنة ١٨٩٦ دهش دهشاً عظيماً لما استبانه من التطور السياسى الحر الذى حصل خلال الحقبة المنقضية بين زيارته الأولى منذ أربعين سنة من قبل ، وهذه . ومع ان القسطنطينية كانت مباءة الاستبداد الجيدى ، فقد كتب فامبارى فى شأنها ما يأتى : « قد انقضى المنزع القديم الذى كانت عليه تركية من قبل للحكم المطلق . كانت تبلغ مسامعنا ونحن فى أور وبة أشياء عديدة عن حزب تركية الفتاة ، وعن حركة دستورية ونضال سياسى ونفى وابعاد ، ونشرات وكتب ثورية . ولكن الأمر الذى يفوق خبره خبره هو هذا الاضطراب الهائل والتطور العظيم المنتشر اليوم فى جميع الطبقات الاجتماعية المختلفة ، مما يحملنا على الايقان ان التركى قد شرع يسير سير التقدم والارتقاء ، بعد أن انقضى الدور الذى كان فيه كل فرد من أفراد الرعية طينة بين يدي الخزاف العائى المستبد وحزب « تركية الفتاة » وما أدراكه ؟ انما هو الشعب بأسره والملة قاطبة (١) » .

وجدير بنا فى هذا الصدد أن نلاحظ بعين الاعتبار شأن الاضطراب الذى كان فى هذه الآونة يشتد اشتداداً سريعاً فى الأفطار الشرقية الخاضعة للسيطرة السياسية الأور وبية . عند ختام القرن التاسع عشر كانت الممالك الاسلامية الكبرى - المستمتعة بشئ من الاستقلال بمنجاة من السيطرة الغربية - أربعاً : تركية ، والعجم ، ومراكش ، وأفغانستان أما هاتان الأخيرتان فقد كانتا على جانب من الانحطاط والتدلى بحيث كادت لا تعدان فى مصاف البلاد المتمدنة . وأما الأوليان فكانتا أرقى حالا ، ولذلك غدنا المضرب الوحيد الذى يتوقع فيه نشوء الاضطراب وحركات الانقلاب السياسية الحرة المقاومة للاستبداد والجور . وأما البلدان الاسلامية الأخرى الخاضعة للحكم الأور وبنى مثل الهند ، ومصر ، والجزائر ، فقد كانت بلغت من التهذيب والثقافة والارتقاء مستوى عالياً فيه من الكفاية ما يبعث على القيام بالحركات السياسية الحرة المنتظمة ، والسعى وراء تحقيق المطامح الوطنية والآمال القومية ، ولكن يرافق جميع ذلك كره الأجنبي الشديد الشائع فى جميع الطبقات على السواء .

وقد كان من أمر الحركات التي كانت قائمةً يومئذٍ في تركيا والعجم مقاومة للاستبداد أنها هاجت المطامح الحرة وأشعلتها اشعالاً في نفوس المسلمين . بيدانه يجب الفرق التام بين أفقيين كبيرين ظهرا في العالم الاسلامى ابانئذٍ ، فرقاً هو من حيث اعتبار ماهية الحركات الوطنية والاطوار التي اجتازتها والغايات التي اتخذتها أهدافاً لها . أما جوهر السبب وممرماه في الاضطراب السياسى الناشى يومئذٍ في تركيا والعجم فقد كان حركات وطنية غايتها الاصلاح الحزبى . وأما جوهر السبب وممرماه في اضطراب الهند ومصر والجزائر فقد كان حركات وطنية غايتها الاستقلال . ولكن لم يكن هناك من خطةٍ معينة مقررّة تبين شكل هذا الاستقلال والصورة التي يراد أن يكون عليها بعد ما يتم الحصول عليه . وقد كانت هذه الحركات الأخيرة بحقيقة الواقع أقرب الى أن تكون قوميةً جنسيةً منها الى أن تكون مكتسبة لصفة الاصلاح الحركى في الأولى ، فلذلك سنتكلم عليها مسهباً في فصل العصبية الجنسية التالى . فجميع ما يجدر بنا أن نعلمه ونعتبره في هذا المقام هو أن القائمين بهذه الحركات هم في الواقع أحزاب مؤتلفة متفقة على حطم النير الأجنبي ، والتحرر من رق الغرب . وكان رجال هذه الأحزاب على مذاهب سياسية عديدة متشعبة ، يشتملون على الاحرار ، ودعاة العصبية الجنسية ، والجامعة الاسلامية ، والرجعيين ، حتى وعلى زعماء من العامة صلاب العود ، يؤثرون الرجوع الى عهد الاستبداد على البقاء في حكم الأجنبي . ومن المعلوم أن أتباع مذهب العصبية الجنسية ما فتئوا ينادون بالكلمة المألوفة « الحرية ! الحرية ! » المعنى بها عندهم التحرر من « ربة الأجنبي » أو ان شئت فقل « الاستقلال » . وفي هذا الموضع من البيان يجب ألا يغرب عن بالنا ان ليس هناك من صلة جوهرية تصل بين مذهب « الوطنية » ومذهب « الحرية » صلةً قريبة الجوار منهما . فأهل الطبقة العامة من الاسبان الذين صاحوا : الحرية الحرية ! لما هبوا يقاتلون جيوش نابليون ، عادوا فرحبوا بملكهم الطاغية المزدرى ترحيباً ملؤه الجاسسة والغيرة المشتعلة ، واستقبلوه ، وهو يبجل الاستبداد ، بصراخ بلغ عنان السماء « لتحي السلاسل ! لتحي الأغلال ! »

واستمرّ دور ردّ الفعل الاستبدادى الذي أناخ بساحة تركيا والعجم منذ أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٨ اذ انتهى سنتئذ آخر قسم من هذا الدور الذى اشتمل على ضروب الارهاق وصنوف البلايا . فانفجر في كلا البلدين بركان الثورة ،

نخلع الترك عبد الحميد المستبد ، وخلق أهل فارس محمد على شاه الطاغية الذى « جمع كثيراً من مشائى الفساد والجبن والخطة ، ولطخ عرش العجم بفاحش العار » . وحطمت الثورة فى البلادين أغلال الجور وقيود الاستعباد ، فانطلقت قوة الأحرار التى كانت تمتد وتشتد على التوالى تحت سطح الاستبداد ، فى الدور المنقضى ، وانتقلت كل من تركية والعجم الى دور جديد بزغت فيه شمس جديدة ، فأنشئ الدستور ومجلس النواب وسائر الأجهزة السياسية اللازمة لكل من الدولتين على الطراز الغربى الحديث .

أما التساؤل فيما يمكن أن يكون لهذين الانقلابين من تحقيق الأمر وصحيح العمل فى تبديل الحال والاتقال بها من دور الى دور ، والقيام بتدبير شؤون الدولتين والنهج بهما على المناهج الحديثة التى يقدر لها أن تكون فى جارى الحال خالية من مفاصد الاضطراب الضار وطوارىء الحدثنان . فهو ضرب من الجدال الفارغ لايفضى بصاحبه الى ادراك حقيقة يصح الاطمئنان إليها ، والسبب فى ذلك انه منذ شوب نار الثورتين التركية والفارسية ، وقلب النظام الاستبدادى واعلان الدستور فيهما ، أخذ جو السياسة العامة يعتكر ويربد بالسحب السوداء ، وتتراكم فيه منذرات السوء ، وما زال هذا كالح الجين حتى قصفت الرعود فأخذت نيران الصواعق تتساقط من سماء الحرب الكونية العظمى مطبقة العالم بأسره فلم يكن لتركية ولا للعجم بعد انقلابهما السياسى متمتع تستطيعان فيه مراس التطور السياسى مراسا حقا ، ومؤالفة الحياة الجديدة . وفوق ذلك فقد وقف لها الدهاة الغربيون بالمرصاد يتحينون عثارهما الذى لاجرم اذا عثرناه ، والدور دور جديد يقتضى كثرة المران عليه . فكان غرض هؤلاء الدهاة المتسكرين بأثواب الساسة أن يرقبوا زلة الدولة بعض الشئ ، حتى اذا كان ذلك انقضوا عليها بنفوس شرهة ، وأفسدوا عليها عملها ما استطاعوا .

فلما فتقت الحرب العامة كان فتوقها فى الواقع انما هو تنمة للاعتداء والجور الغربيين اللذين كان قد بدى فيهما منذ عدة سنوات .

فذلك اذا اعتبرنا عدم استقرار الحال ، وأقننا الوزن لتوالى الطوارىء العداية على غير انقطاع ، أصبح البحث بدون قيمة جوهرية له تكشف عن حقيقة المسألة الكبرى التى أمعن البحث فيها وقلبوا وجوها ، وهى : أجديرة شعوب الشرق الأدنى والأوسط ياترى أوليست بجديرة بنيل الحكم الذاتى ، أعنى بأن تنشئ النظم الدستورية وتحيا الحياة

السياسية الحرة؟ وقد اختلفت آراء البحثة فى هذا اختلافاً كبيراً . أما نحن فلم نذهب الى أن نبسط رأياً خاصاً ، بل آثرنا ايراد طائفة من الآراء والأقوال النافيسة والمثبتة ، دون أن نجح الى تقرير خلاصة ما . بيد اننا قبل الشروع فى ايراد ما نورد من الآراء المختلفة علينا أن نسترعى شديد الانتباه الى اعتبار ما هناك من الفرق والاختلاف بين حال الشعوب الاسلامية والشعوب الهندوية غير الاسلامية فى الهند . فان المسلمين قاطبة ، فى كل قطر من أقطارهم ، مثلهم فى الديموقراطية والشورى السياسية مثال أهل بلاد العرب ، اذ لهم دينهم الاسلامى الدينى ، باعتباره على الأقل فيما يختص منه بأبنائه ، دين منير يشتمل على المنازع الحرة العديدة . أما الهندويون فلاشئ من هذا فى دينهم ، فان تقاليدهم السياسية لم تبرح الى اليوم منغمسة فى حاة الاستبداد الشرقى ، وخير ماسطره التاريخ بين دفتيه لهم هو قيام بعض الدول فيهم فى الأزمنة الخالية ، وهى دول استطاعت أن تحكم نفسها بنفسها حقبة قصيرة على نطاق ضيق محدود السلطان والسيطرة ، ثم مالبت هذه الدول الهندوية أن ذهبت ربحها ، وأدال الله لغيرها منها ، فأدركها التلاشى والاضمحلال . وأما البرهمية ، أعنى دين الهندويين فالراجع انها أضرم معتقد نشأ فى الارض ، بعيداً من الحرية الصحيحة التى يجب أن يكون عليها الانسان منفرداً ومجتمعاً ، وقصياً عن المساواة الاجتماعية ، فكان بلية حلت بينى الانسان ، قاسماً المجتمع الى سلسلة لانهاية لها من الطوائف والطبقات المتقاطعة بفوارق لا تحصى ، المحرم على جميعها الاختلاط والامتزاج بعضها مع بعض فباتت كل طائفة تعد من دونها من الطوائف الأخرى غاية فى الدنس والرجس تكاد لا تفرق بينها وبين الأئعام السائمة . فالمتعقد الهندوى اذاً هو عائق كبير من شأنه أن يجعل أمر الحكومة الذاتية أصعب انشاء ومنالا فى الشعوب الهندوية منه فى الشعوب الاسلامية . فعلى القارىء الكريم أن يستوعب هذه الحقيقة ذا كراً لها فى سياق ما يأتى من الكلام .

نعتبر الآن فى المقام الأول مقالات الذين يعتقدون أن شعوب الشرقين الادنى والاوسط ليست بجديرة اليوم ولا فى المستقبل القريب بنيل الاستقلال والحكم الذاتى على صحيح ما لهما من المعنى عند أهل الغرب . واللورد كرومر فى طليعة الفريق الذاهب فى الاعتقاد هذا المذهب ، لأنه يرى أن التقاليد الاستبدادية القديمة متأصلة فى الشرق ، صعب أمر استئصال شأفتها ، ولا سيما اذا ابتغى ذلك تاماً وريم حصوله فى مدة قريبة من الزمن ،

فقال : « ما برحت السياسات الشرقية منذ فجر التاريخ تعورها الآفات القاتلة وينخر فيها سوس الفساد ، فلذلك لا يسعنا القول بإمكان تلاشى الاستبداد واضمحلال طباعه وأصوله فى مدة قليلة ، لشدة تمكن ذلك فى تربة الشرق قرونا وعصوراً . فبعيد هو اليوم الذى تصبح فيه عقائد الحرية المنظمة ، الواسعة النطاق ، حالة حلولا راسخاً فى شعوب الشرق وأمه : لأن التطور والانقلاب لا يمكن أن تجنى ثمارهما الناضجة فى عدة عقود من السنين بل فى قرون فالواجب علينا اذا فى المقام الأول أن نجتنب الاتيان بالأنظمة والقوانين الحرة ، الرحبة المجال ، الواسعة المدى ، لشعوب لا تستأهل جميع ذلك ، فتمتكن بسببه الفئة القليلة فى كل شعب من الاستئثار بالحكم الجائر الفاسد ، فتعود الحالة شراً من قبل ، بل يجب علينا أن ننشى نظاماً فيه من الخير والكفاية ما تستطيع كل طبقة أن تنال منه قسطها ، نظاماً قائماً على قواعد شريعة الاداب النصرانية . فلو افترضنا أنه من الممكن انشاء مجلس نواب مصرى ، أعضاؤه منتخبون انتخاباً حراً ، لكان من الغالب أن هذا المجلس لا يتناول فيما يتناول من الاعمال اشتراغ القوانين وسنّ الأنظمة لمنع الاسترقاق على جميع ضروبه . ولو افترضنا أيضاً انشاء مجلس « الراجبوت » فى الهند ، فهذا المجلس لا يكون من شأنه الاهتمام بالقضاء على العادة الكريهة ، عادة اقدم الأرامل على الموت فى نار ذات لهب ، قياماً بعهد الوفاء لازواجهن . يؤخذ من هذا أنه يجب على الحكومة الصالحة أن تتمهد الطريق وتقوّم السبيل أمام الشعوب الشرقية للوصول الى غايات وأغراض ممكن الحصول عليها على توالى الايام . فعلى الشرقيين أن يجتازوا كثيراً من التطور الصحيح المتدرج فى أدوار الحياة السياسية ، قبلما يقتربون من أفق الحكم الذاتى التام ، مدركين غاياته وفضائله ومثله العليا حق الادراك » . وقال اللورد كرومر متشامماً : « يصلح الشرق للحكم الذاتى متى صلحت خيوط العنكبوت لتتخذ نسيجاً يلبس » .

و بعد الثورتين التركية والفارسية ، كتب الكاتب الانكليزى الشهير الدكتور « ديلون ^(١) » يبين من الآراء ما يشبه كل الشبه تلك التى بينها اللورد كرومر فى هذا الشأن ، فأعرب عن قليل أمله فى أن تينك الثورتين آتيتان بثار طيبة ، وسخر بالمتفائلين قائلاً : « كأن الروح القدسية ستهبط على الحكومتين الدستوريين الجديدتين من الملاء

الأعلى» ثم قال « ترى أنتستطيع دساتير الحرية ولو سنتها أعظم قوة بشرية فى بلاد لا أثر للصناعة فيها ، أن ترحزح شيئاً من جبال أهل تلك البلاد وتغير من غرائزهم وأخلاقهم وتقاليدهم الموروثة منذ الحقب المتطاولة تغييراً ذاهباً بالقديم الفاسد وآتياً بالجديد الصحيح؟ اللهم لا . فجميع ما فى الأمر أن هذا الانقلاب فى تركية وفارس لم يشتمل بحقيقة واقعة على شىء سوى تبادل طليّ الأقوال وبهرج الكلام وأنيق الخطب ، الأمر الذى ليس به تنقلب الحال الراسخة منذ القديم انقلاباً لأمراء فى حصوله بالحقيقة والفعل . وتدل الدلائل الظاهرة على أن فارس ليست على شىء من الخلق والمجدرة لنيل الحكم الذاتى » ثم قال فى موضع آخر : « وصفوة القول أن غاية ما حصل إنما كان مقصوراً على اتخاذ طائفة من الأسماء الجديدة بديلاً من غيرها لبعض الأشخاص والمسميات بحيث يتراءى للناظر أن هناك شيئاً جديداً وما هناك فى الواقع سوى القديم المعهود . أما الفوضى فما برحت ضاربة أطنابها الى ما شاء الله وأما قضية القيام باعانة الحكومتين الجديتين الاعانة المالية فليس بالمستطاع ، لأن التمويل الأجنب لا يرون من الحكمة فى شىء أن يقرضوا أموالهم لبيدورها العابثون الذين هم فى بلاد غير مستقرة الحال كتركية وفارس أشبه بفقايع الماء تطفو لحظة ثم لا تلبث أن تختفى وتلاشى . »

وكتب موظف استعمارى من الفرنسيين^(١) يصف أهل الجزائر وغيرهم من المساميين فى مستعمرات افريقية الشمالية الخاضعة للحكم الفرنسى يقول : « ينبغى لهذه الشعوب التى فى مستعمراتنا أن يحكمها غيرها ، لأنها صبية دون اليقاع فلا تستطيع ادارة شؤون نفسها بنفسها . فيجب علينا أن نقودها السبيل قيادة ثابتة شديدة ، وألا تتخلى عنها تاركينها وشأنها لثلاث عشرة كيرة ، وألا نتوانى لحظة فى سحق من فيها من المفسدين وأهل الكيد والسجس^(٢) ، من حيث يجب علينا أيضاً أن نجميها ونذود عنها ونقوم على تربيها قيام الوالد على شؤون أولاده فنتناولها بالسطوة والسيطرة بيد ، وبالترقية والتعليم بالأخرى ، ونكون لها مثالا حسناً فى التفوق الأدبى الصحيح . وفوق كل هذا يجب علينا الاقلاع عن التمويه الباطل والمزاعم الفارغة الخلافة . فليكن رائدنا

(١) أ . مرسية . كتابه « القضية لوطنية » باريس ١٩٠١ "La Question Indigène" - E. Morcier

(الناشر)

(٢) الفساد والكدر

الاخلاص في سبيل مصلحة فرنسة ومصلحة أهل البلاد كذلك . »
وقد استاء كثير من أهل الرأي ، وجلهم من الموظفين الأجانب في الحكومات المستعمرة مما شاهدوه من النهج المحتمل الذي ينهجه الشرفيون في الطور الأول من الحكم الذاتى ، طور المران والمراس على يد التجربة ، وذلك كالمجالس الاستشارية التي تجيز الحكومات الأوربية لأهل البلاد انشاءها ، فيتخذونها ميادين سياسية يتدعون بها لانتياش السلطة من أيدي الميسطرين انتياشاً مجاوزين في ذلك حدود نطاق ما أعطى لهم قال اللوركتشر في تقريره الموضوع سنة ١٩١٣ في شأن مصر : « ليس في المستطاع تنشئة الهيئات النيابية وترقيتها خير ما يكون ، مالم تؤكد صفة الحال الراهنة ان هذه الهيئات هي من الاقتدار الصحيح بحيث تستطيع القيام بوظائفها التي بين يديها حق القيام وان هناك كبير رجاى في أنها كلما اتسع نطاق الاعباء الحكومية أمامها وانفسح لها مجال لمراس الشؤون الخطيرة الحيوية ، ازدادت حكمة وخبرة واقداراً ، فلذلك ان وجدت الحكومات النيابية وهي على أبسط أشكالها وفي أول أطوارها غير مقتدرة على العمل والاجراء ، وغير متنسكة المداحض والمعاثر ، قل الأمل اذ ذاك في أن تكون من الجدارة بحيث تحسن القيام بمهمتها الكبرى ، متى ما غدا مجال شؤونها أوسع ونطاق المهمات أبعد مدى . فعلى هذا الاعتبار ليس من حكومة وفيها مسكة من العقل تعترم توسيع نطاق المجالس الاستشارية وتخويلها سلطة أقصى أمدأ وأبعد نفاذاً من بعد ما بدا من قصور هذه المجالس عن احسان القيام بما قلده من الوظائف والأعمال احساناً داعياً للرضى والارتياح » .

أما الذين يقومون باشعال الاضطرابات الوطنية في بدء الأمر فأهل الطبقات العالية من أهل البلاد والمتهذبون على الطراز الغربى ، ثم يأخذ الجمعان معاً يهيجون سواد الشعب الجاهل ويلهبون صدره إلهاباً ، في حين انه كثيراً ما يكون على حال من الهدوء والسكينة راضياً عن شأنه مكتفياً بما يتناوله من المرافق والمنافع في ظل الحكم الأوروبى (١) . منذ

(١) لا والله قلما يكون هذا الشعب راضياً عن الحال التي هو فيها تحت الحكم الأوروبى ولكن العامة لا تقدر أن تقوم بشيء من نفسها مالم يتقدمها النهاء والطبقة الراقية . فمن عادة الأوروبين المستعمرين ان يزعموا في مثل هذه الحالة ان الشعب كان راضياً ساكناً ساكناً مقتبلاً لا يطلب سوى استمرار الادارة التي هو تحتها ، فجاء نفر من الأعيان أفسدوا قلوب العوام والفلاحين وحلومهم على الثورة أو النفرة ، فان

سنوات معدودات قال أحد كبار المبشرين الاميركان (١) في الهند بعد اختبار طال معظم حياته في تلك البلاد: « يغلب أن يكون الشعب الهندي اليوم أكثر ارتضاء بحكومته منه في أي يوم خال . أما العلة الحقيقية في استثارة روح السخط والغضب انما مصدرها الطوائف والطبقات العليا . فلو ترك المستثيرون عامة الشعب وشأنهم ، وكفوا عن هياجهم وتحريضهم ، وحلهم واستصراخهم ، لبات أهل الهند أشد شعوب الأرض إخلاصا ووفاء . غير أن أهل الطبقات الراقية المتهدبة المشتعلة صدورهم بنار المطامح السياسية الحديثة ، الذين لن يناموا بعد على ما ناموا عليه من قبل ، ولن يكون لهم قبل باحتمال الضعة والاكتفاء بالمراتب الدينية الحفيرة التبعة ، وبالوظائف القليلة الشأن والمنفعة . . . فهم يكادون لا يعتبرون شيئاً من قدر الحكومة التي تسلم اليهم مقاليدها ويولون مناصبها وكراسيها على التوالي . بعد جميع ذلك فليس من مرادهم الوقوف عند حد الاكتفاء بنيل الأنظمة الدستورية النيابية التي توسع نطاق اشتراكهم في حكومة بلادهم ، بل انهم اذ ذاك يطالبون الاستقلال بشؤون حكومتهم بأسرها استقلالاً تاماً لا يعتريه نقص ولا يشوبه شائبة . فالبرهمي (والبراهمة خمسة في المئة من مجموع السكان) كان يعتقد انه هو ذو المقام الأعلى وابن الطائفة التي اختيرت من لدن الاله لنحكم البلاد ، فيحمله ذلك على أن يمسك عن الآخرين حرمتهم وما لهم من الحقوق على اختلافها . و « السودرا » (أهل الطبقة الرابعة الدينية) كانوا لا يرصون بأن ينتخبوا أحداً من أهل طبقة « البارياه » (سفالة أهل الهند) . وما زالت الحال هكذا حتى جاءت الحكومة البريطانية ففضت بالتساوي في الحقوق والواجبات وجعلت أهل الهند عامة وخاصة دون اعتبار الطوائف والطبقات على مستوى اجتماعي متماثل ، هذه هي الحالة حتى اليوم » . عند هذا تبدو المحاذير جمة باعثة على

كان هؤلاء الأعيان من شيوخ الدين أو الطبقة المسلمة المتدينة ، كان هذا من أثر التعصب الاسلامي ، والحرب المقدسة وتعليم القرآن أو دعوة الشيخ السنوسي أو التيجاني أو الشاذلي الخ ، وان كانوا من طبقة المتعلمين بأوروبا والناشئة الجديدة الذين لا يمكن اتهامهم بالدعوة الدينية كانوا من أولئك الطامحين المتطالبين الى الوظائف ذوى الاغراض الشخصية ، أو من الوطنيين الذين قد « قرأوا أشياء أساءوا هضمها » تلك الجملة المخصصة - في لغة الاستعمار - لكل فئة شرقية متعلمة على النسق الأوربي لكنها متمسكة باستقلال

الاختشاء . ذلك أن يعود الاستبداد الاوليافارقى (١) فينشر في الهند متى ما حررت من الحكم البريطانى تحريراً تلاه قيام البراهمة وقبضهم على أزمة الأحكام . ولم ينفرد أرباب الرأى الغربيون فى تصديق هذه المحاذير ، بل شاركهم فى ذلك عدد كبير من أبناء الطبقات الهندوية الدينية المعروف مجموعها « بالطبقات المضطهدة » فأخذوا يقاومون الحركة الوطنية الهندية خشية أن يضيعوا ما هم متمتعون به اليوم من الحماية والرعاية فى ظل حكم «الراجا» البريطانى ، وهم على اعتقاد ان الهند لم تبرح قاصرة عن نيل الاستقلال الصحيح ، فيجب عليها أن تدأب أجيالا فى سبيل العلم والتهديب والارتقاء والاصلاح الاجتماعى دأباً متوالياً حتى تغدو من بعده جديرة بنيل الحكم الوطنى « هوم رول » (٢) وقد أنشأوا لهم جمعية كبيرة سموها « الناماسدرا » غايتها موالاة التاج البريطانى ومقاومة الحركة الوطنية .

قال الدكتور « ناير » (٣) زعيم هذه الجمعية مينا غايتها وغرضها : « الديموقراطية باعتبارها كلمة سائرة وعبارة مألوقة ، قد ذاعت فى الهند قاطبة وجرت على لسان كل انسان ، غير أن مدلول الكلمة ، أعنى روح الديموقراطية الصحيحة ، لم يزل مجهولاً فى هذه البلاد جهلاً شديداً . فلذلك ليس من المتوقع أن نرى فى مدة قليلة الديموقراطية بحق معناها قد نشأت فى الهند نشوءها فى الغرب ، لأن تعصب الطوائف ذلك التعصب القاتل هو حائل دونها الى ما شاء الله . . . ليس من مرادى ان اتهم طائفة مخصوصة دون أخرى بمضايقة الطوائف الوضيعة والازدراء بها ، بل جميع الطوائف والطبقات العليا انما هى فى هذا الأمر المستنكر سواء . فالبرهمى لن ينفك يضايق كل من ليس يرهمى ، وكذلك شأن كل فرد من أهل الطبقات العليا غير البراهمة الذين لم يعدلوا عن مقت جميع من دونهم طائفة وطبقة . . . نحن نبتغى ديموقراطية صحيحة لا حكم طبقة ممتازة مستبدة ، اذ عن هذه الأخيرة نحن معرضون ، ولها مقاومون ، ولورفلت مارفلت بحلل من مزخرفات الأقوال والعبارات فان قيض لها أن تعود فتنشأ ثانياً فهى باقية من بعد ذلك الى الأبد . . . اننا وايم الحق لنؤثر الديموقراطية الآجلة البعيدة على نيل هذه الاوليافارقية العاجلة . ونحن أكثر ثقته

(١) حكم تستأثر به فئة مخصوصة من الأمة (٢) Home Rule

(٣) تشرين الأول ١٩١٨ Dr. Madavan Nair

بالحلم البريطاني منا بالاوليفارقية المستبدة التي شأنها معروف في أهل الطبقات العليا الذين كانوا على الدوام قائمين على مضايقتنا والنيل منا ، وهاهم اليوم يسعون في سبيل الرجوع الى ماضيهم لولا الحكومة البريطانية فوقفنا هذا اليوم هو موقف دفاع عن كياننا ، وزياد عن بقائنا ، لا يندعنا عنه أمل كاذب ولا مرتجى خير بعيد المنال »

وهناك كثير من المسلمين والهندويين الذين يعامون أن الهند لم تغد للآن نضيجه للحكم الذاتى ، وانه اذا ما أخذ ظل السلطة البريطانية يتقلص ، سواء في المستقبل البعيد أم في المستقبل القريب ، لأصاب الهند من جراء ذلك شر بلوى . فلذلك لا يتردد المسلمون الموالون للتاج البريطانى فى الدعاء على القائمين بالحركات الوطنية بالويل والثبور ، لأسباب جلاها أحد زعمائهم السيد « خوجه بوخش »^(١) بقوله : « سواء كنت أحسنت صنعا أم أسأت ، فاني لم أبرح معتزلا مزاولا الشؤون السياسية لهذه المدة الأخيرة . غير انى لم أحل عن اعتقادى قيد شعرة انه يجب علينا أن نجهد فى سبيل ترقية مستوانا الاجتماعى والعقلى والأدبى أضعاف مانجهد فى سبيل تحقيق ما نبتغيه من الغايات والمطامح السياسية . إنى لشديد الاعتقاد ان فى انصرافنا عن السياسة الى ترقية سائر أحوالنا وشؤوننا الضرورية لنا بطبيعة هذا العصر ، لخدمة جلية فى سبيل مصلحة بلادنا ليست جميع قضيتنا مقصورة على أن يكون فى الهند فئة قليلة هى وحدها مسلحة بسلاح العلوم والتهذيب الغربى ، بل قضيتنا بجملتها تقتضى أن يكون سواد الشعب على مختلف المراتب والدرجات من العلم بماهية مصالح البلاد والشعور بخطورة أمرها بحيث يكون له من ذلك حامل صحيح على خدمتها والمفاداة فى سبيل صيانتها وترقيتها . فان الفئة المتهدبة الراقية ، وهى أقل من القليل ، لا يتألف منها ذلك السواد الذى يجب علينا أن نقوم بترقيته وتهذيبه ، وتربيته وتثقيفه ، ورفعنا الى المستوى الذى تصبح عنده عقائد التضحية الوطنية راسخة فى النفوس إننا ، وأمرنا ظاهر ، لم نبلغ هذا المستوى بعد ، وما دمنا دونه وغير والحين أبوابه لجميع مافى صدورنا من الآمال ، وما نجهدنا فى المواضع الأخرى ، هو طلب باطل وسعى على غير ماجدوى . زد على هذا أن الفئة القليلة المتهدبة فينا لم تبرح وليدة فى المهدي من حيث ماهى عليه من المران السياسى الحديث . أجل ، يجب علينا أن نتعلم قدسية المبادئ الوطنية

وتسديد الخطى في نهج المناهج الصادقة . وليس لنا من مرتجى في ترقية مستوى آدابنا الخاصة والعامة ، مادنا لانزبأ بنفوسنا عن افناء المصلحة العامة ، وتضحيتها في سبيل المصلحة الخاصة » .

فخرى بمثل هذه الأقوال والتصريحات التي يوافق عليها كثير من أهل البلاد أن تسترعى سمع عدد كبير من رجال الرأي ، حتى من عظماء الأحرار الانكليز المزاولين للشؤون السياسية الهندية ، وأرباب الاعتقاد الراسخ أن الهند تزداد استعداداً متوالياً للحكم الوطني ، حتى يأتي يوم تغدو فيه جديرة بنيل الاستقلال التام . قال أحد هؤلاء الأحرار ، « ادوين بيفان^(١) » : « متى ما قام أرباب الحركة الوطنية من أهل الهند يطالبون بالحرية فما يعنون بهذا الا الحكم الذاتي الذي ينتغون على يده التحرر من ربة الأجنبي . فينبغي أن نجيبهم كما أجبناهم^(٢) : نعم حكماً ذاتياً ستعطون وبه ستمتعون ، انما ذلك على شريطة واحدة ، هي أن تكون الديمقراطية مصاحبة للحكم الذاتي . اننا لتتخلى لكم عن الحكم عند ما نرى فيكم شعباً هندياً يستطيع أن ينزل أمراءه وحكامه الوطنيين على أمره وملكته . ولكننا لن نتخلى لكم عن الحكم هذا مادنا نعلم ان من ورائه نشوب الاوليافارقة وانتشارها . هذه علة الخلاف بين من يقولون بوجوب منح الهند الحكم الذاتي عاجلاً ، ومن يقولون بأن الهند غير نضيجة له حتى اليوم ولكنها آخذة بالاستعداد المتزايد لتصبح يوماً جديرة كل الجدارة بنيل الحكم الذاتي والاستقلال التام . أما الفريق الأول فيعنى بالحكم الذاتي أن يحكم الشعب الشعب وهو يرى من الواجب أن تمنح الهند حكماً ذاتياً في المستقبل القريب . ويقول الفريق الآخر : اذا ارتفع الحكم الأجنبي وزال للحال ، نشأت عدة حكومات على أثر ذلك على جانب من العيوب والنقص ، فتعود الفوضى والاضطراب منتشرين في الهند ، وفوق ذلك ان تكون هذه الحكومات ديموقراطية بل استبدادية يجور فيها القوى على الضعيف »

هذه صفوة آراء النقدة الغربيين والشرقيين الذين لايقولون باستئصال شعوب الشرقين الأدنى والأوسط اليوم ، ولافي المستقبل القريب ، للحكم الذاتي . ثم نأتى الآن على

(١) E. Bevan من مقال له « الاصلاح في الهند » ١٩١٠

(٢) أي توسيع نطاق الحكومة الذاتية الممنوح للهند على مقتضى تقرير « موتاغو - شلمز فورد » .

يراد آراء الفريق الآخر وأربابه من أهل الانصاف والتفائل ، الذين يقولون ، مؤيدين قوهم بالحجة والبرهان : ان المنازع الحرة فى الاسلام انما هى خير أساس يصح أن تبنى عليه الأنظمة السياسية الحديثة تامة الأجهزة وافية بمقتضيات الحضارة والعصر . قال الحجة الثقة أرمينيوس قامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية - الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فان كان العالم قدشهد حقاً ، منذ أول عهد العمران البشرى الى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » وقال محقق انكليزى كبير^(١) خير فى شؤون الشرق الأتى :

« ان بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ومهجم أ كبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار^(٢) فى شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم ان تركية لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة . انما ذلك وهمٌ شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقه الى انشاء الحكومة النيابية وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، ان النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركية انما هى أفضل اس يشيد عليه الحكم النيابى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويستترىء بعضهم بعضاً فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هى ديموقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها اذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها اغراقاً فى التدى من ادراك معنى الشورى والدستورى والنظام النيابى » . ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) A. H Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام في مواقيت معلومة لمناقشة السلطان في شؤون الدولة ، وامداده بأشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلاً حتى أنشئ في العهد الأخير مجلسان الأول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء^(١) ، زد على هذا فقد أنشئ مجلس نواب مرتين الأولى في سنة ١٨٧٧ والآخرى في ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلاً إذ قضى عليهما الاستبداد الجيديد ، فقد كانا على كل حال من سوابق المراتب القانونية والمراس الشرعية على نظام الدستور والحكم النيابي . « وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب الا يعتبر اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن الى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شطر الأميركي ليقوم بتنظيم الشؤون المالية في بلادها فلم يطل مقامه في فارس الى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الإداري الكبير مبيناً استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسي لانشاء النظام الدستوري وهو متفائل في ذلك كل التفاؤل :

« انى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيباً لأمة مثل ما يحوى من ذلك للأمة الفارسية التي انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة الى دور الحكم الدستوري النيابي ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يدل على أن أمة ذات مقام عال في الحكمة السياسية وفي معرفة أصول الاشتراع الى حد يكاد لا يصدق^(٢) أما أعضاء المجلس

(١) كنا مرة نطوف في قصر طوب قيو (مقر السلاطين في الاستانة قبل بناء طوليه بنججه وبلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراءه كل يوم للنظر في أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم في هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحد . فدخل مرة زعيم قادم من الاناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكار مزكيدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان ذكاً مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لاتزال الى الآن (ش)

(٢) ومن في الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسية واستعدادها للرق ، وهي الأمة المتمدنة منذ آلاف من السنين التي اوتيت في العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله أمة من الأمم (ش)

النيابى الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشئ المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً فى تثبيت دعائم ورفع بنيانه وجعله فى حرز حريز من طوارى الاستبداد . . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع مايسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء .

« وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى اعرف اعضاءه معرفة شخصية صحيحة ، فما كان على كل حال ليعد فى رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الاميركى . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، فى بلاد استطالت رقتها اجيالاً ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدير أمورها على نمط تظاهى به الحكومات التى انقضت على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقاً . لاينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج الى كثير من المعارف الاكتناهية فى كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة ، بيد ان الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف معتبراً هو أن هذا المجلس النيابى الفارسى يمثل حقاً رأى الامة الفارسية ، وبه نوبة جميع أمانيتها ومبتغياتها التى تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم والرأى السديد والشجاعة الحققة . يحنون أضلاعهم على قلوب تتضرم اخلاصاً ووطنية ، يبحثون بمجد وعزم فى كل مقترح وطنى وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص فى الخبرة الكافية لتدير الشؤون المالية واذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخالص ، يحضونهم الود ويجعلونهم موضع ثقنتهم ومحققى آمالهم ويفوضون اليهم أمور التنظيم ، هذا اذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكاييد السياسية والرشوة ومبادلة الامة الفارسية الود والاخلاص ، والصدق فى الاقوال والأعمال

« وليس من العدل ولا الانصاف فى شىء أن يقال ان المجلس النيابى الفارسى قاصر عن المجازاة الحققة فى ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الازر وامته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يبتغى جواز نطاقها بغير حق ، واعضاؤه أبداً على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة فى سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها واعلاء شأنها .

« اما الامة الفارسية فليست على مستوى تناوله صفة عامة . فالسواد الاعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة في الممالك الراقية فيعدون بالمئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والاخذ عن الحضارة الاوروبية . وهم هم الذين قاموا بدك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديموقراطية خفاقاً ، بعد ان ذلوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدي الحكومة التي انشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفي من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير لارتشاف العلوم والترقي ، خلال السنوات الخمس الاخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وانشتت الصحف الحرة فانبرى حذق الكتاب شارعين اقلامهم يهدون الامة خير هداية ، ويكافون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر في الامة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والادبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الامة بأسرها بتلك الروح الاسيوية التي ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة الى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً في انشاء الجمهورية الصينية »

ثم اهسى المستر شصطر كلامه قائلاً : « قد صاح الكاتب الأشهر (رديارد كبلنغ) ناصحاً مراراً ان الشرق لن يطبق بعد المناخس معملة في جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوماً مقاومة رجعية عظيمة . ولكن باستطاعة رجال الغرب ، اذا تذرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الأوروية الصحيحة أن يستسرعوا الشرق في سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون ان ذلك هو خيرهم ومصالحتهم . على ان الحق الذي لايمارى فيه ان روح التضامن الأدبي والعزة القومية والعصبية الجنسية جميع ذلك قد غداً شديداً في الشرق شدته في الغرب ، فبات الشرقيون بسبب ذلك صعب المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا مادامت أوروبا سائقة لهم في سبيل واحد غاية ابرزهم للماء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها (١) »

حقاً ، يعتقد كثير من الأحرار الغربيين ان التسلط الأوروبى ليس من شأنه أن

يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتي والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهماً كان (١) بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار ان الطريقة الوحيدة المثلى التي أهل الشرق أحرى بتعليمها والتدرب عليها ، هي أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرج ذاتها بذاتها عليه ، وقد أجاد « ليونل كرتس (٢) » الكاتب الانكليزي الذائع الصيت ايما اجادة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهديب ، والثمرات والخيرات ، التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهديب ينقلبان خطراً كبيراً وبلية ايجابية ، مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً . ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية الا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافي حيز النظر والتصور والخيال .

« قد يقول بعضهم اني لجوج في طلبى الذى بينت فيه انه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلاً صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية الى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطالب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة الى هذه الحكومة الفتية وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لاعطف الظئر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ماأريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالاعغالل من ناحية أخرى . فان لم

(١) جميع المسيطر بين الاور و يبين في الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدينوى وان يجتروا من التعليم بتدر يس لغاتهم فقط دون الفنون التي فيها . وان ماجاهدته مصر في أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف وتكثير المدارس يعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المحتلون يقيمون في وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . اما في الجزائر فابقاء الاهلين في الجهل وحرمان أطفالهم من الكتابيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك

(٢) كتابه : « رسائل الى أهل الهند في شأن الحكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)

Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government,"

يكن هذا ، فليس من سبيل اذاً لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بانها مسؤولة لدى الشعب الذى هو من ورائها حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال ان يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذلك ليدرأ عنه نعم ان السبيل شاقة وليكن الشعب الذى يتبغى بملء ارادته حكماً ذاتياً لا يتسنى له الوصول الى غرضه السامى وغايته الكبيرة الا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأأنفس وتركب الالهوال وربما الى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يدوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

«انى لأعفر نفراً كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى الى الهند من الخير والنفع ، من انشاء النظام وتثبيته ، وحل أهل البلاد على العلم بان الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكائنها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لأعتقد ان النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد ، دون أن ينقلب الى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى الى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناه على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص .

«يجب أن يكتر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لا يتم الا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل الى نطاقهم نقلاً مزداداً . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جالوساً على المقاعد .

«لاوصول الى الغاية التى بينها حديثاً وزير الهند^(١) الا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول الى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ، والانتهاى الى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الالتئام مع ماهو معروف لنا من التقاليد . وان مابق أماننا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا .»

(١) اشارة الى الغاية المبينة فى تقرير موتاغو - شلمز فوررد من منح الحكم الذاتى

ان كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ماهو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية . ان الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظي شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شرززال فغدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخياً استرخاء متوالياً يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لامرء له ولا مدفع ، مما يدل على انه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية في الشرقين الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه . اما التساؤل أتسى هذه الشعوب التي ستصبح حرة ، اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معائر الاستبداد والفوضى ، أو تفلح حقاً عالية الجبين في انشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ذلك أمر سيكشفه المستقبل . واذ قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق التطور السياسي ، سالها وموجبها ، ندع القضية مستاقية في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين قلبها المستمر في هذا الدور دور التحول . ومنتقل للكلام على العصبية الجنسية .

اللورد كرومر

المؤرخ

ان هذا الرجل المسمى باللورد كرومر^(١) يصح أن يكون مثالا للاوربي المستعمر المتسلط الذي تنحصر سياسته في تدليل جميع العقبات القائمة في وجه استيلاء أمتة على قطر من الأقطار الشرقية ، ولما كان ميدان عمله مصر وكان لا يمكن أن يجري فيها من ضروب الاستبداد الاستعماري بقوة السلاح ما يجري في السودان أو الصومال مثلا ، لجأ في الاستئثار بأمر مصر الى الجدل واقامة الأدلة على كون مصر وكل بلاد شرقية أو اسلامية لاتصلح للحكم الذاتي ، ولا يجوز أن تخلو في يوم من الأيام من السيطرة الأوربية . ولأجل أن يعلل وجوب هذه الديمومة الاستعمارية التي لانهاية لها ، حال كون كثير من المستعمرة الأوربيين يجعلون الأمد بينهم وبين حرية البلاد التي استولوا عليها وصول هذه الى درجة الكفاية والأهلية للحكم الذاتي كان يزعم هو أنه لا يمكن وصول شعب مسلم الى درجة كهذه أبداً لموانع قائمة في طبيعة الاسلام نفسه ، وكان مقام اللورد كرومر في انكلترا بسبب كونه هو الآخذ بزمام مصر يجعل له كلمة نافذة وقولا مسموعا، فكان كل سنة يصدر تقريراً ينطف سما على مصر وعلى الشرق وعلى روح الاسلام ، ويتلقى الناس ذلك منه أنه نتيجة خبرة طويلة ومعاركة دهر في بلاد الشرق، ويحفلون بكلامه ويتخذونه دستوراً. والحق انه لم يكن الا عبارة عن رجل مستعمر مستبد عدو للشرق عموماً وللإسلام خصوصا يتأجج بغض الاسلام في قلبه نظير ما كان عليه غلاد سرتون ، وأخيراً ظهر عدوانه هذا بكل جلاء في حادثة « دنشواي » التي تغلب فيها هواه على مهارته ، فكانت سبب سقوطه وصرفه عن مصر ، فانتقم لنفسه بتأليف كتاب خاطرات حمل فيه على الاسلام حملة شديدة . وان جميع ما يدعيه هذا الرجل وأمثاله من عدم قابلية الشعوب الشرقية للرقى ، ان هو الا من الاستدلالات الاستعمارية التي مرماهم فيها معروف ، وهو أن يجعلوا حكمهم لهذه الشعوب سرمداً ،

(١) انظر صفحات ٥١ و ٥٢ وما بعدهما من هذا الجزء

لانه صار يصعب عليهم ترك هذا الحكم برضاهم بعد أن ذاقوا لذته وجنوا ثماره . جاءنى مرة وأنا منذ سنتين فى برلين اثنان من سفارتين من سفارات الانكليز الكبرى فى أوروبا يريدان أن يباحثنى فى المسائل الشرقية ، فكان من جملة ماقال لى أحدهما : قل لنا بشرفك هل تعتقد كون هذه الشعوب الشرقية القائمة كلها بطلب الاستقلال هى أهلاه . فأجبتة : قل لى بشرفك هل بلاد اليونان منذ قرن والبلغار منذ ٤٠ سنة والجبل الاسود والصرب كانت أرقى مماهى مصر وسورية وتونس الآن ؟ فلماذا يطلب لتلك الاستقلال مع مساعدة جميع أوروبا وأثناء تصفيقها وابتهاجها وينكر على هذه بحجة أنها لم تصل الى درجة الكفاءة

قال الانكليزى : أفلا تعترف بموننا أقدر على ادارة مصر من أهلها وان وجودنا فيها أضمن لمرافقها المادية . قلت له : أفلا تعترف بأن النمسا أقدر على ادارة يوغوسلافيا من الصرب وانها أرقى بدرجات من الصرب ؟ أفلا تعترف بأن النمسا هى التى هذبت ورقى مستوى جميع تلك الامم التى انسلخت عنها بمساعدتكم ؟ أفلا تسلم بكون الرومان الذين كانوا فى المجر هم أرقى من رومان نفس رومانيا وان حكومة بودابست هى أعلى مراراً من حكومة بخارست ؟ أفلا تقر بكون الالمان هم أقدر من البولونيين على ادارة سيليزيا العليا ؟ وان مرافق سيليزيا العليا تكون تحت ادارة المانية مضمونة أكثر مما تكون تحت ادارة بولونية ؟ فلماذا اذا سلختم يوغوسلافيا عن اوستريا وترانسيلفانيا عن المجر وقسما من سيليزيا عن المانية ؟ ربما تقولون لملاحظات أخرى وطنية واعتبارات قومية لابد منها اذكل أمة لها حق فى أن تدير نفسها بنفسها فلماذا هذه الاعتبارات القومية والوطنية تبقى مرعية مادامت فى أوروبا فاذا كانت المسئلة فى الشرق لم يبق هناك من سبب يجب اعتباره سوى حسن الادارة ؟ قلت له : أنا لا أشك فى انه لو استولت المانية على استونيه أو ليتوانيه أو لتونيه لادارتها أحسن مما يديرها أهلها اليوم ، ولو استولتيم أتم على البرتغال لكانت حال البرتغال المالية والادارية أحسن منها فى أيدي البرتغاليين وهلم جرا ، أفسمح أوروبا للمانية بحجة علوية الادارة أن تستولى على بلاد البلطيك أولكم بأن تستولوا على البرتغال ؟ لأظن ذلك . فلماذا بحجة أفضلية الادارة تتمسكون بالبقاء بمصر ولا تنظرون الى ماهنالك من العوامل القومية والوطنية ؟ ولماذا جمهورية اريفان الارمنية تستحق الاستقلال

وكرجستان هي أهل للحرية ، ومصر وسورية لاتستحقان الاستقلال ولا الحرية ؟ أترى اريفان هذه بل كرجستان أرقى من مصر أو سورية أو العراق أو تونس ، كلا . فلماذا تحللونه عاما وتحرمونه عاما . وأغرب من هذا أن أذربيجان التي هي أرقى جداً من اريفان لم نجد دولة من دول أوروبا طلبت لها الاستقلال وهن باجمعهن يطلبنه لاريفان . مع أن اذربيجان أربعة ملايين و اريفان أربعمائة ألف وأذربيجان متمدنة و اريفان بجانبها تعد متوحشة . وكذلك جميع الدول مهتمة بدفع البولشفيك عن اريفان وكرجستان وليس من واحدة تطلب دفعهم عن اذربيجان والطاغستان هل في ذلك سبب الاكون الأوليين مسيحيين والآخرين مسلمين ؟ افبمثل هذا العدل وهذه المساواة تطمع أوروبا أن يكون بينها وبين الاسلام سلام ؟ فلما لم يجد على كلامي جوابا يليق برجل عاقل دخل في واد آخر وقال : طالما قيل لنا عن ذكائك وقوة حجتك الخ (وأخذ بالتقريظ والاطراء) فالآن صدق الخبر الخبر . وبالجملة فلا يظن ظان أن كلام اللورد كرومر وأمثاله هو كلام ناقد خبير محرب في ادارة الشرق يتكلم بخلوص نية ونفى للغرض بل هو كلام ناقد خبير بادارة الشرق على الاسلوب الذي يضمن بقاء السلطة الاوربية ويزيد دخل الاستعمار المالى ويقتل العواطف الوطنية ، ويقوى حسّ الافتتان بالفرنج و يصرف الشرقيين عن المطالب القومية . والذي يقال دائماً هو أن اللورد كرومر خدم أمة أجل خدمة وأنا أقول انه مهما جلت خدمته بالاخلاص لقومه فخدمته للشرقيين بما ظهر من تعصبه وسوء نيته كانت أجل وأعظم

العرب ديمقراطيون

الشيخ

ليس من عادة العرب قديما ولا حديثا التخاذع لملوكتهم وأمرائهم كما تتخاذع لامراءها وسلوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم باللقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم الا بمجرد اسمائهم . وانما كانوا فى أيام الخلفاء بدأوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لا غير . فكل ما دخل فى العربية والعرب من ألقاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال أهل البادية - الى يومنا هذا - ينادون شيوخهم وأمرائهم بمجرد اسمائهم ، فاذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : يا أبا فلان . هكذا يخاطبون الملك ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل بن الحسين مؤخرًا وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : يا أبا غازى . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هى الديمقراطية الصحيحة . وكانوا فى العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب : « لورأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . وكان الاخنف يقول لمعاوية : « والله يامعاوية ان السيوف التي قاتلناك بها لى فى انعامها » . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال : « أيها الناس اتقوا الله » . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : « اذكرك الذى ذكرتنا به » . فاجابه الخليفة : « سمعا سمعا لمن ذكر بالله »

نعم ان كان فى الدنيا شرقها مع غربها قوم ديمقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لا يزالون فرقا وحزقا ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخمة ، اجابه النعمان : ان الاعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوسا وأحى أنوفاً من أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الاصلية فى تحاسد هذه الامة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض

مما آل الى فقدها الملك العظيم الذى كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف
و بمناظرات القيسية مع اليمانية التى كانت آفة على سلطان العرب فى كل مكان ، والسبب فى
وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الاندلس وغربى أوربا

ان العرب لم تجتمع كلمتها الا بدعوة دينية هى دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت
فيها روح الديمقراطية بما فى الاسلام من سنن المساواة والاخاء والحرية . قال عمر بن
الخطاب : لسنا فى كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفر
قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودرية لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعنا لسلطاننا ، بل نحن
فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمره حكمة ، واثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ
وأما المشاورة فالى اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل
العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لابل فرض اوجبه الله فى كتابه
قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبي صلى
الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يعملون كل شئ عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق
رضى الله عنه فى احدى خطبه : « ولكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر » .
لذلك جميع الحكومات الاسلامية هى شورية ديمقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها
عارض ومن جعلتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

الفصل الخامس

في

العصبية الجنسية

العصبية الجنسية أعظم مظهر من مظاهر المجتمع البشرى في هذا العصر ولا مرء في ذلك . نشأت في أوروبا أول منشأها خلال القرن التاسع عشر ، ولما اشتد ديب فعلها في العروق ، وبلغت أعظم مبلغ من التأثير في الامزجة ، لم تلبث أن غدت عامل التغيير والتبديل والانقلاب في القارة الاوروبية ، حتى بات القرن الخالى يعرف على الغالب بعصر القوميات أو العصبيات الجنسية . غير أن العصبية الجنسية ليست بالظاهرة الاجتماعية التي نشأت في الأفق الاوروبى ولزمت حدود هذا الأفق لا تجوزها ولا تتعدها ، بل انها التيار العجيب الذى بدأ في أوروبا ثم أخذ ينتشر في الارض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة في الشرق والغرب ، وما زال على جدّ في مسراه ومتغلغله في الشعوب والأمم ، يفتح طريق الانقلابات الكبرى ويمتهد سبيل التطورات العظمى في هذا المجتمع الانسانى .

وإذا غدت العصبية الجنسية على ما هي عليه من بعد الخطورة وعظم الشأن ، وأصبح عاملها أكبر عامل في تطور الأمم ومسيرها ومصيرها ، كان لا بدّ للباحث أن يسأل ، ما هي العصبية الجنسية ؟ سؤال لم يرح مبحثاً واسع المجال لأهل العلم والاستقصاء ، فتعددت في ذلك آراؤهم ، وتنوعت أقوالهم ، واختلفت مذاهبهم . فحددت طائفة منهم العصبية باللغة ، وطائفة أخرى بالتهذيب متناولاً الطباع والسجايا ، وغيرها بالجنس والعرق ، وغيرها بالوحدة السياسية ، وغيرها بالاقليم الجغرافى ، وغيرها بالوحدة الاقتصادية ، وغيرها بالدين . فجميع هذه التحديدات على اختلافها ، وربما ينطوى تحتها غير ذلك ، يمكن اعتبارها على الجملة عوامل ممهدة ، وأسباباً وتحليلاً تُعدّ بفعلها وتأثيرها ما تعد ، مفضية الى خروج العصبية من عالم القوة الى عالم الفعل ، ولكن من رام اكتناه سر هذه العصبية رآها تبدو في أفق أعلى وأسمى ، أفق تتجلى فيه صورتها مزاجاً معنوياً جامعاً لمفعول جميع العناصر التي

تكون منها تلك العصبية . فالعصبية الجنسية ليس في شأنها غامض لا يستبان أو سر لا يدرك ، وذلك على مختلف المذاهب التي ذهبها أهل العلم في تحديدها وتبيين ماهيتها ، فهي بحقيقة معناها حالة وجدانية عقلية ، إنما هي معتقد مشترك عند عدد كبير من الناس يعتقدون عليه قلوبهم وضأثرهم انهم يؤلفون « جنسية » متميزة عن سواها ، إنما هي شعور بكيانهم أمة متضامنة متماسكة ^(١) وهذه الأمة ، باعتبار ما هو قائم من معناها بفكر أبنائها ، ومتصور من شخصها بعين العقل والذهن لديهم ، هي شعب أفرادها مشتركون مجتمعاً ومنظموهم حالا في ظل حكومة واحدة ، ويسكنون معا بلاداً معينة . ومتى ما أدركنا ماهية العصبية ومرماها وغايتها ، وتقرر ذلك جلياً ، حصل ما هو معروف عند أهل العلم « بالجسم السياسي » أعني به الدولة . غير أنه لا يندن عن البال بته أن هذه « الدولة » ان هي الا المظهر المادي الذي تجسمت فيه غاية سامية ومنزع شريف ليسا بمحدثي النشأة بل هما على الغالب ذلك انظمح القومي الذي ما انفكت نفوس القوم تشره اليه حقبا وعصورا متطاولة ، وهو اذذاك في عالم القوة مجرداً عن شرطه المحسوس وصفة المادة كالعرش والسلطان والحدود الجغرافية . وأيضاً لا يندن عن البال أمر آخر ، وهو أن الدولة ليس من شرطها أن تكون أمة . وشاهدنا على ذلك امبراطورية « أوستريةهنغارية » الهبسبرغية . التي كانت مجموعاً من الجنسيات المتنافرة الاجزاء المتضاربة المنازع ، فلما فتقت ربح الحرب العامة مزقت من هذه الجنسيات مجموعها شرمزق ، وفككت جملة أوصالها ، وقوضت بنيانها ، وتثرت حلقاتها .

على أن الحرب العامة كانت درساً بليغاً كشف عن كثير من الحقائق في ماهية ظواهر العصبية الجنسية في هذا العصر ، ولا سيما العصبية الاوروبية ، الأمر الذي نقض كثيراً من فاسد المذهب وباطل القول مما شاع من قبل في تحديد طبائع العصبية . ولنا مثال على هذا سويسرة البلاد التي يدحض اعتبار شأنها تلك المذاهب والأقوال المختلفة ، في

(١) الفيلسوف رنان يقول ان الأمم لا تجتمع باللغة لأنه طالما اتحدت أمم باللغة ولم تشأ أن تجتمع في الحكومة . ولا بالدين لأن أماً كثيرة متحدة في الدين هي مختلفة في السياسة . ولا بالجغرافية لأنه قد توجد مواقع البلاد وحدة أقوام تراهم متفرقين دولاً متعددة . ولا بالمرافق لأنها ليست جامعة في كثير من الأحيان . ولا بالجنس لأنه كم من أمة مركبة من عدة أصول تجدها متحدة وأخرى أصلها واحد من جهة الدم تجدها متجزئة . إنما الرابطة الوحيدة بين الناس هي ارادتهم أن يتحدوا . (ش)

جعل نصاب العصبية الدين أو التهذيب أو لاقليم الجغرافي وغير ذلك ، اذ قد هاجت روح العصبية الجنسية في سويسرة هياجاً شديداً رأتها بسبب الحرب العامة ومحنها وأهوالها .

هذه حقائق جلية شائعة ، تعلمها الخاصة ولا تجهلها العامة ، مما لسننا بحاجة الى تقريره واقامة الأدلة عليه . غير ان هناك أمراً جوهرياً حرياً بالتقرير والتبيين ألا وهو : الفرق بين العصبية وبين الجنس أو العرق . اذ من أسباب الأشكال وعلل الالتباس ان قد استعملت هاتان الكلمتان في غير مواضعهما بلا تدبر ولا احكام ، بل ربما استعملت الاولى في موضع الأخرى مع اعتبار العكس ، فغدا معناهما على جانب من الاشتباه والاستبهام عند ما يراد التعبير عنهما في جاري العادة ومطلق البيان . وفي الحقيقة والواقع ان كل كلمة منهما لتدل على معنى بعينه لا تدل عليه الأخرى . فالعصبية انما هي مزاج معنوي ، وشعور وجداني نفساني « سيكولوجي » ، والجنس انما هو شيء جسماني كأئن محسوس « فسيولوجي » يحدده العلم تحديداً محكماً ، ويعرفه تعريفاً صحيحاً ، ويفرق بين أنواعه وأجناسه وصفاته ، كما هو الأمر في شكل الججمة وتركيبها ، وتكون الشعر ، ولون العينين والبشرة وغير ذلك . ذلك بعبارة أخرى ، فالجنس انما هو الشعب أو الأمة المقرر الاصل والحقيقة تقريراً علمياً انثروپولوجياً ، والعصبية هي ما يعتقد ذلك الشعب أو الأمة في شأن حقيقة أصله ومتسلسل تحدره اعتقاداً سياسياً .

وفي هذا الموضوع من الاعتبار يبدولنا تناقض بالغ منتهى الغرابة بلا ريب . فما لا يحتمل الجدال انه عند اعتبار شان الجنس والعصبية ، فالاول هو ما ينبغي عدّه الاساس المعوّل عليه والذي يصح الركون اليه ، لانه الأبعد عرقاً واصلاً ، والا شد شأننا وخطورة على كل حال وطور . اذ ليس بمستور بعد ان ما يكون في الانسان من الاستعداد النفساني الفطري انما هو ما يتحدر اليه بالوراثة من آباءه وأجداده ، وينتقل اليه من متواصل الارحام وتسلسل الانساب ، ولا مذكور أمر للبيئة مهما كانت فواعلها شديدة ، فالانسان هو ابن الوراثة ، ذلك الواقع لامراء فيه ، لا ابن البيئة ولا ابن الوسط الذي ينشأ فيه . غير أن الناس قلما يعتبرون شأن الجنس حق الاعتبار وقالما يقيمون له من الوزن الصحيح بل تراهم على الضد من هذا يقومون ويقعدون للعصبية الجنسية الهائجة منها نفوسهم حتى

أعمقها ، والسبب الأكبر في هذا - على ما هو ظاهر - هو ظهور علم الاجناس البشرية حديثاً ، بعد استنساخه عهداً طويلاً حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، العهد الذي منذ تاريخه شرع اقطاب العلم يوقنون بماهية حقيقة الجنس وخطورة شأنه وأصله ومبلغ ماله في الواقع من بالغ التأثير في حال المزاج . زد على هذا أن الحقائق التي يكشف عنها العلم ، وثبت دعائمها ، يقتضى لها مدة من الزمن ليست بالقليلة لتندرج في مستقر موسوعات علم الكافة ، وتلابس أفق الجمهور والعوام من الناس . وما من سبيل لارتسام هذه الحقائق في اجرياء الافراد وطبائعهم ، مؤثرة في مناهج سلوكهم وتعاملهم ، الا بعد أن ينقضى على تقريرها العلمى ردح طويل من الدهر . واعتبر فوق هذا أن عقيدة العصبية وهي أقدم عهداً وأبعد منشأً وأصلاً ، قد تغلغلت في آفاق الانفس من الناس كافة ، وانتقشت في أذهانهم ، ودارجت طباعهم ، ولاست حالات أمرجتهم ، حتى غدت مرئية الآثار المحسوسة في جميع ما يأتونه من الاعمال والحركات . فلذلك ما برحت حياتنا السياسية على الجلة اليوم خاضعة خانعة لعوامل العصبية الجنسية لا حقيقة الدم والجنس ، وأيضاً ما انفكت السياسة العملية الواقعة مسيرة تسييرها المشهود هذا بعوامل العصبية ، أعنى ليس بعامل العلم بحقيقة الأصل . بل بعامل ما يعتقدوه القوم من حقيقة أصلهم اعتقاداً سياسياً لا أكثر .

انما لنا عبرة في الحرب العامة ، الحرب التي عرفت على الغالب « بحرب الأجناس » الأمر الذي كان يزيد حقاً في انبعاث الاقران لقتال الاقران ، وهول المجزرة وانتشار الاشلاء في المعمعان الاكبر . ومع هذا كله فان الحرب لم تكن في الحقيقة والواقع مقصورة على شيء من معنى حرب الاجناس فحسب ، بل على شيء أكثر من ذلك . فقد أجمع أئمة البحث في علم أصول الاجناس البشرية على أن أوروبة انما يسكنها اليوم ، ما خلا بعض الاقوام المختلفة من العصر الحجري القديم وبعض بقايا المجتاحين الاسيويين في زمن التاريخ ثلاثة عروق : (١) العرق الشمالى الاصهب اللون المستطيل الرأس . (٢) العرق الجنوبى المدور الرأس . (٣) العرق المتوسط المفلطح الرأس أسمر اللون أو حنطيه . غير أنه قد انتشرت هذه العروق وتفرقت ، واختلط بعضها ببعض اختلاطاً رجلياً ، فتوشجت متحدرات الأئسال جيلاً بعد جيل ، بحيث غدت كل أمة من هذه الأمم الأوروبية اليوم مؤلفة

على الأقل من عرقين من هذه العروق الثلاثة ، فضلاً عن أن كثيراً من هذه الامم أيضا مؤلف من العروق الثلاثة معا ، جامع لها فى جيل واحد . فبهذا الاعتبار لم تكن الحرب العامة فى أوروبا ، عند احكام القول وتحريره ، حرب أجناس كما قال الفائلون فحسب ، بل حربا أهلية بين عيال وأسر ذات قربي واشجة وصلات رجعية مشتبكة .

وقد عرف كثير من الاوروبيين أهل العلم الصحيح هذه الحقيقة حق المعرفة وأيقنوا بها وانتحلوا عقيدتها قبل سنة ١٩١٤ بعهد طويل . بيد أن ذلك لم يكن له شىء من التأثير فى تدارك الجائحة الكبرى ودرئها ، أو على الأقل فى التخفيف من هولها بعد وقوعها . والسبب فى ذلك أن الكثرة الساحقة والسواد الأعظم من أهل أوروبا ما برحوا يعتقدون انهم انما متسلطو العروق من أجناس مختلفة وأصول صحيحة الأرومة ، سليمة من الاختلاط . فهذا الجنس يقول بأنه متحدر من أصل « توتونى » ، وذلك من أصل « لاتينى » ، وآخر من أصل « سلافي » ، وآخر من أصل « انغلو سكونى » . والحقيقة أن هذه الأصول المعروفة بهذه الأسماء ليست بكائنة كيانا صحيحا كما يزعم الزعماء الأورويون ، لاختلاط أنسابها اختلاطا ذهب بسلامة العرق وصحة أصله ، وما هذه الفوارق الظاهرة سوى اختلافات تاريخية ناشئة عن اختلاف اللغات والتهديب فقط . ولكن من لنا بمؤمن بهذه الحقيقة إيمانا صحيحا . فالأوروبي يمكنه أن يدرك هذه الحقيقة المقررة إدراكا عقليا نظريا ، ولكنه ما دام لا يتعدى بذلك حدود هذا الخيز الوهمى التصورى ، الى الخيز الفعلى العملى ، فليس إذاداً لادراكه هذه الحقيقة شىء من عامل التأثير المحسوس فى نفسه . وهو لذلك ما برح يعتقد من صميم قلبه انه يتحدر من أصل « لاتينى » أو « توتونى » أو « انغلو سكونى » أو « سلافي » ، بحيث انك اذا استفززته بداعى دمه الجنىسى ، الدم الجارى فى عروقه والمتحدر اليه من اصلاب أجداده الأولين ، وأسلافه الأقدمين ، لم يبد لك سوى الزراية والمهزأة ، وليس هو كذلك اذا استفززته بداعى عقيدة عصبية فانه ليقترح الموت اقتحاما مستعذبا ورد الردى . وأيضا فانك اذا استفززته بداعى نصره بنى أصله الشماليين ذوى الرؤوس المستطيلة ، أو الجنوبيين ذى الرؤوس المفلطحة ، فلا تهيجه من ذلك هيجة ولا ينفر له صيد . ولكن الأمر يكون على الضد من هذا اذا استنصرته للذيد عن حى « التوتونية » أو « السلافية » فانه يهتاج ويشور ويشعل ويهرق دم

مهجته مستتبلا . وصفوة القول ، إن الشعوب والأمم اليوم هي عصبية لعوامل حقيقة أصلها وماهيته . من حيث هي طبيعة لعوامل ما تعتقد من حقيقة ذلك الأصل وماهيته اعتقاداً .

قد يستغرب القارئ بداهة أن أوروبة اليوم تسودها عقيدة الجنس النظرية ، وتقتادها اقتياد الراعي للسائمة ، من حيث أن لاشأن مقيداً ما كان لعقيدة الأصل وحقيقته المقررة بالعلم الصحيح وللأرومة الجنسية الثابتة بالدم المتحدر من أصلاب الأسلاف الأولين إنما في ذلك أسباب جمة وجبهة فإن عقيدة الجنس النظرية لم يقصر أمرها على كونها بحد ذاتها أكبر عامل في تطور أوروبة الحديث فحسب ، بل قد طغى سيلها وطبق تيارها الأعمى حتى جرف في سبيله تلك العقيدة الوليدة التي كشف عنها العلم حديثاً أعنى حقيقة أصول الاجناس، وكاد يخنقها خنقاً قاصياً . واعتبر أيضاً أن عقيدة الجنس النظرية قد ظلت حتى عهد قريب عقيدة مستقلة واسعة المضطرب رحبة الحيز ، تدل غالباً على متقارب الوحدة في التهذيب والثقافة واللغة والماضى التاريخي . وقد كان ذلك بجملته نتيجة منطقية ناشئة عن ضيق وقصر في مرعى المدارك الاوروية وأفهام أهل النظر . ولا بدع فإن منشأ هذه العقيدة الجنسية النظرية يمتد الى حقب بعيدة العهد ، حقب الاجيال الوسطى ، حيث كانت الحدود الجغرافية والاقطاعية والاختلافات في اللهجات اللغوية تعتبر من أسباب التمييز بين أمة وأمة ودواعى الفرق بين شعب وشعب . وما برحت هذه العقيدة الجنسية حية نامية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، فاذ ذاك تطورت حالها ، واتسع مضطربها ، وامتد أفقها ، حتى طما على القارة الاوروية لابل العالم بأسره . فباتت وقد انتقلت من دور الى دور ، أبعد مرعى وأوسع مدى ومجالاً ، يقصد بها تماسك الاقوام التي يجمع بعضها مع بعض أو اصر القربى اللغوية ، وصلات التهذيب والتقاليد التاريخية ، ولو كانت هذه الاقوام على شقة بعيدة ما بين الطرفين ما كانت . فاقضى الامر عندئذ أن يختار تعبير يؤدي المعنى ويدل دلالة كافية على متألب العروق المتحدرة من أصل واحد ، التماسكة بعصبية جنسية شاملة ، فقيل « الجامعة الجرمانية » و « الجامعة السلافية » ، و « الجامعة الانكليزية » و « الجامعة اللاتينية » وغير ذلك من الجامعات الجنسية المتعددة . على أنه من المعلوم المقرر ، كما قدمنا ذلك ، أن هذه الجامعات ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار أنها ترجع الى أصل صحيح الارومة ، خالص

من الاختلاطات، وبرىء من شوائب الالتحامات النسبية، إذ ما هي في الواقع سوى عصبية قومية عنصرية، متطورة ظاهرة مظهراً عصبياً. ولكن ما دامت أمم أوروبا وشعوبها مشتعلة بنار هذه العصبية فاني لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هي الجامعات الجنسية الخالصة التي لا ريب فيها. فذلك ترى السياسة العملية قد أصبحت في هذا الدور الجديد للعصبية، مغشاة الظاهر بأغشية جامعات يخالها أربابها أنها مشتملة على عروق سليمة التحدر من الارومة على حين أن هذا ليس الصحيح، ولن تزال هذه السياسة جارية هذا المجرى ما قيص للعصبية البقاء.

وهذا الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه في بدء التطور شاملاً للبلاد الأوربية المعدودة انها المواطن القديمة للحضارة، ثم ما لبث أن أخذ أفق هذا المضطرب يمتد ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية، حتى غدا بالغاً أقصى الأقطار الأرضية مشرقاً ومغرباً. فلما وصل الى البلقان مثلاً تولدت في هذه الأقطار للحال الدعوات النزاعة العرق الى الاصل، الراقية الى التألب العنصرى والاستمسك بعصبية الجنس، فنشأت الجامعة الاغريقية أو اليونانية، والجامعة السربية وغيرها. فغدت البلاد البلقانية قاطبة من بعد ذلك مرهبة الجواء بقاتم السحب لا يسمع فيها سوى قاصفات الرعود ولشد ما انقلبت بعد ذلك معمعانا رائعاً ومثاراً هائلاً.

ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبا وبلغت الاقطار الاسيوية، وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً، فنشأت حركة «تركية الفتاة» و«مصر الفتاة» وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر وإيران والهند وجميع هذه النهضات الوطنية العنيفة انما كانت أدلة صادقة بينة على أن آسية قد اختمرت شديد الاختمار بعوامل التنبى القومى والعصبية الجنسية. وما كاد يطلع القرن العشرون حتى أيدت صادقات الأدلة وواقعات الحال أن العصبية الجنسية في آسية كما في البلقان من قبل ذلك، قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثانى أعنى دور عصبية التثام العروق وتألبها الجنسى، فنشأت جامعات جنسية عديدة «كالجامعة الطورانية» و«الجامعة العربية» وأخرى غاية في الخطورة هي «جامعة العصبية الجنسية الاسلامية» التي ترمى الى وحدة المعمور الاسلامى من أقصاه الى أقصاه، وانضوائه تحت لواء اسلامى عام.

— ١ —

ونشرع الآن في الكلام على كيفية نشوء العصبية الجنسية وقيام النهضات القومية في الشرقين الأذنى والأوسط ، متدبعين ماقد اجتازته هذه العصبية من مختلف الحالات والأدوار ، وجاعلين البيان في هذا الفصل الذى أمامنا متناولاً شأن كل عصبية في رقع العالم الاسلامى رقعة رقعة ، ماعدا الهند ، إذ أننا قد أفردنا للعصبية الهندية فصلاً مستقلاً بذاته . والسبب في هذا الافراد هو أن رجال العصبية في الهند غالبهم من غير المسلمين ، أضف الى هذا أن النهضة الوطنية في تلك البلاد لمشتملة على عناصر وفواعل وصفات لم تشتمل على مثلها عصبية في قطر آخر من الأقطار الاسلامية .

كان العالم الاسلامى - قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر - هاجعاً هجعتة التي قد تقدم الكلام عليها ، بعيداً من التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية وكان غالبه منقسماً الى امارات متناثرة ولكن قوية المراس شديدة الشكيمة . وان ما كان في نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية انما كان متجهاً نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين . غيرانه كانت مظاهر العزة القومية ، ومبادئ الشمم والاباء جلية في غالب العناصر كالأمة العربية ، «أمة الرسالة» اذ في العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الانفعال والنمو ، ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيمياً كافلا لائتلاف المزاج الذي تغدو به العصبية عاملة فعالة . أما الشعب الاسلامى الفذ الذي كان حقاً يتمشى في عروقه ماينبغى لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده وعاشق موطنه القديم . وأماسائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شئ من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية ، والروح النزاعة الى الوحدة والتضامن ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة .

على ان في الأمر اعتباراً آخر . ان الاسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبية فلما انتهت الشعوب الاسلامية الى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عربهم وعجمهم ، وأضحت الغاية السياسية المقصودة في الاسلام من وحدة « الامامة » الكبرى ،

أو الشورى الشرعية العامة ، أمراً مقاوماً بطبيعة الدور والزمن بسبب انشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة في الملة الاسلامية ، كما كانت الحال في مبدأ عصر النهضة في أوروبا إذ كانت النهضات القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية و « المملكة الرومانية المقدسة » .

لهذا ليس من الغرابة في شيء أن نرى المنازع القومية والمطامح الوطنية في الشعوب الاسلامية تنشأ في أول عهدها نشوءاً يعرّوه الابهام والالتباس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . فلم تنجل عقيدة العصبية الجنسية الا في خلال النصف الآخر من القرن اذ ظهرت المنازع الجنسية الرامية الى التضامن القائم على الاعتبارات العنصرية في تعاليم جمال الدين الافغانى^(١) وظهرت أيضاً روح العصبية الجنسية في المصلحين الترك في منتصف القرن الماضى لتشرّبهم المبادئ الغربية واقتباسهم الآراء والافكار الأوروبية في الجنسية ، مما كان السبب في ظهور العصبية الجنسية فيهم قبل ظهورها في سواهم من الشعوب الاسلامية وقد استطاع أولئك المصلحون من رجالات الترك ، بمعاناتهم الصعاب وتفانيهم في سبيل خدمة سلاتهم وعنصرهم ، وبظهورهم مظهر المدلين المعجبين بصفة اعتبارهم العنصر الذى في يده زمام الحكم والسلطة على غيره من العناصر الخاضعة له من نصارى ومسلمين ، أن يلقوا نجاحاً كبيراً في نشر دعوتهم وفلاحاً عظيماً في القيام بنهضتهم .

وقد بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها من نوعها في أوروبا ، وذلك على الجلة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن اسفار العز والمجد ، وبتجديد اللغة على مقتضى حاجة العصر . فقد ظل الترك العثمانيون حتى نصف القرن الذى خلا يكادون لا يعرفون شيئاً من ماضيهم وتاريخهم ، وأصلهم ومنتسبهم بل كانوا اذا تذكروا المجد العسكرى الذى شيده أجدادهم ، وتلوا صحف تاريخ ملكهم الضخم الذى قد زال معظمه ، فعلاوا ذلك على غير مانسوة تصيب مزاج أرواحهم ، وتهيج منهم نفوسهم ، وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم و صحف آباءهم وأجدادهم ، اذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والأحاديث عن مجمل ماضى الاسلام ، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أبناء انتشار الفتوح العثمانية في القارات الثلاث . فلما انبرى رواد الإصلاح من أرباب النهضة يوقظون

(١) وهو من حيث اعتبار فلسفته صلة الوصل بين الجامعة الاسلامية والعصبية الجنسية الاسلامية

أبناء قومهم ، ويرددون على مسامعهم أنباء مجدهم التاريخي وذكريات عزهم الخالي ، استيقظت الأمة التركية بأسرها وأخذت تنتشى رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طماحة .

وقد كان شأن اللغة التركية منحطاً كشأن الأمة . فلما قام رجال الهمة ينتغون النهضة ابتغاءً صحيحاً ، وجدوا اللغة على شطرين : الأول التركية الرسمية وهي خليط مضطرب جامع بين خشن الألفاظ التركية الأصلية ، وبين مأنوس التعبيرات المأخوذة من اللغتين العربية والفارسية ، فكانت هذه اللغة الرسمية المبرقعة رطيني غير مفهومة عند العامة من الأمة . والآخر هو التركية القديمة المحدودة المادة ، المنقسمة الى عدة لهجات تستهجنها الطبقة المتهذبة الراقية وتتجافها لحوشية ألفاظها وخشونة تعابيرها . فلما شرع رجال النهضة في العمل ، بدلوا هذا تبديلاً ، واذ آثروا السهولة وتوخوا قرب التأدية في اللسان التركي أخذ العلماء الترك الغير من رجال النهضة الذين حصلوا علم اللغات في أوروبا ، يضعون لسانا تركياً جديداً ، مهدباً مأنوساً ، نهجوا في وضعه نهجاً غريباً . فلم ينقض على شروعهم في هذا العمل ما يقرب من ثلاثة عقود من السنين حتى استطاعوا أن أخرجوا للناس لغة تركية ، مشتملة على السلاسة وسهولة المتناول ، فأقبل أرباب الأقلام من الكتاب والشعراء على ارتياد نبعها وورد شرعتها ، فشاعت في حقبة قليلة شيعاً كبيراً عاماً في المجتمع التركي على اختلاف طبقاته ، وغدت اداةً يتنافس في اقتنائها ، وحلية ظرف يتجمل بها^(١) من المعلوم المقرر أن معظم السبب في النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على الثام العروق العنصرية ، انما كان جور أوروبا على تركية جوراً سياسياً شديداً . لذا كان الترك كلما ازدادت الحلات الاوروبية على الأقطار العثمانية تقطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حبا لوطنهم وتفانياً في سبيله ، وزياداً عنه وحرصاً على مستقبله ، كما انما ذلك الاعتداء كان للترك مستحسناً يسوقهم في سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد . وقد كان من غاية الترك في عصبيتهم الجنسية تريك جميع العناصر التي

(١) من أراد زيادة الوقوف على تطور النهضة الوطنية التركية يجد مراده في كتاب « تركية منذ أربعين سنة حتى اليوم » وكتاب « التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » للمستشرق الكبير ارمينوس فمباري : « Western Culture in Eastern Lands », « La Turaquie D'aujourd'hui et D'avant Quarant ans »,.

تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف النحلة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع متمزج بعضه ببعض هو الأمة التركية صبغة ولسانا وتفانيا في الوطنية التركية فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداما كبيرا بالعصبية الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه أسبق ظهوراً) في المملكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التي كانت قد شرعت تظهر ظهوراً بينا لامراء فيه في هذا العهد. أضف الى ذلك أن السلطان عبدالجيد كان مقاووماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتا بطبيعته وغريزته مقتا كبيراً لكل عصبية جنسية اية كانت ماهيتها ، لانه كان يخشى من وراء ذلك خسرانا لسلطانه المستبد المطلق ، أو على الاقل قسراً له ليكون فيه مقيداً ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبيات أن تحول بينه وبين الوصول الى غايته الكبرى وهي الجامعة الاسلامية التي ولى وجهه شطرها، واتخذها له قبلة ولسياسته أساسا يقوم عليه ذلك البناء الذي جهد في تشييده . جميع ذلك جعله على أن يكون مرتابا شديداً في رجال النهضة التركية ، على معالنتهم اياه بالاخلاص وصدق الولاء فنفى واضطهد جميع الذين نادوا بالمنازع الحرة وطلبوا الشورى والديموقراطية .

على أن ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت اركان الاستبداد الجيدى دكاً ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقالها وانشأت تشددً وتستقوى ، وبات جميع رجال « تركية الفتاة » ، على احتلافهم في شؤون أخرى ، يدعون الى هذه العصبية وهم في سبيلها مغامرون مستبسلون . غير أن تلك الاستماتة الكبرى التي قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر في حلول ما حل بساحتهم من البلايا التالية وفاق بهم من الفواجع اللاحقة . فقد اندفع رجال « تركية الفتاة » اندفاعاً كانوا فيه بعداء من التروى والحكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسي الأعمى ، محاولين تترك المملكة قاطبة في فترة من الزمن يسيرة . فهاج هذا الأمر الهائل ابناء العصبيات الأخرى هياجاً كبيراً جعلهم على التنكر لثورة سنة ١٩٠٨ ، وبه سنحت للدول البلقانية النصرانية الفرصة فاهتبلتها فاخذت تكرر على تركية المتضعضعة كرات عنيفة ما برحت تتوالى حتى سنة ١٩١٢

وحقيقة الواقع أن العصبية الجنسية التركية انما كانت تنتشر في أفق غير أفقها ، وتبتغى أن تمور في مضطرب غير مضطربها ، فكان بينها وبين سائر العصبيات مصطدم

هائل ، فاشتعلت نار العداة بين العنصر التركي من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر . وفي هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثاني ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المنشعبة من أرومة واحدة ، فبعد أن كان مضطربها لا يتجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايتها تريك سائر العناصر غير التركية في المملكة فحسب ، بانت ترمى الى غاية أرحب مجالاً وغرض أبعد مدى ، وتنزع الى فروع الجنس وعروق الارومة ، فنشأت على أثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » وستكلم على شأن هاتين الجامعتين في غير موضع من هذا الفصل ، أما الآن فاننا نسوق الكلام على مناشئ العصبيات الجنسية في الاقطار الأخرى من العالم الاسلامي ، وتتبع معتبرين كيفية اجتياز هذه العصبيات للدور الأول .

بعيد أن أنشأت تباشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تتبدى في الترك ، أنشأت أيضا تباشير مثل تلك تتبدى في العرب ، فيقظوا يقظة كان شأنها شأن كل يقظة مثلها يتبغياها شعب محكوم ، أعنى كان غالبها بطبيعة الحال انتقاضاً على الترك وقياماً في وجههم . وقد عرفنا فيما تقدم من الكلام أن تلك البلاد العربية الصحراوية (نجد) لم تبرح محتفظة استقلالها وحررتها ، وان سائر الأقطار العربية من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها للحكم التركي ، متجهمة في وجه الترك ، نافرة غضبي ، موغرة الصدر عليهم ، لأن أهلها العرب وهم من « أمة الرسالة » ، قد بات من شق الأنفس عندهم ان يظلوا خاضعين لير التركي الغريب ، وهو في عينهم مثال الفظاظة . وقد انقضى ألب سنة منذ أخذ الترك يدخلون في العرب ويمدون عليهم سلطانهم ، وعلى هذا كله فقد ظل العنصران على عداة ونفور لتضاد المزاجين تضاداً بعيداً لا يستطيع معه تآلف الطباع ولا التقارب ومحض الود . وقد وصف الكاتب الفرنسي « فيكتور برار (١) » مبلغ ما هما عليه العربي والتركي من اختلاف المزاج والسجية بقوله : « هكذا ترى شقة البون بعيدة بين اللغتين كما بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية . فالتركي من أدرنة أو اطنة يظل بعيداً أقصى البعد شمالاً ويظل العربي في سائر الاقطار وعلى مختلف الحالات بعيداً أقصى البعد جنوباً ، فهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان . فإن العربي الدمث الخلق

اللين العريكة ، الرحب المدارك ، المتفنن في شأنه ، النزاع الى الديموقراطية ، المعرق في احتفاظ حرية الفردية الى حد الفوضى ؛ من التركي البطي المتناقل ، الميل الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية . لذلك ظل التركي الحاكم المتسلط يحترق على الدوام العربي ويزدره لما هو عليه هذا من حب الفن والابتكار والرشاقة ويكره فيه اباؤه لرقابة النظام ، من حيث ظل العربي يرى التركي هجماً جلفاً ، ويحسب هدوءه واطمئنانه بلاذة وجهلاً وخولاً ، واحترامه القانون ذلاً ، وانغماسه في الرضاء المادى فجوراً ، ووحشية . وما انفك العربي يزرى على التركي وينعى عليه فقداًه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هذا كما كان أجحج جاهلاً غيباً» (١)

أضف الى هذا ان العرب باتوا يحسبون الترك متنكبين عن النهج السوي في ملة الاسلام ، ولذلك لاجرم ان كان شأن العرب على الدوام شأن المتأهب للاتقاض ، المتحفز للخروج على الحاكم الغريب . وقد أسلفنا الكلام في غير موضع كيف نشأت الحركة الوهابية وما كانت تقصده وتبتغيه من تقويض الحكم التركي وتحرير الأماكن المقدسة . ومع ان الوهابيين قد سقطوا دون أمنيتهم فقد ظلت صدور العرب موهجة يريدون الاتقاض والثورة . نحو سنة ١٨٢٠ كتب السائح بر كهردت الالماني في شأن بلاد العرب كلمة مأثورة : « متى أخذ الحكم التركي يولى وينحل ويتضعع في الحجاز يهب العرب آخذين بالنار (٢) » . وبعد ذلك الحين بما يقرب من عشرين سنة قال شريف مكة لسائح فرنسي : « ما أشقها علينا من حال ان نذكره اكرهاها ، ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة ، على حناية رؤوسنا هؤولاء « الباشوات » الأذنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبداناً نصارى ، فما استطاعوا بلوغ كراسي الحكم وتقلد أزمّة الأعمال الا بأحط الذرائع وأشين الوسائل (٣) » . وكانت تركية طيلة القرن التاسع عشر كلما خاضت حرباً في أوربة وخرجت

(١) في كلام فيكتور يرار هذا مبالغة شديدة زيناها له حب الانقسام بين هاتين الأمتين ، ومن أحب شيئاً تجسم له في خياله ، فلا العرب ينظرون الى الترك ولا الترك ينظرون الى العرب بكل هذا المقت وكل هذا الاحتقار ، وان كان هناك تباين بين الفريقين في خلائق كثيرة (ش)

(٢) برار - كتابه المذكور . (٣) برار - كتابه المذكور .

منها مقهورة مفتوتاً في عضدها ، عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها ، أو انتقاض تشب ناره في قطر من الأقطار العربية .

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من توالى الثورات غير المنتظمة التي لم تعد نطاق الانتفاضات والاختلافات في موضع موضع ، حملت عليها النعرة الدينية أو عوامل الوراثة والاقليم ، أو شعور نائر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقرررة عقد عليها الرأي ، ووضعت لتنظيم العمل في سبيل غاية قومية ومطمح جنسى . الا انه في خلال العقود الستة بعد منتصف القرن الخالى طفت الروح الجنسية والشعور القومى يظهران ويشتدان في العرب . وقد كانت سورية منشأ هذه الروح وذلك الشعور . فلم يكن هذا الأمر غريباً بل متوقفاً ، لأن سورية هي القطر العربى الخاضع لتركية عهدئذ ، والأكثر من سائر الأقطار العربية تعرضاً لتلقى الروح الغربية والمؤثرات الأوربية . بيد ان هذه الحركة الأولى التي قام بها العرب في سبيل جنسيتهم وعصبيتهم لم تأت بالثمرة الطيبة ولا أدركت بها الغاية لأن الذين قاموا بها انما كانوا عصابة قليلة العدد ، والعزم والحزم ، فاستطاعت الحكومة التركية إيجاد الحركة والقضاء عليها دون كبير مشقة . فلما نشبت الحرب الروسية التركية عاد العرب ينفخون في الضرم . فظلت الأقطار العربية تقوم وتقعّد ويستطار منها الشرر عدة سنوات . فانبرى رجال النهضة وأهل العصبية يرفعون عقيرتهم وينادون بتحطيم النير التركي وانشاء مملكة عربية متحدة الأقطار اتحاداً قائماً على استقلال كل قطر في داخله (كونفدراسيون) تشمل جميع الأقطار العربية وعلى رأسها زعيم دينى كبير غلب أن يكون شريف مكة . وأمر هذه الحركة كان ظاهراً ، اذ كان من شأنها أن تسلك مسلكاً بين العصبية الجنسية بمعناها الغربى وبين المنزع التقليدى الذى لم يبرح العرب ينزعون اليه منذ القديم غايته الرجوع الى الشورى الشرعية التي كانت عليها حكومة الخلفاء الراشدين ، وظهرت ثانية في الحكومة الوهابية في نجد .

وقد كانت هذه الحركة العربية الثانية في سبيل النهضة والعصبية مثل سابقتها نشوءاً ونمواً ، اذ كان السلطان المستوى على العرش العثمانى عهدئذ هو داهى الدهاة عبد الحميد الذى اقتضت سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية أن يستميل العرب ويوطىء لهم أكنافه ويحسن اليهم صنفاً ، وقد أفلح بذلك حقاً ، فغدت رجالات العرب تفد على القسطنطينية

لاقية من دار الخلافة كل رحب وسعة ، ومنزلة منزل الاجلال والاكرام ، وطفق عبد الحميد يصدق كثيراً من نعمه وآلائه على أمراء العرب وأشرفهم ، وزعمائهم وسراتهم ، ويجهد كل المستطاع لزيادة إرضاء الأمة العربية وطمئنة بالها وتطيب نفسها ، وفي الوقت هذا كانت المسالك الحديدية التي تفي بأغراض عسكرية عند الحاجة تنشأ في سورية والحجاز ، فسهل ذلك على الحكومة التركية أن ترسخ قدمها وتعز موقفها وشأنها في الأقطار العربية اعزازاً ما عرفت مثله قط من قبل من حيث كان للعرب في أمر إنشاء المسالك الحديدية خير وبركة^(١) ، فزادت أسباب التواصل بين الأقطار العربية بعضها مع بعض ، فتوفرت وسائل الثورة وكثرت عدتها . زد على هذا ان عبد الحميد عند قيامه بالدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية وضع نصب عينيه إيقاظ الشعور الاسلامي لانشاء وحدة اسلامية بين العرب والترك كما يستطيع بذلك مقاومة الغرب النصراني . وحقاً جاء جهد عبد الحميد هذا الجهد الكبير بثمره طيبة فكانت كل جملة من جملة الاعتداء الغربي على الشرق الأدنى عبرة كبيرة وعظة بالغة للترك والعرب تحملانهم على أن ينسوا أو على الأقل يتناسوا الأمر الذي يتنازعون فيه ، وينصرفون عنه للوقوف جنباً الى جنب ، وجعاً الى جمع ، ازاء العدو الخارجي المشترك

على انه قد ظل جانب كبير من العرب أهل غضب ونفور ، على ما استطاعه عبد الحميد من التوفيق والاستمالة والارضاء . فعند أواخر القرن التاسع عشر عادت الحركة العربية فظهرت مظهراً جديداً دل على شدة سخط العرب وشأنهم للترك ، فسارعت الحكومة التركية للحال في اضطهاد رجال الحركة الوطنية وأهل العصبية من العرب شر اضطهاد ، وأكثرهم من السوريين فنفتهم وأبعدتهم لتأمن من شرهم ، فاستقر حال بعضهم في مصر (وهي في الحكم البريطاني) وبعضهم الآخر في غربى أوروبا ثم شرعوا جميعهم ينظمون القيام بدعوة ثورية . فأنشأوا « الجمعية الوطنية العربية » في باريس سنة ١٨٩٥ وكان ذلك مبدأ رسمياً لعملهم الذي اعتموا على إنجازهِ . فانقضى عقد من السنين ودعوتهم تنتشر انتشاراً غامضاً ملتبساً ولكن مؤثراً تأثيراً ظاهراً ، ففي سنة ١٩٠٥ شبت نار الفتنة المسلحة في

(١) كانت السكة الحديدية الحجازية من خير ما أنشئ لفائدة العرب لاسيما أهل سورية ، وكانوا يقدرون ما استفيد دمشق وحدها من هذه السكة بمائة وخمسين ألف جنيه سنويا (ش)

القطرين العربيين الحجاز واليمن ، الفتنة التي لم يخذم أجيحها كل الخمود مع جميع ما قد تكبدته الحكومة التركية من بالغ العناء والمشقة لتسكين نائرها وقمعها ، بل ظلت الثورة مضطربة النار اضطراراً متقطعاً سنة بعد أخرى ، فقدمت تركة خسارات المال والنفوس مما كان له كبير شأن وتأثير في ضعف تركة المالى واستنزاف قوتها عند ما نزلت بها نازلة طرابلس الغرب والبلقان سنة ١٩١١ - ١٩١٢ .

ورن صدى الثورة العربية المشبوبة النار سنة ١٩٠٥ رنيناً هائلاً في الاندية السياسية الخارجية . فانتبه العالم إذ ذاك لشأن « القضية العربية » وعند ذلك افترض رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة فأخذوا يجهدون ما استطاعوا في تقوية دعوتهم يبشها ونشرها في جميع الممالك العربية . ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربية تكتسب شأناً خطيراً في عالم السياسة ، إذ وقفت دول أوروبا وبقية حلق الوقوف على يقظة « الأمة العربية الفتاة » وأدركت جلياً آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم . وكان من خير الوسائل لاسماع الدول العربية صوت العرب وابقافهم على حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الأمة العربية » أخرجته للناس أحد قادة الحركة الوطنية (١) ، فكان له كبير وقع وتأثير في المقامات السياسية العربية . ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » في باريس سنة ١٩٠٦ منشوراً موجهاً الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبديناً غايات العرب وأغراضهم التي يتبنونها ، وقد جاء فيه : -

« ان انقلاباً سامياً هائلاً حدث عما قريب في تركة . والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين في إرهابهم وتفريق حزمهم تفريقاً دينياً ليتسنى لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافاً وطنياً وقومياً وتاريخياً ، وهم يرغبون الآن في الانسلاخ عن الأرومة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولةً مستقلةً ، وهذه هي الأبراطورية العربية التي تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى قناة السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة . واما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينة المنورة فيتألف منها مملكة

(١) وضعه بالفرنسية نجيب غازوري وطبع في باريس ١٩٠٥

مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكاً وخليفة جميع المسلمين ، وبهذا تحل العقدة الكبرى في الاسلام وهي التفريق بين السلطين المدنية والدينية .

وفي المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بنى وطننا الأجزاء : كل منا يرى بألم عينيه عظم ما صار يلقاه العربي الشريف الكريم من المذلة والزراية اليوم حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الأجانب ولا سيما الترك . وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، في عهد ظلم هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسية الوسطى . فبلادنا ، وهي جنة الله في أرضه ، قد أصبحت اليوم خاوية على عروشها . فلما كنا أمة حرة فتحنا العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا في أمم الأرض مختلف العلوم والفنون والأداب ، وظللنا عدة قرون حياة الحضارة وممهدى سبل العمران . ولكن منذ أنشبت مخالب ارطغرل فينا واغتصبت الخلافة منا غدونا نقيم على القهر والذل ، فخرت بلادنا واقفرت أرضنا وتضعفت حالنا تضعضاً مارأى مثله شعب آخر في الأرض » (١)

غير ان البلاد العربية لم تنل إذ ذاك استقلالها ، فظلت الثورة لاتعدو نطاقا معلوما ، وظلت تركية قابضة على أزمة الحكم في غالب الأقطار العربية . ولكن وقوع الاضطراب والاختلال كان يتوالى على غير ما انقطع . وفي أواخر عهد عبد الجيد كانت الأقطار العربية قد أصبحت على حال من القلق شديدة يتنازع قواها عاملان : عامل الفتنة والثورة في سبيل النهضة القومية والجنسية العربية ، وعامل الجامعة الاسلامية المقتضية جمع كلمة المسلمين لمقاومة الاعتداء الأوروبي .

فلما كانت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيراً كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الأقطار العربية كسائر أقطار المملكة العثمانية فرحاً وحبوراً بأنهم اصرح الاستبداد وتقوضه حتى الاساس . ونظر العرب الى المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الأمانى وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم في « البرلمان » العثماني ليسوا بالقوم القليل العدد ، فطلبوا أن يمنحوا قسطاً معلوماً من الاستقلال الداخلى « اللامركزى » ، فرفض رجال تركية الفتاة مطلب نواب العرب رفضاً باتاً دون أن يجيبوهم الى شئ منه ،

(١) يمكن الاطلاع على كامل هذا المنشور في كتاب E. Jung :

« Les Puissances devant la Revolte Arabe :
La Crise mondiale de Demain ,, (Paris 1906)

ذلك لشدة ما كانوا موطنين أنفسهم عليه من القيام بتريك العناصر في جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر ان أدرك العرب وأيقنوا بحق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتداداً بالغاً في الأقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع ويشد ، رامياً الى الانفصال على ان هناك أمراً حرياً بالاعتبار التام وهو ان جميع الحركات والمساعي التي طفق العرب يجهدون في القيام بها في سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشيةً على خطة أوسع مجالا ونطاقاً ، وأبعد أفقاً ومرمىً ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبية العربية في أقطارهم الخاضعة لتركية على صلة وثيقة تصل بينهم وبين أمثالهم من رجال النهضة القومية في مصر وأفريقية الشمالية الخاضعة لفرنسة ، تلك الأقطار العربية التي أقل ما يقال فيها ان بعض ساكنيها هم عرب دماً وعرقاً وأصلاً. لذلك بعد ان كان ذكر العصبية العربية همسة تفرغ في الأذن أو سراً يتناجى ، صار صوتاً عالياً وصرخة جوازة الآفاق رنانة الأصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطعم كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع أقطار العالم العربي شاملة شمال أفريقيا وجنوبي آسية ، وممتدةً من الاوقيانوس الاتلنטיكي حتى الاوقيانوس الهندي . وهنا شرعت العصبية الجنسية العربية كالعصبية الجنسية التركية ، تجتاز دورها الثاني دور العصبية النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الأرومة .

وقبل أن تتوسع في الكلام على الجامعة العربية توسعا عاما يجدر بنا أن نبسط كلمة نبين فيها الجرى الذي جرت به العصبية الجنسية في المملكة العثمانية وذلك أنه في الحين الذي أثار فيه الأعتداء الغربي سنة ١٩١٠ - ١٩١٢ العاطفة الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومي العربي يهتاج احتياجاً شديداً متوالياً دون انقطاع بسبب ما أنشأت تركية الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتتريك العناصر ، فثار نائر الاستقلال في العرب ولكن كان رائعا هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم الجنسية أكبر تمثيل . ففي سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر عربي في باريس وضع أعضاؤه خطة وشرعوا في القيام على مقتضاها بدعوة ثورية واسعة النطاق . فلما نشبت الحرب العامة في السنة التي تلت كانت الأقطار العربية الخاضعة للحكم التركي تقوم وتقعده مضطربة أشد الاضطراب ، فأر بد الجوبق بقاتم

السحب المنذرة بزلزال الثورة^(١). نخشيت الحكومة العثمانية شوب النار فاحتاطت للامر احتياطاً تاماً وأعدت له عدته الكاملة ، فسجنت من سجنت وشنقت من شنقت من زعماء العرب وكبرائهم وأحرارهم القائمين بالنهضة القومية العربية ، الذين استطاعت القبض عليهم . فعلت ذلك بينما كانت تنفخ في نفير الجهاد مستنفرة المسلمين للذب عن بيضة الاسلام ، ذلك الاستنفار الذي حل جانباً من الرأي العام العربي على الجنوح الى الترك ، ولا سيما لما كان فتح مصر يحسب متناولاً قريباً وممكناً من الممكنات . بيد أنه لما طبقت الحرب وأخذت في الاستمرار كالحلة الجبين مكشرةً عن الأنياب ، عادت عوامل العصبية الجنسية تشور قاذفة حم السخط والغضب . ففي سنة ١٩١٦ قدح شريف مكة زناد الثورة العربية ، فكانت ثورةً منذرةً بانهيار الحكم التركي فقوضة له تقويضاً ، وقد كانت بريطانية العظمى ظهيرة للثورة العربية هذه تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء ، فسارعت الاقوام العربية العديدة في نصرة الثورة وتأريث ناراها قوة وعملاً . ولما كانت العرب قد هاجتهم وعود الحلفاء ايما هياج : وعود تقرير المصير ، والاستقلال الداخلي ، والاستقلال التام ، وهي غاية في الاغراء والتعريض ما بعدها غاية ، انبعثوا يقاتلون الترك قتال الاستماتة والاستبسال فكانوا العامل الأكبر في تبديد الجيش العثماني وتلاشيه في خريف سنة ١٩١٨^(٢)

(١) بيان واف في مساعي العرب وجهودهم لنيل الاستقلال متضمن في مقال ممتع نشره الكاتب الثقة في الشؤون الاسلامية « X » موسوماً « بالسياسة الجارية في العالم العربي » في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية . كانون الاول سنة ١٩١٣

Les Courants politiques dans les monde Arabe, "Revue du Monde musulman",

واقراً كتاب . ج . و . بوري

Arabia Infelix, or the Turks in Yemen .

لندن ١٩١٥

(٢) للاطلاع الوافي على أعمال العرب خلال الحرب العامة اقرأ : —

« الاستقلال العربي والثورة الواقعة » للكاتب جنج في « المجلة » الفرنسية آب ١٩١٦

E . Jung , " L ' Indere rendance Arabe et la Revolte actuelle , , " la Revue "

« العرب ضد الترك » للكاتب لفين « مجلة المجلات الأميركية » . كانون الأول ١٩١٦

I . D . Levine , " Arabes versus Turks " American Reviw of Reviews , ,

كتاب أ . موزيل ١٩١٨ (لبيزيك)

A , Musil , " Zur Zeitgeschichte von Arabien

وقبل أن نشرع في تتبع الحوادث المهمة التي حدثت في الأقطار العربية المنفصلة عن تركية منذ سنة ١٩١٨ ، نؤثر أن نسوق الكلام على النهضات القومية والحركات الوطنية في اقطار العالم العربي الغربي ، أقطار شمالي افريقية ، بادئين في الكلام على القطر الأخطر شأننا الا وهو مصر .

ان السواد الأعظم في الشعب المصري لهذا العهد كما في عهد الفراعنة ، متحدرو السلالة من المصريين القدماء ، من الارومة النيلية (نسبة الى النيل) القدي . واذ كان هذا السواد من «فلاحة» المصريين على خلق البطء والقناعة ، فقد خضعوا لعديد الفاتحين الغرباء الذين ملكوا مصر على التوالي في أدوار مختلفة . وكاد يكون خضوع المصريين هذا الخضوع أشبه بسلسلة متصلة الحلقات ، الا ما كان يتخلل ذلك في بعض الفترات من ثورة ينفجر بركانها أو فتنة تشب نارها ، ولكن عجلان ما تعود العاصفة فتهدأ والنار فتخمد ، ثم تبتدئ حلقة من الخضوع جديدة . وهناك فوق سواد المصريين المتحدرين من الأرومة « النيلية » طبقة قليلة العدد أرفع منزلة وشأناً ، أكثرها متحدر من ذراري أواخر الفاتحين الآسيويين ، العرب والكرد والجركس والألبانيين والترک . زد على هذا أن هناك بجانب هذه الطبقة العلية التي ظلت حتى الاحتلال البريطاني صاحبة الحكم والسلطان ، والأمر والنهي ، ومحتجزة جميع السلطة السياسية ، عددا « من المستعمرات » الأجنبية المتمتعة « بحقوق الاستثناء » ، وأيضا عنصراً نصرانياً قديماً الارومة هم الاقباط الذين لم يدينوا بالاسلام عند طمو الفتح العربي ، وعددهم اليوم يبلغ العشر من مجموع قطين مصر .

فبلاد مثل مصر ، مختلط لمختلف الاجناس والاصول والعقائد وصنوف الثقافة

كتاب « الجامعة الاسلامية » لبوري لندن ١٩١٩ ، ، Pan - Islam ،

« الحالة السياسية والدينية في بلاد العرب » ميلر يا مجلة « العالم الاسلامي » الانكليزية تموز (يوليو) ١٩١٩

S . Mylrea ، “ The Politico — Religious situation in Arabia ، ، “ The Moslem World ، ،

« لورانس : روح الثورة العربية » ل . ثوماس مجلة « آسيا » نيسان وايار وحزيران ١٩٢٠

L. Thomas ، “ Lawrance : The Soul of the Arabian Revolution ، ” “ asia ”

والتهذيب ، كرّرت عليها أزمان متطاولة وهي حانية عنقها للغريب حتى لا بستها بتقاليد الخضوع ورمت الانقياد ، قد تبدو باديء الرأي كأنها ليست بالبلاد الصالحة البيئة والمضطرب لنشوء العصبية الجنسية . على أننا اذا اعتبرنا شأن مصر ومن وجه آخر ، رأيناها البلاد التي ما برحت أكثر أقطار الشرق الأدنى تعرضاً لتيار المؤثرات الغربية ولواقح الحضارة الأوروبية . وقد كان للفتح النابليوني عند ختام القرن الثامن عشر تأثير شديد في وادي النيل . ولما نهض محمد علي ، البطل الالباني المقدم ، وسود نفسه على مصر بعد زوال الحكم الفرنسي ، أيقن من ذاته بأن أوروبا فائقة غيرها في عالم العمران بحذق المنهج وحسن الأسلوب ، فشرع يأخذ عنها ويقتبس منها ، وينتهج طرقها انتهاجاً وان كان عرضياً فقد كانت نتيجته انبثاق الأفكار الغربية وذيوع الآراء والمؤثرات الأوروبية ، وقد سار خلفاء محمد علي على أثره وسننه من بعده في هذه السياسة ، غير أن الخديوي اسماعيل المبذر المنفاق الذي كان اشتطاطه في عقد القروض المالية مع الدول الأوروبية السبب الأكبر في التدخل الأوروبي ، كان نفوراً كبيراً ومختلاً عظيماً متظاهراً بالروح الأوروبية التي لا تجاوز العرض والقشور ، ومغالياً في ذلك كل المغالاة ، فأكثر من حوله من الأوروبيين حتى بات عددهم كثيراً .

وظهرت الحركة الأولى التي تبنت فيها باديات العصبية الجنسية المصرية ، ظهوراً صورته احتجاج ونقمة على اغراق الخديوي اسماعيل في تشرب « الأوروبية » اغراقاً مشؤوماً يضر البلاد ويرهقها ويفقرها ، وأيضاً على اكثاره من البطانة المضياعة للمال . فبات عقلاء المصريين وحكامؤهم في هذه الحال على اختشاء مزداد لنهج اسماعيل ذلك النهج الوخيم العاقبة ، القائم على رهن استقلال مصر الذي بات معرضاً للمحق والزوال ، بسبب ما عقده الخديوي من القروض المالية الأوروبية الكبرى المستنزفة لدم البلاد بالضرائب الفادحة الباهظة الاعباء . واذا كان أولئك القوم الصادقون قد تشربوا على وعى أم غير وعى منهم العقائد الأوروبية « كالجنسية » و « الوطنية » ، فقد أزمعوا أن يقفوا اسماعيل عند حد في نهجه الجارٍ لمصر كبير البلاء ، وأن يجعلوا مستقبل مصر في مأمّن من طوارق الحدثنان ، وفوق ذلك فانهم لم يقصروا سعيهم وجهدهم على مقاومة أولئك الارهاط من الأوروبيين أهل الابتزاز والانتفاع على طرق فيها حذق ودهاء ، أولئك الذين كان دأبهم استغواء

الخدوي والتزيين له في تبديد المال واستدراجه من مغرق مالى الى آخر، بل أراد القوم أيضا مقاومة « الباشوات » المتملقين من ترك وجركس ، والمرابين من الارمن والسوريين الذين كانوا جميعا آلة اسماعيل ومواليه ومصطنعيه . هذا هو مبدأ الحركة الوطنية والنهضة القومية في مصر ، احتجاج « وطني » عنيف وصرخة شعبية شديدة على جميع الذين كانوا يجرون بالبلاد الى شر المهالك ، سواء أ كانوا من الاجانب أم من أبناء البلاد ، وفي مطلع هذه الحركة ظهر شعار مصر ينادى به القوم الحاضون الوطنيون ، الشعار الذي لم يسمع في مصر من قبل ، الا وهو : « مصر للمصريين ! » .

وفي ابان مشار هذه الحركة الوطنية الوليدة ، التي طفقت فواعلها تقوى وتشدت ، ظهر جلال الدين بسلطانه النفساني الهائل وروحه الاجتماعية الكبرى يوقظ مصر ويستثيرها بتعاليمه ، حتى غدت نفوس القوم مترعة بنشوة الانفعال : على أن جلال الدين ، هذا الرجل القطب الفرد ، لم يتجمل من سلطانه ويبد من بالغ تأثيره وعظم منزلته ما تجلّى وبدا منه في مصر . وليس من المغالاة أن نقول انه هو حقاً أبو جميع ما في مصر اليوم من نهضة وطنية وبقظة جنسية . فهو قد استطاع حق الاستطاعة أن يحكم بسلطانه ويستولى بشدة عارضته ليس على كبراء المحرضين الوطنيين مثل عرابي باشا فحسب ، بل أيضا على المصلحين المحافظين مثل الشيخ محمد عبده المصلح الكبير الذي أدرك وهن مصر وضعف أمرها فانشأ يعمل ويجد ثبت الجنان رابط الجأش في سبيل الاصلاح ، متوخيا وسائل الترقية وذرائع التنشئة على سنن التدرج للوصول الى الغاية المطلوبة وادراك الغرض المنشود .

وفي هذه الآونة ظهر رسل الدعوة الثورية يؤدون واجبهم الذي أخذوا نفوسهم به ففي سنة ١٨٨٢ انفجر بركان الثورة يرأس القائمين بها عرابي باشا ، وهو ضابط من ضباط الجيش ومن عامة الشعب ، فكان هو أول رجل متحدر من أهل مصر القدماء ، من الأرومة « النيلية » ^(١) نهض ليسود مقدرات مصر في هذه العصور الحديثة ، وما أسرع ما لبى ندائه أهل الثورة الهاجسون ، وهم يصرخون « مصر للمصريين » يحاولون طرد « الاجانب » من أوروبا وبيبين وأسيويين ، من مصر بلاد الفراعنة . لكن حبطوا في مسعاهم وسقطوا قبل الوصول الى الغاية المبتغاة ، وحدثت مذبححة الأوروبيين في ثغر

الاسكندرية فكانت للحال داعياً للتدخل الأوروبى . فنزل جيش بريطانى الى البلاد وقاتل الثوار فبدد قوتهم فى واقعة « التل الكبير » ، وبعد هذه الواقعة التى جرت بين أهل مصر وجيش الاحتلال ، خضعت مصر المشتتة الاحوال الفارغة الخزانة من المال للحكم البريطانى الحكم الذى تمثل كل التمثل بأفالين بارنغ أعنى اللورد كرومر . وأبقيت السلالة الخديوية على أريكة العرش ، من حيث روعى شكل الحكومة الوطنية ، لكن جميع السلطة النافذة الحقيقية قد استقر نصابها فى « المستشار المالى » البريطانى ، الناطق بلسان الامبراطورية البريطانية فى مصر والقائم بالغاية الاستعمارية .

وحكم اللورد كرومر مصر خمساً وعشرين سنة . وتاريخ هذا الحاكم المقتدر الحازم يكسبه أبداً مقاماً رفيعاً فى مستوى أعظم رجال الادارة والتدير وولاية الأحكام فى العالم فانه قد استطاع حقاً أن ينقذ مصر بساعديه القويتين من مأزق الافلاس ويرقى شأنها الى ذروة النجاح والفلاح . غير ان الرضاء المادى ، ولو بلغ فى مصر مهما بلغ ، ما كان ليطفىء فيها جذوة القومية واعتلاج روح العصبية الجنسية . فاذ كانت بذور النهضة قد بذرت فى بلاد الفراغنة قبل الاحتلال البريطانى ، فقد أخذت هذه البذور تنمو نمواً بطيئاً ولكن نمواً ماضياً مضياً مستمراً فى تربة وادى النيل المرعة الخصبة ، وطفق الشعور القومى فى المصريين ، وقد كان عهد واقعة « التل الكبير » وليداً ، يزداد نمواً ويشدقوة واستقراراً وايغالا فى النفوس على توالى الأيام ، حتى بات عند نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر أثراً محسوساً بيناً جلياً ، يوقن به أهل النظر وأرباب الادراك من المستطلعين الأوروبيين ولما عاج المستكشف الافريقى « شوينفرت »^(١) على مصر سنة ١٨٩٥ ، راعه حقاً ماشاهده من مبلغ التطور النفسانى الذى حدث فى وادى النيل خلال المدة المنقضية منذ زيارته الأولى فما قال : « ان التنبه القومى واليقظة الجنسية ينموان فى مصر نمواً بطيئاً ولكن مستمراً . ان المصريين وان كانوا مابرحوا على بعد من العصبية الجنسية الصحيحة فان طلائع ذلك قد بدت ولا تلبث أن تتكامل » .

وفى مطلع القرن العشرين أخذت الواقعات تحقق ما كان قد سبق لأهل النظر الصادق وأولى الألباب الثاقبة فانبأوا به ، فتطورت الحال تطوراً فجائياً كبيراً وانقلبت

مصر بؤرة تغلى فيها مراحل العصية الجنسية ، وقد كان في القائمى بهذه الحركة القومية التى بعثت بعثاً جديداً ، حزب معتدل مؤلف من المحافظين مثل الشيخ محمد عبده مصلح جامعة الأزهر والصدىق الصفى للورد كرومر^(١) ، المصلح الذى جاهد حق الجهاد فى سبيل تعليم أبناء بلاده وأمتة ان أقرب الوسائل وأوفى الذرائع لبلوغ غاية الحرية الصحيحة التى تنشدها الأمة المصرية انما أمرها لا يتم الا بتنوير الأذهان و تثقيف الألباب ، وتربية النفوس التريية الصحيحة ، والترقية العامة . أما الحركة المصرية الجديدة فقد كانت على الجملة احتجاجاً شديداً عنيفاً على استمرار الحكم البريطانى فى مصر و طلباً لجوجاً لا منصرف عنه لنيل الاستقلال العاجل . ولعل الأمر الأخرى بالاعتبار والأجدر بالتدبر فى جميع القضية ، ان المصريين قاطبة كانوا ، وقد تغلغت فى نفوسهم نشوة العصية ، على اختلاف أحزابهم من محافظين وغلاة ، متفقين اتفاقاً تاماً على أن لا يعتبروا مصر قطراً تابعاً للإمبراطورية تبعادئماً ، وقد كان لرجال النهضة والحركة أساس قانونى ، مشروع صحيح ، ينون عليه حججهم وبراهينهم فى وقوفهم فى وجه بريطانيا ، وذلك فى الواقع أن الحكم البريطانى انما قام على أسس سياسية واهية متضعة غير ثابتة باعتبار أن بريطانيا قد انبرت تتدخل فى شؤون مصر من تلقاء نفسها ، جاعلة ذاتها كأنها « منتدبة » لرعاية المصالح المالية الأوروبية . فكان عملها هذا موضوع خلاف بعيد الشقة ، وسبب تشادٍ شديد فى أوروبا ولا سيما بين بريطانيا وفرنسة . فلما أيقنت الأولى بأشدد الأمر وتفاقم الخطب عمدت الى تسكين نأثر الحال فأعلنت مراراً وتكراراً أن احتلالها مصر انما كان على صفة موقته لا صبغة دائمة له . والواقع ان سخط المصريين السخط البالغ الحد ، قد كانت فرنسة من الهائجين لثورته والموقدين لناره وذلك على عمد منها . وما انفك هذا شأنها حتى عقدت عروة الود والمصافاة بينها وبين بريطانيا سنة ١٩٠٤ ، مع هذا كان العطف الذى تعطفه فرنسة على الآمال المصرية عاملاً كبيراً فى ترقى النهضة الوطنية فى مصر ، فعظمت مكانة فرنسة فى وادى النيل ، من الجهة الأدبية التهذيبية ، حتى بات نسيج التعليم الفرنسى فى أعين المصريين أجمعين أصلاً ، وجميع ماعدها من أنساق التعليم الأوروبى نسجاً عنه

(١) الذى ظهر فيما بعد من خاطرات كرومر أن المرحوم الأستاذ كان يصانع اللورد مصانعة لينال منه بعض المساعدات لوطنه . والذى يعرفه هذا العاجز من نفس الأستاذ أن قلبه كان يلتهب تحرقاً على حالة مصر . (ش)

ومحاكاة له . فجعلت الناشئة المصرية تأخذ العلوم عن أساتيد فرنسيين ، سواء أفي مصر أم في فرنسا ، ولما كان هؤلاء الاساتيد على الغالب من أهل المقت لبريطانية ، كانوا لا يفترون عن اهتبال كل سائحة لبذر بذور الشنأة للانكليز في نفوس الطلبة المصريين وجلهم على أن يقوموا بالمناوأة والمناهضة للمحتلين .

وقد كان رجال النهضة وأهل العصبية من الغلاة يرأسهم فتى من فتیان وادی النيل هو مصطفى كامل . كان هذا الفتى الفرد مقيم مصر ومقعدها ، زعيم المحرضين والهاججين دون منازع ، لودعياً حديد الفؤاد ، شديد العارضة ، متوقد الجنان وطنية ، خطيباً مصقعا ساحر البيان ناري الكلام ، يقتاد سامعيه وقرءاءه متى شاء وأنى شاء والى ماشاء . وفوق ذلك كان ناشراً مقدماً من الطراز الأول لدعوة العصبية الجنسية ، لا يني له عزم ولا يفل له حزم ، وكان يقوم بتحرير طائفة من الصحف والمجلات معاً حتى اذا ماعطلت له السلطة البريطانية واحدة منها اعتاض عنها في الحال بسواها بحيث لا يقف سعيه ولا ينقطع جهاده . وعلى الجلة فانه كان لانظير له في العصبية الجنسية المصرية ، ويمكن الاطلاع على شيء من روحه في ذلك بالوقوف على بعض ما كتبه ، فما دجه يراعه أوائل سنة ١٨٩٦ ، متخذاً شعاره « المصريون لمصر ومصر للمصريين » مايلي :-

« ان الحضارة المصرية لن يستوى لها ساق في المستقبل ولن يشيد لها بناء الا اذا قامت على سواعد أهل مصر واشترك فيها كل مصري وعلم الفلاح والناجر والأستاذ والطالب ان الانسان ذو حقوق معنوية مقدسة ، وانه ما خلق ليكون آلة مسخرة في يد غيره بل ليحيا حياة عقلية انسانية راقية ، وان حب الوطن لأسمى عاطفة تشرف بها النفس وتعزز وتفخر ، وان أمة غير مستقلة هي والعدم سيان ! انما بالوطنية ارتقت الأمم من دركات الانحطاط الى ذروة العلي وسارت سريعة الخطى في سبيل الحضارة والمجد والقوة والسلطان . انما بالوطنية يتكون الدم الجاري في عروق كل أمة حية . انما بالوطنية يحيا كل مخلوق عاقل . وما كان احتقار الانكليز في مثل هذه المقالات قليلاً . والى القارئ كلمة من إحدى فرائح « اللواء » : « نحن المغتصب حقهم والانكليز هم المغتصبون . نحن نطلب حقاً مقدساً والانكليز هم أعداء هذا الحق . لهذا اننا على ثقة بالفوز عاجلاً أم آجلاً ، ومتى كان امرؤ ذا حق فلا بد أن يناله ، وليس بينه وبين ادراكه الا شطر من الزمن . »

على ان مصطفى كامل كان في رحابة صدره و بعد مطمحه وآماله ، طلاعاً الى الجواهر لاتأخذ بلبه الاعراض ، دراً كاً للحقائق لايسع نظره الأوهام ، فأيقن وهو الرجل الحكيم بان ليس من المستطاع ولا سيما في ذلك الحين إكراه الانكليز على الجلوة عن وادي النيل ، لهذا هو لم يحاول معالنتهم بالعداء أو مصارحتهم بالمناهضة الأمر الذي علم من ورائه جر البلوى الى نفسه وأبناء أمته . وانتقل الى جوار ربه في أوائل سنة ١٩٠٨ غصاً رطيباً في الرابعة والثلاثين من عمره ، فوقع رداؤه من بعده على مریده الزعيم محمد فريد بك . أما هذا الرجل فلم يكن ند مصطفى طرازاً ، فحاول أن يغني عما كان يعوزه من بلاغة الخطابة وسحر الكلام ، بشدة التنديد ومرارة الطعن ^(١) ، ويمكن ادراك الفرق والتفاوت بين نسيج الزعيمين بالتنظير بين الفواتح التي حبرها كل منهما في صحيفة « اللواء » فقد جاء في مقال بقلم محمد فريد بك نشر في ايلول سنة ١٩٠٩ مايلي : -

« بماذا نذكرك أيها اليوم ، وفيك تدنست هذه الأرض بأقدام الانكليز ، وتلوثت بجرائمهم ، وتلطخت بفظائعهم ، ففضوا على دستورنا ، ومكوا أفواهنا ، وعقدوا ألسنتنا ، وحرقوا الأحياء منا ، وشتتوا الأبرياء من أهلنا ، وجاءوا شيئاً ادماً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدماً » ^(٢)

ففي هذا الدور الذي بات فيه العنف أشد وأعظم ، ازدادت الأسباب المشجعة لرجال النهضة الوطنية وتضاعفت جرأتهم واشتد اقدمهم ، وذلك لعدة أسباب : منها ان اللورد كرومر زایل كرسيه سنة ١٩٠٧ خلفه من بعده السر « ألدون غورست » . وإذ كان هذا الحاكم الجديد من حزب الأحرار الانكليز الذين كانوا عهدئذ أصحاب الحول والطول والسلطة القائمة في الدولة البريطانية ، أخذ في التمشي على قواعد مذهبه الانكليزي الحر متوخياً دائماً تسكين هائج مصر وتهدة نأثرها بالرفق والاستمالة والتوفيق ، لايتمثل ما كان يتمشى

(١) كان الرحوم محمد فريد من يشار اليهم بالبنان بين زعماء النهضة الشرقية ، وكانت فيه مناقب عديدة تستحق له حرمة كل من عرفه . (ش)

(٢) هذا مقتبس من مقال نشر في « اللواء » الصادر في ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ تحت عنوان (ذكرى اليوم العصيب . الحداد أيتها الأمة !) بتوقيع « امين الراعي المحامي » ، وخلاصة المقال دعوة الأمة المصرية للحداد احتجاجاً على الاحتلال الانكليزي الذي كان مضى عليه سبعة وعشرون عاماً . (المعرب)

عليه اللور كرومر من الاتوقراطية غير المتحيزة ، ومنها ان ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ قد كسبت المصريين صولةً هائلةً وحدةً شديدة ، فازداد صراخهم وبلغت أصواتهم عنان السماء ، يريدون حكومة دستورية شوروية نياية . ومنها ان اعزاز ميثاق الود والولاء بين فرنسا وبريطانية كان قد محق أمل المصريين محقاً ، ذلك الأمل الذي كثيراً ما عللوا أنفسهم بتحقيقه وهو ان تسكره بريطانيا إكراهاً بقوة السلاح على الجلاوة عن وادي النيل قياماً بتحقيق عهودها السياسية . وفي هذا الموضع أدرك المصريون حقيقة الحال والواقع فازدادوا اعتماداً على نفوسهم ، وانقلبوا يضاعفون جهودهم واثقين أن لناصر لهم سوى أنفسهم ولا حاكٌ لجلدهم غير ظفرهم .

ولما بلغت الحال هذا المبلغ من اشتداد روح القومية والعصبية الجنسية بات من المتوقع حبوط سياسة التوفيق ، والاختفاق في نهج الاستمالة ، لأن السر ألدون غورست ، وان كان ذا اقتدار على التأليف والاستمالة في فرعيّ الأمور وجزئيّ الشؤون ، فلم يكن يستطيع أمراً واحداً هو غاية الغايات عند رجال النهضة ومرادهم فوق كل مراد ومبتغاهم فوق كل مبتغى ، وذلك أن يقطع للمصريين وعداً باعطائهم الاستقلال ومنحهم الحكومة النياية الدستورية . قد رفضت بريطانيا هذا الأمر برتمه بل أبت طرحه على بساط البحث والمناقشة ، وغدا الانكليز قاطبة مقتنعين اقتناعاً راسخاً ان مصر مع قناة السويس انما هما الصلة الحيوية بين قسمي الأمبراطورية البريطانية في الشرق والغرب ، وان بقاء الحكم البريطاني من حيث هذا الاعتبار قد غدا ضرباً من ضروب الضرورة الكلية التي لا منشدح عنها في أي وجه من الوجوه ، فنشأ عن ذلك عقبة سياسية تورطت عندها الأمور ، بين سياسة حب التوسع الأمبراطوري البريطاني وبين مطلب المصريين الشديد ، لهذا أخفقت سياسة أحرار الانكليز التي قد يرجح نيل الائتلاف على يدها ، بل عدت عقماً مابعده من عقم ، وقد اعترف السر ألدون غورست نفسه بهذا في بياناته الرسمية ان الاذعان في القضية المصرية من جانب بريطانيا انما بات دليل العجز وبرهان الضعف .

ثم باتت الحكومة البريطانية من بعدئذ تتوقع نزول النازلة وسوء العقبى على أثر ما استحال عليها من حوص الشق ، ورأب الصدع ، فاقننت أن لا ذريعة لها لدفع الخطر الداهم ودرء الخطب المقبل الا باتخاذ وسائل الاحتياط الشديد لقمع كل حركة تبدو في وادي

النيل ، فاستبدلت سنة ١٩١١ بالسر ألدون غورست اللورد كتنشر - اللورد الذى جاء نذيراً صارخاً فى ملاء رجال النهضة الوطنية فى مصر ان الفتنة ان غلى مرحلها قمتها تلك اليد الحديدية واستأصلت شافتها ، اليد التى سحقت الخليفة وجوعه من الدراويش عند « أم درمان » سحقا . ووصل كتنشر الى مصر معلناً مييناً انه انما جاء لاقرار الأمن والنظام فى نصابهما حتى يستتب الأمر وتصفو الحال ، وحقاً فان اللورد كتنشر قد أنجز القيام بهذا بدقة واحكام وبلغ المصريين تبليغاً صريحاً ان بريطانية لاتنوى الجلوة عن وادى النيل ولا تعد أهل مصر أهلا للحكومة الشوروية النيابية حاضراً ولا فى مستقبل معلوم الميقات . وأنذر المصريين إنذاراً ان الأجدر بهم أن ينصرفوا عن مزاوله السياسة التى ما كانوا فيها على مزعم الانكليز أبناء بجدتها ، الى الزراعة وهى الفن الذى يجيدونه على مهارة . وأما الدعوة الى الفتنة والثورة فقد استطاع اللورد كتنشر بما خولته القوانين الجديدة التى سنت فى تلك الغضون أن يتناولها بالقضاء عليها متناولاً قريباً . زد على ذلك ان الحكومة البريطانية عطلت جميع الصحف الوطنية المجاهدة فى سبيل النهضة والاستقلال وشتت شمل زعماء النهضة وقادة الحركة بزج فريق منهم فى غيايات السجون ، واعتقال بعضهم ، ونفى البعض الآخر . وفى الواقع فان الحكومة البريطانية قد جهدت جهداً كبيراً لتصرف الانتباه فى الخارج عن أمر مصر ، وأخذت فى تمويه شؤون وادى النيل على العالم ، وقد انبرت الصحف البريطانية تظاهر الحكومة فى هذا الأمر مظاهرة الاخلاص وتمالئها على تلك المزاعم ممالأة النصارى المعين ، فامتد رواق السكينة فى مصر واستتب الحال استنباباً ما كان مثله منذ عقود من السنين .

على أن ذلك كان أشبه بسكون العاصفة لاتلبث أن تتناوح أرياحها فى الجوارى المربد ، فعادت مراجل الاضطراب فى مصر تغلى مادون أعظيتها غلياناً شديداً ، جل أرباب التدبر والاستطلاع على الاختشاء البالغ والتشاؤم الشديد . قال سدنى لوكاتب الانكليزى الذائع الصيت سنة ١٩١٣ بعد استقصائه حال مصر مدقق الاستقصاء ماياتى : « ليس لنا لعمري شئ من مقام الاكرام والاعتبار عند الأمة المصرية ، التى بعضها يخشوننا خشية وبعض يحترمونا احتراماً ، وبعض وهم أقل من القليل يحبوننا حباً (١) »

وأكثر من هذا صراحة وبيانا مقال موسوم بـ «الظلام الخيم فوق مصر» نشر قبيل انفجار بركان الحرب العامة، فى احدى مجلات العلوم الكبرى^(١) التى يديج فصولها ومقالاتها العلماء الاختصاصيون النحارير فى شؤون الشرق، فكان لهذا المقال كبير وقع وبعيد دوى، ومما جاء فيه قول الكاتب الضليع صاحب المقال: «ان هذا الامسك الطويل، والانقطاع المديد فى عالم الصحف البريطانية عن كل بحث فى جميع مايتعلق بالشؤون الداخلية فى مصر، ليس دليلا على حسن الحال وصحتها بل على سقمها واعتلاها، بل هذا السكون الظاهر البادى ماهو الا السخط مضغوطاً عليه أشد الضغط لثلا ينفجر، انما هو عدم الثقة بالحكومة البريطانية المحتلة، ووغر الصدور عليها. وقد كان من شأن الواقعات الحديثة انها شددت الاعتقاد والايقان فى نفوس المصريين ان الحكومة البريطانية انما تعد العدة كلها لاستلحاق مصر بالامبراطورية استلحاقا تاماً باقياً. وليس من شأننا فى هذا المقام ان نتساءل فى مبلغ ماهى عليه هذه الأمور المنسوبة الى الحكومة البريطانية من الصحة والوقوع. انما الحقيقة الجوهرية المشهورة ان حكومة الاحتلال لما تفلح فى اكتساب الرضى والقبول من لدن المصريين، بل ما برحت على الضد من ذلك ولم تنفك هى مظنة السوء وشاهد العداة بينها وبين أبناء النيل» ويحمل هذا المقال القيم البين على الارتياب الشديد فيما اذا كانت التديرات الجائرة التى اتخذها اللورد كيتشر قد أتت بنتيجة ماسوى ان قد سببت استفحال السخط وغلليان مراجله غلياناً هائلا تحت اسداد لاتبث أن تتخرق. ويوضح هذا المقال أيضاً «ماقد بلغته الروح الوطنية والعصبية من الشدة الكبرى فى مصر اليوم، وذلك على ماهو متخذ من ضروب المحاولة والتذرع للقضاء على جميع الحرية السياسية قضاء تاماً. وكان من شأن كم أفواه الصحف الوطنية هذا الكم الخائق ما قد توقعه ارباب النظر الصادق وهو انه قد حمل سواد المسلمين على الانقلاب الى حال هياج داخلى واضطراب هائل، بل أوصل الاقباط المخلصين للدولة البريطانية الى المجافاة فالماغضبة ووغر الصدور. قد يمكن أن تكون الحكومة البريطانية عاجزة عن أن تتذرع بذرائع هى أفضل وأجد مما تذرعت به لاكتساب ثقة الأمة المصرية وحسن نيتها، فلماذا هى فى مثل هذه الحال ترى أن القضاء العاجل على كل حركة تبدو دليلاً على السخط والمغاضبة

من أفضل الوسائل وأوفاهما للنياد عن حوض الاحتلال ، ولكن اذا كان هذا هو الواقع بعينه فانما هو اعتراف صريح بمنتهى ما وصلت اليه الحكومة من التلاشى والوهن ، بل بتضعع الحكم البريطانى بين أيدينا وتداعى أركانه تداعياً مآله الانهيار » وختام المقال انذار أن القضية المصرية مزداة تورطاً واعضالا ، ذلك : « أن قضية مصر وان كانت لتختلف عن غيرها اختلافاً بعيداً فى رأى البريطانى ، فان مسلمى الهند مرتقبون مجاريها ارتقاباً شديداً دائماً اذ هم يقومون لها ويقعدون ، وكذلك شأن جميع رعايانا من المسلمين فى الغربين الأفريقيين الأقصى والأوسط ، وهؤلاء هم من أشد مسلمى الدنيا عاطفة دينية وبغضاً للاعتداء الأوروبى وملء صدورهم ونفوسهم الارتياب من جراء الأعمال السياسية التى تقوم بها الدول النصرانية الجادة فى سبيل الفتح والاستعمار . »

الى هذه الحال كانت قد انتهت النهضة المصرية سنة ١٩١٤ فلما فتقت الحرب العامة كان ذلك سببا فى تعاضم الاضطراب واشتداد الهياج ، فغدا موقف بريطانيا فى مصر وائم الحق صعبا ، ومع أن بريطانيا قد تقلدت فى الواقع ازمة الحكم تقلداً تاما ، وتشدت فى ولاية سلطانها تشدداً بالغا ، فان مصر كانت ما برحت باعتبارها — من حيث الصفة القانونية — تابعة للملكة العثمانية ، وكانت بريطانيا انما تعتبر فيها دولة محتلة احتلالاً مؤقتا . وقد بدا من الحال بعد نشوب الحرب أن تركية مائلة الى مخالفة أعداء بريطانيا لتخوض والدول التوتونية المعمران الهائل جنباً الى جنب ، ووضح أيضا اذ ذلك أن المصريين الاشداء العطف على تركية ، حتى ان الخديوى عباس حامى ما كان قط لبيطن شيئا من ميوله ونزعتة الى الترك . وخلال عدة الشهور الأولى من الحرب العامة ، بينما كانت تركية لم تبرح محايدة فى الظاهر ، غدت الصحف المصرية ، على شدة الرقابة البريطانية ، تنفث سم الفتنة نفثا فى تضاعيف سطورها ، وبات موقف الشعب المصرى ذلك الموقف المتزعزع المضطرب ، وأضحى انتشار السجس الشديد والقلق فى كتائب الجنود المصرية ، دليلا صريحا على قرب هبوب العاصفة وانفجار البركان ، نخشيت بريطانيا أمر مصر الخشية الكبرى ، فلما دخلت تركية فى المعمران فى شهر تشرين الثانى سنة ١٩١٤ ، لم يكن أعجل من بريطانيا فى خطوتها الأخيرة فى مصر نخلعت عباس حامى ونادت بعمه حسين كامل سلطاناً وأعلنت أن مصر باتت بلادا حمية تابعة للإمبراطورية البريطانية .

فكان ذلك كالسهم أصاب بعض المقتل ، فاشتعل غضب رجال النهضة ايما اشتعال . أما الفتنة المنظمة فكانت غير مستطاعة لأن البلاد كان قد غمرها طوفان الجيوش البريطانية والاستعمارية التي تدفقت على وادي النيل من كل جانب ، وعلى جميع هذا فقد اشتد الهرج والمرج ونشبت اضطرابات عديدة غير منتظمة لم يستطع قمعها الا باعلان الحكم العسكري (العرفي) الجائر الشديد وقد وصف مستقص فرنسي هذه الايام العصبية في مصر وصفا محكماً فقال . « ان الجهاد ليهيج روح التعصب على النصارى هياجاً كبيراً ، ذلك التعصب الثائر في نفس كل مسلم اليوم ، وقد بات المستطلع منذ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٤ يستطيع أن يقرأ تلك السيم التي أخذت تنبؤ في وجوه الطبقة العامة من أهل البلاد المسلمين ، سيم الأمل في ذبح النصارى ، اذ غدا أهل هذه الطبقة ينظرون شزراً الى الأوروبي العابر في أسواق القاهرة ، وبعضهم قد هللوا تهليلاً وفرحوا فرحاً عظيماً عندما بلغهم أن سلطان تركية قد أعلن الجهاد واستنفر المسلمين للقتال في سبيله منضوين تحت راية الخليفة . ومع أن السلطة البريطانية كانت تشدد عقاب الجلد الموجه بكل من جئ به الى مقر من مقر الشرط مشكواً انه قد أذاع أنباء في شأن الجهاد ، فقد ظلت الحال على أشد ما يكون من الاضطراب . ولم يقصر أمر الهياج بسبب الجهاد على العامة فحسب بل تعداهم الى الأزهر . وقد أخبرت أن الأوربي الزائر لهذه الجامعة الاسلامية الكبرى بات عند ولوجه أبوابها لا يسمع سوى اطياب المدائح وغرر النشائد الفخرية في شأن العرب والمسلمين والجهاد (١) »

وانبرى رجال النهضة الوطنية الذين في الخارج ينشرون ما لا يستطيع أخوانهم نشره في مصر ، ويجهرون بما لا سبيل الى الجهر بمثله في وادي النيل فأصدر محمد فريد بك زعيم الحزب الوطني وكان في جنيف احتجاجاً رسمياً على « التغييرات السياسية غير القانونية ولا الشرعية التي أعلنتها بريطانيا في شان مصر في ١٨ كانون الأول سنة ١٩١٤ » جاء فيه : « انه يجب على بريطانيا الزاعمة انها انما تحارب المانية دفاعاً عن بلجيكا الاتدوس حقوق مصر بقدميها والا تعدصكوك المعاهدات في شأن مصر قصاصات من الورق لاشأن لها (٢) »

(١) « مصر في أوائل الحماية » — مجلة العلوم السياسية « ١٥ حزيران ١٩١٥

(٢) محمد فريد بك — مقاله « مصر والحرب » « المجلة السياسية الدولية ايار ١٩١٥

وأخذ هؤلاء القادة الذين خارج مصر يعقدون الصلات الوثقى بينهم وبين ألمانىة كما يستبان ذلك من مقال نشره عبد الملك حمزة أمين الحزب الوطنى فى مجلة ألمانىة ذات شأن جاء فىه ما يلى : « لىس من مصرى الا وىتوسل الى الله عزوجل أن ىدبل ألمانىة من أعدائها وىكسر برىطانىة شر كسرة وىقوض أركان امبراطورىتها تقوىضاً . انى لما كنت لم أزل فى مصر فى أوائل الحرب قد وقفت على هذا الشعور الذى لىكنه المصرىون فى صدورهم وقوفاً تاماً وشاهدت الحال عن كشب مشاهدة صحىحة . فان أهل البلاد طراً سواء أفى المدن أم فى القرى ، من أرفع الخاصة حتى أدنى العامة لىثقون الثقة كلها بصدائة القىصر وولائه للاسلام وخلقىفة المسلمىن ، وىتضرعون الى المولى الكرىم أن ىمد ألمانىة من لدنه بظفر شامل ونصر مبین (١) »

نعود الآن للكلام على النهضات القومىة والعصبىة الجنسىة فى سائر الأقطار الافرىقىة الشمالىة التى لا نرى قطراً منها قد ظهرت فىه روح العصبىة ظهوراً بىناً وبرزت فىه المنازع القومىة بروزاً متمایزاً كما هى الحال فى مصر . على أن البغضاء والشناة للاوربىن لشىدئتان كل الشدة حدث عنها ولا حرج ، من حىث ان الحركات الوطنىة المشهودة الیوم فى المغربىن الأقصى والأدنى انما هى على الغالب ضروب من الشعور العام المنتشر انتشاراً كبرىاً بوجوب التضامن القومى الشامل والالتئام الجنسى العام المعروفىن « بالجامعة العربىة » و « الجامعة الاسلامىة » اللتىن نسوق الكلام علىهما الآن .

على أن حقیقة السبب فى كون الشعور القومى فى الأقطار الافرىقىة الشمالىة أقل منه فى غیرها هو أن لىس هناك من بلاد ما عدا مصر كان شعبها فىما مضى أمة تامة الوحده . وفوق ذلك فلىس هناك الیوم من الظواهر الجلىة ما ىدل على أن أحد هذه الشعوب العدیدة سائر فى سبىل ىصیر بها « أمة صحىحة » ، إذ أن معظم سواد الشعوب القاطنة سلسلة البلدان بىن البحر المتوسط وسحراء افرىقىة انما هم من البربر القدماة الأصل والأرومة فهم باعتبار الجنس الى الأوروبىن أقرب منهم الى الاسىویون أو الزوج ، وىعدون أنساباً للشعوب « اللاتىنىة » عبر البحر المتوسط (٢) وأمر هؤلاء البربر شبىه

(١) Die agyptische Frage,, Aaien

(١) تشرىن الثانى (نوفبر) ١٩١٦

(٢) ىكاد ىكون محققاً أن البربر من أهل مراکش والجزائر وأهل الزاب فى المغرب الاوسط وقسماً

كل الشبه بأمر الألبانيين في شبه جزيرة البلقان ، بسبب كونهم منقسمين انقسامات عديدة متأصلة فيهم متمكنة منهم فعدوا قبائل متفرقة كان من شأنها في بعض الفترات أن ألفت شيئاً من الاتحاد ولكن لم يكن من شأنها ترقية عوامل العصبية القومية الصحيحة (١)

ويخالط البربر في الأقطار الافريقية كلها العرب الذين جاءوها من آسية مخالطة على أقدار مختلفة . فالعرب قد استطاعوا حقا أن يستعمروا افريقية الشمالية كلها عند الفتح الاسلامي أي منذ أكثر من اثني عشر قرناً ، وأن يجعلوا البربر يدينون بالرسالة الاسلامية ويستعربون تهذيباً وأخلاقاً ، ولكنهم لم يستطيعوا تصيير شمالي افريقية قسماً من العالم العربي ومن رسوخ العروبية وبمكان سورية والعراق ومصر وان تكن هذه الأخيرة دون القطرين الأولين قليلاً في ذلك ، فالجنسان العرب والبربر لم يمتزجا في شمالي افريقية بعضهم ببعض امتزاجاً حقيقياً تاماً ، ولذلك ظل البربر على كرور ألف سنة بل أكثر خاضعين للسيادة العربية ، ولكن مختلفين متميزين عن العرب عادات وأخلاقاً ، وهم يحتفظون بلغتهم احتفاظاً شديداً . ولم تقع صلات الزواج بين العنصرين الا قليلاً ، وظل العرب الصرحاء قبائل كبيرة البطون والأنخاذ حتى اليوم ، ولكن غرباء في بعض الأحوال والاعتبارات (٢)

لذلك غدت الحياة السياسية في أقطار شمالي افريقية المختلفة العناصر والأصول حياة اضطراب تعورها الانشقاقات والانقسامات . وكانت مراراً كش وما برحت أكثر الأقطار

من أهل تونس وطرابلس وأهل جالو من برقة ثم الطوارق في الصحراء وأهالي الجزر الخالدات (كناري) المصاغة للمغرب الاقصى كلهم من أصل واحد وبعض المؤرخين يضم اليهم بربر النوبة والدر الذين بأعلى أسوان ولم يثبت أصلاً ان هؤلاء الاقوام هم من أصل أوربي بل تاريخ أصلهم لا يزال مجهولاً . «ش» (١) ويزجربر — تاريخه « بيض افريقية » يشتمل على بيان واف موجز في شأن البربر (باريس ١٩١٠) H . Weisgerber. “ Les Blauce d' Afrique

(٢) للاطلاع على ماهية الفروق بين العرب والبربر اقرأ كتاب « العرب والقبائل » لمؤلفه كاي دي سانت أمور (باريس ١٩١٩)

Caix de Saint Aymour, “ Arabes et Kabyles ,, “ Coup d' aeil sur l'Islam en Berberie ,, Paris 1917

وكتاب بل

الافريقية الشمالية وحدة والتثاماً وثباتاً في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوماً الى الجبال التي تقطنها القبائل المختلفة . وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلاً من الثغور البحرية ممتدة على طول السواحل وأما البلاد الوراثة فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام . على هذه البلاد المتبليلة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غامراً الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم (١) . ان فرنسا قد أرخت على البلاد سكينه وكسبتها نظاماً ونجحاً مادياً (٢) غير ان

(١) اقرأ « الفتح الاوروبي الثاني في شمال افريقية » (تموز ١٩١٢)

A . C . Coolidge, "The European Reconquest of North Africa., "American Historical Review ,,

(٢) بينما أنا أحرر هذه السطور قرأت في الجرائد الفرنسية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر ، حيث كانوا ذهبوا للاطلاع على حقيقة أحوالها ، فكان من جملة خلاصة تحقيقاتهم ان من الأربعة الملايين ونصف الملايين الذين هم مسلمو الجزائر ، أربعة ملايين نسمة لا يملكون شيئاً من الدنيا ، بل هم جميعاً مزارعون وأجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والتملكين من المسلمين . وان هذه الملايين الأربعة يتكفون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوأ حال من العيشة ، ويموت من أطفالهم ٨٠ في المائة من سوء الغذاء .

ومعلوم أنه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر ، وكان جميع فكها بالمسلمين ، وفي كل سنة تقول الحكومة الفرنسية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئاً ، ولا يزال مسلمو الجزائر من سنة ١٩٢٠ الى اليوم يموت منهم الالوف من الجوع ، كأنما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين ألف قتيل التي سقط منهم في الحرب العامة . . . وأغرب من ترك المسغبة تعمل عملها فيهم ان الجزائر في حال من اليسر وفيض الموارد التجارية لا يقدر الانسان أن يفهم معها كيف أهلها يموتون جوعاً . فقد صرح المسيو ستيغ Steeg والى الجزائر العام في لجنة المكوس ان تجارة الجزائر تزداد بسرعة فائقة ، حتى انها ارتفعت من ٦٠٠ مليون فرنك الى مليار وسبعمائة مليون فرنك سنة ١٩٢١ ، فصارت واردات جارك الجزائر تفوق واردات المستعمرات الفرنسية كلها مجتمعة . وصرح الحاكم المشار اليه أيضاً ان مستعمري الجزائر الفرنسيين (الكولون) اكتبوا في قرضى سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٢٠ بمبلغ قدره مليار و٧٦٦ مليون فرنك . فبعد هذا لاعجب أن يموت الوطنيون جوعاً اذ عند ما يكون ثلاثمائة أو أر بعمائة ألف فرناوى قادرين ان يكتبوا في بعض القروض الفرنسية بنحو ثمانين مليون جنيه ، أى يمثل ايراد الدولة المصريه السنوى مرتين ، فإذا يكون لعمرى مجموع ثروة هؤلاء المستعمرين ! ولا غرو بعد هذه البراهين الحسائية التي لاتقبل أدنى جدال ، أن يبقى أر بة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك لا يملكون شروى قهري ويعيشون باجرة عملهم اليومى أو بالأحرى لا يعيشون . . .

هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الأفريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعاً حديثاً من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعاً على مستوى متماثل في الاجماع على شنأة الفاتح الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بمعزل عن السيادة الأجنبية بته . لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس » وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشعب بعقائد الحكم الذاتي والحرية (١)

أما المتجه الذي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهو بغايته أميل الى انشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم الى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا ، منه

ان الاحصاء المتقدم الذي كنا ذكرناه في الطبعة الأولى لمسلمي الجزائر هو احصاء قديم وناقص جداً عن الحقيقة . وقد علمنا فيما بعد أن مسلمي الجزائر يناهزون ستة ملايين نسمة وبينما نحن نتحرى لمعرفة الحقيقة اذ ظهر كتاب « الجزائر » بقلم الوطني الفاضل المحقق السيد أحمد توفيق المدني المقيم اليوم بمدينة الجزائر - بأمر الحكومه الافرنسية التي أبعدهت من تونس - وهذا الكتاب قد جمع كل ماتلزم معرفته من شؤون الجزائر بحيث لا يصح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط ومن جملة هذه المعلومات التي كفلها هذا الكتاب النفيس احصاء الاهالي فوجد جدول احصاء مدققاً لكل عمالة من عمالات الجزائر ولكل بلد من كل عمالة شاملاً جميع أصناف الاهالي مأخوذة كلها من دفاتر الاحصاء الرسمي سنة ١٩٣١

وبحسب هذا الاحصاء العام يكون عدد مسلمي عمالة قسنطينة مليونين ومائتين وواحداً وسبعين ألف نسمة . وعدد مسلمي عمالة الجزائر مليوناً وستمائة وأربعة وتسعين ألفاً . وعدد مسلمي عمالة وهران مليوناً وستين ألفاً وثمانمائة وستين نسمة . وعدد مسلمي الجزائر الجنوبية خمسمائة وستة وستين ألفاً . فمجموع مسلمي القطر الجزائري خمسة ملايين وستمائة واثان وعشرون ألفاً وأربعمائة وثلاث وأربعمائة وستة وستين نسمة . وأما الأوربيون في القطر الجزائري ففي قسنطينة ١٨٩ و ١٨٩ نسمة وفي الجزائر ٣٥٠٥٤٥ وفي وهران ٣٥٥٩٠٢ وفي الجزائر الجنوبية ٨٥٨٩ وجملة الأوربيين تسعمائة وثلاثة عشر ألفاً وأربعمائة وتسع وسبعون نسمة

(ش)

(١) لزيادة الاطلاع على النهضات الوطنية في الاقطار الغربية الخاضعة لفرنسة اقرأ : « العصبية

الجنسية الاسلامية » (قسنطينة والجزائر ١٩١٣) ، A. Servier , « Le Nationalisme musulman , ,

الحضارة التونسية (باريس ١٨٩٨) ، P . Lapie , « Les Civilisations tunisiennes , ,

« الجزائر الفتاة » (تشرين الثاني ١٩١٣) ، P . Millet , « Les Jeunes — Algeriens , ,

« Revue de Paris , ,

إلى انشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية . ولا يغربن^١ عن البال ان جميع هذه الشعوب والأمم انما هي على صلات شديدة وروابط متواتقة تواتقا كبيراً مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

وذاستوفينا الكلام على النهضات الوطنية والحركات القومية للدور الأول في مختلف الأقطار العربية والمتعربة ، بقى علينا أن نبسط الكلام على مركز خطير آخر من مراكز العصبية الجنسية في العالم الاسلامي ألا وهو بلاد ايران أو فارس أو العجم . ايران انما هي البلاد التي يتوقع فيها نشوء النهضة القومية الصحيحة توقعاً عظيماً لأن الايرانيين ما برحوا منذ أجيال متطاولة يعرفون بشدة حب الوطن ، فائقين في ذلك كل شعب سواهم من شعوب الشرق الأدنى .

وقد انحطت ايران خلال القرن التاسع عشر انحطاطاً كبيراً وتدلّت تدلياً عظيماً حتى غدا تشتت حالها الظاهر وتبدد حولها وقوتها ، واستغراقها في الوهن والضعف ، هائجاً فعلاً هاج من روسية القيصرية في المقام الأول ومن بريطانية في المقام الثاني جسعهما الاستعماري الهائل ونهتهما الكلبية في حب التوسع والفتح . غير أن قادة الفكر من الايرانيين قد انتبهوا انتبهاً صحيحاً لما سيحلّ بالبلاد من ضروب البلاء ويحوق بها من الدواهي الدهماء من جراء استفحال الخطب واشتداد الوهن والانحطاط في الدولة ودنو المخاطر الآتية من خارج ، فشرعوا يجاهدون في سبيل الاصلاح داعين موقظين ، ومخدرين منذرين ، فحدثت الفتن الاصلاحية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وأولها الحركة البابية (البهائية) في أوائل القرن التاسع عشر ، وما انفكت البلاد تتمخض في الفتن والاضطرابات حتى شبت ثورة سنة ١٩٠٨^(١)

(١) لزيادة الاطلاع على الحركات الاصلاحية الثورية في العجم اقرأ : « الحال السياسية في ايران للمستشرق العلامة الكبير » X « حزيران ١٩١٤

“ La Situation Politique de la Perse ,,

“ Revue du Monde Musulman ,,

« التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » للمستشرق العلامة الكبير أرمينوس فمباري

“ Western culture in Eastern lands ,,

وقد كان السبب الأكبر في شوب نار هذه الثورة واندلاع سنتها هو المعاهدة « الروسية البريطانية » المعقودة سنة ١٩٠٧ التي اتفقت بموجبها الدولتان المتعاقدتان على قسمة ايران بينهما الى منطقتي سيطرة ، الأولى لروسية في الشمال والأخرى لبريطانية في الجنوب ، يتوسط بينهما منطقة حياد . لذلك كانت الثورة في غالبها ثورة القنوط والاستامة قام بها رجال الوطنية الايرانية الأشداء الأبطال ، كما يصلحوا شأن بلادهم وينظموا أمر حكومتهم ودولتهم ، ويدفعوا عنهم ، ولكن بعد استئثار كبير ، شبح السيطرة الأوروية الهائل الذي أخذ يدب وينتشر في البلاد انتشاراً وجفت منه القلوب فرقاً ورعباً . ولم تقصر غاية الثورة على الوقوف في وجه الاعتداء الأوروبي ودرء المطامع الأجنبية الكاشرة عن الأنبياء ، بل انها امتدت الى أبعد من ذلك وهو نزع الملك من السلالة القاجارية الغربية الأصل وهي الحاكمة في البلاد حكماً سيئاً فاسداً منذ حقب مديدة ، والتي ليست بايرانية الاصل بل تركمانية ، فانها معما طال من جلوسها على عرش المملكة ، لم تميز قط بالايرانيين وهم أهل البلاد ، نسباً ورجاً ، كما تدل على هذا حقيقة الأمر من كون لغة البلاط هي تركمانية فارسية . وعلى الجلة فان مقام السلالة القاجارية في ايران كان ماثلاً كل الماثلة للسلالة المانشوية التي كانت على عرش الصين قبل الثورة . فالثورة الفارسية كانت بماهيتها وجوهرها شوب نار الوطنية الايرانية شوباً مقاوماً لجميع القوات الغربية القاضية على الوطن سواء أ كانت شرقية دخيلة أم غربية طارئة .

وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نزل التدخل المقنوت في شؤون ايران ، التدخل الناشئ عن نهمة أوروية في التوسع الاستعماري الوحشي ، نزول الصاعقة القاضية على النهضة الوطنية الايرانية فسحقها سحقاً . وفي سنة ١٩١٢ كانت روسية وبريطانية قد غدتا قابضتين على أزمة السيطرة الحقيقية النافذة تتصرفان فيها كيفما شاءتا تحقيقاً لمطامعهما الشائنة ، فاضهد رجال النهضة اضهاداً ، وعذبوا تعذيباً ، وأبعدوا من البلاد ، وظلت ايران تصعد زفراتها مصطربة على اعتلاج النار بين جوانحها ، مكرهة مكعومة ، ساكنة

« الحركة الاصلاحية في العجم » للجنرال السر غوردون في كتاب « اعمال جمعية آسية الوسطى » ١٣

آذار ١٩٠٧

General Sir T. E- Gordon. "The Reform Movement in Persia", " Proceedings of the central asia Society ,,

لاستطيع شيئاً . وقد قال كاتب انكليزي في هذا الشأن قولاً بليغاً هذا بعضه : « ان روسية وبريطانية العظمى هما المتحاملتان كل التحمل لجميع التبعة في تمزيق الآمال الإيرانية ، مناهضة للروح الوطنية وقضاء على النهضة القومية ، وأيضاً لتبعة هذه الفوضى المنتشرة في كل ناحية وجانب في المملكة ، إذ لا بد من أن يأتي يوم تقف فيه هاتان الدولتان الطامعتان لتناقشا الحساب في جميع ماجنته أيديهما ولتتالا جزاء وفاقاً على ما فعلتا . ان الأمل في تحسين الحال وإيم الحق لضرب من المهزأة والباطل ، مادامت الحكومة في إيران مؤلفة من وزارة لا تملك ضراً ولا نفعاً ، وليست بنائلة شيئاً من ثقة الشعب بل ان الحكومة في إيران إن هي الا وزارة قد قذفت روسية كل روع شديد في قلبها وكل عرق من عروقها ، وأرتها الموت أشكالا والعذاب ضرباً ، وفوق جميع هذا تريد الدولتان روسية وبريطانية ان تقضيا عليها القضاء الأخير ذلك بجرها إياها الى أزمة مالية ، وهاهي الحكومة الإيرانية تستصرخ الملاء فلا تناوها الدولتان المسيطرتان سوى بعض اللقيمات المالية التي لا تدفع غرناً والجريعات التي لا تنقع غلاً ولا تبرّد صدى ، وذلك على شرائط هي غاية في الربا الفاحش المهلك ، وتمنعانها عن استخدام النزهاء الكفاة من الخبراء الأجانب مثل المستر شصطر . فكيف يرجي الاصلاح في بلاد متى ما كان ملكها صيباً ووكيله متخلفاً أبداً عن القيام بواجباته ، وكان مجلسها النيابي معطلاً دائماً ، ورجال الوطنية الأكرمون الأشجعون الأشرفون ، يقتلون تقتيلاً أو ينفون نفيّاً بينما الذئاب المفترسة من الممالين وأرباب الامتيازات التجارية والزراعية ينهشون الفريسة نهشاً ، ويغلقون في أحشائها الأنياب . حقاً اذا ما قيص لایران الخلاص الحقبی وكتب لها النجاة فان ذلك لن يكون الا بأعجوبة سماوية ومعجزة عظيمة (١)

هنا ينتهي كلامنا العام الشامل لوصف أكبر النهضات القومية الوطنية ويقظات العصبية الجنسية في العالم الاسلامي . على أنه يجب ألا ننسى ان النهضة القومية الجنسية في الهند متمشية وسائر النهضات الاسلامية جنباً الى جنب ، ولكنها مضطربة في أفق مختلف عما سواه من آفاق النهضات في سائر العالم الاسلامي . ويجب أن نعلم أيضاً ان هناك نهضات أصغر نطاقاً وأضيق مضطرباً ، قائمة في الشعوب والأمم الاسلامية غير التي أتينا على ذكره

(١) و . مورغان شصطر كتابه : « خنق العجم »

كالتتر في روسية ومسلمي الصين ومسلمي جاوة في الجزائر الهولندية . وعلينا ان نضع في البال فوق جميع ما تقدم ان هذه النهضات القومية الجنسية جميعها متصل قليلا أو كثيراً بمجرى الحركة العامة الرامية الى الجامعة الاسلامية وبالذور الثاني للعصبيات الجنسية ، وهي العصبيات النزاعة الى التثام العروق الجنسية المتفرعة من أرومة واحدة ، وها نحن شارعون الآن في الكلام على هذا .

— ٢ —

قد بينا في مقدم هذا الفصل ان في مطلع القرن العشرين شهد العالم اجتياز العصبيات الجنسية لدورها الأول وبلوغها الدور الثاني في الشعوب الآسيوية ولا سيما في الأمتين التركية والعربية ، ونحن نرى الآن العصبية الجنسية في الترك قد اتسع نطاقها الاتساع الأكبر وامتد أفقها الامتداد الأعظم حتى أدركت أرقى أطوارها وأسمى حالاتها ، متخذة شكلين بينين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » . وقد أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الأول وهي إذ ذاك لم تجاوز نطاقها العثماني المحدود كما علمنا ذلك في موضعه ، وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٣ - ١٩١٣ . ومنذ ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل في دورها الثاني ، دور العصبية النزاعة الى عروق الأرومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل في العالم .

في هذا الحين أي في أوائل الدور الثاني للعصبية أخذ الترك العثمانيون يوقنون انهم ليسوا بالأمة الفذة المنفردة المنقطعة عن كل نسيب وقريب في العالم ، بل انهم في الصحيح الواقع ، العرق الغربي الأقصى المتفرع من أرومة عظيمة تمتد سائر فروعها وعروقها العديدة مائة شرقي أوروبا وآسية ، من البلطيك حتى الباسفيك ، ومن البحر المتوسط حتى القطب الشمالي . وقد أطلق الاثنولوجيون ، علماء البحث في أصول الأجناس البشرية على هذا الشعوب اسم (الاورالو - ألتايك) ولكن الاسم الأغلب والأشهر لهذه الشعوب المذكورة شاع تعبيره « بالجنس الطوراني » وهو يشتمل على شعوب عديدة متفرقة - الترك العثمانيون في القسطنطينية والاناطول ، والتركان في ايران وآسية الوسطى ، والتتر في جنوب روسية وعبر القوقاس ، والمجر في هنغارية ، والفنلنديين في فنلندة ولايات البلطيك وقبائل السكان الأصليين في سيبيريا ، حتى والمغول والمنشوس في شرقي آسية . فهذه الشعوب

على ما بين بعضها والبعض الآخر من الاختلاف في التهذيب والتقاليد حتى وفي السحن الخلقية هي مشتركة اشتراكاً عاماً في طبائع وسجايها معلومة متشابهة في كل منها تشابهاً بيناً ولغات هذه الشعوب متشابهة أيضاً ، من حيث ان التركيب الطبيعي والمزاج العقلي في كل شعب منها يدلان دلالة بينة على النسابة الأصلية العامة الجامعة بين جميع هذه الشعوب الطورانية المشهورة برشاقة البنية وشدة الأعصاب ، وهي وان كانت على بعض من النقص في سعة المدارك وبعدها وعلو التصور ، وامتلاك حاسة الشعور الفنى ، الشعور الذاهب الى الإبداع والابتكار ، فهي موهوبة بجليل مواهب الصبر والجلد وشدة البأس الى حد الغلظة ، وفوق جميع هذا قد اشتهرت هذه الشعوب اشتهاً منقطع النظير بالصبر على القتال والجلاد وخوض عمرات الحروب ، وبالاعتدال الفائق على سيادة من يخضع لها من الشعوب . ومما لامرأه في صحته ان الطورانيين هم أعظم من شهد الورى وعرف التاريخ من المدوخين والفاحين فأتلا والهنز ، وارباد والمجربون ، واسبريتش والبلغاريون ، والب ارسلان والسلجوقيون . وارطغرل والعثمانيون ، وجنكيران وتيمورلنك ، وجيوش المغول التي « لاتغلب » وبار في الهند حتى وقبلای خان ونورهاشو في كاشاي ، انما جميعهم من نسيج واحد . وصور الآثار لسناك خيول الفرسان الطورانيين ما برحت منقوشة في رقوق التاريخ القديم الى ماشاء الله .

على انه سواء كان تاريخ الطورانيين مجيداً أم محزناً ، فهو على كل حال هائل عظيم والقارىء قد يتساءل ، أحقاً شئت هذه الشعوب الطورانية المتفرقة المبعثرة متحدرة من أصل واحد بين ، وجنس ثبت لأهل العلم معرفة منشأه الأول ومتفرعه الأقدم ، وأرومة صحيحة معلومة ؟ اننا قد علمنا علم اليقين في مقدم هذا الفصل ان هذا الأمر قد بات مما ليس كبير شأن له عند الشعوب الثملة بنحمة العصبية الجنسية مادامت السياسة العلمية مسيرة تسيراً على الصفة التي أسلفنا الكلام عليها في موضعه . فلذلك ان ما بين هذه الشعوب الطورانية بعضها مع بعض من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية ، وما هي عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية ، الهائجة منها نفوسها ايما هياج ، كاف أن يحملها على الاعتقاد انها متحدرة من أصل واحد ، فيدفعها ذلك الى التعاطف فالتشاكى فالتنبه الجنسي فانشاء بناء العصبية الجنسية البعيدة الآفاق ، الشديدة الصولة والمنعة .

من قبل ثلاثة عقود الى أربعة عقود من السنين ، لم يكن هناك شئ من طوابع هذه الحركة ، ولا مما يدل على ظهورها ، إذ كانت جميع هذه الشعوب الطورانية المتباعدة المتفرقة ، تجهل وحدة ارومتها الطورانية العامة ، جهلاً تاماً ، ولم يكن هذا الجهل مقصوراً أمره على العروق التي شتان ماينها من الصلة والقرابة مثل الفنلنديين في فنلندة ولايات البلطيك والمذشوسيين في آسية الشرقية ، بل ان العروق المتقاربة الأقاليم ، الظاهرة النسابة بعضها مع بعض كالترك العثمانيين في القسطنطينية والاناضول وتركان أواسط آسية ، كان كل عرق منها على جهل من نسابته للآخر ، لا بل يعده غريباً عنه جنساً ، وأدنى وأحط منه شأناً . في ذلك الحين كان الترك العثمانيون لم يزالوا بعداء من روح العصبية الجنسية كبعدهم عن روح القومية والشعور العنصرى . وقد أخبرنا ارمينيوس فمبارى انه لما زار القسطنطينية لأول مرة سنة ١٨٥٦ « كانت كلمة « تركك » (ترك) تفهم وتعد من مترادفات الفظاظة والشكاسة والهمجية . « ولما كنت أقدم على تنبيه الناس الى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدث الجنس التركى (المنتشر من أدرنة حتى الباسفيك) كانوا يجيبوننى : ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف الكيرغيز وجفاة التتر وكدت لا أرى الا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية »

وظلت الحقائق وراء الحجاب حتى انبرى الانثولوجيون الغربيون يستقصون ويحققون وفي طليعتهم مثل أرمينيوس فمبارى الهنغارى وليون كوهين الفرنسى ، اللذين يرجع اليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الارومة الطورانية . فظهر العالم الطورانى من أقصاه الى أقصاه هائلا بعيد الآفاق . وكان لأعمال هذين العالمين القطبين فمبارى وكوهين أ كبردوى في أنحاء العالم . فطفقت كتب فمبارى وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطورانى الجديد انتشاراً سريعاً كبيراً ، فاقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للاخذ عنها والاقتباس منها ، العقول الهائجة المتأهبة للتجدد والارتقاء ، ثم سرعان ما أنشأت طوابع الحركة الطورانية تظهر وتتكاثر في أقطار مختلفة ، وكان ظهورها بادية الأمر في مركزين منفصل كل منهما عن الآخر . وهما القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور ، وبلاد التتر الروسية على ضفاف الفولكا .

غير أن الباكورة السابقة قد كانت في هذا المركز الأخير قبلما بدت على ضفاف البوسفور. إن هذه النهضة التترية، وإن كانت أقل شهرة من غيرها، هي إحدى الخوارق في تاريخ العصبية الجنسية. فالتتر الذين كانوا فيما مضى سادة روسية وحكامها، وقد طال ما طال من العهد على ثلاثي حكمهم وانهار دولتهم وسلطانهم، قد استطاعوا البقاء والكيونة، فلم تبتلعهم مبتلعات الأوقيانوس السلافي، ومع أن بعضهم قد أمسوا خاضعين للحكم الروسي منذ أربعة قرون فما انفكوا مع ذلك محتفظين بوحدهم في الدين والجنس والتهذيب، وقد استطاعوا أن يظلوا، وغالب مزدحم قطينهم في ولايات الفولكا ولا سيما في قطري « قازان واستراخان »، وفي أيديهم غالب بلاد القريم، ويؤلفون أقلية عظيمة في عبر القوقاس، مستمسكين بمستقل وحدتهم ومجموعهم بمنجاة من أن يتلعوا في يم الامبراطورية السلافية وانهم على تفرقهم في هذه الاقطار العديدة، لم يبرحوا الاشداء النشطاء في المناطق التي هم حالون بها، ولا عيب فيهم سوى أنهم شم الانوف أباة الضيم فلا ينال منهم ولا تغمز قناتهم.

كان تبدى تبشير اليقظة القومية واستفاقة العصبية الجنسية في تتر روسية سنة ١٨٩٥ ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نمواً هائلاً عجيباً. وكان من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ انها حطمت الاغلال الاستبدادية، فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة أشرقت فيها شمس الآداب أيما اشراق. فكثرت نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة مما ساعد النهضة التترية على النمو المطرد، فاعتزت اغترازا كبيراً. ولما كان التتر في روسية على جانب كبير من الأثراء فقد كان من السهل اعداد جميع ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية في سبيل النهضة. وحقاً قد قام المتمولون التتر ذوو الملايين في باكورة بقرت وافر عظيم من العمل لتنمية العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة عليّة، اذ ما عرفوا التردد قط في بذل المقادير العظمى من الأموال عن جود وسخاء في سبيل الغاية المباركة. وقد أبدى التتر الروسيون حنكة ومهارة فائقتين في عالم السياسة. فغدوا للحال موضع ثقة أبناء أعمامهم التركمان في أواسط آسية الروسية الذين كانوا قد دبّت فيهم أيضاً نشوة العصبية الجنسية، واشتمل مجلس « الدوما » الأول في روسية على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا في جهادهم السياسي عصبة متحدة متعاضة يشد بعضها بعضاً، لا يني لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة التترية، فغالبا الصعاب مغالبة غاية

في بذل النفس والدهاء والحسكة ، حتى غدا الرأي العام الروسي على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقل من عدد النواب المسلمين التتر كما يقل بذلك نفاذهم في دور الحياة الدستورية الجديد (١)

وقد كان المسلمون في روسية حكماء في السعي وراء مبتغاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير أن بعضهم كانوا أشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامح التترية الخفية وصرحت عن الآمال التي كان التتر يدأبون جاهدين في سبيل تحقيقها ، ذلك أنهم أخذوا في السعي وراء الغاية سعياً حراً في جو أنقى هواء وبيئة أخصب سرعى وأرحب منزلاً أعنى في القسطنطينية حيث قد قيض حقاً لتتر روسية أن يكون لهم شأن عظيم في أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية . وفي الواقع أن أول منشىء لجمعية الجامعة الطورانية الأولى من نوعها في القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلي ، المسلم التتري من أهالي الفولكا . وكتابه القيم المشهور المرسوم بـ « الأنظمة السياسية الثلاثة » غدا أساساً عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومناراً يهتدون به في جميع ما كتبوا الى اليوم في شأن الجامعة الطورانية (٢)

وظلت الجامعة الطورانية تكثفها بعض الغمامات في القسطنطينية حتى ثورة تركية

(١) لزيادة الاطلاع على النهضة التترية اقرأ : —

« المسلمون في روسية » (كانون الأول ١٩١١)

S. Brobovnikov, " Moslems in Russia,, The Moslem World,.

« تتر الفريم » (اب ١٩٠٧)

Févret , " Les Tatars de crimée ,, " Revue du Mond Musulman,,

كتاب « التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » ذكر قبلاً

« الجامعة الاسلامية والجامعة التركية » (آذار ١٩١٣)

“X”, “ I.e Pan - Islamisme et le Pan - Turquisme,,

‘ Revne du Monde Musulman ”

« المسلمون الروسيون » (شباط ١٩١٤)

H. Williams , “ The Russian Mohammedans ’

“ Russian Review

(٢) لزيادة الاطلاع على الجهود الطورانية اقرأ مقالة (X) المذكورة آنفاً

وكتاب أحمد أمين بالانكليزية (نيونورك ١٩١٤) :

'The Developmen of Modern Turkey - as Measured by its Press

« م ٨ - رابع »

الفتاة سنة ١٩٠٨ اذ أن السلطان عبد الحميد كان ، كما علمنا في غير موضع من هذا الكتاب مجاهداً كبيراً في سبيل الجامعة الاسلامية ، ومقاوماً شديداً لجميع الحركات الرامية الى العصبية الجنسية ، فلذلك لم يكن رجال الجامعة الطورانية ، قبل نزول الاضطهاد بهم ، ليلقوا شيئاً من الحظوة عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصبية الجنسية التركية ظهورها الجلي من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدي ، تبدلت الحال غير الحال ، فغدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تريك العناصر في المملكة ، يصيخون كل الأصاخة لدعوة الجامعة الطورانية ويجدون في سبيل نشرها والتبشير بها انجيلا جديداً ، حتى خرج منهم بالتالي أبطال وقادة يدعون الى هذه العصبية . وجدير بنا في هذا المقام أن لا ننسى أن ترروسية قد استمروا على جهادهم الأكبر في سبيل العصبية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك آغايف ، مسلم من تر فولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (تورك يوردى) — « الوطن التركي » التي انتشرت في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مستولية على نفوس قرائها نازلة منهم منزلة المقيم المقعد .

على أن قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك آغايف واضرابه الذين امتدت أطماعهم ووضعوا خطتهم لتوحيد العالم الطوراني طراً من فنلندة الى منشورية توحيداً تاماً ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير في سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة في مبادئ الأمر على توثيق العرى بين الترك والتتر اللصقاء ، أعنى بين الترك العثمانيين والتتر الروسيين والتركان في أواسط آسية وايران . ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب أن الدعوة الطورانية كان لها ما عدا صفتها الجنسية صفة دينية أيضاً تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية في اعتبارات عديدة . ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الديني ، ان الحركة التي كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانية لم يعد امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلا .

وجاءت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ - ١٣ فكانت هاجماً كبيراً هاج الجامعة الطورانية ودفعها الى الامام دفعة شديدة ، ولم تكن نتيجة هذه الحروب البلقانية أن أخرج الترك

من البلقان فتقلص ظلهم عن تلك الديار فأخذوا بسبب ذلك يتلفتون فقط نحو آسية ، بل كانت النتيجة الكبرى هياج هائج الغضب الشديد في صدور الهنغارين والبلغاريين (١) على الصريين النصاري ، فطفق الأولون يجاهرون بتحدرهم من الارومة الطورانية ويزودون عن وحدة الجامعة الطورانية ، ازاء التهديد الذي بدا من ناحية الجامعة السلافية الصرية الروسية (٢)

وظفق رجال الفكر العاملون في سبيل الجامعة الطورانية يجدون عن ثقة وايقان في نشر التعاليم والعقائد البعيدة في الاغراق والمغالاة ، سعياً وراء تحقيق مطامعهم الكبرى وآمالهم العظمى ، وباتوا يعظمون كل الاعظام شدة البأس والروع والبسالة المتجلية في جميع الشعوب الطورانية الى حد غدوا عنده يوقنون ايقاناً تاماً أن الجنس الطوراني انما هو الجنس الذي سيسود غداً العالم قاطبة سيادة كاملة دون منازع ، وهب الاقطاب الغير فيهم الراسخون علما في الفلسفة الغربية وفي النشوء والارتقاء والبحث في أصول الشعوب يبسطون آراءهم ونظرياتهم المخصوصة بهم في كيفية ارتقاء الشعوب واعتزازها ، وأسباب انحطاطها وتدليها ، وعلى حسب التعاليم التي يجاهر بها علماء الجامعة الطورانية بان الشعوب والأمم التاريخية في جنوبي آسية - العرب والفرس والهند - انما هي شعوب على جانب كبير من الانحطاط ، وان الشعوب والأمم الاوروبية قد أخذت تنحدر عن الاوج الذي بلغته منهوكة القوى خائرة العزم مأكولة الحشى بنار الصناعة الحديثة . لذلك على رأى هؤلاء العلماء يجب على الطورانيين الاشداء الاقوياء الذين لم ينغمسوا في الحضارة الغربية ولا دبّت فيهم مفسادها ولا رمّموا ماتمها ، ان يكونوا هم قادة الأمم والشعوب في

(١) كون البلغاريين أو قسم منهم ينتسبون الى أصل طوراني هذا لا ريب فيه . أما كونهم يتمسكون بالجامعة الطورانية ففيه نظر ، فان كانت بدرت من هذا القبيل بعض كلمات اثناء الحروب التي وقعت بين البلغاريين والصريين حنقاً على الروس الذين كانوا يفضلون الصرب على البلغار دائماً فلم يكن ذلك بالدرجة التي تجعل البلغار عضواً عاملاً في الجمعية الطورانية ولما سمعنا الاتراك يعتمدون في هذه الجامعة على البلغار كما يعتمدون على الحجر الذين منهم من يجاهر بالاستمسك بجمبل الطورانية . (ش)

(٢) للوقوف على المنازع الهنغارية والبلغارية للجامعة الطورانية اقرأ مقال « الجامعة الطورانية . »

(شباط ١٩١٧) "American Political Science Review" , "Pan - Turanism"

المستقبل . وبعض رجال الفكر من الطورانيين يستغرقون الغاية بمصارحتهم أن من أقدس واجبات الجنس الطوراني إعادة احياء هذا العالم الهرم المتضعع ، وذلك انما يتم بتلقيحه بالملقحات الطورانية الدموية ، المصلحة المجددة ، التي تبعث فيه صحة وبرءاً^(١) . وقد أيقن رجال الجامعة الطورانية انه اذا كان مقدرًا لهم التأليف في شيء من مطامعهم التي ذهبوا بها الى ما فوق الاغراق والمغلاة ، فلن يكون ذلك مستطاعاً الا بانهميار الامبراطورية الروسية وتزلزها ، لهذا بات رجال الحركة الطورانية يرون روسية بقاظنها من التتر والتركان والكيرغيز والفنلنديين والقبائل العديدة الجامعة صلات الانساب بعضها مع بعض ، ان هي الا بلاد طورانية بحته يغشى تربتها طبقة من الراسب السلافي متفاوت الرقة والكثافة ، ولذلك دانت الغاية التي رامها الطورانيون ، وهي جعل روسية موطناً طورانياً ، غاية هائلة حقا . ومع هذا فان دعاة الجامعة الطورانية قد حسبوا انهم يلقون عوناً على بلوغ غرضهم وتحقيق أمنيتهم من بعض الدول الغربية العظمى فايقنوا أن ألمانية وأوسترية - هنغارية انما كانتا تقتربان - أكثر فأكثر من ولوج حرب مع روسية ، وانه متى ما اشتدت جأحة هذه الحرب وكشرت عن أنيابها ، سنحت اذذاك الفرص الكبرى لادراك الغاية ونيل المبتغى .

ومما لا ريب فيه ان قد كان لهذه المطامح الدائرة حول محور الجامعة الطورانية شأن كبير في انجذاب تركية الى جانب الدول المركزية وخوضها معهن معمعان الحروب ، ومن المؤكد أن أنور باشا قد كان منذ عهد بعيد يجهد في سبيل الجامعة الطورانية ويذود عن حوضها ما استطاع^(٢) ومن المقرر المعلوم أيضاً أن الحكومة التركية كان لقوسها وتران

١ افراً المقالة المذكورة قبلاً للمشرق «X» . واخرى عنوانها « السياسة الجارية في تركية المعاصرة

كانون الاول ١٩١٢

Les courants Politiques dans La Turquie contemporaine Revue
du Monde Musulman

(٢) كان أشد رجال تركيا الفتاة تمسكا بالقضية الطورانية أيام الحرب العامة جمال باشا ، ويلييه طلعت باشا ، والدكتور ناظم وضياء كوك آلب ، وشكري بك ناظر المعارف ، وغيرهم . وكان أقل الناس اهتماماً بها هو أنور باشا ، وكان جهاده في الاتحاد مع الأتراك الذين بالروسية والحرب التي أصلاها في اذربيجان سنة ١٩١٨ وجلى بها الانكلايز عن باكو ، وكسرها شوكة الأرمن ، وأسس للآذريين دولة مستقلة استمرت مستقلة عدة سنوات ؛ وأرسل ضباطاً قادوا مقاتلة الطاغستان الثأرين في وجه الروس

أرادت أن ترمي عنهما سهاما لئيل غرضين معا. وذلك انها حاولت أن تسوق الجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية معا في طريق واحد، عامدة الى استنفار جميع المسلمين الغير الحس في كل قطر من أقطار العالم الاسلامي للجهاد المقدس، من حيث هي لاجئة في الوقت عينه الى مضاعفة نشر دعوتها للجامعة الطورانية في الشعوب التركية التتيرية. وقد بين « تكين الب » الكاتب المشهور هذه المطامح الكبرى التي امتدت اليها أنظار دعاة الجامعة الطورانية في أوائل كتاب له موسوم بـ « التركي وغاية الجامعة التركية » نشره ١٩١٥، وبما قال فيه : « متى ماسحقت بسل الجيوش الألمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسي الغائم سحقا، واستطاع ٣٠٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠٠ من الطورانيين نيل الإستقلال والحرية. ثم يضاف الى هذا العدد ١٠٠٠٠٠٠ من الترك العثمانيين، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها ٥٠٠٠٠٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوى مع الحضارة الألمانية فتفدو هذه الأمة اذذاك شديدة القوة والبأس، مستسهلة كل صعب لتوالى الصعود بمعراج الارتقاء، وستفوق هذه الحضارة الحديثة في بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين »

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البولشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامح الطورانية وامتدت في كل جهة جائزة كل حد. وبات رجال الدعوة الطورانية موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خدودهم على حلفائهم الألمان وسائر الأوروبيين، كاشفين بهذا عن حفاظ صدورهم تلك الحفاظ التي يكنونها أبدا للغربيين. وقد ذكر ضابط الماني من أركان الحرب (١)، حديثاً جرى على

الى حربه الأخيرة سنة ١٩٢٢ مع الروس في بخارى وهي الحرب التي سقط فيها رحمه الله شهيدا في بولجوان شرق بخارى بعد ان كان أشعل الثورة العامة من سواحل بحر الخزر الى حدود كاشغر واضطر الروس البولشفيين الى تسير مئات ألوف من العساكر لاختاد هذه الثورة الكبرى كل ذلك كان منه حركة اسلامية محضة من قبيل جهاده في طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ثم ارساله اليها أخاه نوري أثناء الحرب العامة مع أن أهالي طرابلس الغرب ليسوا أتراكا ولا طورانيين وإنما يربطه بهم الاسلام لا غير. وكان يقول لي مرارا ان أنفوس الترك والتتر الذين يمنون بنا في تركستان ويعقدون آمالهم بنا إنما يمنون بنا لكوننا مسلمين لا لكوننا أتراكا. فلو كنا من الترك الباقيين على الوثنية في سيبيريا ما عرفونا ولا سألوا عنا. (ش)

(١) كان رئيس أركان الحرب في الجيش العثماني « ارنست پاراكوين » من مقال له نشر في « برلينر تاجبلاط »

المائدة بينه وبين خليل باشا قائد الجيش التركي في جهة الحرب العراقية ، وهو عم لأنور باشا ، والى القارئ بعض ذلك الحديث : « يجب في المقام الأول أن يغدو كل عرق يتكلم إحدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ، ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبة الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضرباً من الضرورة التي لا منتدح عنها ، وهي فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فإذا ماتم هذا كان أساساً منيعاً يبنى عليه صرح نخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » في سيديرية ، الذين انما يعدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعد العروق التركية الضاربة شرقاً ، ويجب على قبائل التتر-العربية اللصيقة المجاورة في القوقاس أن تندمج في الأمة التركستانية اندماجاً تاماً . وذلك يتم بطبيعة الحال . ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الأقلية في كل قطر من قطريهم أن يندغموا أيضاً في هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره . فان امبراطورية تركية . ضخمة منيعة ، مترامية الأطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامي يكون في استطاعتها حينئذ أن تسيطر بنفوذها وتأثيرها على أفغانستان ويران . . . وفي كانون الأول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رحى الحرب في الجهة العراقية وضويق الجيش التركي مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لى خليل باشا مازحاً جاداً : وافرض مزحاً اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المهلكة وتخلينا عنها فجاء اليها الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع أن ننشئ امبراطورية جديدة ، لابنى هذا الأصغر ، وكان قد سمي ابنه بأسم الفاتح المحرب - جنكيزخان (١) »

(١) لزيادة الاطلاع على الجهود التي بذلها الترك خلال الحرب العامة في سبيل عصبيتهم الجنسية اقرأ : -

« رسالة في الطورانيين والجامعة الطورانية » جمعها الفرع الجغرافي في قسم الاستخبارات البحرية لأركان

الحرب في امانة البحر العامة (لندن ١٩١٩)

A “ Manual on the Turanians and Pan-Turanianism ,, “ Compiled By the Geographical Section of the Naval Intelligence Division, Naval Staff. Admiralty ,,

وكتاب « الهلال والصليب الحديدي » (لندن ١٩١٨)

E. F. Benson , “ Crescent and Iron Cross ,,

وكتاب « ترك آسيا الوسطى : أو بحث في الجامعة الطورانية » (ا كسفورد ١٩١٨)

M. A. czaplicka, “ The Turks of Central asia : An Inquiry into the Pan - Turanian Problem ,,

وفي صيف ١٩١٨ اجتاحت العساكر التركية^(١) عبر القوقاس وشمالى ايران متخذة آسية الوسطى وجهتها . ثم بعيد ذلك نزلت النازلة الكبرى بالمانية فتضعفت وتزلزلت ، وانهت الحرب العامة انتهاء جلب على تركية الخراب والتلاشى ، فصرع رجال الجامعة الطورانية صرعة كبيرة ، وحلت بساحتهم الحيرة ، غير انه قد قيض لآمالهم الانتعاش من بعد ذلك بمدة قريبة كما ترى كيفية ذلك فى موضع قريب من هذا الفصل

يجدر بنا قبل أن نأتى على البيان والوصف لمجاري الحوادث فى الشرق الأدنى منذ سنة ١٩١٨ ، الحوادث التى يجب أن تعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، أن نسوق الكلام على الدور الثانى لترقيات العصبية الجنسية والنهضات القومية فى سائر العالم الاسلامي . وقد سبق لنا العلم بأنه لما كانت العصبية الجنسية التركية تنمو محتازة دورها الثانى كانت العصبية العربية تنمو معها جنباً الى جنب محتازة دورها الثانى كذلك ، رامية الى انشاء امبراطورية الجامعة العربية المشتملة ليس على البلدان العربية المعدودة الوطن الاثنولوجي للعرب من شبه الجزيرة وسورية والعراق فحسب بل أيضاً على الاقطار المتعربة من مصر وطرابلس وسائر بلدان افريقية الشمالى الخاضعة لفرنسا وعلى السودان .

على أن الجامعة العربية لم ترق الترقية الأدبية كما رقيت الجامعة الطورانية ، مع أن متجها العام شبيه بمتجه تلك شبيها يغنيننا عن تفصيل مبادئها وتعاليمها . انما هناك فرق كبير بين مجرى العصبيتين ، وهو ان الجامعة العربية قد ظهر فى صفاتها وحالاتها من صبغة الدين والجامعة الاسلامية أكثر مما ظهر فى تلك . لان العرب يفخرون بأن مبعث النبي كان فيهم ، ويعدون أنفسهم « أمة الرسالة » التى قدر لها من قبل السيادة على جميع العالم الاسلامي . وينقص الجامعة العربية التنظيم ووحدة السير والمتجه ، تلك الوحدة التى عرفت

وكتاب « قصة السفير مورغنتو » (نيويورك ١٩١٨)

H. Morgenthau, " ambassador Morgenthau's Story ,,

ومقال « الروح التركية » نيسان ١٩٢٠

a. Mandelstam, " The Turkish Spirit " , " New Europe ,,

(١) صادفت خليل باشا مرة بالاستانة عند تحمين بك والى الشام السابق فسمعتة ينادى ابنه الصغير باسم جنكيز . فقلت له : ألم تجد له اسماً غير هذا . فقال لى : سميناه محمدجنكيز ، فجمعنا بين الأمرين . يريد أن يقول بين الاسلام والطورانية . فهزئت رأسى لهذا الجواب . (ش)

في الجامعة الطورانية . ولم تبرح سورية ومصر المركزين المعروفين اللذين تنبعث منهما قوة الحركة للجامعة العربية (١) . وفي الواقع الصحيح ان التدابير والخطط الكبرى للجامعة العربية قد نظمت تنظيمياً وأنضجت في مصر . وأما البرنامج المصري للجامعة فهو يرمى الى توحيد جميع الاقطار العربية وعلى رأسها الخديوى - وربما صارت هذه الأقطار العربية المتحدة خاضعة للوصاية البريطانية أول العهد ثم بالتالى تنفض عنها هذه الوصاية وتمزقها بمقاومة عامة تقوم بها جميع أقطار الجامعة العربية . ويعزى الى الخديوى عباس حلمي الذي خلعه الانكليز سنة ١٩١٤ تشجيعه لهذه الحركة (٢)

ومما لا ريب فيه ان الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجاً شديداً ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من انشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز ، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، وثار تطلب الاستقلال ، متطلعة نحو اسقاط السيادة الاجنبية ومحوها محوياً تماماً ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والاطالنية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الاقطار العربية . وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقاً جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية ،

(١) المركز الوحيد الذي يمكن ان تؤسس به الآن دولة كبرى تجمع بين جانب كبير من أفريقية وجانب آخر عظيم من آسية ويستأنف به مجد العرب والشرق أجمع وتحفظ به الموازنة الضرورية لتمكين السلام بين الشرق والغرب هو مصر القاهرة . اذ بمصر جميع ما يلزم من مواد بناء الدول الضخمة من وفرة الاهالي ، وخصب الاراضى ، وثروة البلاد ، وتوسط الاقليم وآثار المدينتين الشرقية والغربية ، وكثرة المباني الاميرية والمعاهد العلمية والخيرية ، الى غير ذلك من اشراط قيام الدول العظام . وبمصر كانت دول يفخر بوجودها التاريخ قبل الاسلام وبعده ، ولصر من الوسائل لتحقيق أمل العرب ما ليس لغيرها ولا ينقص مصراً سوى الاستقلال الحقيقي وحسن نية المستعمرين (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على سير الجامعة العربية وترقيتها اقرأ : —

A.Musil, " Zur Zeitgeschichte von Arabien , (Leipzig 1918) M Pickthell

« تركية وانكاثرة والازمة اليوم » اكتوبر ١٩١٤

« Turkey, England and The present Crisis, (Asiatic Review)

الشيخ عبد العزيز جاويش — مقاله

« Das Machtgebiet der Arabischen Sprache Preussische Jahrbücher

وان كانت لم تبرح عاملاً شديداً ، غير ظاهرة كما كانت من قبل ، فى صدر البرامج التى فى أيدى رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية .

زد على ذلك ان الجامعة العربية مشتبكة النسيج ، كما قلنا قبلاً ، بمبدأين عامين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبية الجنسية الاسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب ، من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين . ان الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا فى الجنسية والوطنية ، وانتحل ما انتحل من عقائدنا فيهما ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت الى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملائى بصفه آخر من المبادئ والعقائد الرامية الى الوحدة الاسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقسام والفرق ، بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف الى حد غدا عنده المسامون متى ما استعمالوا الكلمات التى نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ، ذهبوا فى فهم معنيهما مذهباً مخالفاً لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التى بيننا وبين الشرقيين ، ما هو شائع فى أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية . خذ لك مثلاً كلمة « الدولة » ، فان الدولة الاسلامية التى يصح اتخاذها مثلاً للمقارنة ، ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحدة معينة من الناس ، وأرض يسكنونها مقررة الحدود ، وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ فى كل مكان داخل حدود الدولة . بل ان الدولة فى الشرق الاسلامى انما هى كناية عن كتلة ، قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هى مصدر السلطة المنبعثة منها ، انبعاثاً مشتملاً على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعتوره آفات الفوضى ويشوبه الاختلال . ومن المعلوم ان غالب الدول الاسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجدد فى تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها وسائر أحوالها ، ناسجة فى ذلك على منوال الدول الغربية . غير ان المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما فى أفغانستان حيث القبائل التى عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهى قبائل أفغانية متملكة استقلالاً عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها فى المدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانكليز ،

غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتنصل من تبعتنا تنصلاً انقطع عنده دهاء الانكليز .

والأمر كذلك في الجنسية عند المسلمين . ليست الولادة في البلاد ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد أمة اسلامية في قطر من الأقطار ، متمتعاً حق التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية . فوطن المسلم هو العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية أن ينال للحال أى وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ، ذى المقام والمنزلة بين ظهرائى القوم . فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلاً لاتعنى ذلك المعنى بعينه الذى تتصوره نحن فى الجارى المعتاد . فاذا ما أقام مسلم جزائرى أو دمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصرياً » وطنياً حراً » بصحيح معنى العبارة . والسبب فى ذلك ان من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، فجميع الأقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التى قاطنها مسلمون ، يجب عليهم باعتبارهم أمةً واحدةً متحدةً ، الذب عن سياجها والذيادة عن حياضها وهذا هو السبب فى اننا نرى انه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفاً من العالم الاسلامي ، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد ، على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادية يحمله على ذلك ، كأنما المعمور الاسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء .

ترانا بعد جميع ماتقدم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين المسلمين الجامعين لمبدأ الجنسية الغربية وسنة « دار الاسلام » التقليدية ، الذين قد ألفوا بين هذا وتلك تأليفاً مشتركاً نجم عنه مزيج فكري جديد ومعتقد عام عرفاً بجامعة العصبية الجنسية الاسلامية ، وقد بين مسلم هندی متجه هذا المعتقد بقوله : « ان جميع علوم الغرب فى فن الحكومات قائم على قاعدة ان الفروق الجوهرية فى بنى الانسان مقررة على اعتبارات جنسية وجغرافية . على أن هذه القاعدة ليست بمعروفة هكذا عند الشرقيين ، فعندهم أن الفروق الانسانية هى قائمة على اختلاف فى المعتقدات الدينية ، فليست الوحدة لعمرى فى الأمة ولا فى الدولة بل فى الملة . ويرى الأوروبيون فى مثل هذه الحال فى الشرق اليوم مثيلاً

لتلك الحال التي اجتازتها أوروبا في القرون الوسطى ، اذ أن العالم الاسلامى ليجتاز دوراً الامندوحة له عن اجتيازه وهو دور التجدد السليم والانتقال الصحيح . وعلى هذا فما أسوأ فهم الغربيين لتلك الصورة الجامعة المتجلية للمسلم في دينه !! ان الغربيين لينسون ان الاسلام ليس مقصوراً على كونه ديناً فحسب ، بل انما هو نظام اجتماعى ، ونهج تهذيبى ، تضاف اليهما الجنسية . ان قاعدة التناخى الاسلامى ، وان شئت فقل الجامعة الاسلامية ، هي مقارنة « للوطنية » ومماثلة لها ولكن بينهما فروقا : وهي ان هذه الجامعة الاسلامية وان أدت الحال الى التحاكي في الشرائع والقوانين والعادات ، فانها ليست (كالجنسية الغربية) قائمة على الوحدة في الجنس والاقليم والتاريخ ، بل انها قد تلقيت من الله تلقيناً توأماً على حسب معتقدنا ^(١) .

ان جامعة العصبية الجنسية الاسلامية ، لظاهرة حديثة النشأة ، لم تقرر تعاليمها بعد ، غير انها بادية جلية في العالم الاسلامى قاطبة ، وهي ابدأً تزداد اعتزازاً ومنعة ولاسيما في أقطار شمالي افريقية والهند حيث لم تكن هناك الوطنية الاقليمية الشديدة لسبب ما مترقية ترقى غيرها في سائر الأقطار . قال كاتب فرنسى في هذا الصدد : « ان العصبية الجنسية الاسلامية ليست هياجاً موضعياً في قطر معدوماً في آخر ، أو اضطراباً موضعياً غير منظم ، بل انما هي تيار جارف بعيد الأفق ، وطوفان طام العالم الاسلامى طراً من آسية والهند وافريقية فالعصبية الجنسية انما هي شكل حديث للاسلام له منعة في ذاته لا يقوى على زعزعتها الاضطدام بالحضارة الغربية . وهذه العصبية سائرة سيرها مستعينة بكل عامل شديد من الغيرة الدينية ، ومستعدة للامتداد والانتشار ورد الناس الى دين الرسالة ، وزاعة الى تحقيق وحدتها باشغال تعصب العامة من المسلمين وبالسيطرة على المرامى السياسية التي تدير دفتها الخاصة ، وبنذر بذور الهياج الهائل في كل صقع وقطر ^(٢) » جامعة العصبية الجنسية

(١) محمد على رئيس « وفد الخلافة » الوفد الذى أوفده مسلمو الهند الى بريطانيا سنة ١٩١٩ ليجتج على تقسيم الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدات الصلح - من مقال لهذا الرئيس « الحركة الاسلامية في الهند » (كانون الثانى ١٩١٤)

« Le Mouvement Musulman dans L'Inde », (Revue Politique Internationale)

(٢) كتاب « العصبية الجنسية الاسلامية » المذكور قبلا لسرفيه .

الاسلامية ستكون في المستقبل عاملاً كبيراً وركناً أعظم ، يقام له ويقعد في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه^(١).

— ٣ —

هنا ينتهي وصفنا للعصبيات الجنسية في العالم الاسلامي . ولعمر الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق ، وقد ارتوت نفوس شعوبه وأمه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها ناراً ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلاً عمياً وبلاء شاملاً ، مرجلاً شديد الغليان فواراً ، وبركاناً ثائراً . من المعلوم البين انه قد كان من المستطاع عقد مصالحت سليمة من النقائص والمشايخ . وذلك بالجري على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج . لكن مؤتمر فرساي السلمي كان وياً للأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة في الرأي ، ونظر بالعواقب فنجم عن ذلك أن تلك « التسويات » الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شرجوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبا فحسب بل كان من شأنه اماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب الحقيقي ازاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذي عادت فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت ما قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطوري والجشع الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانتهاب ما بين أيديها وما خلفها ، واستنزاف دماؤها ، وشد الاخنقة على ما حول رقباتها . زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العمه ، غير معتبرين شيئاً التطورات النفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب ، فلم يلجأوا الى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، والى انتهاج نهج سياسي خيز

(١) لزيادة الاطلاع على جامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اقرأ بعد سرفيه ومحمد على :- « الاسلام في القرن التاسع عشر » (باريس ١٨٨٨)

a. Le chatelier, L'islam au dix - Neuvième Siècle

« انكلترا والاسلام » (حزيران ١٩١٩)

'Sir T. Morison ' " England and Islam " - " Nineteenth centur and after ,,

G.Démorgny, " La Question Persanne , (باريس ١٩١٦)

« عبر الفوقاس ماضياً وحاضراً » (اكتوبر ١٩٢٠)

W. E. D. allen, " Transcaucasia. Past and Present , , " Quarterly Review

من ذلك الذي انتهجوه قبلاً ، بل ظلوا على المضي في معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التي أن من فدح عبثها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ، ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسية ما يرحت ذلك الجبار المستغرق في هجعتة كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشره خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسباع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى ، في تقرير المصير ، خلال المعمان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملاء سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه يصرحون بالزياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، إشباعاً لشههم الكابي ونهمتهم الوحشية ، ممتنين شر امتهان إرادة أهالي البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة . وكان مؤتمر فرسايل كشافاً عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التي انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التي التزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد ايران الذي أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً) . فكان من الأمر أن حمل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء ، بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عنق حكومة الشاه في طهران الى أن أكرهتها اكرهاً على إبرام « اتفاق » باتت ايران كلها بمقتضاه بلاداً محمية في كنف الامبراطورية البريطانية . وأما المصريون - الذين كان دأبهم وديدنهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي أعلنتها بريطانيا منفردة ، من تلقاء نفسها ، في مصر سنة ١٩١٤ - فقد أوفدوا الى باريس وفداً ليبسط قضيتهم فرفض مؤتمر فرسايل الأصاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر انما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمراً قضى وحكما أبرم . فنجم عن جميع ذلك ماعدت نتيجة من نتائج الحرب ، وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين الأدنى والأوسط قد شدت أطنابها ، وتوطدت عمدتها واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

على ان الأمر الأغرّب والأعجب في جميع القضية لم ينسبته بعد . قد يخال بعضهم أن قادة الحلفاء ما كانوا الا ليدركوا أنهم كانوا في نهجهم هذا النهج يركبون مركباً خشناً ، ويعانون صعباً في سبيل أمر لا يستطيعون بلوغ الغاية منه الا بصف الجانب الى الجانب ، وتعاهد الأيدي على التعاون ، وتقارض شد الأزر ، وسرعة الامضاء . غير ان الواقع كان الضد كل الضد من هذا . إذ انهم لم يكادوا يمدون أيديهم بعضهم لبعض حتى ذعر الشرق ايما ذعر ، واجفل ايما اجفال ، متقدماً حنقاً وغضباً وبأساً . فما كانوا ليقيموا لهذا شيئاً من الوزن والاعتبار ، بل ركبوا رؤوسهم في طريق السوء وشرعوا يتخاصمون ويتقاتلون على اقتسام الغنيمة ، بحيث صار كل منهم يتهجم للآخر ، ويريد أن يفوز على سائر شركائه بالسهم الأريج والنصيب الأوفر . فانقضت سنتان دون أن تستطيع بريطانيا وفرنسة واطالية الوصول الى إبرام اتفاق بينهن ولو ظاهراً ، يرتضين بمقتضاه خطة في تقسيم الامبراطورية العثمانية ، بل ظلن طول هذه المدة ينهش بعضهم أافية بعض ، وتكيد الواحدة المكاييد وتلقى الأحايل والاشراك في سبيل الأخرى . وكذلك كان شأنهن في جميع الشرق الأدنى . قل الحق ولا تخش لوماً . انما ذلك كان خفة وطيشاً وجنوناً ، فباتت الشعوب التي قضى عليها بأن تكون ضحايا بريئة ، تمزقها محالب الاستعمار ، تدرك جيداً من وراء ذلك التطاحن الذي شرع يتطاحنه الحلفاء على مشهد منها في سبيل امتصاص دماؤها ، أن السيطرة الاوروية قائمة ليس فقط على « الافلاس » في الآداب الصحيحة والأخلاق الكريمة بل في السياسة أيضاً ، واضحت النتيجة جلية ، وهي أن سيطرة متهدجة مثل هذه السيطرة القائمة على أساس المفاسد والعيوب ، لعجلان ماتزلزل شرزلة ، وتقوض تقويضاً يصيرها أثراً بعد عين .

هذه هي الحالة العامة التي يفقهها الشرقيون اليوم ، على أن شعورهم بحولهم وقوتهم وبتضعف الغرب وتقاطعه وتفكك أوصاله ، لم يكن الهاجس الفذ الذي هاج منهم هذه النفوس الثائرة ، بل ظهر لهم هناك حليف جديد وقف من ورائهم وما فتئ يجدد في تشجيعهم على القيام في وجه الغرب ، يؤرث نار العدا بينهم وبينه - ألا وهو الروسية البلشفية ، التي قد قلبت لاوروبة ظهر المجن وانبرت بتبغى نزال الحضارة الغربية . فلما اشتد الخطب واستحكمت حلقاته ، وخرج المأذق بين الشعوب الشرقية والدول الغربية ، وجد القادة

البلشفيون الفرص الكثيرة قد لاحت في الشرق آخذاً بعضها برقاب بعض ممهدة لهم سبل الوصول الى غايتهم ، فهللوا لها فرحاً وسروراً ، وشرعوا يبثون دعوتهم المعروفة ، وسنفضل الكلام على المساعي البلشفية والأعمال التي قام بها قادتها في الشرق في فصل « القلق الاجتماعي » من هذا الكتاب . غير ان ما يعيننا علمه الآن هو ان الدعوة البلشفية انما هي عامل كبير في هذا الغليان الشديد البعيد الغور ، والثوران الشامل المنتشر في الشرقين الأدنى والأوسط ، الذي جرفادح البلايا الى بعض الأقطار وجلب عليها الخراب والدمار ، وما زال منذراً بالتزايد والتفاقم في المستقبل القريب .

اننا لو شئنا التفصيل في شأن هذا الاضطراب المشهود اليوم في الشرق لاستغرق ذلك أسفاراً ضخماً . لذلك نقصر الكلام في هذا المقام على المراكز الكبرى التي هي مناشئ هذا الاضطراب ومبعثه ومصدره ، عالمين ان هذا الغليان عام الطوفان ، مطبق الطمو في جميع العالم الاسلامى ، من الأقطار الافريقية الشمالية الفرنسية الى أواسط آسية والجزائر الهولندية . وأما المراكز التي نبسط الكلام عليها الآن فهي مصر وايران وتركيا والأقطار العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية . وهناك غير هذه المراكز مركز خامس كبير هو الهند . غير اننا سننسط الكلام على هذا المركز الأخير في الفصل الذي يتلو .

ان العاصفة الأولى قد عصفت في مصر . ظلت مصر مدة الحرب وهي مغمورة بطوفان الجيوش البريطانية ، ومصفدة شر تصفيد بالأغلال العسكرية (العرفية) ساكنة هادئة ، ولكن تحت ضغط الجور الهائل وارهاق الحد والقسوة العسكرية ، لاعن طاعة مختارة ولا عن طيب نفس ، وقد علمنا فيما سلف من الكلام في غير موضع كيف أضحي جمهور متهذبة المصريين عند مطلع القرن العشرين ، متشر بين قليلاً أو كثيراً لمبادئ القومية والعصبية الجنسية ، من حيث كان جانب كبير منهم يعتقدون نهج مناهج الارتقاء المتدرج ، لانهج العنف والثورة . وكان المعتدلون من المصريين أقوياء الأمل بحسن العقبى والسبب في ذلك كون الحكم البريطاني ذا صفة موقته لادائمة . كما أن بريطانيا قد أعلنت من ذاتها مراراً انها محتلة مصر « احتلالاً مؤقتاً » ، مما جعل المصريين يعتقدون ان جميع مايرجون نيله لمستطاع . غير ان اعلان الحماية سنة ١٩١٤ اعلاناً جعلت مصر بمقتضاه قسماً من الامبراطورية البريطانية ، كان من شأنه انه بدل بصورة القضية تبديلاً تاماً ، ونقض

شكّلها نقضاً كلياً ، فأيقن جميع أهل مصر حتى أكثر الوطنيين اعتدالاً ان قد قضى على مستقبل مصر بالويل قضاء مبرماً ، وسبق السيف العذل ، وان الأبواب قد أغلقت دون النجح شرّ إغلاق ، وأوصدت دون بلوغ آمالهم ونيل مطامحهم ، وحيل بينهم وبين ما يبتغون فنجّم عن ذلك ان انحاز المعتدلون الى جانب الغلاة وبتوا جميعاً من بعد ما كانوا شتى ، على استعداد للقيام بأعمال الشدة والعنف والمقاومة والمشاكسة عند سnoch الفرصة ولولح النهضة .

وكان غلاة الوطنيين ما فتئوا منذ بدء الأمر يوالون احتجاجاتهم على اعلان الحماية ، فعند ختام الحرب العامة أوفدت مصروفاً مؤلفاً من المعتدلين والغلاة الى باريس ليقوم ببسط القضية المصرية لدى مؤتمر فرسايل ، فغيب المؤتمر الوفد كما ذكرنا ذلك في موضع قريب ، وأبى الاصاخة لأقواله واستماع شكواه ، معترفاً بالحماية البريطانية في مصر جزءاً مندجاً في التسويات التي بنى عليها عقد الصلح . فرفع الوفد المصري احتجاجاً رسمياً منذراً فيه الحلفاء بنشوء الاضطراب في مصر ، جاء فيه : -

« لقد قرعنا الباب اثر الباب لكن على غير طائل . وانه بالرغم من العهود المؤكدة والوعود الموثقة ، التي قطعها رجال السياسة الذين كانوا على رأس الأمم التي جنت ثمار الظفر ، بأن فوز الحلفاء انما هو نتيجة لنصر الحق على القوة ، ولتأييد مبدأ « تقرير المصير » بحيث تترك الامم الصغيرة وشأنها تختار لنفسها من أنواع الحكم ما تراه موافقاً لمصلحتها ، - بالرغم من جميع ذلك - فان الحماية الانكليزية على مصر قد أدخلت في نص معاهدتي « فرسايل » و « سان جرمن » ، دون الوقوف على رأى الشعب المصري في أمر موقفه السياسى .

« فنحن ازاء هذه الجريمة الواقعة على أمتنا ، والتي هي في الواقع خيس بالعهود من قبل الدول التي أعلنت للملاء كافة انها واضعتى تلك المعاهدة نفسها بناء «عصبة الأمم» ، لا بد لنا من التحذير الشديد الى أن الشعب المصري ليعتبر هذا الحكم الصادر عليه في باريز باطلاً لا وزن له البتة واذا لم يسمع تحذيرنا هذا فانما ذلك لأن الدماء التي أهرقت من قبل في سبيل حرية الأمم لاتزال غير كافية لقلب النظام العالمى القديم ، واحلال نظام عالمى جديد محله . »

فما كاد جبر هذا الاحتجاج يجف حتى أخذ الاضطراب ينشأ وينتشر في مصر . وفي الحين الذي فيه وصل الوفد الى باريس ليسط القضية ، رفع الوطنيون في مصر مطالبهم الى السلطة البريطانية ، واشتمل برنامج الوطنيين على مطلب الحكومة الذاتية الناجزة لمصر . مبقياً لبريطانية حق المشاركة على الديون العامة وقناة السويس . وظهرت قوة الوطنيين مظهراً شديداً مؤيداً ، وذلك ان مطالب البرنامج بجملتها هي مما وافقت عليه الوزارة المصرية التي عينها الخديوى قبيل ذلك تعييناً نائلاً لرضى الحكومة البريطانية . فطلب رئيس الوزارة المصرية رشدى باشا أن يؤذن له ولبعض زملائه في الشخوص الى لندن للمفاوضة مع حكومتها ، فأمست السلطة البريطانية عند هذا الطلب في موقف حرج ، لكنها اختارت أن تعترم التصلب في موقفها ، وعلى ذلك أجابت أن الحكومة البريطانية ليس في وسعها أن تتخلى عن التبعة الملقاة على عاتقها وهي التبعة المنقضية استمرار الأمن والنظام والحكومة الصالحة في مصر ، وهي البلاد التي أصبحت تحت حماية بريطانيا وصارت جزءاً متمماً للإمبراطورية لا ينفصل عنها ، وان ليس هناك عائد خير يستفاد من السماح للزعماء المصريين بالذهاب الى لندن حيث يبسطون مطالب غير معتدلة لا يستطيع الاصفاء اليها ولا مما يحتمل وضعه على بساط البحث والاعتبار .

ان موقف الانكليز في مصر كان شديداً صلباً ولكن ما كان موقف الأمة المصرية بأقل منه شدة وصلابة . فاستقالت الوزارة للحال ولم يذن من المستطاع تأليف وزارة تخلفها ، الامر الذي اكراه المندوب السامى البريطانى الجنرال اللنبي على الاخذ بأزمة الحال بيد شديدة على غير هيبة ولا وجل . وفي هذه الغضون جاهر رجال النهضة انهم انما يريدون استفتاء الامة المصرية استفتاء تعرب فيه عن مقرر موقفها في ذلك البرزخ . فأبت السلطة البريطانية على الوطنيين ذلك وشرعت تحول دون نيل مرادهم ، ولكن على جميع هذا قد استطاع الاستفتاء وان كان غير قانوني ، فكانت نتيجه على ما أراد رجال النهضة ، وهي تأييد الشعب تأييداً عاماً للمطالب الوطنية . فحمل ذلك الموقف - الذي وقفه الامة متضامنة يشد بعضها بعضاً - الحكومة البريطانية على ارهاق الحد والاستعانة بوسائل القسوة والعنف ، فقبضت السلطة البريطانية في مصر على أكثر القادة الوطنيين وأبعدتهم الى مالطة في ربيع ١٩١٩ وزعقت في آذان الامة المصرية زعقة ما كان أشدها .

على أن مضر أجابت المرعب المهديّ بالانفجار الهائل فالتهمت نار الثورة في البلاد من أولها الى آخرها وما كان شبوب النار في موضع أقل منه في آخر خربت المسالك الحديدية تخريباً ، وقطعت الاسلاك البرقية تقطيعاً ، وهوجت القطر واستلبت استلاباً ، وقتل الضباط والجنود البريطانيون حيث كانوا يشقفون على انفراد تفتيلاً ، وفي القاهرة وحدها نهب الغوغاء ألوفاً من البيوتات والمنازل ، وزاد الخوف واشتد البلاء بتدفق عرب البادية مغيرين للغنيمة والسلب ، فظلت مصر في هرج ومرج تهديج على شفا جرف الفوضى ، واعترفت الحكومة البريطانية أن مصر انما كانت في فتنة صماء .

فاستقبلت السلطة البريطانية المأزق الحرج برابطة جأش وشدة مضاء وكان عدد الجنود البريطانية في مصر كثيراً ، واستقدمت الكتائب السوداء الامينة من السودان . وقام الشرط الوطنيون المصريون ، المدربون تدريباً حسناً ، بطاعة الامر في الساعة العصبية . وكانت بضعة أسابيع اشتد فيها الاضطراب واستحرج القتال ، وعظمت الخسارة في النفوس والثمرات ، ثم سكنت مصر واقتيدت تحت جناح الحكم .

وأعيد النظام ، غير ان البلاد ظلت ظاهرة مظهرأ غاية في التشاءوم مملوءاً بنذر السوء وشر العقبي ، وما كان حفظ النظام مستطاعاً البتة لولا العدد الكبير من العساكر البريطانية والسودانية ، وما كان التشدد الهائل بتطبيق الاحكام العسكرية (العرفية) الجائرة بحائل لأهل مصر دون القيام بالتظاهرات الوطنية بعضها يتلو بعضاً ، مما كان ينتهي أحياناً بالهرج والمرج ، والاختلال والقتال ، وازهاق الارواح العديدة . غير أن الامر الأهم في جميع هذه الحالة هو أن أهل الطبقات العليا في الامة لم يكونوا وحدهم المشتعلين بنار الوطنية والمتعاقدين بعضهم مع بعض على الزياد عن حوض العصبية المصرية ، بل كانت من ورأهم الملايين العديدة من الفلاحين الذين كانوا من قبل معروفين بصدق طاعتهم والاخلاد الى السكينة ، لكن الحرب العامة كانت ألقت بجرانها عليهم وعانوا من جرائمها الويل الأءكبر ، اذ حملت الضرورات العسكرية الدولة البريطانية على تجنيد مليون واف من المصريين الذين ساقتهم للقيام بالأعمال الاجبارية في الشرق الادنى حتى وفي أوروبا ، وجعت بريطانيا من مصر المقادير العظيمة من أنواع الحبوب والاعلاف والميرة اللازمة للجيش ، الامر الذي هاج نقمة الفلاحين ايامها هياج ، وأضرهم فيهم في الباطن الشناة الكبرى

للحكيم البريطانى مما أخذ يظهر بالفعل والحسن والعمل فبات ثقات خبر الانكليز المتضلعين من شؤون مصر يتشاءمون من الحال شديد التشاؤم . قال السروليم ويلكوكس المهندس المشهور ، بعيد الفتنة ، فى بيان عام له : « ان الفلاحين فى مصر كانوا حجب الزوايه التى قام عليها الاحتلال البريطانى ، وأما الشيوخ ورجال العمد وأهل الاحكام ورجال الدين فقد كان شأنهم من حيث زعزعة الاحتلال لا يؤبه له ، لانه سواء ناصبنا هؤلاء العداء أم لا فقد كان وراءنا ملايين من الفلاحين سنداً للاحتلال كبيراً . بيد أنه مما لا ريب فيه البتة اليوم أن الحكومة البريطانية قد اضاعت ولاء هذه الملايين لها وفقدت ثقتهم بها » . وقال السرفالتين تشيرول فى مقال له نشره فى « التيمس » اللندنية : « ان هناك حقيقة جارحة أمسينا اليوم نراها مصرحة عن محضها ، الا وهى قيام سواد الفلاحين المصريين للمرة الاولى منذ أول عهد الاحتلال ، وهم مدينون لنا بنعمتهم وحسن حالهم أكثر من سائر طبقات الشعب ، ينتفضون علينا وينقلبون لهبة من النار مندلة يريدون التهامنا . انى أعتقد أن الواقفين حق الوقوف من أبناء قومى حتى من أهل الحل والعقد من أرباب المقامات الرسمية على حقيقة حرج الموقف واشتداد المأزق فى مصر لقليلون جدا . فقد طفح الكيل ونحن عن ذلك غافلون »

وقد راع الشعور الوطنى الشديد أرباب النظر والاستقصاء روعا كبيرا ، وهالتهم ثورة العصبية الجنسية المصرية هولا عظيما ، تلك الثورة التى كان من شأنها أن وحدت جميع طبقات الأمة وألفت بين الاسلام والنصرانية . قال كاتب ايطالى فى شأن التظاهرات الكبرى الهائلة التى أقيمت فى مصر خلال سنة ١٩١٩ معظما مكبرا : « إن هذه المرة لهى الأولى فى التاريخ رأينا فيها الرايات خفاقة والاعلام خطارة فى مصر وقد نسجت خيوطها أهلة وصلبانا ظهرت فى وادى النيل ، فقد ظل العنصران الاسلامى والنصرانى فى مصر حتى العهد القريب متقاطعين متدابرين ، ينفر كلاهما من الآخر كما ينفر من اليهود ، أما اليوم فقد حدث فى مصر كما حدث فى الهندين المسلمين والهنديين ، من احماء آثار التعصب وزوال الانشقاقات الدينية . المختلفة . ان المصريين قاطبة قد غدوا يتظلمون عاملاً وطنياً واحداً ، وبات كل منهم متقدماً بروح الناسخ والتصافى ، شديد الثقة بأنه متحداً مع أخيه وبنى قومه لا بد له

من ادراك الفوز واحراز الفلاح (١) » وقالت سيدة فرنسية قضت في مصر غالب حياتها « اتنا وايم الله قد أصبحنا نشهد العجائب والغرائب في هذه البلاد التي كانت فيما مضى موطن الانشقاقات المذهبية ومبأة المشاحنات الدينية : فها هذا العمر الحق !! قسيسون أقباط يعظون في المساجد الاسلامية وعلماء شيوخ مسلمون يعظون في الكنائس النصرانية طلبه من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات ، جيعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية . كل فرد من الأمة يتشوق متلها غيراً وطنية الى رؤية بلاده حرة ينبلج عليها الاستقلال انبلاج الصبح المبين ، مفيضا عليها الخيرات والبركات . ان مثلى ممن عرف مصر في عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد اليوم بعينه من تطور شأن المرأة المصرية هذه السنوات الأخيرة ، هذا التطور الاعجب في جميع ما حدث من ضروب الانقلاب والترقي في وادي النيل . ان من كان يعرف صفات حياة المرأة في مصر ، حياة الاهمال والانقباع في اكسار البيوت والمنازل بمعزل عن أى شأن تشتم منه رائحة سياسية ، ليدهش دهشاً كبيراً حيال ما قد حدث من التطور في هذه الأشهر الأخيرة . خذلك مثلاً . قامت السيدات في مصر الصيف الماضي بتظاهر كبير . فاحتشدن وسرن في القاهرة مواكب جليلة ، فهرعت فرق الجنود البريطانية للحال ، واصطفت نطاقاً من حول الموكب مصوبة نحو النساء البنادق وفي رؤوسها الحراب المسددة اللامعة ، واذهد جندي سيدة لسرعان ما دارت اليه زائرة زائرة اللبوءة تحمي أشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به : اغرس يا جندي حرمة بندقتك في صدرى فيعرف العالم أن هناك غير واحدة من النساء أمثال الآنسة كافيل (٢)»

فحمل اشتداد هذه الثورة الوطنية التي لم يسبق لها مثيل في مصر ، رجال الانكليز

G. Civimini, in the " corriere della Sera

(١) ٣٠ ديسمبر ١٩١٩

(٢) مدام جهان دى فراى من مقال لها : « في مصر » ١٥ سبتمبر ١٩٢٠

Madame Jehan d'Ivray, " En Egypte", "Revue de Paris",

ووصفت هذه السيدة طائفة من الحوادث الرائعة على هذا الطراز . ولزيادة الاطلاع اقرأ « الملحقات للكتاب المصرى الأبيض » المشتملة على شواهد عديدة معززة بالصور ولرسوم مما يدل على المظالم والفواحش والكبائر التي اقترفتها الجنود الانكليزية .

على الانقسام فريقين مختلفين : فريق مثل السروليم ولسوكس والسر فالتين تشيرول واندادهما ، ينادون بوجود الاذعان العاجل ، للطالب الوطنية التى ينادى بها أهل مصر . وفريق آخر من أرباب الاستقصاء يؤكدون أن الاذعان للطالب المصرية انما هو دليل الضعف ومجلبة البلاء . قال السرم . مكثيلرايث . « اذا انتقل الحكم من أيدينا الى أيدي الحكومة الوطنية فلا يرمى على ذلك أكثر من خمس سنوات حتى ينتشر الاختلال ويعم الاضطراب اننا اذا شئنا ألا ندع مصر تنقلب مستغرقة فى جأة الافلاس وبؤرة الفوضى اللتين نجيناها منهما سنة ١٨٨٢ وهى الآن محاطة بأهوال البلشفية كما تؤيد هذا الأدلة المشؤومة الآخذة فى الازدياد ، وجب على بريطانيا ألا تترك أعنة الحكم فى مصر ولو على وجه الارخاء » (١) ثم اشتدت حالة مصر اشتداداً عظيماً قلقت من أجله بريطانيا قلقتا كبيراً ، وفى صيف سنة ١٩١٩ أعلنت الحكومة البريطانية انها قد عينت لجنة تحقيق يرأسها اللورد ملنر لتشخص الى مصر وتتولى القيام بالتحقيق التام فى الشؤون المصرية . فكان أمر تعيين اللجنة التحقيقية الحكيمة عينها . أما اللورد ملنر فهو من أعظم الرجال الانكليز فى عالم السياسة البريطانية ، كثير الاختبار والحسنة فى معالجة معضلات الامبراطورية ومن جلتها معضلة مصر . وهو ذو مزاج خلقى يبعده من آراء الأحرار الخيالية القليلة التحقيق ، ويقصيه عن التشدد تشدد المحافظين بقواعد مذهبهم ، بحيث يجعله وسطاً بين المذهبين على مذهب أهل الحقيقة ، الذين يقولون بأنه لا يصح الا الصحيح هذه هى صفة الرجل كما دل عمله على ذلك بعيد حين . فلما وصل وزملاؤه الى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٠ رأوا أنهم ازاء حالة من أكثر الحالات حرجاً ، ومأزق من أشد المآزق عناء ، اذ قبل وصولهم كانت الازاعات قد انتشرت فى وادى النيل تدعو الأمة لايجاب مقاطعة اللجنة . وأجبع الساسة الوطنيين وفيهم رجال الدين على رأسهم مفتى الديار المصرية على رفض الدخول فى المفاوضات والمناقشة فى أى شأن من الشؤون ما لم توافق اللجنة مقدماً على استقلال مصر . فظهر ذلك بجملته عقبه كأداء ، ومعضلة شديدة ، غير أن اللورد ملنر قد استطاع على كل هذا بوافر الحسنة وشديد الصبر أن يفاوض سعد باشا وغيره

(١) العصبية الجنسية المصرية « يوليو ١٩١٩

Sir M. Mc Ilwraith, "Egyptian Nationalism" "Edingberg Review,,

« مستقبل مصر » ٦ نوفمبر ١٩١٩

Hon. W. Ormsby-Gore, "The Future in Egypt,, " New Europe ,;

من القادة الوطنيين أهل الحل والعقد ، مفاوضة حرة ، و يباحثهم مباحثة صريحة طلاقة .
ومما لا ريب فيه أن بعض تطورات الحال التي حدثت في مصر في تلك الغضون
قد كان من شأنها انها كانت للورد ملذر معوانا في مجاهيده . اذ في مصر كما في سائر الأقطار
الشرقية كانت الأعراض والظواهر أخذت تبدو جلية دالة ليس على الاضطراب السياسي
فحسب ، بل على الاجتماعي أيضاً ، فانبرى كثير من الهاجيين وأهل السجس ، أهل الطراز
الجديد في مصر ، ينظرون في عامة الشعب الآراء والمبادئ الثورية على منتهى الغلو ،
فاقلق هؤلاء الفتيان الهاججون بال قادة الوطنيين المتمشين على الخطط المعينة ، والناهجين
المناهج المنظمة ، حتى باتوا مهددين من ناحيتين : الأولى من حيث هم زعماء أحزاب
سياسية ، والأخرى من حيث هم من أرباب الشأن والمكانة الاجتماعية وعلية القوم .
فنجم في خريف سنة ١٩٢٠ ان اللورد وزغلول باشا توصلا الى الاتفاق على قواعد
أساسية دلت على التراضي المتبادل الصحيح . وكانت خلاصة هذا الاتفاق المهد لما يتلو ،
على حسب ما بلغته الصحف وأيدته صفة البيان الرسمي الذي وضعه اللورد ملذر ما يأتي :
أن ترفع بريطانيا الحماية عن مصر وتعلن أن مصر هي مستقلة ، أن يكون الاستقلال
الذي تملكه مصر مساوياً بكفائته لاستقلال « كوبا » ازاء الولايات المتحدة الامريكية ،
أن تمنح مصر حكومة ذاتية ناجزة ، أن تسحب بريطانيا الحماية البريطانية والموظفين
الملكيين ، أن تعقد مصر على كل حال معاهدة مخالفة مع بريطانيا العظمى ، أن تتعهد
مصر ألا تعقد هي معاهدات مع الدول الأخرى الا برضى بريطانيا وموافقتها ، وأخيراً أن
تمنح مصر بريطانيا موقعاً عسكرياً وبحرياً بحيث تستطيع هذه الأخيرة حياجة قناة
السويس ومصر في حالة هجوم مفاجئ يقوم به عدو أجني على حين غرة . أما قضية
السودان المشككة فقد تركت معلقة مؤقتاً غير مثبتة في شأنها .

فهذه المقترحات كانت تحمل الأدلة البينة على الوفاق المرجوله الخير ولكنها لسوء
الطالع لم تقترن بنفاذ للحال^(١) . فنشأت الاعتراضات الشديدة عليها وكثرت المقاومة لها

(١) للاطلاع على ما نجم عن هذا التأخر من سوء العقبى اقرأ مقالة السرفالنتين تشيرول « السياسات

المتضاربة في الشرق » اول يوليو ١٩٢٠

في كلا بريطانيا ومصر . أما في بريطانيا فقد ضبط المقاومون السياسيون من أهل السلطة الرسمية تقرير اللجنة حتى شباط (فبراير) سنة ١٩٢١ ، وأما في مصر فهدب الوطنيون الغلاة وقالوا : سعد باشا خائن ، من حيث كان المعتدلون يبدون ارتياحاً تاماً الى الذي اتفق عليه . ولما نشر تقرير اللجنة الملنرية بالتالى جاء فيه على التبيين والتصريح ان منح مصر حكومة ذاتية لما لا يستطيع ارجاؤه ارجاءً تكفل معه سلامة العقبي ، وان الروح الوطنية والعصبية القومية لمن المستحيل محوها والقضاء عليها ، وان محاولة حكم مصر حكماً مزوجاً بالعداء المرهون « أمرٌ صعب شائن » ، وان التقاعس عن انتهاز الفرصة لاجراء التسوية المرضية هو من الشؤم ونكد الطالع . غير أن الحكومة البريطانية لم توافق على التقرير بجميع مشتملاته ومضامينه ، الأمر الذي حل اللورد ملنر على الاستقالة للحال . أما زغلول باشا فابرح على مقامه من زعامة الأمة ، وان تكن سلطته قد ترعزعت . هذه هي صفة الحال في مصر ونحن نكتب هذه السطور ، حال الحق يقال ليس فيها من الفأل ما كان فيها السنة الخالية .

على انه في تلك الاثناء امتد تيار العاصفة التي هبت هبوبها الاول في مصر ، الى كل رقعة من رقاع الشرق الأدنى فطبقتها . ففي أوائل سنة ١٩٢٠ انتقل مركز العاصفة الى الامبراطورية العثمانية حيث الحلفاء هم أنفسهم الملومون وأهل الجناية في هذا الخطب الكبير . أجل لا ينكر أن التوصل الى وضع تسوية ايجابية في شؤون هذه الاقطار الهائجة المضطربة لم يكن من السهل الهين ، غير أنه مع جميع ذلك لم يكن وضع هذه التسوية من المستحيل الذي لا يدرك لو كانت سياسة الحلفاء ملتزمة جانب الصحة والحكمة والعدل . فعند ختام الحرب الكبرى أمست الشعوب المختلفة في الامبراطورية العثمانية راجية رجاءً كبيراً في ان الغايات والمقاصد الحرة التي صرح بها علناً سياسة الحلفاء ستحقق تحقيقاً لا ريب فيه . أما العرب خاصة فقد كانوا أشد الجميع رجاء والسبب في ذلك ان الحلفاء كانوا قد أشبعوهم من براق الوعود وخلاب العهود ما أشبعوهم ، ومنوهم بأن يمنحوهم جميع نعمة الاستقلال جميع ذلك انما قد شجب فيما بعد شجباً شائناً كما سترى في موضعه القريب من حيث أن الترك في ذلك الحين لم يكن رجاءهم في خير المستقبل قد انقطع انقطاعاً تاماً ، اذ كان لديهم ، الى جانب التصريحات العامة الضامنة لحرية الأمم

والشعوب المصوغة في برنامج « الاربع عشرة مادة » للرئيس ولسون والتي وافق عليها الحلفاء موافقة تامة ، تصر يحات أخرى أضمن للغاية وأكفل للقصد ، من ذلك ما قد صرّحه رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج في ٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٨ اذ قال « ... ولسنا بخائضين غمرات هذه الحروب لننتزع من تركية عاصمتها وأقطارها الغنية المشهورة في آسية الصغرى وتراقية ، تلك الاقطار التي غالبها من العنصر التركي » وذلك بعبارة أخرى أن الترك قد فهموا تفهما يبنأ باتأاً انه في الحين الذي لا بد لحكمهم من التقلص والزوال عن الاقطار غير التركية كالبلاد العربية ، فان البلاد التركية في الامبراطورية لن يراد اخضاعها لسيادة أجنبية ، بل يتألف منها دولة تركية وطنية . ولكن الترك لم يطلعوا على سلسلة من المعاهدات السرية التي عقدها الحلفاء فيما بينهم منذ سنة ١٩١٥ واتفقوا بمقتضاها على تقسيم جميع آسية الصغرى بين الدول المتحالفة . واذ لم تنشر سلسلة هذه المعاهدات الا بعد زمن ، فقد ظل الترك هذه المدة راجين خيراً ومرتبين عدلاً ورفراً .

أما العرب فقد كان المجال لمطالبهم القومية أرحب ، ولثوران عصبيتهم الجنسية أدمى . من حيث كان الحلفاء في سياستهم معهم أشد مخاتلة وخداعاً ، وأفظع مكرأ ورياء . وقد قدمنا الكلام على الثورة العربية التي شبت نارها سنة ١٩١٦ في الحجاز بأمره شريف مكة ، ثم أخذت ألسنتها تندلع وتنتشر في جميع الأقطار العربية في الامبراطورية العثمانية ، فكانت في الواقع من أكبر العوامل في هزيمة الجيوش التركية وتمزيقها . ولم تكن الثورة العربية طفرة على غير هدى ، ولا وثبة غير معدة لها الأسباب والوسائل ، بل قامت على خطط محكمة ، ومناهج موثقة ، مستندة في غالبها الى مظاهرة الحلفاء وتلقى عضدهم ، ومعتمدة على وعودهم وعهودهم . فمذ أول نشوب الحرب العامة بات رجال العرب الساخطين في سبيل قوميتهم ، الغاضبين لعصبيتهم ، على صلة مع السلطة البريطانية في مصر ، التي تلقتهم بالترحيب والكرامة ، وأقبلت عليهم بتشجيعهم على المضي في امضاء التداير وتمهيد الطرق للانشقاق والقيام بالفتنة ، إذ أن بريطانيا أيقنت إذ ذاك ايقاناً أن ثورة العرب اذا شبت نارها كانت بلا ريب سندا وعوناً لها في الزيادة عن مصر وقناة السويس ، دع عنك ماتنيل تلك الثورة الجيوش البريطانية من ذرائع القوة . وتكسبها من وسائل

القدرة على الزحف والفتح في البلاد العثمانية .

فالعرب اذا لم يطلبوا المساعدة المادية فقط ، بل طلبو قطع العهود والعود الباتة التي لا ريب فيها بان ثورتهم هذه التي يشبون نارها سيكافأون عليها باشاء دولة عربية ، يرفع لواؤها على جميع الأقطار العربية في المملكة العثمانية . غير انه لمن نكد الطالع ، على ماشرهت اليه نفوسهم من نيل المطامح الجنسية وتحقيق الآمال القومية ، كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية تنويان في شأن مستقبل الأقطار العربية الخاضعة لتركية ، أمراً آخر غير ذلك الذي استماتوا هم في سبيله ، إذ كانت كلتا الحكومتين منذ عهد من الزمن حائرة « منطقة سيطرة أو نفوذ »^(١) في هذه الأقطار ، فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم ، وكانت المنطقة الفرنسية مشتملة على لبنان وهو كور جبلية في شمال سورية ممتدة على ساحل البحر المتوسط ، حيث غالب الأهلين من الكاثوليك المعروفين بالموارنة الذين شملتهم فرنسة حقبة مديدة بالحماية السياسية . ومن المعلوم ان هاتين المنطقتين كانتا من بلاد الدولة العثمانية بالاعتبار القانوني ، مساحة كل منهما قليلة ، بيد ان « مناطق النفوذ » من شأنها أن تكون متمغطة متمططة ، قابلة للامتداد والاتساع فجأة الى مالا حد له ولا نهاية عند الحالات المناسبة . لذلك قد كانت الحرب العامة خير فرصة وأفضل نهزة ، فبادرت وزارتا الخارجية ، البريطانية والفرنسية في عقد الموائقات والمصافقات على السلع ، ف وقعت الحكومتان في ٥ آذار (مارس) ١٩١٥ معاهدة سرية ، حولت فرنسا بمقتضى شرائطها وبنودها حق التمتع بالتقدم على سواها في سورية ، وخولت بريطانيا مثل ذلك في العراق . ولم تقرر الحكومتان إذ ذاك حدوداً معينة ، بل اكتفتا بالتراضى على مطامعهما التي عولتا على تحقيقها باقتسام الأقطار العربية الخاضعة لتركية .

على ان عقد هذه المعاهدة السرية قد أوقع رجال السلطة البريطانية الذين كانوا في مصر يفاوضون العرب لايقاد نار الثورة ، في الحيرة والارتباك . وقد أيقن هؤلاء المفاوضون البريطانيون ان الثورة العربية هي نهزة ثمينة ، ترجو بريطانيا من وراءها عوناً كبيراً

(١) منذ أكثر من عشرين سنة نشرت في بعض المجلات جملا وخواطر منها « لا يوجد شيء أشبه

ورفقاً عظيماً ، فيكون من الخرق ان لم تهتلها ، بل ان أضعفتها فقد أضعفت سنداً قوياً . وخسرت خسارة لا تقدر ، فاستطاعت السلطنة البريطانية في مصر بالتالي وضع خطة مصوغة صوغاً كافلاً لارضاء قادة العرب وزعمائهم . وفي ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ سلم حاكم مصر العام السر هنرى مكماهون ممثل شريف مكة في القاهرة صك عهد تعهدت بموجبه بريطانيا العظمى ، على شريطة قيام العرب بالثورة ، الاعتراف باستقلال العرب في الامبراطورية العثمانية ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضى اتخاذ تدابير مخصوصة في شأن السلطة الادارية ، وأيضاً فيما عدا المناطق التي ليست بريطانية العظمى « حرة في التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسا » . فكانت هذه العبارة الأخيرة على كل حال ضرباً من المزاح والرقاعة لكنها قد وفّت بالغرض الذي قصد منها ، وإذ كان العرب غير واقفين البتة على المعاهدة السرية ، خالوا ان هذه العبارة الاستثنائية في صك عهد السر هنرى مكماهون انما يعنى بها منطقة لبنان الضيقة ، فتهللوا فرحاً وانتشوا سروراً^(١) ، ثم انتشروا ويتغون اعداد العدد ، واستكمال الذرائع والوسائل لقدح زناد الثورة التي شبت نارها السنة التي تلت .

أجل ، نشبت الثورة العربية في تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ ، بيد أنه لو كان للعرب قد علموا من قبل ماقد تم من عقد المعاهدة السرية في شهر ايار (مايو) من السنة الخالية بين بريطانيا وفرنسة ، لما قدحوا لثورتهم زناداً ، ولا أضرموها لها ناراً . وفي ذلك الشهر الذى شبت فيه الثورة العربية ، عقدت الدولتان المذكورتان معاهدة سرية أخرى ، هي معاهدة سايكس - بيكو المشهورة ، اتفقتا بمقتضاها اتفاقاً باتاً على تقسيم الأقطار العربية في الامبراطورية العثمانية ، تقسيماً مبرماً قائماً على الأساس المبين في المعاهدة السرية التمهيدية المعقودة بينهما في السنة التي قبل ، فبات العراق على مقتضى معاهدة سايكس - بيكو هذه ، عراقاً بريطانياً لاشك في أمره ، وباتت سورية من صور حتى اسكندرونة سورية فرنسية لاريب في شأنها تتبعها الأقاليم الأرمنية وأقاليم شمالية أخرى من آسية

(١) هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا وانتشوا وفرحوا ليسوا كل العرب . . . بل ان قسماً من العرب كانوا يعرفون ما وراء الائمة وطالما نبهوا وحذروا قومهم من الوقوع في الشرك فلم يجد تحذيرهم فتيلاً . وما لنا وما للتذكير بما كل أحديعرفه ، فإ يوم حليلة بسر
(ش.)

الصغرى . أما فلسطين فقد اعتبرت دولية واعتبرت حيفا مع مينائها البحري لبريطانية ، بحيث ان هذه المطوحة كانت نهايتها صيرورة فلسطين تابعة للمنطقة البريطانية . وأما البلاد الداخلية الواقعة بين العراق وسواحل سورية فقد اعتبرت « بلاداً عربية مستقلة تقسم الى منطقتي سيطرة » بريطانية وفرنسية ، فالمنطقة الفرنسية تشتمل على سائر سورية من حلب حتى دمشق ، والمنطقة البريطانية تشتمل على سائر العراق حتى اقليم الموصل . وبعبارة أخرى ان الاستقلال الذي وعد العرب به السرهنري مكماهون انما غدا بين سمع الأرض وبصرها .

من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسة على مسرح المكر من وراء الستار ، لم يكن للعرب علم بها ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم ، من حيث ان بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهياج الآمال الاستقلالية في صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية في نفوسهم . فكان ذلك خير وسيلة وانجح ذريعة لاستثارة نخوتهم في الثورة فجعلوا يتسارعون الى مجال الحرب وينبعثون الى مقاتلة الترك . وخضد شوكتهم . وأنفذت الحكومة البريطانية الى العرب عدداً من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأمير آلاي لورانس الفتى اللودعي النابه الشأن ، الذي مأسرع مانال من نفاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم^(١) ، مما لاحد له ولاغاية ، حتى دعى « روح الثورة العربية »^(٢) لكن هؤلاء الضباط الأكفيا العارفين شؤون العرب والمعروفين بميلهم اليهم وعطفهم عليهم ، انما قد اختيروا ليقوموا بما انتدبوا اليه ، من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولااطلعوا على المعاهدات السرية التي عقدت خفية عن العرب . وكان القصد من ذلك في الواقع أن لايعروهم همة هؤلاء المستثيرين فتور ، ولا انكسار ، ولا ينتمل وفأؤهم للعرب بينما هم يستثيرونهم همهم ويستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لاينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة في المنشورات والتصريحات التي كانوا

(١) سماه لويد جورج ملك العرب غير المتوج . (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على الأعمال التي قام بها لورانس اقرأ سلسلة مقالات « لورانس : روح الثورة العربية » نشرت تباعاً في مجلة « آسية » نيسان (ابريل) ايار (مايو) حزيران (يونيو) تموز (يوليو)

سنة ١٩٢٠

يذيعونها آخذاً بعضها برقاب بعض^(١) ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فاصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معاً منشوراً أذاعته في جميع الاقطار العربية جاء فيه : « ان الغاية التي من أجلها خاضت فرنسا وبريطانية في معمعان الحرب في الشرق الحرب التي أثارها على العالم المطامع الالمانية ، هي أن تضمننا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك ، تحريرهم من الاستعباد تحريراً تاماً باقياً ، وان تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب واراادته المطلقة دون منازع »

فلم يلبث أن برح الخفاء وانجلى المستور وبان الصبح لذي عينين ، فتبدلت الحال غير الحال . عند ما وضعت الحرب أوزارها ورجعت السيوف الى أعماها ومزق العدو شر ممزق ، واطته الرواية وأرخى الستار - الستار الذي تبدت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشاً جلياً ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ووقفوا على بواطن الأمور بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتل شاطئاً سوريه ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا وغشوا ، فدعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجت الثورة في نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم ولاسيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذي برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال في الحروب ، والذي استطاع الآن أن ينزل من بني قومه منزلة لاينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان ، لربما انفجر بركان العرب وتطير من جمه ما الهب البلاد جميعها . لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو مركب خشن وغاية في الاستهداف والمخاطرة ولاسيما في آونة مثل تلك الآونة ، واذا أدرك حق الادراك قوة العرب المعنوية والادبية في ذلك الموقف الذي كانوا فيه ، طلب من أبناء قومه وبلادهم أن يقوم ببسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد . فقام بهذا الامر راجياً تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الاقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب والنار تحت الرماد

(١) من ذلك على سبيل المثال منشور اذاعه الجنرال مود General Maud في عرب العراق في آذار

بسط الامير فيصل لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى ، وفضيح منطق ، يحف بموقفه الوقار ، ولكنه لقي خيبة في المسعى . اذ اشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على « الرفق والعطف » ، وذلك : « ان الاقوام المعلومة التي كانت من قبل في الحكم التركي وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أما مستقلة استقلالاً معلقاً ، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتي يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها اذ ذاك على غاربها^(١) »

ثم فقه العرب معنى « الانتداب » واكتنهوروا ماهيته وسره . وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجل الرائقة مثل قوله: « ان العرب قد وفوا حقاً بعهودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً أن نقابل الاحسان بمثله فنفي بعهودنا ونبر بوعودنا لهم^(٢) » . غير أن العرب كانوا قد قرأوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد ، محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى ، اذعاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخدع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالي علم العرب علماً مكيناً ، انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة سواعدهم ، ومساعيتهم ومجاهديهم وذلك اما في مجال السياسة واما في مجال الحرب .

أما فيصل فظل يؤثر المساعي الساعية على التهور في الحرب . ولعل الباعث له على هذا ليس مارأى من الاستهداف وركوب المخاطر في المقاومة فحسب ، بل ان الحلفاء كانوا حينئذ على حال من التنازع الشديد والمشادة الكبيرة في كل قطر من أقطار الشرق الأدنى ، مما جعل فيصلاً على أن يرجو نيل النجاح على يد السياسة . وكان التنازع الأمر الأشد في جميع ذلك ، هو الذي نشأ بين بريطانيا وفرنسة عند ما جاءتا تقفان غنيمة الاقطار العربية . والسبب في هذا الخلاف العظيم منشأوه السخط الذي سخطه الفرنسيون من أجل المعاهدات السرية . اذ لم يكدهم يكشف الغطاء عن معاهدة سايكس - بيكو فانتشرت وذاعت ، حتى هب جانب كبير ذو بأس من الرأي العام الفرنسي يصرخ أشد الصراخ ان فرنسة انما غبنت في الصفقة غبناً فاحشاً فلذلك ليست هي بالراضية بهذه القسمة الضري -

(١) المادة الثانية والعشرون من عهد عصبة الأمم

(٢) من خطاب القاہ في ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩

فقد ظل انصار التوسع الاستعماري من الفرنسيين - قروناً طويلة - يحدجون سورية بانظارهم ويهوون اليها بقلوبهم^(١). فلما نشبت الحرب العامة طفقت الصحف الاستعمارية الفرنسية تقوم بنشر دعوة شديدة تحريضاً على استلحاق بعض أقطار الشرق الأدنى بفرنسة، وكانت «سورية كلها» موضوع الصراخ وغاية الدعوة، ولم يكن معنى «كلها» مقصوراً عند المستعمرين الفرنسيين على شاطئ سورية الذي أصاب فرنسة على مقتضى معاهدة سايكس - بيكو، بل أرادوا ان يشمل معنى هذه الكلمة فلسطين والبلاد الداخلية من حلب الى دمشق، ممتدة حتى أقاليم الموصل الغنية بالزيت. وشرع أهل التوسع الاستعماري ينادون ويصرخون ان لفرنسة «حقوقاً تاريخية ثابتة يرجع منشؤها الى عهد الحروب الصليبية، بل الى عهد شرلمان» تتعلق بهذا القطر الكامل الذي بات يعرف في المحافل والأندية الاستعمارية «بفرنسة المشرقية» فغدت سورية «الزاساً ثانية» في هذا الاعتبار، ومستنداً شديداً لا ينفصل بوجه من الوجوه عن سياسة فرنسة الخارجية، وقد ظهرت دوائر الحكومة الفرنسية هذه المطامح الاستعمارية مظهرة عظيمة وعضتها عضداً كبيراً. مثال ذلك ما صرحه المسيولغ في مجلس النواب سنة ١٩١٥ اذ قال: «ان محور السياسة الفرنسية لهو في البحر المتوسط، قطبه الواحد في المغرب المشتمل على الجزائر وتونس.

(١) للاطلاع على ما قام به أنصار التوسع الاستعماري قبل الحرب من نشر الدعاية في هذا السبيل اقرأ

مقالة ج يوانيان «المصالح الفرنسية في سورية» آذار (مارس) ١ - ١٦ ، ١٩١٣

G s Poignant , “ Les Intérêts Français en Syrie ,,

“ Question diplomatiques et Coloniales ,,

ومما جاء على ذكره صاحب هذا المقال تصريح لرئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاره فاه به في مجلس النواب في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ منه : « ولست أراني بحاجة الى بيان مالنا في لبنان وسورية خاصة من المصالح التقليدية ، وما يجب علينا القيام به لاعزاز هذه المصالح واعلاء شأنها »

واقراً مقالة ج عطاء الله : « التسويات الثلاث للقضية السورية » تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٣

“ Les Trois Solutions de la Question syrienne ,, “ Questions Diplomatiques et Coloniales ,,

واقراً كتاب ل . لى . فير « حماية فرنسة للكاثوليك في الشرق » (باريس ١٩١٤)

L. Le Fur, “ Le Protectorat de la France sur les Catholiques d’Orient

مراكش وقطبه الآخر في المشرق المشتمل على سورية ولبنان وفلسطين^(١) بعد الوقوف على هذه المطامع الكبرى التي قضى على جانب منها بالخيبه والفشل. يمكننا أن نتصور مبلغ التأثير السيء الشديد الذي أثرته معاهدة سايكس - بيكو في نفوس رجال التوسع الاستعماري من الفرنسيين ، فارتدوا بغضبهم المشتعل ، وذلك بطبيعة الحال على البريطانيين ، فأخذوا في النيل منهم والقذح بهم وذمهم على جميع الأمور الجارية اذ ذاك في الشرق ، قائلين ان هياج المطامع العربية وثورة آمالهم وعصبيتهم الجنسية انما ذلك جميعه ناشيء عن السياسة البريطانية ، بل ضرب من ضروب الدعاية الانكليزية . قال كاتب فرنسي في هذا الصدد : « يحتاج بعض أطباء الأمراض الدماغية الى كتابة الفصول الصويله في شأن هؤلاء الموظفين البريطانيين الاستعماريين المنطوية جوانحهم على الأحقاد والضغائن ، المتبجحين المتعظمين ، الذين لا ينفكون بياض نهارهم وسواد ليلهم يجدون في سبيل خدمة بلادهم ، راكبين رؤوسهم دون ان يبالوا باستشارة حكومة لندن ، والذين دأبهم دوماً القضاء على التفوق الفرنسي في سورية كما قضوا من قبل على مثاله في مصر^(٢) . فأجاب الكتاب الانكليزي على هذا السخط والقذف مستهجنين استهجاناً « جشم فرنسة ونهمتها الوحشية وخبلها » ونهجها نهجاً من شأنه تعريض مكانة بريطانية للخطر

(١) ذكر هذا فلاندين العضوفى مجلس الشيوخ الفرنسي فى مقال له « حقوقنا فى سورية وفلسطين ».

٥ حزيران (يونيو) ١٩١٥

Senator E. Flandrin. " Nos droits en Syrie et en Palestine

“ Revue Hebdomadaire ,,

ولزيادة الاطلاع على الدعاية الاستعمارية الفرنسية اقرأ غير ما ذكر :-

« سورية أو ميدان الحرب السياسية » (شباط « فبراير » ١ - ١٥ ، ١٩٢٠)

H, Baudouin. "La syrie : Champ de Bataille Politique" (La Revue Mondiale)

« قضية لبنان » (باريس ١٩١٥) C. G, Bassim, " La Question du Liban"

« سورية الفرنسية » (باريس ١٩١٦) comte cressaty. " La syrie Française "

« فرنسة المشرقية » (اذار « مارس » ١٩١٩)

F. Landet. " La France du Levant ,, " Revue Hebdomadaire ,,

(٢) لزيادة الاطلاع اقرأ مقالة « سورية . أو ميدان الحرب السياسية » المذكورة قبلا

والانهيار ، والانداز بالهاب الشرق اجع الها بآ لا يبق ولا يذر (١) . وعلى الايجاز ان الدولتين بر يطانية وفرنسة اللتين قد كاتتا من قبل بسنة محالفتين (محالفة مقدسة) باقية ، انقلبتا الى المطاحنة والمشاحنة وكيد المكاييد وايقاع النكاية . فكان للعرب من وراء ذلك كله دروس قيمة وعظات بليغة ، فاستقوت آمالهم واشتدت مطامحهم ، وصلبت قناتهم ، ومثل هذا حدث أيضاً لسائر الشعوب والأمم الشرقية .

فكان هذا التشاحن الشديد السبب الأكبر في ابطاء الحلفاء طول سنة ١٩١٩ عن القيام بالعمل على الخطة التي كانوا قد وضعوها من قبل بالاتفاق على اقتسام الشرق الأدنى ولكن قد توصلوا في ربيع سنة ١٩٢٠ الى تدبير محدود ، اذ عقد رؤساء وزارات الحلفاء مؤتمراً في سان ريمو وضعوا فيه شروط معاهدة الصلح التي راموا حل تركية على توقيعها ، وبموجبها اتفقوا على اقتسام آسية الصغرى مناطق سيطرة واستثمار ، وعلى اقتسام الأقطار العربية بمقتضى معاهدة سايكس - بيكو تلك المعاهدة التي غدت مزخرفة العبارات تذكر هاتين الدولتين فيهما انهما بطبيعة الحال « متدبتان » من قبل عصبة الأمم (٢) ثم شرعت كل من بر يطانية وفرنسة واليونان الشريكة اللاحقة ، في التأهب والاستعداد للعمل ، فساقبت بر يطانية القوات العسكرية الى العراق وفلسطين وساققت فرنسة القوات العسكرية أيضاً الى سورية ، وأعدت حملة مشتركة مؤلفة من قوات « بر يطانية وفرنسية ويونانية » لاحتلال القسطنطينية ، ووعد فنز يلوس رئيس الوزارة اليونانية باعداد جيش يوناني لغزو آسية الصغرى عند ماتدعو الحال . ولم تلق ايطالية دلوها بين الدلاء لأنها رأت خلل الرماد وميض

(١) لزيادة الاطلاع على الحملات الانتقادية الشديدة التي حملها الانكليز على فرنسة في سورية اقرأ -

« مجازفتنا الهائلة في سورية » (ايلول) سبتمبر (١٩٢٠)

Beckles Wilson, "Our Amazing syrian Adventure,, (Nation Review)

« القضية العربية » (ايلول « سبتمبر » ١٩٢٠)

W. Urinowski, " The Arab cause ,, Balkan Review

كاتبها هذين المقالين كانا ضابطين في الجيش البريطاني في الأقطار العربية .

واقراً أيضاً مقالات أخرى في غاية الشدة نشرت في آب (أوغسطس) و ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠

في مجلة « The balkan Review » بتوقيع « Taira »

(٢) ولم تكن عصبة الأمم قررت يومئذ أدنى شيء بشأن الانتداب فانأثرتوا على عصبة الأمم قبل أن

(ش)

تقرر بل قبل أن تجتمع .

نار ، فاعتزمت على ألا تشترك فى الأمر مباشرة . قال « نيتى » رئيس الوزارة الايطالية لصحافى برىطانى عقب مؤتمر سان ريمو : « انكم ستنغمسون فى حرب فى آسية الصغرى ، فايطالية لن ترسل جنديا واحداً ولن تدفع « ليرا » واحدة . انكم قد انتزعت من الترك أدرنة مدينتهم المقدسة ، وجعلتم سلامة عاصمتهم معلقة على رحمة السلطة الأجنبية وأخذتم منهم جميع موانئهم البحرية والجانب الأكبر من بلادهم ، وأولئك المندوبون الخمسة الذين ستختارونهم سيوقعون معاهدة لن ترضى بها الأمة التركية ولا البرلمان العثمانى » .

كان نيتى رئيس الوزارة الايطالية فى الواقع متكهنها صادقاً . ففضى رجال الوطنية من الترك عدة أشهر ، وقد علموا بما خبأه الحلفاء لأمتهم وبلادهم ، يؤهبون الأهب ويعدون العدد وينشئون الأسباب فى داخل آسية الصغرى للقيام بالمقاومة . ومن المعالم أن القادة الوطنيين الأول مثل أنور باشا وزملائه كانوا قد لاذوا بالفرار الى بلاد سحيفة ، كعبر القوقاس وروسية البلشفية . غير أن قادة وطنيين جدداً قد ظهروا فى الأمة ، أشهرهم القائد المقدم المجرب والعسكرى المحك مصطفى كمال باشا ، البطل المتوقد العزم ، الذى قد استطاع حقاً أن ينظم جيشاً ويثقفه ويدربه ، حتى قويت شوكته ، ثم اتخذ أنقرة الواقعة فى قلب آسية الصغرى مقره ، وشرع يناوىء الحلفاء ويناصبهم العداة فأخذت حركته تشتد وتقوى وتشتهر بهجومه على العساكر الفرنسية فى كيليكية (وهى منطقة ساحلية فى آسية الصغرى للشمال من سورية) مبلياً بلاء حسناً ومنزلاً بالعدو خسائر فادحة .

وكان العرب أيضاً يتأهبون للقيام بالمناوأة والمقاومة ، فعدوا فى شهر آذار (مارس) « مؤتمراً سورياً عاماً » وأعلنوا فيه بالاتفاق استقلال سورية وملكوا عليهم فيصلاً ، فتكهربت للحال جميع الأقطار العربية من جراء اعلان هذا الاستقلال ، فنشبت الاضطرابات الشديدة عداة للفرنسيين فى المنطقة الساحلية التى يحتلها الفرنسيين ، وشبت الفتن فى فلسطين يقوم بها العرب المسلمون والنصارى عداة لليهود الصهيونيين ، وأخذت قبائل العراق توقد نار الثورة غير المنظمة .

فبات موقف الدولتين « المتدبتين » حرجاً مشؤوماً منذراًً بعظيم الشر ، فلجأنا الى الضرب بسيف القوة العسكرية وتسكين الحال بالحديد والنار ، ولا سيما فرنسة فأهافاقت سواها باتخاذ ذرائع العنف والنسوة . وفى ذلك الحين كان لديها نحو من ١٠٠٠٠٠ جندى

في سورية وكيلسيكية بقيادة الجنرال غورو القائد المجرى في كثير من ميادين الحروب الاستعمارية ، وصاحب الاعتقاد بوسائل « السلاح والحديد والنار »
 ففي ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ بعث غورو ببلاغ أخير الى فيصل طالبا منه تسليما تاما ، فاجابه فيصل الى ذلك في الواقع بعد فراغ جهده السياسي ، معربا عن قبوله بالبلاغ ، غير أن غورو قد أنكر هذا فجاء انكاره خدعة حربية ، ومشى نحو دمشق بجيش عدده ٦٠,٠٠٠ مقاتل ، فلم يحاول فيصل مقاومة حقيقية ، بل قاتل قتالا طفيفا بعد أوامره ، ثم تسحب الى الصحراء . وفي ٢٥ تموز (يوليو) دخل الفرنسيون دمشق عاصمة ملك العرب ، وخلعوا فيصلا وأسسوا حكما فرنسيا تاما وجازوا العرب على المقاومة التي قاموا بها مجازاة أهول ما كانت من الشدة والعنف ، وغرموا دمشق ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك غرامة حربية ، ناسجين في عملهم هذا في سورية على منوال الألمان في بلجيكا ، وزجوا في غيابات السجون وقتلوا كثيرا من القادة الوطنيين ، وأعلن غورو أن موت « فرنسي واحد أو نصراني واحد » يعقبه « أخذ النار الأهول والانتقام الأخرس » ، بالطائرات الحربية ذات القنابل (١)

فامست سورية من جراء هذه الصاعقة « النابليونية » مهیضة الجناح تضطرب من أثر الرعب . أما الانكليز في العراق فما كانوا على كل حال ليلقوا إلا حظاً مشؤوماً وجرماً عاثراً ، اذ ظلت الفتنة دائرة الرحى عدة شهور . وفي شهر آذار (مارس) صرح القائد البريطاني مينا « شدة دهشته من استعداد البلاد للانفجار البركاني » . وفي شهر تموز (يوليو) انهب العراق من أولها الى آخرها بنار الثورة الآكاة ، ومع أن عدد الجيوش البريطانية كان ينيف على ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، فقد ذقت بريطانيا الأمرين في تسكين الحال واتحاد نار الثورة .

وفي غضون ذلك احتل الحلفاء القسطنطينية يتبعون اكره تركية على قبول الصيغة التي كانوا قد وضعوها لمعاهدة الصلح . فكان الاحتلال بطبيعة الحال سهلا دون مقاومة ، ولا غرابة في ذلك فان القسطنطينية انما كانت تحت رجة أساطيل الحلفاء . غير أن السكان الذي ساد أهل العاصمة الذين كانوا بالألوف المؤلفين متجمهرين بغية شهود الجنود المحتلة

(١) للاطلاع عن مظالم الفرنسيين وقسوتهم اقرأ المقالات المذكورة أخيراً .

نازلة الى البر، كان أبلغ وأفصح من السنة المفاويه من الخطباء. وقد راقب بعض أرباب الاستقصاء من الحلفاء هذه الحالة، فأوجسوا خيفة وقلقوا بالامنها. قال صحافى فرنسى فى هذا الصدد: « ان سكوت الجماهير من الخلق كان وايم الحق أشد تأثيراً من صخب الاحتجاجات البالغة أصواتها عنان السماء. كان الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير، غير أن عيونهم كانت تقدح شرر العداة والبغضاء. وكان بعض القوم من الذين أخذ اليأس من نفوسهم كل مأخذ وزأوا الذل مخمياً فوق مدينتهم، منبذين فى أفواج الناس، يرسلون الرسل ويبعثون الدعاة الى جميع الأمم الاسلامية فى أقطار العالم الاسلامى لينقلوا اليهم نبأ النازلة الكبرى والداعية الدهماء فى بضع ساعات تصل الأنباء الى الأناضول، وبعد ذلك بيومين تنتشر فى قونية وأنقرة وسيواس، وبعد مدة وجيزة تجوب أنباء هذه الفجيعة جميع الأقطار التى تشملها السيطرة البلشفية حتى القوقاس وعبر القوقاس، وبعد عدة أسابيع تسمى جميع هذه الأقطار الوسطية ملتبهة استعداداً لأخذ النار، فان آسية وافريقية ستعودان فتوثقان عرى الاسلام توثيقاً لم يعرف مثله من قبل، وسيقوم هؤلاء الرسل النجباء البلغاء بنقش أنباء هذه الغزوة التى قنابها، فى نفوس العامة والكافة من المسلمين الذين لا يقرأون ولا يكتبون. فهؤلاء الرسل هم دعاة الثورة وهاجعة التعصب الدينى، متجندون للقيام بهذه الدعاية، متألمون من كل جنس وطبقة من طبقات المجتمع، منهم المتعلمون المهذبون يتسكرون فيرتدون خلقان الآثواب ويتظاهرون سؤالا ومشردين ومطرودين ومنفيين، كما يتسنى لهم بذلك نشر الأنباء فى جميع الآفاق واستثارة الهمم والغيرة ابتغاء ايقاد الثورة زياداً عن بيضة الاسلام» (١)

جرت الأمور فى تركة مجاريها التى سبق لنتى رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها. فاكراه رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة (مصافية)، ففعل السلطان ذلك فشجبت هذه الوزارة حركة مصطفى كمال و (رجاله العصاة) وأوفدت وفداً اختير أعضاؤه اختياراً الى مؤتمر سان ريمو فى فرنسا حيث وقعوا بالرضى والتسليم المعاهدة التى أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك (تأييد مراهم) على قصاصات الورق لا غير، وما كان ذلك بالأمر الغريب لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع

هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخبل والجنون ، وان كل فرد من أفراد الحكومة (المصافية) ، من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو الا مصطفى كمال يتلهب غيرة وطنية ، وان العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت انقرضت لا القسطنطينية وان قوة الحلفاء لا تجاوز في الواقع غاية مرامي مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر : « أمعاهدة صلح تلك ؟ انى مستعد لقتال العالم بأسره مشرقاً ومغرباً » .

فبات الحلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانية وفرنسية لا غير . أما ايطالية فلم تشترك في القاء دلوها في الدلاء بل فعلت كما قال نيتي ، ولم « ترسل جندياً واحداً ولم تدفع ليرا واحدة » . لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانية حشد الجيوش الكافية لسحق مصطفى كمال ، في الحين الذي تكبدان فيه نفقة ٢٠٠،٠٠٠ جندي لتسكين الحال في الاقطار العربية الهاججة وغيرها ، وما كان سحق القوى السكالية بالأمر السهل ، اذ قدر اركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك : ٣٠٠،٠٠٠ مقاتل تام العدة . على انه قد بقي في ايدي الحلفاء سلاح آخر - هو اليونان . فتقدم فنزيولوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسية الصغرى ، فقبل ذلك منه وبعد حين نزل جيش يوناني الى بر ازمير عدده ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، غير ان هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل اذ ان المئة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغناء واجتنب مصطفى كمال الاشتباك مع اليونان في معركة فاصلة ، ولكنه ثابر على مضايقتهم وايقاع الحيف بهم بالحرب غير النظامية ، كما كان شأنه أيضاً مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان . فتوغل اليونان في البلاد توغلاً فاحشاً وتورطوا تورطاً شديداً كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالاً وإشكالاتاً ، وعلى ما ظهر أن فنزيولوس ظل يبتغي نزال الترك والمضى معهم في الحرب وذلك بصفة كونه « المنتدب » الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أبى عليه ذلك ، لان اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان الى آخر ، حتى نهكت قواهم أشد النهك ، فراموا الاستراحة ولوقليلا . فلما كانت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) اسقطوا فنزيولوس بنحو ٩٩٠،٠٠٠ صوت ازاء ١٠٠،٠٠٠ صوت ثم دعوا ملكهم

قسطنطين الذى كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوءاً العرش . فكانت النتيجة الصافية ان اليونان باتت كإيطالية خارجة عن ارباب الصفقة . أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه (١) ، فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضاً لذلك الموقف الذى وقفوه فى عهد فنز يولوس . وعلى الجملة فان الحلفاء باءوا بالخسران فرد كيدهم فى نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التى حسوها من الهنات الهينات .

فى ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته فى آسية الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له فى الخارج . ففى المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب ، الأمر الذى قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى ان العرب والترك وهما العدوان بعضهم لبعض ينقلبون من العداوة المرة الى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس فى الواقع بالغريب البتة لأن السياسة الفرنسية البريطانية هى التى قد خلقت هذه الأعجوبة وأتت بهذه الخارقة . والسبب الذى من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « روح الثورة العربية » حق الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية فى بيان له نشر فى الصحف البريطانية : « ان العرب قد ثاروا فى وجه الترك خلال الحرب العامة ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً (٢) ، بل لانهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال فلم يخوضوا المعركة لى يستبدلوا سادة بسادة ، كأن يخضعوا لبريطانية أو فرنسة ، كلا ، بل لى ينشئوا لهم دولة عربية » على ان هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب ، وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية (٣) ، فى قالب أبين عن القصد وأفصح عن الغرض ، وذلك فى مقال نشره فى صحيفة

(١) قسطنطين لم يكن ليريد الحرب مع الاتراك ، بل كان صرح اولاً بان سياسته هى المصالحة معهم . ولكن اشترطت عليه احدى دول الحلفاء متابعة هذه الحرب ان كان يريد ان تساعده فى تبوء العرش ، فاضطر الى ذلك مكرها لا بطلا . (ش)

(٢) ليس من محل احتله الاوربيون بعد الحرب العامة فى الشرق الأدنى وأتوا فيه بادارة تفوق الادارة العثمانية التى كانت قبل الحرب ، بل أتوا فيه بادارة تترقى الى درجة محاكاة الادارة العثمانية ، التى وان لم تكن المثل الأعلى فقد ثبت عند الجميع انها كانت أعدل وأحكم وأعف وأضبط من ادارة الحلفاء فى البلدان التى جاءوا لتنظيم أمورها بزعمهم . . . نغدموا الاتراك بادارتهم هذه أجل خدمة من حيث لا يشعرون (ش)

(٣) هذه المقالة هى احدى المقالات التى كنت نشرتها فى جريدة (البوبولار) الاشتراكية الفرنسية

فرنسية راديكالية مقاومة للطوحة السورية جاء فيه : « ينبغي لفرنسة وبريطانية أن تعلمتا علم اليقين ان العرب انما هم للترك اخوان في الدين ، توحدوا واياهم توحداً سياسياً قروناً عديدة ، بحيث هم لا يرغبون البتة في الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين وشركائهم المسلمين وأترابهم المجاهدين الذين واياهم كانوا في الحروب الخالية يقاتلون العدو جنباً الى جنب وصفاً الى صف ، انشقاقاً ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنيرو دولة أور و بية ، مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تتقلده هذه الدولة فلذلك أى جدوى يأتى من الغول الذى يقوله المسيو ميلران : « لم يدر فى خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية » فليس أحد من العرب اليوم يمكن اضلاله بمثل هذا النمويه وأخذ به بمثل هذا الخداع. ان الهدنة قد وقعت على حسب الشروط والمبادئ التى أعلنها الرئيس ولسون، ولكن لما تضععت المانية وتضععت احلافها معها ، ديست شروط الهدنة وعهودها، كما ديست الأربع عشرة مادة ، بالأقدام . على ان النكث الذى أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جازماً لازماً فى منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرات ، قد حل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الاخاء ، فعاد حبل الولاى بينهم بعد التصرم موصولاً ، بحيث لم تمض الا أشهر معدودات حتى تم ذلك بين الأمتين قد تستطيع فرنسة بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠,٠٠٠ جندى فى سورية ، وبتكبيدها انفاق البلايين من الفرنكات ، أن تخضع عرب سورية الى ميقات ، بيد ان ذلك ليس جميع مافى الأمر ولا الضامن لسلامة العقبي ، فحدود سورية مترامية الى مايليهها من البلاد التى قطينها عرب وكرد وترك ، وممتدة الى الصحراء الكبيرة . فاذا ما شرعت فرنسة فى قتال الأربعة الملايين من عرب سورية ، لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسب بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ عربى ، منتشرين فى جميع الأقطار المشرقية ، غالبهم من القبائل المسلحة ، الشديدة الشكيمة الحية الأنف الصلبة القناة ، هذا ما عدا الأمم الاسلامية الأخرى ، المتدانية لهم ، الداخلة فى الوحدة المتراسة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك انما هو ارهاق الحلفاء وتوالى ضرباتهم الساحقة على غير رحمة ولا شفقة . فان قال قائل ان فى هذا غلواً ، فما عليه الا أن يواقع الحقائق واقعة ويراها عن كذب مستبصراً مستقصياً ، ولكن لعمري أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء

في الأقطار العربية انهرأ وغدراناً^(١) .

وفي الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركي العربي مشهودة جلية في مواضع عديدة . غير ان هذا الوفاق القاضى بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل عن عرشه وجاء من بعد خروجه من دمشق الى ايطالية حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا فقد اصطف العرب مع الترك جنباً الى جنب في كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين في ايقاد الفتن السورية التى ظلت تشب في موضع موضع . واما ما كان لمصطفى كمال من اليد في اشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يغنى عن البيان . وان هذا الوفاق العربي التركي لم يكن جميع مارمت اليه السياسة الخارجية التى اتبعها مصطفى كمال ، فهو في ذلك الحين عينه كان يبعد بمرمى سياسته الى الشمال الشرقى ، ليتناول التتر في عبر القوقاس والتركان في اذربيجان الفارسية وكانت القوقاس في هذا الوقت ميداناً لنزاع شديد وخصام عنيف بين فريق التتر والتركان المسلمين ، وبين فريق الأرمن والكرج النصارى ، وبين طائفة من الأحزاب الروسية البلاشفة ، مما كاد يحول ذلك القطر الى بؤر شديد السعير . وقد لقي مصطفى كمال في التتر والتركان ، المحتمرين جدّ الاختيار بالدعوة الطورانية ، أعواناً جساً وأنصاراً غيراً ، ثم لقي نصيراً ثالثاً مد اليه يد العون وهو روسية البلشفية . فالسياسة البلشفية التى قد سبق لنا بيان غرضها وغايتها ، والتى كانت تجهد لاشعال الفتن والثورات في وجه الدول الغربية في جميع أقطار الشرق ، قد ارتاحت كل الانياح لثورة مصطفى كمال وأعظمتها وأكبرتها . أما في بدء الأمر فلم يكن باستطاعة البلاشفة القيام بعون كبير لرجال الثورة الوطنية التركية ، لأنهم لم يكونوا على صلة مباشرة مع القائمين بها . غير أن الدائرة التامة التى دارت على جيش « ورانجل » الأبيض في شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠ ، واجتياح الجيوش الجراء على أثر ذلك لروسية الجنوبية بحذافيرها ، قد مهد طريق الصلات المباشرة بين موسكو وأنقرة على طريق القوقاس ، ومن ذلك الحين بات مصطفى كمال مشدود الأزر من قبل البلاشفة بالسلاح والمال وقليل من الرجال .

(١) نشر هذا المقال في Le Populaire في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٠

زد على ذلك أن كلالا والبلاشفة كانوا جميعاً يوقدون نار الفتنة في إيران تلك البلاد التي كانت وايم الحق في حالة يرثى لها . فقد ظلت هذه البلاد خلال الحرب العامة ، على كونها محايدة تمام الحياد ، ميدان نزاع بين البريطانيين والروسين من جانب ، والترك والالمان من جانب آخر . فلما اهارت الروسية انهيارها الاكبر سنة ١٩١٧ حملها ذلك على أن تجلو جلاء عسكرياً عن إيران ، فاهتبت بريطانية الفرصة إذ ذاك ، فأعزت سيطرتها وأعلت شأن نفوذها وأيدت كلمتها وكسبت موقفها صفة قانونية بذلك « الاتفاق » المشهور الذي دبرته مع حكومة الشاه في شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١٩ (١) ولكن هذا الاتفاق مع كونه مبرماً وموقعاً على الوجه المرضي قد استنكرته الأمة الإيرانية استنكاراً وحسبت من جرائه ألف حساب . فانقلبت الحال بذلك فرصة ثمينة لعود الدعوة البلشفية الى العمل والانتشار . فأعلنت الحكومة البلشفية نزولها عن جميع الحقوق التي كانت الحكومة الروسية القيصرية قد اكتسبتها في إيران ، وجاهرت بولائها ومصافاتها للأمة الإيرانية ووقفت في جانبها لمقاومة التوسع الاستعماري الغربي . فأفلح المسعى حقاً بطبيعة الحال ، فباتت إيران مضطرباً يكثر فيه نشوب الفتن العسكرية . وفي أوائل صيف سنة ١٩٢٠ عبرت قوة بلشفية بحر قزوين ونزلت الى الساحل الإيراني . غير أن هذه القوة لم توغل ايغالا بعيداً في البلاد إذ لم تكن بحاجة الى هذا لأن البلاد بدأت تمور في بحر من الارغاء والازباد ، مما جعل الموقف البريطاني متزلزلاً زلزلاً شديداً . فانقضت عدة شهور والاضطراب سائد في طول إيران وعرضها وما برحت هكذا حتى الحين الذي نكتب فيه هذه السطور . على أنه ليس هناك من ريب أن موقف بريطانية في إيران صار بجملته وشيك الانهيار ، وأن بريطانية ستكره لذلك عما قريب حتى تجلو عن البلاد كلها ما عدا القسم الجنوبي الأقصى الذي يمكنها فيه احتفاظ موقفها .

نعود الآن الى خريف سنة ١٩٢٠ حيث موقف بريطانية وفرنسة في الشرق الأدنى بات ينقلب على التوالي من سيء الى أسوأ . فالدولمان غدا موقفهما منذراً بالويل والثبور ، ولا سيما من بعد ماتحلت عنهما ايطالية واليونان ، وزجهما الترك زجة شديدة ، وثار في

(١) لزيادة الاطلاع على مجارى هذه الوقعات اقرأ مقالة للمؤلف نشرت (كانون الثاني - ديسمبر ١٩٢٠)

وجههما العرب، وانتقض عليهما المصريون والفرس، وانتشرت الدعوات البلشفية ضدّهما في سائر الأقطار، فبهظ العباء وثقل الحمل، ونهكت القوى وشقت الأنفس. ففي العراق وحدها بلغت النفقة التي تكبدها بريطانيا ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية. والحالة لم تبرح متجهمة الجوّ لتدل على كثير من الانفراج.

لذلك ليس من الغرابة في شيء في مثل هذا الأوان العصب ان غدت السياسة المتبعتان في الشرق الأدنى هدفاً لسهام الانتقاد المرّ والقذف الشديد، ولانصباب جام الغضب عليهما من كل قوم وناد في كل من بلاد بريطانيا وفرنسة. أما في بريطانيا على الخصوص فقد بات الانتقاد طوفاناً أعمى يجرف في سبيله كل شيء حتى عدت المحاولة التي تحاوها بريطانيا في العراق جنابة وخطراً ما أنزل الله بهما من سلطان. مثال من ذلك الانتقاد ما قاله الأمير آلاي لورانس: « لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهيئة وصارت حكومتنا أسوأ وشرّاً من الحكومة التركية البائدة، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا في البلاد ويوطدوا الأحكام بنحو ١٤،٠٠٠ جندي من أهل البلاد، وبقتل عدد من العرب لا يزيد على المئتين كل سنة أما نحن فاننا نحفظ جيشاً عدده ٩٠،٠٠٠ مقاتل، تام العدة مجهز بالطائرات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة، وقد قتلنا نحواً من ١٠،٠٠٠ عربي في ثورة هذا الصيف^(١) » خملت هذه الانتقادات المرة المؤثرة، والصفة العامة لمجاري الأمور، الحكومة البريطانية على تقويم موقفها، فانفذت الى العراق السرّ برسي كوكس للمفاوضة مع العرب، وهو ندم المأروم طرازه، لا يقيم وزناً الا للحقائق، كثير الخبرة والحسنة في معالجة الشؤون الشرقية. ولما كان قد فُوض اليه القيام بالمناقشة والمفاوضة في شأن اتفاقات كبيرة فقد اجتمع بالقادة الوطنيين على انبساط وحرية، فكان له في نفوسهم تأثير كبير. وعند كتابة هذه السطور كانت الحال لم تزل قلقة، غير أنها تدل على أن بريطانيا عاملة على اختطاط خطة جديدة يكون لها بموجبها الحكم المباشر على الطرف الجنوبي الأقصى من العراق حيث رأس الخليج الفارسي، أعني على منطقة سيطرتها القديمة المعروفة قبل سنة ١٩١٤.

وفي تلك الغضون استطاعت فرنسة أن تحفظ شيئاً من النظام في سورية لكن بطرق

(١) من بيان له نشر في الصحف آب (اغسطس) ١٩٢٠.

السلاح والنار ، ومع هذا لم يزل الموقف متزعزعا ، فقد نفت السلطة الفرنسية كثيراً من أبناء البلاد على اختلاف الطبقات فغدا جميع أهالي البلاد ، حتى الموارنة الكاثوليك الذين كانوا يميلون الى فرنسا ميلاً تقليدياً ، يهيجون وبصخبون ، فسكن الجنرال غورو بسرعة هذه الحركة بنفيه القادة والزعماء الى كورسكا . وعلى الجملة فالحقيقة الراهنة التي يجب ان يقال وتعلم هي أن أصدقاء فرنسا الاوفياء في سورية قد غدوا على فرنسا ساخطين ولها مبغضين . وكل هذا لم يكن ليحمل فرنسا على تقويم سياستها حتى اليوم . قال الميوليج رئيس الوزارة الفرنسية منذ عهد قريب في شأن سورية : « ان فرنسا ستحتل سورية بأجعتها احتلالاً دائماً » وصرح الجنرال غورو منذ عهد أقرب : « يجب على فرنسا ان تبقى في سورية لأسباب سياسية واقتصادية ، فلو تخيلنا عن البلاد لجرّت علينا النتائج السياسية التي تنجم عن ذلك الرزية الفاجعة ، ولتقضى القضاء الاخير على مكانتنا وسيطرتنا في الشرق والبحر المتوسط . زد على ذلك ان المطامح الفرنسية الاقتصادية تدعونا للبقاء في تلك البلاد ، ومتى ما وفر العمران وعم التقدم والفلاح في سورية وكيليكية كان لهدين القطرين شأن اقتصادي يضاهاى الذى لمصر » .

بيدانه ، مع تصلب الحكومة الفرنسية الشديد لا تزال جملة الانتقاد على « المطوحة السورية » ، من رأى العام الفرنسى فى ازدياد . وليس الذين يقومون بهذه الجملة هم الغلاة المقاومين للتوسع الاستعماري فحسب ، بل أيضاً منهم المحافظون الابرياء من كل تهمة وغرض . قالت الصحف السياسية الفرنسية فى هذا الصدد : « ان العرب ، وهم يغارون تأشد الغيرة على الاستقلال والحكم الذاتى ، قد تحرروا من النير التركى ، لكن لا يتبعون حكماً أجنبياً جديداً . فالقول اذاً ان سورية تطلب جابتنا لها ، انما هو كذب واختلاق . ان سورية تريد الاستقلال التام وتطلبه » . ومن عهد ليس ببعيد وقف فكتور برار خطيباً فى مجلس الأعيان وهو من أعضائه ويعد من ثقات فرنسا المشهود لهم بالاضطلاع والخبرة فى الشؤون الشرقية فانتقد سياسة حكومته فى سورية انتقاداً شديداً مرة وكشف الغطاء عن معايبها ومشائنها وصرح تصريحاً ان « سورية الحرة » قد أمست قضيتها « قضية مصلحة وشرف معاً » .

وبالرغم من هذا كله فالحكومة الفرنسية باقية لم يلن جانبها للعرب ، من حيث

انها قد فعلت ذلك ازاء الترك ، فبدلت موقفها عندهم تبديلاً تاماً ، فضربت بمعاهدة سيفر عرض الحائط ، وأبرمت منذ عهد قريب شروط واضح موقت مع الترك ، موافقة كل الموافقة في الواقع على اخلاء كيليكية . وقد باتت بريطانية وفرنسية تعلمان جيداً أن معاهدة سيفر صارت عقيمة لا يستطيع العمل بمقتضاها ، وان امتلاك الترك لآسية الصغرى من أقصاها الى أقصاها أمر لا بد منه ولا منتدح لهم عن الاعتراف به .

ان فرنسة بانفاقها مع مصطفى كمال لترجو بلا ريب رجاء كبيراً ، ألا وهو حفز مصطفى كمال أن يكر على العرب يوماً ، بيد أن ذلك بعيد ، فان مراعى جميع الحوادث والواقعات تشير اشارة بينة الى صيرورة الوحدة متراصة الجوانب موثقة العرى بين شعوب الشرق الأدنى لمقاومة التسلط الغربى السياسى . وأقوى الأدلة وأعظمها على سير الوحدة هذا السير واتجاهها متجهاً تتدانى به الشعوب في جميع أقطار الشرق الأدنى بعضها من بعض ، هو المؤتمر الاسلامى العام الذى عقد في سيواس في أوائل سنة ١٩٢١ . وكان الغرض من عقده وضع خطة راهنة بآية يستطيع بها توثيق عرى التآخى الاسلامى في العالم الاسلامى . مشارق ومغرب . وقد حضره الأمراء ، والقادة السياسيون السنيون من المسلمين ، وأمراء من سائر الملة الاسلامية مثل أمير كر بلاء الشيعى ، والامام يحيى^(١) ، أمير الزيدية في اليمن - الزعماء الذين لم يكن التعاضد والتقارب مستطاعاً بينهم وبين السنيين من قبل ، وأعظم ما في الأمر هو ما أذاعته الصحف من أن الأمير السنوسى الكبير هو الذى قد ترأس هذا المؤتمر . ولا جرم فانتا قد عرفنا مما تقدم من الكلام ان السنوسى لم يبرح دائماً جاداً في سبيل اعزاز الجامعة الاسلامية والوحدة المحمدية الكبرى في المعمور الاسلامى ، لمقاومة التسلط الغربى . هذه هي صفة الحال اليوم في الشرق الأدنى - حالة عصبية كلها اضطراب ، ومحفوفة بنذر السوء . الا أن هناك أمراً فيه علامات حسنة ، الا وهو انتباه الحكومة البريطانية لخرج الساعة واشتداد المآزق ، انتباهاً يحملها بالتالى على تقويم موقفها . فلذلك ان جهداً يبذله مثل اللورد ملز والسرپرسى كوكس ، ولو اعترض سبيله كثير من المصاعب والمشاق ، يستبعد أن لا يكون مشمراً ولو بعض الثار . ان هذين الرجلين لظاهر فيهما التحدر السياسى من نشا تام ودرهام ، الداهيتين اللذين رفعا عماد

(١) الامام يحيى لم يحضر مؤتمراً كهذا ولعل اناساً من جهته حضروا . (ش)

تلك التقاليد السياسية الكبرى التي وسعت جميع شؤون الامبراطورية البريطانية حزماً وتديراً في ما زق مستحكمة الحلقات وأزمات مربدة الجواء .

أما من الجهة الأخرى فلا تزال الحالة مؤذنة الخطر في الشرق الأدنى حيث فرنسا لم تبرح على عنادها السياسي را كبة فيه رأسها منقاداً لها ، وما دامت فرنسا مستغرقة في بحر تقاليدها القديمة ، فهي على هذه الحالة معرضة بسياستها عن مواجهة الحقائق التي لا بد لها أن ترغم على الوقوف عندها بعد حين معتبرة مستبصرة . فلذلك اذا ما انفجر البركان وملاّت جمه الجو ، وهو الذي لا مناص من انفجاره ، ما لم تقدم فرنسا في الواقع على تقويم سياستها ، واذا جاء ذلك اليوم الاسود الذي تلتهم فيه سموم العرب الهابة من الصحراء ثلاثين الى أربعين كتيبة من الكتائب الفرنسية ، يقضى حينئذ الكثيرون من المضطلعين بالشؤون الشرقية قضاء عدلا ، بأن : « السياسة الفرنسية قد نالت جزاءً وفاقاً » .

ندع قضية الشرق الأدنى في هذه الحزّة الى أن تبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ، وندخل في الكلام على العضلة السياسية الكبرى في الشرق المتوسط - الا وهي العصبية الجنسية والنهضة القومية في الهند .

المساواة فى الشريعة الاسلامية

المشكيب

ان الشريعة الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول ﷺ خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية النامة بين جميع الأمم^(١) ، العربى منهم والعجمى ، والاجر والاسود . وترى صورة الاسلام كلها فى هذه الآية « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » يقول تعالى انه خلق البشر كلهم من أب وأم وما جعلهم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض كلاب ليعرف كل من أى قبيل هو ، أما المزية فهى للتقوى فقط . وبهذه الآية انتشر الاسلام ، وفتح العرب تحت ظل رأيته الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور ، ودخلت الأمم فى الاسلام ، ولا تزال تدخل فيه الى يومنا هذا . وقد جاءت الأحاديث النبوية مؤيدة للآية الكريمة فنها « ليس منا من دعا الى عصبية » ومنها « ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى الا بالتقوى » . ومنها قوله ﷺ « سلمان منا آل البيت » وذلك انه عد سلمان الفارسى نظراً لتقواه من آل البيت النبوى أكرم البيوت ومنها قوله ﷺ لفاطمة ابنته : « اعلمى يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئاً يوم القيامة » . أو كما قال . وهذا فى معنى قوله تعالى « لا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيدده حضرة الامام الكبير بقيه السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسنى المغربى نزيل دمشق وهو قوله ﷺ : « ألا ان بعض أهل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك انما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا . ألا انى لأحبل لأهل بيتى أن يفسدوا ما أصلحت » أو كما قال . وليس فى هذه الآيات والآثار ما يتصادم مع شئ من الأحاديث الصحاح الواردة فى فضل العرب ، ووجوب حب العرب ، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربى المبين . كما انه وردت أحاديث أخرى فى فضل غير العرب مثل « لو علق

(١) انظر صفحة ٧٨ من هذا الجزء

العلم بالثريا لئلا نلنا من فارس »
ولا يكون الدين إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أجمها وأسودها
وأدناها وأبعدها ، الا اذا كان مؤسساً على مثل هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة .
وليس التضامن الاسلامي الذي حار في أمر قوته نطس الأطباء الاجتاعيين ، ودهش من
استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، الا نتيجة قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة »
وقد ظهرت في هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ،
لا يريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا انه هو الذي
كان منشأ ضرر هذه الأمم . فالذين هم من العرب يعلنون انه لولا اخوة العرب مع الترك
بالاسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه
الاخوة الاسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية
الاسلامية ، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس
يقولون مالنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما أدنى
رابطة ، فيجب أن نعود فرساً كما كنا . والجواب على الفئة الأولى ، أنه لولا تلك الاخوة
الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة في صدر الاسلام ، ولا دانت
بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبههم نبيها . فان كانوا فقدوا الملك فيما
بعد ، فلم يفقدوا الا بتنازعهم وتنافسهم والفتن المستمرة بينهم مما مثاله أمام عيننا الآن ، فلا
يلوموا بذلك الا أنفسهم ، ولعل الاخوة الشرعية التي يشكون ضررها قد لطف الضرر
الذي أصابهم من أثر السقوط ، بحيث ان الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى
عليهم بسبب جامعة الاسلام . فلما أدبيل منها بدول غير اسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة
الاسلامية والدول الأجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب . والجواب على الفئة الثانية
ان الأواصر الاسلامية لم تضر الترك في شيء بل أعطتهم ملكاً طويلاً عريضاً ، وجاهاً كبيراً
لبشوا يستطيعون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الاتابك والطولونيين الى
السلجقة الى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الاسلامية
أى على الرئاسة العليا على ثلاثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها وكانت الدولة
العثمانية قد طوت جناحها على جميع البلدان الواقعة بين تلمسان غرباً ، ويران شرقاً ،

والصومال جنوباً ، والقريم شمالاً ، فانضوى تحت هلالها نحو ١٢٠ مليون نسمة من عرب ، وبربر ، ونوبة ، وحشب ، وكرد ، وطاغستانيين ، ولاز ، وأرناؤوط ، هذا عدا الأمم المسيحية كالروم ، والأرمن ، والبلغار ، والصرب ، والمجار ، والفلاخ ، والبغدان ، والخرات . فأنت ترى ان الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة الى المجموع جزءاً يسيراً في المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الاسلامية التي جمعت بينه وبين العرب والأكراد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الاسلامي تلك الحياطة التي هي عنوان الدولة العثمانية . وليس بصحيح ما يذهب اليه بعض الطورانيين من كون الترك لم يحتاجوا لعصبية الاسلام في فتوحاتهم هذه بل كانوا قادرين أن يقوموا بها سواء كانوا مسلمين أم لم يكونوا . وكذلك ليس بصحيح ان فتوحات السلطان سليم إنما اتسقت بحد السيف وحده ، وان الدولة العثمانية لبثت هي الدولة الحاكمة في بلاد العرب بأسيية وأفريفية بحد السيف أيضا . بل لم تنسق تلك الفتوحات للسلجوقيين ولا للعثمانيين الا بقوة الرابطة الاسلامية ، واتخاذهم الدفاع عن حوض هذه الملة شعاراً لهم . اما استشهادهم بفتوحات جنكيز وهولاكو وكونها طبقت الآفاق بدون دعوة اسلامية ، فهذه كانت أشبه بسيل طمي مدة قصيرة ثم قر وما أسرع ما ذهب ، وقد علموا هم انه لما شعر أعقاب جنكيز بقلق مركزهم واضطراب حبلهم التجأوا الى الاسلام ودخلوا فيه ، وجعلوا أنفسهم حمانه وكفوا به أنفسهم كرة المسلمين عليهم ولولا ذلك لم تثبت في بلاد الاسلام دولة مغولية . ونحن نعلم ان بعض غلاة الطورانيين شارعوا في تعاليم الناشئة التركية تاريخ الشرق على وجه لم يؤرخه عربي ولا تركي ولا فارسي ولا أوربي ، ولكن على الوجه المطابق لسياستهم الجديدة ، مع ان التاريخ علم كسائر العلوم ليس له شغل بالسياسة ، بل لا بد فيه من تمحيص الحقائق فقط . وجوابنا على الفئة الثالثة ان الاسلام لم يضر فارس بشيء في دين ولا في دنيا ، اما من جهة الدين فانه نقلها عن عبادة النار الى عبادة الواحد الأحد . واما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الاسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل الا قليلاً ، لا بل استوتت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هي روح تلك الدولة برابطة الاسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها ، ولو جاءت تضع يدها على دولة بني العباس بقوة فارس المجوسية لأصحابها ما أصاب الأفشين الذي عصى الخليفة العباسي فقتل

وأجرت جثته وقال فيه أبو تمام مشيراً الى نار المجوس :

« صلى لها حيا ومات بحرها وكذاك يدخلها مع الفجار »

هذا ما نراه في الجواب على هذه الفرق الثلاث وفيه خطاب لفتة من المصريين أيضا يذهبون الى انه « ليس فيهم شيء غير مصرى » وان المسئلة المصرية ينبغي أن تبقى منفصلة عن كل مسئلة شرقية اسلامية أو غيرها . ولكننا نضيف اليه أن الوقت زعيم باظهار صحة هذا المنحى في السياسة وعدمها ، فان هذه الفئات انما هي قادمة على تجارب وليس للانسان أن يحكم على الشيء الجديد الا بعد التجربة . فلنتظر نتيجة تجاربهم بسياسة الانفراد ومن رأينا أنه اذا كان مثل هؤلاء لا يرون الاستمسك بجامعة اسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العصرية ، فليعدلوا على الأقل الى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا اذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوى ، فليست الجامعة الاسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدر ان يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية اذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضا توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب . ومما لامشاحة فيه انه لا أمل باستقلال الشرق مادام مفكك الاجزاء

تاريخ نجد الحديث

آل سعود وآل الرشيد

الرشيد

جرى من قبل ذكر الوهابيين^(١) وهانحن الآن نسرد زبده تاريخ هذه الفرقة واخبار امراء نجد الذين قاموا بنشر دعوتها ملخصة من مصادر عديدة : ولد محمد بن عبد الوهاب فى العونية من نجد فى العام المائة والسادسة عشرة بعد الألف الموافق ١٧٠٤ للمسيح ويقال ان جده سليمان وكان منسوبا الى آل البيت وناشئاً فى بنى تميم ، قد رأى فيما يرى النائم ناراً خرجت من سرته فأضاءت البوادي كلها ، فعبّر بعضهم هذه الرؤيا بأنه يخرج من صلبه رجل يهدى الأقوم ويؤسس ملكاً كبيراً ، فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

طلب محمد بن عبد الوهاب العلم فى دمشق ، وتشرب مبادئ الامام الحافظ حجة الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وابن عروة الحنبلى وغيرهم من فحول أئمة الحنابلة . ثم رحل الى بغداد والبصرة ، وهناك أيضاً ازداد رياً من موارد المذهب الحنبلى ، وأخذ يفكر فى إعادة الاسلام الى نقاوته الأولى ، عقيدة الصحابة والتابعين . فلذلك الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هناك أنكر الاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنية والأحاديث المصطفوية ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية . وكان فى ذلك الوقت رجل يقال له محمد بن سعود قد أعصوبت حوله قبائل « العتوب » و « عنزه » وهى القبيلة التى ينتسب هو الى أحد أبنائها ولد على وتولى زعامتها ولقب بالأمر . فتلقي دعوة ابن عبد الوهاب بالقبول وجعلها شعار امارته واتخذ عاصمة امارته قصبه الدرعية ويقال ان ولده سعود كان شيخاً عليها فكتب كتائب سلاحها بالحراب وبنادق الفتيلى ، وجعل

(١) راجع صفحة ٨٢ وما بعدها من هذا الجزء .

معها طائفة مراديف أى ركاب الدل ، مثنى مثنى كل خلف الآخر ، وأخذ بعد ذلك يغزو البلاد المجاورة ويث الدعوة لعقيدة السلف ، ففي سنة ١١٥٩ استولى على العويثة وحريملة ، ولكن عصت دعوته الرياض التي كان فيها دهام بن دواس فقاتل ابن سعود وقصد المنفوحة من بلاده ، وبقى الفريقان يتصاولان عدة سنين حتى غلب ابن سعود على الرياض . وكان محمد بن سعود قد اصاب بمرض فسلم مقاليد الأمور الى ولده عبد العزيز ، فجد هذا في عزو جواره وبث الدعوة فكانت الحرب معه سجالات ، وحدث أنه وقعت في يده أسرى من اليمن فأساء معاملتهم فزحف اليه أحد أمراء اليمن حسن بن هبة الله ، وانضمت اليه عدة زعماء من الاطراف ومن جلتهم ابن دواس الذي انتقض على ابن سعود في الرياض ، فخصروا هذا في الدرعية ، ولكن ابن هبة الله اضطر الى المعاد الى وطنه فلم يقدر ابن دواس على «الدرعية» ، وانتهت الحرب بعقد الصلح . على ان ابن دواس بعد ذلك عانى كثيراً من مقاومة ابن سعود ، حتى اختار الرحيل الى الاحساء ، وتبعه أكثر سكان الرياض فدخلها عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٧٢ فوجدها خاوية على عروشها وكانت الغارات مستمرة بين آل سعود وبنى خالد أصحاب الاحساء وبنى المكرمي أصحاب نجران اليمن وسنة ١٧٦٥ توفي محمد بن سعود تاركا الامارة لولده عبد العزيز الذي كان لا يقصر عن أيه حزمًا وعزما وبسالة واقداما ، فأخذ يجبي من أبناء الدعوة الوهابية العشر للانفاق على الكتائب والسرايا ، واستولى على بلاد وارجاء واسعة من جلتهها مدينة الدلم ، ووقعت الوقائع بينه وبين حاكم الاحساء سعدون ، فامتنت مدينة بريدة من القصيم على سعدون وبقيت في يد الوهابي .

وتوفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ٢٩ شوال سنة ١٢٠٦ الموافقة ١٧٩٢ في الخامسة والتسعين من العمر ، وقد كاد يكف بصره ، وكان قد نسل ١٨ ولداً اذ كان تزوج بعدة نساء ولزم الدرعية عاصمة الدعوة الوهابية ستاً وأربعين سنة .

وسنة ١٧٩٢ تمكن عبد العزيز بن محمد بن سعود من الاستيلاء على الاحساء وخلص من همها وقيل كان ذلك سنة ١٧٩٥ فوجه قوته لقتال الشريف غالب أمير مكة . ولما بلغ الباب العالي استفحال أمر الوهابيين أمر سليمان باشا والى بغداد بتجهيز حملة عليهم ، فسير جيشاً الى الاحساء فلم يفز منهم بطائل بل زحف الوهابيون نحو العراق ، وفي ٢٠ نيسان عام ١٨٠١ دهم منهم ١٥ ألف مقاتل مدينة كربلاء فذبحوا قسماً من أهلها ، ونهبوا مشهد

الحسين بن علي رضي الله عنه ، وحازوا كل ما كان مجموعا فيه من النفائس التي تأتي من زوار العجم . ولم يثقل ذلك على ضمايرهم لأنهم ينظرون الى كل من يعظم القبور نظرهم الى الكافر . وقيل كان ذلك سنة ١٨٠٢ و بالحساب العربي في ١٨ ذى الحجة سنة ١٢١٦ وان سبب هذه النكبة هو تعدى قبيلة الخزاعل الشيعية على قافلة وهابية . فطبق خبر هذه الفاجعة جميع العالم الاسلامي لاسيا فارس وازمع فتح على شاه تجهيز جحفل عدته مائة ألف مقاتل يغزو به الوهابيين في عقر دراهم وكذلك سليمان باشا والى بغداد أخذ في اعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ، ولكن فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة في بلاد الاكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابي . وفي ذلك الوقت وقعت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين على امارة مكة فتغلب غالب على أخيه واستعان عبد المعين بابن سعود ، فزحف هذا الى الحجاز وهزم الشريف غالبا واجتاح الطائف وتقدم الى مكة وكانت اذ ذاك قافلة الحج الشامي تحت امره عبد الله باشا والى الشام قد قاربت البلد الأمين فأرسل عبد الله باشا الى ابن سعود يسأله ماذا يريد أن يفعل فأجابه الأمير عبد العزيز ان موكب الحج الشامي له أن يدخل ويقضى مناسك الحج وبعد ثلاثة أيام يمكنه أن يبرح وكان الأمر كذلك . فاستنصر الشريف غالب عبد الله باشا على ابن سعود فلم يقدر أن ينصره لقلته مامعه من القوة ، وما فارق عبد الله باشا البلد الحرام حتى دخل ابن سعود فنصب الأمير عبد المعين مكان أخيه ، وهدم أضرحة الأولياء ، ورفع التحف والنفائس التي كانت مودعة في الحرم الشريف ، وطرد الباعة من صحنه . ووقع ذلك في ٨ المحرم سنة ١٢١٨ وفق ٣٠ نيسان سنة ١٨٠٣ أما الشريف غالب فانهزم الى جدة عند القائد شريف باشا فصمد ابن سعود اليهما ، فلم يقدر على فتح جدة ، وظهر الطاعون في تلك الجهات فكف عن الحصار وانكفأ قاصداً المدينة المنورة فلم يوفق الى أخذها ، فعاد ادراجه الى نجد ولم يبق بمكة غير ٢٠٠ رجل من جماعته فثار بهم أهل مكة وذبحوهم .

وكان رجل شيعي فارسي وقيل من العمادية قتل اولاده في واقعة كربلاء وعزم على الاخذ بثأرهم فذهب الى ديار ابن سعود وتظاهر بالوهابية وبقى على ذلك سنة وهو يترصده عبد العزيز ابن سعود ليفتك به . وفي ١٨ رجب سنة ١٢١٨ (٣ تشرين الثاني ١٨٠٣) بينما كان الامير عبد العزيز يصلى العصر طعنه الشيعي بنخنجر ارداه قتيلا وكان عمره ٨٢

سنة فقبضوا على القاتل واحتزوا رأسه وقيل أحرقوه . فقام بالامارة بعده ولده سعود ، فافتق أثر أبيه في الغزو والفتوحات ، فاستولى على البحرين و بلاد الجوازم (١٨٠٤) وغزا بلاد عمان . فراع ذلك الباب العالى ، فصدرت الاوامر الى على باشا والى بغداد بتجهيز حملة على الوهابيين من عرب و كرد ، وشد أزره بعبد الله باشا والى الشام وشريف باشا قائد جدة . وجاء امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية منضما الى الدولة لمقاتلة الوهابيين الا ان التجهيزات الحربية ابطأت ابطاء سئم منه امام مسقط فأب الى بلاده وفى الطريق صادمه قرصان الجوازم فقتلوه . وخيم العسكر الذى جهزه على باشا مدة اشهر فى الحلة لم يقم الا بمناوشات خفيفة ، ثم استدعى الى كردستان لاجاد نار ثورة شبت فيها . فاهتبل الوهابيون هذه الغرة وعادوا الى الحجاز ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الاولياء ، ونهبوا ما فى الحرم الشريف النبوى بالمدينة من الجواهر والتحف وابعوها بالمزاد العلنى ، واذابوا قناديل الفضة والشمعانات والآنية الفضية كلها ، ووزعوا اثمانها على حامية البلدة الطيبة ووقع ذلك سنة ١٢٢٠ وفق ١٨٠٥ ، ثم توجهوا صوب مشهد على رضى الله عنه فى العراق وكبسوه بيانا فاحس بهم الخفراء فايقظوا أهل البلد فناروا بهم ودفعوهم عنه وامتد الصريح الى الاعراب الذين حول النجف فجدوا فى اثر الوهابيين فكسروهم فانقلبوا صوب السماوة ، فلم يكن حظهم فيها اسعد وانصرفوا الى ديارهم ووقع ذلك سنة ١٨٠٧ .

الا انه فى السنة التالية اجتاح الوهابيون عانة على الفرات ، ثم زحفوا الى دمشق وعليها يوسف باشا الملقب بالكنجج (الشاب) ، فأخذوه على غرة فاضطر الى مصانعتهم ووعدهم بان يقبل الدعوة الوهابية هو وأهل الحاضرة ، وأدى اليهم مبلغا من المال على شرط أن لا يعارضوا قافلة الحج فى مسيرها ، فقبضوا المال وساروا بخفارة القافلة مسافة ثم لم يلبثوا ان تخاصموا مع الحجاج ، فنهبوا امتعة هؤلاء وعادت القافلة ادراجها وعاد الوهابيون يحاصرون دمشق فكان الوالى فى أثناء ذلك اعد عدة الدفاع فلم يقدروا عليها فنهبوا قرى الغوطة وارتحلوا .

وكان الامير سعود بن عبد العزيز رجلاً ماهراً فى السياسة ، فرأى انه مادام مقاوما للسلطنة العثمانية فلا بد له من ان يصابى اعداءها فتودد الى شركة الهند الانكليزية والى العجم وامر جاعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسى تزلفا الى فتح على شاه ثم كر

الوهابيون على العراق فوجدوا من واليها الجديد سليمان باشا غير ما وجدوه من على باشا من الخزم والقوة وانقلبوا على اعقابهم ، وهزمتهم قبيلة المنتفق في سوق الشيوخ ، وكذلك غزوا سورية ففشلوا عند حلب و بين حماه وحمص . وكان قرصان الجوازم ملاًوا جليج فارس عيثاً فسر ح اليهم الانكليز من الهند اسطولاً انضم اليه اسطول مسقط ، فدمروهم وازالوا معرتهم ودمروا رأس الخيمة مرسى مراكزهم

ولما ضاق ذرع الدولة العثمانية بالوهابيين رمتهم بمحمد علي باشا أمير مصر ، فجهز هذا جيشاً عقد لواءه لابنه طوسون باشا ، فسار براً الى ينبع ميناء المدينة ومعه الخيالة ووافته الرحالة بالسفن من طريق البحر . وتقدم الجيش نحو المدينة فوصل الى بدر ثم لقي العدو بالجديدة ، فحمل في البداية حملة صادقة لكنه لم يلبث ان وجد من صعوبة الاماكن وكفاح العدو ما أسأمه نغرت قوته وانهزم تاركاً في يد العدو سبعة مدافع . فارسل محمد علي الى ولده مدداً واستمال طوسون من جهته قبائل البدو ولحق به رجل من قواد الوهابيين اسمه ابن شديد كان سفر الجو بينه وبين ابن سعود ، فزحف طوسون الى المدينة النبوية ودخلها (١٨١٢) بعد حصار ٧٥ يوماً . وبعد ان استقرت العساكر المصرية بالمدينة صمدت الى قتال الوهابي بمكة ، فانهمز عبدالله بن الأمير سعود منها الى بلاده ودخلها الجيش المصري أيضاً وفر أيضاً عثمان المضايقي قائد الوهابيين بالطائف من تلك البلدة ثم أسر . ثم تقدم مصطفى بك قائد الجيش المصري الى طرابه (التي وقعت فيها الواقعة منذ ثلاث أو أربع سنوات بين الامير ابن سعود والامير عبد الله بن ملك الحجاز وأمير شرقي الاردن اليوم وكانت مشؤومة على عبد الله) فلقى فيصل بن الامير سعود بجيشه فالتحم الجمعان وخرج الوهابيون وامامهم امرأة شيخ قبيلة صبيح وصدقوا الجملة فهزموا المصريين واستولوا على مدافعهم وعدتهم .

فلما رأى محمد علي وعورة التجريد ركب بنفسه البحر الى جدة فنزلها في ١٨ أغسطس عام ١٩١٣ وعزل الشريف غالباً من اماره مكة ، ووضع مكانه الشريف يحيى ابن الشريف سرور بحجة ان غالب اساء السياسة فأرسلت الدولة غالب الى سلانيك حيث توفي سنة ١٢٣١ (١٨١٦) .

ونشبت الحرب بين المصريين والوهابيين في طرابه ولكن لم يتمكن المصريون من

خضد شوكة هؤلاء بالرغم من تحريض محمد علي وانهبال اغطيانه وجوائزہ للمستبسلين من قواده واجناده وكان الوهابيون قد احتلوا قنفذة بساحل البحر الأحمر فطردهم منها الجيش المصرى لكنهم عادوا فاسترجعوها . وفي ٨ جادى الأولى عام ١٢٢٩ (٢٨ ابريل ١٨١٤) توفى الأمير سعود فى الدرعية عن ٦٨ سنة ، ويقال انه كان شهماً مقداماً عادلاً فى الحكومة فقام مقامه عبد الله كبير ولده .

وتقدم عابدين بك بقوة مصرية الى زهران (باليمن) فانهمزم . وتقدم الوهابيون ثانية وصاروا على وشك أخذ الطائف وتخرج موقف الأمير طوسون بن محمد على فتقدم محمد على بنفسه ورد فيصل بن سعود الى الورا ، واسترجعت عساكر مصر قنفذة ، وسار طوسون من المدينة المنورة بألفين وخمسمائة فارس فاستولى على جانب من القصيم ، فالتمس عبد الله بن سعود الصلح فأجيب اليه على شرط أن يعترف بسيادة السلطان ، وتم الصلح على ذلك الشرط وعاد محمد على وولده طوسون الى مصر . الا ان محمد على طلب من عبد الله بن سعود الذهاب الى الاستانة لعرض طاعته للسلطان فتلكأ ابن سعود عن الذهاب ، فأبى محمد على الا ان يشخصه فعرف ابن سعود أن لا بد من استئناف الحرب وأخذ يحصن الدرعية بالمدافع ، وشرع محمد على من الجهة الثانية يتأهب لرحلة ثانية يقودها ولده ابراهيم باشا . وفى ٢٨ ايلول سنة ١٨١٦ وصل ابراهيم الى ينبع بجرأً وصعد الى المدينة المنورة ، ومن هناك صار بجيشه قاصداً ديار ابن سعود ، فحاصر الرس وفتحها بعد حصار شديد قاتل فيه الوهابيون قتالاً أبطالاً ، ثم زحف الى بريدة وعنيزة من القصيم واستولى عليهما ثم على شقرا وبعده أن دوخ جميع هذه الأطراف قصد الدرعية فوافاها فى ٦ نيسان ١٨١٦ وبدأ بحصارها فكانت وقائع وأهوال تشيب الأطفال ، ولكن ابن سعود بعد دفاع طويل طلب الصلح وقدم بنفسه على ابراهيم فأكرمه وأرسله الى أبيه بمصر فأرسله محمد على الى الاستانة وقيل انه أوصى الدولة أن لا تقتله ولكن جرى القضاء بخلاف الوصية فقتل فى ساحة ايا صوفيا فى ١٧ كانون الأول سنة ١٨١٨ وقتل معه كاتب سره وأمين خزائنه . ولما عاد ابراهيم باشا من نجد وثب مشارى أخو عبد الله ابن سعود على الدرعية واستولى عليها فأرسل محمد على قائداً اسمه حسين بك فظفر بمشارى وقبض عليه وأرسله الى مصر فمات فى الطريق . وهدم المصريون أسوار الدرعية ووضعوا فيها حامية وقائداً اسمه اسماعيل باشا ثم صرفوه وأرسلوا

محلّه خالد باشا ، وكان هذا عاتياً جباراً أخفش في ظلم النجديين ، فثاروا واعصوبوا حول تركي بن عبد الله الذي كان مخبأً في البصرة ، فبرز من مخبئه وتولى القيادة ، وذبح جميع العساكر المصرية التي كانت في الدرعية وجوارها ، ففر خالد باشا الى القصيم ، وأقام تركي ابن عبد الله بن سعود بالرياض وجعلها كرسى امارته ، وبنى بها قصرًا وجامعاً كبيراً وحكم أسوارها وكان الخبر وصل الى مصر عن ثورة نجد الجديدة فسيرت مصر جيشاً بقيادة حسين باشا ، فتسحب الوهابيون الى الورااء ودخلوا صحارى اليمامة ، فتعقبهم حسين باشا الى تلك الفيافي نخانه الادلاء فهلك أكثر عسكره من العطش ، ورجع هو بشرذمة من حاشيته . فلما رأى محمد على ماحل بالعسكر سئم قتال الوهابيين وترك تركي وشأنه فبقى هذا في الرياض أميراً . ونحو سنة ١٨٣٠ أرسل ابنه فيصل لفتح الاحساء ، فبينما هو سائر اليها ورد الخبر ان أحد أقاربهم مشارى بن عبد الرحمن بن حسن بن مشارى بن سعود طعن والده تركي وهو يصلى فقتله فعاد فيصل أدراجه فوجد مشارى متحصناً بالقصر فقاتله وشدد الحملة الى أن هجم على مشارى عبد الله الرشيد (جد أمراء حائل) فقتله . ولما بلغ الحكومة المصرية ما حدث بالرياض وجدت الغرة لأتحة ، فأرسلت خورشيد باشا بقوة أغارت على وادى حنيفه . وتقدمت نحو الرياض ، ففر فيصل مسرعاً وأقام المصريون مكانه خالداً أحد أحفاد أخ لعبد العزيز ابن سعود فلما فارق المصريون البلاد طرده عبد الله بن ثنيان فجاء الى جده . أما فيصل فبعد هذه الهزيمة حج البيت الحرام وجاء الى الشام يناث علماء الحنابلة وظهر منه انه أقلع عن الامارة وزهد في الحكم الا ان النجديين عادوا فانتدبوه للأمر فعاد الى الرياض وأراد أن يستقر بها واذا بخورشيد باشا دهم الرياض فقبض عليه (٢٥ رمضان ١٢٥٤) وأرسله الى مصر ، فوضعه في قلعة بقرب السويس ، وأقام خورشيد باشا مكان فيصل عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم ثنيان بن سعود .

وبعد أن بقي فيصل نحو خمس سنين في الاعتقال تسنى له الانسلال من القلعة ليلاً لأوائل امارة عباس باشا الأول ، فجاء الى نجد وثار مع الأهلالي ، وكان خورشيد أصبح لايقدر أن يعتمد على الحكومة الجديدة بمصر فجاء عن القصيم وعاد كل شيء الى فيصل وردت البضاغة الى أهلها وقبض على ابن ثنيان فثات في الحبس واستولى فيصل على الاحساء والقطيف ، وغزا بلاد عمان وكان يقود جيشه ولده عبد الله الا ان المنافسة وقعت بين هذا

و بين أخيه سعود على الامارة فضعف بسبب انقسامهما أمر الدولة الوهابية واتتهز هذه الفرصة آل الرشيد من شمر وأسسوا امارتهم بحائل ، وجاذبوا آل سعود الحبل وصاروا لهم أقراناً ، ثم غلبوا على آل سعود وانتزعوا منهم ملكهم وكادوا يعفون آثارهم ، ثم عاد آل سعود في هذه السنين الأخيرة فاستأنفوا امارتهم واستردوا جانباً من بلادهم ، فصارت الحرب بين آل سعود وآل رشيد سجالات الى أن أدال الله للسعوديين من الرشيديين أخيراً وعاد الأمر كما بدا .

فتاريخ الدولة السعودية الوهابية ينقسم الى ثلاثة أدوار : أولها منذ نشأة حكومة الدرعية الى أن احتلها المصريون سنة ١٨١٦ . الثاني منذ تجديد دولة آل سعود على يدي تركي وولده فيصل الى أيام ابن الرشيد الشمري سنة ١٨٩١ . الثالث منذ استرداد ابن سعود للرياض من يد ابن الرشيد سنة ١٩٠٢ .

ولتم الكلام على فيصل بن تركي فانه في امارته الثانية أحسن التدبير وأحسن العلاقات مع الدولة ومع مصر . وفي زمانه كانت سياحة بالغراف الى نجد سنة ١٨٦٢ . وكان مع بالغراف في تلك السياحة رجل من زحلة بلبنان صار فيما بعد كاهناً ثم مطراناً ثم بطريركاً على الروم الكاثوليك هو البطريرك بطرس الجريجيري . وقد روى يومئذ انهم دعوا ابن سعود لتأسيس علاقة مع بعض دول أوروبا . . . على ان هذه تساعده على الدولة العثمانية ، فأجابهم اني وان كنت عدواً لسلطان استانبول فلا أرضى أن أستعين عليه بالأجنبي . . . روى ذلك من سمعه من فم البطريرك الجريجيري . وكانت وفاة فيصل بن تركي في ١٣ رجب سنة ١٢٨٢ (٢ كانون الأول ١٨٦٥) .

خلفه ولده عبد الله للمرة الأولى فثار عليه اخوته وطرده فاستنصر الاتراك فاحتلوا الاحساء والقطيف ، واجتهد اخوته أن يسترجعوهما فلم يفلحوا وبقى سعود أخو عبد الله أميراً على الرياض منذ سنة ١٢٨٧ الى سنة ١٢٩١ (١٨٧١ الى ١٨٧٤) إذ مات وتمكن عبد الله من استرداد ملكه فاستؤنفت العداوة بينه وبين أولاد أخيه سعود ومنذ ١٨٨٣ صار الخطر الأعظم عليه من الأمير محمد بن رشيد أمير حائل . وسنة ١٨٨٤ وثب على عبد الله أولاد أخيه وخلعوه وتأمروا محمد بن سعود بن فيصل فلم يطل أمره وخلع ، وقام بالامارة عمه عبد الرحمن ابن فيصل فبقي الى عام ١٨٨٦ فطرده الأمير محمد بن رشيد وأعاد الأمير

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة ، فبقي في الامارة الى ١٨٨٨ إذ توفي وضم ابن رشيد الرياض الى امارته . فأخذ عبد الرحمن بن فيصل يقاتل لاسترجاعها فلم يفلح وسنة ١٨٩١ نصب الأمير محمد بن رشيد أميراً على الرياض محمداً ثالث أولاد فيصل بن تركي فلبث فيها الى أن مات ، فأقام عليها ابن رشيد عاملاً من قبله ثم ثار عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل سنة ١٩٠٢ وعاونه الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت ، وانتزع الرياض من يد آل الرشيد ، ونسبت بين الفريقين الحرب فاستعان آل الرشيد بالأتراك ولكن لم ترض الدولة أن تكسر ابن سعود مع محافظتها على ابن رشيد ورغبت في حفظ الموازنة .

فبقيت امارتا الرياض وحائل متناظرتين لانكاد الحرب بينهما تخمد وكان أكثر النزاع على بلاد القصيم التي منها مدينتا بريدة وعنيزة . ومما لاشك فيه أنه بعد وفاة محمد ابن رشيد ، أكبر أمير خرج من هذا البيت ، استجد ابن سعود قوته الماضية وصارت اماره حائل تحت خطر ابتلاعه اياها لولا صريح شمر لابن رشيد والقضاء العثمانية نظرها عليه . وما زال الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل يتقوى وينشط حتى وقعت الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية فاهتبل هذه الغرة واستولى على الاحساء والقطيف ونواحيهما . وكانت هذه من قبل متصرفية تابعة ولاية البصرة . فانتظرت الدولة ريثما انعقدت السلم ، وشرعت تفكر في أمر استرداد هذه البلاد ، ولو أدى الأمر الى استلال الحسام . وقبل الحرب العامة ببضعة أشهر تولى نظارة الحربية المرحوم أنور باشا ، وكان برنامج سياسته اتحاد المسلمين كما يعلم كل أحد ، فكان يكره سفك الدماء فيما بينهم لا سيما مع الأخطار المحدقة بجمعهم . ولم يكن عنده روح النفاسة لفتوة العرب كما كان عند غيره ، فكان يرسل بالاسلحة والعدد الحربية الى ابن رشيد والى الامام يحيى . وقد عدله بعض الأتراك على عمله هذا فقال له : اتسلح رجالاً قد يحيى يوم يستعملون فيه هذا السلاح في قتالنا . قال له أنور : أترى لو هاجت اليمن أو نجداً دولة أجنبية نقدر أن ندفعها نحن من هنا . قال : لا . قال أنور : اذا كنا لانقدر أن نحافظ عليهم أفلا نمكنهم على الأقل من المحافظة على أنفسهم . فاخرسه أنور بهذا الجواب . ثم استشارني مرة في أمر ابن سعود فأبدت له رأياً وهو أن تصافى الدولة ابن سعود وتجعله من أعضائها بدلا من أن يكون من أعدائها فوجدته متشبعا بهذا الرأي عازماً على مصالحة ابن سعود والادريسي ، وكان يريد انفاذ

الأستاذ المرحوم الشيخ صالح الشريف التونسي لمخاطبة الادريسي في الصلح على أن تبقى بيده المقاطعة التي كان فيها من بلاد عسير ، ثم أخر سفره الى عسير نشوب الحرب العامة . وقبل نشوب الحرب العامة بقليل اتفقت الدولة بسياسة أنور رجه الله مع الامير عبد العزيز السعودى على اقطاعه الاحساء والقطيف وسائر لواء نجد ، والاعتراف بامارته على ما كان في يده من قبل وما دخل فيها من بعد ، على شرط أن يعترف هو بسيادة الحضرة السلطانية وأحسن السلطان اليه برتبة المشيرية السامية . ورغب الى على منيف بك مستشار الداخلية يومئذ في تحرير كتاب بالعربية الى الأمير عبد العزيز المشار اليه ، توضح فيه الدولة خطة سياستها في نجد و بلاد العرب ، فخرته له فكل ما أوصوه به هو اقامة العدل ، وتأمين المسالك ، ورفع المنازعات من بين المسلمين بدون تمييز بعض على بعض ، وان الدولة تمدد بكل ما يلتمسه منها لأجل تحقيق هذه المقاصد . ولما اشتعلت الحرب العامة راسلت الدولة الامير ابن سعود في خوض غمراتها الى جانبها ، فلم يجب طلبها لا كرهاً بها بل خوفاً على بلاده من الانكليز لا سيما بعد أن رأى تقدمهم في العراق . على أنه من الجهة الثانية لم يأت عملاً تقدر أن تعاتبه الدولة عليه بالرغم من مساعي الانكليز لديه في ذلك ، فكانت خطته في هذه الحرب التزام الحياد التام ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها جرت وقائع بينه وبين ملك الحجاز لا نرى حاجة لذكرها نظراً لحدائث عهدهما ، وكنا نود أن تكون كلمة أمراء العرب مجموعة لتمكين هيبة هذه الأمة من قلوب أعدائها ، وانقاذها من الورطة التي وقعت فيها بعد الحرب العامة . . . هذا وان ابن سعود استولى على حائل وأزال امارة الرشيد وتلقب الأمير عبد العزيز بسلطان نجد ، وهو في الواقع ممن تنعقد بهم آمال الأمة العربية ، فعسى أنه لا يخيبها وأن يوفق الى تحقيقها قبل أن تمتد الأيدي الغربية الى نفس الجزيرة ويتسع الخرق على الراقع .

وحيث اننا سردنا هنا تاريخ آل سعود فلا بأس بأن نردفه بملخص أخبار آل رشيد حتى يكون تاريخ نجد الحديث كاملاً فنقول :

عبد الله بن علي الرشيد من بني جعفر من قبيلة شمر الكبرى استولى سنة ١٨٣٥ على مدينة حائل ، وقتل شيخها صالحاً من بني علي الذي كان عاملاً على جبل شمر من قبل آل سعود ، ولما كانت سبقت لعبد الله المذكور خدمة عظيمة لفصيل بن تركي من

آل سعود بقتله مشارى ابن عمهم الذى قتل تركى غيلة ونزا على ملكهم ، كافأه فيصل باقراره على اماره حائل ، فشرع عبد الله وأخوه عبيد يوطدان دعائم امارتهما حتى أطاعتهما جميع شمر . ولما احتل خورشيد باشا المصرى القصيم طرد عبد الله الرشيد من حائل فبقى مطروداً الى سنة ١٨٤١ إذ برح المصريون تلك الأرض فرجع عبد الله الى امارته بحائل ، ثم توفى عبد الله خلفه ولده طلال ، فاستولى هذا على الجوف ، وتيماء ، وخيبر ، وجانب من القصيم ، وأحسن الادارة وأمن الطرق وكف غارات الاعراب ، وفي أيامه تراخت علائق الطاعة منه ومن قومه شمر لابن سعود . وتوفى طلال فى صفر عام ١٢٨٣ وقيل فى ١٧ ذى القعدة عام ١٢٨٤ (١١ آذار ١٨٦٨) قيل منتحراً .

وخلف طلالاً أخوه متعب فزأ على هذا ولدا أخيه بندر وبدر فقتلاه فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٨٥ (٢٣ تموز ١٨٦٨) وقيل بل فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٥ (٤ كانون الثانى ١٨٦٩) .

وفى ٢٠ رمضان عام ١٢٨٦ ثار محمد بن عبد الله الرشيد على بندر ابن أخيه فقتله وألحق به اخوته وأبناء اخوته كافة ، وانفرد بالامارة وهو واسطة عقد آل رشيد ، وامتد حكمه الى أطراف العراق والى مشارف الشام ، والى نواحي المدينة ، والى اليمامة وما يلي اليمن وغلب على نجد كلها ، وأدخل ابن سعود فى طاعته بعد ان كان الرشيد تبعاً لآل سعود . وكل هذا التبسط الذى تبسطه فى الملك كان بحزمه وعزمه وسداد رأيه وبعد همته وحسن سياسته ، وكان صارماً فى الحكومة لكنه كان عادلاً ، فأمنت المسالك فى أيامه بما لم يسبق له مثيل وكانت الأعراب تخشى مجرد ذكر اسمه فأصبح هو سلطان البرية . ومن جملة تدبيره انه تقرب جداً من رضى السلطان عبد الحميد ، وكان من أشد الناس تعلقاً بطاعته ، وكل سنة كان يقدم الى السلطان عدداً كبيراً من الجياد العرب فخطى عند السلطان حظوة لم تكن لأحد من أمراء العرب ، وعضدته الدولة العلية عضداً تاماً اتسع به ملكه وقويت شوكته . وفى أيام محمد الرشيد زار جبل شمر ونجداً عدة من سياح الافرنجة مثل البارون نولده Nolde وبلونت Blunt وهوبر Huber واوتنغ Enting وغيرهم . ومات محمد فى كانون الأول عام ١٨٩٧ ولم يعقب ولداً .

خلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب وكان سفاكاً للدماء ساء الادارة فووقت الفتنة

بينه وبين جيرانه ، وتألب عليه ابن صباح صاحب الكويت ، وابن سعود ، وأمير المنتفق ، وقتلوه قتالاً شديداً . وسنة ١٩٠٢ تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود من استرجاع الرياض وما زال عبد العزيز الرشيد في قتال مع أعدائه حتى قتل في ١٤ صفر عام ١٣٢٤ (١٣ نيسان ١٩٠٦) .

خلفه ولده متعب ولم يطل أمره أكثر من سنة . وذلك ان سلطان بن جود بن عبيد بن علي الرشيد كان متظالاً الى الامارة فذهب الى الاستانة يتقرب الى الدولة ، فأرسل الأمير متعب ينجبر الدولة بمقاصد سلطان هذا ، فأعرضت عن سماع كلامه فقفل الى الشام ، وبينما هو بدمشق التمس الأمير متعب من الدولة اعتقال سلطان ، فصدر الأمر لناظم باشا واليها يومئذ بالقبض عليه ، فوجد من أنذر سلطاناً في الحال ففر مغدماً السير الى جبل الدروز . وأول قرية وصل اليها الصورة الكبرى قرية ابن ظهر الدين من مشايخ الدروز وهي من وادي اللوى على مسافة ٧ ساعات من دمشق . فاسرع ناظم باشا بارسال خيل في أثر سلطان فلم تدركه الا في الصورة في منزل ابن ظهر الدين ، فلما عرف هذا انه هو ابن رشيد طرد خيالة الدولة ، واجتمع الدروز حول سلطان ، وساروا به الى قرية شهباء ، فنزل عند شيخها أنى طلال العامري ومن هناك ذهبوا الى المقرن القبلي عند صاحبنا مصطفى باشا الأطرش شيخ ذلك المقرن ، فاقام يضيافة مصطفى باشا نحو شهر ، ثم رغب في أن يعود الى نجد فزوده بما يلزمه وأرسل معه رفاقاً برأسهم الشيخ العيسى رتعان بن ماضي حتى وصلوا به الى نجد . وبعد وصوله بمدة تنزى على متعب فقتله في ذي القعدة سنة ١٣٢٤ وقيل في شعبان من تلك السنة وصار أميراً محله لكنه لم يطل أمره ، وبعد أشهر فلائل طرد من الامارة وقام مقامه أخوه سعود بن جود . ثم ثار على هذا جود بن سبهان وجلس مكانه ، وبعد ذلك جاء بنو سبهان بسعود بن عبد العزيز الذي كان قاصراً محبباً في المدينة المنورة ، فلما بلغ الرشيد أجلسوه على كرسى الامارة سنة ١٣٢٦ ، وبقى أميراً الى الحرب العامة فجعلت الدولة عنده البكباشى عزيز بك الكردي معتمداً ، ثم أرسلت المرحوم الشيخ صالح التونسي بمأمورية ، ثم جعلت عبد الحميد بك بن ابراهيم باشا سعيد المصرى ، فبقى أكثر سنى الحرب في حائل ، يجتهد في منع الدسائس الأجنبية من التأثير في ابن رشيد ، لاسيما ان السبهان كانوا باطناً ممالئين للانكليز ، فبقى سعود بالرغم من مساعي اخواله السبهان معتصماً بحبل الدولة وقاتل برجاله جماعة ملك الحجاز الحسين بن علي حليف دول الحلفاء . وما زال كذلك حتى دارت الدائرة على الدولة ففقد النصير وتنزى عليه اخواله السبهان وقتلوه منذ أكثر من عشر سنوات وضم ابن سعود حائل وتوابعها الى ملكه واعتقل كل من بقى من آل رشيد وطوى بساطهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

الترك أيضا

الترك

الترك^(١) من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية معدودون من الشعوب التورانية . وهم متشابهون في الخلقة مع الصين والتبت واليابان . ولاعبرة بما تجده من سحناء أترك الاستانة والأناضول فان هؤلاء قد تولدوا وتناسلوا في غربى آسية من قرون متطاولة واختلطوا بالامم الاخرى كالفوقازيين والمكدونيين والارناؤوط والروم والبلغار والاكراذ والعرب وبقايا أهالى الاناضول القدماء وتولدت منهم أمة لاتشبه المغول ولا الصين . ولكن الترك الاناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الامم الغربية يشبهون كثيراً أترك بخارى وخيوه وكاشغر وهم ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين والتبت والمغول

كان الترك من على عنق الدهر في جبل الذهب بين سيبيريا والصين . ثم أخذوا ينتشرون في الاقطار فهاجروا الى شمالي سيحون وجيحون والى الشرق الشمالى من بحر خوارزم والى الشمال الغربى من الصين والخطا . فكان منهم قسم فى الغرب وهم المجر والفينيون - أهل فنلندا على البلطيك - والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم الاوراليون . وكان منهم قسم فى الشرق وهم الذين يقال لهم المانشو والتونغوز . وقسم فى الجنوب الشرقى وهم المغول

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الامة الفارسية وقيل ان هيرودتس أبا المؤرخين أشار اليهم تحت اسم تاركيتاوس

وبانى أول دولةٍ منهم أوغوز خان بن قره خان . وكان له ستة أولاد وهم كون خان وآى خان وبلديز خان وكول خان وطاغ خان ودكرخان . فن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد فصار لاوغوز خان ٢٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية هكذا قال نسابوهم . ومن البداية انقسم الترك الى قسمين . الساكنين فى شرق تركستان وهم الاويغور والساكنين فى الغرب منها وهم الترك أو التركمان . وكان الاويغور بادىء ذى بدء أرقى وأرق وأكثر مدنية . وكان لسانهم لسان

الترك الادبى . وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصروا بعضهم وعلموهم خطأ مأخوذاً من السريانية . وموجود بهذا الخط كتب تركية الى اليوم .
وفى سنة ٨٥ للهجرة غزا قتيبة الباهلى بالمسلمين العرب بلاد الترك وافتتح بخارى ومرو وخوارزم وسمرقند وغيرها واجتمع عليه ملك السغد وملك الشاش وغيرهما فهزمهم وأئخن فى الترك فصالحوه على أموال يؤدونها اليه وكان فى صلحه بيوت الأصنام والنيران فأخرجت الأصنام فسأبت حليتها وكانوا يقولون ان هناك أصناماً من استخف بها هلك فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول اسلامهم

وفى خلافة هشام بن عبدالمك تولى خالد بن عبدالله القسرى العراق وأخوه أسد بن عبدالله خراسان وغزا أسد بلاد الترك ومنها جبال نمرود فصالحه نمرود وأسلم ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبدالله السلمى فدعا أهل ما وراء النهر الى الاسلام وطرح الجزية عن الذين أسلموا فسارعوا الى الاسلام . ثم لما صارت الخلافة الى بنى العباس وتولى المأمون خراسان وذلك قبل خلافته أخذ يغزو السغد واشروسنة وفرغانة ويقول البلاذرى فى « فتوح البلدان » انه كان مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخل فى الاسلام كاوس ملك اشروسنة بعد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالى تلك البلدان . وكان المأمون رحمه الله بينا هو يغزو الترك من جهة يدعوهم الى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذرى : « كان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اهـ

ولا يخفى ان البلاذرى كان قريب العهد من هذه الحوادث لأن الخليفة المعتصم مات

سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذرى مات سنة ٢٧٩

وسنة ٣٥٠ أسلم سالور خان سلطان التركان سلاطة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم

معه قومه وجاء إبنه فبنى جوامع وفتح عمه بغراخان كاشغر وأخذ بخارى من السامانية وجاء بعده أحمد خان بن أبي نصر فأكمل اسلام من لم يهتد من الأتراك وازداد تردد الترك الى بغداد وامتلاّت منهم العراق وارضروم واذر بيجان ووصلوا الى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة واستبدوا بأموورها وصاروا يكتبون بالعربي وبعضهم اتخذ اللسان الفارسي ولم يهتم أحد منهم بلسان الاويغور التركي القديم . ولم يجعلوا التركي لساناً رسمياً الا في زمان بنى سلجوقه في الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان في زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق لاسيما في أيام محمد الفاتح وسليم وسليمان . وفكر سليم في جعل العربي لسان الدولة الرسمي فلم يطيعوه اكنه بقى لسان الدين والعلم . وأما لسان الاويغور فقد كان في زمن جنكيز خان ترقى كثيراً لكنه عراه بعد ذلك التوقف . وهو الذي يعرفه بجغطاي . ثم بتوالى الزمن تباعد التركي الغربي العثماني عن التركي الجغطائي كثيراً . ثم هناك تركي تتر القريم وهو متوسط بين الفريقين

وعلماء اللسان يجعلون التركي خمسة أقسام : الأول الاويغوري أو الجغطاي . الثاني البتاري . الثالث القيرقيز . الرابع الياقوتي . الخامس العثماني . وليس للقيرقيز والياقوت أدبيات في ألسنتهم . والقيرقيز مسلمون لكن الياقوت لايزالون وثنيين . وقيل ان الياقوتي هو أصل التركي والباقي فروع عنه . ويقول المدققون : ان التركي يشبه في الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة التورانية وفي الدرجة الثانية لسان المغول وفي الدرجة الثالثة لسان المجر والفنلانديين

هذا والفرقة الانقرية من الاتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم في مكاتب تركيا مذهباً جديداً في التاريخ وهو ان أصل الترك الذين في الاناضول وغربي آسية هم من الحثيين ؟ وان هذه البلدان هي لهم من اربعة آلاف سنة . وهم في هذا الاكتشاف الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من أصحاب النظريات الجديدة في اوروبا ولكن شيئاً من هذا لم يثبت . وأكثر مؤرخي الاور بين يقولون ان أصل الحثيين من جهة الدم لم يتحقق بعد . وغاية ما تقرر تاريخاً انهم أخذوا مدينتهم عن السومريين والاكاديين أهل بابل وقلدوهم في الكتابة والديانة والشعائر الدينية ومزجوها كلها بمدنيتههم وديانتهم . وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين ان الحثيين هم كانوا الواسطة بين المدينة

السامية والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثيين في اول عهده ولا تزال العلماء لم تحل
 الكتابات الباقية عنهم ولا يعلمون هل لغة الحثيين هي هندية اوربية ام قوقاسية ؟ وغاية
 ما لاحظوا ان فيها دخيلاً من لغات أخرى . أما الآ كاديون من أهل بابل فانهم ساميون
 بلا نزاع ولغتهم سامية والارجح انهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين . وأما
 السومريون فلا يعرف أصلهم وقصارى ما ترجح من أمرهم انهم غير ساميين وانه وجدت
 مدينة معاصرة لمدينتهم في جهات بحر الخزر .

ولا يعلم أحد ما فائدة اترك انقره من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لا تستند على
 قواعد متينة . وهل اذا كان ترك الاناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من الف
 سنة فقط يسقط حقهم بالاناضول ولا بد من ان يثبتوا ان هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من
 السنين حتى يستحقوها ؟ كل هذا من جلة الغرائب التي ولدت مع الانقلاب الانقرى

الفصل السادس

في

العصبية الجنسية في الهند

الهند بلاد الغرائب والمتناقضات ، تشتمل على وحدةٍ جغرافية طبيعية ، من حيث انها لم يتألف فيها شيءٌ من الوحدة السياسية في عصرٍ من خاليات عصورها ، اللهم الا ما حصل لها من صبغة الوحدة حديثاً على يد حكم «الراجوات» في العهد البريطاني . ولما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقسام المتحدرة من الأروم المتنازعة والعروق المتقاطعة في كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقوَ على الوقوف في وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دوراً بعد دور . وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد المتباينون عرقاً وأرومة لم يختلطوا بعضاً ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على مالا نهاية له من الفوارق دماً ولغة وتهذيباً ودينياً . فالهند ، وهي تستوى بمساحتها وساكنها مع أوروبا أو الصين ، لم يتألف فيها كما في هذه الأخيرة من وحدةٍ جنسيةٍ عنصريةٍ عامة ذات مستقر وصاب ، ولا كما في الأولى من وحدات وطنية تامة الصورة ، مستقلة متميزة ، بل قد غبر عليها ما غبر من الدهر . وهي مبعثرة الحال مشتتة الشأن لاتعرف اطمئنانا ولا سكوناً ، وجل ما استطاعت ان تملك هو شيءٌ من المزرع نحو الوحدة التي لم تدركها قط .

يشتمل تاريخ الهند على ثلاثة فتوح كبيرة : الفتح الآري وأوله حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . ، والفتح الاسلامي من سنة ١٠٠٠ ب . م . الى سنة ١٧٠٠ ب . م . ، والفتح البريطاني أوائله سنة ١٧٠٥ ب . م . ثم ما انفك يمتد ويتسع ، وينتشر ويرسخ مدة قرن تال حتى طبق الهند بأسرها ولم يزل قائماً الى اليوم .

أما الآريون فشعب صبح البشرة ، من اليقين انهم على الجلة يتخدرون من الأصل الذي تتحدر منه نحن . نزحوا من أواسط آسية مجتازين المعابر الشمالية الغربية ، وهي

المعابر الوحيدة المفضية الى الهند من تلك الجهة وليس هناك من سواها ، لأن جبال جملايا الشاخطة العالية الذرى ، هي فاصل للبلاد عما يليها . ولما بلغ الآريون الهند على طريق تلك المعابر فاتحين محتاحين ، أخذوا يتغلبون على أهل البلاد الأصليين الدرايدين السمر البشرية ، ويخضعونهم ، و يقيمونهم في البلاد سادة حكاما . غير أن هذا الفتح كان فاشيا رقيق الظل من حيث كان غير مطبق للبلاد . فاستقر غالب الآريين في الشمال الغربى ، وأما سائرهم وهم أكثر اقداما وأركب للاهوال فقد انتشروا في سائر شبه الجزيرة بعض الانتشار . واعلم فوق هذا أن قد بقى حتى في الشمال كور جبلية كبيرة وآجام عظيمة في أيدي أهل البلاد الأصليين ، بينما الذين توغلوا من الآريين في جنوب البلاد كانوا نزرأ . وعلى الجبل فقد كان الآريون في غالب الهند الطبقة القليلة ولكن كانوا أصحاب الغلب والحكم على سائر شعوب البلاد وان كانت هذه أكثر عدداً . واذ خشي هؤلاء الآريون لقتلهم أن يبتلعهم الدرايديون لكثرتهم ، فقد ابتغوا احتفاظ تفوقهم السياسى و صروحة تحدرهم الجنسى بإنشاء نظام الطوائف أو الطبقات ، النظام الذى لم يبرح منذ ذلك العهد حتى اليوم قاعدة الحياة الاجتماعية في الهند . فانقسم المجتمع الى ثلاث طوائف : البراهمة أو الكهنة ، والمحاربين ، والسفلة أو العملة المعروفين «بالسدراز» واحتاز الآريون الطبقتين الأوليين . وأما الطبقة الثالثة ، السدراز فقد قصرت على الدرايدين الخاضعين المحكومين . وظلت هذه الطوائف والطبقات بعيدة بعضها من بعض بفوارق عديدة شديدة ، ثم هذه الفوارق ازدادت تأييداً وتمكناً بسلسلة من النواهي والمحرمات الدينية . فغدا التزاوج والاشتراك في المآكل والمشرب حتى في الجوار ، وصار اقتراب شخص من آخر بين أهل الطوائف المختلفة والطبقات المتباينة يعد نجاسة لا تزول عن صاحبها في بعض الأحيان ولو كفر عنها أشد التكفير . وكانت المعصية في خرق هذه النواهي والمحرمات تقتضى انزال العقاب الهائل بالمرتكب فينبذ نبدأ من مرتبته الطائفية ويدنى ليس الى مرتبة أدنى منها من المراتب المتسلسلة النظام ، بل الى طبقة أدنى من السدراز ، فيعرف اذ ذاك بالعاصى المنبوذ المجرد من المرتبة الطائفية ، ثم يكره على القيام بأعمال الخدمة وليس له من الحقوق حتى ولا مائتلك التى عليها السدراز . فنجم عن ذلك ، ان الشريعة الدينية ذات الطقوس ، لا الشريعة المدنية ، هي التى سادت المجتمع الهندى سيادة تامة ، فبات الدين

الهندي الوليد (أعنى البرهمية) صبغته اجتماعية لا أدبية أخلاقية .

فنتجت عن جميع هذه الأمور النتائج الكبرى . أما في أفق النسل فان نظام الطوائف لم يكن له كبير شأن يحمل على احتفاظ الدم واللون والسلالة ، اذ أن البرهمنين أنفسهم أخذوا على التوالى يختلطون اختلاطاً دموياً ، قليلاً أو كثيراً ، بالدرافيديين^(١) وذلك على شدة النواهي والمحرمات . وأما في أفق المجتمع فقد ظل نظام الطوائف يعمل عمله ويسير سيراً غريباً ، فدرجت الطوائف الثلاث الأولى تنقسم ثم تنقسم حتى أصبحت الطبقات الثانوية والتي ما دونها على التتابع مئات وألوفاً ، ففقدت أو كادت تفقد ما كانت عليه في أول العهد من العزة القومية . ثم ان جميع هذه الطوائف الثانوية أخذت تحتفظ بمراتبها وحقوق مراتبها تشبهاً بالطوائف الثلاث الكبرى ومحاكاة لها ، فنتج عن ذلك أن المجتمع الهندي قد تناثر تناثراً ، وتمزقت وحداته تمزقاً بات معه التعاون بل التفاهم بين أهل البلاد ضرباً من المستحيل . فعدت على التاريخ الهندي من جراء ذلك عادية لاتزال حتى اليوم . قال مؤرخ ثقة من البريطانيين : - « كان عاقبة التنابد والتقاطع الدائم والاعتزال الاجتماعى المستمر ، أن غدا الشعب بأجمعه مؤلفاً من عناصر متناكرة كل التناكر ، ولم يقف الأمر عند حد غنى وفقير ، وأمير وصعلوك ، ومدينة ورستاق ، وخدام ومخدوم ، وسيد ومسود ، بل بلغ أكثر من هذا ، اذ بات سكان كل مقاطعة من المقاطعات أو مدينة من المدن مجموعاً من مختلف الجنسيات - وغالبا من مختلف الأنواع الانسانية - لا يتزاوجون ولا يشترك بعضهم مع بعض في مأكل ولا في مشرب وفي الخطير من شؤونهم الحيوية تحكم فيهم لجان من قومهم تدبر لهم أمورهم وتقيم أحكامهم . وليس من المغالاة في شئ أن نقول ان أهل الهند قد غدوا بسبب نظام الطوائف منقسمين الى ما فوق الألفى طائفة ليس بين بعضها مع بعض من الألفة أكثر مما بين ضرب البهائم المتآلفة في حدائق الحيوانات . »

(١) يقول بعض المؤرخين ان هذا الاختلاط في الدم والانساب لم يعتم أن ظهر بعيد الفتح الآرى ، والرأى البنى عليه هذا القول هو أن الآرين الفاتحين لم يكن فيهم ما يكفيهم من النساء من بنات جنسهم وهم لم يزالوا خارج البلاد الشمالية الغربية ، لذا طفقوا يتخذون من النساء الدرافيديات أزواجا وحظايا ، ثم يبتون حقهم في تبنينهم أبناءهم غير الشرعيين ، بحيث جعلت ذراريمهم تنشأ طائفة واحدة مؤلفة من الاقحاح والاختلاط على التحام فى العرق وامتزاج فى الدم . ثم منعت زيادة الاختلاط ولكن من بعد أن ذهبت بمحوة الأصول والانساب الآرية

لذلك لاعجب اذا غدت الهند ، وقد تمزق مجتمعا هذا المتمزق وتناثرت وحدتها السياسية الى امارات عديدة ، لاستطيع الوقوف في وجه أول فاتح عظيم يكرّ عليها فتسقط بين يديه متضععةً متلاشية ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان هذا الفاتح هو الاسلام . ان المسلمين أخذوا يكرون على الهند من بعد ماتم لهم فتح فارس ، كرات لم يكن لها من الشأن والخطورة في أول الأمر أ كثر من الذي يكون للغارات التي تُشن على العدو عند الحدود دون أن يكون لها أثر باق . على أن الفتح الاسلامي الخطير قد قام به محمود الغزني الامير الافغانى (١) سنة ١٠٠١ ب . م . ، فسار محمود في الطريق التي سار فيها من قبله الآريون منذ أجيال وحقب متطاولة ، ودوخ بلاد الهند الشمالية الغربية المعروفة بالبنجاب حيث رسخت قدم الاسلام رسوخاً ثم طفق القواد المسامون يوالون توسيع الفتح أ كثر فأ كثر من جهة الشرق حتى غدا غالب الهند الشمالية في قبضة أيدي المسامين . وقد كان هؤلاء الفاتحين المسامين عاملان قويان ساعدهم على هذا الفتح الذي قاموا به ، أولاً أنهم كانوا متحدين اتحاداً مشوباً بالتعصب الديني لقتال عبدة الأوثان ، ثانياً أنهم استطاعوا أن يحملوا الكثير من أهالى البلاد على الديانة بالاسلام . فان الاسلام المعطل للبرهمية الجاعل جميع المؤمنين اخوة قد فاز حقاً في هداية الناس اليه فدخلوا فيه أفواجاً من أهل الطبقات الحقيرة والمنبوذة ، الذين كانوا بعد ذلك يرتقون الى مستوى الفاتحين . وهذا هو السبب الكبير في أن المسامين الذين في الهند اليوم ليربون على السبعين مليوناً . بحيث ينفون على خمس مجموع السكان . وهم يتحدرون ليس من الفاتحين الافغان والترك والعرب والفرس فحسب بل أيضاً من ملايين الهنود الذين دانوا بالاسلام بعد الفتح .

وقد انقضت أجيال عديدة وحكم المسامين في الهند مقصور على الشمالى من البلاد . ففي أوائل القرن السادس عشر زحف القائد بابر التركي المغولى الى الهند وأنشأ المملكة المغولية ، ثم دوّخ بابر ثم خلفاؤه من بعده جنوبى البلاد ووحّدوا الهند توحيداً سياسياً غير مسبوق المثل . ولكن هذا التدويخ كان فاشياً كالفتح الآرى من قبل ، ثم إذ شعر البراهمة بانهم مهددون بالخراب والانذار ، شرعوا يبشرون بدعوة لليقظة الهندية فآل الأمر الى تضعف سلطان السلالة المغولية ، وفي أوائل القرن الثامن عشر انقرضت المملكة المغولية .

(١) اقرأ تعليقا كبيرا في تاريخ الممالك الاسلامية الهندية في آخر هذا الجزء - العرب

عند هذه الفوضى الشاملة ظهرت بريطانيا الى عالم السلطان صاحبة الحول والطول . ولم تكن فى بدء الأمر هى وحدها فى حلبة الميدان بل كانت فى عداد الدول الاوروية - من البورتوغال وهولنده وفرنسة - صاحبات الطائرات الصغيرة المنتشرة على السواحل الهندية وهذه الدول الاوروية لم تكن لتنوى القيام بفتح الهند إذ ذاك مادامت الدولة المغولية فى عالم الكيان . لهذا السبب ما كانت علاقة بريطانيا بالهند فى أول العهد سوى مجازفة تجارية عُرفت « بشركة الهند الشرقية » . ولكن لما استفحلت الفوضى فى البلاد اضطر الأورويون للحال ، الى ان تكون فى أيديهم سلطة محلية يستطيعون بها حماية مصالحهم ومصانعهم ، ثم من بعد ذلك جعلوا يوسعون مطامحهم ويجترئون على وضع المشروعات التى هى أبعد مرمى وأكبر غرضاً ، وانما كان وهن الحكام الوطنيين هو الباعث لهم على هذا الأمر ، وتضعض سلطان هؤلاء وفقدانهم الحول والقوة هيئاً لهم الأسباب فأخذت بريطانيا على التوالى تقهر مزاجاتها الاوروية حتى استوسق لها الأمر وتم لها الغلب السياسى ، فوطدت قدمها وأعزت سيطرتها ، وكان لابد لها ، كلما نشب اختلال وغلى مرجل اضطراب ، من أن تبسط سيطرتها وتوسع سلطانها ، وقد كانت تقوم بهذا فى أول الأمر على الهونى والتؤدة إذ ظلت شركة الهند الشرقية عهداً طويلاً ساعيةً السعى الأكبر وراء غاية تجارية . مدارها جنى الأرباح واكتساب الأموال فكانت فى هذا السبيل أبذل جهداً منها فى سبيل احراز السيطرة والسلطة . بيد انها شرعت تتحول من بعد ذلك الى حكومة تامة الشرط ذات سياسة طماحة ترمى الى الفتح والاستلحاق ، فكان من شأن هذا التحول والانتقال ان أيقظ الكثير من أهل الهند وأحى أنوفهم اجماءً كان السبب فى انفجار بركان الثورة سنة ١٨٥٧ . ثم أخذت بريطانيا هذه الثورة وألغت شركة الهند الشرقية وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطانى ، ونودى بعد ذلك بالملكة فكتوريا امبراطورة الهند . فلم ينجم عن جميع هذه التطورات تقوية السلطة السياسية البريطانية فقط ، بل زيادة تغلغل النفوذ الغربى على كل نوع وصفة ، فأنشئت الطرق والمسالك الحديدية والأقنية ، وربطت أجزاء الهند بعضها ببعض فتدانت أطراف البلاد ، وقربت الأبعاد ، وسهل افتتاح ترعة السويس التواصل مع أوروبا ، من حيث بات التعليم والتهديب على الأصول الحديثة وسيلة لانتشار الآراء والمبادئ الغربية .

ثم بعد هذا الانقلاب الهندي السريع والتطور الحثيث جاء حكم «الراجا» البريطاني فطبق البلاد قاطبة، وهو ضربٌ من الأنظمة الحكومية فريد النوع في جميع العالم، إذ هو حكومة يقوم بأعبائها بضع مئات من الخبراء المدبرين أهل الدربة والحنكة، يعضدهم جيش صغير مدرب في حكم تلك المئات من الملايين المختلفة، على أن حكومة «الراجوات» هذه هي إرثية مطلقة، تنهج في سلطانها النهج الذي تستلحه وتراه ملائماً لها وموافقاً، غير متخذة من التبعية إزاء الشعب أكثر من تلك التي كان يتخذها الحكام الوطنيون المستبدون من قبل. فهذه الحكومة المنشأة على هذا الطراز المحدث قد حكمت حكماً حسناً صحيحاً، ووربما كانت حكومة الهند هذه من حيث اعتبار الأمانة والكفاية والشعور بواجب الوظيفة خير مثال من أمثلة الحكومات «المستبدة العادلة» التي عرفها العالم، فقد نشرت هذه الحكومة في ربوع الهند الراحة والأمن مكينين، وترفعت عن المحاباة والغرض وأقامت قسطاً العدل بين جميع الأقوام والطوائف والطبقات المتباينة في الاعتقاد المختلفة في المزاج، وفوق جميع هذا جعلت للهند كينونة سياسية حقيقية لم تعرفها الهند في جميع ماضي أدوارها. فتوحدت ممالك الهند توحداً وثيقاً للمرة الأولى في جميع تاريخها في ظل حكم واحد - هو حكم «السلام البريطاني»

على أن حسنات الحكم البريطاني هي التي بذرت بذور الاضطراب التي قد نمت نمواً هائلاً، فوفر الساكن وعمر النسل ونشأت طوائف الناس من أهل البلاد تعيش متسائلة متحابّة، متعارفة بعد التقاطع والتدابير تعارفاً لم تذوق طعمه فيما غير من الدهر، ناسية ما كان بين بعضها والبعض الآخر من الاحن والشحناء، قوامه على شؤونها، غير غافلة عن النقائص الاوروية. وفوق جميع هذا صارت الهند إلفاً شديداً للآراء الغربية كالحكومة الذاتية والحرية الجنسية. وفي الهند، شأن سائر أقطار الشرق، كان لا بد حتماً من نشوء حركة المقاومة للحكم الغربي والسخط عليه سخطاً متفاوت الدرجات، من المطالب المعتدلة للحكم الذاتي، الى مطالب الغلو الناحية منحي الاستقلال التام.

دامت الحال هكذا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والمقاومة السياسية المنظمة لحكم «الراجوات» البريطاني غير معروفة بته سوى ما كان يقوم به بعض الأفراد القلائل والجماعات النزرة، من رفع بعض الاحتجاجات المنخفضة الصوت دون أن تلقى صدى

مرجعاً من الشعب . إذ ان معظم سواد الهنود ، الدائبين أبداً فى طلب الرزق ابتغاء الألقوات مما لا يزيد على الكفاف والمؤونة ، قد ارتاحوا الى هذه الحكومة غير الجائرة ولا المستبدة ، والتي هى أعظم كفاية وأقوم على شؤون الرعية من سابقتها البائدة . وعلى الجملة ان ظهور العصبية الجنسية الهندية لم يكن له من أثر قط . حتى ولا مما يدل عليه ، حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

على ان أول أمارة من أمارات المقاومة المنظمة ظهرت فى تأليف « المؤتمر الهندى الوطنى » سنة ١٨٨٥^(١) ومجرد اسم هذا المؤتمر يدل على أن « الراجا » البريطانى المطبق حكمه الهند انما كان هو نفسه الداعى لاستيقاظ العناصر الهندية المختلفة وتنبهها ، ثم تطلعها نحو غايات معينة ومطامح وطنية معروفة . ولكن هذا المؤتمر ما كان ليمثل رأى العام الهندى نميلاً صحيحاً بالمعنى المعروف ، اذ لم يشتمل الا على جانب قليل من الشعب كأرباب الصناعات العالية والصحافيين والساسة ، ممن تم لهم الوقوف الكامل على الآراء الغربية والمناهج الأوروبية ، لأن أساليب التهذيب الغربية التى أتى بها البريطانيون الى البلاد قد أثرت أطيب الثمار ، فنشأت فى الهند طبقة متهذبة راقية شديدة التضلع من لغة الانكليزية ، بالغة الارتواء من الروح الغربية .

ولما كان أهل هذه الطبقة الراقية الجديدة على اعتقاد حسن فى الأعمال والغايات الغربية ، وكانوا يقدرون ما لذلك من الشأن والقيمة حق قدره لم يكن لهم مندوحة بطبيعة الحال عن السخط والتغضب على الكثير من صور الحياة الهندية وشؤونها . فلذلك لم يكن الجهد الذى بذله أهل هذه الطبقة أول عهد اليقظة موجهاً نحو غاية سياسية بمقدار ما كان موجهاً نحو غاية الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، كقضية منع الزواج الباكر ، وتزوج الأراامل ، ونشر التعليم والتهذيب . غير انه على توالى الأيام طفت قضايا الاصلاح السياسى تتكاثر وتشغل مكاناً خطيراً . ولما كان أرباب الفكر من الهنود هم من ذوى الاطلاع الواسع على التاريخ الانكليزى والفلسفة السياسية ، أخذ شعورهم يزداد بما ينقص بلادهم من الحكومة الذاتية ، وشرعوا يطمحون الى منح الهند يركات الحرية التى يعظمها حكام

(١) بلغنا مؤخراً من أحد أعضاء هذا المؤتمر الوطنى من البراهمة ان عدد أعضاء هذا المؤتمر ستة آلاف

(ش)

شخص يمثلون جميع الهند وان من هؤلاء ألفين م من المسلمين

البلاد الانكليز ويعلمون قدرها وينزلونها المنزلة الفريدة . فنشأت في الهند للحال الصحف الوطنية الصادقة العزم والغيرة تنهج منهاج الارتقاء والتقدم ، مبشرة بانجيل الوطنية الجديد ، حاملة جميع أرباب الفكر على الاتحاد عصبية واحدة ، عصبية الايقاظ والتنبيه ، ومكونة في البلاد رأياً عاماً متماسك الاطراف مشدود الأركان . وقبيل اختتام القرن التاسع عشر أصبحت الطبقة الهندية الراقية تملأ الفضاء صياحاً وتجرع اعلانية في سبيل نيل النظم السياسية الحديثة كالمجالس النيابية ، والاستزادة من السلطة التنفيذية ، والاشترك في وضع قوانين الضرائب ، وتوسيع المجال لأهل البلاد كما يتسنى لهم القيام بالخدمة المدنية وغير ذلك . وعند اختتام القرن كان الجاهدون في سبيل هذه المطالب والمطامح ، كما قلنا قبلاً ، هم رجال الطبقة المنورة المتشبعين بالأراء والمبادئ الغربية ، الذين مع اتتحالهم اسم الوطنيين كانوا لم يدركوا بعد المستوى الذين يستحقون به ان يطلق عليهم اسم القائمين بالعصبية الجنسية بالمعنى الصحيح . ولم تكن غايتهم ، اللهم الا في بعض المواضع ، الاستقلال ، ولا محو السيطرة البريطانية الفعالة ، بل بالأكثر القيام بالاصلاح في أفق الحياة الهندية على المناهج الغربية . وينطوي تحت ذلك توسيع المجال للحكومة الذاتية الخاضعة لمشاركة السلطة البريطانية .

على أنه عند نهاية القرن التاسع عشر تطورت الحال تطوراً كبيراً . فطفقت الهند شأن سائر الشرق تضطرب اضطراباً شديداً وتمهيج فيها عوامل الانقلاب والانتقال وتمخض عن حركات عنيفة ، واستيقظت روح جديدة تدل على التنبه السياسي واليقظة الجنسية والنهضة القومية . وظهرت أدلة وأماثرت تؤيد منشأ هذا تأييداً لا ريب فيه . فاندب العلماء والباحثون الهنديون على خزائن الأسفار من توار يخهم البالية وكتبهم المقدسة ينقبون في بطونها تنقيباً ، ويحيون من بين دفاتها انباءً عن عز الهند التليد ومجدها الغابر وماضيها المجيد ، وقامت بعض الطوائف المصلحة مثل « الآرياسوماج » توجب القيام بالاصلاح ايجاباً دينياً ، ثم انضم الى جماعات أهل الفكر والروية المنتشر بين الروح الغربية ، عناصر أخرى ، فاتحد الجميع معاً وانبروا يدبرون الذرائع والوسائل ليس لبلوغ الاصلاح المتدرج على المناهج الغربية ، بل لحياء الهند كلها ، الهند الجديدة ، احياء حديثاً من شأنه أن يجدد قواها النفسانية الحيوية تجديداً ، ويحررها من اغلالها وقيودها تحريراً ، فتسير

اذ ذاك في سبيلها وراء مقاديرها تسوق نفسها بنفسها . ومنذ ذلك الحين ارتفعت الأصوات من جوانب طبقات الوطنيين وهي تردد ترديداً بالغاً عنان السماء « بانديتارام » - ليحيى الوطن !!

بيد أن هناك أمراً أحرى بالاعتار وهو ان هذه النهضة الجنسية الهندية انما كانت لأول عهدا حركة قام بها أبناء الهندويين أما المسلمون فقد حذروا منها ونظروا اليها بعين الريب أو العداء . وانهم في الواقع كانوا على حق في هذا ، لان غاية أولئك الوطنيين الجدد كانت « الهند الآرية » « هند العصور الذهبية » ، وبت شعارهم : « رجوعاً في الفيديا ! رجوعاً الى الفيديا ! » وهذا بطبيعته يقتضى احياء ذكريات الايام الخالية احياء تدرج تحته يقظة البرهمية الغاشمة . فتطورت حال أهل الطبقة الراقية تطوراً هائلاً اذ ان الرجال الذين كانوا منذ بضع سنوات ينادون بتفوق الآراء الغربية وسمو المبادئ الأوروبية ، ويسخرون من أباطيل عبادة الاوثان وسواها ، باتوا اليوم يشنأون كل شيء غربي ، ثم انقلبوا يقربون القرابين ويقدمون الذبائح للآلهة الهندية ، وأمست « تربة الهند المقدسة » في نظرهم يجب أن تطهر تطهيراً من الاجانب ^(١) . والاجانب الذين قد عناهم الوطنيون لم يكونوا الانكيز فقط بل أيضاً المسلمين ، الامر الذي هاجت بسببه الذكريات العتيقة وثار لآجله روح الانتقام فقد ظل الخلاف الهندوي الاسلامي اجيالاً طويلة شقاً لا يستطاع حوصه وصدعاً لا يمكن رأه ، وما كانت تلك الجروح تلتئم ، لكن تغشت بغشاء لطيف هو سيادة « الراجا » البريطانية لجميع أهل البلاد الهندية سيادة غير محامية ولا متحيزة : اما الآن فقد تمزق هذا الغشاء فاذا بالمسلمين يرون أنفسهم مهددين بعداء الهندويين عداً متجدداً وهو العدا الذي كان سبباً في اضمحلال الدولة المغولية بعد موت الامبراطور « اور نغزيب » منذ مئتي سنة خلت ، ولم يحمل هذا العدا المسلمين على الحذر والخشية فقط ، بل أشعلهم غضباً وحنقاً ، فطفقوا يتذكرون مجد المملكة المغولية ، كدأب الهنود يتذكرون مجد الهند الآرية ، وشرعوا يحسبون أنفسهم سادة البلاد بحق ، ويأبون الخنوع بته لحكم « عبدة الاوثان » المزدري بهم . وما كانوا اذ ذاك ليحبوا البريطانيين ، بيد انهم اضطروا الى محبتهم بسبب عود العدا بينهم وبين الهندويين ،

(١) سبق لنا الكلام على « العصور الذهبية » الهندية ومنازعتها في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

فوجدوا في الراجا البريطاني حرزاً حريزاً يتقون به شر تلك العداوة المزمنة الكامنة في الرماد ، وفوق هذا فالهندويون يفوقونهم عدداً كخمسة الى واحد . لهذا السبب أخذ المسلمون يقاومون النهضة الجنسية الهندية ، ويقبلون على موالاته الراجوات مولاةً شديدةً . وكانوا في هذا الدور قدر أصبحوا على حال من التأثر بروح الاضطراب والقلق المنتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، فدبت فيهم روح العصبية الشديدة التي بسبب كونهم الاقلين عدداً لم تتخذ لها شكل الوطنية الاقليمية ، بل نزعت الى تلك العواطف الاسلامية المتلاطمة الرامية الى الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية اللتين قدمنا الكلام عليهما .

فالعصبية الجنسية الهندية في أول عهدها لم تكن ذات صفة هندوية فقط بل أيضاً برهمية يلبسها النزوع الى العرق ، فجعل البراهمة يزدادون حولاً وقوةً في تسيير الحركة وسوقها في مجراها ينتغون من وراء ذلك تشييد عزهم ورفع لواء تفوقهم ، في هند الغد ، حتى يستطيعوا بذلك ان يعيدوا سيرتهم الأولى ، فأثار ذلك خوفَ جانب كبير من المجتمع الهندوي ، فشرعت طوائف كثيرة من الطوائف السفلى والبارياه تخشى ان الهند اذا ما استقلت أو نالت حكومة ذاتيةً يعود الحكم البرهمي الاوليغارقي الطاغى الى الوجود ، ويكون ذلك سبباً في ان تفقد تلك الطوائف المنافع والفوائد التي هي حاصله عليها الآن في ظل الحكم البريطاني (١) . وفوق ذلك فقد هب كثير من الأمراء الهندويين يقاومون فكرة الرجوع الى الحكم التيقراطي بعامل الوجل من انهم سيسلبون باستقلال الهند جميع ما في أيديهم من السلطة . لذلك باتت الحركة الوطنية الهندية أشبه بتوائف بين البراهمة والطبقة الراقية المتشعبة تهديباً غريباً ، وهؤلاء جميعاً وضعوا خطةً وجعلوها تشتمل على مطالبهم الرامية الى غاية حكم الهند حكماً مشتركاً .

واذ غدت الحركة الوطنية تهيجها هذه المطامح وتشعلها الغيرة الدينية فقد كان من شأنها في هذه الحال ان اكتسبت طبائع التعصب واتصفت بشدة المقت والشنأة للغريبين وكل شئ غربي . وقد كانت الحرب الروسية اليابانية العامل الأكبر في نفخ هذه الروح ففي السنة التي تلت تلك الحرب (١٩٠٥) ظهرت الأدلة منذرةً بقرب هبوب العاصفة ،

(١) ان شأن الطبقات المضطهدة في الهند قد بيناه في الفصل الثالث ، وانا نزيد في بيانه في هذا الفصل .

وكان ذلك على أثر قرار وضعته الحكومة في تقسيم البنغال ذلك التقسيم الذي كانت الغاية منه ادارية صرفة مجردة عن كل صبغة سياسية ، فرجال الحركة الوطنية حسبوه أمراً مقيماً مقعداً ، فطفقوا يشعلون نار دعوة كبيرة الهبت الهند كلها ، فعم الاضطراب وساد القلق . وكان زعيم هذه الدعوة الباعثة على الهياج والفتنة « بال غاندر هار تيلاك » الذي دُعي بأبي الاضطراب الهندي . فان تيلاك هذا وهو برهمي كان روح الحركة وعرقها النابض ولسانها الناطق ، نال حظاً وافراً من التهذيب والعلوم الغربية ، وكان عدواً شديداً للحكم البريطاني والحضارة الاوروبية ، وداعياً عظيماً يتسلط على القلوب فتتقاد اليه ، وخطيباً بليغاً وارى الزند تثير خطبه سواكن النفوس . وكانت صحيفته « ياغنتار » في كلكتا تقذف حمم المقت والسناة للغريبين قذفاً وتحمل الشعب على الهياج والاعتيال والثورة . فأتتجت طائفة تلك العوامل التي أثارها تيلاك النتائج المحسوسة الاثر للحال ، فاشتد الهرج والمرج وكثرت الفتن وحوادث قتل الانكليز واعتياهم ، وما كانت « ياغنتار » الا واحدة من عديد الصحف الوطنية التي نهجت هذا المنهج وكان بعضها يكتب بلغة أهل البلاد والبعض الآخر بالانكليزية وجميعها متبار في حلبة الهياج والاثارة .

والى القارىء مثال مما كانت تنشره الصحف الوطنية تتبين منه شدة النقمة وهول السناة . قالت « ياغنتار » : « ان الثورة انما هي الذريعة الوحيدة التي تستطيع بها الأمم المستعبدة المقودة بأغلال الذل والقهر الدفاع عن كيائها والزياد عن ذمارها . ان كنت لا تستطيع يا ابن الهند أن تكون رجلاً كل الرجل في الحياة فاستطع أن تكونه بالموت في سبيل الوطن . ان الأجانب الدخلاء ، يا ابن الهند ، قد هبطوا بلادنا وجاسوا خلال ديارنا ، وحثموا عليك كيف يجب أن تعيش ذليلاً وشددوا في ذلك ما استطاعوا ، اما كيف يجب أن تموت فذلك أمره في يدك فاختر الموت موت الأبطال فداء لهذا الوطن ، هيا بنا أبناء الهند ! أعدوا عددكم وامشوا لاضرام نيران الثورة العامة التي لاتبقى ولا تندر ، تلهب الهند من جانب الى جانب ! ان هذه الشراذم من الشرط والجنود لهي أعجز عن الوقوف في وجه الثوار يتمورون وتمور البحر الزاخر المتلاطم اللجج ، ويملاؤن الهند السهل منها والجبل . قد يزج الثوار في المحابس والسجون ، ويمحتسون كؤوس الحمام ضروباً وألواناً غير ان ذلك كله ليس بلوهن من عزمنا وحزمنا ولا بالمضعف من شدتنا وبأسنا . يقتل ألف فتنبرى

من بعدهم الآلاف المؤلفة للقيام بواجب الوطن . ايه أبناء هندستان ! عضوا على النواجذ ولا ترهبوا ! ان تربة هندستان مريعة المربع أبدأ بدماء الأبطال . لاتياسوا ولا تقنطوا ، هذه أبطالنا وهذه أموالنا فالمجد المجد اقتطفوا ثماره يانعة طيبة . اعلموا ان طائفة من القذائف رميت بها العدو قد شقت كبده شقاً . هو الهول والظلم مما ملأ الجواء وغطى السماء فسيراواً قدماً وخوضوا بصادق الغشمشمة عباب بحر من الدماء القانية ! » وقد كثر حوادث الاغتيال كثرة هائلة فقال « س . كريشنا فارما » في صحيفة « انديان صوسيو ليجيست » . Indian Sociologist : « ان الاغتيال السياسى لا يعد قتل البتة . إذ ان الاستعمال الحق لمثل هذه القوة انما هو دفاع تجاه قوة معتدية » وقالت « ياغنثار » في موضع آخر : « انما بدل الاشتراك الواجب على جميع قراء هذه الجريدة هو أن يأتى الينا كل منهم برأس أوروبى » وما كانت النساء والأولاد من الانكليز مستثنيات من الرجال إذ قالت « ياغنثار » فرحة مبتهجة في تعليق لها على مقتل سيدة انكليزية وابنتها : « يجب أن تقتل على توالى الأيام عفاريت عديدة من هؤلاء النساء ذوات الأرواح الشريرة الخبيثة ، وتجتث شأفتهن كما تجتث شأفة جنس « الاسوراز » من على وجه الأرض » . واليك كلمة تدل على مبلغ تعصب الرجال الذين طفقوا يدأبون على القتل والاغتيال (وغالبهم من الشبان) قالها شاب هندى قتل موظفاً انكليزياً كبيراً هو السركرزن ديبلى ، وهو على دكة المشنقة : « انى أيها الملاء لأعتقد أن أمة يتحكم فيها الأجانب الغرباء بالحراب اللوامع انما هي على حرب مشبوبة النار أبدأ . ولما كانت الحرب المنظمة التى تعباً فيها الصفوف ليست بالأمر المستطاع عند أمة عزلاء من السلاح ، فانى لم أجد بدأ من الهجوم على حين غرة . ولما لم يكن لدى مدافع أصلى بها العدو صواعق نارية فقد لجأت الى مسدسى وأطلقت منه بعض العيارات . انى بصفة كونى هندياً لأشعر أن الاساءة الى بلادى هي الاساءة الى الآلهة ، وان مصلحة الوطن هي مصلحة « شريرام » ، وخدمة الهند هي خدمة « شرى كريشنا » . على ان من كان مثلى صفر اليدين خالى الوطاب ليس عنده كثير مال ولا غزير علم ، فليس بوسعه أن يجود لأمه بشئ سوى دمه الهنذى الجارى فى عروقه ، فلذلك انى أسفك دمي هذا قرباناً على مذبحها المقدس . وليعلم سائر بنى أمى أن العظة التى يجب تلقينها فى الهند اليوم انما هي معرفة كيف يجب على الهنذى أن يموت ، والوسيلة الوحيدة الفضلى لتلقن هذه العظة هو

أن أشرب أنا وأمثالى كما س الردى ، فرحباً بهذا الموت الذى ألقاه الآن شهيداً . وهذه الحرب القائمة فى ديارنا اليوم ستظل مشتعلة فى ربوع الهند مادام الجنسنان الهندى والانكليزى على هذا العداء وما لم تبدل هذه الحالة بأفضل منها »

على ان جواب الحكومة على شوب هذه الفتنة الهائلة المملوءة بحوادث القتل والاعتقال ، قد كان المبادرة فى الأخذ بأسباب الاخذ بيد من حديد ونار . فعطلت الحكومة الصحف الوطنية ، وسجنت رجال الفتنة وقتلتهم تفتيلاً ، وجعلت ترهف الحد بسن قوانين جزائية شديدة ، وكانت بسبب الفتنة قد هاجت الجماعات الاوروية أياً هياج وقامت وقعدت لما يقوم به الوطنيون من إزهاق الأرواح وسلب النفوس ، فحمل الأمر كثيراً من الانكليز على أن يطلبوا شديداً استرداد الامتيازات السياسية ، وجعل التعليم الجارى على الطراز الغربى لا يعدو حدوداً معلومة ، ولا يتخطى حكماً مطلقاً شديد الاستبداد فلما رأى الوطنيون هذا انباعوا الى الفتنة فعادوا يشعلونها فى كل موضع ، فلقوا الجزاء الأهول والعقاب الأشد . وفى الواقع ، ان الغلاة من الفريقين ، فريق الوطنيون وفريق الانكليز ، كانوا بغلوهم يزيدون النار وقوداً ، فعمت الباوى وشملت المحنة ، وظلت الهند بضع سنوات تضطرم فى جوانبها الفتن ، وما كانت السجون ولا أعواد المشاقق ولا النفي ولا الابعاد بالذريعة الكافية لتسكين الحال ومنع الفوزان

ثم هدأت العاصفة هدوءاً غير طويل الأمد فتحسنت الحال وجرت مجرى حسناً ، إذ قل عدد الغلاة ، من حيث أخذ أرباب الصحافة والروية من البريطانيين والهنود يبتغون مخرجاً من ذلك المأزق الحرج . وقام القادة المحافظون من الهنود مثل المستر غوكهال وأنداده يشجبون الهول والرعب ، ويدعون أبناء وطنهم للسعى وراء تحقيق أمانهم الوطنية على المناهج السامية . ثم ان أحرار الانكليز وهم لم يزلوا إذ ذاك يأبون الأوبة بالفشل والخسران شرعوا يبتغون الوصول الى خطة يتم بها الاتفاق والوثام ، فندب السياسى الحر الكبير جون مورلى وفوض اليه مهمة القيام بتسوية شؤون الهند فأخذ يجهد حتى وصل بالتالى الى وضع « لائحة المجالس الهندية لسنة ١٩٠٩ » وكان مشتمل هذه اللائحة الاقلاع التام عن الحكم البريطانى فى الهند ذلك الحكم الشبيه بالمطلق الشديد وتوسيع المجال بالتدريج لأهل الاعتراض من الهنود بحيث يستطيعون بذلك ابداء الرأى والمشورة

والاقدام على النقد والمناقشة . وكان من محتوى اللائحة وضع نظام ذى قيود وحدود لانتخاب الهيئات الاشتراعية التى تنشأ على مقتضى هذه اللائحة . فكانت النتيجة ان الوطنيين المعتدلين ، على كونهم غير مرضين الارتضاء كله ، قبلوا باللائحة وحسبوا باكورة تناولها المنح الاستقلالية ، وبرهاناً على حسن نية بريطانية ، من حيث ان أعمال الغلاة القائمة على الرعب والهول والكيد أصابتها صدمة كبيرة ولكنها لم تنقطع انقطاعاً كلياً . وكانت زيارة الملك جورج لهند سنة ١٩١١ سبباً فى مدحبل الولاء والاخلاص ، فارتاحت شبه جزيرة الهند الى هذه الزيارة واتخذتها فآلاً تيمنت به .

ولكن كانت سنة ١٩١١ منتهى الفترة التى ساد فيها السكون بعد العواصف التى توالى هبوبها من سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٩ . ثم عاد الاضطراب يتجدد شيئاً فشيئاً بعد سنة ١٩١١ لأن التأثير الذى كان قد حصل فى بدء الأمر بسبب لأئحة المجلس ، قد ذهب الآن وعفا . فغدا الشعور بالخيبة حاملاً على التوسع فى المطامح والتطوح فى الآمال . والحقيقة ان العصبية الجنسية كانت هذه السنوات مطردة الاشتداد ومتوالية الاتساع ، فبعد أفقها ورحب مضطربها ، فرسخ مستقرها واعتز نصابها ، فعدت الحركة الوطنية غير مقصورة الشأن على الفئة القليلة المؤلفة من الغلاة ، بل انضوى تحت لوائها القادة المعتدلون مثل المستر غوكهال وأمثاله الذين اعتزموا العمل فى سبيل ادراك الغاية الوطنية على طرق متدرجة ومناهج على مقتضى الحال ، ولكن على كل حال كان من أمر هؤلاء المعتدلين الالحاح على الحكومة بمساعدات جديدة يتسع بها المجال للوطنيين فى تقلد الأحكام وولاية الأمور . وكانت العلامة الكبرى من علامات تعالى النهضة الهندية هو جنوح جانب من رأى الاسلامى العام الى الأخذ بنصرة الحركة الوطنية . اذ أن المسلمين كانوا من قبل ذلك الحين أنشأوا « الميثاق الاسلامى الهندى العام » الذى كان يختلف بطبيعته عن منهاج الحركة الوطنية ، لان الغرض من انشائه فى المقام الاول هو الدفاع عن مصالح المسلمين ازاء ما كان يقدر عهدئذ من تفوق الهندويين واستفحال سلطانهم . ولكن على توالى الايام طفق بعض المسلمين يرتجعون عن موقف المقاومة للهندويين . ويقبلون عن المشادة معهم خلافاً لمقتضى الميثاق الاسلامى ، وانقلبوا ينضمون الى معتدلة الوطنيين لكن دون الاشتراك فى ايقاد الفتن والعبث بالأمن ، وكان ذلك الانضمام منهم من بعد ما قطع لهم معتدلة الهندويين

الوعود والعهود وأكدوا لهم وقوفهم الى جانبهم موقف الصديق الصفي . وفي ذلك الحين كان رجال النهضة الوطنية قد انقسموا قسمين : المعتدلين والغلاة . أما الغلاة ، وقد نقم عليهم نظراًؤهم ، فقد استمر وا على الهياج والاثارة والقيام بحملات العنف والشدة ، وكان أكبر المديرين لوسائل هذه الحركات والأعمال هم القادة الغلاة المنفيين الذين كانوا لايفتأون ، وهم في البلاد الأجنبية ، يبعثون دعاة الشغب والفتنة الى الهند فيقوم هؤلاء بتحريرهم ، أبناء بلادهم واستنارتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

هكذا كانت الحالة في الهند عند نشوب الحرب العامة ، وهي والحق يقال حالة ليس قليلاً مافيه من الشؤم والخطر ، ولكنها على كل هذا كانت اذ ذاك خيراً منها منذ عدة سنوات خلت . ومن المعلوم أن الحرب قد كانت سبباً في زيادة القلاقل والأهوال ولكن على مقدار معلوم ، فظلت الهند على الجلمة مدة الحرب العامة تجود برجالها وأموالها على غير انقطاع في سبيل نصر الامبراطورية البريطانية ، فلات الجيوش الهندية ميادين أوروبا وآسية وافريقية .

على أنه وان كانت الحرب العامة قد انقضت والهند لم تنشب فيها الفتن والثورات المصطلمة العامة ، فلا يؤخذ من هذا ان الحركة الوطنية كانت خامدة ساكنة تماماً أو انه قل السعي وراء توسيع نطاق الحكومة الذاتية ، كلاثم كلا ، فان الحرب الكبرى ما كانت الا لتكسب الحركة الوطنية صولةً وبأساً ، وشدة وعنفاً ، فطفق الصراخ يتعالى واللجاج يتزايد طلباً لانشاء حكومة ليس يجب أن تكون صالحة فقط بل أن تكون بماهيتها وصفتها عند رضى رجال الحركة الوطنية وتنتهى اليهم . ولما كانت الهند قد برهنت في الواقع على حسن ولائها للامبراطورية البريطانية ببذلها في سبيلها النفوس والثمرات عن جود وسخاء فقد كان ذلك باعثاً على عود البحث في منح الهند قسطاً أكبر وقدرراً أوفر في الحكومة الذاتية ، فطفق الرأي العام الهندوى على اختلاف أقسامه وطبقاته يرفع البرامج العديدة الى الحكومة البريطانية في هذا الشأن ، فكانت جميع هذه البرامج المتنوعة أشبه بمنعكس ظهرت فيه صور العصبية الجنسية الهندية أجلى ظهور ، وكانت غاية الغايات التي رمى اليها الجميع واحدة : هي التحرر من الوصاية البريطانية تحرراً تاماً ، غير ان الاختلاف قد شجر بين أهل البلاد في كيف ومتى يدرك هذا التحرر . أما أشد المحافظين فقد قصر و؛

أمرهم على طلب حكومة ذاتية خاضعة للإرشاد البريطاني ، بينما غيرهم من الذين هم أوسع مطامح وآمالاً طلبوا نظام الحكم التام المعطى للإملاك المستقلة في الامبراطورية البريطانية مثل أستراليا وكندا . وأما أصحاب العنصر الثوري فقد ظلوا بعداء مصرين على أن العنف والشدة هما الوسيلة خير الوسيلة لادراك الغاية الوطنية أعنى بها الاستقلال التام .

ومن مقتضى مطالب المعتدلين القيام بتغييرات كبيرة في نظام الحكومة الحالي ، والتقليل من السلطة البريطانية الى حد معلوم في المواضع التي لم تغد عندها الحكومة الهندية الوطنية ناضجة كل النضج . وقد قبلت الحكومة البريطانية هذه المطالب بروح العطف الدال على ابتغاء الاجابة والتوفيق ، والمنبئ باهداء المنح الاستقلالية في المستقبل القريب . في هذا الصدد قال نائب الملك في الهند اللورد هاردنج سنة ١٩١٦ : « اننى لأود الاخذ بنصرة هذا المطلب الذى تطلبونه من حكومة ذاتية في الهند ، لأن هذا هو غاية وطنية شريفة . ان الحكومة الذاتية لى مطلب حق صريح يعطف عليه ويشترك فيه جميع المعتدلين ، غير أن الحالة اليوم في الهند تقتضى بطبيعتها النهج على سياسة عملية بعيدة من الغاية القصية . لذلك ينبغى لنا ان نتمسك جهدنا بما هو واقع محسوس ، ونعرض عن متطوح الآمال التى ليس من نتيجة التشجيع عليها سوى الابطاء والتأخير عوضاً عن سرعة التوفيق والفلاح في ميدان السياسة . ومعلوم عندى ان هذا هو رأى العقلاء وارباب الحصافة والروية من رجال الهند . وليس هناك من هو أرغب منى في رؤية آمال الهند الحقة الصريحة محققةً عما قريب ، من حيث انى أحاذر كل خطر ينجم عنه رد الفعل بإنشاء النظم الجديدة التى يدل الاختبار على كونها سابقة لأوانها » .

وفى أواخر سنة ١٩١٧ قدم الهند من بريطانية المستر موتاغوز وزير الهند مبتغياً الوقوف التام على رأى العام في الهند بشأن قضية الاصلاح الدستورى ، فصرف عدة أشهر يباحث ويناقش ويكتنه ويستبطن ، ويعقد المؤتمرات الممثلة لجميع الاجناس والطبقات والأديان ، وبالتالي وضع تقريراً أودعه نتأج هذا الاستطلاع المدقق ، وقعه هو ونائب الملك في الهند اللورد « شامز فورد » ، ونشر فى تموز (يوليو) سنة ١٩١٨

واشتمل هذا التقرير على بيان ميثاق يوضح جدارة أهل الهند لنيل المنح الاستقلالية مما يفوق جميع ما قد منحه بريطانيا الهند من قبل ، ويبين صريحاً أن تمنح

الهند الحكم المعروف « بالحكم الوطني » (Home Rule هو مرول) في المستقبل القريب ، وان هذه المنحة ليست تعد النتيجة الناشئة عن الاضطرابات الهندية ، بل عملاً بمقتضى « الاعتقاد والوجدان المستقرين فينا » . ثم يتلو ذلك كلاً حق أن تكتب بماء الذهب ، ألا وهي : « اننا نعتقد اعتقاداً راسخاً ان قد حان الوقت الذي أصبحت فيه اطالة حايثنا للهند لا يستطيع القيام بها دون ان نصيب حياة الهند ، الحياة القومية الوطنية بضرر وخطر ، وان لدينا الآن منحة لأهل الهند هي أثن من جميع المنح المتقدمة منا لهم ، فان حياة أهل الهند باعتبارهم أمة صحيحة البنين ، في كنف الامبراطورية ، ليمثل فيها شيء هو أنفس حقاً من سائر ما قد اكتسبته الهند في الماضي ، وان السكون البادي على السواد الأعظم اليوم ليس بالترية الصالحة التي تنمو فيها حياة الهند الجديدة ، فاستحاثنا القوم من تلقاء أنفسنا ليتأهبوا لاقاء عصر جديد انما هو الخير كل الخير للهند » .

وصفوة التقرير بيان في أن طراز « الحكومة المشتركة » يصلح اتخاذه قاعدة ومبدأ لتسوية القضية الهندية ، وهذا الطراز انما هو ضرب من الحكومة تقسم بمقتضاه النبعة الحكومية بين مستشارين تعينهم السلطة التنفيذية البريطانية وبين وزراء تنتخبهم الهيئات الانتخابية الاشتراعية ، وعلى هذا الشكل والنظام تتكون الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم . أما السلطة الاشتراعية فينتخب أعضاؤها انتخاباً على نطاق تغدو فيه حقوق الانتخابات رحبة وافية الى حد لم يعرف من قبل ، وتخول المجالس الاشتراعية سلطة كبيرة واسعة ، اذ في الماضي لم تكن سلطة هذه المجالس لتزيد الا القليل على سلطة المجالس الاستشارية ، أما الآن فانها معتبرة بمقتضى التقرير اشتراعية تامة الصفة بالمعنى الغربي الصحيح ، على كون سلطتها لم تزل محدودة في مواضع أخصها المالية التي ظلت القوة التنفيذية تحتفظها احتفاظاً يكسبها الكلمة العليا والقول الفصل في بعض الشؤون ، وبهذا لا يكون هناك شيء من توازن السلطات ، بل تكون كفة الراجا البريطاني هي الراجحة أبداً على ماسواها . ثم يبين التقرير أن هذا المنهاج الحكومي لن يكون أبدياً ، بل انما هو بدليل شكله وظاهره وسيلة يتم بها انتقال السلطة من الحكومة الراجوية الى الحكومة الوطنية ، أو هو أشبه بمدرسة يتخرج فيها الشعب الهندي المدة المقتضاة ، حتى اذا ما ناله

قسطه من الخبرة والمران ، واستوفى ما ينبغي أن يكون عليه من الحسكة والمراس ، واقتبس ما فيه الكفاية من هذه الدروس الأولية في الحكومة الذاتية ، منح حكومة نيابية تامة الجهاز كاملة الشرط بوسعها وطاقتها ليس الاقتدار على المباشرة والانشاء والاشتراع لحسب ، بل أيضاً القبض التام على أزمة السلطة التنفيذية وتسيير دفتها .

ثم بات التقرير موضوع البحث والمناقشة المدققة في الهند وبريطانية . وبالوقوف على مدار حول شأنه من مختلف المباحثات وضروب الأقوال ، تتجلى لنا ماهية القضية الهندية مع ما هي عليه من التناقض والتباين . أما رجال النهضة الوطنية فقد ذهبوا حينئذ مذهبين مختلفين الأول مذهب المعتدلة الذين ارتاحوا الى التقرير ارتياحاً ووافقوا على محتواه ومقترحاته ، وأيدوا ما تضمنه من المنهاج الحكومي وشرعوا يعضدونه عضد المعاونة والولاء ، والآخر مذهب الغلاة الذين مال بشوا أن فندوا التقرير تنفيذاً شديداً وقالوا ان مقترحاته ليست الا احبولة وشركا . وصرح المعتدلة صفة حالم ببيان أصدره موقعا من زعمائهم وقادتهم ، وفي طليعتهم الاقتصادي الهندي المشهور « السردانشو واشا » ، وما جاء في هذا البيان : « ان المنهاج المقترح في التقرير هو أشبه بصورة مركبة الأجزاء بعضها قابل للتحسين والترقية ولا سيما القسم الأعلى منها ، والمنهاج مع ذلك يحسب مشروعاً ظاهراً فيه التقدم والتحسين ، ومن شأن الاصلاحات المقترحة فيه أن تمهد السبل للاقاليم الهندية للوصول يوماً الى غاية الحكومة النيابية التامة . وعلى الجلة ففي هذه المقترحات من صدق النظر وروح العطف على الآمال الهندية ما يستحق به صاحبا التقرير الكفيان الاشهران ، شكر أهل الهند وامتنانهم » . وكان تنفيذ الغلاة للتقرير شديداً جداً ، وقد جهد بهذا زعمائهم وقادتهم ، فقال المستر تيلاك : « الاعتصام الاعتصام بالغاية التي وضعها نصب عينيه المؤتمر الهندي الوطني » . وقال المستر بين شنديرال : « ان أحول عن رأبي الصريح وهو أن ما قبل بهذا المشروع المقترح ونفذ فان الحكومة ستصبح يومذاك أشد عتفا واستبداداً منها اليوم » .

ومما هو احرى بلاطلاع عليه هو اعتراضات الاحزاب المقاومة للحركة الوطنية ، ولا سيما الاحزاب الاسلامية والطوائف الهندوية الدنيا ، اذ أن من الأمور الدالة على شدة تعقد القضية الهندية ومناقضة بعض وجوهها لبعض هو خشية الملايين العديدة من الهنود

للحركة الوطنية أشد خشية ، واتخاذهم حكم الراجا البريطانى مجناً يتقون به اضطهاد رجال الوطنية وعسفهم وتسلطهم . أما المسلمون الهنود فكانوا لم يبرحوا على خلاف شديد فيما بينهم فى شأن قضية الحكومة الذاتية . وكانت الفئة الكبيرة فيهم تمتت الحركة الوطنية وتحذرها لما اكتسبته بالتالى من الصبغة الهندوية الحاملة على التعصب ، غير ان جانباً منهم أى من المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً ينجحون الى مناصرة الحركة والجهاد فى سبيلها ، كما سبق لنا بيان هذا ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً فاحشاً طول الحرب العامة ، فجعلت العرى بين العنصرين تتوثق ، ولكن ما كان السبب فى هذا التآخى الاسلامى الهندوى مقصوراً على رغبة المسلمين فى نيل الحكومة الذاتية بل لأنهم فوق ذلك قد ابتغوا مقاومة دول الحلفاء فى سياستها التى وضعتها وطفقت تمشى عليها لاقترام الامبراطورية العثمانية واشعال الشرقين الادنى والاوسط^(١) ، لذلك أمسى الوطنيون الهنوديون على استعداد شديد لمقاسمة المسلمين شعورهم فى الشؤون الاسلامية الخارجية فنجم عن جميع هذا ان استحكمت عرى الولاء بين الهنوديين والمسلمين استحكاماً ، وتأن كدت روابط الاتحاد بين العنصرين تآكداً ما عرف له من شبه من قبل .

وتدل الحال التى بلغ عندها اعتزاز الطوائف البرهمية بالحركة الوطنية اعظم مبلغ ، على أن المقاومة التى قامت بها الطوائف الهندوية الدنيا للحكم الهندى الوطنى (هو ممول) هى فى الواقع عظيمة . فاشتد وجل هذه الطوائف حتى حسب أهلها انهم كادوا يخسرون الحماية التى هم حاصلون عليها اليوم فى ظل الراجا البريطانى ، فتقضى بهم الحال اذ ذاك الى معاناة الذل والاقامة على الضيم والقهر ، وذلك مما لا ريب فيه متى ما عاد الاستبداد البرهمى الى الكيان وهو كما لا يخفى استبداد الطوائف العليا . فدعاهم ذلك كله الى اتخاذ وسائل الزيادة عن جاههم ، فالتفوا جمعية دعوها « الناماسودرا » وسلموا زعامتها والقيام على شأنها الى رجل كبير مشهور من آحاد رجالهم هو الدكتور ناير^(٢) ، فاخذت هذه الجمعية تبين وتوضح ما سيقع من البغى والاستبداد البرهمى اذا ماتسنى لأهل الطوائف البرهمية العليا القبض على أزمة الأحكام فى البلاد ، مستدلة بما هو واقع فى الحال على ما هو

(١) كما سبق لنا بيان هذا فى الفصل الخامس .

(٢) ذكر فى الفصل الرابع .

متوقع حدوثه في المستقبل ، مثال ذلك قولها : « ان البرهمنين قد أخشوا في رعب المنتخبين (بكسر الخاء) من الطوائف الدنيا في عدة مواسم انتخابية وهددوهم شر تهديد بأن يبنذوهم من مراتبهم الطائفية نبدأ ان تقاعسوا عن انتخاب المرشحين البرهمنين من الطوائف العليا ، فاذا كانت هذه صفة الحال اليوم فكيف تكون غداً اذا ماتم للبراهمة الاستبداد في مجال أوسع ونطاق أرحب ، فيفقد « الپارياه » المنبوذون اذ ذلك كل حق في المجتمع الهندوى » .

فهذه الاعتراضات التي قام بها اقسام كبيرة من أهالي الهند مقاومة للحكم الوطني «هومرول» المقترح في التقرير ، كان من شأنها انها استرعت انتباه عدد كبير من الانكليز أهل الاضطلاع في القضية الهندية الذين كانوا قد كشفوا عن قناعتهم واعتقادهم في استعداد الهند للحكم الوطني ، من حيث انها قوت حجج طائفة عظيمة من الانكليز ، ولا سيما أولئك المتهندين [انجلو انديان] القائلين بان الهند ليست الى الآن ناضجةً نضجاً كافياً لنيل الحكومة الذاتية . قال أحد أصحاب هذا الرأي في مجلة (Round Table) «المائدة المستديرة»: «ان الحشوة من أهل الهند لا يحفلون البتة بشؤون السياسة ولا يفقهون شيئاً من الحكم الوطني . بل انهم يؤثرون البقاء في ظل قضاة الصلح الانكليز على كل شيء سواء وهذا الأمر هو مبتغاهم أبداً ، وهم واثقون كل الثقة بالانكليزى لأنه كان دوماً « حامى الضعفاء » لا يجابى هندوياً ولا مسلاماً وقد عرف بالنزاهة والأمانة » . وقال اللورد سيدنهام في نقد مسهب فند فيه مقترحات تقرير موتاغو شامز فوردي : «ان هناك نقائص عديدة في منهاج حكومتنا في الهند يحمل على الاصلاح الواجب أن يقدم على قاعدة المصلحة لجميع سكان الهند بدون تمييز . ولكن اذا ما نفذت سياسة « استحثاث القوم من تلقاء أنفسنا لكي يتأهبوا للقاء عصر جديد » ، كما يقول نائب الملك في الهند ووزيرها في بريطانيا ، واذا ما انتشر النبا في الزوايا المتهامة في الشرق ان تلك السلطة الوحيدة الكافلة لسير القانون والنظام والآخذة للامة الهندية بيد المعونة في سبيل الارتقاء المتدرج ، قد وهنت وتضعفت ، قضى بذلك على المصالح العامة القضاء المبرم ، فعادت الاحن والأحقاد تشتعل جديداً ، ثم يكون على الأثر رد فعل عظيم تقوى به البراهمة - وتذهب به جميع الترقيات والأعمال الشريفة التي قام بها الانكليز في الهند » .

على أن هناك كثيراً من ثقات الانكليز المظلمين في الشؤون الهندية ، ذهبوا يؤيدون مقترحات التقرير ويدينون ماهي عليه من الحكمة الصادقة ويلحون على الحكومة طالبين أن يشترع البرلمان قانوناً لها ويضع نظاماً لتنفيذها هذا اذا رامت بريطانيا حقا اتقاء الاخطار العظمى والبلايا الكبرى . وكان زعماء هذا الرأي والمذهب هم مثل ليونل كرتس والسر فالنتين تشيرول^(١) فقال هذا الأخير : « انه لمن عزم الأمور ألا يؤخر العمل على مقتضى مقترحات التقرير ، فلنتعظ ولنعتبر بما قد جرى حتى اليوم فذلك لعمرى كاف أن يحملنا على الانتباه لمخاطر التسوية والارضاء . أيا ترى يغيب عنا بعد جميع الذي جرى ان الزمان اليوم في الهند كما في سائر المشرق أصبح أكبر معين وأعظم عامل على انفجار براكين الفتن ؟ . . . ليس بوسعنا البتة ان نأمل التوصل الى توفيق مرض بيننا وبين الغلاة ، بل ما نستطيع الا ان نأمل فيه هو ان نطلق لأهل الهند قواهم الحيوية من اغلالها ، تلك القوى المرتقبة يوماً فيوماً الافلات من أسرها ، فتنتقل في سبيلها وحبلها على غاربها ، فتأخذ بالجد والانكماش في العمل ولها من نفسها مسيطر عليها » .

وبالتالى قبل البرلمان البريطانى بتقرير موتاغوشامزفورد قاعدة للبحث والمناقشة وفي أواخر سنة ١٩١٩ اشترع البرلمان مقترحاته قانوناً رسمياً ، بيد انه خلال المدة المنقضية منذ نشر التقرير الى اشتراع مقرحاته ، وهي ثمانية عشر شهراً ، قد تبدت الحال في الهند لنكد الطامع تبدلا هائلا وانقلبت انقلاباً عظيماً فاردت الجو وعاتت الفتن والثورات تنفجر ويران الكوراث تندلع في طول البلاد وعرضها ، ففاقت جميع ما عرف من هذا القبيل منذ سنة ١٩٠٩ .

والاسباب في ذلك جمة . ففي المقام الاول شرعت جميع العناصر الوطنية الشديدة السخط على التقرير تستثير أصحاب المنازع الثورية وتحرضهم على استئثار أعمال الهول والرعب ، ولعل الغرض من هذا كان حل البرلمان البريطانى على التوسع في المنح الاستقلالية ونطاق الحكم الذاتى فوق ما اشتمل عليه التقرير من المقترحات والمراعى . وهناك من الاسباب ما هو أعم صفة . ذلك ان سنة ١٩١٨ انما كانت سنة بلايا ورزايا طبقت الهند من أقصاها الى أقصاها ، فاجتاح وباء الجي الصدرية الهند اجتياحاً ، وفتك بأهلها فتكا

ذريعا وجرف نحواً من ٧٠٠٠٠،٠٠٠ نفس . ثم قحطت الهند قحطاً شديداً باحتباس الامطار عنها ، فاضمحت الحاصلات والغلل ، فانتشرت المجاعة وطغت شقوتها على البلاد . ثم جاءت سنة ١٩١٩ فكانت شراً من أختها الغابرة ، وافدح بلوى وأشد قحطاً وسغباً ، وقرر أهل الخبر صيف السنة الماضية ان خلقاً عظيماً ذهبوا فريسة المجاعة وان ملايين من الناس سواهم أمسوا على شفا جرف الهلاك . ثم جاءت الحرب الافغانية تزيد البلاء بلاء ، فالتهبت البلاد عند الحدود الشمالية الغربية ، وانقلبت بؤرة شديدة السعير ، فازداد هياج المسلمين وعظمت نعمتهم الى حد يقصر دونه الوصف .

فكانت نتيجة جميع ذلك ان طبقت الهند عواصف الفتن ، وعانت السلطة البريطانية الأمرين من هذه الأحوال . فعينت بريطانية لجنة للقيام بالتحقيق في ماهية الهياج الهندي العظيم ، فقامت اللجنة بمهمتها ووضعت تقريراً في صفة الحال موقفاً من رئيس اللجنة القاضى « رولاط » صور فيه عظمة الاضطراب الظاهر ومظهر الثورة تصويراً جامعاً مانعاً . وما ذكر فيه ان العدو الأكبر لبريطانية ليس هم شبان الطبقات العليا المتهذبن المتوائمين بعضهم مع بعض في إشعال الحركة الفوضوية ، بل ان معظم الجند قد أضحي يخالطهم رجال عسكريون وغير عسكريين يدأبون على القيام بالأعمال الوطنية تحت ستار الجندية ، وذكر أيضاً ان الأمر الأخطر هو ان هناك دلالة واضحة على جعل القوى الجندية الوطنية تخرج من طاعة الانكليز فتنحاز الى جانب الوطنيين . ثم بين صاحب التقرير في النهاية ان جميع ذلك يقتضى سنّ قوانين جديدة تكون غاية في الحزم والشدة تداركاً للخطر واتقاء للويل .

وإذ أيقنت حكومة الهند باهمية البيان الذى اشتمل عليه تقرير اللجنة ، وضعت مشروعاً لسن قانون سمته رسمياً « بقانون الجنايات الثورية والفوضوية » ولكن شاع ذكره باسم « لأئحة ارولاط » وخول هذا القانون الحكومة البريطانية سلطة فائقة عظيمة ، كحق التفتيش فى المنازل والبيوت والقبض على من يشتبه بهم أقل اشتباه انهم من أهل السجس والاضطراب على غير مبالاة بالثبوت أو اجراء التحقيق .

فهاجت لأئحة رولاط هائج الوطنيين فهبوا يقاومونها فزاد المرجل غلياناً وبحر الهرج والمرج ارغاء وازباداً . وقام الغلاة والمعتدون يفتدون اللأئحة تفتيداً ويحسبون رجوع

القهرقى وبعثا على ازدياد الفتنة . ولما جئ باللائحة للبحث فيها فى المجلس الاشرعى الهندى ، أى المجلس الاشرعى الامبراطورى ، هب جميع الأعضاء الوطنىن يعارضون اجازة اللائحة أشد المعارضة ، ولكن الحكومة تمكنت بالتالى من اجازتها بعد احتدام الخلاف مستعينة بأصوات الأ كثرىة الانكلزىة المعىنن تعىناً . وحسبت الحكومة اجازة هذه اللائحة ضربة لازب لامناص لها منها ، لكى يتسنى لها بها حفظ النظام والأمن . وفى ربيع سنة ١٩١٩ اشترعت اللائحة وصيغت قانوناً رسمياً .

فازدادت الحال شدة . ودعا الوطنىون هذا القانون « بقانون الأفاى السوءاء » ، واشتعل السخط من كل جانب . وطفق الغلاة يقومون بحملات الاحتجاج المستطىر من لهب النعمة والعداء . وارخ أهل الهند اليوم الذى اشترعت فىه هذه اللائحة قانوناً ، وهو السادس من نىسان (ابرىل) سنة ١٩١٩ ، بأنه « يوم الذل الوطنى » . وفىه اجتمعت الخلائق أوفاً مؤلفة لاىحصىها عد اجتماعات كبرى ، وقام فى الجوع المتراسة الخطباء الوطنىون يستثىرون الناس بالخطب الهائجة المفزعة ويشعلون صدورهم بنار حاسية مستعرة . فكان « يوم الذل » فى الواقع شرىوم عرف باستفحال الفتن الشديدة منذ ثورة العصىان سنة ١٨٥٧ . فعاد الرعب والهول يطبقان الهند ولاسىما فى الأقالىم الشمالىة ، فاغتىل الموظفون ورجال الخدمة المدنىة من الانكلزى ، وانتشر التخرىب والتدمىر ، كأن لىس لمرجل الهند العالى من سكون .

ومضت الحكومة تستقبل الخطوب تترى والفتن المتوالىة رابطة الجأش . تخمد وتسكن بىد من حدىد ونار . فانطلقت بنادق الحكومة البرىطانىة ومدافعها الرشاشة تحصد الخلائق حصداً ، وطفقت أسراب الطىارات تملأ الفضاء سابحة جىئة وذهاباً تمطر الجاهىر سحب القذائف ومزن المفرقات . ومن أشهر هذه الحوادث الهائلة « مذبحة أمرسار » حىث هجمت الجنود الانكلزىة بالمدافع الرشاشة على جمهور كان محتشداً احتشاد القأمنىن بالفتنة فصدت منه النىران ٥٠٠ نفس وجرحت ١٥٠٠ نفس فى لمحة بصر . ولم تستطع الحكومة تهدئة الحال الا بشق الانفس ، فعاد النظام الى مجراه وزجت الحكومة قادة الفتنة فى السجون ، فباتت الفتنة ساكنة ولكن سكون النار تحت الرماد . وكان اشتراع البرلمان البرىطانى لتقرىر موتاغوشامز فورد الاصلاحى أواخر السنة عاملاً فى استرخاء حلقات

الضيق والشدة ومسكناً من نيران الغضب والسخط ، ومع ذلك فقد ظلت الحال عصيبة اذ لم تدم جميع المياه الى مجاريها ، لأن الحوادث المشؤومة التي حدثت أوائل سنة ١٩١٩ كان من شأنها أن هاجت الاحن والشحناء والأحقاد هياجاً شديداً لا انطفاء له ، فباتت العناصر الثورية من تحت الغطاء أشد عنفاً ومراساً ، وظل المعارضون المقاومون للحكم الوطنى مستمسكين باعتقادهم ان الهند ليست بالجديرة لذلك الحكم اذ متى ما تقلص ظل الحكومة الراجوية المطلقة عادت الفوضى الى الانتشار .

لهذا انقلبت الحال غيرصالحة للقيام بتنفيذ الاصلاح المقترح في تقرير مونتاغو شاهز فوردي . فهب الغلاة يقاومون تنفيذ مقترحات التقرير قائلين ان الاصلاح انما هو شرك يجب انقاؤه ولو عانت الهند في سبيل ذلك ما عانت . ثم أخذوا يبتغون ادراك الغرض ، ولما كانوا يعلمون أن الثورة المسلحة غير مستطاعة لديهم ولا سيما في حال مثل تلك الحال ، عمدوا الى الذريعة الجديدة المعروفة « باللاتعاون » ، وهي في حقيقة معناها مقاطعة شاملة بانه « هائلة » لكل شىء بريطانى أو عليه سمة بريطانية . ولم تقف المقاطعة عند هذا الحد ، اذ تجند لها المنتخبون فقاطعوا الانتخاب للجالس الجديدة ، والمحامون وأرباب القضايا فقاطعوا المحاكم والمكافون فامتنعوا عن تأدية الضرائب ، والعمال فاضربوا عن العمل ، والتجار فرفضوا تعاطى البيع والشراء بالبضاعات الانكليزية ، والطلاب فانقطعوا عن المداومة على المدارس والكليات . وكان الغرض من هذه المقاطعة مضايقة الانكليز على هذه الطريقة حتى تتدلى منزلتهم فى الهند فيصبحوا ضرباً من « الباريه » المنبوذين ، فيضيق الأمر بالحكومة البريطانية والجماعات البريطانية من شدة الاعتزال ، ويفغدو الراجوات ضعاف القوة والسلطة . قليلين بأنفسهم ، فيضطرون الى اجابة الغلاة الى مطالبهم وينزلون على حكمهم فى شأن الحكومة الذاتية النامة .

هذه غاية اللاتعاون . ثم سرعان ما انبرى للسعى وراءها والجهد فى سبيل نشرها زعيم كبير مقتدر هو (موهانداس كارامشودغاندى) الذائع الصيت والذكر المشهور بشدة ورعه . وتقواه . فقد استطاع هذا الزعيم العظيم ان الهب الطوائف الهندوية بأسرها ناراً دينية . مما اعتاد اضرام مثله نساك الهنود ومتشقيتهم الذين على هذا الطراز . ويمكن القارىء أن يقف على ماهية الدعوة التي قام بها غاندى بالاطلاع على هذا المقتبس التالى وهو من احدى

خطبه التي خطبها في الناس : « انه لمن العجب العجاب بقدر ما هو دواع للذل والصغارة ، أن يستطيع أقل من ١٠٠٠٠٠٠ من الرجال البيض أن يتحكموا في ٣١٥٠٠٠٠٠٠٠ من الهنود . أجل ان البريطانيين يستطيعون هذا بالقوة الغاشمة العمياء ، ولكن على الاغلب بما ينالونه منا من التعاون الذي يستفيدونه بالوف الذرائع والوسائل ، وباستنفاد حولنا وقوتنا كما نصبح عالة عليهم في كل أمر من أمورنا وشأن من شؤوننا على مضي الأيام وكر السنين . اياكم ثم اياكم الوقوع في أشراك هذا الاصلاح فتحسبونه سَمًا وهو ورم وماء وهو سراب . اياكم ثم اياكم اوثوق بهذه المجالس الاشتراعية والمحاكم القضائية وكراسي الأحكام فتبيعون بذلك سلطتكم الحقيقية التي هي نصاب حريتكم واستقلالكم . ان جميع هذه الذرائع التي يتوسل بها الانكليز معنا إن هي الامستدرجات لاحتلاب قوتكم وأيديكم ، واستنزاف دمائكم وامتلاكك عظمكم . ان البريطانيين لا عجز عن ان يحكمونا بعد بالتموة ، فلذلك تر ونهم يلجأون من وسياسة الى أختها سواء كانت شريفة أم سائنة ، لكي يتسنى لهم البقاء في الهند . اعلموا أن الانكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا والتلذذ بثمراتنا والاتفاف بقوة رجالنا واولادنا كل ذلك في سبيل جشعهم الامبراطوري ونهمتهم الاستعمارية . فاذا كنا ما يجب علينا أن نكون من العصبية المستمسك بعضها ببعض ، وأيننا ثم أيننا امدادهم بما يريدون منا من المال والرجال ، استطعنا ادراك غايتنا الكبرى الا وهي : السوراج^(١) والمساواة القائمة على صدق المروءة

على ان الغايات التي فد ابتغاها الغلاة من حركة اللا تعاون لم تتحقق كلها فشرع في تنفيذ الاصلاح المقترح في تقرير مونتاغور شلمز فورد ، وأجريت الانتخابات الاولى على مقتضى التقرير أوائل سنة ١٩٢١ . غير ان الظواهر بعيدة بعداً كبيراً من الدلالة على استقرار نصاب الحال ، اذ لم يكديشرع في الانتخابات حتى ظفقت مؤثرات الحركة اللاتعاونية تظهر عالة عملها بالآلاف من مختلف الوسائل ، تبتدىء باضراب العمال في المعامل وتنتهي باضراب الطلاب عن المدارس والمعاهد العلمية . فالهند اليوم انما هي في مخاض شديد ليس فيها الا الفتنة والاضطراب . والامر الاخرى بالاعتبار ان ليس هذا الغليان الهائل مقصوراً على الافق السياسي فقط ، بل يتناول الأفق الاجتماعي كذلك . فان التطورات

(١) معناها الحكومة الذاتية في مراد الغلاة ثم شاع استعمالها في الهند بمعنى الاستقلال .

الاقتصادية الكبرى التي لم تنفك تزداد وتنتشر في الهند منذ نصف قرن الى اليوم ، قد نقضت هيكل المجتمع الهندي نقضاً عاماً فتبدلت الأرض غير الارض . وستكلم على هذه التطورات فيما يلي من الفصول ، والأمر الذي ينبغي لنا استيعابه في هذا المقام هو ان القادة الغلاة لعلى جد في اضرام الثورة الاجتماعية و بلا ريب على صلة برؤية البلشفية ، زد على ذلك ان عوامل الانشقاق القديمة الأصل لم تضحل بعد ولا تلاشت ، فان المذبحة الاخيرة التي ذبح فيها المتعصبة من طائفة السيخ أهل الجماعة حجاج السيخ المنشقين . عن الجماعة ، والفتنة المثلثة التي نشبت في تلك الآونة بين الهندويين والمسلمين والنصارى الوطنيين في الهند الجنوبية ، جميع ذلك يدل على ان نار التعصب الديني والجنسي لم تبرح كامنة . وصفوة الكلام ان الهند اليوم هي أشبه بميدان تتصارع فيه قوى التطورات والانقلابات : النسوية المتدرجة ، والثورية الهائلة . القديم يموت ويفنى ، والجديد يظهر الى الوجود ولكن لم يتكامل بعد : هذه صفة الحال العامة في الهند اليوم ، جو مريد وانقلاب عظيم ، فول وجهك شطر المستقبل فسبحان علام الغيوب .

الفصل السابع

فى

التطور الاقتصادى

من أعظم الواجهات وأدعائها للعجب فى تاريخ العالم الحديث ، هو فتح الغرب للشرق فتحاً مزدوجاً . فكلمة «فتح» قد شاع استعمالها بالمعنى السياسى بحيث يتصور من ذلك زحف واستيلاء ، وجيوش معبأة وعساكر منظمة تدوخ بلاداً أجنبية وتخضعها لسلطان غريب . وظاهر لا يحتاج الى بيان ان مثل هذه الفتوح السياسية قد تكررت فى الشرق وتعددت ، وقد رأينا فيما تقدم من الكلام كيف كانت الممالك المنحطة فى الشرقين الأدنى والأوسط تتساقط خلال القرن الماضى الواحدة تلو الأخرى أمام الدول الغربية ذات الحول والطول والقوى القاهرة المسلحة .

على ان الأمر الذى يجب النظر فيه هو ان هذا الفتح السياسى قد كان يماشيه جنباً الى جنب فتح اقتصادى أمم عدة من ذلك وأوسع مضطرباً وحدوداً ، وقد قدر له أن يكون سبباً فى تطورات جمة أشد فعلاً وأرسخ حالاً وصبغة .

وأما السبب الأسمى فى هذا الفتح الاقتصادى فهو بلامرء الثورة الصناعية فى أوروبا فى القرن الماضى . فانه مثاماً اكسبت الاسفار البحرية التى قام بها كولوموس ودى غاما أوروبا السيادة على الاقيانوس ثم تلت ذلك السيادة السياسية على العالم طراً ، فهكذا قد كان شأن الاختراعات الفنية التى كانت ما بعد القرن الثامن عشر علة الثورة الصناعية ، فانها قد اكسبت أوروبا السيادة الاقتصادية على العالم بأسره . وقد كانت هذه الاختراعات فى الواقع بشيراً بعصر جديد من عصور الرياد والاستكشاف ، ولكن ليس فى مجاهل الأرضين وأبكار الاقطار ، بل فى آفاق العالوم وممالك الفنون . فكانت النتائج فى هذا العصر عصر الاختراعات أعظم وأجل من تلك التى حصلت فى عصر الاستكشافات الجغرافية منذ ثلاثة قرون خلت ، لانها جعلت بنى عرقنا وقومنا ذوى سيادة

فوق قوى الطبيعة بحيث كان من شأن الانقلابات الكبرى التي حدثت في الحياة الاقتصادية على الاثر ان بدلت وجه العمران تبديلاً تاماً وغيرت صورته من حال الى حال .

ان هذه الانقلابات العظمى هي بلا ريب مما لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . فان ارتقاء الانسان المادى كان لم يبرح حتى ذلك العهد سائراً سيراً متدرجاً بطيئاً ، واذا استثنينا البارود الذى كان معروفاً من قبل نرى الانسان كان لم يزل على حال تكاد لم تتغير منذ عصور متطاولة وأحقاب مديدة ، اذ لم يكن هو قد شد الى تذليل القوى الطبيعية رحاله بعد ، ولا استطاع ان يفوق أجداده الاقدمين فى التسلط على قوى المادة ، فالركبات والعجلات التي كانت شائعة فى عصر أجدادنا لم تكن لتختلف عن تلك التي كانت فى عصور المصريين الاولين ، وأيضاً السفن الشراعية كانت كالسفن التي كانت معروفة فى العالم القديم من قبل الحرب التروادية ، فالصناعة الاوروبية قبل القرن الماضى كانت قائمة على قوة عضل الانسان والحيوان ، وعلى الريح وقوة انحدار الماء ، واذا بالخال تطورت بخفة تطوراً تاماً هائلاً ، فظهر البخار والكهربائية والبتروال واللاسلكى ، فبدأ الانسان يكون جباراً يسخر القوى الطبيعية المنجوبة ، ويقرب الابعاد ، ويضع يده على مناكب الكرة الارضية ، ويحرق جبالها ويتغلغل فى احشائها ، ويذلها ويروضها فى سبيل مصالحه ومنافعه ، ولم يزل يصارع قوى الطبيعة حتى ظهر على الكثير منها ، ثم رأى نفسه فاذا هو بعالم مادى جديد ما كان ليعرفه من قبل ، مختلف عن ذلك السابق اختلافاً لم ينحصر فى الحيز والحد بل جاوز ذلك الى النوع والصفة .

نقول الانسان انما بات فى عالم مادى جديد ، ونعنى به انسان القرن التاسع عشر ، أو الرجل الابيض ابن أوروبا هو وجالياته التي انشرت فى الارض وجعلت تنبئها لها طوارئ ما وراء البحار ، اذ ان المبتدع لاسباب هذا الانقلاب والنظور والاختراع هو ثم هو دماغ الانسان الاوروبى الابيض الذى كان المجلى فى حلبة هذا الميدان والجاني للطيبات والخيرات قبل غيره من سائر الانسان ، على انه قد كان لهذا العصر الجديد ميزتان هائلتان : هما نشوء الصناعة الآلية التي طفقت بها المنتجات الصناعيّة تندفق تدفقاً جاوز الغاية واستغرق الحد ، وترقى وسائل النقل وشيوعها ورخص أجورها : فهذان العاملان قد زادا زيادة فاحشة فى القوة الاقتصادية واستفحال الثروة فى أوروبا التي غدت منذ

ذلك العهد مصنع العالم غير منازع . وفي الواقع انما كانت أوروبا خلال القرن التاسع عشر تنتقل من عهد كانت فيه القارة شبه زراعية الى آخر أصبحت فيه معملاً صناعياً هائلاً ملؤه الارزاق ورؤوس المال والعمال ، منه أخذت تصدر البضاعات والسلع والامتعة على اختلافها مقادير عظيمة الى كل حذب وجهه فى الارض ، واليه تجلب ارزاق جديدة من المواد الخام لتحوّل وتصنع وتبادل .

هكذا كانت حالة الغرب الثائر ثورته الصناعية لما وقف ازاء الشرق المتقهقر المتضعع الساكن الحركة فى حياته الاقتصادية فضلاً عن السياسية وفنون الحرب . ولا عجب فالشرق كان إذ ذاك فاقداً للصناعة والتجارة بمعنييهما المعروفين عندنا اليوم ، وما كان له من حياة اقتصادية على الجملة فانما كان قائماً على الزراعة . وبهذا الاعتبار كانت الوحدة الاقتصادية هى القرية أو البلدة القائمة على عول نفسها بنفسها حتى كادت تكون فى عزلة عن غالب جوارها . وأما الصناعات والمهن والحرف فى الشرق فقد كانت يدوية ، يقوم بها قليل من أبناء الفن أو الصنعة يشتغلون فى الأكثر كل بمفرده فى نطاق ضيق الحدود . وكان الجانب الأكبر من منتجاتهم النفيسة النوع فى الغالب ، حاجات كإليته تستنفد فى سبيل التمتع والترف ، تصنع على طرق بطيئة وأساليب قديمة بحيث ان الكمّ المنتج كان على مقدار معروف ، وأسعاره فى السوق غالية بالإضافة اليه . لهذا السبب ما كانت المنتجات الاسيوية ، على نزاره الاجور وقلة النفقة ، لتستطيع مباراة البضاعات الأوروبية والأميركية المصنوعة بوسائل الآلات والزاخرة فى أسواق العالم المختلفة ، بل كانت فوق جميع هذا محسرة وكاسدة فى الأسواق الشرقية الوطنية .

على أن عدم استطاعة الشرق مباراة الغرب مباراة صناعية لم يكن كل السبب فيه قلة كفاية فى طرق الانتاج وجود فى أساليب الصناعة ، بل ان ذلك ليشتمل على أسباب أخرى ، وعوامل ليس شأنها بقليل ، كحالة العمال العقلية وقلة رؤوس المال ، إذ أن الحياة الاقتصادية فى جميع الشرقين الأدنى والأوسط كانت قائمة على قاعدة الارتضاء بهذا الحال وابقاء القديم على قدمه . أما القواعد الاقتصادية الغربية فى العقود الكبرى وفى المنافسة والمزاوجة لم تكن فى الواقع معروفة ، فالزراع وذو الحرفة والمتفان والصانع جميعاً كانوا لا يجيدون مصنوعاتهم زيادة على القدر الذى أخذوه عن معلمهم بحيث وهم هذا شأنهم

لا يحدون قيد فتر عن طريق القفول آثار أسلافهم ومتقدميهم ، مرددين القول انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارتهم مقتدون . لذلك لم يكن هناك من عامل المزاجية ولا من داعي التفوق ما يحمل على الاجادة والتحسين وزيادة التعشق والابداع . وقد كادت الاجور تكون دوما لازمة مضطربا لا تعدوه ، فلم يكن من رغبة في ترقية أساليب الحياة ولا في طلب المزيد من الرخاء والرفاهية ، وكانت الصناعات جميعها نمطية مماثلة النهج لا تخرج عن حد المشابهة والمحاكاة ، بحيث كان جميعهم الصانع المتخرج أن ينسج عن منوال مخرجه دون أن يشحذ فكره في تحسين آلة أو اختراع أخرى أو ترقية أسلوب أو استنباط جديد حتى يتسنى له بذلك تسهيل عمله وتوفير انتاجه ، بل كان عوضا عن أن يجد ليحجى المراج والمكاسب مما يمهده طريق التقدم والترقى ، منكباً على اتباع السبيل الذي اتبعه آباؤه وأجداده من قبل ، وفوق جميع هذا كان في غالب أمره على نزوع الى تقديس هذه السبيل الموروثة تقديسا يكاد يكون دينيا اقتداء بأسلافه الذين هكذا كانت حالهم أعصرأ وقرونا ، غير مريد الحيدة عن أخذ اخذتهم ، ولا متحولا عن قفو سبيلهم لازيادة ولا نقصان ، راعيا وكأما لأساليب صنعتته أو فنه حاسباً ذلك كأنه من مقدسات الأسرار ومحرمات الاستار .

أما الفئة القليلة التي اشتملت على الأشداء الأجرئاء المقادم الذين كانوا من الهممة والنشاط بحيث لا يبالون بنسخ العادات العتيقة والأوضاع القديمة البالية ، ويتبغون الخروج مما تقيدوا به حقبا وأجيالا ، فكانت قلة رؤوس المال تحول بينهم وبين مبتغاهم ، وتنهيم عن ولوج الباب الذي يرومونه لأن رؤوس المال الفياضة، السهلة الانتقال من موضع الى آخر، المرصدة للأعمال المدرارة خيراً ، والمشروعات الوافرة ريعاً ، لم تكن في الشرق . لأن الشرقى على اختلاف طبقتيه ، أميراً كان أم صعلوكاً ، كان لا يحسب المال وسيلة للجنى والكسب ، أو ذريعة لتقارض المنافع والتعاوض بالأرزاق ، بل كان يحسبه كنزاً يذبحي لصاحبه أن يحرص على خزنه ليوم عصب يضطر هو فيه فيكون « هذا الدرهم الأبيض لذلك اليوم الاسود » . لهذه العلة الحرية بالاعتبار لم يرح الشرق مستودعاً للمعادن الثمينة والجواهر الكريمة منذ قدمي العصور حتى اليوم . ففي الهند وحدها مقادير عظيمة من الذهب والفضة والجواهر ، بعضها مكنوز في الصناديق الدفينة في جوف الأرض وبعضها الآخر مما تتشرف به النساء الهنديات أقرطا ويتحلين به عقوداً ، مما تبلغ قيمته على اليقين

ملايين من الدينارين . فى هذا الشأن قال كاتب حديث : « قىض لى سانحة فأخذت لىكى أشاهد السراىب التى فىها الخزان والدفائن من الجواهر لأحد المهارجات ، فأرسلت ذراعى حتى المنكب فى وعاء ذهبى مملوء بالاماس واللالىء والزمرد والىواقىة ، ورأىة الجدران مرصعة بالكلاىب الذهبىة ، وعلى كل كلاىبىن حزمة من قضبان الذهب طول كل واحد من ثلاثة الى أربعة أقدام وقطره قىراطان وبعض القىراط . ثم رأىة وعاء آخر مملوءاً ألاماسا فاحتفت منه بكلتا كفى حفنة وطفقت أنثرها من بىن فرج أصابى فكانت قطع الاماس تنناثر مؤتلفة ائتلاق قطرات السحاب وقد انعكس علىها نور الشمس . فىى الهند نحو من سبع مئة امارة وطنىة على رأس كل منها أمىر ، كل أمىرله سراىب على طراز هذه السراىب وكنوز على صفة هذه الكنوز زد على هذا أن كل دهقان (زمندار) وهندى وطنى اذا مارام توفىر شىء فلاىرومه الامعدنا كرىما ، من حىث ان الهندى لاىثق بقىمة الاوراق النقدىة ولاىحب التعامل بها . أما النقود المعدنىة فتارة يسبكبها خلاخىل لزوجهة وطوراً يكنزها تحت لبنة متزعزعة فى الحائط أو حجر مبسوط من أحجار التنور الارضىة ، أو فى حفرة فى موضع معىن » .

على أن هذا الوصف انما هو لثراء الهند المعاصرة ، من بعد ما انقضى علىها أ كثر من قرن وهى فى الحكم البريطانى ، وبعء أن انتشرت فىها الآراء والمباىء الغربىة التى كما سنبرى قد سببت كثرأ من التطور فى البلاد . وىنبغى أن لا نغفل أن شنشنة كنز المال لم تكن مخصصة بأهل الهند دون غىرهم بل هى شاملة لىجىع الشعوب المشرقىة . فىسهل علىنا بعد الوقوف على هذه الحقىقة أن ندرك السبب فى ذلك الافتقار الشدىد الذى كان علىه المشاركة الى رؤوس المال الكافىة للقىام باسثمار المشروعات الحىوىة بما كان الى حد مئة سنة خلت . وىزداد علما بالسبب متى ما عرفنا أىضا أن الاضطرابات السىاسىة والنواهى الدينىة الحائلة دون اءانة المال بالفائدة ، قد وقفت حجر عثرة فى سبىل الافراد الطماحىن من ذوى الهمة والنشاط الذىن ىبتغون استءرار القناطىر المقنطرة من أموالهم بوسائل المشروعات الكبرى ذات الرىع الجزىل . فلم ىبق هناك من وسىلة مستطاعة لاستءرار الاموال غىر المراباة التى عمت بها البلوى فأصبحت جىع رؤوس المال الشرقىة الذرة تستدر على هذه الطرىقة ولكن البلىة هى أن رؤوس مال كهذه ، لم تءن للقىام بالاعمال المنتجة

الراحة والمشروعات القيمة بل للانغماس في الترف والاسترسال الى الملاذ البدنية ولسد الحاجة ، لكن مع الاسراف والتبذير فكانت مضرّة قاتلة ، لا محبةً منجحة ، وزادت رؤوس المال على اختلافها اجحافاً .

هكذا كانت حياة الشرق الاقتصادية منذ قرن ومن المحقق أن هذه الحياة المتضعفة ذات النظام المعتل قد أفضت بالشرق على التوالي الى العجز وفقد القوة والحول امام تيار المزاجية الهائل الذي اندفع به الغرب التأثير ثورته الصناعية ، فغدا طوفان البضاعات الغربية ، الآلية الصنع ، الرخيصة الاسعار ، يطمو على كل قطر من أقطار المشرق ، جارفاً ما كان أمامه من البضاعات والمصنوعات الوطنية جرفاً . وما كانت الطريقة التي لاشت بها المزاجية الغربية العظيمة ، الصناعات اليدوية الشرقية القديمة ملاشاة تامة ، كما لاشى قطن « لنكشير » صناعة النسيج اليدوية الا مثلاً يقاس عليه انهيار كل ركن من أركان الحياة الاقتصادية في الشرق . على أنه قد قام بعض الكتاب الشرقيين وقالوا ان هذه الغلبة التي قد نالتها المصنوعات الغربية في الاسواق الشرقية كانت الأسباب فيها سياسية أكثر منها اقتصادية ، ويستشهد رجال النهضة الوطنية في الهند على صدق كلامهم في هذا الشأن بالمساعي التي تبذلها حكومة الهند في سبيل توفير الوسائل وتعبيد الطرق لتفوق أقطان « لنكشير » المذكورة ، ويؤكدون القول ان هذا وليس سوى هذا من سبب لاضمحلال صناعة النسيج في بلادهم . على ان هذا القول ليس بصحيح . فان المساعي التي قامت بها السلطة البريطانية قد تكون عجلت في حصول ما قد حصل من تفوق المصنوعات البريطانية على تلك الوطنية في الهند ، ولكن هذا التفوق كان بطبيعة الحال والزمن بما لا بد منه بوجه من الوجوه . وخير دليل على انه لم يكن بد لتيار المصنوعات الغربية من التغلب انما هو الطريقة التي تلاشت بها صناعات النسيج في بعض الممالك الشرقية المستقلة مثل تركيا ويران ، تلاشياً شبيهاً بذلك الذي حصل في الهند امام تيار المزاجية الغربية الجارف .

ونزيد برهاناً آخر على هذا ، وهو تلك الحقيقة الراهنة بأن الشعوب الشرقية اجلاً كان من عجيب أمرها انها طفقت تقبل كل الاقبال على شراء المنتجات والمصنوعات الغربية ، مؤثرةً اياها على تلك الوطنية المصنوعة صنعاً يدوياً متقناً . وقد حل هذا الأمر الذي لامراء فيه كثيراً من أهل الغرب على الدهس والاستغراب ، اذ كادوا لا

يفقهون كيف ان الشرقيين يقبلون على شراء الرخيص الرديء من البضاعات الغربية
المصنوعة صنعاً على طراز مخصوص بالاسواق الشرقية، يرونها أفضل من بضاعتهم الوطنية
من حيث ان هذه بالحق أجود وأجل . فالجواب على هذا ان الشرقي بالجملة ليس بالخير
الفني الماهر، وإنما هو رجل رقيق الحالة ادركته الخصاصه، فبات يجدّ جداً ليتوفر على
عيلة أهله اذ لو تواني بعض التواني في السعي وطلب الرزق كادت تنشب به مخالب المسغبة .
فهو بهذا السبب ليس يقصد الاسترخاء فقط بل لا مفرّ له من ذلك سواء شاء أم أبى، لأن
رخص الأسعار هو العامل القاهر الذي يسوقه الى ذلك . ولا شك ان جودة البضاعة هي أيضاً
سبب من الأسباب التي تحمل الشرقي على ايثا تلك البضاعة الجديدة . اذ الى هذا ان
البضاعة الغربية من حيث الكمّ والمقدار لم تقف عند حد الحاجات والادوات الشرقية التي
كان قد اعتاد الشرقي استعمالها حقباً واجيالاً بل أخذت تزداد ضروباً وأنواعاً مما لم
يعرفه الشرقي من قبل . ثم ان ما هي عليه هذه الضروب والانواع الحديثة من التفتن
المقترن بسهولة الاستعمال كان مما يدعو الشرقي لشرائها والارتفاق بها واستفادها، فصارت
بطبيعة الحال تندمج في مجموع حاجاته الاقتصادية اندماجاً لا غنى له عنه . وقد ذكرنا في
موضع تقدم كيف قد شاعت المطارز ومصاييح غاز الاستصباح في الشرق بلداً بلداً، فقس
على ذلك سائر الحاجات التي اخضعتها السنن الاقتصادية فشاعت مثل ذلك الشيوع . ان انتشار
البضاعات والمصنوعات الغربية كان بلا ريب علة في تطورات جمة في كل صورة من صور
الحياة الاقتصادية الشرقية فنشأت بطبيعة هذه التطورات حاجات اقتصادية حديثة لم تكن
لتُعرف من قبل بته، وتحسن مستوى الحياة تحسناً ينياً، وترقى مقياس النيقة والذوق
ترقياً كبيراً . قال عالم اميركي اقام في الشرق غالب حياته . « ان الاطلاع على المخترعات
العصرية، وانواع الاغذية والآنية الحديثة مما لم يكن له وجود من قبل، قد دعا الى نشوء
حاجات جديدة ما لبثت ان ساوقت المنازع النفسانية حتى رسخت واستقرت في أفق الحياة،
فالفلاح الصيني بات لا يرتضى بعد ان يسهر ليله على مصباح زيته المستخرج من اللوبياء
والفول، بل ينبغي غاز الاستصباح بديلاً . والاسيوي على الجملة لا ينفك يتطلب المصابيح
الحديثة الطراز تطلباً شديداً ورغبته لا تقل في ذلك عن رغبته في تطلب الساعات الحديثة
أيضاً . وكذلك مثلاً، السوري الطموح الذي بات يستنكف السكنى بييت سكنه آباؤه

واجداده من قبله مستقوفاً بالر وافد والطين وأصبح لا يرتضيه بعد اليوم الا بسقف من الآجر الصقيل الوارد من فرنسة . وفي كل مكان ترى القوم يتطلبون الأدوات والمصنوعات الاجنبية فالاطلاع يخلق الحاجة والشرق لم يزل يزداد اطلاعاً ومعرفة ، لذلك بات يتطلب اليوم مئات الحاجات التي ما كان اسلافه يعرفونها أو يسمعون بها »

وحيثما تقلبت في أقطار المشرق رأيت هذا التطور والانقلاب على هذه الصفة . قال كاتب اقتصادى هندي ، وهو عدو شديد للحضارة الصناعية الغربية يندب ككون ذوى الفنون والمهن باتت أعمالهم لا تجدى نفعاً فطفقوا ينقلون الى القيام على الزراعة ، وان غاز الاستصباح الوارد من باكو أو نيويورك أمسى يهدد حياة باعة الزيت الوطنى (المستخرج من طائفة من أنواع الخضروات الوطنية) ، وان المصنوعات الحديدية الرخيصة الأثمان ، الصقيلة المزخرفة من الخارج ، الواردة من أوروبا ، قد أخذت تلتشى التجارة الوطنية في الأواني والأوعية النحاسية التي ظلت معروفة في البلاد منذ الحقب القدمى زد على ذلك ان هناك تطوراً كبيراً في أذواق المستهلكين على ترق متعال مستمر . فان أهل البلاد قد أقبلوا عن استعمال « الغير » (ضرب من الحلواء) الى السكر الأوروبى ، وعن الأقمشة المصنوعة من النسيج الوطنى الخشن الصفيق الى تلك الغربية الناعمة ، وان جميع الصناعات الأهلية أصبحت على شفا جرف البوار حتى قضى على كثير من أربابها ، وان القرى التي ظلت قروناً عديدة على مطرد عاداتها ومنساق عرفها انبرت تقلع عن ذلك إقلاعاً سريعاً ، وكثير تعاملها مع كل سوق من أسواق العالم ، وان السفن والقطر الحديدية التي ربطت أنحاء البلاد بعضها ببعض قد أمست في البلاد شبه شبكة أو عروق واشجة فتدانت القرى وصارت كل قرية على صلة من الأخرى . وصفوة القول ان المزاج الغربية التي ظهرت وانتشرت هذا الانتشار الهائل في عهد ماأقله من عهد ، انما كانت علة تطورات عظيمة تغيرت بها صورة الحياة .

ولم يكن السبب في هذه التطورات العظيمة هو تدفق الصناعات الغربية فحسب ، بل أيضاً تدفق رؤوس المال الغربية . ذلك لأن الفرص الطيبة لاستدرار الأموال كانت عديدة فأخذت رؤوس المال الغربية تفيض فيضاناً مطبقاً كل قطر من أقطار الشرق . ولما لم يكن للشرق من وليجة عن الاستعانة برؤوس الأموال الاوروبية لمباشرة جميع الأعمال

الاقتصادية والمشروعات النافعة بالمعنى المعروف اليوم ، فقد كثرت القطر الحديدية واستخرجت المعادن ، وأحييت الزراعة على الأساليب الحديثة ، وأنشئت مشروعات أخرى تنمى الثروة . ولا مرء ان أعظم ما أنشئ هو تأسيس معامل صناعية عديدة منتشرة من أفريقية الشمالية حتى الصين ، فازداد عمران « المدن الصناعية » ازدياداً حتى بات دوى أصوات الآلات ودخان المعامل الصاعد فى الفضاء يبشران بان الشرق قد شرع يحذو حذو الغرب فى الحياة الصناعية .

أما النتائج الاجتماعية العظيمة التى حصلت من ديب روح الصناعة فى الشرق ديباً منتشراً فى كل عرقٍ من عروقه فستكلم عليها فى الفصول التالية . لذلك نقصر - فى هذا الفصل - كلامنا على شأن التطور الاقتصادى وتناججه . زد على ذلك ان هذا الكتاب انما جعلنا موضوعاته مقصورة على شؤون الشرقين الأدنى والأوسط بحيث لا نستطيع التوسع فيه حتى نتناول الكلام على الصين واليابان ، فينبغى للقارئ الكريم أن لا ينسى كون تطورات الشرق الأقصى وانقلاباته غالبها سبل ودهاليزلما نحن آتون على ذكره فى هذا المقام .

ان المستحدثات والمنشآت الصناعية جميعها كانت فى بادىء الأمر أشبه بمغروسات غربية صرفة فى تربة شرقية ، قائمة على رؤوس المال الغربية ، تدبر أمورها وتدير شؤونها أدمغة أوروبية ، ذلك الواقع الذى لاريب فيه . وما كان الغربى ذو رأس المال ليغمر بنفسه ولا ليجازف بماله ويضعه فى أيدى ابن الشرق الفاقد معرفة أسرار الصناعة وخفاياها الدائب على الاسراف والتبذير ، الجانح أبداً الى المراعاة والمحابة ، اللجوج فى مراد جنى الثمار قبل أوانها ، القليل الخنكة فى سبيل الاجادة والخبرة فى طرق المنافسة . بيد أنه على ممر الزمن أصبح للمشروعات الغربية التى ضربت من النجاح والفلاح بسهم تأثير شديد فى نفوس الشرقيين مما حل الطماحين منهم وذوى النظر البعيد فيهم على إبراز رؤوس مالهم والمنافسة بها فى عالم الصناعة ، وقادهم الأمر الى الاطلاع على وسائل النجاح واكتناه أسرار الفلاح وقد وصفنا فى أواخر الفصل الأول من هذا الكتاب ترقى الأعمال التجارية على الطراز الحديث فى العالم الاسلامى وفى الهند عند المسلمين وغير المسلمين . فى الهند عناصر عديدة مثل المجوس والمرايين الهندويين الذين غدوا اليوم جميعاً غائضين فى لجنة الأعمال المالية

والصناعية بالمعنى الحديث . والسبب في ذلك أن هذه العناصر الوطنية انما كانت من قبل قائمة على تعاطى الربا وضروب الفائدة . فاكتمست بذلك على توالى الأيام خبرةً في طبائع الأعمال أهلتها لولوج هذه الأبواب الحديثة . ومن غالب هذه الطوائف ظهرت الجماعات القائمة اليوم بمشروعات الأعمال الوطنية في الهند وأكبر هذه الأعمال وأعظمها معامل نسج الأقمشة في كلكتا وبومبيء ، ومعامل صنع الأواني والأدوات الحديدية في بنغال . وهذه الاعمال جميعها قائمة على رؤوس مال وطنية يديرها وطنيون خبراء . على أنه لا ينكر ان هذه المشروعات كانت تلتقي في ابتداء سبيلها كثيراً من المشقة والعناء . ولكن مما لا ريب فيه ألبتة ان مغروسات الصناعة الغربية في تربة الشرق أخذت تتلاشى تلاشياً سيستمر حتى يختفي ظلها الأجنبي من على وجه المشرق من حيث ان الصناعات الوطنية أخذت تتأصل وتغرق في كل تربة صالحة .

ثم نتج عن جميع المشروعات والأعمال الغربية والشرقية . ان نشأت مراكز صناعية خطيرة في مختلف الأقطار الشرقية . قال كاتب فرنسي في شأن مصر (سنة ١٩١٠) « باتت ضفتا النيل مرصعتين بخطوط مؤلفة من معامل السكر والقطن الباسقة المداخن فوق أخصاص الفلاحين وأكواخهم » . وقال السير ثيودور موريسون في شأن الهند : « في مدينة بومبيء قد بلغت الثورة الصناعية حد النجاس والاكتمال . بومبيء مدينة صناعية حديثة ، ترى فيها حسنات الحضارة الصناعية الحديثة وسياتها ، فيها الأسواق والأزقة المزدهجة غير الجيدة الهواء كما هو الحال في كل مدينة وحاضرة أوروبية . وفيها طبقات من أهل الثراء ذوى الملايين قد زينوا شوارع المدينة بما أنشأوه وشيدوه من بيوت البر والاحسان فالزائر القادم من الأقاليم ليدهش حقاً من جميع ما يراه في بومبيء من مظاهر الأبهة المنطوية على الاسراف والافراط ، ويفتنن افتتاناً بترقي المقاييس الذوقية . اما القرى التي نشأ فيها وترعرع ، والحقول الرحبة الواسعة الأرجاء التي تظلل سماءها وشرب ماءها ، فانها في نظره اليوم هي الهند الآخذة في التطور والانتقال . بومبيء بشير المستقبل الزاهر والغد الباهر » على أن قرب متناول الثروة الطبيعية وكثرة العمال ونزارة أجورهم جميع ذلك قد جعل أرباب النظر من الشرقيين على التوسع في المطامح الكبرى والآمال البعيدة ، حتى قامت طائفة منهم تأمل أن تضم رؤوس المال الغربية الى الأيدي الشرقية العاملة ، كما

أوضح هذا أحد أ كابر الاقتصاديين الهنود بقوله : « الأموال الانكليزية والأيدى العاملة الهندية هما أرخص مافي العالم ». وقامت طائفة أخرى أشد مطمحاً وأبعد غرضاً وغاية تفكر في تحويل المشرق من أقصاه الى أقصاه ، الى معمل صناعي ، فتنبذ المصنوعات الغربية نبذاً ويحرم الغرب حرماناً من هذه النعم التي يجتنيها في الأقطار الشرقية . وقد بين هذا المطمح كاتب هندوي في مقال نشره في احدى المجلات الهندية قال فيه : « ان الشرق ليهتدّ الغرب ويناوئه مناوئة مرة غير هيب ولا وجل . لأن الشرقيين قد انبروا الى الميدان الصناعي ينزلون ويكافون ، وقد قدر لآسية الجبارة منذ الآن أن تقوم بحرب تجارية عوان ، لها مشار وليس لها ختام ، تطبق أقطار المشرق قطراً قطراً . فهذه الحالة الشاقة لن تدوم مادام الغربي يركب من الهول ما يركب لكيما يظل قابضاً على أزمة التجارة في الأسواق الشرقية ، اذ أن الشرق غدا لا قبل له باحتمال ذلك فانبرى لزال الغربي وصدامه ، وهو لا ينفك يصارعه حتى يجنده له في معركة كان الشرقى من قبل يسقط فيها للأجنبي غنيمة باردة . . . زد على ذلك أن الشرق في زحامه التجارة الغربية اليوم قد أيقن كل الايقان أن الوسائل التي كانت في يده فيما مضى كانت عقيمة لا تجدى أقل نفع ، فأقلع عن استعمال تلك الآلات والأساليب القديمة وأقام مقامها الآلات الغربية الحديثة الطراز حتى يتسنى له بذلك قهر عدوه وطعن منازله في كبده ، لذلك اشتدت والحق يقال عزيمته وعاد لا يرتضى اليوم لنفسه ما كان يرتضيه بالأمس ، وطفق يدرس العلوم والفنون التي هي للغرب ذريعة فلاحه المادى ونجحجه الكبير ، وما انفك يقرن العلم بالعمل ويتمشى على نتأج استقصائه واكتناهاه تمشياً صحيحاً مطرداً ، ويفرغ الأساليب الغربية في قاب شرقى على ما يلائم مطلبه ويوافق شأنه ، ويتفنن في ترقية هذه الأساليب ترقية حسنة . »

ثم هب كثير من أهل الاستقصاء الغربيين يؤكدون هذه اليقظة الصناعية الكبيرة في الشرق . وفي الحين الذى كان فيه الكاتب الآنف الذكر يدبج مقاله هذا كان كاتب اقتصادى أميركى مشهور يقوم برحلة استقصاء في ربوع الشرق ومما كتبه في الحالة الاقتصادية قوله : « ان السبب الجوهرى في فاقة آسية وخصاصتها انما هو ناشى عن أمرين لاثالث هما : عجز الحكومات الشرقية عن تعليم شعوبها ، وعجز هذه الشعوب نفسها عن توسيع طاقتها لزيادة الانتاج باستعمال الآلات والأدوات الحديثة . فالجهل اذن وقلة

الآلات هما وحدهما علة افتقار آسية وانحطاطها ، كما أن العلم والآلات الحديثة هما وحدهما علة فلاح أمريكا وارتقاءها أوج السعادة والعمران . ثم يسوق الكاتب كلامه مبيناً أنه يجب علينا أن نرتقب نهضة آسية ارتقائاً شديداً ، فإن آسية مذبات ترى هذه الحقائق الواقعة بعينها انطلقت تجددٌ جدياً هائلاً لترقية شؤونها وأحوالها ، لذلك « من الواجب علينا أن نستعد أكثر فأكثر لمباراة هذه الشعوب المستيقظة ، الشديدة البأس والأيد بسبب انها تغالب الخصاصة وانها معتادة تذليل الصعاب ، وهي التي قد شمردت عن السواعد للترعر بجميع ذرائعنا ، وأعدت العدة للاطلاع على جميع أسرار قوتنا وفلاحنا ، متاهبة للاستفادة من العراك الذي سيكون في سبيل التفوق الصناعي والاصلاح الجنسى . » وقال مستقص أميركي آخر في كلامه على الشؤون الاقتصادية في آسية (سنة ١٩١٤) : « ان جميع آسية من شرقها الى غربها قد امتدت فيها عروق الصناعة الحديثة وأسباب الفلاح الصناعي الحديث . » وقال السرنيودور موريسون في شأن مستقبل الهند الاقتصادي : « ان الانقلاب الصناعي الهائل في الهند قد أمسى على قاب قوسين أو أدنى ، فقد اضمحلت العقبات التي كانت الى اليوم حائلا دون نهج المناهج الحديثة في الصناعة العصرية ، وانتشرت وسائل النقل انتشاراً عاماً في طول البلاد وعرضها ، وبات استقراض رؤوس المال لشراء الآلات وتشديد المعامل والمصانع أمراً ميسوراً ، اذ يمكن أرباب المشروعات أن يجلبوا الأدوات والمواعين ، واستئجار المهندسين ورجال الادارة والتدبير من أهل الغرب ليقوموا بتخريج ربانبة بحر الصناعة لهند المستقبل . وبات اللغة الانكليزية وسيلة سهلة للتعامل التجاري في الأقاليم الهندية بعضها مع بعض ، وبين الهند وغالب العالم الغربي . ومادامت الهند آمنة من أن تفاجأ بفتح أجنبي أو ثورة داخلية فلها من الزمن نصير على القيام بالمشروعات الكبرى على اختلافها . فجميع الأحوال المحيطة ملائمة كل الملائمة لثورة صناعية عظيمة اذا قيض لها الاكتمال وبلوغ الحد زادت في ثروة الهند كل سنة زيادة فاحشة لم يحلم بمثلها من قبل . »

على أن العامل الكبير الذي ينبغي الاستفادة منه حق الاستفادة لا كمال عدة الشرق في المواضيع التي لم تزل تنقصها الخبرة والحذاقة في عالم الصناعة ، انما هو كثرة العمال ونزارة اجورهم ، الأمر الذي يبدو لأهل الاستقصاء من الغربيين بالغاً منتهى الغرابة . فلنعتبر

هذا في شأن مصر والهند على سبيل المثال الذي يصح أن تقاس عليه في سائر أقطار الشرقين الأذنى والاوسط. كتب الاقتصادي الانكليزي ه. ن برايسفورد سنة ١٩٠٨ في أمر مصر يقول: « ولم يكن اذ ذاك قانون للعامل والعمال في مصر، من حيث ان في البلاد معامل لحلج القطن تستخدم العملة مياومة ليقوموا باعداد القطن للشحن والاصدار، ويستغرق هذا العمل أربعة الى خمسة أشهر كل سنة. وكانت أجور هؤلاء العمال نزره تتراوح بين ٧ ١/٢ و ١٠ بنسات للبالغ و ٦ بنسات للحدث، وكان البالغون والأحداث يشتغلون في بعض الاحايين اثنتي عشرة ساعة وفي الغالب خمس عشرة ساعة، وعند اختلاف المعتاد ست عشرة الى ثمان عشرة ساعة في اليوم. وفي بعض فصول السنة كان العمال حتى الاحداث يشتغلون اثنتي عشرة ساعة في المساء فضلاً عن النهار». والحالة في الهند شبيهة بهذه الحالة في مصر. فان أول تحقيق في شؤون المعامل الصناعية في الهند قد قامت به لجنة من لجان العمال الصناعية سنة ١٩٠٧ واليك بعض الحقائق التي اشتمل عليها تقرير هذه اللجنة: ان ساعات العمل في معامل القطن في بومبي هي من ثلاث عشرة ساعة الى أربع عشرة ساعة على اطراد وانتظام. وفي معامل القنب في كالكتا يشتغل بعض العمال غالباً خمس عشرة ساعة وفي معامل القطن يجب على العمال أن يشتغلوا سبع عشرة ساعة الى ثمان عشرة ساعة في اليوم. وفي معامل الارز والمطاحن يشتغل العمال عشرين الى اثنتين وعشرين ساعة، وفي المطابع يشتغل العمال عند اختلاف المعتاد اثنتين وعشرين ساعة سبعة أيام متوالية. أما الاجور فكانت للعامل البالغ الذي يشتغل ثلاث عشرة ساعة الى خمس عشرة ساعة في اليوم ١٥ - ٢٠ روبية في الشهر. وكان العمال الأحداث كثيرى العدد لم تجاوز اسنانهم السادسة والسابعة ويشتغلون في أحيان عديدة ثمان ساعات في اليوم. وكانت نتيجة هذا التقرير ان حكومة الهند سنت قانوناً حسنت به حالة العمال بعض التحسين ولا سيما حالة النساء والأحداث. بيد انه في سنة ١٩١٤ كتب الاقتصادي الفرنسي «البرت ماتان» بعد استقصاء مدقق قام به يقول: ان حالة عمال المعامل لم تتحسن تحسناً مذكوراً اذ فقد القانون الذي وضعته الحكومة مفعوله وما روعي مراعاة صحيحة، فعاد عدد ساعات العمل فزاد والاجور فنزرت، وبات لعمال الرجال في بومبي لا يتناولون أكثر من ١٠ الى ٢٠ سنتاً في اليوم ولم يجاوز الحد

الاعلى لاجورهم ٣٠ سنتاً والحد الاعلى لاجور النساء والاحداث لم يجاوز ١٠ سنتات في اليوم .

وقد يخيل الى المفكر المتدبر لأول وهلة هذا الحد الذي تبلغه نزارة الاجور ، والمتأمل هذا العدد الكبير لساعات العمل ، أن الشرق لو يسرله رؤوس المال الكافية والآلات والأدوات الحديثة لاستطاع ليس منافسة المصنوعات والمنتجات الغربية في الاسواق الشرقية منافسة الاغراق فحسب ، بل ربما استطاع غزو الاسواق الغربية في موطنها . وقد حل هذا الأمر كثيراً من كتاب الغرب على الخشية والحذر ، اذ منذ ثلاثة ارباع القرن (سنة ١٨٥٨) تنبأ غو بينو بان آسية ستفتح أوروبا وفتحاً اقتصادياً هائلاً . ثم قام من بعده كثير من الاقتصاديين مثل برايلسفورد وغيره ينذرون العالم الغربي بسوء العقبى من جراء تسرب رؤوس المال الغربية الى الاقطار الشرقية حيث جوّ الاستثمار والعمل جذاب مستهو للنفوس ، على ان هذا الأمر من حيث علاقته بالشرق الأدنى والوسط لم يتحقق عملياً بعد ولا يوجد ما يدل على ان خبره على قدر خبره . فالصين قد يكون مكتوباً لها في اللوح المسطور ان تقوم بمفاجأة الغرب بمفاجأة كريهة يقام لها حقاً ويقعد . وأما العالم الاسلامي والهند فلم تبلغ الصناعة الحديثة فيهما من الترقى مبلغاً رفيع المستوى ظهر فيه الخدق الصحيح والحزامة والثابرة الى حد استطاع به اشلال صناعة أوروبا وأمريكة . ففي الهند مثلاً ، البلاد الزاخرة بالسكان المحاويج ، لم تبرح العامل ينقصها العمال الخبراء الخدق . ممن يتعشقون الصنعة وبيحثون عن اسرار الآلة . قال البرت ماتان : « قد يظن بعض القوم متى ما رأوا ساعات العمل عديدة طويلةً والاجور نزره ان الصناعة الهندية ستقلب عما قريب منافسةً شديدةً ومنازعةً قاهرةً للصناعة الغربية ، فالامر في الواقع بخلاف ما يظنون ، والسبب الحائل دون صدق وهمهم هذا انما هو رداءة النوع . فان العمال الذين يتناولون نزر الاجور ويعيشون العيش الشظف ويأكلون الطعام القشف يغدون بسبب ذلك ضعاف المنة قلال الهمة ، فثلاثة منهم يكادون يعجزون عن القيام بعمل يقوم به أوربى واحد . زد على هذا ان العمال الهنود لا تنقصهم قوة العزم والحزم فحسب بل يعوزهم الخدق ، وشدة الاعتناء ، وحسن القيام والتوفر على العمل ، وتعشق الصنعة . . . وان الهندي ليؤثر القيام بأي عمل آخر على ان يكون عاملاً داخل جدران المعمل . فلهذا ترى الذين يؤمونه

المعامل هم من حثالة الطبقة العاملة ، ولا يدخلون في حظيرة المعمل الا بعد ان تسد في وجوههم سُبُل الرزق وتغلق عليهم ابوابه ولا تبقى الا تلك السبيل فيضطرون اذ ذاك الى اللجوء الى المعمل ، ومتى ما فتح له باب الرزق في مطلب أقرب متناولاً وأدرّ خيراً ونفعاً ، يرح المعمل الى حيث ابغى . لذلك لا يتيسر للمعامل الاعتماد على قدر من العمال منتظم ترقى به الحال وتتوفق . وقد أخذ بعض الكتاب يتساءلون أبزيادة الأجور يستطيع يأتى تحسين الحال ؟ فيجيب كثير من المستخدمين . كلا . فان العمال متى ما رأوا حالهم قد تحسنت قليلا اسرعوا الى مزايمة المعامل اما الى أجل قصير حتى ينفد موفر دراهمهم وتنضب جيوبهم فيعودون الى المعمل ويكررون شأنهم الأول ، واما الى أجل لا رجوع بعده اذا وفقوا الى عمل أفضل وأفيد . وقد كتب اقتصادى هندى يؤيد هذه الحقيقة فقال : « ان من أكبر الآفات والنقائص التى تعتور انشاء المعامل الصناعية الكبرى فى الهند هو قلة الايدى العاملة وكفائتها للقيام بالعمل فالعمل لقاء نزر الاجور اذا كان خالياً من آثار الثبات والجدق والتفان والمهارة هو مخسر لا مرجح بدون ريب . فالعامل الهدى على الغالب جاهل لم يتناول التهذيب ولا الثقافة ، فليس هو مكتنفاً لأسرار العمل ولا على صلة قريبة بمستخدمه . وعمال المدن دأبهم التنقل من عمل الى آخر ، وهم على ميلهم الى تعاطى المهن والحرف والفنون قليلو الثبات والمثابرة على العمل » (من مقال ليوسف على سنة ١٩٠٧)

فلهذا السبب ترى الصناعية فى الهند على نموها هذا النمو الفائق لم تكن عند جميع الآمال التى أملها أرباب النظر لها . فقد ورد فى «الكتاب السنوى» الرسمى عبارة صريحة: « ان الهند بالاختصار انما هى بلاد غنية بالمواد الخام كثيره الاستعداد للحياة الصناعية ولكن تنقصها المثابرة وحسن القيام على العمل . » ويرى بعض أهل الاستقصاء أن مستقبل الهند الصناعى ان يكون ذلك المستقبل الباهر الزاهر . فقد كتب فى المدة الأخيرة عالم انكليزى خير فى شؤون الهند يقول (سنة ١٩٢٠) : « قد كان ممكناً منذ عدة سنوات أن الهند تستطيع بتشرها العلوم الغربية واقتباسها وسائل المهارة الفنية فى أجل قريب أن تمارس أساليب الصناعة الحديثة على ما يلائم شؤونها وأحوالها فترتقى ذروة عالية من التقدم الاقتصادى . ولم يرح بعضهم الى الآن ينذر العالم الغربى بالرؤيا الشرقية وهى نهضة الهند والصين نهضة جليلة قائمة على

أفضل التنظيم وأجود التدبير ، مستعينة بالمصادر الكبرى للثروة الطبيعية و باجور العمال
الزرة ، بحيث اذا ماتم هذا استطاعت آسية منازعة الغرب و خلعت عليه أسمال الفقر بعد
أن جر مطارف الاثراء الفاحش . ان كاتب هذه السطور لا يحسب هذه الرؤيا سوى حديث
خرافة . فالخطر الأسيوى انما يراه من نوع آخر ليست هذه صفته ، فهو يرى اتساعاً
مزداداً فى شقة البون من حيث لا يرى ارتقاء مفضياً الى التساوى فى أفق واحد ، و يعتقد
أنه كلما خطت الهند خطوة فى سبيل الترقى والكفاية فى عالم الآلة ، خطا الغرب خطوتين
ومتى ما شرعت الهند تستعمل الدرجات والسيارات (دون أن تصنعهما) يكون الغرب
قد أنجز اصطناع الطيران والمنطاد وأبلغ فن الطيران حد الكمال وقس على هذا . ان
الحرب العامة قد عجلت تعجيلاً كبيراً فى ازدياد الاختراعات الجهازية ، كما نعلم هذا حق
العالم ، فاجتاز الغرب بذلك مرحلة طويلة ، بينما الهند لم تبرح مكانها منذ الحرب دون أن
تعرج فى سلم هذا الارتقاء حتى كأنها اليوم ، بالقياس الى أور وبة فى الأجيال الوسطى ،
بلاد لم تنشب صناعاتها وفنونها يدوية محضة . زد على هذا أن الهند لم تستعمل بعد أبسط
القوات الآلية وأحقرها فى أعمالها الزراعية . نعم ان عصر العزلة قد انقضى على كل حال ،
ولكن شقة المستوى بين الشرق والغرب لم تزل بعيدة ، فما هو مصير أهل الهند الذين يبلغ
عددهم أكثر من ثلاثمائة مليون ياترى ؟ اننا فى الشرق بازاء خطر خطير الا وهو استفحال
الآفات الصناعية التجارية مما يقف عنده الباحث مدهوشاً ، ان أهل الهند باتوا حقاً على
طريق التهلكة بسبب هذا الخطر الكبير ، والشرق بالجملة يصير فى هذا العصر
مزدحماً مختلطاً يستغرق فيه الصحيح والفاقد (كتاب « الهند فى سنة ١٩١٧ و ١٩١٨ »)
وسواء أأصاب هذا الكاتب المتشائم أم أخطأ ، فما لا ريب فيه أن ليس الهند وحدها
بل الشرق كله هو فى دور التطور الهائل والانقلاب العظيم وان هذا الدور حقاً لعصيب ضنك
وقد استوفينا الكلام الى الآن على شؤون العمال الصناعيين من الطبقات المدقعة فى المدن
والحواضر ، غير أن الطبقات الاجتماعية الأخرى قد تأثرت بعامل هذا التطور عينه ،
وكان فيها من الانقلاب والتبدل مثلما كان فى غيرها ، ذلك بسنة المجتمع التى لا مدفع
لانتشار عواملها . فالتجار وأهل الحرف القديمة والمهن العتيقة الطراز راحوا لاحول لهم ولا
قوة عند ظهور الأساليب المحدثه فى التجارة والصناعة ، ولكن غدا سواد الفلاحين أحسن

حالا وأفضل شأنًا . ثم لم يكن هذا التطور قاصراً على اكتناه اسرار العمل والوقوف على طرقة الحديثة المؤدية الى الاتقان والتجويد ، بل هو في الواقع أكثر من ذلك : هو انقلاب محض من الأصل في وجهة النظر واعتبار صور الحياة وفهم ماهيتها وادراك حقيقة شؤونها وأسرارها في كل أفق من أفاقها . كان من عادة التاجر فيما مضى أن يجلس محتبياً في حانوته بين طائفة قليلة من البضاعة المبعثرة حوالبه ، متكاسلاً خاملاً ، يفنى الوقت في مساومة عميله مساومة فارغة ، سيان عنده راجت السوق أم بارت . وكان المتفنن الصنّاع اليد يشتغل منفرداً عدداً من الساعات على قدر ماتمه طاقتة المتوانية ثم يترك عمله ويذهب الى حيث شاء . وكان الفلاح ينهض مع الفجر لمباشرة عمله فاذا ماجأت الظهيرة استنام هو وحيواناته الى قبولة طويلة الى أن يهب نسيم العصر فيستيقظ ويتمطى ثم يستأنف شغله متراخياً بطيئاً .

لذلك ليس من الغريب في شيء أن يبدو لأهل الشرق في بادئ الأمر جميع ما هو معروف في حياتنا الاقتصادية من النظام والسرعة والرقابة والانكماش في العمل أموراً مستكرهة ممقوتة ، لا قبل لهم باحتمالها كلها معاً والمثابرة عليها ، لأن أمر اكتساب هذه الصفات الجوهرية في النفس ورعايتها والتمشي عليها في مجال العمل لا يتم الا على بطاء وتؤدة ، يرافق ذلك سائق الضرورة والقهر الناجم عن طبيعة الانقلاب . زد على ذلك ان المشاركة ليتألمون حقاً شديد التألم من مزاحمة الأجانب لهم ، وهؤلاء لم يبرحوا منتشرين بين ظهرانينهم بعدة أفضل وذخيرة أوفر وحنكة أشد في الميدان الاقتصادي الهائل . وقد وصف السروليم رمزي وصفاً أجاد فيه كل الاجادة ، كيف طفق الترك في آسية الصغرى على اختلاف طبقاتهم من السادة والكبراء حتى الفلاحين ومن دونهم ، يتدلون وينحطون طيلة الخمسين سنة الأخيرة إزاء الزحام الاقتصادي الذي أخذوا يعانونه ليس من الاوروبيين خاصة ، بل من قبل العناصر الوطنية النصرانية كالأرمن واليونان الذين قد تشربوا قدراً من حديث الأصول والطرق والأساليب في فن التجارة الغربية . ففي الأيام القديمة ، قال السروليم رمزي ، لم يكن في آسية الصغرى « شيء من التقدم الاقتصادي والترقي التجاري بل كانت شؤون الأعمال على اختلاف ضروبها منحطة جارية اطراداً مجراها القديم المعروف منذ الحقب المتطاولة . على انه لمن المعلوم أن حياة اقتصادية على هذه الصفة لم

تكن لتقف في وجه النظام التجاري الغربي البالغ من الترقى مبلغاً عظيماً ، أو تعارض معارضة فعلية تيار الحضارة الغربية الحديثة ، ولكن تلك الحياة وهي على نمطها القديم ما كانت بشاقّة على أهل البلاد ولا بالثقيلة كما انه لم يكن أمر الأثراء وادخار المال مستطاعاً في عهد مثل ذلك العهد ، ولا كانت الفرص الطيبة سانحة لمثل هذا وكان من المستحيل على الفرد أن يستميل اليه عدداً كبيراً من الناس ويستخدمهم في عمله ثم يأخذ بالثأب على هذا العمل فيوسع نطاقه على التوالى حتى يزداد هو بذلك نجاحاً وفلاحاً ، فيجنى من وراء ذلك ثماراً شهية . وانما كان هناك عدد من أرباب الأعمال الفردية يشتغلون في حيز ضيق لا يجدي صاحبه كبير نفع « (١٩١٨) . ثم يسوق السر وليم رمزي كلامه واصفاً كيف قد تمزق ذلك النظام الاقتصادي القديم المحتل كل ممزق . فتبدلت الحال غير الحال وتغير الشأن غير الشأن ، وأخذت تظهر الأساليب التجارية الحديثة المنظمة على الطرز الحديثة ، فشرع العنصر التركي يرقى مستواه ويتقدم في مضمار التزاحم متفوقاً على من سواه تفوقاً يبنياً .

ولأجل الوقوف التام على كيفية ماعاته الطبقات المشتغلة بالزراعة ، من فلاحين ومزارعين وملاكين وأصحاب أرضين من مر الشدائد من جراء هذا التطور الاقتصادي ، عليك بالاطلاع على تاريخ الهند للعهد الحديث المشتمل على أحسن بيان في هذا الباب . قال الكاتب الفرنسي شلى ، وهو من العلماء الثقات في الشؤون الهندية : « لم تبرح أقسام كبيرة من أهل الطبقات المشتغلة بالزراعة طوال الخمسة العقود الأخيرة تسلب منها أراضيها أو تضطر هي قهراً الى أن تزارع في أرض غيرها على خصاصة وضيق ذات يد ثم بانحطاط الطبقات الزراعية هذا الانحطاط نشأت طبقات جديدة أخذت تستولى على الأرضين . . . ان الفلاحين المزارعين والملاك لسواء حقاً في المصيبة والشقاء ، لأنهم قصرُوا عن مجاراة التقدم الزراعى على ممر الزمن بل قعدوا عن ذلك وانقلبوا مكاسيل مضايح للمال ، هذا من حيث ان الفلاح المزارع ، الغريق في بحر من التقاليد الحية منذ أقدم الأجيال ، هو جاهل لا يحسن التدبير ، ولا يعرف الثبات ولا ينظر في العواقب . واعتبر من وجهة أخرى ان الحال الاقتصادية في الهند البريطانية كانت في الواقع علة في نشوء طبقة من الممولين الذين طفقوا يتبعون مستثمراً لأموالهم ، فنشأ العراك يشتد بينهم وبين أصحاب الأرضين القدماء ، وكان

هذا متوقفاً ونتيجته لا بد منها . فجعلت الثروة تسرب أ كثر فأ كثر الى أهل الطبقة الذين هم أذكى وأنبه ، والأرضين تستولى عليها أيدي سادة جدد ، فكان ذلك على الجلة أشبه بسهم أصاب أهل الطبقات الزراعية في أشرف مقاتلهم ، فعدا جانب كبير منهم حرائين وعمالاً مأجورين ، من بعد ما كانوا سادة الأرضين وأساطين المزارعين (١٩١٠) .

وقد وصف الاقتصادى الهندى « موكرجى » كيف تشتت حال القرية الهندية وتفرق ساكنها في البلاد فقال : « آراء وأفكار اقتصادية جديدة شرعت تستولى على عقول القرويين وتبلغ من نفوسهم مبلغا كبيرا ، فطفقوا يتركون صناعاتهم وأعمالهم ويضربون في البلاد ، اما بسبب المزاجة الأجنبية القاتلة ، واما بغير هذا السبب فيذرون أشغالهم من تلقاء أنفسهم ويطوفون الجهات . فالبراهمة يهبطون المدن ليطلبوا أسباب معاشهم من وراء الأعمال في الحكومة أو الاحتراف الحرّ ، وأهل الطبقات الوسطى يبرحون قراهم ويتشتتون في طول البلاد وعرضها لتحصيل القوت وطروق باب الرزق على ما يكنى سد الخلة ، والفلاحون يزايلون أراضيهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم فتتألف منهم ، وهم عطل عن العمل ، طبقة من العمال الزراعيين الذين لأرض لهم . فأصبحت القرى وقد امتصت دماؤها وجفت عروقها خربةً منحطةً الى العدم . على ان هذه الهجرة من القرى الى المدن ليست أهميتها مقصورة على كونها هي السبب في حصول ثورة اجتماعية في العادات والأفكار ، بل ان نتائج هذه الهجرة الاقتصادية لاخطر وأجل مما يتصور المتصور لأول وهلة ، فقد جرّت أهل الطبقات الوسطى من أهل بلادنا الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبداناً أفناناً ، وقتلت استقلال الفلاح المزارع قتلا ذريعاً حتى سلبته جميع حوله وقوته ، وفوق جميع هذا فانها قد عرقلت الأسباب والوسائل التي على يدها تجتنى أقواتنا وهددتها تهديداً عظيماً . وعلى الجلة فالهجرة هي مشحونة بأشد المخاطر القاضية على مهنا وحرطنا ولا سيما الزراعة - وهي صناعتنا الوطنية » .

على ان هناك بعض الدلائل الحسنة ، في عالم الزراعة الهندية على الأقل ، تدل على ان دور الانتقال والتطور أخذت حاله تستقر ، ومفعوله يصطبغ بالصبغة الوطنية ، وان الحالة على الجلة متحسنة عن قريب ومتجهة الى الخير والصلاح . فقد تعاضدت الحكومة البريطانية والأمرء الوطنيين على نشر الأساليب والطرق الفنية الحديثة للزراعة ، ومنذ

شرعوا بذلك أخذ يظهر ان المزارع الهندي هو أكثر استعداداً من سواه من أهل الحرف والفنون والصناعات ، للأخذ والاقتباس . ثم بدأت طبقة جديدة من المزارعين تنشأ على هذا الطراز الحديث وتنمو ، وهى أكثر حذقاً وأشد قدرة على مماشاة الزمن والاستفادة الصحيحة من المستحدثات الفنية . وخير مثال على هذا قيام الجمعيات الزراعية التعاونية التى شرعت الحكومة البريطانية فى انشائها وترقيتها منذ سنة ١٩٠٤ ، وقد أفلحت هذه الجمعيات كبيراً وبلغ عددها فى الهند سنة ١٩١٥ نحو ١٧٦٠٠٠ جمعية مجموع أعداد أعضائها ٨٢٥٠٠٠ عضو وبلغ مالديها من مجموع رؤوس المال ٣٠٦٠٠٠٠٠٠٠ ريال . ومن دأب هذه الجمعيات أن تقرض أرباب الأعمال الزراعية قروضاً مالية يستعينون بها على شراء الحيوانات والاعلاف والحبوب والأسمدة وحفر الآبار وابتياح المواعين والأدوات الزراعية العربية ، وأن تمدّ المحتاجين وأهل العوز للقيام بأسباب معاشهم عند الأزمة . ومن أعمال هذه الجمعيات التى فى المقاطعات والرساتيق مكافحتها وباء الرباح المكافحة ، فهبط من جراء ذلك معدل الفائدة الذى كان ٢٠ — ٧٥ بالمئة الى ٩ — ١٨ بالمئة . وانه وان كان لم يزل فى البلاد مقدار من الضيق فالدلائل الظاهرة تدل على مستقبل حسن وافر النعمة والخير .

بيد أن هذا المستقبل الزراعى الباهر لم يزل بعيداً وأبعد منه المستقبل الصناعى ، بينما الشرق لهذا العهد يتطور تطوراً ملؤه الأمل والشدة ، والأمر الغريب فى كل هذا ان كثيرين من الشرقيين يقولون ان السبب فى شقائهم وبلادهم ليس منشؤه التطور الاقتصادى الحادث بل الحكم السياسى الآتى من قبل الحكومات الأوروبية مقترناً بالاستثمار الاقتصادى القائم على رؤوس المال الغربية . أما النتيجة التى تنتج عن جميع هذا فاضطراب وفاق وهيجان ، وقيام وقعود ، وارغاء وازباد جميع ذلك للتحرر من ربطة الحكم الغربى اقتصاديا وسياسياً . وقد سبق لنا فى هذا الفصل الثانى من هذا الكتاب شأن الحركة التمشية اليوم فى الأمم والشعوب الاسلامية ، ونعنى بها حركة الجامعة الاسلامية الاقتصادية . إذ قد نشأت حركة شبيهة بهذه فى الهند وبين فى الهند وعرفت بالحركة « السوادشية » ^(١) ويقول اتباع هذه الحركة والقائمون بها ان العلل

(١) « سوادشى » كلمة بنغالية معناها الاصلى المنتجات الوطنية ومدلولها الشائع اليوم مقاطعة البضاعات الأجنبية . وأول ما ظهرت حركة المقاطعة فى أقاليم البنغال . « العرب »

الاقتصادية في الهند سببها استنزاف بريطانيا العظمى وغيرها من الحكومات الغربية لثروة الهند استنزافاً لا يبق ولا يذر : وغايتهم التحريض على مقاطعة البضائع البريطانية. مقاطعة ترغم بريطانيا بالتالى على أن تمنح الهند حكومة ذاتية ، ومتى ماتم ذلك وضعت هذه الحكومة الهندية الوطنية الضرائب الحامية للاقتصاديات الهندية ، ولاشت رؤوس المال البريطانية ، وتبدلت بالموظفين البريطانيين الذين يتناولون فاحش المرتبات موظفين وطنيين ، فاستطاعت حينئذ حفظ ثروة الهند للهند

ولو تدبرنا الحجج والبراهين التى يدلى بها أرباب الحركة السودانية لرأيناها ليست بالصحيحة كل الصحة بل الأولى أن تبني عليها أسباب علل الهند وأمراضها الاقتصادية ، مما هو فى الواقع ناشئ عن طبائع السير الاقتصادى العام الخاضع لعوامل الدور وسنة الانقلاب أكثر مما هو ناشئ عن النقائص والاضرار التى أتى بها الحكم البريطانى . أجل ، ان الحكم البريطانى ورأس المال البريطانى ليكلفان نفقة باهظة ، غير أن ماهما عليه من الجدارة فى حفظ الأمن والنظام وفى الترقية يعد موازياً لتلك النفقة التى يقتضيها الحكم الوطنى لا جدال فى هذا . قال السرتيودور موريسون : « ان ما تناله الهند من المنافع والفوائد على يد الأسطول البريطانى ورأس المال البريطانى يعدل ما يتناوله الموظفون البريطانيون من مرتبات العجز والمكافئات المالية . . . ان الهند تتناول فوائدها من علاقتها وارتباطها بالامبراطورية البريطانية . وما هى تلك الفوائد الاقتصادية التى تنالها الهند موازية لما تتكبده من النفقة المالية التى تؤديها الى الأجانب مرتبات ومكافئات ؟ فالجواب على هذا هو أن الهند تناول عدداً وأجهزة للصناعة الحديثة ، وادارة منعطفة على الترقية الاقتصادية بضمن وبنفقة أقل مما لو كانت الهند هى المباشرة لذلك بنفسها لنفسها » . زد على هذا أن المقارنة بين شأن الهند واليابان فى نفقة الحماية والدفاع ومعدل فوائده رؤوس المال العامة والخاصة كافل لنا جلاء الحقيقة فى حال الهند جلاء مانعاً للشك .

وهناك من الهنود من يعترفون بفساد الحجج والبراهين السودانية . فقد قال أحد المفندين (سنة ١٩٠٨) : « ان ما يدعونه استنزافاً اقتصادياً قول فارغ من المعنى ، لأن منشأ أكثر الشقاء فى هذه السنوات الأخيرة هو غلاء المعيشة واستحكام حلقات الضيق وذلك لعمري طامة مطبقة العالم من المشرق الى المغرب » . ثم يأتي الكاتب على وصف

الحالة الاقتصادية في اليابان للبرهنة على هذه الحقيقة. وقال « رمزي مكدونلد » صديق الهنود الجيم ، وزعيم العمال في بريطانيا (سنة ١٩٢٠) : « هناك أمر جلي لامراء فيه ، وهو أن تعرفه الضرائب لن يكون من شأنها إيجاد الوسيلة لتجديد الصناعات اليدوية القديمة الأصل في الهند ، ولا المساعدة على احياء الصناعات القروية ، إذ أن المعامل والادوات الصناعية الحديثة بوسعها أن تتغلب على جميع الصناعات القديمة ، بحيث يحدث في الهند مثلما حدث في لنكشير وبرمنهام من قبل » .

وأبين مما تقدم هو الانتقاد الذي نشره الكاتب الهنودى « برامانااث بوز » إذ قال ان الاستنزاف يسوق الهند الى درك الخراب سوقا ، ولكن هل يجدى الهند مع هذا برنامج « الحكم الوطنى » (هومرول) الذى يتغيه سواد السوادشين جداء كبيراً ويبرئها من علالها وأسقامها الاقتصادية ؟ ليعلم من يريد العلم انه متى ماتم أمر الحكم الوطنى واستتب حاله فعل هؤلاء القوم ما يلى : (١) يتبدلون الهنود البريطانيين فى الحكومة . (٢) ويضعون الضرائب الحامية للمنتجات الهندية . (٣) ويحملون الحكومة على أن تقوم بتنشيط الصناعات الهندية والاخذ بنصرتها وشد أزرها . (٤) وأن تشرع فى نشر التعليم الفنى فى البلاد . وعلى تسليم ان كان جميع هذا فاذا عساه أن يحسن فى الحالة العامة شيئاً يذكر . أما التبديل بالموظفين البريطانيين واقامة موظفين من البلاد فلن يكون السبب فى تناقص الاستنزاف وتقلصه على مقدار ما يتصور القوم أشياع الحكم الوطنى وأنصاره ، إذ أن الموظفين الهنود أر باب المناصب العالية والخطط السنوية قد اعتادوا أساليب المعيشة ومرافقها الحديثة على المستوى الاوروبى والطراز الغربى ، فاذا حلوا محل البريطانيين لزم لهم من النفقة ما لا يقل عن النفقة التى تؤدى الى البريطانيين اليوم ، ثم يأخذ إخذهم غيرهم ويقلدهم سواهم ، فيزداد تطلب المواد والبضاعات الغربية على نسبة ما يفشو وينتشر فى أفق المجتمع من العادات الجديدة بطبيعة الحال . وعلى هذا الاعتبار فالاستثمار التجارى الذى يقوم به الاجانب لا يبق على قدره الحالى بل يزداد ويستفحل . وأما الضرائب الحامية فسيكون من شأنها اجتذاب رؤوس المال الاوروية الى الهند ، فيتسنى للاجانب بهذه الذريعة الاستيلاء على المشروعات والاعمال ويلتزمون الارباح دون أن يكون للهند نصيب فيها . واعتبر من وجهة أخرى أن الهند لم تظهر الى اليوم من الجدارة لترقية

الصناعات الوطنية الاقليلا . نعم لا ينكر أن جانباً من أهل البلاد ليستطيعون ، حتى في مثل هذا العهد المعروف بنزارة الاجور ، أن يستثمروا الموارد ويؤثروا الثروات ولكنهم .بالإضافة الى سائر قطين البلاد هم أقل من عشر معشار الملايين الناشبة بهم مخالب المجاعة اليوم . وفوق جميع هذا فان الانغماس في بحر الصناعة سيجر على البلاد بلايا وشروراً اجتماعية قتالة . وأما قيام الحكومة بتنشيط الصناعات الوطنية فسيكون أكثر اجتذاباً لرؤوس المال الاجنبية من الضرائب الحامية مما يفضى الى النتائج التي ذكرناها . وأما نشر التعليم الفنى فمشروع وایم الحق ذو شأن خطير ، ولكن جاء متأخراً بعد فوات الميقات ، فان الغربيين واليابانيين قد سبقونا أشواطاً ومراحل شاسعة في عالم الصناعة بحيث اننا لو رمنا الآن اللحاق بهم فادراكهم فزاحتهم باننا كب شق علينا ذلك أولاً ثم ازداد الامر صعوبة على التوالى بسبب شقة البون بيننا وبينهم .

ثم يسوق المستر بوز الكلام منتقداً جميع نظام التعليم الغربى الذى اتبع في الهند ، ومبيناً ان ليس التعليم العالى ولا الابتدائى هو الدواء الناجح في سقم البلاد . أما العالى فقد أفضى الى النجاح المادى ولكن على نطاق ضيق لم يتناول أكثر من جانب من جمهور الامة فيهم عدة آلاف من المحامين والاطباء وأصحاب الوظائف في الحكومة . ولكن لما كانت أعمال هؤلاء القوم وصناعاتهم وفنونهم عالة بطبيعة التعاون العمرانى على ما سواها ، وليست على جلتها مما يحسب من موارد الانتاج الكبيرة في ترقى البلاد ، فقد ظلت قاصرة عن أن تكون عاملاً حيوياً كبيراً في عداد العوامل التي يقوم عليها ترقى الهند بصفة عامة لذلك جاءت النتيجة على ضد المراد ، لأنه لما كان هؤلاء القوم يتشبهون بالغربيين ذوقاً ورغبة في اقتناء البضاعات الأجنبية والمرافق الغربية التي يكثر النزوع اليها وتعم بها البلوى على مقدار ازدياد التبسط في رفاهية العيش وانتشار الرخاء ، فقد كان ذلك كاه سبباً في ازدياد الاستنزاف لافى تناقصه وفي افتقار البلاد لافى ارتياشها . وأما التعليم الأولى فلم يكن منه تثقيف العقول لسواد الناس ولا تحسين مرفق من مرافق الحياة الزراعية ، بل أفقد أهل الفلح والحراثة ما كان فيهم من حزم وكفاية وجد ، كما أنه أشبع نفوس أهل الطبقات العاملة المتدلية الذين يتألف منهم جانب كبير من الأمة ، صفات تبعثهم على النعمة والتذمر ومقت ما هم عليه من راث آباءهم وأجدادهم المشتمل على طراز المعيشة والصنعة والحرفة ،

ويجعلهم ينزعون الى تطلب المزيد من كل جديد ، ويشتدون سعياً وراء الزخارف والاعراض ، وينصرفون الى الحرف والمهن التي هي بطبيعتها عالة على سواها من الصناعات والأعمال البشرية . فانحطت بسبب هؤلاء الصناعات الوطنية مباشرة وغير مباشرة ، وكانوا هم بلا ريب علة استفحال الضيق الاقتصادي الذي عمهم وسائر الأمة معهم . ومن البلية أن ما كان يتغنيه هؤلاء في أول الأمر هو زيادة الأقوات والأغذية - ولكن الهند الجديدة وحكومتها قد أجابتهم الى مبتغاهم بتجهيزهم بهذا الضرب من غذاء « التعليم » الذي لم يكن له تأثير ولا شأن في توفير الوسائل التي يستطيع بها التماس العيش وطلب أسباب الرزق ، بل غرس في نفوسهم صفات وعادات فسدتها مزاجهم وكانت السبب في انقلابهم شعباً كسولاً ، تستنزفه رؤوس المال الاجنبية وتمتص دماء عروقه الممتصات الغربية عرقاً فعرقاً . وبهذا الاعتبار لم تكن الأسباب السياسية والاقتصادية هي وحدها الفاعلة في ملامشة الصناعات الوطنية لو لم يقترن بها التطور في العادات والأذواق ، ذلك التطور الذي نشأ عن البيئة الغربية التي كان من أهم عواملها ومؤثراتها « التعليم الاوربي على هذه الصفة التي أرادها الانكليز » .

وصفوة أقوال المستر بوز وآرائه أن ليس في برنامج الحكم الوطني من سبيل من سبل الاصلاح المنشود والترقية المبتغاة ما يكفل حقاً شفاء الهند من عللها وبراءها من أوجاعها ، « بل ان الهند ستزداد تورطاً في أشراك المدينة الغربية وأحاييلها الخداعة ، دون أن تاتي من الذنوع والفائدة ما يعدل معاناتها المشقة والنصب ، وسيشتد خناق الغرب على عنق الهند اشتداداً يضيق أنفاسها تضيقاً » ، فالذريعة الوحيدة للهند ، على ما يذهب اليه المستر بوز ، هي أن تدابر كل شيءٍ غربيٍّ ، وتولي وجهها شطر ماضيها فتقلب ساجحةً في لجاج من تقاليدها وسننها التاريخية ، وتوضح معالم حضارتها المطوية في سجل الدهر ، وتستثير دفائنها ثم تخلع عليها ثوب البهاء والرونق . وفي هذا الصدد قال المستر بوز : « ان نجاة الهند ليست مرتجاةً في أفق السياسة ولا في مطعمنا الى أن نصير أمة من أمم الارض العظمى ذات الحول والطول ، والقوة والايدي ، بل في رجوع الهند الى ما كانت عليه قبلاً من منزلة الاتضاع - تلك المنزلة الحافلة بجلال العزلة مع العظمت والهيبة . لسنا بالمدركين غايتنا بنحونا نحو الحضارة الغربية ، بل بالاعراض عنها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً ، ولسنا

بالبالغين غرضنا بزيادة الاشتباك بأشراك تلك الحضارة المزركشة ذات الخيوط الملمعة من الدمقس والابريسم ، بل فى الادبار عنها واجتنابها فى كل طريق تراءت لنا فيه .»

هذه خلاصة مأوضحه المستربوز ، وله من المناصرين فى آرائه عدة رهط من المفكرين الخياليين مثل رابندراناث طاغور ومن نسج على منواله . غير أن الامر الذى لامرأ فيه هو أن هذه الآراء على ما شتمت عليه من ملذوذ الخيال وبديع الصور ، هى ضرب من العبث والباطل ، اذ أن شعباً بأجمعه يعد بمئات الملايين ليس يستطيع بعد اليوم الانقطاع عنوةً عن سائر العالم ، ويتجلبب جلباب العزلة على نحو ما كان هكذا فى غابر الدهر ، منكرأ ما هناك من الصلات والروابط بينه وبين المجتمع الانسانى ، ومنفرداً انفراد النساك فى الصوامع والغيران . ان زمن « عزلة الشعوب » قد انقضى وطويت صفحته ، فلن يعود الى الوجود ولا سيما فى بلاد مترامية الأطراف كاهند وهى ملتي طرق الشرق يحيط بها البحر من أكثر جهاتها . وزد فى الاعتبار أن هذه البلاد قد تغلغت فيها الآراء الغربية تغلغلاً بعيداً وانتشرت فى أهلها الأفكار الاوروية انتشاراً كبيراً

وكان لتلك الاقوال المضروبة على أوتار النقشف ، الأوتار الحساسة الكامنة أبدأ فى مزاج الهندى وطبائعه ، أكبر تأثير فى نفوس العدد العديد من أهل الهند حرك من نفوسهم الساكنات ، فباتوا وقد أدركوا امتناع تحقيق آمالهم كلها ، يحاولون أمرين أولهما اتخاذ سبيل وسط يستطيعون به احتفاظ كل شئ ورثوه من النظام القديم بما لا بستهم على كرور الايام صبغته ومازجتهم بفعل العادة طبيعته . والآخراقتباس الاحسن واختيار الصالح الملائم من الحضارة الغربية ، ثم افراغ ذلك فى القالب الذى يوافق شأنهم ويجارى مستوى حالهم ، موسوماً بمسمى هندى ومعلقا عليه شارة الوطنية الهندية . وعلى هذا الرأى وضع ارباب هذا المذهب برامج لانشاء نظام جديد قائم على مزيج من التصوف الهندى ، ونظام الطوائف ، والصناعة الغربية ، والاشتراكية .

ولكن هذه البرامج على ما فيها من فائق البراعة وثقوب الرأى ليست بالجامعة المانعة ، اذ لو استبصر واضعوها لعلموا المثل الغربى انه « لا يستطيع أكل الحلاوة واحتفاظها معاً » . ومتى ما فقهنا شأن الطبائع المتضادة ، والصفات المتخالفة بين الشرق القديم والغرب الحديث فى نظامهما الاقتصادى ، تبدى لنا ان كل محاولة يتغنى بها التوفيق بين وجوه

النظامين توفيقاً مقصوراً على المواضع التي كثر التشابه في صفاتها والتجانس في طبائعها ومزاياها ، مع عدم النظر في مواقع النقص وفي الكثير من الاختلافات والمتناقضات ، هي محاولة للتأليف بين الممتنع تأليفه أو الملائمة بين لونيّن متخالفين ، لا يجدي ذلك نفعاً أكثر مما تجدي محاولة المرید ترييع الدائرة أو تدوير المربع . وقد قال لويس دكنسن في هذا الشأن قولاً حكيماً (سنة ١٩١٤) : « ان الحضارة انما هي جهاز تام كامل ، وكل ما فيها من فن وأسلوب ودين جيعه معلق على صفة النوع الذي يكون به ترقياها في الاقتصاد وأصول الصناعات . اني لا أكاد أصدق ان أمة من أمم الأرض تستطيع الترقى بأن تأخذ من هذا عند ما تريد وتعرض عن ذلك عند ما تأتي ، كما هو شأن الشرق الذي قد يقول ، اني لأخذ من الغرب سفنه الحربية ، وجواريه المنشآت ، ومعامله الصناعية ، وعلومه الطبية ، ولن آخذ عنه اختلاط مجتمعه وانكماشه وهرعه ونصبه ، وشناعته وقبحه ، وافراطه وطمعه كلا اني لا أكاد أصدق هذا ، بل أرجو ان الشرق يقتني سبلنا ويتبع مناهجنا ، اشاء أم أبى ، وهو سيجتاز ما قد اجتزناه نحن من مشقة وعناء ، وسيسير القديمة لا يلوى على شيء ، ولا يعرج بين السبيلين حتى يدرك مستوى من الحضارة رفيعاً » .

هذا هو القول الصحيح . فان الشرق باعتبار ما لا يحصى من الشواهد والأدلة الظاهرة على شأه اليوم ، سيقتنى آثار الغرب في سبيل هذا التطور الذي سيقف عند حد ، وقد يعرض عن بعض نقائصنا وعيوبنا الظاهرة ، ولكن في غالب الأمر سيمشي على صراط شبيه بصراطنا . وهذا التطور كما قلنا في شأنه في مواضع تقدمت انما هو مكيف لكل أفق من آفاق الحياة الشرقية ، وقد بينا مجارى هذا التطور العظيم من جهاته الدينية والسياسية والاقتصادية ، وبقى الكلام على الوجهة الاجتماعية التي اتتهينا اليها في الفصل التالي .

الفصل الثامن

التطور الاجتماعى

كفى دليلاً على ما لهذا التطور الذى نشهده اليوم فى الشرق من الشأن والعظمة ، ماهو متجلٍ فى أفق الحياة الشرقية من ضروب الانقلاب ، وتجدد المنازع والانتقال من هيئة الى هيئة ، إذ ان المؤثرات الغربية الفاعلة فعلها العظيم فى تحول اشكال الحكومات ، والأوضاع السياسية ، والمعتقدات الدينية ، والتطورات الاقتصادية ، هى فاعلة أيضاً فى أطوار النظام الاجتماعى ، وليس شأنها فى هذا المقام بأقل منه فى سائر مواضع الانقلاب الشرقى . وقد أتينا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب على بيان موجز عما للمؤثرات الغربية من الشأن فى الأطوار والتارات التى تقدم الكلام عليها . وغايتنا فى هذا الفصل أن نبسط الكلام على التطور الاجتماعى الحادث اليوم فى العالم الاسلامى .

لامراء فى أن هذا التبدل خطير عظيم ، على كونه لا يخلو من غموض يظهر فى بعض المواضع ، خلافاً لسائر آفاق الانقلاب الآذنة بكل جلاء ووضوح . والسبب فى هذا الاستبهام هو ان للعادات المتأصلة والتقاليد المتمكنة فى حياة الفرد والأسرة والجماعة فى المشرق سلطاناً قوياً وشوكة نافذة ، يحملان غير المتعمقين من أهل الاستقصاء فى شؤون المشرق على أن ينجحوا الى القول المؤكد بأن هذه العادات والتقاليد لم تبرح على حالها القديمة من الرسوخ وشدة التأثير ، بحيث على زعمهم ، لم يتناول التطور الحقيقى داخلها مثلما تناول خارجها ، ولا تغلغت روح الانقلاب فى باطنها كما أحاطت بظاها ، ولو بلغ الانقلاب المادى وتحول ظاهر الحياة مابلغا . على ان هذا الرأى الذى يقول به هؤلاء القوم الذين لايعولون على التحقيق فى المسائل ، هو مما لايجيزه أهل العلم والبحث ذوو النظر النافذ فى أسرار الانقلابات ، وان الشرقيين أنفسهم ليستهنزئون بهذا القول وأمثاله ، ويفقدونه بالحجة

والبرهان ، ويؤيدون حدوث التطور الاجتماعي وتتأججه بسنة التحول التي لن يجد لها الناس تبايلاً .

وأهل الشرق لعمرى على حق فيما يقولون ويبينون ، فان قيل ان الشرق صاعد بمعراج الترقى مادياً ، من حيث هو لم يزل على حاله من السكون والجود والغرارة من الجهة الاجتماعية فانما ذلك تجاهل وتعام عن الواقع ، ومكابرة في الحقيقة التي بات لا يختلف في ثبوتها من أهل الاستقصاء الصحيح اثنان ، إذ أن الأنظمة الاجتماعية تتبدل أبداً بالمؤثرات المادية الحسية ، تبداً لا يقل عن ذلك الذي يتم بقوة المؤثرات الأدبية المعنوية ، والآراء والمجردات .

أيستطيع من ينظر في مادون العرض الغاشي ، نظر التأمل المستبصر ، ان ينكر مالم للقطر الحديدية والبرد والأسلاك البرقية من قوة العمل والتأثير في سير الترقى الاجتماعي والأدبي والحضاري ؟ أما من شأن ، اجتماعي ومادى يأتري ، لما يقتبسه الشرق من الغرب ويأخذ عنه من مئآت المحدثات والمخترعات ، بين ثمين وتافه ، وخطير وحقير ، وضار ونافع ؟ أيخلو من معنى كون قبر صاحب الرسالة الاسلامية في المدينة المنورة غداً كالكوكب تتلاً في المصاييح والأضواء الكهربائية ، وان الرقاع البريدية المصورة صارت تباع على أبواب الكعبة المقدسة في مكة المكرمة ؟ أجل ، قد يستغرب المدقق أول الأمر من أن المؤذن أضحي يذهب الى المسجد راكباً قطاراً كهربائياً ، وان التاجر المسلم أخذ يخرج من مخدع حرمة فيتناول صحف الصباح فيقف على أنبائها وأخبارها ، ثم يمتطي سيارة الى بيت تجارته ومعه سجادة الصلاة . ثم اذا مافرغ من إقامة الصلاة انقلب تارة الى تلفونه وطوراً الى آلة الاملاء يفرغ فيها نصوص الرسائل والكتب التجارية . فلماذا نحن نسلم بأن للمسجد ومخدع الحرم وسجادة الصلاة شأناً مؤثراً في حياة المسلم وتكليف معيشته على الجملة ، حينما ننكر ما لجميع المحدثات والمخترعات التي أخذها الشرق عن الغرب من التأثير في تكليف حياة المسلم الاجتماعية ؟ أضف الى هذه الأسباب الحسية المادية الأسباب الأدبية المعنوية مثل العلوم الطبيعية ، والرسائل الغربية الحديثة ، التي جعلت للتلهي والراحة ، وتحرر المرأة نوعاً ما ، فتبدو لك للحال أهمية التطور الاجتماعي الحداثي اليوم ، واتساع أفقه .

على أن هذا التطور الاجتماعي قد اتسع نطاقه في الأقطار الشرقية التي هي أكثر تعرضاً من سواها لتيار المؤثرات الغربية وكان مبدأ ذلك منذ نحو من نصف قرن . لما عاد

المستشرق الهنغاري فمباري الى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ بعد غيبة من الزمن طالت أربعين سنة دهش حقاً مما شاهده من عظيم التحول والانقلاب ، والاستانة عهدئذ راسفة بالأغلال الحديدية ، فقال : « عند ذلك طفقت أسائل نفسي أهؤلاء ياترى هم الترك الذين رأيتهم سنة ١٨٥٦ ، وكيف قد تمت جميع هذه التطورات الكبرى ؟ ولشد ما كان عجبي لما أخذت ألقب نظري في مظاهر المدينة وصورها فرأيت المباني الحجرية الجديدة ، قد قامت مقام الخشبية القديمة ، والاسواق ، والشوارع ، دبت فيها عوامل الحياة ديبباً ، جرت فيها المركبات المزينة تجرها الجياد المطهمة ، والقطر الكهربائي تنساب في جميع الأنحاء ، كل ذلك مما لم أره في مثل هذه الأسواق والشوارع وهي إذذاك مختلط تزدهم فيه الدواب والعجلات القديمة الطراز . وسمعت جلجلة الآلات المتحركة تخاطبها أصوات المؤذنين الذين يلجأون الى الله من على رؤوس المآذن . فظهر لي من جميع ما شاهدت وسمعت ، وعرفت وخبرت ؟ ما هو مناقض للقول المأثور ان « لا بدعة في الاسلام » . وقد كان دهشي أشد وعجبي أبلغ لما دخات المنازل والبيوت فلم يكن بوسعي سوى الاعظام والاكبار ، ليس لما شاهدته من كفيات التحول الظاهرة فقط ، بل أيضاً لما هو أجل قدراً من التطور المعنوي الكبير . فبدأ لي ان طبقة الافندية (أى المتهدبة) في الاستانة قد تبدلت من حال الى حال ، وانتقلت من دور الى دور ، في مجتمعها وطرزها الخارجى وطرق اتصالها بالغيريين »

ويعظم فمباري شأن الارتقاء الداخلى كما يعظم شأن الارتقاء الخارجى . فى الطبقات التركية التى تناوها التهذيب والتعليم ، فقال فى هذا المعنى : « قد غدا التركى اليوم يرتاح الى العادات والآداب الغربية ارتياحاً كبيراً مشهوداً ليس فى المظاهر والصور الخارجية فقط ، بل فى أسلوب العيشة المنزلية أيضاً ، وذلك من صفة الأثناث والمتاع . وآداب المائدة ، واحترام المرأة ، وغير ذلك . ان هذا الطور الجديد لجليل الشأن ، لأنه معلوم ان الشعب الذى يقبل على تشرب العوامل وقبول المؤثرات الغربية السائقة الى الترقى العقلى ، عند ما يصفو اعتقاده بأن هذه المؤثرات انما هى صالحة له ، لا يستطيع الاقلاع عن مألوف عاداته الثابتة الصبغة ، المتأصله فى مزاجه وطبيعته ، الا بشق الأنفس . والترك قد لقوا الشدائد فى هذه السبيل ، فذلوا العقبات ، وتغلبوا على المكاره ، حتى ضربوا من التجدد بسهم وافر . ورأيت ان الشعور الشديد بضرورة ملابس الحضارة الغربية والتحقق بها ، قد عم

المجتمع التركي بأسره حتى رجال الدين . ولدن جماعة أهل الرأي على اختلاف في كيفية التطبع وأسلوبه ، فبعضهم يبتغون اعطاء ما يودون أخذه عن الحضارة الغربية صفة وطنية وصبغة قومية ، والبعض الآخر على الضد من هؤلاء ، إذ يبتغون انتحال تهدينا العقلي على علاته ، ويأبون كل تكييف له ولو قليلا .

والأمر الأهم هو ما شاهدته فمبارى من شان النساء المخدرات القابعات في أ كسار بيوتهن ، وقد تغيرت الآن حالهن وتحولت صور حياتهن الى حد يقضى بالعجب . قال فمبارى : « وأزيد القول تأكيداً ان المرأة التركية قد تبديت أساليب حياتها تبديلاً شاملاً عفا معه كل أصل قديم خلال الأربعين سنة الأخيرة . ثم ان هذا التطور قد تم أمره بسببين : الأول اعتقاد الترك بان التجدد ضرورى لهم في هذا العصر ، والثاني الضغط الشديد الطارىء من الخارج » . واذا لاحظ فمبارى انتشار تعليم البنات وزيادة نصيب المرأة في القيام بتدبير الحركات الاصلاحية وتنظيم الدعوات وبها في هذه السبيل ، قال : « ان هذا الأمر حيوى للأمة لأنه متى ما شرعت المرأة تقوم بواجباتها في الحياة المنزلية بصفة كونها عاملاً من عوامل الارتقاء الحديث ، فان الاصلاح الحقيقي لا بد له من أن يشمر ثمرة في المجتمع والدولة والحكومة » .

وبين « خوجة بوخش » ، المسلم الهندي الحر ، وهو من أهل الاطلاع الصحيح على شؤون بلاده ، ان الحياة الاجتماعية في الهند غدت في تطور كبير وذلك بسبب ما شرته من المؤثرات والعوامل الغربية ، كما هي الحال في تركيا ، ويوضح خطورة هذه الأدوار الشديدة التي لا بد من اجتيازها ، أدوار الانتقال من حال الى حال ، والخروج من القديم والولوج في الجديد . وهو متشائم من هذا ، لأنه يعترف بأن « دور التطور انما هو بحكم الضرورة الى حد معلوم ، دور فساد في الآداب ، وانحطاط في الاخلاق ، وعبث بالدين ، مما قد يحسبونه عرضاً ويزول ، ومرضاً وبيراً ، ولكن لا مبرئ لهذا سوى كرور الأيام » . ولكن هذا الخبير لكبير ، مع علمه بجميع ما ذكر فانه لا يقلل من خطورة الدور الحالى الذى أقل ما يقال فيه انه هادم لاركان النظام الاجتماعى القديم هدماً فقد قال : « ان أوضح نتيجة لهذا التطور هي تزلزل نظامنا القديم القائمة عليه حياتنا المنزلية ، وعاداتنا الاجتماعية ، وسبب هذا التزلزل انما هو تيار الحضارة الغربية ، وهذا الامر الواقع أظهر ما يكون في موضعين :

معتقداتنا الدينية ، وحياتنا الاجتماعية . ان النظام القديم ، على جميع عيوبه كان مشتملا على فضائل جمة وافية» . أما اليوم فقد انهار هذا النظام القائم على ضيق المدارك لابل على التظاهر بخوف الله وطاعته ، وحل محله « استقلال فكرى عملى غريب . ففقت صفة احترام الماضى ، واكرام الكبار والسيوخ ، واعتبار قال فلان و روى فلان . كان الأب فى ظل النظام القديم رب العترة ووليها الجيم ، وكانت كلمته فيها شريعة مطاعة وأمرأ مقضياً ، وكان حارس مقامها وراعى حرمتها ، وحافظ شأنها . أما الآن فقد أصبح مجرداً من جميع المنزلة التى كان عليها من قبل ، وراح أصغر فرد من أفراد الاسرة يتبغى الاستواء معه فى كل شأن من الشؤون ، وينازعه السيادة فى كل أمر من الامور » .

وياسف المستر بوخش أسفا لما هو منتشر من تيار الاسراف والتبذير والانغماس فى الترف ، وذلك ولاشك ناشئ عن اقتباس عادات الأور و بين وتقليدهم فى جميع أساليب المعيشة تقليداً أعمى جامعاً للضار والفاسد والعت والسمين . ثم يسائل المستر بوخش نفسه : « ماذا لعمري ثم فى الهند ؟ اتنا قد اتخذنا أزياء أور و بية فى لباسنا ، وأساليب أور و بية فى معيشتنا ، ولم نكتف بذلك بل جاوزناه الى عادات شرب الخمر والمقامرة والميسر ، ولكننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الغربية ، فيجب مداواة العلة قبل استفحالها وتطبيب السقم قبل الاعضال . يجب علينا أن نتعلم من أور و بية ولكن دون أن نهدر فى سبيل ذلك كينونتنا الأدبية ووجودنا المعنوى . اتنا لم ننتبه الى الخطر الذى حاق بنا فسرنا فى التقليد سير ضلال ، وحل ما حصلناه اتنا خضنا خوضة قليلة فى التاريخ الانكليزى والأور و بى ، ثم طفقنا نزدري ديننا وآدابنا وتاريخنا وتقاليدنا . ولم ندرس ماضينا ولا اطلعنا على انباء حضارتنا ولا بنينا ركناً جديداً ، ولاشيدنا لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً يثبت به غير متزعزع على ضروف الدهر وتقلبات الأزمان . وعلى الجلة فاننا قد أفسدنا حياتنا افساداً من حيث لم نباشر لذلك اصلاً » .

ويؤكد المستر بوخش القول مثل فمبارى ، ان المرأة الهندية سائرة فى سبيل التحرر ، اذ انقضى العصر الذى كانت هى فيه سلعة تباع وتشتري « فصارت المرأة المسلمة اليوم فى الهند تعلم وتهذب على ازدياد . وغدت تعرف حقوقها وتحسن الدفاع عنها . نعم ان نظام « البردة^(١) » لم يزل شائعاً ولكنه ليس من الشدة وايجاب العزلة كما كان منذ

(١) البردة بلغة أهل الهند معناها الستر يمد للمخدره فى ناحية من المنزل .

خمسین سنة خلت ، بل انه أوشك يسقط ويندثر ، وشرعت النساء يتدرجن في نيل حقوقهن الى أن يبلغن اليوم الذى يدركن فيه السوى الكامل لتحزر المرأة الشرقية . كانت نساء بلادنا منذ أربعين سنة موضوع الاحتقار بل خشونة المعاملة من أزواجهن . أما اليوم فقد تبدلت حالهن كثيراً ، وبتنّ يعملن لنيل جميع حقوقهن ، واعزاز مقامهن .

بهذين البيانين - الموصوف بهما التطور الاجتماعى فى الشرقين الأدنى والأوسط - تدرك ماهية الانقلاب الحادث اليوم فى الشرق . ثم ينبغى لنا أن نذكر أن هذين الكاتبين قد وصفا حال الطبقات الراقية المتهذبة فى المدن والحواضر الكبرى ، والحقيقة أن الاختمار سار سريانا عظيما ومنبت انبثانا شاملاً ، فى جميع آفاق المجتمع ، متناولاً طبقات الأمة الواحدة بعد الأخرى ، وتراه دائماً على اتساع وامتداد .

ان انتشار التعليم الغربى فى الأقطار الشرقية خلال بضعة العقود الأخيرة ليدعو للاعتبار لأنه قد نقض ماهو معهود فى الشرق منذ القديم من نظم التهذيب والتعليم . فقد كانت أصول فن التعليم الجارية على سنن التقليد فى جميع الشرق ، من مرا كش حتى الصين ، لا تخرج عن حد تحفيظ الكتب الدينية والأسفار المقدسة تحفيظاً مقروناً بتعليم فروض الدين وممارسة شعائره . وكان الطالب المسلم أو الهندوى يقضى سنين عديدة يتلو على معلمه أو مدرسه فصولاً من الكتب الموضوعه بالعربية الفصحى أو السنسكرىتية ، الكتب التى لا يستطيع ادراك معانى عباراتها وتراكيبها ، ولا فهم أغراضها ومدلولاتها ، فكان نظام التعليم على هذا النمط حائلاً شديداً دون اتساع المدارك العقلية، فتتبدل القوى الدماغية جميعها ماعدا قوة الذاكرة ، وتذهب قوة الابتكار العقلى .

ولم يبرح هذا النظام الفاسد متبعاً حتى اليوم فى بعض الشرق ، وما انفكت الملايين من النساء الشرقى تفتى الأوقات الثمينة فى معاناة التعليم على هذا المنوال الحائل دون نمو القوى العقلية والادراكية . على أن نظاماً جديداً شرع يماشى ذلك القديم منازعاً له وملاشياً إياه وهو يشيع وينتشر فى جميع المحيط التعليمى ، من كتاتيب الأطفال حتى الجامعات والكليات الكبرى ، فصار الناشئ الشرقى يرتفع أفوايق العلوم على مناهج غربية صحيحة وهذه المنشآت العلمية الحديثة الطراز هى على ضروب مختلفة . فهناك الى جانب المدارس والكليات والجامعات - التى تعلم تعليماً حراً وتعد الطلاب للقيام بالخدمة الحكومية أو المهنة

الحرّة - عدد كبير من المدارس الصناعية والزراعية تخرج للشرق حذاق الفنيين والزراعيين والمهندسين ، ومدارس دور المعلمين تعد المعلمين اعداداً حسناً يتأهلون به لتعليم النشء المقبل وتنقيف عقولهم على الأصول الصحيحة والأساليب السليمة . والمدارس الأميرية . والخاصة لانتى فى توسيع التعليم على الطراز الغربى وفى زيادة نشره فى الشرق وقد كان من شأن جميع الحكومات الأوروية الأخذ بنصرة التعليم الغربى فى الأقطار الداخلة فى سيطرتها وحكمها ، ولاسيما الحكومة البريطانية فى الهند ومصر ، بينما هناك البعثات التبشيرية النصرانية المختلفة قد انتشرت وانبثت فى آفاق الشرق ، وأنشأت عدداً كبيراً من المدارس والكليات ، وبينما كثير من الحكومات الشرقية مثل تركيا والحكومات الوطنية فى الهند باذلة غاية المستطاع لنشر التعليم الغربى فى شعوبها ورعاياها نشرأ متواليا مباركا . على أن النتائج الحاصلة الى اليوم ليست غاية فى الكمال المطلوب . ولا غرابة فى ذلك لأن الدور دور تطور وانقلاب ، وتغير وتبدل ، ولأن التقاليد الفاسدة المتسلسلة من ماضى الأجيال ما انفكت تعترض جهد الأقوام الساعية بجد فى سبيل تحرير التعليم من جميع النقائص التى لم تزل عالقة به لهذا السبب الجدير بالاعتبار نرى سواد الطلاب الشرقيين الى اليوم ، أميل الى الاعتماد على ذا كرتهم وحافظتهم ، منهم الى الاعتماد على عقولهم وقوى مداركهم ، يؤثرون اجتياز عهد الطلب سرعانا حتى يدركوا ما نشره اليه نفوسهم من تقلد الوظائف والأعمال الحكومية ، على التضاع من العلوم والتمكن فى المعارف مما يكسبهم الجدارة للاختصاص بمختلف الفنون والصناعات التى لا بد أن تكون بمقتضى سنة الترقى الصحيح . ولما كانوا على هذه الصفة المتقدمة كانت النتيجة ان أخذ كثير منهم يحبطون دون الوصول الى الغاية فيحل بهم الابتئاس ، ويخفقون سعيا وراء أمانيتهم فتشقى عليهم الحال ، هذا وقد اجتزأوا ببعض العلم اجتزاء لا يكسبهم القدرة على ضروب الأعمال النافعة والمهن المنتجة . فتراهم يسرون فى الحياة على غير هدى لايسعون الى غاية مقصودة ولا ينشدون غرضا بعينه . كل ذلك يحملهم على الانقلاب أعداء مبغضين للروح الغربية ، ثم يسوقهم هذا الى بث أسباب الثورة وبذر بذور القلق الفوضى . فى هذا الصدد أجاد « السر ألفرد ليل » فى وصفه سيئات التعليم الغربى فى ربوع الشرق فقال فى شأن الهند : « لامراء أن الجهل انما هو علة شرور كثيرة و بلايا عديدة فى دائرة المجتمع ، وقد قام كثير

من الفلاسفة ووجهة العلم في القرن الماضي ينادون أن التعليم الكافل لتثقيف العقول وتنوير الازدهان هو أنجع دواء وأفضل ذريعة لشفاء العالم ونجاته مما هو غارق فيه من بحر الضلال والجهل ، ، وقام ساسة خبراء مثل « ما كولي » يبينون للملأ أن التعليم على هذه الصفة هو السبيل الفضلى لخلاص العالم بأسره من المعضلات السياسية ، ومن الحال التي قد استفحل فيها امتهان حرمة القوانين والانظمة والاحكام . فلذلك بات ضرورة لازب على الحكومة البريطانية أن تجرب القيام بتحرير الهند تحريراً عقلياً ، حاسبة هذا العمل خير مبرر لحكمها تلك البلاد . « على اننا قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك أن التعليم ، مع كونه الدواء الشافي لامراض عديدة وكونه ضروريا لا بد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعي الصحيح ، فانه إذالم تحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تديره القسط الأكبر من الاجادة والاحكام ، انقلب بقوة فعله وعمله سماً قاتلاً تتولد منه جرائم الفساد والاضطراب ، بعد أن كان خير دواء يرجى به الشفاء . ولاغربة في ذلك لأن التعليم على هذه الحال أخذ مفعوله يسرى وفواعله تشتد اختاراً في مجتمع متزلزل الأركان متداعى الجوانب . ثم من شأن هذا التعليم أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ، ويهيج ضعاف الادمغة ، ويستثير مساريع الاطباع وبعيدى الآمال مما لايستطاع تحقيقه في الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراما .

غير أن بعضاً من الغربيين أهل العناية بشؤون الشرق ، نخص بالذكر منهم رجال الاستعمار ، أخذوا يقومون ويقعدون للمخاطر السياسية والاجتماعية المنبعثة من جانب هذه الطبقات المشتملة على الذين أنبنا على ذكرهم من ذى العلم الناقص^(١) وأنشأ المستعمرون

(١) كثير من مؤلفي الأوربيين ورجال سياستهم يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم في المستعمرات ، بحجة أن الغالب على النشء المتعلم هو النزوع الى الثورة ، إذ كانوا يقرأون اموراً «تسئ عقولهم هضمها» ويقيسون اقيسة فاسدة فيتعبون ويتعبون . ومن جملة شواهد ذلك تلك المقالة التي عربناها عن «مجلة باريز» (راجع صفحة ٣٠٤ من الجزء الثاني) والتي صاحبها يشير بامانة اللغة العربية من الغرب واقامة الفرنسية مقامها بشرط أن يكون التعليم مقصوراً على ما يلزم لامانة هذه واحياء تلك لاغير . والحاصل أنهم يريدون قلع العلوم الشرعية من بين المسلمين ، ولكن يظنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية ، لئلا تحيا بها نفوس هذه الأمم ، اذ يعلمون انه لا يجتمع العلم والذل في محيط واحد سواء كان علماً شرعياً اسلامياً أو علماً أوربياً عصرياً أو علماً جامعاً للامرين . (ش)

يعزون السبب في انتشار روح المقاومة للغرب الى التعليم الذي جاءوا بمناهجه وأساليبه . فالورد كرومر على سبيل المثال ، يرتاب شديد الارتياب في شان المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية . وقال موظف بريطاني هندي شهير ان علة الاضطراب في الهندي ناشئة عن « نظام التعليم الذي نشرته بريطانيا في البلاد » .

وهؤلاء المرتابون المتشائمون المستعمرون ، الذين يقولون ما يقولون من أن التعليم هو سبب نشوء الاضطراب في الشرق ، يغفلون عن انه لا بد لادوار التطور والانقلاب من أن يصحبها شرور وآفات ، وعوارض فاسدة ، بطبيعة الحال دون مرد . ولكن هذه الحقيقة الكبرى لم تخف عن الحكماء من أهل الاستقصاء ، فكان شأنهم في درس تطور الشرق خلاف شأن أولئك المرتابين ، اذ قالوا ان التبدل والتغير في أنظمة هذا المجتمع الانساني لا يكون خاليا من نقائص تعتوره وعيوب تصاحبه ، ومن هؤلاء الحكماء فمباري الثقة الكبير الذي أحاط بالشرق وشؤونه علماً ، وأدرك أن في الشرق اليوم مستوىً عالياً تتجلى فيه جدارة الموظفين الوطنيين ، وبه يظهر صدق أماتهم ، وهم الموظفون القائمون بأعمال الخدمة المدنية في حكومة الهند البريطانية وحكومة افريقية الشمالية الفرنسية (وجل هؤلاء الموظفين من الذين تلقوا العلوم الغربية) ، ففي هذا المعنى قال فمباري : « ان الشرقيين المحافظين المتشددين والأوربيين المتعصبين ، ليخالون أن الايمان بتهدينا الغربي الى الشرق قد ذهب بفضائل الاسيويين ، تلك الفضائل الساذجة الفطرية ، حتى غدا الشرق غير المهذب أكثر أمانة وأعز شرفاً وأشد اباة ، وأجدر بالثقة من الاسيوي المهذب على الأساليب الغربية . ان هذا الخيال لأفن وخبال فلعن هذه الأوهام تصدق على أولئك النائيلين قسطاً قليلاً من التعليم والتهديب ، ولكن لا تصدق على الاسيوي التام التهديب الذي وقر في نفسه ان الارتقاء العقلي قائم بجملته على الأساس المكين ، وهو التعليم الوافي الصحيح ، والتهديب المنظم الطريقة والتثقيف السليم والأسلوب والمنهج » .

ثم مهما كان شأن النقص الذي صاحب أساليب التعليم الغربي في الشرق ، فالتعليم هو المنهاج الذي لا يستطيع الانهجه ، والباب الذي لا حيدة عن ولوجه . وعلى كل فان ما قد بلغته الروح الغربية في الشرق من سعة الانتشار وشدة التأثير ، هما من الاهمية بحيث لو أردنا الكلام عليه تفصيلاً استغرق ذلك المجلدات الضخام . ولو سلمنا جدلاً أن

الحكومات الاستعمارية قد كان في وسعها أن تحول دون التعليم الغربى الصحيح ، أفلم يكن الشرقى على كل حال قادراً أن يتعلم ما يتعلمه على طرق أخرى ومناهج شتى . اذن خير للشرقى وأفضل ان يتلقى العلوم والمعارف فى كتب مفيدة صحيحة الاسلوب برعاية الكفياة من المدرسين والمعلمين ، من ان يترك وشأنه يتبع الأساليب الفاسدة والطرق الملتوية ويخبط خبط عشواء .

وتتضح لنا خطورة التعليم الغربى فى الشرق أحسن اتضح بما هو ظاهر ومشهود من النتائج الاجتماعية الكبرى ، الا وهى ترقية شأن المرأة واعلاء مقامها ورفعها من تلك الحالة التى كانت عليها . ومعالم أن تلك الحالة التاعسة التى كانت تنزل بمقامها فى جميع البلدان الشرقية تحتاج الى الاصلاح الحقيقى الذى هو قوام المجتمع الناجح . ان هذه الحالة السيئة فى الاقطار الاسلامية هى اسوأ منها عند الهنديوين القوم المنتشر فيهم الزواج الباكر واستعباد الارامل والأيامى (اللواتى كان من العادة أن يحرقن أحياء وظلت هذه العادة شائعة حتى قضى عليها الانكليز بسيف القانون) وتحجب المرأة تحجباً أشد من تحجب المسلمات واثقل وطأة . قال كاتب انكليزى : « نحن فى الغرب نقول السيدات أولاً والرجال ثانياً ، وفى الشرق يقولون الرجال أولاً والسيدات ثانياً . ولعل هذا كاف لتبيين مبلغ الاختلاف فى صفات البيئة المنزلية بين الحضارتين الشرقية والغربية » .

وقد يبدو للآمل لأول وهلة أن حالة المرأة على هذه الصفة لم تزل تحت تأثير بحيث لم نفس فيها لحد الآن المؤثرات الغربية التى تبعث فى مجتمع النساء روح اصلاح حقيقى . كلا ، فان الأمر على خلاف ما يتبادر الى الذهن ، اذ ان المؤثرات الغربية قد انبثت وذاعت ، وكان لها ما كان من بالغ التأثير فى افق نساء الطبقات العليا ، فانتشر تعليم الاناث انتشاراً كبيراً ، ولكن على نطاق أضيق من نطاق تعليم الذكور . وقد ظهر فى الأقطار الشرقية التى هى أسبق من غيرها ترقياً وعمراً اجتماعياً مثل القسطنطينية والقاهرة ومدن الهند ، طراز جديد من النساء العصريات ، المتهدبات الراقيات ، ولا سيما من معلمات المدارس اللواتى نزلن منزلة رفيعة فى المجتمع الذى أخذن يعملن فيه .

وقد جاء تطور المرأة المسالمة فى الشرق بنتائج حسنة لم يكن نفعها مقصوراً على النساء فحسب ، بل تناول المجتمع بأسره . وكيف لا يكون هذا التطور خطيراً والمرأة

الشرقية ، كما قال قُمبارى ، مستغرقة في الجهل والغباوة ، واذا كانت هكذا . فما أسوأ التربية التى تنشئ بها أولادها الذين على صدرها وبين ذراعيها . وهل من بلية أعظم من هذه البلية التى تحول دون ارتقاء الفتى الشرقى والفتاة الشرقية ارتقاءً عقلياً ، وهما يشبان فى مخدع الحرم على جهل شديد يتضاءل به الاستعداد الفطرى ، وتضيق المدارك ، فهذا الأمر أخذ يحمل الآباء الشرقيين أولى الرأى والمعرفة ، على ارسال ابنائهم الى المدارس أ بكر ما يكونون سنّاً للطلب والتحصيل ، انتشالاً لهم من تلك الحياة التى اذا طالت عليهم وهم فى مخدع الحرم ، أفضت عليهم بالجهل وفقر كل قوة حيوية فيهم . ولكن هذه الوسيلة على الجلّة لم يكن من شأنها سوى تخفيف الوطأة الواقعة ، لأن ما ينطبع فى نفس الابن ويرسم فى لوح ذهنه وهو يرتضع ثدي أمه فى السن التى يكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه فى سائر العمر لأبقى أثراً من جيع ما يتلقاه الابن فيما بعد عن المعلم . فهذا الاعتبار ، مادام نصف الشرق لم تعمل فيه عوامل الارتقاء على الدوام ، فنهضة الشرق الاسلامى على الجلّة تظل ناقصة بترء ، ولا سبيل الى كمالها ما لم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً فى هذا الدور وكل دور مقبل .

ولكن ازدياد عدد النساء الشرقيات المهذبات ازدياداً متوالياً فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، هو الدواء الناجع المبرىء من هذه العلة الكبرى والمتمم للنهضة الشرقية . قال كاتب غربى فى هذا الصدد : « علموا الامهات وهذبوهن تتبدل حالة المشرق تبديلاً تاماً من أقصاه الى أقصاه ، فان الفتيات متى ما تلقين معارف وعلوماً صحيحة مع ما يحفظنه من السور والآى القرآنية استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً ، سواء كن بنات أم اخوات أم أمهات . ولا شك فى أن النساء اللواتى تعلمن القبالة وأصول الطبخ والخياطة وقواعد عامة فى علم الصحة فى مدارس الاقتصاد المنزلى ، كانت حياه المنزل الذى يكن فيه حياة طيبة هنيئة ، فى جو تذاق فيه لذة السعادة البيتية . ان الحياة القديمة التى كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديون لاهية ، لا تعرف شيئاً أكثر من تناول ضرب الخلاء آونة بعد أخرى ، وماجئة مع الخوادم اللواتى حواليتها تارة ، وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، قد انقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ، ترى فيها المرأة المهذبة رقيقاً لزوجها وشريكاً اميناً ، لا عبدة له ولا سلعة بين يديه . وشأن الزوج آخذ فى التبدل من

كونه تجارة خسيصة تتعاضد النساء كما تتعاضد الأمثلة والعروض في الاسواق ، الى اتحاد زوجي وثيق العروة قائم على احترام المرأة من قبل زوجها وابنائها ، وهي سائرة في ظل هذه الحياة الجديدة الى أن تكون ربة مقام رفيع وشأن اجتماعي كبير .

وفي هذا العصر الجديد ترى الرجل والمرأة تتبدل أفكارهما وآرائهما تبديلاً ظاهراً الأثر في انقلاب مستوى المعيشة ، المستوى الآخذ في الارتقاء تبعاً لتطور الآراء والأفكار بطبيعة الحال . وهذا جميعه وان كان أظهر ما يكون في أهل الطبقات الثرية في المدن والحوضر ، فهو جار مجراه من الشيوع في جميع طبقات الشعب . فالشوقيون كافة ، من غني وفقير ، وقروي ومدني ، آخذون في تبديل نمط معاشهم تحديداً بالغريبيين ومحاكاة لهم . وهذا التبديل يصحبه تطور اجتماعي بعيد الافق واسع الميدان . والسبب في ذلك ان بعض وجوه التباين والاختلاف بين الحالتين المقام عنها والمنتقل اليها ، لأشد تأثيراً ومفعولاً من جاري الحالات المعتادة في طريق الحياة ، ذلك حق لا ريب فيه سواء كان في العالم الشرقى الحافل بالتقاليد الموروثة ، أم في العالم الغربى الحديث . وهذا التباين والاختلاف ليسا ناشئين كل النشوء عن أمر الغنى وبسطة الحال (لان الشرق مثل الغرب من حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع) بل بالاكثر عن وسائل الرغادة والرفاهية بمعنييهما عند أهل الغرب فالشرقى المثرى في سالف العهد لم يكن غالب دأبه الا في تبذير ماله في سبيل الترف الشرقى المشتمل على الأثواب الفاخرة واللبسة الثمينة والجواهر الكريمة والنساء الغوانى ، والخيول المهطمة ، والخدم والحاشية وغير ذلك ، وما كان ليعرف شيئاً من أسباب الرغادة الغربية الحديثة ، لهذا يصح القول في هذا المعنى ان الشرقى المثرى فيما مضى كانت عيشته المنزلية على مستوى أقل مما يرضى به سواد الغريبيين أهل الحرف والصناعات .

غير ان الشرقى اليوم طفق يعتاد أسباب الرغادة الغربية ، ويقبل على هذه الاسباب ما استطاع الى الاقبال سبيلا . فالاشياء العديدة التي جرينا نحن على استعمالها ترفيهاً لخالنا وتوفيراً لراحتنا وهنائنا ، وهي شائعة في حياتنا بشيوعاً لاغنية لنا عنه ، كالمصايح ، والانوار الكهر بائية ، والمطارز ، والساعات ، والجمعة ، والمظلات ، وأدوات الصحة ، وكثير سواها ، باتت جميعها عند الشرقى اليوم من ضرورياته الجديدة التي لا يطيب له عيش بعدد الابها ، وهو لا ينفك يتبغى التمتع بضرورها واشكالها ويطلب المزيد منها . لكن اقباله عليها الى

هذا الحد قد أفضى به بالتالى الى الوقوع فى ضنك شديد ؛ وان رمت الوقوف على العلة فاعلم أن الشرق ليس الاقتصاد من شئنته ، ولا التوفير من طبعه ، فلما أخذت حاله تتبدل منتقلا الى دور طافح بالحاجات الجديدة المستطابة والاسباب المستلذة ، كان لابد بالضرورة من ارتفاع سوى معيشته ارتفاعا كبيرا ، فكيف يستطيع والحالة هذه أن يتوفر له المال الذى يكفيه نفقته الجديدة ؟ فاذا كان فقيراً تعين عليه أن يقتر على نفسه تقثيراً ، لكي يتسنى له بذلك الحصول على قدر ما يستطيع من حاجاته الجديدة ، واذا كان غنياً شق عليه الاقلاع عن الترف الذى اعتاده ، وصعبت عليه مزايلة ذلك الطراز الذى ورثه من آباءه وأجداده ، فنجم عن جميع ذلك زيادة فى السرف وغلوفى الترف . وفى هذا المقام ينبغى لنا ألا نغفل الحقيقة الراهنة وهى أن شعوب الشرق الادنى والاوسط على الجملة لم تكن يوماً بعارفة للاقتصاد من غاية ولا للتوفير من معنى . فالعامة من المشاركة ولو كانوا فقراء الى حد هم مكرهون به على رعاية الاقتصاد فى النفقة ، هم والحق يقال مبذرون مسرفون متى ما تيسر لهم شئ من السعة والوفر . والطريقة التى يبذرها الفلاح التركى أو الهندوى دراهمه الموفرة لاقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم وما أشبه ذلك ، تبذيراً يجره الى الرزوح تحت اعباء الديون ، مما يدهش له الغربى أيما دهش . أضف الى هذه الحقيقة ان نفقة الضروريات التى لا يستغنى عنها أهل الشرق ولا الغرب ، كالطعام واللباس والدفء والكن ، قد ارتفع مقدارها خلال العقدين الماضيين ارتفاعاً كبيراً ، نستطيع أن نتصور به مبلغ ما انتهت اليه الحال من الضيق والازمة ، بما يقتضيه ارتفاع نسبة المعيشة فى هذا الدور .

يتضح لنا من جميع ما تقدم أن التنازع فى سبيل البقاء يتضاعف شدة ، والتناحر تزداد حلقاته استحكاماً ، بحيث ان الفلاح فى حقله والعامل فى معمله ، باق فى هذه الحال التى قد ارتفعت فيها أثمان الضروريات المعدودة قوام الحياة ارتفاعاً لا قبل لها باحتماله ، وأمسيا بعد ما اعتادا صنوفاً من الحاجات العديدة المستحدثة التى ما كانا يعرفانها منذ عدة عقود خلت اعتياداً جعلها من الضروريات ، يقاسيان أعظم ما يكون من القلة وضيق ذات اليد ، مما شاة للحال وجرياً مع الدور . قال أحد الكتاب فى هذا الشأن : « إن الأحوال الاقتصادية قد تطورت فى الشرق تطورا كبيرا لم يستطع معه المشاركة حتى اليوم

القيام باعباء جميع الحاجات المستجدة عندهم بسبب هذا التحول ، فازداد غلاء المعيشة ازدياداً أسرع سيراً من نمو الثروة فاتسع البون وطالت الشقة » .
ومن الأسباب الكبيرة فى هذا البحران الاقتصادى السياسى الذى يجتازه الشرق اليوم ، تعاظم عدد القطين (وان كان هذا السبب غير متفق عليه لدى الجميع) فان الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكور قابليتها للتناسل والتوالد . وهذا ليس ناشئاً عن شدة العاطفة الجنسية فحسب ، بل له أسباب اقتصادية كالانتفاع من شغل النساء والأولاد شغلا قاسياً اداً ، وأسباب ناجمة عن التعاليم الدينية الحاملة على الزواج الباكر وكثرة النسل .
لهذه العلة كانت الشعوب الشرقية دائماً فى همٍ ناصبٍ من الدأب وراء مواد المعيشة ولو لم تنل منها سوى الكفاف . وقد كانت فى الزمن الماضى طائفة من العلل الفاعلة من ذاتها فى تقليل عدد القطين ، كالحرب وجور الحكومات ، والابوثة ، والمجاعات ، جميع ذلك مما كان يجتاح البلاد اجتياحاً فيجرف فى سبيله الخلق الكثير ، بحيث ان عدد الساكن كان على الجملة ، مع ارتفاع عدد المواليد ارتفاعاً كبيراً ، على نسبة كادت تكون سوية .
ولكن لما كان للمؤثرات الغربية عمل عظيم فى هذا الافق من الحياة الشرقية فقد تغيرت الحال من أساسها . فان امتداد التسلط الأوروبى السياسى فوق الأقطار الشرقية قد كان سببا فى وضع حد للنزاعات الاهلية ، وتقليل ظلم الحاكم ، وكفاح الابوثة والامراض ، وتدارك وسائل درء المجاعات (١) . وبعبارة أخرى ان العوامل التى كادت تكون من قبل سببا

(١) على أن المجاعات المتعددة التى اجتاحت الهند منذ دخلها الانكيز بل فى أيامنا نحن فضلا عن المائة سنة التى خلت من زمان استيلائهم ، هى فوق كل تصور بشرى . وقد نشرت احدى المحلات الايطالية منذ سنوات احصاء عن مجاعات الهند بهذا العصر ، وما جرفته من عشرات الملايين من الاناسى ، وتناقضه عنها الجرائد ؛ فكان شيئاً تورث قراءته الفشعريرة والبيث النفس . وأكثر السبب فى ذلك هو سياسة الاستعمار المبنية على استئثار المستعمرين بالأرباح والمكاسب واستنزافهم منابع الثروة الوطنية يضاعفهم وأدواتهم ، وتركهم السواد الأعظم من الهنود عالة عليهم بحيث اذا احتبس المطر قليلا ، أو هبت على الزروع لافحة سموم قفل المحصول ؛ وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الاهالى سوى الموت جوعاً أو بالأمراض التى سببها سوء الغذاء ، لان الذى يأخذونه بدل عملهم لا يعود كافياً لشراء قوتهم الضرورى . ولو فحصنا فى تاريخ مجاعات الهند ، أو مجاعات الجزائر التى منها المجاعة الحاضرة المستمرة منذ ثلاث سنوات ، لا تجد انكيزياً فى الهند ولا فرنسويماً فى الجزائر مسه الجوع أو مات سغباً ، فهو دليل كاف على أن الاستعمار هو من أعظم العوامل فى مساعب المستعمرات . (ش)

في استواء عدد القطين مستوى معلوما ، قد تخففت أو تلاشت ، فكانت نتيجة جهد الحكومات الغربية في درء العوادي الطامة ووقاية الانفس من الهلاك ، ان قد هبط مستوى عدد الوفيات الذي كان هائلا فيما مضى وحاتلا دون نمو عدد الساكن نمواً مطرداً الى حد قريب من مستوى عدد الوفيات ، بحيث صار المستويان متقاربان كما في أحوال الامم الغربية . على أن الطريقة الى اهباط عدد المواليد الذي ينمو ذلك النمو الفاحش لاعلاقة له بمسألة الوفيات ، لذا ما برح مستوى المواليد يتصاعد ويتعظم حتى ضاقت الارض بقطينها على رحبها في غالب أقطار المشرق الممتد فوقها التسلط الغربي السياسي . ثم ان سائر الاقطار الشرقية التي احتفظت باستقلالها ، وأخذت من الوسائل الغربية بنصيب لوقاية الانفس وصيانة الحياة ، قد زاد عدد ساكنها زيادة كبيرة في قليل من الزمن كما هو الامر في غيرها من الاقطار (١) .

والبلاد التي زخر فيها عدد القطين أكثر من غيرها هي الهند . فهذه البلاد لم يبرح غالبها خاضعاً للتسلط البريطاني مدة تقرب من قرن . وكانت كلها من قبل ذلك العهد كثيفة الساكن ، ثم ازدادوا خلال القرن الأخير ضعفين أو ثلاثة (٢) . ومن المعلوم البين ان هناك عوامل كالزراعة الحديثة والرى والقطر الحديدية والآلات الصناعية الحديثة ، كان من شأنها توفير استعداد الهند لكيلا تضيق بزيادة أهلها هذه الزيادة الفاحشة ، وهذا هو السبب الذي جعلها أرحب لقبول الزيادة بعد الفتح البريطاني منها قبله ، ولكن النتيجة واقعة

(١) طالما زعم المستعمرون ان البرهان الساطع على عدم الظلم ، وعلى انتظام الادارة وتوفير الاحتياطات الصحية في مستعمراتهم ، هو ازدياد عدد الاهالى ، فهذه هي الهند قد ازداد سكانها كثيرا على ما كانوا قبل الحكم البريطاني ، وها هي جزائر الغرب كان أهلها مليوناً ونصف مليون يوم فتح فرنسا لها ، فصار فيها اليوم خمسة ملايين وهلم جرا . والحقيقة في هذه الزيادة انها نتيجة الشرائع والطابع وأساليب العيشة التي عليها الاهالى ، بدليل ان هذه الزيادة جري مثلها وأعظم منها في تركيا ومصر وبلاد العرب والافغان وغيرها من الممالك التي لم تتمتع « بنعمة الاستعمار » ولا علا فوقها بساط تلك الرحمة . . فكل أحد يعلم ان مصر لأول حكم محمد على لم يكن فيها أكثر مما كان في الجزائر من السكان وها أهلها اليوم ١٤ مليوناً . فدعاوى المستعمرين من هذه الجهة ساقطة من ذاتها ، وهي من جملة تمويهاتهم العديدة لتغفل الناس عن حقيقة ادارتهم الفاشمة هناك ومما لاجدال فيه ان اهالى الجزائر لولا الاستعمار كان عددهم ضعف

(ش)

ما هو اليوم ، ولك أن تقول مثل ذلك عن سائر المستعمرات

(٢) في أوائل القرن التاسع عشر كان مقدر قطين الهند ١٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ببلغ ٣١٥،٠٠٠،٠٠٠

على ما أفاد احصاء سنة ١٩١١

على كل حال وهي هذا التعاضد الهائل . وكاد جميع العلماء من أهل الخبرة والثقة يتفقون على هذه الحقيقة التي لا ريب فيها . قال «دوق ارغيل» منذ أربعين سنة : « ليست كثرة النسل والولد في البلاد التي أهلها على قلة بصر بادخار المؤن والأقوات وليس فيها غنى ولا ثروة ، ويعيش أهلها على الكفاف من فصل الى آخر ، دليلاً على الدعة ورخاء العيش» . وعند آخر القرن الماضي تكلم السر وليم هنظر على قضية تزايد الساكن في الهند فاطلق عليها اسم «القضية الأساسية الكبرى» وفي هذا الصدد قال : « من نتائج الحكم المدني في الهند تعاضد عدد الساكن الى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، حتى بات من الحقيقة التي يؤيدها الاحصاء الهندي كل التأييد ان ازالة النوائب المجتاحة والتوازن الفادحة التي كانت تنتاب الشعوب الاسيوية على التوالي هو كل البركة والخير» . وقال اللورد كرومر في كلام له على فاقة الهند : « وليس الأمر كله مقصوراً على أن الفاقة لا تستطاع ملاشاتها بسلاح حب الانسانية فحسب ، اذ من الثابت ان حب الانسانية على الاطلاق هو سبب في تعاضد الثر واستفحال البلوى (ولو بدا هذا القول غليظاً متناقضاً ما بدا) . ففي عهد « أكبر » و « شاه جهان » كانت الأوبئة من الهواء الأصفر والمجاعات سبباً في تناقص القطبين تناقصاً جعل الحياة عهدئذ حياة تنازع في سبيل بقاء الأنسب . أما الآن فقد قضى على هذا التنازع والتناحر ، ثم جاء سلاح حب الانسانية ونزل منزلةً من عمران البلاد امتنع معها ذهاب ضحايا الأنفس وهراقه الدماء ، فازداد عدد الساكن زيادةً فائقةً ، حتى بات جانب كبير من أهل البلاد يعيشون على الكفاف بجهد وعناء^(١) . الحقيقة أولى ان تعلم ، وهي أن الصعوبة في حكم الشعوب الشرقية الكثيرة التوالد والتناسل لناشئة عن الحكومة الصالحة المشتملة على عاطفة حب الانسانية ولا ريب في هذا الأمر الذي تجاهلناه من قبل غير مرة » .

وقد أجاد «وليم البشر» في تبيان القضية في جوابه على المسألة : ماهي العلة في أن ترقى الأحوال الظاهرة لم ينفذ بالهند الى محجة النجاح والفلاح ؟ اذ قال : العلة في رأيي انما هي بسيطة لاتدعو الى كثير استقصاء . فان المنافع الحاصلة والفوائد المجتناة من الحكومة

(١) فتش في معيشة الكفاف هذه - في بلاد غنية في طبيعتها كبلاد الهند - عن آفة الاستعمار ، وسحب ثروة البلاد الى الخارج ، لا عن وفرة حب الانسانية . . . الذي امتاز به المستعمرون . . . والذي لو قدرنا وجوده من جهة لم يسد شيئاً من الحرق الذي تفرقه سياسة الاستعمار في الثروة الوطنية . وهل يوزن الخردل بالجدل ! (ش)

الصالحة هي أشياء لقيمة لها البتة في بعض المواضع ، اذ شأن الشعب الذى تكون فيه تلك الحكومة ، ان يستعين بها لالترقية مستوى معيشته وتحسين أسلوب حياته ، بل للاكثار من النسل والذرية حتى يغدو ذو العائلة مستغرقاً في العيلة والفقير ، لا يصيب من الرزق سوى مايسدّ الرمق . نعم ، أبان هنرى جورج ان كل فم واحد يخلق في هذا العالم يخلق معه يدان اثنتان . ولكن مع أن هذه الحقيقة الفسيولوجية لاتنكر ، فان الاستنتاج الذى يستنتجه الاقتصادى من هذا القول ، وهو ان مقدار انتاج اليدى يقتضى أن يفوق مقدار ما يستهلكه الفم ، لا يصدق من الوجهة الاقتصادية الا في المواضع التى تنطلق فيها اليدان عاملتين عملاً مثمراً نافعاً ولكن ان زادت الافواه الآكلة على الأيدى العاملة فالمصير هو لامحالة الى فقر مدقع ومسغبة شديدة . »

على انه من نكد الطالع ان المفكرين الذين يوقنون بأن زيادة القطين هذه الزيادة الفاحشة هي السبب الأشد في فاقة الشرق والضيق النازل به ، هم عدد قليل بل جميع أرباب النظر ، يردون السبب المذكور الى العوامل السياسية وبالأخص الى السيطرة الغربية السياسية ولم نعرف الى اليوم سوى مفكر شرقي واحد أزاح النقاب عن محيا هذه الحقيقة فجلاها لبنى قومه بدون محاباة ، وخاض في هذا الحديث مقترحاً بالخاص أن ينشأ نظام يتعين به مستوى المواليد ، وهذا الكاتب الحكيم هو ب . ك . وطال الهندي ، أحد الموظفين الوطنيين في ديوان المالية في حكومة الهند ، وضع كتاباً ، هو باكورة المؤلفات الشرقية من هذا النوع ، ووسمه « بقضية القطين في الهند ^(١) » ونهج فيه منهجاً دل على اقتداره وطول باعه وبعد بصره بالأمر . فجاء الكتاب دليلاً على ان المشاركة شرعوا ينتهبون الى قضية هي من جلالة الشأن بمكان ، بل هي من أعظم قضاياهم الحيوية .

استهل المستر وطال كتابه بندا بنى قومه أن يعيروا الأمر اهتماماً ويقدموا على علاجه علاجاً صحيحاً لاتحيف فيه ولا اضرار ، ومما قاله : « اريد أن يعلم كل قارئ ان الغرض المتوخى في هذا الكتاب ليس الطعن في حضارتنا الروحية الشرقية ، ولا إعلاء شأن الحضارة المادية الغربية ، سواء أكان مباشرة أم ضمناً ، بل ان الغاية المقصودة هي أنه يجب

(١) المستر وطال هو من موظفي ديوان المالية في الهند يشغل منصب معاون المحاسب العام . نشر كتابه

علينا أن ننتبه حد الانتباه الى مسألة أساسية فنستبطنها وننحرها علماً ، ونكتنه باطنها ونجلاو غامضها ، ألا وهي قضية المعيشة ، وكيف نبتغي أسباب الرزق في هذه الدنيا . لا ينكر اننا شعب فقير ، ولفقرنا هذا الذي نعانيه أسباب عديدة أريد إيضاحها إيضاحاً شافياً كما يطلع عليها كل مواطن من بنى بلادي ، سواءً أ كان ممن لم تصبهم النائبات يوماً ولا ذاقوا من العذاب في سبيل المعيشة ، أم ممن قد ناهم الضنك بهذا السبب وعضهم الفقر بنابه ، ولكن ذلك لحسن الطالع ما كان بالعقبة الكأداء الحائلة دون إدراك النجاح والفلاح لأسباب دبرتها العناية . ان هذه القضية لقائمة بذاتها ، وهي حقيقة مشهودة وواقع محسوس ، ولا علاقة لها البتة في شأن من شؤون السياسة أو الدين . يا قوم ! إذا كنا قد عانينا الأمرين من جراء نتائج تلك الخطيئة ، أليس من الواجب علينا بعد ذلك كله أن نبادر للتخفيف من وخامة العقاب وندارك الشر قبل استفحاله وقاية لنا ولأولادنا من بعدنا ؟ ان أكبر بلية في الأرض هي الفقر والفقر أبو البلاء^(١) . أقول هذا صريحاً ، على إجلال وتعظيم لحضارتنا الروحية ، وغير مربدٍ تنقص الحياة الزوجية على الاطلاق ، بل انما غاية غاياتي في هذا الكتاب أن أنادي بنى قومي أن يحفلوا بهذه القضية الخطيرة الحيوية ، وقد جلنى على ذلك وقوفي التام على ما هو منتشر في البلاد من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين على كثرة النسل والولد ، وشعورى العميق بما يقاسيه جانب كبير من بنى وطنى ذوى الشأن والمكانة من النصب والمضض في ابتغاء أسباب الرزق ، لهذا كان من الواجب على أن أبين الكلام بدون محاباة ولا تردد وأوضح أسباب شقاء الناشئ الهندي وما ينتابه من الضيق الخانق والعسر المستحکم ، وهو على هذه الحال لا يسعى في النجاة من ذلك سعياً يرجى به الخير القريب ودرء البلاء .

ثم يشرع المستر وطلال بعد هذا النداء ، بالبحث فيقول ان السبب الكبير في تعاضم عدد القطنين في الهند هو الزواج الباكر . ففي البلاد الأوروية لا يبلغ هذا التعاضم مثله في الهند لأن الزواج الباكر ليس معروفاً في تلك البلاد ، ولأن لنسبة المواليد متراوحاً معلوماً « أما الزواج عند الهنديوين فواجب ديني مقدس لا مفر منه ، سواءً أ كان الزوجان أهلاً له وللقيام بتبعته ، أم كانا غير ذلك دون أن يدركا للحياة الزوجية من معنى ، فالابن الهندي

(١) من الأحاديث النبوية الشريفة . «الفقر الموت الأكبر .» و « كاد الفقر أن يكون كفراً .» (شر)

يجب عليه أن يتزوج وينسل الأولاد العديدة لكي يقوموا بالشعائر الدينية عن نفسه عند موته ، فإذا لم يكن ذلك ، راحت نفسه بائسة شقية تهيم في الفقر . فان مجرد اسم الابن وهو « پوترا » معناه المخلص لنفس أبيه من جهنم التي اسمها « پونا » والبنت الهندوية العذراء اذا أدركت سن البلوغ فلم تتزوج بعد ، كانت عاراً وشناراً اجتماعياً على أهلها ولعنةً أبديةً حلت باجدادها وأسلافها . وهذه الحالة في أمر الزواج تكاد تكون عند المسلمين الذين وان كانوا لا يعرفون شيئاً من مثل هذه التعبيدات والاعتقادات فانهم يقتدون بالهندويين . وهناك سبب آخر ناشئ منذ زمن بعيد عما كانت قد اقتضته الحالة الاجتماعية أيام الفتوحات الاسلامية إذ كانت الزوجة عهدتد ضرورة من الضرورات لتقوم بالخدمة البيتية ولتساعد زوجها في حرث الحقول والأشغال اليدوية « وشر البلية ان الزواج الباكر أعنى زواج الأولاد دون سن الرشد ، لم يزل شائعاً ومتزايداً حتى اليوم ، على جميع ما بذل من الجهد الكبير في الاصلاح الاجتماعي . فقد أفادت أرقام الاحصاء لسنة ١٩١١ ان خلال العقد الأول من القرن العشرين زاد عدد الزوجات الاناث ذوات الأسنان . — ٥ من ١٣ الى ١٤ بالآلف ، وذوات الأسنان ١٠ - ١٥ من ٤٢٣ الى ٤٣٠ بالآلف وذوات الأسنان ١٥ - ٢٠ من ٧٧٠ الى ٨٠٠ بالآلف . وبعبارة أخرى ان في سنة ١٩١١ كان أكثر من العشر من كل ألف من بنات الهند متزوجات دون سن العاشرة ، ونحو النصف متزوجات دون الخامسة عشرة وأربعة أخماس متزوجات دون العشرين » .

لهذا السبب ارتفع مستوى المواليد ارتفاعاً هائلاً . قال وطال : « غير أن هذا الارتفاع ما كان للبلاد أمراً تغبط عليه ولا تسر له . اننا قد عرفنا أسباب ارتفاع مستوى الوفيات فجعلنا تتداركه بوسائل التخفيف ، ولكن هل يعقل أننا نستطيع احتمال هذه الحال طويلاً ما دامت جارية هذا المجرى بحيث ان مستوى المواليد يبلغ ٣٠ بالآلف ومستوى الوفيات هابط الى حدٍ يقرب من ذلك الذي في انجلترا وسكوتلندة ؟ أترحب بلاد الهند بزيادة الساكن ٢٠ بالآلف كل سنة ؟ اننا بلا ريب نلحق جزاء مرأً على جلبنا الى هذا العالم تسلاً أكثر مما نستطيع حقا بعهوله وتريبته . فان رمنا ارتفاع مستوى الوفيات في البلاد وجب علينا إهباط مستوى المواليد الى الحد الذي يتساوى عنده مع السويات النازلة في البلدان الاخرى . من هذا يعلم أن ارتفاع مستوى المواليد في الهند هو علة بلائنا وأصل

شقائنا ، وسبب هذا الخطر الاجتماعي الهائل الحائق بنا . فارتفاع مستوى الوفيات وان كان من دواعي الاسف فهو ناشئٌ بطبيعة الحال على ارتفاع مستوى المواليد .

ثم يصف المستر وطال مستوى الوفيات الهائل ، ولا سيما وفيات الاناث مما غالبه ناشئٌ عن الولادة الباكرة . ويصف أيضاً وفيات الاطفال التي تقشعر منها الابدان اذ نحو ٥٠ بالمئة منها سببه الاسقاط والاجهاض . هذا جزء الزواج الباكر ، الجزء الوفاق . ولا بد منه .

« اذ يجب على كل شخص في الهند ذكراً كان أم اثنى أن يتزوج سواء كان صالحاً لذلك أم لم يكن . لهذا ترى الصبيان والبنات يصبحون آباء وامهات ابكر ما يكون » . على أنه من المعلوم أن الزواج الباكر هو غاية ما بعدها غاية في الضرر ، ومفسدة لضلعة الجنس وصحة الجرثومة وقاض على سلامة المزاج . وهذا الزواج الباكر هو أشيع ما يكون في العناصر الدنيا من أهل البلاد الاصلين « كالبارياه » والمنبوذين . وقد بات من الواقع أن حيوية أهل الهند على الجلة أخذت تنحط وتتدلى . وتفيد أرقام الاحصاء أن عدد المسنين والشيوخ في تناقص وهبوط . وتؤيد ظواهر الحال هذه الحقيقة ، اذ غدا من يعمرن ويهرمون أقل من القليل في بلاد يبلغ عدد ساكنها مئات الملايين ، قال وطال : « ان الجيل المقبل تعتوره آفات شديدة وهو في طلائع الحياة ، فالاعمار تقصر ، وحبال الحياة تتصرم ، وشيوخنا اليوم أقل منهم بكثير منذ ثلاثين أو أربعين سنة . فهل تأملنا في جسامه الخطر الحائق بحياة الامة جعاء ، وتبصرنا في اعداد الوسائل التي نستطيع بها درء ذلك ، ان الوطنيين الشيوخ الذي هم وحدهم يستطيعون بطول خبرتهم وواسع حكمتهم وسديد رأيهم ، تولى مناصب الأمر والنهي ، والقيام بالشؤون العامة الكبرى في البلاد ، بات الموت يختطفهم الواحد تلو الآخر . فعدت مصالح التدبير والقيادة والزعامة والارشاد في بلادنا ، المصالح التي لا يقوم بها في بلاد الغرب غالباً الا اخوانه النهي الراجحة واصحاب الحنكة العظيمة ، يتولاها عندنا فتية لم تصقلهم التجربة والخبرة ولا كسبتهم الايام حنكة صادقة ولا بصيرة نافذة » .

وبعد أن أئذر المستر وطال ابناء بلاده بأن ترقية الطرق الزراعية ، ونمو الصناعة والهجرة من مقاطعة الى أخرى ، كل ذلك ليس من شأنه انقاذ البلاد من شر هذه الزيادة

في عدد القطنين ، الزيادة التي بات بسببها غالب أهل البلاد لا ينالون من الرزق أكثر مما يسد خلتهم وينتشلهم من أياب المسغبة ، أشار الى ظهور بعض التبشير الحسنة الدالة ، مع شدة رسوخ الدين والعادات ، على أن أهل البلاد شرعوا يدركون خطر الحالة ، وعلى أن هناك أمارات في بعض البلاد تنبئ بأن مستوى المواليد أخذ يكون عند حد . ومثال لذلك فقد اقتطف المستر وطال من البيان الرسمي لاحصاء سنة ١٩٠١ هذه العبارة المشيرة الى شيء من الهبوط في مستوى المواليد في بنغال : « ليس تأخير الزواج هو كل السبب في تناقص المواليد ، بل من جملة الأسباب الرغبة في تقليل النسل رغبة ناشئة عن تبصرو روية . . . ومما هو جدير بالملاحظة ان بعض الطوائف في « أسام » قد شاعت فيهم عادة استعمال الوسائل لاسقاط الحمل . وجاء في تقرير اللجنة الصحية في « أسام » سنة ١٩١٣ : « يظهر أن السبب الخطير في هبوط مستوى المواليد ناشئ عن اختيار ورغبة في تقليل النسل . على أن هذه التبشير واللوائح الدالة على صيرورة مستوى المواليد متراوحاً في حدود محتملة انما هي موضعية ، فليست بالوسيلة الكافية لانقاذ الهند من خطر جاوز الحد . فالحالة تدعو الى مزيد التبصر بالعاقبة وتقتضى السرعة في اتخاذ الذرائع الناجعة . قال المستر وطال : « ان النتيجة لواقعة دون مرد » ، فلا نستطيع بعد التغاضي عن هذه الآفات الاجتماعية التي تقرض جسم الأمة . فلنعلم أن الآلة المحركة قد حلت محل عجلة الثيران في بلادنا بحيث بتنا بسبب هذا التغير نتنازع البقاء مع الشعوب الأوروبية وهي أشد منا حولاً وأرقى سويماً ، فلا نستطيع بعد أن نقول لهذه الشعوب مقال ديوجينوس للاسكندر « حذ من شمسي » . ومن الراجح أن سيعود أهل العلم بعد أن تضع هذه الحرب العالمية أوزارها فيبحثون في مسألة زيادة السكان ، وربما ذهبوا في آرائهم الى الرغبة في تحبيذ الزواج الباكر وتكثير النسل تعويضاً عما اجتاحتته الحرب من الأنفس ، ولكن ذلك أولاً ليس من طبيعته تسوية قضية الساكن في بلادنا ، وثانياً سيكون رد الفعل الذي يدعو اليه أهلم العلم قريب الأجل .»

والكتاب حافل بمثل هذه الحقائق الجليلة . وعدا ذلك فلا نغفل عن أن الهند وان كانت أكثر البلدان عناءً من زيادة عدد الساكن فالحالة في سائر الأقطار الشرقية مثلها في الهند ، إذ أن التبصر في تحديد مستوى للمواليد مفقود من الشرق كله . وهناك الى جانب

هذا الازدياد فى عدد الأهلىن ، تلك الشرور الاجتماعىة والاقتصادىة التى تقدم الكلام عليها . لهذا نرى فقراً شديداً ، وضعفاً بيناً مرافقين هذا الدور دور التطور والانقلاب فى جمىع أقطار المشرق .

على أن المشاركة جمىعاً ، سواء كانوا من سكان المدن أم من أهل الرساتىق والقرى يكادون لاىجاوزون فى ابتغاء الرزق حد الكفاف . قال الاقتصادى الانكلىزى براىلسفور يصف حالة الفلاح المصرى : « ان مناظر الفاقة التى رأيتها فى القرى لم أشاهد مثلاً قط فى جبال مكدونىة ولا فى بقاع دونىغال . . . فهذه القرى فى مصر انما هى ركام من الاكواخ المبنىة من الطىن ، لاىتخللها أشجار ولا أزهار ولا غىاض ولا جنان ، والأكواخ من الداىل لىست مستوىة الأرض ولىس لها نوافذ فهى أشبه بالسراىب الصغىرة مؤلفة فى الغالب من غرفتىن صغىرتىن غير مشىدنىن بالحص ولا مفروشتىن بالبسط والطنافس . أما الأكواخ التى دخلت إليها فلم يكن فىها من الأثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ وحصىر يقوم مقام الفراش وجرة مملوءة من طعام الذرة » . وقال موظف برىطانى من موظفى مصلحة الصحة فى الهند يصف حالة الفلاح الهندى . « لا بد للرأى أن يرى كل عائلة تسكن مخدعاً صغىراً جدرانها وأرضها من الطىن ، مشتملاً على ساحة صغىرة أمامها ، فىها الأقدار كوماً هنا وهناك ، وزرىبة الماشىة ، وبئر تملأها الأمطار والمىاه الجارىة إليها من على وجه الساحة الوضرة . وهذه الأكواخ لصىق بعضها ببعض بىحىث تتألف منها قرى ومدن كبرىة على هذه الصفة » .

والحالة فى المدن شر منها فى الأقالىم ، لأن مزدحات الساكن فى مدن المشرق تفوق تلك التى فى مدن الغرب . وقد وصف الكاتب الفرنسى لوىس برتران هذه المزدحات فى بعض مدن المشرق مثل القاهرة والقسطنطنىية وبيت المقدس وصفاً وافياً يضىق المقام عن إىرادها كله فنجتزى بذكر بعضه . قال الكاتب فى شأن مزدحم الساكن فى القاهرة : « لعل الخصاصه والفاقة فى بىوت الطبقة الفقىرة فى القاهرة وسائر بلاد مصر أشد منها فى سائر الأقطار الشرقىة ، فمثل هذه البىوت مؤلف فى الغالب من غرفتىن أو ثلاث لانوافذها للدخول نور الشمس والهواء النقى ، متصلة باىوان لاىقل ظلمة عنها ، وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن ألواح الجدران الخشبية النخرة على أرض المسكن الوسخة . والهوام

والحشرات مستقرة على الحصر والفرش . » .

وهكذا الحالة في الهند . قال فيشر : « كانت قد نشأت قضية ازدحام السكان وقد اشتد التشاح على السكنى في مدن الهند قبلما أخذت الصناعة في النشوء والنمو المطرد . فلما انتشرت المعامل الصناعية باتت ألوف من العمال والعاملات ، يشتغلون ليل نهار ، بحيث لا يستطيعون بعد الفراغ من عملهم الابتعاد كثيراً من المعمل للمبيت بسبب نهاكة قواهم وشدة اعيائهم ، فلذلك تراهم يعيشون في البيوت والمساكن القريبة المطبقة بعضها فوق بعض وهم يزدحجون فيها ازدحاماً شديداً ، وإذ لامتسع لسكنى الجميع فمن منهم لا يتيسر لهم المبيت في هذه البيوت القريبة ، ينتشرون في الأسواق ويتخذونها بيوتاً ومساكن . وقد بلغ ثمن الفدان الواحد من الأرض حيث الأماكن الغاصة في كلكتا منذ عشرين سنة (أى منذ سنة ١٩٠٠) ٢٠٠٠٠٠ ريال » وقال كاتب غربى يصف كلكتا بأنها منقطعة النظير في سوء الحال في الشرق « العمال على اختلافهم يعيشون في المزدجات الفاسدة الهواء عيشة أشبه بعيشة الخنازير . فالبيوت انما هي منتشرة الأبخرة الضارة ، والبلايع والأقنية ملاءى بسوائل الأوضار والفضلات . والطرق متدمنة بما ارتص فوقها من الأقدار . والابقار تشرب من الآبار المستقرة فيها تلك الأوساخ وليست الأفران والتنانير بأقل سوءاً من سائر مرافق المساكن » . والحالة في سائر المدن والمراكز الصناعية في الهند على غرار واحد . فقد ذكر موظف وطنى من موظفى مصلحة الصحة في تقرير له بشأن مزدجات الساكن في بومبى سنة ١٩٠٤ ما يأتى : « في هذه البيوت والمساكن التى هى منشأ الجراثيم المختلفة ، ومرتكب الجرائم ، ومستقر الأمراض والأوبئة والفاقة والرذيلة ، يعيش أناس فيهم المراض والفاجر ومدمن الخرة والجاهل والغبي ، قطعاناً أشبه بقطعان الحيوانات فى زرائبها ، يزحم بعضهم بعضاً » .

زد على ذلك ان الحالة فى المدن تزداد سوءاً لاتحسناً كما هو ظاهر . يتضح من جميع هذا أن قضية ازدحام الساكن تعظم شأنها أكثر من أية قضية سواها فى الشرق . ففى مفتتح هذا القرن كان الازدحام فى المدن التى هى اليوم مراكز صناعية فى الهند مثل كلكتا وبومبى ولكنا ، على نسبة تفوق نسبة ازدحام لندن ثلاثة أضعاف . ثم جاءت الحرب الكونية العامة فأقامت وأقعدت . وزادت ضائقة السكنى شدةً . وقد كان من شأن هذه

الحرب العامة في الشرق كما في الغرب أن سببت استحكام حلقات الضيق حتى تلاشت به أسباب الكسب وضاعت أبواب الرزق ، فتغيرت الحال . فباتت الألوف المؤلفة من الخلق تؤم المدن والحواضر ابتغاء وسائل المعيشة فاكتظت هذه بمن لجأ إليها ، ووقفت أعمال تشييد المنازل والبيوت والمساكن بسبب غلاء الأجور والأثمان والنفقة غلاء فاحشاً غير مسبوق المثل ، فنجم عن جميع ذلك ارتفاع أجور السكنى الى حد غير محتمل مماوافق هوى أصحاب العقار ، فانطلقوا يستنزفون أموال الناس بهذه الوسيلة وأمثالها . قال فيشر : « قد ارتفعت أجور المساكن ٣٠٠ بالمئة ، ولم تر الحكومة من ذريعة للقضاء على ذلك فاضطرت الى مماشاته بما سنته من القوانين ووضعت من الأنظمة : فاجتمعت ألوف الناس في بومبيء محتجون على هذه الحال ، الأمر الذي جعل الحكومة على اتخاذ التدابير المانعة لزيادة استفحال الأجور ، فعينت الحد الأعلى لها فيما يتعلق بمساكن العمال وأهل الحرف والمهن . ولكن هذا العمل إن هو الا من قبيل تخفيف الوطأة وليس من شأنه أن يزيد عدد المساكن والمنازل » .

ولا يندن عن البال ان غلاء أجور السكنى هذا الغلاء الفاحش انما هو جزء من جملة الضيق الذي عمت بلواه الحياة بأسرها وهو ما انفك يتصاعد في الأقطار الشرقية منذ عشرات من السنين ثم شرع يستفحل منذ سنة ١٩١٤ . كتب برتران في وصف الحال في الشرق الأدنى منذ بضع عشرة سنة فقال : « أينما كنت أسير في الشرق الأدنى ، في القسطنطينية أو أزمير أو دمشق أو بيروت كنت أسمع التذمر من شدة غلاء المعيشة من جميع الجهور وطنيين وأجانب » . أما الحالة اليوم فأدهى وأمر . قال السر فالنتين تشيرول في وصفه الحالة في مصر منذ الحرب : « ان ارتفاع أجور العمال هذا الارتفاع الهائل لم يكن على مقدار متناسب مع غلاء الأسعار ، بحيث ان العامل غدا لا يستطيع ممشاة السوق وأصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات المعيشة ، وهذه الحال هي أشد ما يكون في المدن والمراكز الصناعية ، حيث أهل الطبقات الدنيا من عملة وساقه وحوذيين وباعة وغيرهم لاطاقة لهم البتة على احتمالها » . فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخنق ، المستحكمة عرى الضيق ، مظاهر فساد الأخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الاجرام والجنايات . وقامت دلائل عديدة على نشوء القلق الاجتماعي والاضطرابات الثورية والهياج الفكري ، مما نبسط الكلام عليه في الفصل الآتي .

الفصل التاسع

القلق الاجتماعي والبلشفية

ان القلق والاضطراب ، هما المصاحبان الطبيعيان للتطورات والانقلابات لاسيما الفجائية منها . فكل انتقال من حالة قديمة الى أخرى جديدة ، وان كان ذلك من القسم المعتاد ومما لا بد منه ولا مندوحة عنه ، من شأنه أن يتكيف بالضرورة على مقتضى تلك الحالة الجديدة التي من خصائصها الشعور بالاختلال والاضطراب الى أجل ما ، الى أن يجرى التكيف الى مستقر له وتستحكم صبغته ويثبت لونه . فلذلك ليس في القلق المرافق للتطور شيء من الغرابة ، ولا ذلك التطور بجملته خارج عن السنة الطبيعية ، بل القلق مستقر في طبائع كل مجتمع من المجتمعات البشرية التي لم تنته الى الدرك الأسفل من الانحطاط والتدلى بعد . ثم ان هذا القلق اذا كان على مقدار قليل اعتبر دليلاً على الارتقاء الاجتماعي الصحيح وبرهاناً على النمو العمراني السليم ، ولا يصح أخذه أمانة من أمارات الاعتلال ولا علة من علل السقم . واعتبر فوق جميع هذا انه اذا كان هذا القلق ضيق الدائرة بحيث لم يجاوز الحد الأدنى ، فلا يعرف في الغالب هذه المعرفة التي ذكرناها ، ولا يفهم على هذه الصفة ، بل يعتبر عارضاً من جملة العوارض المسببة عن النشوء الطبيعي والارتقاء المعتاد . وفي مثل هذه الحالات يعمل الجهاز الحى في الجسم الاجتماعي عمله ويقوم بوظيفته ، على حد ما يعمل الجهاز الحى في جسم الفرد الانساني ، وهي أبدأ دون انقطاع في دثور وتجدد واضمحلال وظهور ، ايلاًفاً لتطورات الحياة ، وملائمة لبيئتها على ما يقتضيه عامل التكيف . ولهذه التحولات على الجملة شأن خطير . وهي من التدرج والسير شيئاً فشيئاً بحيث انها تحدث وتم على صورة يكاد لا يشعر بها ، ووجه لا يدركه الا المستبطن الحكيم والعارف اللبيب . فالعضوية الحية السليمة ، الصحيحة العنصر من حيث هي ، الملائمة لمقتضى البيئة ، انما هي على

الدوام قابلة للتكيف والتبدل ، ومستعدة استعداداً طبيعياً لاتخاذ شكل جديد واكتساب صورة غير صورتها المعهودة ، وهى بسائق السنة والهداية تسير فى سبيلها متماسة بمشاعرها التطورات التى تقضى بها عليها البيئة ، وتستوى معها باللائمة وتجانسها بالايلاف ، حتى تكون سالمةً من شائبة الاختلال ، ناجية من الفوضى وعواقبها الضارة وتناججها المفسدة .

ولكن ليست كذلك صفة القلق الناشئ عن التبدل العنيف والتغير المفاجئ . فان التبدل والتغير اللذين من هذا النوع يدلان على تطور سريع ، يحدث ويجرى مجراه ساحياً جارفاً ماهو أمامه ، وانقلابٍ بديه من القديم الفانى الى الجديد الواقع ، فيعتل التكيف ويختل التلاؤم ، اللذان تقتضيهما عوامل البيئة الجديدة، لقصر ما بين الاضمحلال والفناء ، والظهور والكيان . ذلك بعبارة أخرى ، ان القلق العنيف ، الشديدة الحركة ، دليل لامشاحة فى صحته على الاعتلال الاجتماعى ، المنذر بامكان وقوع البحران ، والذى يظهر فى المجتمع على حين غفلة ، ذلك البحران المعروف « بالثورة » .

ان تاريخ الشرق الاسلامى ليصح أن يتمثل فيه معنى المفاجأة الذى تقدم فقد كان عصر تكون الحضارة العربية ونشوءها متصفاً بسرعة التطور والانقلاب الفكرى العظيم وتلك فرقة المعتزلة قد اشتملت تعاليمها (١) على ضروب عديدة من منازع الأفكار والآراء حتى ذهب الغلاة من هذه الفرقة فى تعاليمهم الدينية والسياسية والاجتماعية مذهباً تجلت فيه خصائص الانتقال الفجائى ، والاستحالة الثورية العنيفة . غير أن ذلك العصر ، عصر الانقلاب والتغير ، والتطور الى حد بعيد ، قد كان قصير الأمد . قلما تستطع الحيوية العربية والروح الاسلامية بما فيهما من العوامل ، أن تخمرا ما كان فى الشرق القديم عهدئذ من القوى النامية المكتنفة بطبائع وأمزجة مختلفة تخميراً باقى الأثر طويلاً . لهذا لم تلبث السنن التقليدية أن عادت فانتشرت وتمكنت ، وعليها غشاء من أثر التطور العرضى ، والعناصر الاصلية لتلك السنن ظلت على صفتها دون أن يتناولها مؤثر يغير من جوهرها . ثم أخذت الحضارة العربية ، وقد عراها جود وكهامة ، وفشا فيها الانحلال ، تنقلص وتنقبض ، فتلاشت بواعث التطور وسكنت عوامل التغير وضعفت روح التجدد

واضحلت العلامات الدالة على سير الانقلاب، ولم يبق بعد طموس معالم تلك الحضارة الا تقاليد الغلاة، تلك السنن التي احتفظ بها في بعض المواضع العربية، وكانت تتحدر تحدرًا خفيا في بعض الاقوام كفروق الخوارج^(١) الناهضة من قلب شبه الجزيرة، ودرأويش البكطاشية^(٢) غير أن هذا جميعه لم يزد على كونه من العوارض المستترة، دون أن يكون لها أهمية كلية.

فلما تبدلت تباشير اليقظة الاسلامية في مفتح القرن التاسع عشر، طفقت الدلائل تكثر على تجدد الحركة الاجتماعية، وظهور ما في الهيئة الاسلامية من القوى بعد هجعتها الطويلة. فنشأت الوهابية ولم يكن غرضها الاصلاح الدينى فحسب، بل الاجتماعى أيضا، فشرعت تنعى على المجتمع الاسلامى المعاصر انحطاطه وتدليه، وتنزع منزعا شديداً الى القيام بالاصلاحين معا. وفي كثير من حالاتها اتخذت الوهابية الفتنة أو الثورة الاهلية شكلا لخروجها على الحكومات الحاضرة. ومثل هذا كان غرض الحركة البابية^(٣) في ايران. الحركة المشابهة للوهابية في الغاية، وبين منشأ الحركتين عهد قريب.

ومن المعلوم أن هذا القلق المتجدد في العالم الاسلامى كان الباعث له والسبب فيه هو تدفق المؤثرات الغربية من آراء وأفكار وأساليب في كل أفق من آفاق الحياة، وهذه المؤثرات لم تفتأ طيلة القرن التاسع عشر تنتشر في الشرق وتنبث في جميع أقطاره بدون انقطاع. ومن أراد البرهان فليعلم أن ليس هناك من باعث على الاضطراب أشد وأقوى، وهائج للقلق أمضى وأفعل، مما هو حاصل اليوم من التطور والانقلاب في الشرق - التطور والانقلاب اللذين هما من السرعة والأهمية، واقتضاء التكيف، بحيث أن ماهيتهما تدل دلالة صريحة على انهما أطبق على صفة الانقلاب الثورى المفاجئ، مما هما على شكل الشوء والترقى. وقد بسطنا الكلام وافيا على مجارى هذه التطورات العميقة من جميع وجوهها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى ما يصاحبها بطبيعة الحال من الهياج والحركة في الخواطر، ومن الأزمة والبحران في كل طبقة من طبقات المجتمع الاسلامى، في هذا الدور العصيب.

(١) اقرأ التعليق الوارد على الخوارج في آخر هذا الكتاب. (المرب)

(٢) اقرأ التعليق الوارد على البكطاشية في آخر هذا الكتاب. (المرب)

(٣) اقرأ التعليق الوارد على البابية في آخر هذا الكتاب. (المرب)

وقد وصف اقتصادى بريطانى كيفية الانقلاب الثورى الحادث فى الهند وصفاً شافياً وأوضح سعة الشقة بين سوى المدن والحواضر، والسوى القروى فقال : « ان أقاليم الهند لم تبرح على حال من بساطة العمران والتأخر المدنى كالتى عرفت فى القرون الوسطى فالمدن والحواضر قد انتشرت فيها أساليب هذا العصر وفنونه حتى باتت أشبه بمدن الغرب وحواضره ». وفى هذه المدن والحواضر الهندية تجدد الحياة على الطراز الغربى « مستوفية كل نسق جديد ، مع جميع المرافق المستحدثة ، وذلك ظاهر فى حياة أرباب المصارف والمعامل حتى باعة الحلوى والماعون . فعظم الاختلاف وطالت شقة التباين بين الحياتين ، حياة المدينة وحياة الاقليم . ومن المؤكد الذى لامرأ فيه ان هذا البون لم يكن له مثيل قط فى جميع التاريخ الاقتصادى المعروف الى اليوم ، اذ لاتجد بلاداً سوى الهند قد جمعت بين هاتين الحالتين المختلفتين ، حالة المدن والحواضر ، وحالة القرى والاقاليم ، فى أى عصر من عصور التاريخ الاقتصادى فى العالم » . تصور لك دوراً مثل هذا فى أوروبا فيما لو قدر اجتماع أوربى حديث مع آخر قديم من القرون الوسطى ، وكلاهما نقيض الآخر رأياً وفكراً فما أوسع المغايرة بينهما وما أعظم الاختلاف . لكن هذا لا يقع فى أوروبا اذ كان تقدمها الاقتصادى ناشئاً بالتدريج يرتقى ارتقاء طبيعياً . وقد دامت هذه الحال قروناً . وليس كذلك التدرج الاقتصادى فى الهند ، فانه ثورى فجائى .

ومن يستقص طبائع هذا الانقلاب فى الهند اليوم يعلم حق العلم مبلغه من المواثبة والسرعة ويدرك أنه حركة ثورية .

« ان أقاليم الهند وان كانت لم تنزل على حال السداجة ، فقد انتشر فيها كثير من الآراء والأفكار والمبادئ الناقضة لتلك الصبغة الباقية منذ القديم . فلما نشأت الصناعة فى البلاد صارت أجور المنافسة تبارى الاجور المحدودة فى البلاد منذ أزمان طويلة ، وأضحت الاثمان تارة يحددها العرف والعادة ، وتارة تحددتها العوامل والأسباب الاقتصادية الحرة . وأخذ العمال الذين لم يكن من شأنهم ولا شأن آبائهم وأجدادهم من قبل ، الانتقال والهجرة ابتغاء أسباب المعيشة ، ينزحون من اقليم الى اقليم سعياً وراء الأجور الحسنة . ثم انتشرت أسباب وعوامل اقتصادية فجأة فى موضع موضع ، وشرعت تعمل عملها فى مجتمع لم تبرحه صبغة السداجة منذ قرون . هذه هى الحالة فى الاقاليم . اما الحالة فى المدن والحواضر فكاد

لا تختلف عنها من حيث انتشار العوامل الاقتصادية ، ولكن هناك اختلافاً في بعض الوجوه . . . ان هذا الانتشار في المدن والحوضر لم يكن من شأنه الامتزاج بتلك الهيئة القديمة امتزاجاً تاماً . فبات النظامان القديم والجديد يتناحran أشدّ التناحر .

« فالهند ، وهذه حالها اليوم ، تجتاز ثورة اقتصادية هائلة ، وهذه الثورة متناولة كل طبقة من طبقات المجتمع المتعدد الأوصاف . واعلم فوق هذا ان الدور الوحيد الماضي ، الذي تشبه فيه أوروبا الهنـد الجديدة بعض الشبه انما هو دور ثورتنا الصناعية التي لم يهدأ نائرها في الغرب حتى اليوم ، ولا استقرت حالها استقراراً مكيناً . ولما لم يكن حدوث الحركة الفكرية العقلية التي ظهرت في الثورة الفرنسية معاصراً لحدوث الثورة الصناعية ، فقد حصل لأوروبا من ذلك لطف عظيم ، اذ لو حدثت الثورتان معاً لكان من المحتمل ان المجتمع الاوروبي قد انهار ودُكت أركانه دكاً حتى الآساس . ولكن بعد أن أضحت الثورة الفرنسية خاتمة القوى مسالوبة المنة ، بسبب كثرة الحروب النابليونية ، نشبت الثورة الصناعية فألهبت المجتمع نار سخط مستطيرة . انه لمن العلوم الذي لاريب فيه ، أنه متى قضى التطور الاقتصادي على شعب كامل ، بأن يبدل على اختلاف طبقاته معيشته تبديلاً رامياً الى التحسين والترقية ، كان لا بد لجانب من هذا الشعب من أن يعاني الالم والضنك فيشتعل غضبه اشتعالاً . ثم تظهر على أثر ذلك الحركات السياسية العنيفة ، وتنتشر عوامل الخراب والبوار في المجتمع . فما نشأ عن الثورة الصناعية ليس ثورة سنة ٤٨ ، فحسب ، بل نشأ الحزب الاشتراكي أيضاً .

« على ان تلك الثورة في أوروبا ، ما كانت جارقةً مثل الثورة القائمة اليوم في الهند . فان استكشاف البخار واختراع الآلات المحركة في أوروبا ، كان يتدرج الى الكمال شيئاً فشيئاً طيلة قرون . وخلال هذه المدة كانت التجارة والصناعة على امتداد وانتشار دون انقطاع ، وكانت رؤوس المال تنمو وتتراكم ، وكانت القواعد والأصول الاقتصادية تزداد ثباتاً ورسوخاً . . . أما الثورة الاقتصادية في الهند فهي أعظم شأناً ، وكان مشارها أوسع مضطرباً من ثورتنا الصناعية . فالمسالك الحديدية قد أنشئت في طول البلاد وعرضها حتى وصلت بين الأقاليم التي كانت الأسفار فيها من قبل غير مستطاعة والطرق غير معروفة . وشيدت المعامل وملئت بعمال لم يسبق لهم مران على القيام بالأعمال

الصناعية . وطفقت رؤوس المال تتدقق على الهند ، البلاد التي لم تكن على استعداد لأن تستحث هذا الاستحثاث الهائل في سبيل التقدم والترقي . فإذا كانت نتائج جميع هذا ترى ؟ تفككت أوصال النظام الاجتماعي في الهند تفككاً تاماً وتقوض بنيانه تقوضاً . وانقضى الزمن الذي كان فيه البراهمة كهنة وسادة ، وفلاحو الهندويين عبيد الأرض وارقاءها ، والمرابون الهندويون أرباب رؤوس المال المحتجنة بين أيديهم . وبات الآلات المستحدثة تهدد الحاكة اليدويين بالقضاء على صناعتهم ، وصار النحاسون لا يستطيعون جني المكاسب من وراء مهنتهم ، فاعظم هذا الانحلال الذي سببه التطور الفجائي ، وما أكثر الذين حال التطور بينهم وبين الانكماش والجد في حرفهم الموروثة ، ثم قارن ذلك بما حصل من نوعه في أوربة ، والثورة الصناعية في أوربة كانت أضيق نطاقاً ، تعلم للحال حق العلم ماهية العوامل الكبرى والبواعث العظمى في هذا الاضطراب السياسي . وليس هذا يدعى العجب بل داعى العجب كون الاضطراب لم يكن أشد وأقوى . انه لو لم تكن الهند لعمري بلداً شرقية آسيوية لكانت ثورتها هذه قد اشتعلت نارها من قبل هذا العهد بزمن طويل .

ان هذه السطور قد دججها كاتبها الاقتصادي في مفتح القرن العشرين قبلما اربد جو العالم بسحب الكارثة العظمى ، وزلزلت الارض زلزالها بهذه الحرب الجارفة ، ونشبت الثورات الاجتماعية الآكلة في روسية الآسيوية . على أن بعض علماء الشرق الأعلام كانوا قبل الحرب يندرون العالم بنشوب ثورات اجتماعية لا تبقى ولا تذر في اقطار الشرق . قال الزعيم الهندوى الوطنى الكبير بين شندراپال : « ان هذا الاضطراب ليس في الحقيقة سياسياً ، ولكنه بحقيقة جوهره نهضة فكرية عقلية روحانية ، تعدُّ بشير ثورة اجتماعية عظيمة ، يتلوها نظام جديد وفلسفة جديدة في الحياة » . وقال الكاتب الفرنسى شلى في شأن الهند أيضاً : « ستحدث سلسلة من الثورات الاقتصادية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وسيصحبها بالضرورة شدة هائلة وألم عظيم يعانيهما الشعب » .

وكأنما الضيق المزداد في احوال المعيشة قبل الحرب ، مع الاقبال الكثير على اتتحال الأساليب الغربية في الرغادة والنزوع الى ضروب المرافق الجديدة على حسب ما يقتضيه المستوى الجديد ، كل ذلك كان باعثاً على اشتداد المزاجية بين طبقات كل شعب من

الشعوب الشرقية . فقد كتب خير صخي بريطاني سنة ١٩١١ يقول : « الفاقة والشقاء هما علة العلل في الاضطراب السياسي في الهند » . و بعد أن وصف الكاتب ما تعانيه عامة الهند من البؤس الشديد قال ورب قائل يتندر القول ان هذه الحالة ليست بحديثة في الهند بل هذه صفتها منذ الازمان الطويلة ، فلذا ليس من شأنها ان تكون اليوم أبعث على القلق والاضطراب منها فيما مضى . غير ان الحقيقة على ما أرى هي بخلاف ذلك . اذ ان القلق والاضطراب كانا نائرين على الدوام ثوراناً مستتراً يستبينه كل من تدبر سير الانقلاب قليلاً . زد على ذلك ان عامة الطبقات الدينية كانت فيما مضى ، من رقة الحال وشدة الفاقة ، بحيث كادت تكون النسبة بينها وبين غيرها من الطبقات السعيدة ، مفقودةً . اما اليوم فتستطيع هذه الطبقات ان تفخر بشأنها وتقارن بين حال مزدحات ساكنها ومحلاتها الوطنية التي تقيم فيها و بين محلات سكنى البريطانيين وأكثر منازلهم ترتيباً ، بل و بين منازل الموسرين والوجهاء من سائر ابناء البلاد . فتلك الفاقة كانت أبدأ سبب الاسباب في نشوء القلق العام . . . وما الاجتماعات التي يظهر فيها الهرج والمرج والثرثرة السياسية وتصدع منها نفثات الصدور ، الا مظاهر ابتدائية يتلوها اضطراب عميق الغور بعيد المرمى وقلق راسي الجنود رجب الافق .»

لا ريب ان من الاسباب الكبيرة في حصول هذا النزاح والتكالب الاجتماعيين الآخذين في الازدياد والتعاظم ، هو ما ينقص المشاركة على العموم من حب التعاون الاجتماعي ، وقلة اكتراتهم بمقاسمة بعضهم بعضاً الضراء ، وبعدهم من التساهم في تحمل البلاء ، واعراض كل جانب منهم عن مديد النصرة الى الجانب الآخر ، وشأنهم هذا معروف لا سيما حيث لا تجتمع أواصر القرى وصلات الارحام بين فريق وفريق ، ولا تربط بينهما مرتبة أو طائفة أو عرف أو عادة . فالتعاون الاجتماعي بمعناه الغربي يكاد يكون مفقوداً في جميع البلدان الشرقية . على ان بعض العلماء الشرقيين ما كانوا ليغيب عنهم العلم بهذا النقص الذي في مجتمعهم ، فقد قال كاتب هندي في كلام له على حياة الهندي في المدن والحواضر : « ان التعاون الاجتماعي ليس معروفاً عندنا على مقدار يصح القياس عليه . . . ان الاصلاح الاجتماعي في الهند لم يبرح حتى اليوم مقصوراً على نطاق حياة الفرد أو الأسرة ، أما الاصلاح الذي يجب أن يتناول سواد الجمهور بصفة كونه مجتمعاً انسانياً ، وان يتناول أهل المدن

على الخصوص وهم أقل أهل البلاد مروءة صحيحة ، فلم يبشر بأبجياله بعد » (من كلام ليوسف علي في كتابه « الحياة والعمل في الهند » لندن سنة ١٩٠٧) وقال عالم أميركي من علماء العمران الاجتماعي يشير الى تزايد الشرور الناشئة عن حال مزدجات المساكن في جميع الاقطار الشرقية التي انتشرت فيها الثورة الصناعية : « ان الخطر الاكبر ناشئ بلاريب عن عدم شعور الشرقيين شعوراً مثل شعور الغربيين بما لحياة الفرد مجتمعاً مع غيره من الشأن وما عليه من الواجب . فجتمع الشرقيين على الجحالة فاقد لتلك الصفات التي يشتمل عليها جمهورنا الراقى الذي ايقظه وهذبه استمرار التنازع الصناعي في الغرب طيلة قرن . وما دام الشرقيون يجهلون هذا النقص ولا يتلافونه بالدواء الناجع فان الشرور لمستفحلة استفحالا ما عرف مثله في الغرب .

ان جميع هذا القلق الاجتماعي المنتشر في الشرق مستقر في موضعين حديثي الظهور : الأول الطبقة الراقية المهذبة على الاساليب الغربية ، والآخر الطبقات الدنيا التي منها عمال المعامل الصناعية في المدن . وقد أسلفنا الكلام على المنازع الثورية التي عرفت بها الطبقات الراقية ولا سيما منها الجانب الناقص العلم ، وهو الجانب ذو الشأن الكبير في ايقاد نار الثورات والاضطرابات في الشرق الجديد من شمال افريقية حتى الصين . أما طبقات عمال الصناعة فقد يرى فريق من الكتاب ان ليس هناك كبير أمل في صيرورتها عاملاً ثوريا مهماً لما هي عليه من الاستمساك بسنن التقاليد والجهل والبلادة ، ولأنه ليس هناك صلات حقيقية تصل بينها وبين أهل الطبقات الراقية ، المنبعث منهم القلق الاجتماعي على قدر جسيم . ومن يذهبون هذا المذهب في الرأي ، « البرت ماتان » الاقتصادي الفرنسي ، فانه قد أبان هذا ابانةً حسنةً في شأن الهند فقال : « انما قوام النهضة الوطنية هو الطبقات الوسطى ، وهذه الطبقات لا تقوم بشئ يذكر من المقاومة لاصحاب رؤوس المال وأهل المشروعات وأرباب الاملاك ، الذين جميعاً لا ينالهم ضرر من الوجهة الاقتصادية » وأما طبقات العمال الصناعيين : « فلا يأملون ترقية حالهم وتحسين شأنهم بل هم مثل عمال الزراعة ، لا تلمح فيهم أمارة من أمارات الثورة . فالى من يلجأون ترى ؟ أما المراتب الاجتماعية القائمة على سنن التقاليد فغلقة في وجوههم ولا مطمح لهم في الارتقاء اليها . فتراهم اذ لا أمل لهم بمنصب قومي ، يحتقرون من فوقهم من أرباب الحرف والمهن الذين

يعتزون بمراتبهم الطائفية ، ولكن قد قضت الصناعة الآلية على صناعتهم اليدوية . أما الهندوى فيرى ان من اكبر العار عليه ان ينزل الى مهنة العامل الصناعى ، وعمال المعامل لم يبلغوا بعد من عددهم حداً يستطيعون عنده التوافق فيما بينهم على صيانة مصالحهم واعزاز شأنهم ازاء المجتمع القديم . ولا عبرة لما يقومون به من الاعتصاب والاضراب فانهم لم يزلوا بعداء من ان ينهجوا منهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، بعدهم من الطوائف العليا التى يستحيل عليهم الارتقاء اليها . وهم بعد كل هذا لا يستطيعون القبض على أزمة مجموعهم و ربط بعض حلقاتهم ببعض بحيث يتألف منهم قوة أدبية معنوية لها شأن ومكانة ، لأن النهضة الوطنية ليست قائمة على الطبقات الوضيعة ، وهى ابدأ تستفيد قوة من أرباب رؤوس المال .

« يُعلم من هذا أن الصناعة الهندية لم تزل وليدة فى المهد . فالارتقاء المادى الذى تظهر آثاره بتشديد المعامل والمصانع ، والارتقاء الاجتماعى الذى تميز به طبقات العمال ، لم يبرح فى أول دور من أدوار الظهور ، بحيث ان الارتقاء العقلى الذى من شأنه أن يبعث على وضع الخطط المنظمة لنيل المطالب الاجتماعية لم يظهر بعد . »

على أن كثيراً من أهل العلم فى الشؤون الصناعية الهندية لا يتفقون مع ألبرت ماتان فيما ذهب اليه . فقد قال زعيم العمال البريطانى ج . رمزى مكدونلد : « أما التصور الذى يتصوره بعضهم من أن العمال الهنود المنحطين سائرون اليوم فى سبيل الارتقاء الى مصاف الطبقات العليا فهو ضرب من الوهم ، غير انى لأصدق بته أن الحال هذه تدوم طويلاً ، والسبب فى ذلك : أن تقدم صناعة المعامل فى الهند قد نشأت بسببه طبقات من العمال الذين لأرض لهم يملكونها ولا موطن يستقرون فيه ، فاذا تدبرت شأنهم وجدتهم لامثيل لهم بهذا الاعتبار فى أى بلد اقتصادى قامت فيه رؤوس المال . وأما التصور بأن عمال المعامل الصناعية فى الهند سيظلون هكذا بعداء عن أن يكون لهم شأن مذكور ووزن مقام فى السياسة الهندية ، فليس الى احتمال ذلك من سبيل . فالعمال قد أخذوا يجنحون الى انتهاج مناهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، وانشاء جمعيات من هذا النوع ، فاعتادوا القيام بالاعتصاب والاضراب ، ومن مرامى بعض حركات الاصلاح الاجتماعى التى يقوم بها أهل الفكر من الهنود ، انشاء نقابات صناعية وتجارية متواثقة ، ونشر الآراء والأفكار الشبيهة

بآراء دعوة التضامن الصناعي عندنا . فلو قام أرباب رؤوس المال بسياسة مالية لمناهضة العمال ، لم يكن ذلك مستحشاً شديداً لجمعيات التضامن الصناعي فقط ، كما جرى مثل ذلك في اليابان من قبل ، بل لعجزت سياسة مثل هذه السياسة في الهند عن القضاء على نقابات العملة ، ولن تفلح كما أفلحت في اليابان على يد القوانين السنونة . فالعمال في الهند حالتهم آخذة بالتبدل والارتقاء ، ولن يمضى ربح من الزمن طويل حتى ينظموا شؤونهم تنظيماً صحيحاً ينهجون فيه مناهج العمال في البلاد الاقتصادية الراقية . ومتى ما يقظ العمال يقظتهم السياسية كان ذلك بدء السبيل الذى لن يكون لهم وليجة عن سلوكه ، فيدبرون أحوالهم تدبيراً حسناً ويشرعون في اعزاز شانهم اعزازاً كبيراً .

ونعود الآن الى الشرق الأدنى . فبدأ أكثر من عقد قال كاتب اشتراكي فرنسي مشيراً الى شدة الوطأة التي يعانيتها سواد المصريين في أحوال المعيشة ، ومنبها الى ظواهر القلق الاجتماعي ، ومنذراً باضطراب هائل ، ما يأتى : « قد نشأت طبقات من العمال بنشوء الصناعة واتساع نطاقها اتساعاً سريعاً سببه النجاح العاجل ، أما غلاء المعيشة فقد بلغ مبلغاً ما عرفت مصر مثله من قبل . بينما الأجور لم ترتفع الا قليلا ، فاشتدت الفاقة وعمت بلوى الحاجة . فاذا ظلت الحال سائرة هذا السير فسيأتى يوم تشور فيه سوا كن هذا الشعب من جراء هذه الشدة المستولية عليه ثوراناً أعمى ، حتى تغدو دلتا النيل الظاهرة عليها آثار الرخاء والنجاح في حال غير حال . من الممكن أن تدفق الأجانب على البلاد وتدفع أموالهم معهم يبعد قليلا تلك الساعة من الدنو ، وهى الساعة التي يدرك فيها العامل المصرى ، في كل مدينة وريف الحال التي سبق اليها ، وهو لعله اليوم لا يدرك فيها العامل المصرى ، في كل مدينة وريف استيقاظه وانتباهه سيكونان في عهد أقرب مما يخاله بعضهم . اذ ليس ذلك الجانب من المصريين أرباب النجاح والفلاح ، هم وحدهم ذوى العقول الزكية والمدارك العالية ، بل ان العمال المصريين أيضاً ، الآخذة أجورهم بالتناقص المتوالى ، لا يقاؤون ذكاء وفتنة عن سائر أبناء بلادهم ، ولذا قد بات من المتوقع الذى لا ريب فيه محيى الساعة لانبثاق الاشتراكية الاسلامية في بلاد المسلمين لأول مرة (١) . » وقال رحالة بلجيكي قبيل الحرب العامة يشير الى تبشير الصباح ليقظة طبقات العمال في الجزائر ، وسرعة انتشار الآراء

(١) اقرأ التعليق الوارد على المبادئ الاشتراكية في الاسلام ، فى آخر هذا الكتاب - العرب

والافكار الغربية : « ان الاسلام يرى متمزقا تمزق الثوب البالي على أرضفة نغر الجزائر : فعمال المرفأ ، ونقلة الفحم ، وساقه الآلات البخارية ، على اختلاف جنسيتهم ، عادوا لا يبالون بالاسلام ، بل ترى فيهم صبغة آداب العمال الأور و يبين راسخة ، وهم يشتركون مع زملائهم العمال الغربيين في السعي وراء الغرض ونيل الغاية ، اشتراكاً قائماً على أساس واحد هو وجوب مقاومة أرباب رؤوس المال ونزاعهم نزاعاً اقتصادياً مرأ . فلو كان في الجزائر معامل مثل تلك التي في أوروبا ، لاختفى الاسلام السني من تلك الديار المغربية اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا أمام تيار الصناعة وثورتها الكبرى^(١) . »

على أن هناك أمراً لامراء فيه ، على اختلاف ماهية المطامح التي ترمى اليها حركات العمال المنظمة ، الحديثة الظهور ، السريعة النشوء في الشرق ، هو ان القلق الذي قد انتشر في غالب أقطار الشرق في السنوات التي قبل الحرب العامة ، كان اجتماعياً لاسياسياً فقط . قات صحيفة بريطانية هندية من كبريات صحف الهند أواخر سنة ١٩١٣ متشائمة : « قد هبطنا مهبطاً سافلاً أفضى بنا الى الانهيار والخراب . فقد غدت بعض الأقاليم التي كانت من قبل أكثر أقاليم البلاد الهندية قطينا ، يهجرها الاغنياء اليوم لقلة الأمن على متاعهم وحطامهم . وقد اشتد مقت الناس للقانون اشتداداً هائلاً لأنه أصبح ذريعة يستعين بها أهل السجس للاعتداء على الابرياء . وبات القبائل الافغانية عند الحدود تقترب أهول الفطائع . وكثرت اجتماعات الجماهير ، وانتشر الهرج والمرج بداعي التدخل في شؤون ليس من شأن الشعب المخلد الى السكينة التدخل فيها . فليس هناك من قضية تدخل في

(١) من قبل الحرب العامة بكثير كان الاشتراكيون الفرنسيين لاسيما الغلاة منهم ينتصرون لأهل الجزائر وتونس وسكان المستعمرات ، وكان للزعيم الاشتراكي جوريس منزلة عالية في قلوب أهالي تلك الأقطار . ولكن اشتدت هذه الرابطة بعد الحرب العامة كثيراً عن ذي قبل لاسيما بين الشيوعيين الفرنسيين والعمالة والفلاحين من المغاربة لأن العملة والاكرة في الغرب الأوسط هم في مستوى واحد من الشقاء بسبب تسلط المستعمرين . وقد تأسست نقابات لهؤلاء العمالة تجمع الذين منهم فرنسيس الى الذين منهم مغاربة وكذلك ظهرت لهم جرائد في تونس والجزائر كثيراً ماتعتها الحكومة الفرنسية وتحذر كبار المغاربة من سوء مغبة الشيوعه ولكنها تتغافل عن ان اليأس الذي يدفع فقراء الجزائر وتونس الى الانضمام الى الفرقة الشيوعية إنما هو أثر ظلم الادارة الفرنسية ونتيجة تحكم المستعمرين في الأهالي وانه لا يمكن الجمع بين هذه الادارة الغاشمة الاستعمارية وبين منع المبادئ الثورية . (ش)

نطاق السياسة الأجنبية فضلاً عن الوطنية الا ويهب الناس أفواجاً للحال ، يريدون أن يكون لهم فيها يد مشتركة ، على حين ذلك بجملته لايعنيهم . وصار أحقر شأن يؤخذ سبباً للاشتكاء والسخط . وغدا الموظفون في الأقاليم يعانون الشدائد المرة بسبب كثرة الاختلال الناشئ عن اباة الأهالي لطاعة القانون . وقد تألفت جمعيات التضامن المختلفة لصيانة المصالح الأهلية . ويشكو ضباط الجيش والشرط من أن صنف المجندين الجدد أقل طاعة من الصنف الذي كان قبلهم وأعند عند التدريب وأكثر تعنتاً وسخطاً .

ثم جاءت الحرب العامة فزادت في هياج الشرق زيادةً عظيمةً . فجمعت الحال في جميع الاقطار ولا سيما غالب الشرق الأدنى ، بين استحكام حلقات الشدة والضيقة ، والمطامح الوطنية الكبيرة ، والسخط المشتعل ، فظهر المجتمع الشرقي كأنه على شفا جرف هار . وبينما الشرق هذه مراحل عالية تفور ، اذا بالبلشفية الروسية تدب وتنتشر في الشرق ، وتمتد الى أقطاره المربدة الجواء بالسحب السوداء ، وطفقت تهيمن وتسيطر على هذه الحالة ، وتنظم حركات القلق والاضطراب ، وتدبر أسباب الشغب والهياج ، بطرق متسعة وأساليب منظمة ، ابتغاء الوصول الى غرض هو نصب عينها وادراك غاية تتوخاها . ولا غرو فالبلشفية قد انبرت الى الميدان على رؤوس الاشهاد تريد ايقاد ثورة عالمية ، ودك أركان الحضارة الغربية دكاً يبقيةا أثراً بعد عين . ولتحقيق هذا الغرض لم يكتف قادة البلشفية باثارة الحملات الشعواء على الغرب مباشرةً فحسب ، بل قاموا بأكثر من ذلك ، اذ دبروا أمر القيام بحركات التفاف في آسية وافريقية ، لأنهم اعتقدوا ان الشرق اذا استطيع الهابه بنار الثورات الآكلة ، كانت نتيجة ذلك ليس زيادة اعزاز البلشفية ورسوخ قدمها واشتداد بأسها فقط ، بل أيضاً القضاء على حياة الغرب الاقتصادية المترعزعة الجوانب المنهوكة القوى بسبب الحرب العامة ، وذلك قضاءً أخيراً يعقبه ثلاثى صناعة الغرب واضمحلالها ، ثم تنقد نار الثورة العمياء في أوروبا مندلعة الألسنة الى كل جانب من جوانب القارة .

وانتشرت مساعي الدعوة البلشفية في العالم كله ، فعم نطاقها وانبثت تعاليمها في كل رقعة من رقاع الكرة الأرضية ، فلم تخلُ زاوية من زوايا الأرض من مكابد دعاة البلشفية ودسائسهم ، وهؤلاء لم يغادروا وسيلةً الا استعانوا بها لبلوغ المأرب الذي اتخذوه قبلةً يركبون في سبيلها كل مركب . وما كانت تعاليم « الجر » الرامية الى انهاض طبقات العمال

الدنيا الى مستوى السيادة والحكم في كل بلاد، سوى ذريعة من ذرائعهم التي لاتحصى ونوع من أنواع أسلحتهم التي لاتعدّ . ولما كان مرادهم في المقام الأول قلب نظام العالم الحالى ، فقد بات كل عمل ، ولو كان بعيداً من التعاليم البلشفية بمقدار ، ولكن من مقتضاه مقاومة ذلك النظام ، أداة من أدوات البلاشفة يلجأون اليها ويستعينون بها . ثم راح دعاة البلشفية يبنون في كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية في آسية وأفريقية واسترالية والاماركتين فضلاً عن أوروبا ، بهمسون في آذان الشعوب المغلوبة على أمرها الناقصة الساخطة ، انجيل البلشفية الجديد وآياته الحديثة ، جلاً لهذه الشعوب على الهياج والشغب ، ثم الانتفاض والثورة . فكل حركة وطنية ، ومطمح قومي ، وسخط سياسى ، ومظامة اجتماعية وتحكم جنس في جنس ، جميع ذلك من الوسائل التي يتخذها البلاشفة وقيداً نار الهياج ، فالانتفاض ، فالحرب .

وقد كانت تربة أقطار الشرق الأدنى والأوسط أخصب الأقطار لزراعة البلشفية ، وأكثرها استعداداً لها ، فنمت البلشفية في هذه الأقطار نمواً كبيراً ، ولبيان ذلك نقول : لما كانت هذه الأقطار الشبيهة بالمرجل الغالى . والتي تنقد فيها نيران الفتن والثورات على اختلافها ، مراعى للاطماع الاستعمارية التي ابتغتها روسية القيصرية منذ عهد طويل ، فقد سبق للدعاة الروسيين من قبل فدرسوا شؤونها درساً وافياً مشتملاً على سرالفتح السلمى فلما انهارت أركان روسية القيصرية وقامت البلشفية على أنقاضها ، لقيت البلشفية أمامها مهيعاً معبداً ، وطريقاً ممهداً ، لبلوغ أغراضها . فلما قام تروتسكى ولنين يضرمان نار الهياج والثورة في تركية وايران وأفغانستان والهند ، تقويضاً لمكانة بريطانيا على الأخص لم يحتاجا الى خطط التوطئة وطرق التمهيد ، لأن روسية القيصرية كانت قد سعت في هذا السبيل عقوداً من السنين طويلة ، فكان من نتائج هذا السعى جمع المعلومات الوافية فى هذا الموضوع وايداعها سجلات الحكومة السابقة فى پتروغراد ، وكان عدد كبير من رجال الحكومة القيصرية الذين انقلبوا للحال يستأنفون أعمالهم السابقة بعد ذهاب روسية القيصرية وانشاء البلشفية ، لم يزالوا يعلمون كثيراً من أمور البلدان المذكورة التي كانت تحوم حولها وفوقها المطامح القيصرية .

على انه يجب علينا عند اعتبار الدعوة البلشفية المنتشرة فى الشرق قاصيه ودانيه

أن نفرق بين الغرضين الأكبرين اللذين يجدرّ دعاة البلشفية في سبيلهما اليوم غاية المستطاع: الغرض العاجل وهو محو التفوق الغربي سياسياً واقتصادياً محوياً تاماً. والغرض الآجل وهو بلشفة الشعوب الشرقية، وما يتلو ذلك من القضاء الأخير على الطبقات العليا والوسطى من أهل كل بلاد، على نحو ما قد تم في روسية وما هو مدبر للملك الغربية. أما في الدور الأول فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لاحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية في الشرق. وأما في الدور الآخر فالأديان، مثل الاسلام، فستقوض تقويضاً. وأما قادة النهضات الوطنية، مثل مصطفى كمال، فسيرمون من حلق إلى رتبة العمال ويوسمون بمسهمهم. وهانحن نبين للقارئ الكريم كيف تقوم السياسة البلشفية بمساعيها المتنوعة في سبيل الغاية التي ترمى إليها.

لما قامت الحكومة البلشفية في روسية وقبضت على أزمة الأحكام أواخر سنة ١٩١٧، سرعان ما بادرت إلى وضع الخطط والبرامج لسياستها التي اعتزمت اتباعها في الشرق. ثم انقضت سنة ١٩١٨ وكانت سنة اعداد وتجهيز. فنظم البلاشفة مشروع الدعوة تنظيمياً تاماً. وافية، قوامه الخبراء على صنوف مختلفة. وأتى بعدد من رجال الحكومة القيصرية البائدة من دعاة وساسة راسخين علماء بالشؤون الشرقية، وحملوا على أن ينتظموا في سلك الدعوة وقد أمدهم المسلمون الروس، مثل التتر في روسية الجنوبية والتركان في آسية الوسطى. الحكومة البلشفية بكثير من الخبراء العارفين. وكان أنفع الجميع وأخدمهم للغاية، أولئك الذين فروا إلى روسية من تركية وإيران والهند عند ختام الحرب العامة، وفيهم قادة الحكومة التركية الحليفة للدول المركزية، مثل أنور وجمال وطلعت وكثير غيرهم^(١)، فانهم لجأوا إلى روسية هرباً من أن يقعوا في أيدي دول الحلفاء الظافرة. وكذلك فقد فر إلى حكومة لينين عطاء القادة الهنود الذين كانوا مشايخين لألمانية خلال الحرب ويتلقون منها الأموال للقيام بالدعوة. وعند أواخر سنة ١٩١٨ كان ديوان الدعوة الشرقية في الحكومة البلشفية قد نظم أحسن تنظيم، فقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الأول للأقطار الاسلامية، والثاني للهند، والثالث للشرق الأقصى. أما مساعي البلاشفة وأعمالهم وكيفية نشر دعوتهم في الشرق الأقصى فليس من غرضنا البحث في ذلك في هذا الكتاب، ولكن على القارئ

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن الوارد في آخر هذا الكتاب على الشهيد أنور ورفقائه — المربر

أن يعلم خطورة الأعمال التي قام بها البلاشفة في تلك الأقطار ، وعظم الدور الذي لعبه الصينيون في تاريخ روسية في المدة الحديثة . أما القسمان الأولان من أقسام ديوان الدعوة المختصان بالأقطار الاسلامية والهند ، فقد طفق أربابهما يجهدون في سبيل الغاية جهداً كبيراً فترجوا مئات الكتب البلشفية الى مختلف اللغات الشرقية ، ودرّبوا عدداً كبيراً من الرواد السريين والدعاة والرسول للقيام بالأمر العظيم ، وانطلقوا يتوسلون بما استطاعوا لاستثارة العناصر الثورية في تلك الأقطار .

وفي أوائل سنة ١٩١٩ بانت مساعي البلاشفة وأعمالهم منتشرة في جميع الشرق الأدنى والأوسط انتشاراً كبيراً لاخفاء فيه . ويعلم الحكيم المصنف أن انكار الحلفاء على شعوب الشرق الأدنى حقها في مصالحها القومية ^(١) ، ووقوفهم في وجه نهضاتها الوطنية موقف الصادق المقاوم ، قد كان وسيلةً من خير الوسائل التي اعتضدت بها الدعوة البلشفية . وقد أسلفنا الكلام في موضع تقدم كيف أخذت حكومة موسكو تمد يد النصرة والعون الى مصطفى كمال وسائر القادة الوطنيين في تركيا وايران ومصر وغيرها . على أن نجاح البلاشفة في الشرق الأدنى لم يكن أقل منه في الشرق الأوسط . ولا غرو فقد كانت يد حكومة موسكو ظاهرةً أجلي ظهور في فوران ذلك التيار من الفتن والانتفاضات ، مما طبق شمالي الهند في ربيع سنة ١٩١٩ ^(٢) وليس ذلك جميع ما قامت به الدعوة البلشفية بل قد امتدت الى أكثر من ذلك ، فأزات الضربة العظمى لبريطانية ، تلك الضربة التي قصمت ظهر الانكليز في أفغانستان . فان هذه البلاد التي من شنشنة قطينها الجبليين الشعب والهاياج ، والتي هي بجملتها أشبه بالصاعقة المتوقع نزولها أبدأً على الحدود الشمالية الغربية ، قد ظلت خلال الحرب هادئةً ساكنةً . وغاب السبب في هذا السكون ووقوف حاكمها الأمير حبيب الله خان موقف الموالاة لبريطانية . بيد أن هذا الأمير اغتيل في سنة ١٩١٩ اغتيالاً لم يعرف حتى اليوم هل كان للبلشفيين يد فيه أم لا ولكن على كل فقد طفق هؤلاء البلاشفة ينتهزون الفرصة التي سنحت لهم بعد ذلك ، إذ خلف حبيب الله خان أحد أنجاله وهو الأمير أمان الله خان المشهور بشدة عداوته وشنائته لبريطانية ، والذي كانت له صلات بدعاة الترك والألمان خلال الحرب

(١) راجع الفصل الخامس .

(٢) راجع الفصل السادس .

العامّة. فلما تسلم أزمة الحكم، واستقام له الأمر، جعل يبشر بإنشاء الصلات بينه وبين موسكو^(١) فلم ينقض سوى اليسير من الزمن حتى اهتبل السانحة عند ما طبق الاضطراب وعمت الفتنة في بلاد البنجاب الهندية، فأعلن الحرب على بريطانيا، ثم أخذت جيوشه المؤلفة من رجال القبائل الشديدة الشكيمة الحية الأنف، تندفق على الحدود الشمالية الغربية فأهبت جميع تلك البلاد نار حرب ضروس. وبعد أن دارت رحى القتال شديداً مدة من الزمن، استطاعت بريطانيا أن تصد تيار الاجتياح الأفغانى، فردت جيوش القبائل على أعقابها. فاضطر من بعد ذلك أمان الله خان الى الكف عن القتال، ثم لم يكن له من وليجة عن عقد الصلح. ولكن ما كانت بريطانيا لتجسر قط على التشدد مع الأمير، بل وافقت على أن له الحق بمقتضى شروط الصلح أن يكون فى حل من القيد الذى كان مقيداً به من قبل، وهو أن لا ينشئ صلوات سياسية مع أمة أجنبية مّا سوى الهند البريطانية. أما الآن فشرع الأمير يعزّز بالاستقلال ويتباهى به ذاتئداً عنه بقوة تلك الصلات التى عقد عروتها بينه وبين

(١) سنة ١٩٢٠ كان جمال باشا ذهب الى موسكو ومعه بدرى بك وذلك أثناء ما كانت أسرى الروس تعاد من المانيا الى الروسية، فاندسا بين أولئك الاسرى متكرين خوفاً من أن يعرف أمرهما فيقبض عليهما الانكليز الذين كانت لهم سفائن تفتش عن الركاب الذين يرون من بحر اللطيك الى جهة الروسية. ولما وصلا الى موسكو اجتمعا فيها مع أنور باشا واتفق الجميع على مفاوضة البلاشفة فى عقد محالفة بين هؤلاء من جهة والاسلام من جهة أخرى، وأن يكون مرهبي تلك المحالفة مقاومة دول الحلفاء لاسيا انكلترة فى آسية. وكان سبق للبلاشفة مداخلات مع أمير الافغان لعقد اتفاق معه ولكن لم يكن ثم شئ منه. فارسات حكومة السوفيت جمال باشا الى افغانستان مهدداً لسياسة الاتفاق مع الاسلام وانجاز المعاهدة التى كان سبق السعى فيها بين الروسية وافغانستان. فذهب أولاً الى طاشقند فى التركستان ومنها قصد كابول عن طريق هرات، ولما وصل الى كابول حظى لدى الامير وبعد وصوله بمدة وجيزة وفق الى تسجيل البت فى أمر المعاهدة مع الروس على شروط، من جعلتها امداد البلاشفة للافغان بمقدار من الأسلحة، وان تعاد مقاطعة كوشكه الافغانية التى كان الروس اغضبوها من يد الافغان منذ ٤٥ سنة اذا رضى أهلها بالرجوع الى دولتهم الأصلية، وان تخول الروسية حق تعيين معتد فى كابول كما يكون معتد للافغان بموسكو، وكذلك تعين الروسية أربعة قناصل فى أربع مدن من افغانستان، وتعين افغانستان قناصل فى طاشقند وغيرها من المدن التى فى حوزة الروسية، وان تعترف الروسية باستقلال امارتى بخارى وخيوه داخلا وخارجاً وغير ذلك من الشروط المهمة. وقد كان لهذه المعاهدة بين الروس والافغان وقع عظيم فى انكلترة، فحسب لها الانكليز الف حساب وأفادت أمير الافغان كثيراً بحيث أسرع الانكليز الى مصالحته وقبول أكثر مطالبه، كما انها أفادت البولشفيك فى مفاوضاتهم السياسية والتجارية مع انكلترة اذ قد رضيت انكلترة بعقد معاهدة تجارية معهم، اشترطت فيها أن يتمتع الروس عن تسريب السلاح الى الافغان أو غيرها من العالم الاسلامي، وعن بث الدعوة الشيوعية فى آسية. (ش)

موسكو . وقد كان البلاشفة في ذلك الوقت قد أنشأوا لهم مركزاً آخر خطيراً في تركستان الروسية لنشر دعوتهم ، وهو لا يبعد كثيراً من الحدود الأفغانية ، وكان مرعى هذا المركز الجديد وغاية أعماله ؟ ليس بلشفة أفغانستان فحسب بل أيضاً بلاد الهند المترامية الأطراف .

وخلال سنة ١٩٢٠ غدت أعمال البلاشفة ومجاهديهم الكبرى أكثر انتشاراً ، وأظهر للعيان ، وأعز شأناً في جميع الشرقين الأدنى والأوسط . وقد اطلعنا في موضع تقدم على كيف أخذت روسية البلشفية تقوم بعرض الحركات الوطنية والنهضات القومية في تركيا وإيران عضداً شديداً . وفي الواقع ان سياسة الحلفاء القائمة على الطيش والخفة وقصر النظر قد كان من شأنها أن حلت العدد الكبير من القادة الوطنيين على الجنوح والانحياز الى لينين ، في حين أن هؤلاء القادة أنفسهم ما كانوا ليروا غايات حكومة موسكو ومنازعتها ومراميتها البعيدة فيما يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب رائقة لهم . مثال ذلك أن رئيس البعثة الأفغانية التي شخضت الى موسكو ، قد صرح حقيقة الأسباب التي حلت حكومته على التعاهد مع روسية السوفيياتية على الصداقة والولاء تصريحاً ييناً ، في مقابلة رسمية ، كما نشرت هذا جريدة « ازفستيا » لسان حال الحكومة السوفيياتية ، فقال رئيس البعثة : « انى لست على مذهب الشيوعية ولا الاشتراكية ، انما خطى السياسية هي طرد الانكليز من آسية ، وانى لعدو عنيد لرؤوس المال الأوروبية الاستعمارية في آسية ، التي أعظمها وأشدّها استنزافاً هي البريطانية . فمن هذا القبيل أوافق الشيوعيين على مبادئهم وأصرح لهم اننا محالفوهم في هذا السبيل . . . ان أفغانستان ، وشأنها شان الهند ، ليست بدولة في حوزتها رؤوس المال الاستعمارية ، ومن البعيد أن تستقر الأنظمة النيابية فيها في عهد قريب . ومن الصعب الشديد التكهن بكيفية قلب الشؤون واختلاف مجاريها في المستقبل انما أعلم حق العلم أن النداء المشهور الذي وجهته الحكومة السوفيياتية الى جميع الأمم والشعوب مستصرخة ايها لمقاومة رؤوس المال الاستعمارية ودك صروحها دكا (ومعنى كلمة رأس المال عندنا بات مرادفاً لمعنى كلمة الأجنبي أو بالأحرى الانكليزى) قد كان له عندنا وقع عظيم وشان كبير . غير أن هناك قضية أحلناها محل الرفع ألا وهي الغاء روسية السوفيياتية لجميع المعاهدات السرية التي عقدتها حكومات التوسع الاستعماري ،

واعلانها الحق واعترافها به لجميع الأمم والشعوب ، دون اعتبار القلة مهما كانت ، في اختيار حكمها وتقرير مصيرها . هذا هو السبب الذي جعل جميع الشعوب المستعمرة المستنزفة في آسية ، حتى الشعوب البعيدة من مذهب الاشتراكية ، على الالتفاف من حول روسية السوفيياتية » . (١) ولكننا لما كنا نعلم مبلغ ما هم عليه دعاة البلشفية من المهارة والتفنن في النشر والبت ، فلا يسعنا التسليم بأن السياسي الافغانى قد صرح حقاً مثل هذا التصريح كما نشرته صحيفة « ازفستيا » البلشفية . ولكن على فرض ان في هذه المقابلة كذباً واختلاقاً ، فان هذا البيان المعزوع على صورته هذه الى رئيس البعثة ، انما يفصح عن شعور العدد الكبير من الشرقيين ، ويجلو السبب الأكبر في نجاح الدعوة البلشفية النجاح العظيم في الأقطار الشرقية .

ولا غرو البتة ان لقيت الدعوة البلشفية هذا النجاح الكبير حتى غدا الزعماء البلاشفة يحدون في سبيل غايتهم وادراك مبتغاهم ، وينادون البدار البدار جهراً وعلانية . فان موسكو في بادئ الأمر قدوقفت موقف المعين الناصر للشعوب الشرقية لمقاومة التوسع الاستعماري الغربي ، وكانت توجه صرخاتها الواحدة تلو الأخرى الى أمم تعدها على مستوى لانفاوت فيه ، وتولى وجه صيحاتها شطر أقوام هي عند البلاشفة لاختلاف منازل وطبقات فيها ، وقد اعترفت مراراً بحق كل أمة لتقرير مصيرها ، ووعدت باحترام الآراء والمنازع والأنظمة والقوانين الوطنية . مثال ذلك فقد جاء في منشور بلشفي بعث به الى الترك أواخر سنة ١٩١٩ موقعاً من نين مايلي : « يامسلى العالم !! الذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا استيقظوا !! ان روسية قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ، تلك السياسة الضارة الخبيثة التي كانت تمشي عليها الحكومة السابقة . ان روسية اليوم تمديدها اليكم لتعينكم وتنصركم على تحطيم أغلال الاستبداد البريطاني . ان روسية تطلق لكم الحرية الدينية وحق الحكم الاستقلالى ، وتعترف بحدود بلادكم الحدود المعروفة قبل الحرب ، ولن توافق على اعطاء قطعة من البلاد التركية الى الارمن ، وتبقى مضائق الدردنيل في أيديكم ، وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الاسلامى . ويمنح المسامون في روسية الحكم الذاتى التام . انما

(١) أقرأ التعليق الوارد في آخر هذا الكتاب على الأمم الاسلامية ازاء البلاشفة والدعوة البلشفية .

جميع ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين الغاشمين الذين دأبهم ومبتغاهم أبداً استنزاف بلادكم وجعلها مستعمرة لبونا يحتلبون ضرورها احتلاباً» .

هكذا كان شأن روسية في توجيهها النداء بعد النداء الى الشعوب الاسيوية ، حتى الى شعبها الذى في بلادها ، فقد كانت تسمعه هذه النغمات عينها على مسمع من أهل الشرق ، فقد جاء في أمر أصدر الى الجنود الروسية المرابطة في « پامير » ما يلى : « يا جنود فرقة پامير ! ! اعلموا انكم قد اتدبتم للقيام بعمل جليل وأمر خطير . فان الجمهورية السوفياتية قد أرسلتكم حراسا الى پامير التى عند حدود البلادين المواليين وهما افغانستان والهند . ان پامير وسهولها المرتفعة وصعداتها الرحبة هى البلاد الفاصلة بين روسية الثورية والهند تلك البلاد التى فيها أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من القطبين تستعمرهم فئة قليلة من رجال الانكليز وتذلهم بجميع وسائل القهر . فعلى تلك الانجاد يجب على رواد الثورة منكم أن يرفعوا الراية الجراء ، راية الجيش المحرر من رق العبودية . سيعلم أهل الهند الذين يقاتلون الانكليز المعتدين المغتصبين ، أنكم أهل النجدة والغوث على مقربة منهم طيبوا أنفساً وقرروا عيوناً بحكم لقبائل الهند الشمالية عاشقة الحرية والاستقلال . . . قوتوا روحها بأقوالكم وانصروا حركتها بأعمالكم حتى تنطلق في سبيل الثورة . وأعرضوا عن الأراجيف التى يشيعها عنا والمزات التى يلعننا بها رواد التحكم والوردية والصارفة البريطانيين . ليحيى التحالف الوثيق العرى ، تحالف الشعوب الثورية في أوروبا وآسية ! ! »

على هذا المنوال كانت تنسج الدعوة الباشفية في دورها الاول . ثم شرعت تختلف صفة ولونا ، داخله دوراً جديداً وقد كان من شأنها في دورها الجديد هذا اثاره الجلات على الاستعمار والاستنزاف الغربى كما في الدور الأول . ولكن هناك صرخات مفرغة في قالب حديث أخذت تسمع ، من حيث كانت هناك صرخات شبيهة بها توجه الى سواد الأمم الأوروية ، مشتملة على تحريض الحكومة السوفياتية لاهل الشرق حتى يهبوا لمقاومة أرباب رؤوس المال والطبقات العليا والوسطى ، سواء كانوا من الوطنيين أم من الاجانب ، وعلى وعد البلاشفة المكرر للطبقات العاملة الدنيا بتحسين حالهم ورفع شأنهم واعزاز مقامهم . والى القارىء بعض ماجاء في منشور بلشفي وجه الى سواد الترك وعامتهم في صيف

١٩٢٠ وهو كما يظهر مختلف عن ذلك الذي وجه اليهم السنة التي قبل اختلافاً كبيراً : « ان الأعمال على اختلاف طبقاتهم وهم أهل النصب والعناء ، ليقاتلون اليوم الاغنياء والتمولين قتلاً شديداً في كل قطر وبلاد . فان أرباب رؤوس المال والى جانبهم الأشراف والأعيان يحاولون الآن جهدهم لتصفيد العامل التركي الناصب اللاغب باغلاهم الثقيلة وقيودهم المرهقة . ان الاغنياء والسراة الاورو وبين هم هم الذين قد جروا الويل والبوار على تركية . فيا أيها الزملاء الرفقاء ! هلموا بنا نوحدهم والغرض ، ونسعى وراءهما سعياً متحداً في جميع أقطار العالم . فان لم نفعل ذلك اليوم قضى علينا بالخيبة الدائمة والسقوط الى الدرك الأسفل . أى أبطال الثورة التركية ! البلشفية تمد اليكم يد الاتحاد فدوا يدكم اليها فتجتمع الكلمة ويقوى البنيان . ليحيى المؤتمر الشعبى الثالث ، وان الله على كل شىء قدير !! » .

ولما بلغ شأن موسكو هذا المبلغ ، عادت هي لاتكتفى بالاقوال ، بل شرعت في انفاذ خطتها الى حيز العمل . وقد كان أهل تركستان الروسية أول أمة شرقية تبلشفت ولبست الخلة السوفيانية . وخبر ذلك ان البلاشفة لما تساموا أزمة الحكم أواخر سنة ١٩١٧ منحوا تركستان الحق التام في تقرير المصير ، فولى أهل البلاد الامراء الوطنيين حكما عليهم ، وجددوا انشاء وحدات دولتهم السابقة تجديداً فيه شىء من الصلة الاتحادية الواهية التي تربطهم بروسية . وفي سنة ١٩٢٠ وجدت الحكومة السوفيانية أن تركستان قد غدت ناضجة تمام النضوج لالهاها نار الثورة الاجتماعية ، فخلعت الامراء الوطنيين ونصبت مكانهم حكاما من متبلشفة أهل البلاد ونقلت اليهم جميع السلطة السياسية بعد أن جعلت عليهم مراقبين ومشرفين من الروس ، وسلبت الملكية من أيدي الطبقتين العليا والوسطى وخضدت شوكة المقاومين الذين كانوا يقاومون بصورة غير منظمة وذلك بأن قتلت بعضاً وعذبت بعضاً ، بحيث قد تجلى في ذلك كل ضرب من ضروب المحن المشتملة على أهول الفئات البلشفية . ثم اتقدت نار الثورة الاجتماعية في القوقاس كما في تركستان عند ما شرعت حكومة موسكو تبلشف اذر بيجان . فان جمهورية اذر بيجان الترية هذه كانت من قبل جزءاً من بلاد عبر القوقاس الروسية التي أعلنت استقلالها عند تلاشى الامبراطورية القيصرية سنة ١٩١٧ . ولما كانت اذر بيجان واقعة موقعا جغرافياً في

شرقي عبر القوقاس بالقرب من بحر قزوين ، فقد كانت عاصمتها مدينة باكو المشهورة
 ينابيع زيت البترول ، فتقدمت صناعة هذه المدينة تقدماً كبيراً حتى صارت مركزاً
 صناعياً على الطراز الغربي . فكثرتساكنها وعمالها وهم من أصول اسبانية وروسية
 مختلطة ، واذ وجد البلاشفة متسعاً لافعالخطهم هناك حيث نشأت طبقات من الممولين
 والعمال ، فلبوا الحكومة الوطنية في ربيع سنة ١٩٢٠ وأتوا بقوة روسية بلشفية استعانوا
 بها على بلشفة اذربيجان وتحويلها جمهورية سوفياتية ، ثم جرى ما يصاحب الثورة
 الاجتماعية بطبيعة الحال : من سلب ونهب وتقتيل لأهل الطبقتين الوسطى والعليا ، ومن
 نشر الرعب والهول وضبط الاملاك ومصادرة الارزاق والتصرف بها في سبيل منفعة العمال
 الصناعيين والزراعيين . على هذا المنوال شرعت البلشفية أوائل سنة ١٩٢٠ تدخل دور
 العمل في أقطار الشرقين الادنى والاوسط .

ولما رسخت قدم البلشفية في الشرق ، وجد السوفياتيون ان قد حان الوقت لحسر
 اللثام ، والانبراء الى الميدان بدون خوف ولا وجل . ففي خريف سنة ١٩٢٠ عقدت
 الحكومة السوفياتية الروسية مؤتمراً في باكو دعتة «مؤتمر الشعوب الشرقية» كان الغرض
 منه ليس تحرير الشرق من رق الغرب فحسب بل بلشفته أيضاً دون مرد . ولم يكن السعي
 وراء هذه الغاية الكبرى على شيء من الاستتار بل كانت الوسائل المتوسل بها لبلوغ
 الغرض من الغرابة بمكان ، فيجدر بنا الوقوف على بعض منها .

ففي المقام الأول أصدر «المؤتمر الثالث في موسكو» منشوراً عاماً دعا فيه الشعوب
 الشرقية الى حضور هذا المؤتمر ، مؤتمر الشعوب الشرقية ، وكان توجيه المنشور هذا الى
 الفلاحين والعمال في الأقطار الشرقية ، وهذه صورته : -

« أيها الفلاحون والعمال في ايران ! ان رجال الحكومة القاجارية في طهران ،
 وحكامها وأمراءها «الخانات» ، ما برحوا جميعاً يستلبون أموالكم وامتعتكم واغديتكم
 طيلة قرون عديدة . فان الارضين التي هي ملككم بحق صريح على مقتضى الشريعة
 الاسلامية قد امتلكها لصوص حنومة طهران ، وهم الآن يتصرفون بها ويتجرون على
 ما يهونون ويشاءون ويرهقونكم بالضرائب الباهظة والمكوس الوافرة . ولما بلغوا من
 افساد التدبير والادارة والحكم بحيث عادوا لا يستطيعون احتلاب البلاد وامتكاك عظمها ،

باعوا ايران السنة الماضية من أرباب رؤوس المال البريطانيين بمبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ ليرة ييعة من مقتضاه أن تقوم بريطانية بتنظيم جيش في البلاد لزيادة استدلالكم واستعبادكم واستنزاف قواكم واستلاب أموالكم بحجة الضرائب اللازمة لحكومة طهران و « خاناتها » . وقد باعوا ينايع الزيت في جنوبي ايران حتى ينزلوا بالبلاد الضربة القاضية لاقيام لكم من بعدها .

« أيها الفلاحون في العراق !! قد أعلن البريطانيون ان بلادكم مستقلة ، ولكن هناك ٨,٠٠٠ جندي انكليزي يحتلون بلادكم ، وينهبون ويسلبون ، ويقتلون ويجوسون خلال دياركم ، ويهتكون حرمت نساءكم .

« أيها الفلاحون في الاناضول !! ان الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية قد احتلت القسطنطينية وجعلتها تحت افواه المدافع ، وطفقت تتمهن كرامة السلطان وتعامله معاملة أسير رقيق ، وتكرهه اكرها شديداً على النزول على ارادتها ورغبتها في تجزئة البلاد التركية البحتة ، وفي تسليم مالية البلاد الى أيدي أرباب رؤوس المال الأجانب ، الذين يسهل عليهم اذ ذاك استنزاف دم الأمة التركية المنهوكة القوى من جراء خطوب الحرب التي خضم غمارها ست سنوات ، وقد وضعت هذه الحكومات أيديها على مناجم هرقلية ، واحتلت موانئكم ، وهي الآن تسوق الجيوش الى بلادكم للاجتياح والتدويع .

«أيها الفلاحون والعمال في أرمينية ! كم من الضحايا البشرية التي ذهبت منكم خلال هذه العقود الأخيرة من السنين بسبب مكائد الممولين الأجانب ودسائسهم ، الذين كانوا يداهنونكم بأقوال واحتجاجات يظهرون بها استهجانهم لقيام الكرد بتعذيبكم وقتيلكم ، من حيث كانوا يحرصونكم على الانتفاض على السلطان لكيما يتسنى لهم بهراقة دمائكم الحصول على الامتيازات الجديدة والمنافع الاقتصادية الدائمة من السلطان . وقد وعدوكم خلال الحرب العامة بمنحككم الحكم الذاتي ثم جعلوا يحرصون تجاركم وأسائيدكم وقسيسكم لتطلبوا ضم جانب من بلاد الفلاح التركي الى بلادكم ، والغرض من ذلك انما هو ادامة النزاع بين العنصرين الترك والأرمن ، فيستطيعون بذلك أبداً جنى الثمار والاستفادة من هذا العدا ، الذي مادامت ناره مشتعلة بينكم وبين الترك ، استطاع أرباب رؤوس المال البريطانيون والفرنسيين والامير يكيون عرقلة النهضة التركية ، بتهديدهم الحكومة التركية

بانتفاضكم عليها ، كما انهم يتخذونكم مطية لهم في سبيل مطامعهم الاستعمارية ، تهديدكم بقيام الكرد عليكم .

« أيها الفلاحون في سورية وبلاد العرب ! ان بريطانيا وفرنسة قد وعدناكم بالاستقلال التام وهذه جيوشهما اليوم تحتل بلادكم ، والانكليز والفرنسيين يحكمونكم ويسنون لكم الانظمة والقوانين كما يشاءون ، وأتم الذين تحررت من السلطان التركى وحكومة القسطنطينية ، قد غدوتم عبيداً ارقاء لحكومتى باريس ولندن اللتين انما تختلفان عن حكومة السلطان بكونهما أشد حولاً وأعظم هولاً وأقدر على استعمار بلادكم واستعبادكم .

« انكم جميعاً أيها الملاء لتعرفون هذا حق المعرفة . فالعمال والفلاحون في ايران قد انتفضوا على حكومة طهران الغاشمة الخائنة ودكوها دكا ، والفلاحون في العراق يشعلون نار الثورة على غير انقطاع ، ويقاتلون الجنود البريطانية أشد قتال ، وانكم يافلاحى الانضول الذين قد انضوى بعضكم الى بعض تحت راية كمال باشا لتقاتلوا المجتاح الأجنبي أصدق القتال ، قد سمعنا انكم تبذلون وسعكم لانشاء حزب لكم هو حزب العامة والفلاحين ، يكون على استعداد لمقاتلة كل رأسالى مستنزف حتى « الباشوات » أنفسهم اذا ما أقدموا على عقد صلح مع المستنزفين الأجانب . ان سورية قائمة قاعدة لا أمن فيها ولا سلم .

« وأنتم يافلاحى الأرمن ، الذين نكث الحلفاء بالوعود التي قطعوها لكم فتركوكم وشأنكم نذهبون فريسة المجاعات والمسائب الفتاكة بكم فتكاً ذريعاً حتى ينيلوكم حكماً أصلح ! ! اعلموا وثقوا بأن خلاصكم الذى ترجونه على يد أرباب رؤوس المال الأجانب انما هو ضرب من المستحيل الذى لا يدرك . واعلموا زيادة على جميع ذلك أن حكومتكم الطاشناقية ، التى هى صنيعه الحلفاء لتستغيث بحكومة العمال والفلاحين في روسية وتستمد منها الرد والسلام .

« أيها الفلاحون والعمال في الشرق الأدنى ! انكم اذا نظمت شؤونكم وأنشأتم حكوماتكم ، حكومة العمال والفلاحين ، وذدتم عن حياضكم بسلاحكم ، واتحدتم بالجيش الروسى الأجر ، جيش العمال والفلاحين ، استطعتم أن تقضوا على المستنزفين البريطانيين والفرنسيين والاميركان القضاء الأخير ، وان تناقشوا من بعد ذلك المستنزفين الوطنيين

الحساب ، ووجدتم متسعاً زحياً واتم اذ ذاك أحرار أن تتحدوا مع جمهوريات العمال في العالم ، لصيانة مصالحكم وترقيتها ، هذا اذا عرفتم كيفية استثمار بلادكم بأيديكم في سبيل منافعكم ومنافع الطبقات العاملة في العالم بأسره تلك الطبقات التي تبادلتم حاصلات بلادكم ومنتجاتها مبادلة النظير مع نظيره والندت مع نده .

« وبعده ، فاننا نود التباحث والتناقش معكم في جميع هذه القضايا والشؤون ، في مؤتمر باكو ، فابدلوا غاية مستطاعكم وجهدكم للحضور الى باكو عدداً كبيراً بحيث تكونون فيه في اليوم الاول من أيلول (سبتمبر) فاستحثوا مطاياكم واستخفوا بمصاعب السفر ومشقة الانتقال ، وجوبوا الصحارى والفيافي ، والاغوار والانجاد ، واموا هذا المكان المقدس الذي فيه تستطيعون العمل في سبيل احياء ماضيكم واحترام شرائع أديانكم . فاسلكوا السباسب والقفار ، وتسلقوا الجبال ، واعبروا الانهار ، واقدموا علينا فاننا نرتقب مقدمكم لنعمل معاً يداً واحدة في سبيل نجاتكم وخلصكم من رق العبودية المرة ، ان كنتم تريدون أن تحيوا حياة الحرية والعدل والمساواة » .

من هذا الخطاب يفهم المتدبر صفة مؤتمر باكو وماهيته . المؤتمر الذي انما كان في الواقع مؤتمرا لايقاد نار الثورة الاجتماعية أكثر منه لتحقيق الغايات القومية والآمال الوطنية . وقد بلغ عدد أعضاء الوفود التي أمت باكو لحضور هذا المؤتمر ١٩٠٠ عضو ، فيهم ما يقرب من ١٣٠٠ من الشيوعيين . وأكبر الوفود هي التي قدمت من تركيا وفارس وأرمينية والاقطار القوقاسية ، ولم تكن وفود بلاد العرب والهند ، حتى وبلاد الشرق الأقصى بالقليلة . وعلى كل فقد كانت الحكومة الروسية السوفياتية هي سيدة المؤتمر تنظم الجلسات وتضبط الواجهات . وقد تضمن الخطاب الذي ألقاه الزعيم البلشفي الكبير زينوفيف ، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الشعبي الثالث في موسكو ، خلاصة موضوع المؤتمر ، فقد وقف في الوفود خطيباً ، وقال : -

« اننا نعتقد أن هذا المؤتمر هو حقاً من الواجهات الكبرى التي يدونها التاريخ لانه ليس برهانا فقط على أن دعوة الايقاظ متمشية الآن في عالم العمال والفلاحين في أوروبا وأميركا ، بل على ان الاستيقاظ الذي شرع يستيقظه هؤلاء لعظيم ، ونحن نرى ذلك لعهدنا هذا بلاريب ، وليس عدد هؤلاء الناهضين من أهل طبقات العمال بالقليل ، بل هم

يعدون بمئات الآلاف والملايين في جميع الامم والشعوب الشرقية ، منهم تتألف الكثيرة الساحقة باعتبار مجموع سكان العالم ، وهم من القوة والبأس بحيث يستطيعون ان يشعلوا بينهم وبين الممولين حرباً ضروساً يكون بها القضاء الاخير على رأس المال

« ان المؤتمر الدولي الشيوعي قد صرح للإمام منذ أول انشائه : أن قطين أسية يفوقون بعددهم قطين أوروبا أربعة أضعاف وان قد وضعنا نصب أعيننا تحرير جميع الشعوب وجميع العمال . . . اننا نعلم أن أهل الطبقات العاملة في الشرق على انحطاط بمقدار ، لكنهم ليسوا بالمولمين في ذلك ، فهم لا يقرأون ولا يكتبون ، يعتقدون بالاساطير والخرافات والارواح الشريرة ، لا يقفون على الصحف ولا يعلمون ماجريات العالم ، ولا يفقهون شيئاً من أصول حفظ الصحة . أيها الرفاق ! قد بحث مؤتمرنا الذي عقد في موسكو في امكان القيام بثورة اجتماعية في جميع اقطار المشرق قبلما تدخل هذه الاقطار في دور سلطان المال ، وتغدو فرسة تمرقها مخالب الممولين . ومن معلومكم ان هناك اعتقاداً طويلاً في الناس ماهيته ان لا بد لكل بلاد من ان تحتاز دور سلطان المال في حياتها . . . قبلما تولد الاشتراكية وتحيا حق الحياة . اننا على يقين ان هذا الاعتقاد أمسى فاسداً باطلاً . والبرهان على يقيننا في ذلك انما هو روسية التي امتهدت للعالم السبيل ليقفوا أثرها ، ومنذ انشأنا نظامنا الحديث أخذنا نتحقق ان الصين والهند وتركية وفارس وأرمينية جميعها قادرة على النسيج على منوال النظام السوفياتي من حيث ان ذلك واجب عليها ولو تكبدت في سبيله ما تكبدت . فعلى هذه البلاد ان تتأهب وتستعد لتكون جمهوريات سوفياتية .

« واني أقول اننا آخذون بنصرة كل جماعة من الناس وان لم يعتقدوا آراءنا ، بل لو كانوا من مخالفينا في بعض الأمور والقضايا . وفي مثل هذه الحال قامت الحكومة السوفياتية بعرض كمال في تركيا ، مع اننا لم نكن بالجاهلين ان هذه الحركة التي على رأسها مصطفى كمال ليست شيوعية . هذا نعرفه حق المعرفة . ولدى طائفة من صور المقررات التي وُضعت في الجلسة الأولى من جلسات المجلس الوطني في انقرة ، وقد قال كمال نفسه « شخص الخليفة مقدس معصوم » ، والقصد الذي ترمى اليه الحركة الكمالية هو تنجحية

« الخليفة المقدس » من ايدي العدو . هذه غاية الوطنيين الترك في الاناضول ولكن هل تلتئم مع المبدأ السوفياتي ؟ كلا . انا نحترم للجمهور والعامه معتقداتهم الدينية ونعلم الطرق التي يجدر بنا اتباعها في انتشالهم من متخبط الجهل والغباوة ولكن ذلك لا يتم الا على توالى الأيام وكر السنين

« انا نحذر أشد الحذر ونبليغ من العناية الغاية ، متى ما أمسينا على مقربة من المعتقدات الدينية المستقرة في طبقة العمال في الشرق كما في غيره . ولكن نرانا في هذا المؤتمر لامفر لنا من القول انه يجب عليكم ألا تفعلوا ما تفعله الحكومة الكمايية في تركيا . يجب عليكم ألا تأخذوا بنصرة السلطان حتى ولو دعيتكم الى ذلك داعيات دينية . يجب عليكم أن تقووا ساعدكم ولا تكونوا من الانقياد الى عدوكم بحيث يجعلكم تسرون القهقري رغم أنوفكم . انا على يقين أن ساعة السلطان قد دنت^(١) . فيجب عليكم أن تقاوموا كل سلطة أوتوقراطية في بلادكم . وأن تقلعوا عن كل ثقة لكم بالسلطان . وأن تجاهدوا حق الجهاد حتى تنالوا نظام الحكم على الطراز السوفياتي . ان الروسيين كانوا مثلكم فيما مضى أشدء الايمان بالتيقصر ، ولكن لما فتقت ربح الفتنة وهب الشعب بسلاحه تبدد ذلك الايمان أيما تبدد واضمحل حتى لم يبق منه ذرة . ومثما حدث في روسية سيحدث في تركية وفي سائر المشرق متى ما شرعت ثورة الفلاحين تقذف جمماً فتنتشق الأرض ويقول الانسان ماها . عندذلك يفنى ايمان الشعب بالسلطان و بسادته القابضين منه على الرقاب . ثم نؤكد لكم القول ان السياسة التي تتمشى عليها حكومة الشعب في تركية اليوم ليست متفقة مع سياسة المؤتمر الشيوعي الدولي التي هي سياستنا وقد اتخذناها قبلة لنا . وعلى هذا كله فاننا نصرح أننا على استعدادٍ لعضد كل حركة ثورية يقام بها مقاومة للحكومة البريطانية .

« أجل ! انا ننظم جنودنا ونعبيء صفوفنا لصراع متمولة الانكليز حتى نأخذ

(١) من أجل هذا قد قيل ان فصل الخلافة عن السلطنة والغاء مقام السلطنة في تركية هو منزع بلشقي ، وقد رأيت البلاشفة مغتربين بهذا الأمر . لكنني لأعتقد أصلاً أن حكومة اقترهت السلطنة من بني عثمان لمجرد الاقتداء بحكومة موسكو ، بدليل أن حكومة اقترهه لاتزال تعارض المبادئ البلشفية ، وتنعن نشرها في تركية . فمسئلة الغاء السلطنة هي مسئلة قائمة بذاتها ، ليس لها أدنى تعلق بالدعوة الشيوعية . (ش)

برقابهم تحت مواطىء الأقدام . ان الضربة الكبرى يجب أن تنزل بهؤلاء المتمولة قضاء مبرما يجعلهم أثراً بعد عين . ثقوا بهذا وأيقنوا ولكن يجب علينا فى الحين نفسه أن نورد طبقة العمال فى الشرق موارد العلم والتهديب حتى يهبوا جيعاً لمقاتلة أهل الثروة على اختلافهم لافرق بين طبقاتهم وجنسياتهم . ويعلم مرديد العلم أن الغاية فى هذه الثورة القائمة سوقها اليوم فى الشرق ليست هى طرد متمولة الانكليز بحيث تحل محلهم متمولة الترك ، كلا ، ان غايتنا هى تطهير البلاد من كل متمول مستنزف حتى يتلاشى المترفون فينا وأهل الظلم والطغيان ، فيتحرر الشعب ويسود العمال أنفسهم »

وقد كان مؤتمر باكو السهم الأول الذى أطلقه البلاشفة منذراً بشروعهم فى بلشفة الشرق توصلًا للغاية التى جعلوا يشدون اليها الرحال فى كل سبيل وقد تلا ذلك كثير من المساعى السوفياتية المشتملة على ضروب الوسائل ومختلف الذرائع . وأكثرت ذلك كان فى بلاد القوقاس حيث تمت بلشفة بلاد الكرج وأرمينيا فى ربيع سنة ١٩٢٠ .

على أن هذا النجاح الذى لقيه البلاشفة فى هذه الأقطار ، قد كان من شأنه حل تلك الأقوام الوطنية الداخلة فى حاية روسية السوفياتية على زيادة السخط والغضب . فان جميع الأحزاب الوطنية الشرقية التى كانت قد تلقت نصرة موسكو لها بعظيم الحماسة والغيرة نكابة بالدول المتحالفة ، شرعت تتحقق الآن أن البلشفية الروسية لايبعد أن تكون ويلاً عليها بل أشد من ويل الاستعمار الغربى ، وكلاهما قاضٍ على المطامح الوطنية والمنازع القومية شرقاً . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين لم يبرحوا منذ أول الأمر يدركون الغاية الكبرى التى ترمى اليها حكومة موسكو اذ كانوا من القوة والحزامة بحيث جعلوا يتناولون نصرة روسية بلائمن يؤدون لموسكو . ولكن تبدلت الحال الآن غير الحال ان تنبه العمال فى الشرق قد يكون على مقدار وقد تكون الفلسفة الشيوعية مما لانفقها عقول العمال الشرقيين ولائى كنهه مهما كان بسيطاً . على أن وجود روسية السوفياتية لخطر يقام له ويقعد ولاعجب ، مادامت الاقلية الشيوعية التى لايزيد عددها حسب اقرارها على ٦٠٠٠٠٠٠ تتحكم فى ١٧٠٠٠٠٠٠٠٠ من الناس تحكم القهر والاستبداد . أما البلاد الأوروية الغربية فانها تعوّل فى مقاومة البلشفية على مبلغ التهذيب الذى عليه شعوبها وعلى شدة استمسكهم بتقاليدهم النامية فى ظل الحرية المنظمة وليس للشرق سلاح مثل

هذا السلاح ، وهو أشبه بروسية من حيث استعداده لقبول البلشفية وتخيم الجهل فوق ربوعه وفقدته الطبقات الوسطى القوية الشكيمة ، وإيلافه تقاليد الاستبداد ، وانقياده لحكم الأقلية المرهقة وخنوعه لها خنوعاً أعمى . وقد كان لنا ببلشفة تركستان واذر بيجان مصداق لذلك . وبالتالي أيقن القادة الوطنيون وزعماء النهضة في الشرق أن مصيدة البلاشفة جرارة غرارة يجب الحذر منها كل الحذر .

وترى الحال على هذه الصفة في سائر المشرق . ففي آسية الصغرى قبضت حكومة مصطفى كمال على رسل الدعوة البلشفية ^(١) بينما الجنود التركية أخذت تتناوش مع الجنود الروسية عند حدود القوقاس المختلف فيها . وقد مر معنا في الكلام على مصر كيف كان وجل القادة الوطنيين من ثورة اجتماعية يوحد ناراها المحرضون وأهل السجس في طبقة الفلاحين سببا في تسهيل التفاهم بين اللورد ملنر والزعماء الوطنيين ، تفاهماً قائماً على حب الوفاق . وكتب السرفالنتين تشيرول في ربيع سنة ١٩١٨ بين مبلغ العبرة التي اعتبرها الرأي العام الهندي في انهيار روسية القيصرية وظهور البلشفية ظهورها الرائع ، وبما قاله : « ان عقلاء الهنود ليعجبون كيف عجزت الطبقة الراقية في روسية (وهي تفوق الطبقة الراقية في الهند عدداً واستعداداً) عن تدير شؤون الطبقة الجاهلة وحكمها حق الحكم بعد تمزق الحكومة شرمزق » . وفي افغانستان أخذ الامير يبدل محبته لحليفه السوفياتي بنفرة متزايدة . فان تدفق سيل المهاجرين من تركستان السوفياتية على افغانستان هرباً من ويل البلاشفة وجورهم ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أمير بخارى ، وهو نسيب لأمان الله خان ، جعل أمان الله يفكر في سوء العقبى ، وزاد الامر خطراً عصيان الجنود الافغانية عصياناً شديداً على الحدود الروسية طالبين أن يمنحوا الحق بانشاء مجالس عسكرية على الطراز الروسي . قد يبذل البلاشفة جهودهم في اغراء الامير والتسويل له بأن يقوم بغزو الهند غزوة كبيرة ، ولكنه يكون من الحكمة والبصر بالعواقب أن يعلم ان غزوة الهند اذا قام بها لا تجديه نفعاً مادام هو نفسه معرضاً لغزور عينته العاصية التي ستفتك حينئذ به . ويتضح من جميع ما تقدم ان القادة والزعماء الوطنيين الشرقيين ، وفيهم

(١) تقدم لنا ذكر قصة مصطفى صبحي البلشفيكي التركي ورفاقه ، ومؤخراً قبضت الحكومة التركية في استانبول على بعض أتراك بتهمة البلشفة وزجهم في السجن . (ش)

المحافظون وسواهم ، أخذوا على توالى الايام بالتعاقد معاً والاصطفاف جنبا الى جنب للوقوف في وجه البلشفية والحذر الشديد منها . ولولم تكن الاقطار الشرقية معرضة لخطر الاستعمار الغربى اى لو كانت بئامن من غوائل الحلفاء ، لكانت صدت تقدم الجيوش الجراء صداً ولقنت رسل الدعوة البلشفية درساً ملؤه العبر الكبرى

ولسن من سوء الطالع أن القادة الشرقيين يرون أنفسهم في برزخ مرهبة الجوارف الأول متصل بهول البلاشفة والآخريهول الاستعمار الغربى المنقطع النظير ، فكانت النتيجة انهم جعلوا يقاتلون كل فريق بالآخر ، تارة يولون وجوههم شطر موسكو واذ استفحل جور المستعمرين ، وطوراً ينظرون الى الدول الغربية اذ قلب لهم لينين ظهر المجن . هذه حقيقة لاريب فيها . فعلى ساسة الغرب أن يتحققوها ويعلموا العلم اليقين ان ليس زعيم رسل الدعوة البلشفية هو زينويف وهو نخطب في جاهير الوفود في مؤتمر باكو ، ولسنه هو الجنرال غورو قائد الكتائب السنغالية الذى يحكم في سورية والبلاد العربية الداخلية حكماً قائماً على طرق « القوة والحديد والنار » .

ومن المعلوم ان انتشار البلشفية في الشرق انتشاراً واسع النطاق بعيد الأفق ، سيكون بلا ريب جائحةً رائعةً يتزلزل الشرق بها وسائر العالم معا . فاذا كان انتصار البلشفية في الغرب معناه انتصار البربرية ، فهو في الشرق الهمجية المطبقة لا تبق ولا تذر . وان تحرر الطبقات العامة في الشرق ممن لم يبرحوا في الجهل والغباوة طفرةً بدون تدرىج ، من ربق التقاليد الدينية والعادات القديمة وسائر القيود القاعدة بهم عن النهوض الصحيح ، واغتمار الطبقتين العليا والوسطى في الثورة الاجتماعية الآكلة الحاطمة من كل جانب ، ذلك من شأنه نفس الحضارة الشرقية والتهذيب الشرقى نسفا ينزل بالشرق أفدح النوازل فيستغرق في الفوضى استغراقاً لا يستقر به على حال أعصرراً وقروناً .

خاتمة

هنا ينتهى وصفنا العام للتطور الحادث اليوم في الشرقين الأدنى والأوسط. فهل هناك شيء آخرى بالتدبر وأجدر بالاعتبار مما جاء في هذا الوصف الذى أتينا عليه من جميع وجوهه؟ لا جرم انه تبدل وتغير ، واستحالة وانقلاب . فقد تحرك « الشرق الجامد » أخيراً حتى القرارة القسوى من أعماقه ، وهو اليوم في أشد ما يكون من الانفعال والهباج والفوران ، وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصور . فالعالم الاسلامى الذى ظلت قواه العقلية والروحانية هاجعة ما يقرب من ألف سنة ، قد استيقظ مرة أخرى وطفقت قواه تعمل عملها العجيب - وغدا المسلمون يعظمون شأناً من جديد ويعاون منزلة في الأرض .

أما ماذا سيكون؟ والى أين المصير؟ ذلك لا يعلمه الاعلام الغيوب . فليس منا من يستطيع التنبؤ ماذا عسى يكون نتاج هذا التطور الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وغير ذلك من أطوار الحياة . بل كل ما نستطيع الجهر به هو أن نعلم علماً صحيحاً ونصف وصفا سليماً مطابقاً ، ونحلم مختلف العناصر التى يتألف منها هذا الانقلاب العظيم تحليلاً لا نعرف فيه غير الصدق ولا نبغى منه سوى الحق

وهذا حقاً ليس بالقليل فإن النظر بعين التدبر والعقل في هذا التحول الحادث الذى لا مثيل له ، وربط مظاهره وصفحاته المتنوعة بعضها ببعض وجعلها تحت صورة عامة تظهر بها الأسباب والنتائج سلسلة آخذاً بعضها برقات بعض ، وتتبع الطرق العديدة التى يسير فيها هذا الانقلاب تتبعا نقف به على أصول كل حالة من حالاته ، ووجه من وجوهه ، انما الغرض منه هو العلم الصحيح بالواقع ، والادراك التام لاهمية ماينجم عن هذا التبدل في المستقبل .

فالمعرفة تأملٌ وأملٌ ، فاذا عرفتَ فتأملٌ وأملٌ - أملٌ ان هذا المخاض الشديد الذى لا يفهم كنهه الا من أوتى علماً كبيراً ، ورزق عقلاً صافياً ، وقلباً واعياً ، ان هو الا مولد لشرق جديد فى عالم جديد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

خداع الاوربيين للعرب والمسلمين

للشيخ

طالما نصح عقلاء الشرق الدول المستعمرة بان يقلعوا عن سياسة الفتح والغزو في الشرق بعد الحرب العامة ، فلم يعر رجال هذه الدول كلامهم آذاناً واعية ، حرصا على الفتوحات وطمعاً وشرهاً وجرياً على السياسة القديمة الاستعمارية ، ومن تعود شيئاً صعب عليه الاقلاع عنه . ولولا كون الشرقيين لم يزالوا يأملون الخلاص من الاستعمار رأساً بدون واسطة لمد جميعهم أيديهم الى مصافحة السوفييت المسكوفيين ، واقتدوا في ذلك بالترك والعجم والافغان ، الذين اعتضدوا بالروس بدون اقتباس نار البلشفة . ولكن الشرقيين ولا سيما العرب فضالوا المطالبة والمراجعة والتوسل بالتدابير القانونية والطرق السياسية ، على المبادرة الى التدابير القصوى . على أن المثل السائر « آخر الدواء الكي » هو عربي

في هذا المقام يحسن أن ننشر البلاغات التي نشرها الانكليز في أيام الحرب متزلفين بها الى العرب ليفصلوهم عن الترك ويأمنوا ثورة المسلمين . وعندما تقرأ هذه البلاغات وتقابلها بما بدا من الانكليز وحلفائهم بعد الحرب بحق هؤلاء العرب الذين ادعوا صداقتهم يخطر ببالنا ذلك البيت :

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه حتى قضاء فلا صلى ولا صام

ولكن نسي الانكليز والحلفاء أن من أصح الأحاديث النبوية عند المسلمين :

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

البلاغ الأول من الانكليز الى العرب ١٣ شباط سنة ١٣٣٤

الى أصدقائنا سكان بلاد العرب

قد علمتم تماماً أننا معشر الانكليز لم نخض غمار هذه الحرب الطاحنة ضد ألمانيا الا

الأكبر والتاريخ أكبر شاهد على صدق ما نقول وما فتئنا لهذا السبب نمد يد المساعدة لسلطان تركيا ونزيد آصرة اللفة والود بيننا وبينه تمكينا . وأما الآن فقد حله بعض وزرائه على نكران كل جيل صانعاه به وعلى مناوأتنا بعد طول الصداقة بيننا وبينه فليس عليه الا أن يرضخ لمشيئتهم ويقبل عاقبة ما كان . ولكن سياستنا سياسة الاحترام والصداقة للإسلام والمسلمين لا يطرأ عليها أدنى تغير وان أقرب برهان على ما ذكرنا هو رغبتنا في مساعدة سكان الاراضي الحجازية بمقادير من الحبوب ولكن ضباط الالمان والأتراك صادروا هذه المقادير حال وصولها الى جدة والجأؤنا الى عدم متابعة ارسال الحبوب لاعدائنا ليسدوا ما بهم من ألم المسغبة في حين أن الفقراء خصاص البطون يتضورون من الجوع . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فالحكومة الانكليزية بعد ما سمعت ما يتكبده الحجاج وسكان بلاد العرب الابرياء من آلام الجوع لندرة الماء كولات قد حركتها عوامل الشفقة والصداقة السرمدية نحو العرب أجمع فقررت التسريح بجلب الماء كولات الى جدة عن طريق البحر فليتأ كد العرب أنفسهم أن هذه المؤن الغذائية هي قوت لهم ولعائلاتهم وليجتهدوا في منع مصادرتها من هؤلاء الذين يعملون على نقيض القواعد المتبعة ابان الحروب ويخطفون لقمة الجائع من فمه

ملك بريطانيا وامبراطور الهند

جورج الخامس

البلاغ الثاني ٤ ذى القعدة ١٣٣٥

ان الحكومة البريطانية تعلن للملأ انه ليس في نية الدولة البريطانية العظمى أن تقوم بأعمال حرية لا برأ ولا بحرأ ضد بلاد العرب أو موانئها الا اذا كانت الأعمال الحربية لازمة لأجل حماية مصالح العرب من اعتداء الاتراك أو غيرهم أو لأجل تأييد العرب الذين يودون أن يتحرروا من نير الاتراك . ثم ان الحكومة البريطانية تعلن للملأ أيضا انها تعترض حرية التجارة في البحر الأجر لانها من أهم وسائل معاش العرب وانه لم يحصل أقل تغير في علائق بريطانيا العظمى الودية مع العرب بوجه عام .

ملك بريطانيا

وامبراطور الهند

جورج الخامس

البلاغ الثالث ٧ ذى الحجة ١٣٣٥

ان الحرمين الشريفين والمعاهد المقدسة السالفة الذكر ومن ضمنها ثغر جدة ستبقى أثناء هذه الحرب التي لادخل للدين فيها في أمان من أى هجوم أو اضرار من جهة القوى العسكرية البرية أو البحرية حتى لا يلاحق الحجاج الهنود الذين قصدوا زيارة الحرمين المذكورين ما يوجب أذيتهم وبناء على طلب الحكومة البريطانية تعهدت الحكومتان الفرنسية والروسية بمثل ما تعهدت به حكومة جلالة ملك بريطانيا .

ملك بريطانيا
وامبراطور الهند
جورج الخامس

اطلب كتاب

كتاب المساعي

في مناقب الامام أبي عمرو الأوزاعي

ينشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه
وتصديره بمقدمة عن الامام الأوزاعي وبتراجم العلماء له

الأمير شكيب أرسلان

أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

تاريخ الممالك الاسلامية الهندية

الهندوكيب

يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنى الذى يقول له مؤرخونا محمود بن سبكتكين ، لم يكن أفغانياً بل تركياً ، وبين الجنسين فرق لا يخفى ، لأن الترك تورانيون والأفغان ايرانيون ، وانما يمكن أن يعد أفغانياً باعتبار مملكته لأنه أسس ملكه فى غزنة من بلاد الأفغان ، وأصل هذه القضية أن جد محمود ، وهو المسمى آلب تكين ، وهو بطل تركى ، كان شأنه الغزو والقتال وكان فى خدمة الملوك السامانيين الفرس الذين تولوا خراسان وما وراء النهر ، فخلت وحشة أوجبت انفصاله عنهم ، فقدم الى مدينة غزنة وهى من أحسن مدن العالم موقعاً ، عدا ما لها من الأسوار ، وفيها من الحصون ، وحوها من الخنادق ، وتبوأها نحو سنة ٩٦٢ وتبعه شردمة من أحلاس الخيل ومغاوير الحروب ، بمن جاءوا معه مما وراء النهر ، فكانوا نواة جيشه ثم انضم اليهم جند وافر من الأفغان الذين يشبهون الترك كثيراً فى الغرام بالقتال ، فانبسط بهم مملكة البتكين ، ثم مملكة ولده سبتكين الذى خلفه (٩٧٦) وفتح كابول التى هى مفتاح معابر جبال الهندكوش وقندهار قلعة الاسكندر ، وأتم فتح البلاد الأفغانية واستظهر على مغازيه بهذا الشعب الأفغانى الباسل الذى لم يخضع لشعب فى العالم . وساعد على اتحاد الأتراك والأفغان كون الفريقين على عقيدة السنة والجماعة ، حال كون الفرس شيعة متعصبين . ثم انه فى سنة ٩٩٧ أقطع السامانيون سبكتكين بلاد ما وراء النهر ، مكافأة له على نجده إياهم فى ثورة ثارت عليهم فى بلادهم ، فقوى سلطان سبكتكين وطمع فى غزو الهند مطمح نظره ، وشن الغارات على البنجاب مقدمة الهند ، وما زال يتحرش بالهند حتى احتشدت راجوات لاهور ، ودلهى ، واجير ، وقنوج ، وكالنجار ، ومشت صوب الأفغان بجميع أفيالها و ١٠٠ ألف من فرسائها ، فنصر الله سبكتكين ومزق الهنود شرمزق ، ولم يكن للهنود أن يملكوا نظام الترك فى الحروب

والترك هم الذين ألف على مزاياهم العسكرية الامام الجاحظ شيخ كتاب العرب كتابه المسمى « فضائل الاتراك » في أيام المأمون ولا أن يقاوموا الافغان وهم هم الذين لم يوجد قوم مثلهم للحرب والضرب، ثم خلف سبكتكين ولده محمود المعود من أشهر أبطال الاسلام وهو الفاتح الأعظم للهند .

وبدأ غزواته بفتح الملتان سنة ١٠٠٥ مسيحية ، وأراد أن يوغل في الهند فشد راجا لاهور عليه جميع عساكر الهند ، متحداً مع راجوات دلهي واجير وقنوج وكفاليور وكاليجار واوجاين ، فقام العالم البرهمي من أوله الى آخره ، وانتظرهم محمود في سهل « باتنداه » ودارت رحى الحرب ففضى الله بكسر الهنود بالرغم من تفوقهم في العدد ، وفرت أفيالهم لاتلوى على شيء ، وغنم محمود بعد هذه المعركة مالا يحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ونهب هيكل « ناغاركوت » (١٠٠٩) سنة ١٠١٤ فتح بلاد دواب سنة ١٠١٩ فتح قنوج وطرده أميرها ووضع مكانه أميراً تابعاً له . سنة ١٠٢١ فتح كشمير ، ومازال يوالى مغازيه ويلقى الرعب في قلوب الهنود الى أن تألب عليه ملوك البراهمة مرة أخرى سنة ١٠٢٤ فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل لاهور وخلع سلطانها سقبال بن دانتقبال ، وضم جميع البنجاب الى سلطنته فكانت المحطة الأولى من طريق الاسلام الى الهند . ثم هاجم كاليجارا وكفاليور فالتمز ملوكها أن يؤدوا له الجزية . وقال في صبح الأعشى : انه فتح بهاضية سنة ٣٩٦ وسار الى بيده ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة بكاليجار فحاصره فيها حتى صالحه على مال فأخذ المال وألبسه خلعتة ، واستعفى من شد وسطه بالمنطقة فلم يعفه من ذلك فشدها على كره . سنة ١٠٢٥ مسيحية غزا ساحل الكوجرات وهدم صنم سومنات الشهير . وبهذه الفتوحات كلها التي فتحت للاسلام أبواب الهند أطلق عليه الخليفة العباسي القادر بالله لقب سلطان وسماه يمين الدولة ويمين الملة . قال بعض مؤرخي الافرنجة ان محموداً كان اسكندر الاسلام ، فانه فتح الهند كما فتحها اسكندر ، الا ان فتوحات اسكندر ذهبت بذهابه أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت الى اليوم . وكان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد فيه ، وقلع عبادة الأصنام منه ، الا انه مع هذا الفوز المعنوي فاز بغنائم من الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل في حوزة أحد من قبله .

ويعترف مؤرخو الافرنجة بأن محمود الغزني لم يكن فاتحاً غازياً عالي المكانة من الجهة العسكرية فقط ، بل انه كان سلطاناً عاقلاً أديباً كيساً ، ناظماً بين حاشيتي المادة والمعنى ، جامعاً بين دولتي السيف والقلم ، ويعلمون ذلك بأن بفتح العراق العجمي واستيلائه على اصبهان والرى التي انتزعها من بني بويه ، وعلى نيسابور وطوس وهراة ، فضلاً عما كان بيده من ملك خراسان وأفغانستان ، قد قام بتمثيل دور مدني يليق بملوك العجم ، وأنه أعطى أبهة الملك حقها ، وفي زمانه حصلت نهضة فارس العقلية وصارت غزنة هذه التي كانت عبارة عن قلعة حربية ، مركزاً للعلم والعرفان ومشرقاً لأشعة الحكمة والآداب ، وامتلاّت مدارس وجوامع ومكاتب ، واليها شدت رحالها الحكماء والعلماء والشعراء ، ان لم يكن منهم الا الفيلسوف الأعظم أبو نصر الفارابي ، والشاعر الأكبر هوميروس العجم الفردوسي لكثي . وقد كان السلطان محمود هو المقترح على الفردوسي نظم الشاهنامه ووعده بأن يكافئه على كل دو بيت (بيتين) بقطعة من الذهب ، الا أن ذلك أثار حسد الحساد ، فوشوا به الى السلطان فبدل له الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسي وفر خفية بعد أن فرق الفضة على عبيده وهجا السلطان هجواً مرأاً . وذهب الى بغداد ثم الى شيراز ، وكان محمود قد أرسل في أثره من يستعطفه ويبين له ندم السلطان على ما فرط منه فكان الفردوسي قدمات . ولزم باب الغزني من شعراء الفرس أيضاً العنصرى والفروخلى والاسجودى ، وكان هناك العلامة الكبير أبو الريحان البيروني صاحب الجغرافية ، وفي أيامه نبغ الكاتبان الأعظمان فرقدأ سماء البلاغة أبو الفضل بديع الزمان الهمداني ، وأبو بكر الخوارزمي ، وكان الهمداني عامل السلطان على هراة . ومن الذين اشتهروا في ذلك الدور ، وكان اليد اليمنى لابن سبكتكين في المآثر والمبار والمفاخر الكبير ، وزيره الماياندى . وقد ألف الكاتب العتي تاريخاً خاصاً بمحمود بن سبكتكين ، كما انه مترجم في تآليف كثيرة من أشهرها وفيات الأعيان لابن خلكان

وخلف محموداً الغزني بعد وفاته ابنه مسعود (١٠٣٠ الى ١٠٤٠) وفتح من الهند بلاد الأوض ودخل بنارس . وورد في صبح الأعشى ان ابراهيم بن مسعود فتح أيضاً حصوناً كثيرة في سنة احدى وخسين وأربعمائة .

وسنة وفاة محمود على مافي صبح الأعشى بالتاريخ الهجرى هي ٤١١ قال : وملك بعده ابنه محمد بن محمود بعهد من أبيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه أخاه مسعود بن محمود

وملكوه عليهم وبقى حتى قتل في سنة ٤٣٢ ثم ملك بعده أخوه محمد المقدم ذكره وقتل في عامه ، وملك بعده ابن أخيه مودود بن مسعود وتوفي سنة ٤٤١ وملك بعده عمه عبدالرشيد ابن محمود وقتل سنة ٤٤٤ وملك بعده فرخزاد بن مسعود بن محمود وتوفي سنة ٤٥١ وملك بعده أخوه الملك المؤيد ابراهيم بن مسعود (السابق ذكره في الفتوحات) وتوفي سنة ٤٨١ وملك بعده ابنه مسعود بن ابراهيم وتوفي سنة ٥٠٨ وملك بعده ارسلان شاه بن مسعود ثم ملك بعده بهرام شاه بن مسعود ، وملك بعده ابنه خسرو شاه بن بهرام وتوفي سنة ٥٥٥ وملك بعده ابنه ملكشاه بن خسرو شاه بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سبكتكين . ثم انتقل الملك الى الغورية . انتهى

وبعد وفاة محمود بن سبكتكين ظهرت الأتراك السلجوقية على خراسان وانتقصوا ملك أبناء سبكتكين ، فانتقلوا من غزنة الى لاهور في الهند وما زالت أمورهم في انحطاط الى أن غلب على ملكهم الغوريون الافغان ، والله وارث الارض ومن عليها . وهؤلاء الغوريون هم أمراء فيروزكوه أو يروزكوه وهي قاعدة بلاد الغور على مافي كتاب « تقويم البلدان » والغور (بضم المعجمة) - على مافي (اللباب) - هي بلاد في الجبال بقرب هراة . وقال في « المشترك » : ان يروزكوه هي دار مملكة جبال الغور وهي قلعة حصينة وبها كان مستقراً بنو سام خان ملوك الغور . « وقال في معجم البلدان » : « بناها بنو سام ملوك الغورية . وقال في صبح الأعشى : وبلاد الغور وغزنة وما والاها وان عدها في « مسالك الأمصار » من مملكة التورانيين فانها ليست من أصل مملكة توران وانما تغلب عليها ملوكها من مملكة ايران فلذلك أثبتتها في مملكة ايران » . انتهى وقال في « المشترك » ، ومعنى يروزكوه الجبل الأزرق .

وأول من ملك من الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين ، ملك عند انقراض الدولة الغزنية واستضاف غزنة وما جاورها الى الغور سنة ٥٥٥ ولقب بالملك المعظم . وملك بعده غياث الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين ، ثم ملك أخوه شهاب الدين وفي أيام هذا ، أي في عهد الستمائة للهجرة ، كان الامام حجة الاسلام نخر الدين الرازي ، وكان يذهب الى هذا السلطان ويعظه . وملك بعده علاء الدين محمد بن محمد بن مسعود بن الحسين أما الفاتح الأعظم من هؤلاء والذي مكانه في التاريخ العام عين مكان ابن سبكتكين

فهو السلطان محمد أبو المظفر بن الحسين الغورى .

وقال « رينه غروسه » صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من التواريخ :
 « ان الغوريين استولوا على جميع ما كان يملكه الغزنيون ، ومن ثمة كان بدهياً أن يجروا
 على أثرهم فى غزو الهند . فبعد أن أزال محمد الغورى ملك آل سبكتكين ، زحف نحو
 الهند فجمع له ملوك البراهمة ثلاثمائة ألف فارس ، وثلاثة آلاف فيل ، فزق شملها ودخل الهند
 وكانت معركة فاصلة وفتحاً قلّ أن انسق مثله للاسلام (١١٩٣ مسيحية) ضمن للاسلام
 بعدها سلطنة الهند مدة خمسة قرون متوالية ، وأدال الله لمحمد ﷺ من براهما . فدخل
 محمد دلهى وميرات وآغرا واستضافها الى ملكه رأساً . وفى السنة التالية فتح قنوج
 (١١٩٤) ومملوكة ايبك فتح بنارس و بلاد أوض ، وسنة ١١٩٦ ضرب الجزية على مملكة
 كفالپور ، وسنة ١١٩٧ استلحق بلاد كوجرات ، وسنة ١٢٠٢ خلع راجا كاليجار
 واستضاف الى المملكة الغورية بلاد بوندكهاندا . وان أحد رفاق ايبك بختيار قلجى
 الافغانى انتزع من يد دولة « ماغدها » البوذية بلاد بهار والبنغال سنة ١٢٠٢ » انتهى
 قول غروسه ملخصاً .

وقال فى صبح الأعشى : فتح أبو المظفر محمد بن الحسين الغورى مدينة لاهور (أى
 لاهور) سنة ٥٤٧ (وابن الاثير يقول ٥٧٩ وهو أصح لأن ذلك فى زمان ابن الاثير)
 واتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، وبلغ من السكايه فى ملوكهم ما لم يبلغه أحد من ملوك
 الاسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند وأقطع مملوكة قطب الدين ايبك مدينة دلهى (يقال
 دلهى ودلهى ودلى) التى هى قاعدة الهند . وبعث ايبك عساكره فملك من الهند أما كن
 مادخلها مسلم قبله حتى قارت بجهة الصين . ثم قال : ثم فتح سنة ٥٩٧ نهر واله . وتوالت
 ملوك الاسلام وفتوحاتهم فى الهند الى أن كان محمد بن طغلقشاه فى زمن الملك الناصر محمد بن
 قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوى سلطانه بالهند وكثرت عساكره وأخذ فى الفتوح
 حتى فتح معظم الهند . انتهى

قال غروسه ان محمود الغورى أسس ملكاً عظيماً ثابتاً وطيداً ، تعاقبت عليه الدول
 الاسلامية التى جاءت بعده من ترك وافغان وطاغلاقيين وسادات ولوديين وتيموريين ،
 وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة وحق الاسلام فى السلطنة العامة على الهند مما بقى الى

زمان استيلاء البريطانيين . وهو الذى نقل كرسى السلطنة من لاهور الى دلهى لأن لاهور لا تضمن الاملك البنجاب ، حال ككون دلهى تدعو الى ملك جميع سهول القنچ وأقاليم الدكان ، ولما كان الغزنيون فى لاهور لم يكونوا الا نظير راجاوات فى أحد أقاليم الهند أما الغوريون فى دلهى ومن ورثهم من آل طاغلق وآل السيد وسلالة تيمور فكانوا بالفعل سلاطين الهند بأسرها .

ثم قال ما محصله : ان امبراطورية الغوريين كانت لم تزل قائمة بالسيف ، وكان الهنود الوطنيون غير طائعين الا بسبب توالى الزخوف من الشمال ، وكان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهد كثير من الممالك . وكان شأن هؤلاء الممالك فى الهند شأنهم بمصر حذو القذة بالقذة . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة اندمجوا فى الجيش فامتازوا بالبسالة والاقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة الى درجة الى أن ينال الامارة وأحياناً السلطنة كما كان يقع بمصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون ابقاء المآثر والطمع فى تخليد الذكر ، فكما ان سلاطين الممالك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك سلاطين الممالك بالهند كانوا على هذه الطريقة ، فالسلطان المملوك فى الاصل ايبك الذى خلف محمد الغورى ، بنى فى دلهى الجامع المسمى « جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » وبنى فى اجير الجامع المنسوب اليه . وكما هو الشأن فى دول الممالك قلما كان يتولى الابن مكان أبيه بل كان يغلب على الملك مملوك آخر يكون أوفر حزمًا ، وأشد عزمًا من الولد الذى كان يجب أن يرث أباه ، لهذا لما مات ايبك تغلب على سلطنة الهند مملوك تركى اسمه التامش (١٢١١ - ١٢٣٦) فكان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة وأكمل فتح الهند الشمالية بأخذ بلاد المالفاء . وأعلى من هذا كله انه حفظ الهند من جائحة المغول ، لانه فى زمان التامش هذا زحف الجنكيزيون على ايران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الامير جلال الدين مانكبرى الخوارزمى شريداً ملتجئاً الى التامش ، فكان من حسن تدبير هذا انه رد غارة المغول على البنجاب ولسكنه لم يتهور فى اصراخ جلال الدين الى محاولة اعادة ملكه له وشن الغارة على المغول ، مما لم تكن تؤمن عاقبته . الا أن المغول كروا أيضاً على البنجاب بعد موت التامش فردهم مملوك تركى آخر كان التامش رقاؤه تدريجاً الى امارة الجيش اسمه « بالبان » حفظ بالبان الهند من غارة

المغول فكافأته الامة بأن رفته الى السلطنة (١٢٦٦ - ١٢٨٧) .

وسنة ١٢٩٠ مسيحية انتقلت سلطنة الهند من أيدي المماليك الى آل قيلجى الافغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان علاء الدين الذى كسب المسلمين فتوحات جديدة فاخضع بهوبال واجتاح بلاد المهرات (فى بلاد بمباى الحاضرة) وضرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدناً وقفل بغنائم كثيرة . وعام ١٢٩٧ زحف ١٠٠ الف مغولى مما وراء النهر يقودهم امير من ذرية جنكيز قاصدين البنجاب فالتقاهم علاء الدين وهزمهم شر هزيمة بقرب لاهور فعادوا سنة ١٣٠٥ وتقدموا نحو دهلى فكسرهم علاء الدين كسرة اشنع من الأولى ، واسر منهم جانباً رماهم تحت ارجل القبيلة فداستهم . ثم عاد علاء الدين الى اتمام فتح الهند الوسطى ، فاستولى على مملكة كوجرات ، ثم غزا مملكة تشيتور ، وبعد حرب ضروس التجأ ملكها الى جبال آرافالى ، فلم يرجع علاء الدين عنه الا بعد أن أقر له بالطاعة . وسنة ١٣٠٨ سير علاء الدين أحد قواده الملك كافور لغزو مملكة دكان ، وامتنع راجا مملكة المهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده وغزا مملكة تليانغانا وفتح عنوة عاصمتها فارانغال ، واستولى على خزائن ملكها . وسنة ١٣١٠ غزا مملكة مايسور واجتاح مدينة هاليبيد العظيمة . ثم فى اثناء ايابه الى دهلى قتل راجا المهرات الذى عاود العصيان ، وضم المهرات الى سلطنة دهلى . اما فتح الدكان فلم يتيسر لا للاسكندر ولا لمحمود الغزنى ولا لمحمد الغورى وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل الى بلاد الدكان فى غزواته .

الا انه فى عام ١٣٢١ تنزى على سلطنة دهلى بنو طغلق الاترك ، وازالوا الدولة الافغانية من هناك ، وظهر من بنى طغلق هؤلاء سلطان اسمه محمد اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معاً ، فانتبذ كل امير فى مملكة واعلن انفصاله عن سلطنة دهلى . فلك فى الدكان ، وملك فى مالفا ، وملك فى البنغال وملك فى كوجرات ، وملك فى أوض . وكلهم اصبحوا مستقلين بانفسهم ولم يبق بيد حكومة دهلى سوى دواب والبنجاب ، وهذه أيضاً تعرضت لفادحة كبرى وهى غارة المغول . انتهى .

قال فى صبح الاعشى . ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكة سلطان من اقرار به اسمه فيروزشاه وبقى فى الملك نحو اربعين سنة ثم تنقلت المملكة فى يديهم الى ان كان من تمرلنك ماكان من فتح دهلى ونهبها . انتهى .

فان المغول كانوا قصدوا الهند مراراً وصدتهم الهند وانكفأوا عنها خاسرين، الا انهم لما دخلوا في الاسلام ، وتوطد ملكهم في فارس والعراق وافغانستان ، و بعد ان كانوا اعداء الاسلام صاروا حانه - ولولا ذلك مارسخت قدمهم في هذه البلدان خلافا لما يظن بعضهم - جددوا العزم على غزو الهند اقتفاء لآثر غيرهم ممن ملكوا أفغانستان كالغزنين والغوريين وفي سنة ١٣٩٨ مسيحية زحف تمرنك بعساكر جرارة على الهند ، فدخل البنجاب ، وصمد الى دهلي فالتقاء سلطانها محمود الثالث في بانيبات ، فدارت الدائرة على محمود ، ودخل تمرنك دهلي ظافراً فاتحاً ، وأعلن نفسه سلطاناً على الهند كلها في الجامع الأعظم ، ولكنه استبقى سلاطين دهلي الأصليين بصفة تبع له ، فسقطت مكانتهم وصاروا كسائر ملوك الهند . فصارت ممالك الهند الاسلامية هي سلطنة دهلي ومملكة الدكان ومملكة البنغالة ومملكة جاوونبور ومملكة مالفا ومملكة كوجرات . أما مملكة البنغالة فأسسها بختيار قيلجى الافغانى على انقاض دولة «ماغادها» البوذية وبقي كيانها محفوظاً مع تعاقب الدول الافغانية والتركية والمغولية على الهند الى أواسط القرن السادس عشر للمسيح . وأما مملكة جاوونبور فقد انشأها احد وزراء محمود الثالث سلطان دهلي في أثناء غزوة تمرنك ، وكان لها بلاد أوض وولاية بنارس ، وقد تركت مآثر باهرة مثل جامع « اتالا » المبنى سنة ١٤٠٨ والمسجد الاعظم المبنى سنة ١٤٥٠ ولكن لم يطل عمر هذه الدولة ، اذ كان تأسيسها سنة ١٣٩٤ وانقراضها سنة ١٤٧٧ بحرب وقعت مع سلطنة دهلي التي استلحققتها رأساً . وأما مملكة مالفا التي قاعدتها مدينة ماندو ، فقد وضع أساسها رجل افغانى كان والياً هناك سنة ١٤٠١ في خلال غارة المغول ، فعاشت الى سنة ١٥٣٤ اذ استولى عليها ملك كوجرات . وأما مملكة كوجرات وعاصمتها أجد آباد فقد أسسها أيضاً واليها في تضاعيف زحفة تمرنك . وفي الربع الأول من القرن السادس عشر كان قد وصل البرتغاليون الى الهند بعد أن اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، فحاولوا النزول بكونكان فاستصرخ ملوك كوجرات الاتراك العثمانيين سنة ١٥٠٨ فأرسلوا اسطولهم لينضم الى اسطول كوجرات في حرب البرتغال ، فكانت الغلبة للاميرال البرتغالى « فرانسز كودالمايده » ونزل البرتغاليون بساحل ديو سنة ١٥١٣ . وأعظم مملكة انشقت عن امبراطورية دهلي هي الدكان ، أسسها الباهمانيون وهم افغان ، وكانت قاعدتها « كولبارغه » بقرب حيدرآباد ، وتشتمل على

ملك نظام حيدر آباد الحالى مضافاً اليه برار وبلاد المهرات . وكان بجانبها مملكتان هنديةتان قويتان احدهما «فارانغال» والثانية «فيجاياناغار» الى الطرف الجنوبي من الدكان . فكانت سلطنة الدكان عبارة عن جهاد دائم مع هاتين المملكتين . وسنة ١٤٢٤ افتتح أحمد الأول الباهماني صاحب الدكان فارانغال ودمرها تدميراً . وكان معظم شوكة الباهمانيين في زمان محمد الثاني (١٤٦٣ - ١٤٨٢) بهمة وزيره محمود قاوان الذي افتتح بلد «غوا» من مملكة فيجاياناغار وسواحل سيركار من ملك راجا أوريسا . وفي أيامه امتدت سلطة الدكان من خليج البنغالة الى بحر عمان . ولكن بعد موت محمد الثاني الباهماني تقسمت هذه السلطنة أيدي سبا ، فتشعبت منها خمس دول مستقلة كل عن الأخرى : الأولى دولة باريدشاه في بيدار (١٤٩٠ - ١٦٥٧) وأصل ملوكها كرج . الثانية دولة عماد شاه في يرار (١٤٨٤ - ١٥٧٢) أصلهم هنود وأسلموا . الثالثة دولة نظام شاه في أحمد ناغار (١٤٩٦ - ١٦٠٠) وهذه أيضاً أصل مؤسسها من الهنود المهتدين . الرابعة دولة قطب شاه في غولكوند (١٥١٢ - ١٦٨٧) وهذه أصلها فارسي . الخامسة دولة عادل شاه في بيجابور (١٤٨٩ - ١٦٨٦) ويقال ان مؤسسها يوسف عادل كان من أولاد السلطان مراد الثاني العثماني ، ساقته الأقدار بعد اقامة طويلة بفارس الى بلاد الهند حيث استقل بامارة بيجابور وكان متعصباً للفرس وللشيعة بخلاف أهله آل عثمان . فنشر الأدب الفارسي في مملكته وجعل التشيع دين الدولة الرسمي وخلفه ولده اسماعيل فاحتدى على مثاله .

ومما لا يخفى على الناقد البصير ان خمس دول كهذه ، متشعبة من مملكة واحدة أشبه بملوك الطوائف بالاندلس ، أو ملوك مصر والشام بعد صلاح الدين ، أو ملوك ايطالية قبل وحدتها الأخيرة الخ كان بعضها مع بعض في نزاع مستمر ، والحروب بينهم لانكاد تنقطع . فكانت الفائدة من ذلك لجيرانهم الهندوس ، وتقوى بخلافهم راجا «فيجاياناغار» واشتدت جراته مرة الى أن اجتاحت مملكة أحمد ناغار بحجة الصريح لمملكة بيجابور . فغلبت على الملكين المتنازعين حية الاسلام وتصالحا وانضم اليهما ملكا بيدار ، وغولكوند ، وزحف الأربعة على فيجاياناغار ، ونعشوا هذه المملكة العظيمة ، وقتلوا الراجا في واقعة تاليكوت ، وأتوا على عاصمته من القواعد (١٥٦٥) . قال المؤرخ رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من منابع التاريخ وعليه اعتمدنا في أكثر هذا النقل : ان الجهاد

الاسلامى الذى بدأه محمود الغزنى فى نحو سنة ألف للمسيح فى الهند ، انتهى فى أواخر القرن السادس عشر على حدود مايسور ، ولمع الھلال من ثلوج جلايا الى ساحل كرنات .

ونعود الى سلطنة المغول فى دھلى ، فنقول ان أحد احفاد تمولنك الشھير واسمه بابر ولقبه ظھير الدين محمد ، قد انتھز فرصة بعض الحوادث التى وقعت بدھلى ، فزحف من كابل ، حيث كان أميراً الى عاصمة الهند . وكان بابر هذا ابن المسمى عمر الشیخ ملك فرغانة ، وبذلك ابن حفید میرانشاه ثالث أولاد تیمورلنك وكانت أمه الأميرة قوتلق نىغار آخر من بقى من سلالة جغتای الجنكيزية ، كما أنه ينتسب الى جنكيز فاتح الدنيا من جهة الأب أيضاً . ومعلوم ان الانتساب الى جنكيز هو فى العالم الطوراني أقصى ماتخيله الامانى لملك أو سلطان أو أمير أو خان من الخانات ، كما هو الشأن عند العرب فى الانتساب الى آل البيت . بل كل منسوب فى المغول أو الترك الى جنكيز أو تیمور يرى لنفسه حقاً شرعياً فى الملك . فكان بابر من ورثة ذلك الحق الشرعى والمجد الاثىل . وبعد وفاة والده سنة ١٤٩٤ (٥ رمضان ٨٩٩) آل اليه ملك فرغانة وكان عمره ١٢ سنة ، وسنة ١٤٩٧ ضم اليه مملكة ماوراء النھر ، ولكن غلب عليه محمد الشيبانى خان الاوزبك مؤسس الدولة الشيبانية فى بخارى ، فانھزم الى افغانستان يحاول ملكاً أو يموت فيعذر . فوفق الى امارة كابل سنة ١٥٠٤ واستولى على قندهار سنة ١٥٠٧ وكان نظير محمود بن سبكتكين قد تبعه جماعة من الأتراك من مساعير الحروب ، واعصوب حوله فئام من الافغان الذين أحلى شئء عندهم القتال والنزال ، فاول شئء كان يخطر ببال مثل هؤلاء وهم فى كابل وقندهار ، هبوط الهند كما هبطها من قبلهم محمود الغزنى ومحمد الغورى . وبينما هم يحفزون بابر على هذه الغزاة التى وراءها الصيت البعيد وخزائن الهند ، اذلاحت لذلك الغرة فان السلطان ابراهيم الثانى صاحب دھلى وهو من السلاطين اللوديين من سلالة افغانية كان اختلف مع عمه اعلم فالتجأ هذا الى كابل ، وبهذا تسنى لبابر أن يشن الغارة على البنجاب (١٥٢٥) بجيش لايتجاوز ١٣ ألف مقاتل لكنهم جميعاً من المنجذنين فى الحروب ذوى البصائر فى القتال ، وقد جر بابر معه المدافع التى لم تكن معروفة يومئذ فى الهند ، فنهد اليه السلطان ابراهيم بمائة ألف مقاتل وألف فيل ، ودارت زحى الحرب فى سهل بانيبات فى ٢١ ابريل (نيسان) عام ١٥٢٦ أو نهار الجمعة ٨ رجب سنة ٩٣٢ فاقام بابر فى وجه الفيلة

حواجز من العجلات المسلسلة بينها المدافع ، بحيث أبطل عمل الأفيال ومن الجهة الأخرى كان عنده رماة بالمدافع يتفنون الرمي على نمط العثمانيين في القرن السادس عشر . فالقت قذائفهم الرغب في قلوب الهنود فهلك ابراهيم في الواقعة وهلك معه ٢٥ ألفاً من جنوده وتشتت الباقي . ودخل بابر دلهي ظافراً ونودي به ملك ملوك الهند في جامع دلهي الأعظم ، وسار ولده همايون فاحتل آغرا العاصمة الثانية وغيرها من الحواضر . فقامت قيامة الهند لهذه الواقعة ، وأخذ راجوات الهندوس يتأهبون للقتال بدعوة رانا (لقب أكبر من راجا) سانغا ملك تشيتور فحشد معه راجا مارفار ، وراجا أمبر ، وراجا أجير ، وراجا كفالپور ، وراجا تشنديرى ، وانضم اليهم محمود اللودى أخو السلطان المقتول فبلغت جيوش الحلفاء مائة ألف مقاتل من أفرس خيالة الشرق والتقى الجمعان في سهل كانفاها على مقربة من آغرا ، فاتتهت المعركة بدبرة الهنود ، وكانت الكلمة للدفع كما في المعركة السابقة فات رانا تشيتور غمماً . وزحف بابر يستصفي الممالك فحصر قلعة تشنديرى ، وضيق عليها ، فلما أيقن أهلها بقرب سقوطها كان منهم أن ذبحوا نساءهم وأولادهم أولاً ، ثم قتل بعضهم بعضاً ، بحيث عند مادخلها بابر (سنة ١٥٢٨) لم يجد الاجثا وأشلاء . أما السلطان محمود اللودى فكان لايزال في مملكة أوض فقصده بابر فانهزم الى البنغالة ، فاتصر له ملك البنغالة وهو أفغانى مثله فتغلب عليه بابر وأجبره على الدخول في طاعته . وهكذا بقى بابر خمسة أعوام يجالذ ويجهاد حتى دوخ الهند وأسس فيها السلطنة المغولية التي استمرت قرنين في الهند وكان لها تاريخ طويل عريض .

ومات بابر (سنة ١٥٣٠) بعد أن أبقى ذكراً خالداً ولم يكن بابر سلطاناً فاتحاً فقط ، بل كان على طراز كثير من سلاطين آل عثمان محمد الفاتح أو سليم وأحمد يجمع بين السيف والقلم ولا يكتفى بالحكم دون الحكم . فكان فيه صلابة أجداده الجنكيزيين ، وغرام الترك بالفتوح ، ودمائة أخلاق الفرس وشغفهم بالآداب ، وبالجملة فقد جمع بين شدة البأس ورقة الأدب ، وحرر خاطراته بقامه فكان لها شهرة عظيمة وترجت الى اللغات الأوروية فقال فيها رنان الفيلسوف الفرنسى ما يأتى :

« ان هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق في الرواية ، وعند ما يفكر الانسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان السليق هو مؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لا يعود قادراً

على ترك الكتاب من يده ، لأنه يحس بذلك تلك الحالة النفسية التي كانت تجيش بتلك السلائل التتيرية المالكة التي ملأت آسيا وقائعها منذ القرون الوسطى الى أيامنا هذه . فتجد في تلك الأسطر كلاماً معقولاً مع اصالة الرأي ، ورقة الطبع ، وشدة الجلد بدون تعصب ديني ، ومع عدم اهتمام زائد بالاسلام (مما لا يصح أن ينسأه القارئ أن من الصفات التي تتراح اليها نفس أكثر الأوربيين هو أن يروا الملك المسلم غير شديد التمسك بدينه هذا هو مقياس الحب عندهم) الا في أحيان يظهر عليه فيها أثر التدين . وبالاجال يتجلى من كلامه حرية الفكر ، والدهاء ، والعدل ، وعدم الانقياد للأوهام ، مما لا تجده في فاتح آخر من الفاتحين المسلمين ، فكان أول أولئك السلاطين الحكماء الذين لمع ملكهم كثيراً في الهند بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر » انتهى كلام رنان .

وكان من حفاظ شعر عمر الخيام ، والحافظ الشيرازي ، وكان هو بنفسه شاعراً فمن

يقوله :

« ما لطف دخول النيروز وما أظلى كأس الطلاء ولكن أحلى منهما نعمة الحب » .

وفي دائرة المعارف الإسلامية : أن شجاعة بابر واقدمه كانا فوق وصف الواسفين ، وانه لما فتح سمرقند ثانی مرة تسلى السور بمائتين وأربعين رجلاً لا غير وقطع الهندكوش في وسط الشتاء وهو أمر خارق العادة . وكان شاعراً له ديوان بالتركي ، وكتب خاطرات حياته « بابرنامه » وقد طبعت هذه في قازان سنة ١٨٥٧ وترجمها الى الفارسي عبدالرحيم ميرزا خان ومن النسخة الفارسية نقلت الى اللغات الأوروبية .

ولما استقر همايون بن بابر على كرسى السلطنة صمد الى محمود اللودي الأفغاني صاحب اوضاع فقهره في معركة لوكنو (١٥٣١) ولكنه عجز عن قهر أمير أفغاني آخر كان في قلعة تشونار كما على ولاية بنارس ، فترك حصار هذه القلعة وانقلب على عقبيه قاصداً قتال بهادر شاه ملك كوجرات ومالفا . فبينما هو في هذه العزيمة اذ بلغه أن صاحب قلعة تشونار هذا ، وكان اسمه شيرخان ، قد استولى على البنغالة وعلى بهار وأوض وصار ذا دولة ووصولة ، يقدر فيها أن يجاذب الدولة التيمورية بحبل . فأخذ السير إلى البنغالة ، وهزم شير خان وتراجع الى مكانه ، لكن شيرخان عاد فاسترد جميع المدن التي كان أخلاها ، فعاد همايون اليه وانتصب الميزان بينهما في بوكسار على القنج شرقي بنارس ، فانكسر همايون

(١٥٣٥) ثم جدد الحملة على شير خان سنة ١٥٤٠ فالتقى في قنوج فانهزم ثانية ، وخسر مدافعه ورجاله وكنوزه وفر من الهند شريداً قاصداً جبال افغانستان التي انحدر منها أبوه قبل هذه الواقعة بثلاث عشرة سنة حاول هناك أن يملك كما كان أولاً ، فاذا باخوته يأبون النزول له عن شيء ، ف وقعت بينه وبينهم وقائع اضطر أن يلتجئ بسببها الى شاه العجم فسير الشاه معه جيشاً أعانه على فتح قندهار (١٥٤٥) وفتح كابول (١٥٥٠) .

أما شير خان الأفغاني فدخل دلهي وآغرا ، واستصفي ملك بابر وأعاد الدولة الأفغانية الهندية ، واستوسق له الأمر الى أن مات (١٥٤٥) فوقع النزاع بين أولاده وأخذ كل يجذب الحبل من جهة ، فرأى همايون صيده سانحاً وحشد ١٥ ألف فارس وهبط بها البنجاب . وكان خليفة شيرخان في دلهي هو اسكندر شاه ، فصمد اليه بثمانين ألف مقاتل وبضع مئات من الفيلة ، فكان اللقاء في سهل سير هند ، بين دلهي ولاهور ، وقضى الله بالنصر لهمايون (١٥٥٥) ودخل دلهي مسترجعاً ملكه الذي كان فقده قبل ذلك العهد بثلاث عشرة سنة ثم بعد ظفره هذا لم يلبث أن مات ، فدفن بالقبة التي كان بناها لنفسه في دلهي ، والتي تعد من أعاجيب الدنيا ، وخلف همايون ولده أكبر أبو الفتح جلال الدين محمد وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من العمر ، ولكنه كان قد نبغ قبل بلوغ أشده وكان مولده في السند في ١٥ اكتوبر سنة ١٥٤٢ وتويعه في البنجاب سنة ١٦٥٦ ووفقه الله بوزير محرب اسمه بيرم وكان الأفغان لم يفقدوا في الهند جميع ملكهم بل كان باقياً بأيديهم نصيب صالح مثل أوض وبهار والبنغالة وكان لدى ملكهم محمد عادل قائد فائق الأقران اسمه هيمو . ففي سنة ١٥٥٦ تمكن هيمو هذا من استرداد دلهي ، ومطاردة أكبر الى البنجاب . وكان مع هيمو مائة ألف فارس وخمسمائة فيل ، على حين لم يكن بقي مع أكبر ووزيره بيرم الا ٢٠ ألف مقاتل فالتقى الجمعان في سهل « بانيبات » الذي اشتهر بعدة معارك فاصلة . فكان من مساعدة القدر لا أكبر أن وقع هيمو صريعاً ، فوقع الرعب في قلوب رجاله التي كانت تتقوى بشخصه ولولا الأدبار على حين كان المظنون ان الدائرة ستدور على أكبر . فعاد هذا الى بلاد « دواب » ودخل دلهي ثم والى الهزائم على الأفغان ، فانتزع من أيديهم أوض وبهار ، وحمل الملك الأفغاني صاحب البنغالة على طاعته . ولكن بقى عليه تدويح راجاوات الهندوس الاباة للظيم المعروفين بالشهم العظيم . وكان الفاتحون المسلمون طالما هزموا ملوك الهند ، وضربوا اعليهم

الجزى ، ولكن لم يقدر وا في وقت من الأوقات على ملاشاتهم ، ولا على كسب قلوبهم . ففكر اكبر في اتقاء خطر هؤلاء القوم باستصلاح قلوبهم ونيل مودتهم ، وحل من يعاند منهم على السيف . جرت بينه وبينهم وقائع استولى بعدها على جفاليور (١٥٥٨) وعلى اجير (١٥٦٠) وهاجم سنة ١٥٦٧ رانا ميفار واسطة عقد الراجاوات ، فانهمزم الرانا الى جبال « آرافالى » تاركا الدفاع عن عاصمته تشيتور لقائد بطل من قواده اسمه « جاى مال » وجاء اكبر بنفسه يضيق الخناق بالمدينة فسدهه الله الى سهم رماه هو بيده من جعبته فأصاب من نفس جاى مال مقتلا ، واختلط بعده أمر المحصورين فذبجوا نساءهم وأولادهم بأيديهم ، وجعلوا منهم ركاماً أشعلوا فيه النار ، ثم اصطفوا حول تلك النار وفتحوا أبواب المدينة ينتظرون دخول العدو حتى يبلوا فيه الى آخر نفس من أنفاسهم ، فتذهب أرواحهم غالية وكان اكبر بحكمته أدرك مرادهم فبدلاً من أن يرميهم برجاله ، ويعرض من هؤلاء للقتل أوفياً ساق عليهم أفياله فجعلتهم أشلاء وأجزاء وفتح المدينة (١٥٦٨) . وسنة ١٥٦٩ فتح رانتابور ثم كالنجار . سنة ١٥٧٠ قدم له الطاعة راجا مارفار ثم راجا بيكانير . وبعد ذلك ببضع سنين انتقض راجا مارفار ، فزحفت اليه جيوش دهلې وفتحت قلعة بلاده سيفانا (١٥٧٦) فانضم كثير من الراجاوات الى رانا تشيتور ، وناشبو سلطان دهلې الحرب ولم تبرح نارها متقدمة الى سنة ١٦١٤ إذ قدم « أمرا سينغ » بن « برتاب سينغ » رانا تشيتور الطاعة لسلطان الاسلام فأعيد اليه ملكه . وأعقابه مالكون هناك الى اليوم .

ويقول مؤرخو الهند من الافرنجة ان سلطان دهلې عرف كيف يستولى على راجاوات الهند ويستأسر قلوبهم لأنه كان شهماً وفيها على الجناب ، تام المروءة ، حفيظاً للعهود ، ملاً كاللائقنة بشرف خصاله ونبل فعاله . وكانت هذه البيوتات المملكة فى أمبر ومارفار وبيكانير ، الأمثلة العليا فى النبالة والاصالة وحب المجد ووفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان اكبر ماشاهدوه من المكارم والمعالي ، محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، وبدلوا من دونه أرواحهم ، ووقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم هو لنفسه ، وعول عليهم فى مهماته ، وانتدب منهم للنصاب العلية ، وعمر بهم وبأبنائهم الأبواب السلطانية ورجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم رداءً له فى المواقف لاسيما راجا أمبر المسمى « بيهارى مال » وولده « باخفان داس » وحفيده « مان سينغ » الذى كان أخاً

لا كبر في الرضاع . وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » لا كبر اليد اليمنى في أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنغالة . ولما مات بكاه بكاء الأخ لأخيه . ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار اكبر بزواج بعضهم من بعض . وبدأ في ذلك بنفسه ، فعقد لنفسه نكاح أخت الراجا باخفان داس ، ولولده جهانكير على حفيدته راجا مارفار . وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة في بيكانير واجير . ووشج علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية . فتوطدت دولته وأمن شر العواقب وبسبب راحة فكره من جهة الهنود ، أمكنه أن يستصفي ما كان بقي في الهند من ممالك الاسلام فأرسله كوجرات (١٥٧٣) وضم ملكه الى سلطنة دلهي . واستلحق أيضاً البنغالة (١٥٨٠) وكشمير (١٥٨٦) والسند (١٥٩٢) وكانت الدكان لاتزال مقسمة الى خمس ممالك كما سبق الذكر ، الا أن ملك أجد ناغار فتح مملكة بيدار سنة ١٥٧٢ وضمها الى ملكه ، فنزل عدد تلك الممالك الى أربع ، وصارت مملكة أجد ناغار قوة خطيرة . فاعتزم اكبر فتحها سنة ١٥٩٥ وكان على رأس هذه المملكة ملكة من خوارق الدهر في العزم والحزم والاقدام ، وهي السلطنة « شانده » الملقبة « ببيضاء الدكان » وهي بالفعل بيضة الزمان ، فردته عن مملكتها مكفوحاً وأذهبت جميع جلالاته سدى ولم يقدر اكبر على أجد ناغار الا بعد موت هذه السلطنة القهرمانه فاستلحق مملكة أجد ناغار (١٦٠٠) واضطرب سائر ملوك الدكان خوفاً فأهرعوا الى دلهي مقدمين الطاعة .

وكانت نهاية اكبر سنة ١٦٠٥ بعد أن ملأ الهند ماثر ومفاخر ، وادار السلطنة ادارة قل من سدد لمثلها في الاوائل والاواخر ، لأنه الى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير متركنة على قواعد ثابتة ، ولا سائرة بانظمة مقررة ، بل كان السيف وحده حكماً ، وكانت الثورات متصلة ، واهواء الاشخاص هي الغالبة . فسير اكبر دولته هذه على اصول ادارة جديدة ، فارسية مغولية ، غاية في الضبط والدقة ، ورفع استبداد الامراء ، وازال الفوضى من البلاد ، وجذب الى الابواب السلطانية أولئك الامراء والملوك الذين كانوا يستبدون بالرعايا فارضاهم وراح الرعايا من ضررهم ، صنيع لويس الرابع عشر في فرنسا . وشكل الدولة على النسق الحالى المتبع بهذا الوقت في العالم فهناك الوكيل أى رئيس النظار (والاتراك الى اليوم يسمون الناظر وكيلا والصدر الاعظم رئيس الوكلاء) ثم الوزير وهو ناظر المالية

وخان قانان أى ناظر الحربية . وكان عنده ناظر البلاط السلطاني (نظير مشير المايين الهمايونى عند آل عثمان) وناظر العدلية وكان اسمه الصدر ، وغير ذلك من المناصب . واما البلاد فكانت ١٨ ولاية كبرى كل منها تنقسم الى ما يشبه اليوم الالوية وهلم جرأً . وكانت الادارة الملكية فى ايدى الفرس كما ان الجيش كان بايدى المغول والهنود . وكان عدد الجيش الدائم ١٤٠ الفاً وهذا شئ غير معهود فى ذلك الوقت واما دخل الخزانة السلطانية فكان نحو مليارين أى ١٠٠ مليون جنيه ، وهذا أيضاً شئ هائل بالنسبة الى ذلك الزمن . وعامل اكبر الهنود برفق عظيم ، ورفع عنهم ضروب الاهانات . ويقول مؤرخو الافرنجة ان اكبر لم يبال بما يفرضه الاسلام من اهانة الكافر واذلاله وامتهانه ، وانه نسخ تلك العادات ولم يعامل الهنود معاملة الغالب للمغلوب . ومن جملة من غمزوا الاسلام من هذه الجهة رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية . ونحن نقول ان اكبر احسن صنعاً ، لأنه ما يخدم ملك من ملوك الاسلام ملته بمثل العدل والله تعالى يقول « ولا يجرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا » ويقول « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وظاهرانه ينهى عن ظم العدو لكونه عدواً ولا يخصص العدل بالحكم بين المسلمين وحدهم ، بل جعل الحكم بالعدل بين الناس . وكلمة الناس تشمل المسلم وغير المسلم كما لا يخفى . فان كان من أمراء المسلمين من لم يعمل بهذه المبادئ فهو اما عن جهل بروح الاسلام ، أو عن هوى واستخفاف باوامر الله ونواهيه ، كما يوجد فى كل الملل وانما نحن نود لو كان رينيه غروسه وأمثاله ينصحون حكوماتهم الأوروبية ومن جلتها فرنسا ، بأن لايعاملوا أهالى المستعمرات معاملة الغالب للمغلوب ، ولا يرهقوا الجزائريين ، والتونسيين ، والسودانيين الخ بضروب الاهانة ، ويحرموهم المساواة فى الحقوق مع الاوربيين ، كما لا يقدر أحد أن ينكره . فان فاتحى الهند من ملوك الاسلام وقواده كان عذرهم ممهداً نوعاً فى الازدراء بالهنود بعد مارأوا من عبادتهم للأصنام ، واحراق النساء أنفسهن لموت بعولتهن ، وغير ذلك مما تقشعر له أبدان الذين أشربوا توحيد الحى القيوم ، ولم تتسع لهضمه عقولهم اتساع عقل السلطان أكبر . ولكن ياليت شعرى ما هو عذر الأمم الاوروبية فى تحقير أهالى المستعمرات كالعرب والبربر الذين هم من أكرم الأمم ، ومن أشرف الاعراق الى الحد الذى نراه ، وسن قوانين خاصة بهم كأنهم طبقات دنيا لا يلبق أن تسوى مع الاوروبيين فى أمر من الأمور حتى قد

قتل أوربي أوربيا آخر في الجزائر ، فعند المحاكمة سئل عن سبب قتله ، فقال كان يروى حول بيتي مساء فظننته لصاً واشتبته بكونه عربياً . فعند القضاة الفرنسيين ذلك من الأسباب المخففة للجرم . فبالت الحكومات الأوربية المتقدمة العصرية السابقة في حلبة المدينة والهدب والأدب في القرن العشرين ، تقتدى باكبر الذي كان سلطان الهند في القرن السابع عشر ، وهو ذلك السلطان الآسيوي المغولي ، فتعامل مغلو بيها كما كان ذلك العاهل يعامل مغلو به . وبالت منتقدي الاسلام من مؤرخي الافرنجة يتأملون قليلا في رد الفيلسوف الفرنسي غستاف لوبون على المسيولوروا بوليو Leroy - Beaulieu أحد أساتذة كلية « كوليج دو فرانس » الذي يشير بحمل عرب الجزائر على التفرنس بجميع الوسائل القاهرة . قال غستاف لوبون : وهذه هي الافكار السائدة في فرنسا فيما يتعلق بالجزائر . ثم قال : وان الطريقة السياسية المتبعة الى هذا اليوم لأجل تفرنس المسلمين أو اكتسابهم من الوجهة الأدبية هي من البربرية . بمكان لا يقل عن طريقة الاميركيين الأولين مع قبائل الجلود الحراء التي كانوا ينتزعون منها أراضيها ، ويتركونها الحرة أن تموت جوعاً . وقد وصف المسيو فينيون Vignion طريقة دحر العرب التي اتخذتها الحكومة الفرنسية طريقة الادارية في الجزائر فقال : ان ولاية الفرنسيين كانوا عند كل ثورة في الجزائر يستولون على أراضي الاهالي ويسلمونها للمستعمرين (الكولون) ويطردون الاهالي دحراً نحو الصحراء . فكان يتكاثر عدد الاوربيين في تلك النواحي ، ويضطر الاهالي أن يهجروا تلك الأراضي التي هي مساقط رؤوسهم ، ومواطن أجدادهم ، ويتفرقوا . فكانت نتيجة هذه السياسة التي استمرت ثلاثين سنة ان العرب الذين لم يعودوا آمنين على أراضيهم وأملاكهم تركوا الحرث والزرع وهاموا في البراري . وكيف يمكنهم أن يزرعوا وقد طردوا من الأراضي الجيدة التي تسيل فيها العيون والغدران ، ودحروا الى الأماكن التي لا يأمنون فيها أن يزرعوا أن يسترجعوا الحب الذي بذوره فخرموا بالسكنى في تلك البراري الزرع والضرع ، وازدادت بذلك البغضاء والاحنة بين العرب والكولون ، وصارت بين الفريقين هوة يتعذر سدها . وكانوا يسمون هذه الطريقة بطريقة المطاردة أولاً ، ثم أطلقوا عليها بالتالي اسماً آخر وهو « التملك لاجل المنفعة العمومية » وهذا الاسلوب يمتاز بعلامتين : الاولى انه لا يملك الكولون أرضاً الا من أملاك العرب ، والثانية انه يوجد دوائر يجب ان

تستخلص جميعها للاور بين حتى من يبقى من الاهالى مالكا يقصى عن تلك الجهات ، بحيث كل ذلك يعود بفقر الاهلين الخ . ثم يعود الاستاذ غستاف لوبون فيقول : وان من أغرب استبدادات الحكومة فى الجزائر مايسمونه بالاستعمار الرسمى ، وذلك انهم ينتزعون الاراضى من أيدي العرب ويوزعونها مجاناً على سفلة سقاط من جميع الاجناس ، بدعوى انهم سيحيونها بالزراعة ، وهم أقرب أن يدرسوا لغة السنسكريت من أن يحسنوا حرنأ أو زرعاً . فلم تمض مدة على ذلك حتى رأيت تلك المسماة بالقرى الرسمية خاوية على عروشها ، بعد أن كلفت الأموال الطائلة . ولم يكف ذلك رجال ادارتنا درساً حتى قام بعضهم منذ سنوات يقترح التفويض باعطاء ٥٠ مليوناً لنزع أملاك العرب ، وتأسيس قرى أخرى غير التى أخفق مشروعها . فلحسن الحظ رد المجلس (البارلمان) هذا الاقتراح الذى كان لو نفذ يحفز المساميين على الثورة ، عدا مايجشم الحكومة من انفاق الملايين الخ . ثم قال : منذ فتحنا للجزائر لم نبرح سياستنا فيها سائرة بعاملين أحدهما نزع أملاك العرب واقتصاصهم الى الصحراء ، والثانى جلهم على التفرنس باجبارهم على قبول شرائعنا . فلم نفلح لافى ذا ولا فى ذا . أولاً لان العرب لم يمكنهم الرحيل الى الصحراء حيث لا يوجد شئ يقتاتون به فيها ، ولاشك فى ان عدة ملايين لايرضون أن يموتوا جوعاً بدون مقاومة . ثانياً لانهم لا يقبلون أن يتفرنسوا اذ لم يعهد أن أمة نبذت قواعدها العقلية الاساسية واتخذت قواعد أمة غريبة عنها الخ . لا أقدر أن أستوفى تعريب جميع ماقاله بهذا المقام غستاف لوبون المؤلف الفيلسوف الشهير فى كتابه المسمى علم النفس فى السياسة Psychologie Politque وما أوردت الذى أوردته هنا الا من قبيل التمثيل مذكراً أولئك الذين يطرون السلطان أكبر من مؤلفى الانكليز والفرنسيين على تسويته بين المسلمين والهنود فى كل الحقوق ، واقامته العدل فى رعيته كلها، لماذا لاينصحون هم حكوماتهم باتباع ذلك السنن ؟ وهل مايعمله الانكليز فى الهند اليوم وما عملوه من قبل ، مطابق لما كان يعمله أكبر ؟ وهل ائتم بسياسة أكبر ذلك القائد الانكليزى الذى رعى منذ ثلاث أو أربع سنوات جماعة من المتظاهرين فى الشوارع بنيران القنابر فقتل منهم مئات أو ألوفاً ثم أجبر الآخرين على الديق على أيديهم بين يديه كما تدب الحيوانات ؟ فهل هذه هى سياسة الامم التى يطنب مؤرخوها بكيفية احتقار المسلمين للهنود ؟ عليك بما عدده من هذا القبيل مؤخراً الاستاذ العلامة الكاتب الشهير

لمرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز في رده على جريدة المورن بوست الانكليزية التي انتقدت الشرع الاسلامي بعدم انطباقه على العدالة الاوربية .

عود الى تاريخ اكبر خان * وصدرت الاوامر الى جباة الخراج بأن يصبروا على الفلاحين في استثناء الاموال الاميرية ، بل يقوؤهم من بيت المال في سني القحط . كذلك توصل اكبر بوسائل ناجعة في قتال المجاعات التي تكثر في الهند في الاعوام التي يحتبس فيها الغيث . وكان يعاقب الأمراء الذين يظلمون الاكورة الذين هم قائمون بخدمة اراضيهم . ومع شدة ميله الى البراهمة ، ومراعاته لهم ، عارضهم في قضية احراق النساء اللاتي مات بعولتهن ، وعادة ابقاء النسوة اللاتي تموت ازواجهن وهن في سن العاشرة أو امل طول الحياة لا يحق لهن ان يتزوجن . ثم منع التبكير في الزواج فكان لا يسمح بزواج الشاب قبل سن ١٦ ولا بزواج الفتاة قبل سن ١٣ .

وكانت اللغات المعروفة في الهند ، عدا لغات الهنود الاصليين ، ثلاثاً : العربية لغة الدين الاسلامي ، والتركية لغة الأسرة التيمورية ، والفارسية لغة البلاط والدولة . فوضع اكبر لغة « الاوردو » التي تشتمل على كثير من العربي والفارسي والتركي مع الهندي ؛ فسهل التفاهم بين الامم الهندية واتسعت هذه اللغة تدريجاً حتى انه ليتكلم بها اليوم مائة مليون نسمة . وقالوا ان اكبر فيلسوفاً كان اعظم منه سلطاناً ، مع أن اكبر كان من اكبر سلاطين العالم واحقهم بمكانة عليا في التاريخ . وأطرى مؤرخو الافرنجة تحوله عن مذهب السنة الى مذهب الشيعة وشدة وطأته على علماء السنة ، والغاء اللسان العربي من البلاط ، واقامة الفارسي مقامه ؛ وعدوا ذلك من معالي افكار اكبر ومنزعه الى الحرية . وقالوا انه كان ميالاً الى التصوف ، وان التصوف هو أرقى طريقة اسلامية . وذكروا انه قرب اليه فتح الله الشيرازي من اكابر علماء الشيعة ، جاء من فارس وأوطن في بيجابور ، فاستدعاه اكبر اليه وصار مستشاره الشرعي . وكذلك حظى عنده العالم الشيعي المسمى مبارك ووالداه ابو الفائز ، وكان شاعراً متصوفاً ، وابو الفضل وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية عظيماً ، من جملة ما يروى عنه أنه هتف قائلاً : « يارب من رأى حكماء المغول ، ونسائك جبل لبنان ، ولا ماوات التبت ، وقسوس البرتغال ، وكهنة المجوس ، وعلماء الزندافستا (معناه الكامة الحية وهي كتب ديانة الفرس والعرب يقولون الايستا كتاب زرادشت) رأى

الناس في جميع الهياكل تطلبك ، وبجميع الالسنه نستعين بك . التوحيد هو انت . الاسلام هو انت . وكل ديانة في الدنيا تقول : انت وحدك لا شريك لك . ان كان جامع كانت هناك جماعة تناجيك بالصلاة . أو كنيسة كانت أجراس تفرع لشرفك . ازور احياناً الجامع وآونة الكنيسة وفي كل معبد لا انشد الاك . واصفياؤك ليس لهم علاقة بالسنة ولا بالبدعة لانه ولا واحدة منهما ملكت قدسية الحق . فأنا أترك الديانة لاهل الجماعة ، والبدعة لاهل الفرقة ، ونظير تاجر الطيب ، ترتاح نفسى الى شم جميع الورد »

ويظهر أن اكبر كان على هذه الطريقة . وكانت له عقائد أخرى منها عدم خلود الانفس بالنار ، اذ كان يرى ذلك مخالفاً للعدل الالهى . ومنها تناسخ الارواح الذى أخذه عن البراهمة . وقيل انه كان يبيع الحجر واكل الخنزير (فلا عجب اذا رضى الاوربيون عنه كل هذا الرضى) وأنه أنكر قدم القرآن ومعجزات الرسول ﷺ وأبطل كون الاسلام هو الدين الرسمى للدولة . ثم انه فى سنة ١٥٩٣ أصدر امراً بأن كل من أجبر من الهنود على الاسلام فى مدة أسلافه يمكنه الرجوع الى دينه . وذكر رينيه غروسيه الفرنساوى فى هذا الباب جملة فيها شئ من الانصاف فقال « لا يمكن مقايسة هذا الأمر بالامر المعروف بأمر نانت » يشير الى الأمر الذى أصدره لويس الرابع عشر مانعاً أى دين كان فى فرنسا غير دين الكثلثة . الا أن رينيه غروسه لا يعلم أن اكبر خان بهذا الامر لم يخرج عن الاسلام لأن الشرع يمنع دخول الناس فى الاسلام قسراً (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) وأن الاسلام ليس فيه ديوان تفتيش كما كان باسبانية . . . هذا وقد قال الكونت نوير مؤلف تاريخ اكبر « ان اكبر لم يخلق اكبر منه فى الشعور الحقيقى بالانسانية » .

وأمر اكبر بترجمة كتب البراهمة الفيذا ، والراميانه ، والمهابراته ، الى الفارسية وسائر أصول الفلسفة الهندية . وكان يقضى ساعات طوالاً من الليل يستفسر البراهمة العظيم «داني» أحد اعلام الحكمة الهندية عن عقائد « تريمورتى » وكان ميله الى عقيدة الاشراق الصوفية يحبب اليه فلسفة البراهمة : كذلك تبهر كثيراً فى مذهب بودا وكان يحمله ويعظمه والمظنون أن ما كان عليه اكبر من عقيدة المساواة بين جميع الناس وبره بالخلوقات كلها وتخرجه من أكل لحوم الحيوانات نظير أبى العلاء المعرى انما كان مما رشح الى دماغه من

التعاليم البوذية . ولم يغفل أ كبر عن النصرانية ففي سنة ١٥٨٠ أرسل الى رهبان البرتغال الذين كانوا في « غوا » يستقدم منهم من يفقه في عقيدتهم فلبوا بدعوته ، وأرسلوا اليه بانجيل أمر بنقله الى الفارسية ليفهمه . وبعد ذلك عهد الى الرهبان اليسوعيين بثقيف ابنه مراد . ثم أذن للجزويت بفتح مدارس في آغرا ولاهور وكامبای . وكان يذهب الى كنائسهم ويقول مؤرخوهم انه كان يجثو فيها على ركبته . وكذلك وفق الجزويت الى تنصير أناس كثيرين في كامبای في أيامه . ويقال ان تهافت أ كبر على كل دين وأخذ بكل عقيدة ونزوعه الى كل فلسفة كانت فيه حالة نفسية فطرية ناشئة عن شغوف صفحة طبيعته وسرعة انفعاله وكون روحه الى النفس الأخير نظير روح « غوته » شاعر الألمان بقيت تتطلب زيادة الانوار وتلمس اكتناه الأسرار . وانه كان يعتقد باسراق الالهية على كامل الوجود و بأن كل دين من الأديان هو عبارة عن بارقة من هذا الحق المنبث في الكون . ولم يبعد عن عقله امكان التأليف بين المذاهب قاطبة ، وتصور عقد مجمع ديني لهذه الغاية ، وأمل أن يوحد بين جميع العقائد الدينية في نقطة عامة ، وهذه النقطة العامة كانت عنده على ما يقال مجوسية فارس . هكذا روى رينيه غروسه في الفصل الثالث من تاريخ آسية الذي لخصه من ستة وثلاثين تاريخاً على الهند أ كثرها بالانكليزية ، وبعضها بالفرنساوية ، ومن هذا البعض كتاب « مدنية الهند » لغستاف لوبون و « آثار الهند » للعلامة المشار اليه . وجاء في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية بشأن عقيدة أ كبر ما يأتي :

« يمكن أن تكون محبة أ كبر للبحث عن الحق أ كثر من عبقريته السياسية قد جعلت له كل هذه الشهرة . فانه مما لا مشاحة فيه كونه ترك الاسلام ووضع عقيدة سماها « التوحيد الألهي » وهي اعتقاد مجرد بالاله مما اتفقت عليه كل المذاهب . ولكن لما كان الناس يريدون رمزا . وأ كبر تحقق بنفسه أنهم يريدون رمزاً فهو يوصيهم بأن يجعلوا الشمس رمزاً للاله . وعلى الأرض النار التي هي من طبيعة الشمس . فأما مبلغ نجاح هذه الدعوة خارجاً عن البلاط السلطاني فلا نعرفه . وإنما نعرف من بطانة أ كبر ثمانية عشر شخصاً قيدوا أسماءهم في سجل المؤمنين أ كثرهم أدباء وشعراء ومنهم أمير اسمه عزيز كوكا ، كان سبب خروجه من الاسلام مارآه وهو في موسم الحج من الأحوال المؤسفة كتبليص الحاج من أموالهم . وذهب بعضهم الى أن مبارك الناقوري وأولاده ممن كانوا

على فلسفة الصوفية هم الذين أبعدها أكبر من مذهب السنة والجماعة . وقيل ان مارآه من شدة تعنت أهل السنة نفره منهم . وقيل ان حرية مذهب التصوف أثرت فيه كثيراً وفي بطانته التي كان فيها كثير من الفرس فكان لهم ميل خاص الى عقيدة الشمس الفارسية . ثم قال في دائرة المعارف الاسلامية : الا أنه لم توجد ديانة شرقية جذبته بمثل ماجذبه النصرانية الكاثوليكية . على أن الشيخ نور الحق الذي لم يكن أسيراً للتقليد نظير أبي الفضل العلامي وعبد القادر الباداعوني يقول في أكبر : ان السلطان أراد أن يمحص الطيب من جميع الآراء المختلفة ، وانه ما كان هدفه في ذلك الا الوصول الى الحق . والذي انتهى اليه أخيراً هو قبول مصاص الأديان كلها ، وعقيدة الانسان الأصلية مضافة اليها طريقة سلوك بسيطة» انتهى . تشير دائرة المعارف بهذا النقل الى الشيخ نور الحق صاحب « زبدة التواريخ » والى عبد القادر الباداعوني صاحب « منتخب التواريخ » والى أبي الفضل العلامي صاحب « اكبرنامه » . وعمن أخذت عنهم دائرة المعارف ترجمة هذا السلطان محسن فاني صاحب « دابستان المذاهب » وشمس العلماء مولوى محمد حسين صاحب كتاب « دربارى أكبر » وغيرهم . ومن غرائب ما روت عن هذا السلطان الذي كانت كل حياته غرائب أنه كان يجهل القراءة والكتابة . وقالت ان ذلك عجيب في بيت مثل بيتهم موروثه فيه الكتابة وآداب اللغات خلفا عن سلف . وأعجب منه أنه كان عسيراً لأميرتين من أشهر أديبات زمانهما ، احدهما زوجته سليمة سلطان ، والثانية عمته كل بادان ، ويظهر أنه لما كان أبوه معروفاً بضعف العزيمة ، ثم مات وهو يافع ، لم يحسنوا تعليمه الكتابة . وأنه لما بلغ سن الرشد ثم شب واكتهل ، أهمل عمداً تعلم الكتابة ، اذ ليس يمكن تعليل ذلك بصورة أخرى ولعل أكبر اثر التعلم بالمشافهة والكلمة الحية . انتهى

ولقد ترك هذا العاجز الى القراء الحكم على حقيقة هذا السلطان الذي أخذ الى ذلك الأمد بمجامع قلوب الأوربيين ، ولست ممن ينكر أنه مع تخبط الوسوس اياه من الجهة الدينية ، وانطباع قلبه بكل مؤثر يطرأ عليه من الخارج ، يجوز أن يكون من أعظم السلاطين في حزمه وسداد ارادته ، ووفور محبته للرعية . ولكن عند ما يقرأ الانسان أنه كان لا يجد بدأً من الرمزلوجود الالهية ، وأن ذلك الرمزلين أن يكون الشمس أو النار ، وعند ما يروى غروسه أنه استقدم اليه من كوجرات الموبدان أردجير ليعلمه كتاب آفستا ،

وأنة اتخذ التقويم الجوسى وصار يحتفل بأعيادهم ، وأنه جئ إليه فى قصره بالنار المقدسة المحفوظة بلهبها من عصر الى عصر منذ أيام رعاة الايرانيين الأقدمين ، فاستقبلها بالتعظيم الفائق فى بلاط الملك الى غير ذلك مما رواه ، يعرف أن الرجل قد تمجس وانتهى النزاع وقضى الأمر ، ولكن تجده من جهة أخرى معجبا بالبراهمية ، وبالبودية ، ثم بالنصرانية ، ثم بالتصوف ، ثم بالتشيع ، وهذا التشيع كما لا يخفى يقتضى الاسلام لأن الشيعة لم يخرجوا عن كونهم مسلمين . فتعلم أن الرجل وان كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة ، فهو مختلط بالعقل فى المسئلة الالهية ، والجنون كما قيل فنون . وأما تقييد ١٨ شخصا من حاشيته أنفسهم فى سجل المؤمنين بدعوته ، فقد ذكرنا بذلك الذى روى عنه الشهرستانى فى « الملل والنحل » أنه انفراد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لا غير فيهما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه قال له مناظره : ترى البارى تعالى خلق جنة عرضها السموات والأرض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك . ثم من يدرى هل ثمانية عشر أكبر تبعوه اقتناعاً أم تزلفاً ؟ فان أكثر بطانة السلاطين معلومة أطوارهم . . . وأما الاعتذار عن أكبر بأنه كان يرى فى الشمس والنار رمز الألوهية ، فيايت شعرى لماذا تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار ، أفليست كل مخلوقات الله تعالى رمزاً وآية ، أو لا يكون تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار مفضيا الى اعتبار ذلك الرمز هو المعبود والعياذ بالله ؟

أما ابنه سليم الملقب بجهانكير الذى خلفه سنة ١٦٠٥ واستمر على كرسى الملك الى سنة ١٦٢٧ فقد نبذ كل ما كان عليه أبوه من التخبط ، واعتصم بمذهب السنة والجماعة ، ولكنه استبقى الفارسى لساناً رسمياً للدولة . وكانت لجهانكير امرأة بارعة الحسن مفرطة الذكاء اسمها « نور محل » فاستولت على قلبه ، وتصرفت بالسلطنة كما شاءت فسأت الأحوال ، وجارت العمال ، وانتقض ملك اسمه ملك عمير فى الدكان ، ولم يقدروا عليه . ثم خرج على جهانكير ابنه خرّم ومعه قائد اسمه مهابت خان ، وقبضا على السلطان وحجرا عليه ، فأفقذته السلطنة الحسناء بدهائها وبهائها ، واصطلحت مع ولده خرم .

وفى تلك الأثناء مات جهانكير فصعد خرم على كرسى السلطنة وتلقب بشاهجهان . وبدأ بتدوين التأثيرين فى الدكان ، فسير عليهم جيشاً عقد لواءه لولده الثالث اورنغزيب . فقهر هذا العصاة ومهد الدكان ، وكان داهية دهما فأراد محو السلطنات الثلاث التى كانت

باقية هناك ، وهي غولكوند ، وبيدار ، وبيجاپور ، فقصدها الواحدة بعد الاخرى ، ولكن كان كلما قرب فتح كل منها جاءه الأمر من والده بأن يمسك ولا يدخل . وكان الحامل للسلطان على تلك الأوامر هو والده الأكبر دارا . فوقعت الفتنة بين الاخوة واستمال أورنغزيب أخويه شجاع ومراد فاتحدوا كلهم على دارا الذي كان الأقرب الى قلب أبيه ، وبرزوا للحرب فالتقاهم دارا فانكسر وزحف الاخوة الى آغرا يحاصرونها ، وكان أورنغزيب بدهائه أرسل الى أبيه يؤكد له بأنه اذا مكثهم من دخول البلدة لا يتغير عليه شيء فآمن شاه جهان بكلامه ، فلما دخل أورنغزيب قبض على والده وجعله في إحدى غرف القصر تحت الحجر . ثم فعل ما هو أخش من ذلك بأن انقلب على أخيه مراد ، إذ اتهمه بخيانة كذباً وميناً ، وأمر بمحاكمته والحكم عليه بالقتل ، وأجرى الحكم وأكمل مكيدته بأن أخذ يبكي على أخيه هذا الذي كان عضداً له . كذلك بعد أن وقع أخوه دارا في قبضته دق عنقه وأرسل برأسه الى والده المسكين المحبوس في قصره (١٦٥٩) ثم طرد أخاه شجاع من ولايته في البنغالة ، ولم يطل الأمر أن مات هذا فبقي ذلك الجبار مستبداً بالسلطنة وحده ، وطال سلطانه من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٧ وكان كما قال مؤرخو الانكليز يقصد غاية قصوى ، وغرضاً بعيد المرعى ، وذلك يجعل حدود السلطنة حدود الهند الطبيعية وكانت بقيت في الدكان سلطنتان اسلاميتان هما غولكوند ، وبيجاپور ، وسلطنة ثالثة هندية براهمية هي سلطنة المهرات ، وكانت هذه الأخيرة تكاشح الاسلام بالعداوة حتى بلغ من جرأة أحد ملوكها « سيفاجى بونسلا » أن نهب قافلة الحجاج وهي على وشك الاقلاع من سورات الى مكة . فساق أورنغزيب عليه جيشاً فضع أولاً ، ثم خرج ثانية واعتصم بجبال « بونا » حيث بقي عاصياً يقاتل الى أن مات . ففي سنة ١٦٨٥ زحف أورنغزيب بجيش جرار الى الدكان فاستولى على مملكتي غولكوند وبيجاپور وأخذ « سمباجى ابن سيفاجى » ملك المهرات أسيراً وضرب عنقه . وسنة ١٦٦٠ كان استولى على آصام وسنة ١٦٦٦ على آراكان وهما ممالك بين الهند والهند الصينية .

(آصام هذه بلاد واقعة في شرقي البنغالة استضافها الانكليز الى الهند منذ عهدغير بعيد أى سنة ١٩٠٥ وجعلوها ولاية باسم شرقي البنغال وآصام . وكان عدد سكانها منذ نحو عشرين سنة ستة ملايين و١٢٦ ألف نسمة من أصلهم مليون وخمسمائة و٨١ ألفاً مسلمون أكثرهم

في مقاطعة « سيلهت » وفي سيلهت هذا قبر شاه جلال الذي يعظمونه جداً بكونه هو الفاتح المسلم الأول لتلك البلاد وأن أصله من اليمن . أما آراكان فهي مقاطعة في أقصى الشرق من ولاية بيرمانيا من الهند الصينية كان عدد أهلها سنة ١٩٠١ سبعمائة و٧٢ ألف نسمة من أصلهم ١٦٢ ألف مسلم).

ولم تبلغ السلطنة الاسلامية المغولية من العز والبسطة ، ما بلغت في أيام أورنغزيب ، فكانت حدودها من كابول الى آراكان ، ومن الجلايا الى الكارنات (أقصى جنوبي الهند) وزاد ارتفاع الخراج العقارى من ٥٠٠ مليون الى مليار ضعف ما كان في زمان اكبر . وزادت سائر الجبايات والضرائب على مليار . الا أن روايات مؤرخى الافرنجة هي كون أورنغزيب بدأ ينجب الأهل على بعضه ويفحش في الجبايات والمكوس ، وأنه آسف البراهمة بحملهم على الاسلام . وتحويل كثير من هياكلهم جوامع لاسيما هياكلهم المعظمة مثل هيكل بنارس . ففي بنارس الآن المسجد الأعظم ذو القباب البيضاء والمنائر الشاحنة البيضاء التي ترى على ضفة النهر ، قد بنى في مكان هيكل كان معبوداً أقدس معبد عند الهنود . وكان أورنغزيب أطلق على بنارس اسم محمد آباد . قالوا وانه حبس أرملة راجا جوهور وأولادها مع أن ذلك الراجا كان من أصدق الأماناء لدولة المغول فانتقضت بلاد جوهور واوديبور وزحف اليها أورنغزيب فأحرق ودمر وقتل وسبي ، وانتهى الأمر بان أولئك الملوك خضعوا له ، ولكنه كان جرحاً التأم على دغل . قال المؤرخون الأورو بيون وكان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشرى ، فاطماً للشهوات يصوم ويتقشف ويعيش معيشة الزهاد ويراقب آخرته . وكان أورنغزيب آخر العظام من سلاطين المغول في الهند ، إذ بعد موته استقلت عن امبراطورية دهلئ بمالك كثيرة ، فقامت دولة حيدر آباد الدكان (١٧٢٤) ودولة بنغاله (١٧٠٧) ودولة أوض (١٧٢٤) ، ولم يبق للمغول الا دهلئ وآغرا وبلاد دواب . وهذه من الدول الاسلامية . كما أنها استقلت من أمم الهند أمة السيك ومملكة المهرات .

أما السيك فهم فرقة من البراهمة يعدهم هؤلاء مبتدعين، لان رجلا اسمه نانك (١٤٦٩) كان قد تخرج على المصلح الهندى كاير ، فشرع من بعده في تطهير البراهمية من عبادة الأصنام وتعدد الآلهة ، وقضية الطبقات في الهيئة الاجتماعية ، وبتقريبها من

الاسلام في عقيدة التوحيد . وقد ثار السيك على سلاطين المغول لانهم من أشد أمم الارض بأساً . وجرت بين الفريقين محاربات طويلة بطش فيها المغول بالسيك ولكنهم لم يطيعوا طاعة تامة الى أن ضعف شأن دلهي فاستولى السيك على لاهور والبنجاب (١٧٦٤) .

وأما ثورة المهرات التي استمرت مدة طويلة ، فقد انتهت باعتراف سلطنة دلهي باستقلال هذه الأمة . وبعد موت السلطان أورنغزيب توج « ساهوجي بن سامبوجي بن سيفاجي بونسلا » ملكاً على المهرات في « ساتارا » ولكن انتقل ملك المهرات من أيدي هؤلاء الى أيدي آخرين ، يقال لهم « البشفا » كانوا في الأصل وزراء عندهم ، فلك البشفا هؤلاء من سنة ١٧١٢ الى سنة ١٧٩٥ وفي أيام أحدهم « باجي راو » انتزعوا من أيدي المسلمين ثلاث ممالك : بيرار ومالفا وكوجرات . فتقاسمها أربعة بيونات من المهرات وهم « الهولكار » و « السنديا » و « البونسلا » و « الكويكوفار » وتأسست هناك أربع حكومات كلها تعترف بسيادة البشفا الذي كرسه في مدينة « بونا » وكان بعضها يقاتل بعضاً الا أن الجميع كانوا يصيرون لبدأ على المسلمين بمجرد ما يلمع هؤلاء نجم ، ففي سنة ١٧٦٠ عند مازحف أحمد الدراني أمير الأفغان على الهند وفتح دلهي ، حسب البراهمة حساب دولة اسلامية جديدة تستأنف فيهم عمل الغزنيين والغوريين والتيموريين فتألبوا من كل جهة ولا سيما المرات ودارت رحى الحرب في بانيبات ، فهذه المرة أيضاً كان الفوز للاسلام ودارت الدائرة على الهنود في ٧ يناير (كانون الثاني) سنة ١٧٦١ .

الا أن الدراني قفل الى أفغانستان ولم يكمل فتوحاته ، وأبقى نواباً من قبله في دلهي . وكان في ذلك الوقت قد ظهر من الأسرة المالكة في كفالپور واوجاين من بلاد المهرات ملك في غاية الحزم والدهاء اسمه « مادهافارو » انتبه قبل جميع ملوك الهند الى تنظيم جيشه على النسق الاوربي ، واتخاذ المدافع ، واستجداد لذلك ضباطا من الفرنسيين والانكليز ، فعظمت شوكته ، واشتدت صولته ، وزحف الى دلهي فطرده منها نواب ملك الافغان ، ومن حسن سياسته أنه لم يحاول حيازة هذه السلطنة ، بل أعاد اليها السلطان أعلم الثاني المغولي حفيد أورنغزيب وصار هو القابض على زمام الأمور فولاه اعلم أمانة الجيوش كلها وأصبحت أمبراطورية المغول بكفالاته .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية أن غزوة نادرشاه الى الهند سنة ١٧٣٩ قد قصمت

ظهر الدولة المغولية فلم تقم لها من بعدها قائمة . وقد اقتفى أثره أحد الدرائي صاحب أفغانستان وفتح البنجاب ودلهي وكسر المهرات في معركة بانيبات الثالثة سنة ١٧٦١ ولكن السلطنة المغولية كان قد حم أجلاها . ولما أراد أعلم شاه فيما بعد أن يسترجع البنغالة ، وقعت الحرب بينه وبين الانكليز ، فاضطر بعد وقائع وأهوال أن يترك هؤولاء ادارة « الديواني » أي جباية الأموال في البنغالة وبيهار وأوريسا ، وأن يأخذ عنها مقطوعا مليونين و ٦٠٠ الف روبية . وسنة ١٧٨٨ حصل له حادث زاده خبالا ، وهو أن أحد ضباط جيشه قلع عينيه فأصبح كأنه ألعوبة . وأخيراً عين له الانكليز ٩٠ الف روبية شهرياً ، وتركوا له من السلطنة الاسم فقط . ومات سنة ١٨٠٦ وقام بعده محمد أكبر ابنه (١٨٠٦ الى ١٨٣٧) وخلف هذا بهادر شاه (١٨٣٧ الى ١٨٥٧) وكل منهما لم يكن له من السلطنة الا الاسم مع جزية تؤديها له شركة الهند الانكليزية . الا أن بهادر شاه باشتراكه في ثورة سنة ١٨٥٧ قبض عليه الانكليز واعتقلوه في رانغون حيث مات سنة ١٨٦٢ وهو آخر سلاطين دلهي . أما أكثر أمراء المسلمين في الهند فاما بغضاً بالهنود واما حباً بالمنافع المادية ، واما اعتقاداً بأن الانكليز لابد أن تكون لهم الغلبة أخيراً فقد عضدوا الانكليز عضداً مييناً ، ونصروهم نصراً عزيزاً ، ويعترف الانكليز بأنه لولاهم كان تخرج مركز الانكليز تخرجاً لا يعلم أحد عاقبته . فلما انتقل الحكم من الشركة الى المملكة رأساً كوفي كثير من هؤولاء الملوك باقطاعات جديدة ، وكان أكثر من نصروا الانكليز منهم نظام حيدر آباد وصاحب بهوبال وصاحب رامبور .

انه من سنة ١٢٠٦ مسيحية الى سنة ١٥٢٦ تولى سلطنة دلهي ٣٤ سلطاناً ينتسبون الى خمس دول فدولة المماليك من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٩٠ ودولة آل قالجى من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٢٠ وآل طغلق من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٤١٣ والسادات من سنة ١٤١٣ الى سنة ١٤٥١ واللوديون من سنة ١٤٥١ الى سنة ١٥٢٦ ثم جاءت دولة المغول فاستمرت من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٨٥٧ وسلطينها كما مارأيناهاهم بابر ، ثم همايون ، ثم أكبر ، ثم جهانكير ، ثم شاه جهان ، ثم أورنغزيب ، ثم محمد شاه ، ثم شاه أعلم ، ثم محمد أكبر ، ثم بهادر شاه .

أما عظمة تلك السلطنة وما بلغتته من البسطة والثروة والشوكة فقد تقدم شيء منه في

الكلام على أكبر وارنغزيب ومن قبلهما . وقرأ مثالا منه مما جاء في كتب العرب قال في « مسالك الأبصار » قال الشيخ مبارك النباتي - عند ذكر محمد بن طغلقشاه - وأول ما فتح منه مملكة تلنك (تلنغا) وهي واسعة البلاد كثيرة القرى عدة قراها تسعمائة الف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكز وبها سبعون مدينة جليلة على البحر . ثم فتح بلاد لكنوتى وهي كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دوا كير ولها أربع وثمانون قلعة جليلات . ونقل الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البزى أن بها الف قرية ومائتي الف قرية . ثم فتح بلاد المعبر وهو اقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر . وذكر انه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التي فتحها مالا يكاد السامع يصدقه ، فحكى عن الشيخ برهان الدين المقدم ذكره أنه حاصر ملكا على حد بلاد الدوا كير ، فسأله أن يكف عنه على أن يرسل اليه من الدواب ما يختار ليحمله مالا ، فسأله عن مقدار ما عنده من المال فقال انه كان قبلي سبعة ملوك جمع كل واحد منهم سبعين الف صهرنج متسعة من المال . فأجابه الى ذلك . وختم على تلك الصهارنج باسمه .

وجاء في صبح الاعشى نقلا عن الشيخ تاج الدين بن أبي المجاهد السمرقندى أنه غضب على بعض خاناته لشربه الخمر فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جملة ما وجد له من الذهب الف الف مثقال وسبعة وثلاثين الف مثقال . وقال نقلا عن ابن الحكيم الطيارى أن شخصاً قدم لهذا السلطان كتباً حثي له حثية من جوهر كان بين يديه قيمتها عشرون الف مثقال من الذهب . الى غير ذلك .

قلنا هذه روايات أشبه بحكايات قصاصى الأسفار أو أقاصيص الف ليلة وليلة منها بالتواريخ . ومثل هذا القى على روايات مؤلفى العرب والشرقيين عموماً شبه المؤرخين الأوربيين الذين حصوا التاريخ وجعلوا النقد معياره . حتى انه لوجاء المؤلف الشرقى بالرواية الصحيحة لاشتبهوا فيها ، من شدة ما اعتادوا مبالغات مؤلفينا الأولين الا من رحم ربك . وقد أطال ابن خلدون امام فلسفة التاريخ في نقد طريقة التقليد الأعمى هذه ، وتلقف أى خبر مهما كان بعيداً عن العقل ، منقوضاً بالأدلة المحسوسة . ولو قرأ رحمه الله الروايات المتقدمة لأقطعها من نقده مالا يقل عما شرحه في نقد الروايات التي استشهد بها في مقدمته . فانه ورد هنا مرتين ذكر مليون قرية (الف الف) أو ما يقرب منه . وذلك عن بعض

أقسام من بلاد الهند . والحال أنه لو قدر أن كل قرية لا تحتوى على أكثر من ١٠٠ نسمة كان من ذلك مائتا مليون ، فإذا كان هذا عدد سكان بعض ممالك من الهند فإذا يكون عدد اهل الهند بأسرها يومئذ ؟ مع أنه لا يعقل أن يكون عدد أهل الهند يومئذ أحصى مما هو اليوم . وأما عبارة الصهاريج التي هي سبعون ألفا كلها ملامى بالاموال فهذه لا تليق بان تؤثر في كتب جلية مثل صبح الأعشى فأما ما ورد في مسالك الابصار من كون الجيوش التي كانت عند السلطان محمد بن طغلقشاه عدتها ٩٠٠ ألف فارس ، منهم من هو بحضرته ومنهم من هو في سائر البلاد يجري عليهم كلهم ديوانه ، وان عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الاجناس ، فهذا ليس ببعيد عن العقل بل ليس بكثير على سلطنة دلهي في أيام تلك العنجهية وباشتهاها على جميع الهند . قلنا على أن المبالغة وما تبعها من الغلو والاغراق لا تتعلق الا بماله اصل متجاوز الحد ، ولولا السكثرة الهائلة والعظمة البالغة ما لهجت الاسن بالاعداء التي لا يقبلها العقل والمقادير التي لا تثبت على معيار النقد . فالسلطنة الاسلامية في الهند قد بلغت من تزخر الجيوش ، وامتلاء الخزائن ، وسعة الفتوحات ، ما يندر أن يعرف مثله التاريخ العام . وان ما قاله قاضي القضاة سراج الدين الهندي من أن السلطان محمد طغلقشاه مع كثرة العطاء ، وسعة البذل ، وما ينفقه في جيوشه لا ينفق نصف دخل بلاده ، لا يعد من جملة المبالغات . وكذلك ما يقال من أنه كان في خدمته ثمانون خاناً فأكثر ، وان لكل واحد منهم من الاتباع ما يناسبه ، للخان عشرة آلاف فارس ، وللك ألف فارس ، وللامير مائة فارس ، وللانصهسلارية دون ذلك ، وان للسلطان عشرة آلاف مملوك اترك ، وعشرة آلاف خادم خصى وأن له مائتي الف عبد ركابية تلبس السلاح ، وتمشى في ركابه وتقاتل رجالة بين يديه ، وان له الفا ومائتي طيب ، والفا بازدار تحمل الطيور الجوارح للصيد راكبة الخيل ، وثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد ، وخمسة مائة نديم ، والفا مملوك لتعليم الغناء ، والفا شاعر بالعربية والفارسية والهندية من ذوى الذوق اللطيف ، يجري على جميع ذلك ديوانه مع طهارة الذيل والعفة في الظاهر والباطن . هكذا في صبح الاعشى بالحرف فليس في هذا شئ مستحيل عرفاً ولا يستبعد ذلك الا من لم يتصور عظمة الهند ولا سعة أقاليمها ولا وفور كنوزها وخيراتها ، ولقد عرفنا أن بعض الأمراء في بلادنا كان عندهم عدد عديد من جملة البهزان وكانوا اذا ذهبوا الى الصيد مشى معهم عدة مئات

لتحصيل الصيد . وهم لو قيسوا بسطان الهند لكانوا له من بعض الاتباع والحول فاظنك بسطان عدد رعيته مئتان أو ثلاثمائة مليون نسمة . فليس بكثير أن يكون عنده الف بازار ولا ثلاثة آلاف رجل ينشون الصيد واذا وقع في محال البازي يحصلونه .

بعد ايرادنا هذه الأمثلة على عظمة سلطنة الاسلام في الهند ، لنعد الى موضوع الحكومات الاسلامية الحاضرة وقد تقدم لنا في حواشي كتاب ستودارد هذا لمحة فيها من ذلك شذو . ثم آثرنا أن نوضحه هنا قليلا نقلاً عن بعض المؤلفات الخاصة بالهند فنقول : انه يعدل اليوم مقدار الممالك الهندية التي تديرها أمراؤها ، وليست بتابعة للإدارة البريطانية رأساً ، بنحو خمسي الهند ، حال كون الذي تديره انكلترة رأساً هو ثلاثة أخماس الهند . هذا هو قول الانكليز الذين قد يعدون أقل إدارة وطنية اماره ذات حكم ذاتي مهما كان من استثنائهم بجميع أمورها . لذلك اختلفت روايتهم عن رواية بعض أدباء الهند من البراهمة الذين أكدوا لنا أن الممالك التي يصح أن تعد من ذوات الحكم الذاتي لاتزيد على ربع الإمبراطورية الهندية . وقد أحصى المؤلفون الانكليز عدد امارات الهند التي يتولاها الملوك والأمراء الوطنيون تحت حياية بريطانيا العظمى ٦٩٣ حكومة من أصلها عدد من الحكومات الاسلامية وهي كما يأتي :

حيدر آباد الدكان وعدد سكانها ١٣ مليوناً و ٣٧٤ ألف نسمة ، ودخلها السنوي مليون و ٧٦٠ ألف ليرة انكليزية ، وعلاقتها هي مع حكومة الهند البريطانية رأساً . وليس لغيرها امتياز كهذا بل جميع الممالك والامارات الأخرى فيها نواب من قبل الانكليز يكونون هم الوسطة بين تلك الحكومات الوطنية وبين حكومة الهند الانكليزية . ثم كلات من بلوجستان عددها ٣٥٩ ألفاً ودخلها السنوي ٥١ ألف ليرة . ثم لاس بيلا وعددها ٦١ ألفاً ودخلها ١٥ ألف ليرة . ثم خيربور وعددها ٢٢٣ ألفاً ودخلها ١٠٨٠٠ ليرة . ثم جوناغار وعددها ٤٣٤ ألفاً ودخلها ١٧٥ ألف ليرة . ثم بالانبور وعددها ٢٢٦ ألفاً ودخلها ٤٨ ألف ليرة . ثم كامباي وعددها ٧٢ ألفاً ودخلها ٣٧ ألف ليرة . ثم جانديرا وعددها ٨٨ ألفاً ودخلها ٤ ألف ليرة . ثم رادنهابور وعددها ٦٥ ألفاً ودخلها ٢٦ ألف ليرة . ثم بالاسينور وعددها ٤ ألفاً ودخلها ٨ آلاف ليرة . ثم ساجين وعددها ١٩ ألفاً ودخلها ٢٠ ألف ليرة . ثم سافانور وعددها ١٨ ألفاً ودخلها ٦ آلاف ليرة . ثم ثلاث حكومات صغيرة تؤدي مالا

سنويا لمهرجان كايكفار وهي « دابها » ودخلها السنوي ٢٦٦ ليرة و « بونادرا » ودخلها ألف ليرة . و « راماس » ودخلها ٢٠٠ ليرة . وأمراء هذه الحكومات الثلاث هم من سلالة راجا اسمه هارزنجي كان في خدمة محمود بيغارا سلطان كوجرات وأسلم سنة ١٤٨٣ .

وفي الهند الوسطى بهوبال فيها ٧٣٠ ألفا ودخلها ٢٠٠ الف ليرة . ثم جاورا وعددها ٧٥ ألفا والوارد لها ٦٠ الف ليرة . ثم باوني وفيها ٢٠ الفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . وفي الهند الوسطى ١٥٣ حكومة ذاتية بعضها تحت ولاية أمراء مسامين مثل كورفاي التي سكانها ١٨ الفا ودخلها ٢٥٠٠ ليرة . وبازودا التي تتبع مهرجان كفاليور لسكنها في الواقع لا تدفع له شيئا وكل سكانها ٤٦٣٠ نسمة ودخلها السنوي ١٢٦٦ ليرة ^(١) . ثم محمد كار وأهلها ٢٨٦٣ نسمة ودخلها ٢٦٦ ليرة . ثم باتاري وأهلها ٣٨٦٦ نسمة ودخلها ٦٠٠ ليرة . ويوجد امارات أصغر من هذه على مافي دائرة المعارف الاسلامية وباليت شعري ماذا تكون تلك الامارات التي هي أصغر من هذه ؟ وهل يوجد أصغر من هذه الا الميكروبات ؟ فان مامر من هذه الحكومات التي يقول الانكليز انها متمتعة بالحكم الذاتي هو عبارة عن مديريات نواح أو مشيخات قري . ولهذا كثر عدد الحكومات الوطنية بحسب احصاء الانكليز وما دامت هذه أقدارها فلا عجب أن تعد بالآلاف . ومن الغريب أن أكثر أهالي هذه الامارات التي يليها أمراء مسلمون هم من البراهمة ، والمسلمون بينهم قلائل أحيانا تراهم نحو الثلث وأحيانا الربع وآونة السدس الى العشر . وأكثر مسلمي الهند بالنسبة الى سائر السكان هم في الحدود الشمالية الغربية ، حيث المسلمون بالنسبة الى مجموع السكان ٩٣ في المائة . كذلك يكثر المسلمون في الجهة المقابلة ، أي بلاد البنغالة ، فهناك مجموع السكان ٤٥ مليون ونصف المليون ومن أصلهم ٢٤ مليون مسلمون ثم كشمير أهلها ٣ ملايين ومائة وخمسون الفا منهم مليونان و ٤٠٠ الف مسلمون ، وأما في البنجاب فالمسلمون أكثر من نصف السكان . وتجد بعكس ذلك في المقاطعات الموحدة التي كانت مركز السلطنة المغولية الأصلي فهناك نيف وسبعة وأربعون مليون نسمة المسلمون بينهم ستة ملايين وستمائة وخمسون ألفا فقط . وأغرب منه مملكة مايسور التي كان فيها حيدر علي وتيبو سلطان من أعظم المجاهدين في نشر الاسلام فلا يوجد بين الخمسة الملايين والثمانمائة الف التي تسكن تلك المملكة سوى

(١) فماذا تقدر أن تدفع لذلك المهرجان

٣٠٠ الف و ١٥٠ الف مسلم . وإنما استوى على تلك المملكة حيدر على بفرط بسالته وإقدامه وهو رجل ممن يذكر في تاريخ الهند كان مولده سنة ١٧٢٢ وكان أبوه يدعى فتح محمد خان ولما شب حيدر دخل في جيش مايسور ، وظهرت شجاعته في حصار مدينة « دفاهاى » التى أخذها راجا مايسور عام ١٧٤٩ فجعله الراجا قائداً لخمسين فارساً ومائتى راجل ، هكذا كان مبدأ ترقيه ثم صار فوجداراً فى « دنديغول » ثم جا كردارا فى بنغالور . ثم كسب صيتاً بعيداً فى ظفرته بالمهرات عام ١٧٥٩ وتلقب بعد ذلك بفتح حيدر بهادر ، واستقطع راجا مايسور بلاداً طويلة عريضة من مملكته ، وصار هو السيد المطلق فى مايسور ، ولما وقع النزاع بين الانكليز والفرنسيين فى الهند انحاز حيدر الى الفرنسيين وجرى جيشه للقتال فى صفهم فاتهنز تلك الفرصة « خاندرافا » وزير الراجا للتخاص من حيدر وتغلب عليه أولاً ، ولكن حيدر بدهائه وإقدامه استرجع مكاتته ثم قبض على الوزير وصار هو الألف والياء فى مايسور وأبقى على الراجا فى الصورة فقط و بعد موت الراجا جعل ابنه فى قبضته لا يملك معه شيئاً . وضرب حيدر السكة باسم نفسه ، وفتح بلاداً ضمها الى مايسور وأسس دار صنعة لبناء السفن ، وجرت بينه وبين المهرات وقائع كثيرة وكذلك بينه وبين الانكليز اذ كان أكثر الوقت ينتصر للفرنسيين عليهم . ومات فى معسكره بأركات فى ٧ ديسمبر سنة ١٧٨٢ وخلفه ابنه تيبو صاحب . وكان هذا لا يقل عن أبيه فى شىء حزمياً وعزماً وغشمشية ومضاءً ، كان مولده سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٧٩٩ وتثقف فى الفنون العسكرية على أيدي ضباط فرنسيين ، وأتقن الرياضة البدنية وامتاز فى الحروب التى وقعت بين مايسور والمهرات من سنة ١٧٧٥ الى سنة ١٧٧٩ كذلك فى الحروب مع الانكليز من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٧٨٤ اذ ظفر بهم فى عدة معارك فأحبه أبوه وقومه حبا جماً ، وعند ما خلف أباه عام ١٧٨٢ فتح « بدنور » وبالرغم من ترك الفرنسيين حلفائه قتال الانكليز لم يزل يكافح وينافح حتى انعقد الصلح بينه وبين الانكليز سنة ١٧٨٤ بمعاهدة « مانغالور » وقد رتب أمور بلاده ترتيباً حسناً ، ولأجل أن تدرى جلال قدر هذا الرجل يكفى أن تعلم أنه كان أوصل عدد جيشه الى ١٥٠ الف جندى مع ألنى مدفع وسبعائة فيل ، وادخر مقداراً طائلاً جداً من المؤن والعدد والذخائر الحربية ، وكان يخمن بيت ماله بمليارين من الفرنكات . وروى موريس قال صاحب قاموس الاعلام الفرنساوى أن تيبو صاحب حاول حمل

المسيحيين والبراهمة على الاسلام وأظهر في ذلك غلظة زائدة ، ولكن أقصى آماله كان طرد الانكليز من الهند ، وكان اللورد كورنفاليس حرك عليه نظام حيدر آباد من جهة والمهرات من أخرى ، فهاجم تيبو مملكة « ترافانكو » سنة ١٧٩٠ فهاجم الانكليز والمهرات وجيش النظام من أربع جهات فقاتل قتالا نادر المثال في البطش والمهارة وكسر الكولونل الانكليزي فلويد واجتاح المنطقة الانكليزية وبقى موغلا في سيره الى جوار مدارس ، حتى اضطر الانكليز أن يسوقوا عليه جنحاً جرّاراً تحت قيادة اللورد كورنفاليس نفسه فردوا تيبو صاحب الوراثة ودخلوا بانغالور وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس تيبو صاحب الصلح فأجيب اليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ، ويؤدى غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك ، وتم ذلك سنة ١٧٩٢ الا أن تيبو صاحب بقي حاقداً على الانكليز متحفظاً للاخذ بالنار ، ولبث يرسل الفرنسيين . ولما قدم بونابرت الى مصر بعث اليه رساله فوجه الانكليز معظم قوتهم لقتاله ، وشهر الوالى الجديد الانكليزي ولسلى عليه الحرب سنة ١٧٩٩ وتقدم الجنرالان هاريس وستوارت فحاصرا مدينة « سرينغاپاتام » فمات تيبو صاحب أثناء الحرب من شدة غمه ، واستولى الانكليز بعده على مايسور وعينوا لأولاده جاريماً جزيلاً فأقاموا بمدينة « فللور » وكان تيبو صاحب وأبوه حيدر على من أعظم الرجال الذين أنجبهم الاسلام .

ان المدنية الاسلامية في الهند كانت خلاصة مدنات عديدة ، اذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والمغولية ، والصينية ، والهندية ، والبوذية وغيرها . ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الأوفر حتى صارت الهند بواسطة الاسلام كأنها قطعة من ايران . واشتهر من شعراء الفارسية في الهند الأمير خسرو الدهلوى (١٢٥٣ الى ١٣٢٥) الذى كان يتحدى السعدى والنظامى والشاعر حسن الدهلوى المتوفى عام ١٣٢٦ ، وكان يحذو حذو عمر الخيام والحافظ الشيرازى . ولم يمكن الأدب الهندى أن يجارى الأدب الفارسى في ميدان ، لا سيما أن ملوك الاسلام لبثوا مترفعين عن الهنود في هيئتهم الاجتماعية ، منفردين بأنديتهم ومجالسهم الخاصة ، ولم يكن لسان كلسان الفرس يطيب للمجالس الملوكية وأحاديث الخواص ، فاذا استئذنت اللغة العربية لاتجد

في العالم الاسلامي لغة وثقافة تضارعان اللغة الفارسية وثقافتها . وان المغول أنفسهم مع كونهم يختلفون عن الفرس أصلاً كانوا بعد أن ولوا بلاد العجم قد تحولوا في لسانهم وآدابهم فرساً . فلما فتحوا الهند نشروا فيها الهذب الفارسي والأدب الإيراني ، ونبغ في أيامهم أدباء ومؤلفون وشعراء كالبداعوني وأبي الفضل وأبي فيضي والشاعر عرفي الشيرازي وخوجه حسين وحسن الأصفهاني وقاسم ايكاهي . وكانوا جميعاً ينظمون وينثرون بالفارسي ويتحدون الجامي والحافظ والنظامي . ثم ان شعراء لغة الاوردو بهذه اللغة الجديدة كانوا ينسجون أيضاً على منوالهم . وهم مثل فالي ، وساودا ، ومير ، وحاتم وحسن وغيرهم . اما من جهة الطراز المعماري ، فكان لمسلمي الهند دوران الدور الأول هو الغزني والغوري ، والدور الثاني هو الدور التيموري . فأما في الدور الأول فكان ملوك الاسلام قد اكتفوا بالطراز الهندي المسمى « جاينا » وأضافوا اليه القسي الحادة العربية . فكان يوجد في نسق البناء شبه كبير بين جوامع السلاطين ايبك والتامش وعلاء الدين في اجير ودهلي ، وبين معابد الهنود الا أن المسلمين لم يلبثوا أن نزعوا الى طرازهم المعماري الأصلي وهو العربي الفارسي ، فان الباب المسمى باب علاء الدين في دهلي هو بناء فارسي تقريباً . أما في زمان بني طغلق فكان الطراز الهندي هو الغالب على الأبنية مع منزع ظاهر الى البساطة . ولكن من بعد فتح بابر التيموري تولد أسلوب خليط من الطراز الهندي والطراز الإيراني صار قائماً بذاته . وهناك فروق ناشئة من طبيعة البلاد ففي الهند لم يمكن ايجاد صنعة القاشاني الغالبة في الأبنية الفارسية ، فجعلوا مكان القاشاني المرمر والحجر الصلد . فكانت المباني المغولية أنخم وأمتن وأثبت على الدهر ، فبينما جوامع اصبهان تتداعى الى الخراب تجدد « تاج محل » في الهند يغالب بمتانته الزمان ويقاوم الحدثان . وجميع مباني بابر وهمايون كانت على الأسلوب الإيراني وذلك مثل مدفن همايون في دهلي . أما اكبر قبانيه كانت بين الأسلوبين العجمي والهندي ترى ذلك في الجامع الأعظم في فتحبور . ونظيره جامع آغرا وقصر السلطنة التركية . وأما مدفن اكبر في سيكوندره فإذا تأملت سطوحه المرصوفة بالحجر الأحمر ، والمرمر الأبيض ، وأطرافه وأفاريزه والأشكال الهرمية التي فيه تظن أنك بازاء أسلوب بوذي مطبق على رسم اسلامي . وفي أيام جهانكير بني مدفن اعتماد الدولة في آغرا ، وجامع لاهور ، وهذا فيه

قاشاني كثير كأنه من مساجد أصفهان ، أما مدفن الدولة فهو طراز نسيج وحده .
وفي أيام شاه جهان بنى القصر السلطاني في دلهي ذو البهو الأعظم المسمى « بديوان خاص »
الذي قال أرباب الفن من الأوربيين انه آية تبهر الناظرين . وكذلك أنشئ جامع الوزير في
لاهور والمسجد الكبير في آغرا والجامع المسمى « جامع مسجد » في دلهي ، وجامع اللؤلؤة
في آغرا . وهذا الأخير من أعجب عجائب الهند على كثرة عجائبها ، تدخل اليه من
مربع فيه حياض الوضوء ، ثم تفيض منه الى دهليز معقود بالقناطر ، تمتد من ثلاث جهات
وفي الجهة الرابعة قبالة الباب الأكبر يتجلى لك الجامع بعظمة فائقة الوصف ، قائماً على غاب
أشب من المرمر المنقوش الباهر في صنعته ، تعلو من فوقه تلك القبة المنقطعة النظير الضاربة
الى العلاء ، تناطح القبة الزرقاء . قال جاكوت : ان هذا العالم الصغير من المرمر الناصع
يظهر لك كأنه واحة سلام وسكون في وسط معركة الحياة ، إذ لا ترى من العالم الخارجي
سوى رأس شجرة فينائه جعلها التصادف في وجه الباب يلعب الهواء بأغصانها تحت أشعة
الشمس . فهذا المسجد هو مشهد سكيينة تامة وصفاء لطيف ليس في محاسن سائر الآثار
العظام التي في آغرا ما يباهيها ، نعم ان جميع هاتيك المباني لما يبهر النواظر ولكن لؤلؤة
المساجد تلك شيء آخر .

مع هذا « تاج محل » في آغرا أشهر من مسجد اللؤلؤة . وكان السلطان جهان شاده
سنة ١٦٣٠ مدفناً لحظيته التي كان قد ملك هواها قلبه « الأميرة ممتاز محل » وكانت قد
ماتت وهي نساء في مقتبل العمر فناشدت السلطان الله أن يخلد اسمها في بناء عظيم الشأن
فبنى لها ذلك المدفن النادر المسمى بانتاج وكاه من الخارج من مرمر ناصع البياض ، ومن
الداخل منحوت منقوش مخرم مرصع بالصنعة التي تحار لها العقول وتذهب بها الأبواب ،
مع ماهناك من الفسيفساء وأصناف الرخام والمرمر الأزرق الصافي ، والعقيق اليماني ، وغير
ذلك من الحجارة النفيسة النادرة . وفوقه قبة لطيفة حواها مناير ضاربة في السماء ، وعلى
الدائر مشبكات من الحجر تصرفت بها أيدي الصانع بالتخريم تصرف النجارين بالخشب .
وهذا بأجعه وسط جنة فيحاء غناء ، فيها من الحياض والنوافر المتصاعدة مياها بين مخارف
السرو ، وتحت ظلال أشجار البرتقال ما يتعذر احصاؤه . وما يذكر من عجائب ماثر الهند

الجامع الأعظم في بيجابور في الدكان بدأ بعمارتها على الأول سنة ١٥٥٧ وقبة السلطان ابراهيم التي انتهى بناؤها سنة ١٦٢٠ وقصر الطبايق السبع الذي بناه السلطان محمد ومدفنه وطراز هذه الأبنية كله فارسي . وهذه نبذة ضئيلة عما خلفه ملوك الاسلام من المباني المدهشة في الهند فمن شاء التوسع فعليه بكتاب « الهندسة العربية » Architecture des Arabes تأليف غستاف لوبون إذ أتى فيه على جميع المآثر الاسلامية في البناء . وعلى كتاب دراسة الفن المعماري الاسلامي للسيو سلادين Saladin وعلى تصانيف كثيرة لكتاب الانكليز على الهند . وبالاجال فمن شاهد تلك الآثار ، وقرأ هاتيك الأخبار ، يعلم أن الاسلام تحقق بحضارة باهرة ، وعاش أعصرأ زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين أن يباهوا بهاسائر الأمم ، على شرط أن يفتدوا بأوائلهم . هذا ماآثرنا تلخيصه عن دول الاسلام في الهند .

فرقة المعتزلة

المعتزلة

المعتزلة فرقة^(١) من مفكرى الاسلام ، يرى فيهم علماء أوربا دائماً طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تملص من قيود التقليد المشهور فى الاسلام بالشدة ، والباعث بشدته ووقوفه ، غير متقدم ولا متأخر ، الى هذا الجود الذى رسا عليه المجتمع الاسلامى . ويقال ان سبب تسميتهم بالمعتزلة ، أن أحد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ أولاً على الحسن البصرى ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها . وهم يسمون أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » أما التوحيد فلا أنهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالحياة ، والعلم ، والارادة والقدرة ، وقالوا انه حى بذاته ، عالم بذاته ، مرید بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالأشاعرة وغيرهم حى بحياة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مرید بارادة ، بحيث ان الصفة هى غير الموصوف وأما العدل فلكونهم يقولون ان العبد انما يثاب ويعاقب على طاعته ومعصيته ، لانه هو الخالق لأفعال نفسه ، دون الله تعالى الذى ينزه عن أن يضاف اليه خلق الشر . واذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنف ، يعنى مستأنف . ولهذا سماهم الناس « القدرية » . ولما سمعوا الحديث المروى عن النبى ﷺ وهو « القدرية مجوس هذه الأمة » أوّلوا الحديث بأن معناه القائلون بسبق القدر . وكان مرة أحد أئمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلى « الحمد لله الذى تنزه عن الفحشاء » . فقال السنى : « الحمد لله الذى لا يقع فى ملكه الا مايشاء » . فقال المعتزلى : « أريد ربك أن يعصى ؟ » فقال السنى : « أيعصى ربك جبراً ؟ » من هذه النكته تفهم الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال . هذا وان كان جمهور أهل السنة فرقوا بين الكسب وبين خلق الأفعال ، وجعلوا للانسان جزءاً اختيارياً هو مناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذى يعصى بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملاً على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى . فذهب الى عمله وظلم الرعية وارتك المعاصى ،

(١) راجع صفحة ٢٥٤ من هذا الجزء

فالسُلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا أباح له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب في وصول أذى ذلك العامل الى الرعية لانه لولا تولية السلطان إياه ما تمكن من ظلمهم وهذا هو مثل من الأمثال ، وان كان البحث دقيقاً جداً ، وكان جمهور المتكلمين من المسلمين ، واللاهوتيين من المسيحيين يتفقون على أن الله هو مالك الملك ، خالق الخلق ، يفعل بخلق ما يشاء ، وأنه حر في أفعاله لا يسئل عما يفعل .

وقد اشتهر من أئمة المعتزلة واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم النظام ، وبشر بن المعتز ، ومعمربن عباد ، وأبو عثمان الجاحظ ، وأبو علي الجبائي ، وابنه أبو هاشم والزنجشري صاحب الكشف في تفسير القرآن . ومن كان يقول بأقوالهم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، أخذ ذلك عن الجعد بن درهم من المعتزلة ، فقبل له مروان الجعدي . ويقال ان صاحب بن عباد كان يميل الى مذهبهم . ثم ان كثيراً من متكلمي الشيعة تعول على كثير من آراء المعتزلة . ومن جملة أقوال المعتزلة ، اذا كان الأمر مفروغاً منه فلماذا يسعى الانسان وفيه يجتهد ؟ وهم يؤولون قوله تعالى « وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » والحديث الشريف « اعملوا فكل امرئ ميسر لما خلق له » .

أما أبو علي الجبائي ، فقد كان حامل لواء الاعتزال في عصره أخذ عن أبي يعقوب يوسف شيخ معتزلة البصرة ، ثم انتهت اليه رئاستهم الى أن مات (سنة ٣٠٣ أو ٩١٥) ، وصنف كتاباً في الأصول ، وكانت له مناظرات مع الراوندي ، والنظام وغيرهما ، وهو الذي قرأ عليه أبو الحسن الأشعري ، ثم بعد ذلك ناظره الأشعري وألف كتاباً في الرد على أستاذه الجبائي ، واعتزل الاعتزال ، وصار ناصرًا للسنة ، حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية في علم الكلام . واشتهر أبو هاشم الجبائي اشتهار والده بالاعتزال لكنه حاول في مسألة الصفات الالهية التوفيق بين المعتزلة وأهل السنة ، بأن يجعل هذه الصفات أحوالاً ، ومعنى ذلك أنها صفات أشد اتصالاً بالجواهر من العوارض غير الملازمة ، بحيث يكون لها سبق في القضاء والقدر . وقد أراد أبو هاشم بهذا أن يؤلف بين التوحيد الالهى والصفات ، زاعماً أن الكيفيات ليست جواهر بل أنواع من المظاهر . وقد ردوا عليه في رأيه هذا ورأوه متناقضاً . ومات أبو هاشم عام ٣٢١ .

وأما الأشعري — وهو علي بن اسماعيل ، بن اسحق ، بن سالم ، بن اسماعيل ، بن

عبدالله ، بن موسى ، بن بلال ، بن أبي بردة الأشعري ، المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ المتوفى ببغداد سنة ٣٢٤ - فقد بقى الى الأربعين من عمره ملازماً للجبائي ، أخذاً برأيه ، الا أنه لحظ في آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لانتلثم مع روح الشرع ، ففارقهم وأخذ يرد عليهم ، وكتب كتباً كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف ، وعد منها ابن عساكر ٩٠ تأليفاً ، وذكر كثيراً منها بروكلمان Brokelmann الألماني في كتابه « تاريخ الآداب العربية » . وسنة ١٣٢١ هجرية طبع في حيدر آباد من مؤلفات الأشعري « الابانة عن أصول الديانة » وسنة ١٣٢٣ طبع منها رسالة في استحسان الخوض في الكلام .

ورد في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، أنه يعود للأشعري الفضل باستعمال المنطق والجدل في العقيدة ، خلافاً لعلماء الاسلام الأولين ، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الاسلامية أى علم الكلام . قالت : « ولما كان الأشعري شافعيّاً لم ينتشر مذهبه عند قوم انتشاره عند الشافعية » قلنا : يقول عبد الوهاب السبكي في طبقات الشافعية ان المالكية بأجمعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة . أما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدي ، وهو يتفق في الأساس مع الأشعري ، ويباينه في نقاط ثانوية . وأما الحنابلة ، فيردون كلام الأشعري ويأخذون العقيدة بمثل ما أخذها السلف أى بدون فلسفة وقد يفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتحسيم . ومن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهري . ومما لامشاحة فيه أن أعظم متكلمي الاسلام وسيوف السنة ، هم من الأشاعرة وذلك مثل الباقلاني ، والقشيري ، والاسفرائيني وامام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ولو لم يكن منهم الاحجة الاسلام الغزالي لكفى .

فرق الخوارج

المؤرخون

عند ما طال النزاع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، واشتدت الحرب واتسع الخرق ، مل كثير من المسلمين القتال ، وتذاكروا فيما بينهم في طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء . فكانت هذه الطريقة هي التحكيم الذي كثير من عقلاء الأور بين يجاهدون اليوم في جعله هو الوساطة لفض المنازعات الدولية ، وان كانوا الى هذه الساعة لم يوفقوا الى جعله المرجع الأول فيما شجر بين الدول ، بل كان لا يزال أمره ضئيلاً وأكثر ما يرجعون اليه في المشكلات الخفيفة .

فهذه الفئة التي سئمت الحرب ، حلت علياً رضي الله عنه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، وأشارت باقامة أبي موسى الأشعري حكماً عنه في خبر طويل ليس هنا تفصيله ، مع أن عمرراً بن العاص داهية زمانه أقيم حكماً عن معاوية ، فخدع عمرو وأباموسى بأن اتفق معه على أن يخلعوا علياً ومعاوية جميعاً ، ويريحوا المسلمين من هذه الحرب الطاحنة وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه . ولما كان أبو موسى أكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له في الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما . وجاء الدور الى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع علياً دون معاوية . وكانت لهذه الخدعة رنة في الاسلام لا تزال الناس تتذكرونها الى اليوم . وبطل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين ، فخرجت تلك الفئة من طاعة علي ومعاوية معاً ، وانفردت برأي غير رأي الجماعة ، وهو أنه لاحكم الا الله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسامهم الناس من أجل ذلك خوارج^(١) . ثم ذهبوا الى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على ما يروى أربعة آلاف مقاتل ، فصمد اليهم على وما زال يقائلهم ويستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الأمة ، الى أن أفناهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قيل ذهب منهم اثنان الى عمان ، واثنان الى كerman ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى اليمن . هذا أصل الخوارج ،

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

ويقال لهم أيضا الشراة لقولهم اننا شرينا أنفسنا في طاعة الله أى بعناها بالجنة حين خرجنا على الأئمة الجائرة .

وعمود مذهبهم انكار الخلافة وأن الحكم يستمد من القرآن رأسا فلا حاجة الى الخليفة . وأنهم يمنعون التأويل فيه . وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هي قصة من القصص . وبعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالاصرار على الصغائر ، ومنهم من يصوب فعلة عبدالرحمن بن ملجم ذلك الشقي الذى قتل عليا ، وفعل قطام فى اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة ، عبداً ، وقينة ، وقتل على . ومنهم من يجوز نصب الامام ولكن لا يشترطون فيه النسب القرشى (وقد ذهب الى مثل ذلك غيرهم ومنهم من كبار علماء السنة مثل أبى بكر الباقلانى) . وهم فرق متعددة منها : المحكمة ، وهم الذين يمنعون التحكيم .

ثم الازارقة ، وهم اتباع نافع بن الازرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان ايام ابن الزبير ، وقتلهم المهلب بن أبى صفرة ، وهم يكفرون عليا مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الامام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزانى المحصن وحمد القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون ان التقية غير جائزة .

ثم النجدات ، وهم أصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصغائر دون فعل الكبائر ، من غير اصرار ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .
ثم البيهسية ، وهم أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر يرون أنه لاحرام الا ما وقع عليه النص بقوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى الى محرماً » الآية ، ويكفرون الرعية بكفر الامام .

ثم العجاردة ، وهم الذين ينفون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون انما هي قصة من القصص .

ثم الميمونية ، وهم الذين يقولون ان الله يريد الخير دون الشر . ويقال انهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات اولاد الاخوة والاخوات . ورد ذلك فى بعض

الكتب ومن جلتها «صبح الاعشى». ولكن عهدنا «صبح الاعشى» ينقل روايات عن كتب زعم أصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض فرق مخالفة لأهل السنة، وليس في تلك الروايات شئ من الصحة، بحيث قد ضعفت الثقة فيما ترويه تلك الكتب عن فرق أخرى. والذي يظهر أن اختلاف العقيدة يورث من التباعد والتنافر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وتروى بينها بين الناس حتى تكاد تصير قضية مسامة. ولهذا شواهد، كثيرة ليس هنا موضع ذكرها.

ثم الإباضية، يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة، لا كافر بالله، ويرون أن دار مخالفيهم من الاسلام دار توحيد، ولكن دار السلطان منهم دار بنى. وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة، ويقولون انهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة، ويقال انهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة. وهم لا يذكرون بعد الرسول ﷺ من الخلفاء الا أبا بكر وعمر، وأما عثمان وعلى فلا يعجبناهم اذ قد خالفا نهج الرسول والصاحبين بزعمهم. ويقولون بوجوب نصب الامام بين المسلمين اذا توفرت القوة والعلم لنصبه، وان القرشية ليست بشرط في الخلافة؛ بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته. فان انحرف عنهما وجب خلعها. ويقولون ان القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى وهو كقول المأمون العباسي. وانه تعالى لا يرى بالابصار في الجنة، وان الثواب والعقاب أبدان ولا فناء للنعيم ولا للجحيم. وان الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر الا بالتوبة. وهم يرجعون الى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالاجماع والقياس، بل عندهم محلها الرأي. وهم يقولون: ان كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وان على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الديني خسر حقه في حنو اخوانه المسلمين عليه، ووجبت معاملته نظير عدو الى أن يتوب وينيب. هذا ولما كان أكثر فرق الحوارج انتشاراً هم هؤلاء الإباضية، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الاسلام الكبرى، فسنعود في آخر هذا الفصل الى تاريخهم السياسي.

ثم الثعالبية ، وهم يرون الولاية على الصغير الى أن يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه .

ثم الصفريّة ، ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أمّا ما كان من الكبائر فيه حد كالزنا ، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .

هذه أشهر فرق الخوارج ، ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فعليه « بالملل والنحل » للشهرستاني ، وكتاب « الفهرست » وكتاب « كشف الغمة في أخبار الامّة » ، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادي ، وكتاب « الملل والنحل » لابن حزم وغيرها .

ونعود الى الإباضية فنقول : هؤلاء ينتسبون الى عبد الله بن اباض ، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الإباضية في زمان مروان الثاني الأموي ، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيى وأبو حمزة (١٢٩ هجرية) وزحف عبد الله من حضرموت الى صنعاء فاستولى عليها ، وسير أبا حمزة بجيش الى مكة ثم المدينة فاستولى عليهما ، فأرسل مروان جيشا عقد لواءه لعبد الملك بن عطية ، فقاتل أبا حمزة وهزمه في وادي القرى ، فالتجأ الى مكة ، فجدّ في أثره وما زال يقاتله حتى قبض عليه وقتله . وكذلك انتهى أمر عبد الله ابن يحيى بصنعاء اليمن . وسنة ١٣٤ للهجرة ، نار الإباضية في عمان ، فسار اليهم خازم بن خزيمه من قبل بني العباس ، فنكل بهم ، ولكن المذهب الإباضيّ وجد في بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزارها ، وحيولة الفلوات من جهة ، والبحار من أخرى ، بينها وبين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، وبسط جناحيه بدون زعج في قاصيتها ، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب في بلاد عمان ومنها امتد الى زنجبار . أما في شمالي افريقية فان مذهب الإباضية ظهر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، هو ومذهب الصفريّة ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيراً بين البربر الذين خرجوا مراراً على الدول العربية . وكان أول دعواتهم في شمالي افريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الجيزي اليماني ، خرج في جبل نفوسة ، وهو أول امام للإباضية في تلك الأقطار . ويقولون انه أحد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الإباضية « حجة العلم » ، وكانت مبايعة الإباضية له في جبل نفوسة ونواحي طرابلس سنة ١٤٠ هجرية . وزحفوا بعدها الى مدينة طرابلس ،

واضطروا العامل الذي كان فيها من قبل بنى العباس على الفرار بنفسه . ثم سار منهم ستة آلاف تحت قيادة أبي الخطاب هذا ، وافتتحوا قابس ، ثم ساروا الى القيروان فحاصروها وفي صفر سنة ١٤١ فتحوها وذبحوا أهلها . وعاد أبو الخطاب الى طرابلس بعد أن أتى على القيروان من قبله عبد الرحمن بن رستم . وفي ذى الحجة من سنة ١٤١ ولى الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي محمداً بن الأشعث الخزاعي على مصر ، فأرسل هذا جيشاً تحت قيادة العوام بن عبد العزيز البجلي الى افريقية ليدويج الخوارج ، فزحف أبو الخطاب بنفسه للقاء جيش الخليفة ، وأرسل من قبله جريدة تسبقه مع مالك بن سهران الحواري فانكسر جيش الخليفة أول مرة في سرت ، فأرسل ابن الأشعث جيشاً آخر بقيادة أبي الأحوز عمر بن الأحوز العجلي ، فانكسر أيضاً ، فزحف ابن الأشعث بنفسه بأمر من الخليفة ، فالتقاه أبو الخطاب بجيش البربر في « تاورغا » في صفر سنة ١٤٤ ودارت معركة تشيب لها الأطفال وانتهت بهلاك أبي الخطاب و ١٢ الفا ويقال ١٤ الفا من أشياعه ، وفي جادى دخلت عساكر الخليفة القيروان .

ولكن لم تلبث فتنة الخوارج في تلك الأقطار أن تجددت ، اذ في نحو عام ١٥٦ ظهر أبو حاتم يعقوب بن حبيب المزوزي ، وقيل ان أباه كان اسمه لبيد بن مدين من قبيلة هواراة العظيمة ، فجمع أبو حاتم هذا جموعاً من الأباضية والصفرية وأصناف البرابر ، وجاء يحاصر عامل افريقية عمر بن هزار مرد في بلدة تبنة ، فبعد وقائع شديدة تمكن عمر من الخروج من تبنة واللحاق بالغيروان عاصمة افريقية في ذلك العصر ، ورد جميع مهاجات البربر ، وصبر على الجوع ونفاد الأقوات ، وبينما هو يدافع عن البلدة اذ بلغه كون الخليفة سرح جيشاً تحت قيادة يزيد بن حاتم ، الذي ولاه على افريقية محل عمر ، فباغ من عمر اليأس مبلغه وخرج فقاتل حتى قتل في ذى الحجة سنة ١٥٤ ، فاستولى البربر على البلدة وجعوا جيوشهم للاقاة جيش الخليفة . وكان في هذا عساكر من خراسان ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، ومن بقايا الأجناد التي كانت بافريقية ، ومن الهواراة أنفسهم . فالتقى الجمعان في جندوبة ، وانتهت المعركة بانتصار جيش الخلافة ، وهلك أبو حاتم ومعه ٣٠ الف مقاتل من أتباعه ، وذلك في ٢٧ ربيع الأول سنة ١٥٥ (٧ مارس سنة ٧٧٢) ويقال ان هذه الواقعة الكبرى كانت خاتمة ٣٧٥ واقعة نشبت بين الخوارج وجند الخلافة .

ولقد تأسست دولة أباضية في تاهرت استمرت ١٣٠ سنة ، الى أن أزالنها الدولة الفاطمية على يد أبي عبد الله الشيعي (٢٩٦ للهجرة) ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة في الغرب ، وانما منهم أعداد وافرة في وارغلة ، وميزاب ، وجبل نفوسة ، وزوارة ، وجزيرة جربة . وهم مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطا شديداً ، ولهم علاقات مع أباضية عمان ؛ وزنجبار وتجدهم يتدارسون تاريخهم وفقهم وأدبهم بكل اعتناء . ومن أعيان الأباضيين في زماننا هذا الشيخ سليمان الباروني الذي جاهد في حرب طرابلس الغرب جهاداً عظيماً على رأس اباضية الجبل الغربي ، وكان مبعوثاً في مجلس الأمة بالاستانة ، ثم جعلته الدولة العثمانية عضواً في مجلس الاعيان مكافأة له على جهاده .

ثم نعود الى أباضية عمان فنقول : ان الخروج على الدولة شنشنة قديمة لذلك القطر ، فقد عصى أهالي عمان لعهد بني أمية ، فسير عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي جيشاً فهزموه ، وكان عليهم يومئذ سليمان وسعيد من أولاد الجلندي الذي كان يلي عمان عند ظهور الاسلام . فأرسل عليهم الحجاج جيشاً آخر فهزمهم ونكل بهم ، وفر الأخوان سليمان وسعيد الى بلاد الزنج (زنجبار) ، فكانت الى هذا اليوم منتدحاً لأهل عمان ولكن تنحى بلاد عمان عن الأمصار الكبرى كما تقدم الكلام عليه ، هياً فيها سهولة الانتقاض ، فان العمانيين لم يلبثوا أن ثاروا وبايعوا بالامامة الجلندي بن مسعود . فأرسل أبو العباس السفاح جيشاً لقتال الجلندي هذا ، فانهزم العمانيون وهلك امامهم ، ولكن لم تعد عساكر الخليفة الى أوطانها حتى صارت أمور عمان فوضى ، واضطر الأهالي الى عقد اجتماع وانتخاب امام على حسب أصول المذهب الخارجي المنتسب الى عبد الله بن أباض التميمي . فوقع الانتخاب على رجل يقال له محمد بن عفان ، فباشر الامامة نحو سنتين ، فلم يحسن العمل فخلعوه ، وأقاموا مكانه الوارث بن كعب . وفي زمان هذا أرسل هارون الرشيد تجريدة على عمان فلم تصنع شيئاً . ومات الوارث بن كعب في حادثة غريبة ، وهي أنه كان في إحدى الوقائع ثقف عدداً من الأسرى ، وصادف أن جرى سيل في المكان الذي كان الأسرى فيه موثقين ، فذهب بنفسه يجتهد في تخليصهم فأخذه السيل وذهب شهيداً مروءته . ووجدت جثته ثانياً يوم بعد أن انكشفت الأرض متعلقة بشجرة . وخلفه غسان بن عبد الله ، وقد طهر تلك البلاد من معرة لصوص البحر ، وتأثرهم على طول الساحل من بلاد العرب

الى بلاد العجم الى الهند ومات سنة ٢٠٧ .

فوقع الاختيار على عبد الملك بن حميد ، فلما بلغ من الكبر عتيا أهدر وأصبح لا يعقل من الكبر ، فلم يريدوا خلعه ولكنهم وضعوا له مدبراً اسمه الشيخ موسى . ولما مات عبد الملك سنة ٢٦٢ أقاموا مكانه المهنا بن جعفر ، وبمدة هذا استضافت عمان بلاد المهرة ، وكانت من قبل تؤدي اتاوة سنوية . ومات المهنا هذا في سنة ٢٣٧ وخلفه الصلت ابن مالك ، ومات سنة ٢٧٣ خلفه رشيد بن النضر ، فاختلفت الأمور وانتثر النظام في أيام هذين حتى اضطر الأهالي لمراجعة الخليفة المعتضد العباسي ، وكان رجل اسمه عزان الخاروسي حاول أن يحكم بالفهر والعسف فلم يتسقى له الأمر وصارت الناس فوضى . فذهب اثنان من الأهالي الى البحرين يتسكمان مع محمد بن نور عامل الخليفة على البحرين في الاستيلاء على عمان وازالة الفوضى التي فيها ، وقد قصد أحدهما بغداد لمخاطبة الديوان في هذا الأمر ، فمقرر الزحف الى عمان ، وسار محمد بن نور بجموع وافرة من نزار وطي ، ففتح نزوة عاصمة عمان ، وقتل عزان ، وفر كثير من الأهالي الى البصرة والى شيراز والى مدينة هرمز ثم ثار بمحمد بن نور بعض القبائل وتكاثروا عليه ، فترك مقره ولحق بالساحل ، الى أن أدركته نجدة عظيمة من مرتدفة مضر ، فتمكن من قمع الثورة وأرهب الحد في الأهالي ، وقطع الأيدي وسلم الآذان ، وعطل قنى الميآه التي يشرب منها الخلق ، وأحرق الكتب ، وعمل بالأهالي العملين ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً ، اذ ما كاد يرجع الى البحرين محل عمالته ، حتى ثار الأهالي ثانياً وقتلوا العامل الذي استخلفه على عمان ، وذهب دم هذا هدرا ، لأن الخلافة عدلت عن ولاية عمان وناهت عن ايدابها . فعاد الأهالي الى انتخاب أئمتهم ، وتوالت عدة أئمة ، مثل محمد بن الحسن الخاروسي ، وعزان بن الحزر ، وعبد الله ابن محمد الهداني ، والصلت بن قاسم ، وحسن بن سعيد الخوارى بن مطرف . ولم تطل مدة هؤلاء ، بل استمرت الفتن في البلاد الى أن ظهر القرامطة ، فافتتحوا عمان مدة من الزمن ثم أخرجوهم منها ، واختير للإمامة محمد بن يزيد الكندي . وفي مدته سرحت الخلافة جيشا لاسترداد عمان ففر الكندي من وجهه ، فانتخب العمانيون سعيد بن عبد الله ، فمات في سنة ٣٢٨ فاتتدبوا رشيداً بن الوليد وأطاعه الجميع . الا أنه في آخر الأمر اضطرب حبله ، ومال جماعة الى حكم الخليفة ، فانهزم الامام وفارقه أصحابه ، وبقيت عمان تحت

حكم الخلافة الى سنة ٤٠٠ ء اذ ضعفت الدولة في بغداد عن ادارة هاتيك البلاد . فتوالت الأئمة نوبة ثانية كالخليل بن شدهان ، ورشيد بن سعيد الذي كانت وفاته سنة ٤٤٥ ء وابنه حفص ثم رشيد بن علي ، ثم أبي جابر موسى المتوفى سنة ٥٤٩ ثم استولى على القطر بنو نبهان ، وتلقبوا بالملوك واستمر ملكهم مائتين وستين سنة . وفي أيامهم حاول الإيرانيون أن يستولوا على عمان ؛ وجاء نخر الدين أحمد بن اللداية بجيش من شيراز ، فاجتاح سواحل عمان ؛ ثم ان أمير هورمز محمود بن أحمد الكوسى ؛ وكان عربى المتحد قد اجتاح بلاد عمان أيضا بمساعدة المغول الذين كان انضم اليهم ، ووصل بجيشه الى ظفار ، الا أنه نشب مع عساكره في رمال تلك الصحراء فهاجمه العرب ؛ وقتلوا من كان باقيا من عساكره ؛ ولا تزال قبورهم ظاهرة الى هذا اليوم يقال لها قبور الترك ، مما يدل على أنه كان في جيشه مرتزقة من الأتراك . وفي أيام بنى نبهان ؛ دخل في عمان غراس شجرة « المانغا » يقال ان الذى أدخلها هو الفلاح بن محسن الذى كانت عاصمته مدينة مقنيات التى خربها الوهابيون سنة ١٨٠٠

ثم أخذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون ، فلم يطق الأهالى حكمهم ، وانتخبوا إماماً من قبيلة الازد ، وانتهى ملك بنى نبهان فى نحو ٨٣٩ للهجرة . وكان بنو نبهان قد ضبطوا أملاكاً كثيرة فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شدهان بن الصلت ، وما لم يوجد له أصحاب كأن يكون هؤلاء انقضوا أو غابوا غيبة منقطعة رده الى بيت المال .

ولم يتأثر الملك وترسخ قواعده الا فى أيام ناصر بن مرشد بن سلطان سنة ١٠٣٤ هجرية وفقى (١٦٢٤ م) وهو من نبعة عربية صريحة ومن أقدم الارومات الاباضية .

ولما تسلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة فى الداخل بايدى زعماء يلقبون أنفسهم ملوكاً ، وكانت مدن أخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها . ولم يكن بقى من الثغور البحرية بأيدى الأهالى سوى فرضة « لاوة » والباقي كان دخل فى حكم أمير هرمز (يقول ياقوت الجوى ان هرمز بضم الهاء وسكون الراء وضم الميم وبعدها زاي مدينة فى أقصى مكران قريبة من ساحل بحر الهند . ولكن المعروف أن هرمز هي جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس ، ورد فى قاموس موريس قال ان دورها لا يتجاوز عشرين كيلو متراً ، وهي صخرة جرداء . قال : وكان فيها أمراء مسلمون قد حصنوها فى سنة ١٥١١ هاجها

البرتغاليون بقيادة البوقرق Albuguerke واستولوا عليها ، وصارت من محاطهم المشهورة الى سنة ١٦٢٢ إذ استرجعها الشاه عباس وهدمها ولم يبق فيها الا قرية حقيرة) .

وكان في ذلك الوقت قد استأسد البرتغال ، وظهروا على بلادالشرق وصارت لأساطيلهم الكلمة العليا ، كما هي كلمة الانكليز اليوم . واشتهر منهم قائد اسمه الفونس البوقرق ، ولد في الهندرة بقرب اشبونة ، وتربى في بلاط الملك الفونس الخامس ، وسنة ١٥٠٣ كانت أولى غزواته الى الهند بثلاث بوارج حربية ، وما زال يغزو ويفتح حتى لقب بحاكم الهند واستولى على « غوا » واجتاح ساحل المليبار ، واحتل مدينة « ملقا » مفتاح الهند الصينية وهو الذى منع الترك العثمانيين من الدخول في الهند ، ودمر عدن مرتين بالمدافع ، واستولى على جزيرة هرمز ، وبنى في جزيرة سقطرى حصناً ليحافظ على أهلها الذين كانوا نصارى نساطرة ، وعقد محالفة مع ملك الحبشة ، وحدثته نفسه بالاتفاق معه بتحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الأحمر ليتمكن من تدمير القطر المصرى . وبالجملة فكان في وقته الآفة العظمى على الاسلام ، ومن جملة مغازيه سواحل عمان ، التى كان البرتغاليون فتحوا قسماً من مراسيها ، وتركوا القسم الآخر بأيدي الأهالى مكثفين منهم باتاوة يؤدونها اليهم سنوياً أما المدن البحرية التى كان فيها حاميات برتغالية عظيمة ، فكانت مسقط ، وصحار ، والمطرح ، وقريات . فسار ناشد بن مرشد أولاً الى لاوة ، فاستعان أهلها بالبرتغال ، فأمدهم بالمال والسلاح ، ولكن ناصرأ تغلب عليهم وفتح البلدة ، ثم هاجم أنفـس البرتغال فى المدن التى كانوا فيها ، فانزعها من أيديهم ، وبقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ، ليس لها أيد تمتد الى البلاد ، ثم طرد البرتغاليين من رأس الخيمة . وكان البرتغاليون قد اضطروا أخيراً لأجل الاستقرار فى قلعة مسقط ، أن يؤدوا للإمام ناصر جزية ، فبعد أن أدوها مدة امتنعوا من أداءها ، فزحف اليهم ودارت رحى الحرب ، فاتهت بصاح ثقيل الشروط على البرتغاليين ، إذ انتزع من أيديهم عدة حصون ، فى المطرح والقلاع الخارجية فى مسقط ، وأجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى أداء الجزية . ثم افتتح ناصر مدينتى صور وقريات ، وطردهم الأجانب منها . وبالاختصار فانه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير بلاده من المعرة الأجنبية ، وفهم فى ذلك الوقت ما لم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام ، من كون الأجنبى الأوروبى اذا أنشب برائنه فى محل لم ينته منه الا باستخلاص

جميع البلاد ، واستعباد من فيها من العباد ، وأن الأولى بالعاقل توقي هذا المرض قبل أن ينشب ، والمبادرة الى اقتلعه بكل الوسائل قبل أن يستفحل .

وجرت ثورات في زمان ناصر ، فاطفاً نائرتها بحزمه وحكمته ، ومات سنة ١٠٥٩ وفق ١٦٤٩ وقد أكمل عملاً عظيماً . وبنى مملكة عمان على بوانبها ، وحررها من السلطة الأجنبية ، الا بقايا بقلعتي مسقط والمطرح وحصن صحار . واستمر ملكه ٢٦ سنة وكان حازماً جاداً ، شائحاً في الأمور ، فاضلاً تقياً ، أحبه الأهالي لمداقبه هذه ، وان كانوا قد عابوا شحه وكزازة يده .

وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف ، ففسح على طرازه في الاشتغال باجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال في سواحل عمان . وكانت له عيون على هؤلاء ، يفضون اليه بعورائهم فأرسل اليه سرأ رجل هندي كان وكيلاً لأمورهم ، وموضع ثقتهم ، أهم في غفلة لاهون اذا طرقتهم العدو أخذهم من حيث لا يشعرون . فكبسهم وهم على تلك الحالة واستخلص منهم الحصنين الخارجين ، فبرز أحد البرتغاليين المدعو « كابريرا » ومعه شردمة من أصحابه وحاول استرداد المدينة فاستؤصلوا جميعاً . وكانت بارجتان للبرتغال في البحر تمدان الحامية فقصدتهما العرب بالقوارب وذبحوا من فيهما . ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال في بلاده حتى قصدهم الى بلاد الهند فأرسل بوارج حربية تغزوهم في ساحل كوجرات في الهند ، فاجتاحت عساكره « ديو » و « دامان » ، وقفلت بغنائم وافرة ، وآنية كثيرة ، مما كان في الكنائس . ووجه سلطان بن سيف معظم همته الى ترويح التجارة ، وعمارة أسواق الأخذ والعطاء ، واستجلاب الأسلحة والخيول لتقوية جيشه ، وأنفق في هذا السبيل أموالاً طائلة ووجد قلعة نزوة ، وترك آثاراً صالحة ، وتوفي في سنة ١٠٧٩ هجرية الموافقة سنة ١٦٦٨ وكان من أفراد الملوك في حسن سيرته في الرعية ، وسداد آرائه ، وصواب أنحائه ، وتوافت الناس بداراً الى مرضيه ، وتسارعت الى امثال أوامره واجتتاب نواهيه ، وكل ذلك بسائق المحبة والأمانة ، وجاذب الاخلاص والمناسحة ، إذ كان يخرج كسائر الناس ، ويعيشي الجماع ، ويختلط بالعامية ، وهو بدون خفير ولا قرين ، بل خفارته من ثقته بمحبة قومه وصحابته من معرفتهم لفضله واجلالهم لقدره . وخلفه ابنه « بلعرب » وكان هذا محباً للعلم والعلماء . بنى مدرسة في يبرين ، وجعل اقامته بها . وثار على بلعرب أخوه سيف ، وعضد هؤلاء الفقهاء ،

فانقسمت الرعية الى قسمين متساويين أولاً ، ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب وكان هذا سخياً جواداً مواسياً للفقراء ، فلقبوه « أبا العرب » لكرمه فلما طالت الفسنة بينه وبين أخيه واضطرب حبله صاروا يلقبونه « بلا العرب » .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولائم المخطيء الهبل

وأخيراً استصفي سيف أكثر البلاد ، ولم يبق لبلعرب الا بيرين . وبينما أخوه يحاصره إذ قبض ، فاستراح واستراح بموته أخوه ، وصفا الوقت لسيف ، وتوفرت همته كآسلافه على مكافحة البرتغاليين ، فأجلاهم عن مومبازه Mombasa (نغر من نغور شرقي افريقية واقع في جزيرة من سواحل زنجبار تملكها البرتغال ، ثم سلطان مسقط ، ثم سلطان زنجبار ، ثم سنة ١٨٩٠ استولى عليها الانكليز الذين هدموا بنيان هذه المملكة وورثوا أنقاضها وصارت مومبازه عاصمة لمستعمرة شرقي افريقية الانكليزية وفيها ٣٠ ألفاً من السكان) وعن جزيرة ممبا (هذه أيضاً جزيرة من سواحل زنجبار سكانها ٤٠ ألفاً صارت أيضاً تحت الحماية الانكليزية مثل زنزيبار) وغيرهما من الجزر والسواحل التي كان العمانيون قد أحرزوها في شرقي أفريقيا ، فجاء البرتغاليون وأخذوها من أيديهم في نحو سنة ١٥٠٣ فكان استردادها على يد سيف بن سلطان في سنة ١٦٩٤ .

واجتاح أسطول سيف جزيرة سلزيت ، بقرب بمباى الهند ، وكذلك مدينتي بارسالور ، وماغالور ، ولم يقدر راجا كارناتيك أن يذب عنهما .

وكان سيف حكماً ، مدبراً ، محباً للعمران ، بصيراً بالاصلاح ، فانتظم بادارته جمهور المرافق والمصالح ، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناجح ، وهو الذي شرع في بلاده بحفر قنى المياه تحت الأرض لأجل الري (نظير القنى التي بغوطة الشام منها في قصبه دومة ومنها ما بين الاشرفية وصحنايا ، ويوجد قناة من هذا القبيل طولها أكثر من ساعتين تفيض على جبرود في القامون الأدنى وغير ذلك) ويسمون ذلك في بلاد عمان فلجاً . (الفلج بضم الفاء واللام في اللغة الساقية التي تجرى الى البستان ، والفلج بفتحين النهر الصغير) ففاضت الخيرات بهذه القنى ، وترقت الزراعة ترقياً بالغا ، واعتنى سيف أشد الاعتناء بغراس النخيل ، واستجلب أصنافه ، وبلغ في ذلك غاية الاعتزام وأمد الالتزام ، وصار ذا ثروة طائلة ، ونعمة لاتحصى ، قيل انه كان يملك ثلث نخيل عمان ، وكانت حاضرة سيف مدينة

رستاق ، وتوفي بها في ٣ رمضان سنة ١١٢٣ (١٧١١) وخلفه ابنه سلطان بن سيف وهو المعروف بسطان الثاني .

فنقل هذا كرسى المملكة الى مدينة الحزم ، وانتزع البحرين من أيدي العجم الذين كانوا استولوا عليها سنة ١٦٢٢ منذ طرد الشاه عباس البرتغاليين من هرمز . ومات سلطان تاركا ولدين : أحدهما اسمه سيف ، وكان يافعاً ، والآخر مهنا وكان بالغاً رشيداً . فانقسم الناس في أمر الخلف ، اذ بعضهم أرادوا انتخاب سيف اماماً ، والآخرون اعترضوا من جهة حداثة سنه وأرادوا مهناً ، وكان هوى العامة مع سيف ، وهوى الخاصة والعلماء مع مهنا . وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة ، نافذ القول ، اسمه الشيخ عدى بن سليمان ، تدخل في الأمر اتقاء الفتنة ، فنادى بسيف اماماً ، ولكنه كان يلفظ ذلك بفتح الهمزة فيقول « أمام » بدلا من « إمام » وسكن بذلك العامة ريثما انقضت تلك الهيعة ، فأدخلوا مهنا الى القلعة سراً ، وجعلوه إماما (١١٣١ - ١٧١٨) وكان مهنا على جانب عظيم من الحدق والمهارة ، وطول الباع في الادارة ، فانه بدأ بجعل مسقط مرفأ حراً ، بأن أسقط فيها المكوس وسائر ما يؤخذ على البضائع ، مما زاد حركة الأخذ والعطاء ، وبشر بمستقبل عظيم الا أنه افلتت بأمر لم يكن يفطن له ، وهو أن أهالي رستاق ونفس عشيرته قاموا يطلبون الامامة ليعروب بن بلعرب ، ورفعوا لواء العصيان ، وزحفوا إلى مسقط ودخلوها ، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا ، فاعتصم بقلعة رستاق ، ثم داخلوه في الأمان ، فأمن للثأرين وسلمهم القلعة ، فلما حصل في أيديهم باقوه وقتلوه (١١٣٣) وتولى الأمر يعروب في البداية باسم سيف الصغير ، ثم جعل نفسه اماما أصيلاً ، وأخذ حكماً شرعياً من قاضي ذلك الوقت ، بأنه أحرز الامامة بحق ، وانه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب حتى ان الأموال التي اغتصبها هي حل له بحجة أن التوبة تكفر عن الذنب .

ولكن كان لسيف أشياع وأنصار لم يخضعوا لهذه الثورة ، فقام بلعرب بن ناصر بامر سيف الصغير وزحف الى رستاق ، ففر يعروب الى تروة ، وقتل القاضي عدى بن سليمان وطيف بجثته في الأسواق . وتفاقت الفتنة ، فتوسط أناس في الأمر ، فتحول يعروب الى يبرين وأقام بقلعتها . وأقيم سيف بن سلطان إماما بكفالة عمه بلعرب ، وقيل انه لما جاءت وفود القبائل تنهى الامام الجديد بالملك ، أساء بلعرب هذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بني غافر

وقيل انه توعدده ، فانصرف محمد هذا مغاضبا ، وداخل يعروب في الاتفاق على سيف وعمه بلعرب . ثم انتقض محمد بن ناصر على الامام ظاهراً ، واستولى على رستاق ، ثم أسر الامام واستبقاه رهنا في قبضته . وما زال أمره يقوى حتى دخلت جميع عمان في حوزته ، ما عدا مسقط وقلعة برقة . ومات في أثناء ذلك يعروب الذي كان محمد بن ناصر يقاتل باسمه ، فلم يبق رئيس في وجه محمد بن ناصر سوى خلف بن مبارك المسمى « بالقصير » بالتشديد . فوعدت الحرب بينهما والتجأ القصير الى حصن برقة ، فحاصره ابن ناصر فلم يقدر على أخذه ولست بقين من محرم سنة ١١٣٧ أو ٢ اكتوبر سنة ١٧٢٤ نودي بمحمد بن ناصر إماما في نزوة . ولكن خلفا بن مبارك بقي يجاذبه الجبل . وزحف الى رستاق ، والنخل ، وصحار ، واستولى عليها ، فصمد اليه محمد بن ناصر برجاله ، واشتعلت الحرب ، فوقع خلف قتيلا في حصار صحار . وبينما محمد بن ناصر قد ظن أن الأمر قد اتسق له ، وانه تخلص من عدوه ، اذ أصابته رصاصة من جهة القلعة أودت بحياته . فرجع الناس الى سيف بن سلطان وبايعوه في أول رمضان سنة ١١٤٠ أو ٢ ابريل سنة ١٧٢٨ وكان سيف بلغ سن الرشد وحكم القاضى بصحة إمامته شرعا .

وما مضى على ذلك مدة حتى قام اهالى الزاهرة وبايعوا ابن عمه بلعرب بن حجير ، فاشتعلت الحرب بينهما فلم يقدر سيف ان ينال من ابن عمه وطرا ، فالنجأ الى نادرشاه صاحب فارس . وكان سيف بن سلطان محتاجا الى مشير يعتمد على رأيه فأشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاستقامة اسمه احمد بن سعيد من عترة يقال لها البوسعيد . فتولى هذا مدينة صحار واحسن ادارتها وجد الناس طريقته ، فحسده سيف على المنزلة التي نالها في قلوب الاهالى ، و اراد ان يقبض عليه الا ان الناس أصلحوا بينهما . ولكن سيفا بقي يخشى ابن عمه بلعرب بن حجير ، فاستمد العجم كما تقدم فأنجدوه بجيش تقدم الى الزاهرة ومعهم سيف بجماعته فتغلبوا على بلعرب واخشوا في القتل والنكابة ، حتى رجع سيف الى نفسه ، ورأى عداوة ابن عمه اهون من صداقة العجم ، فأنحاش الى مسقط . ولبت العجم يجتاحون البلاد ويوقعون بالاهالى ، حتى قام بنو غافر على بلعرب . واجبروه على التخلي عن دعواه في الامارة ، ومبايعة سيف بدون منازعة . فلما اتفقت كلمة العمانيين ثملت الحملة على الاعاجم ، فخلوا عن البلاد ، الا الجيش الذى كان امام صحار ،

فانه بقي يحاصرها . وفي هاتيك الاثناء قام رجل في مدينة النخل اسمه سلطان ابن مرشد من بني يعروبة ، فادعى الامامة (١١٥٠ - ١٧٣٨) وانزعج ا كثر البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جلتها مسقط . فاستغاث سيف بالعجم ثانيا مرة ووعدهم بالتخلي لهم عن صحار ان ضمنوا له الاستقلال بالامامة ، فسرح العجم جيشا الى مسقط استولى على البلد والحصون ، ولكنهم لم يسلموها الى سيف فذهب هذا الى بلدة الحزم ، ومات بعد ذلك بقليل . اما سلطان بن مرشد فمات على اثر جراحة اصابتة في قتال العجم على صحار فلم يبق من الزعماء الا أحمد بن سعيد الذي كان له الفضل الاكبر في امتناع صحار ، واجلاء الايرانيين عنها . ثم ان احمد هذا لم يكف بتخلص صحار حتى استولى على برقة وحاصر مسقط ، فارسل الايرانيون ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف الى الشاه ياتمسون منه الامر بتسليم حصون مسقط الى ماجد ، فصدر الشاه الامر للالزام الى الحامية الفارسية بتسليم الحصون اليه ، فوقع الأمر باتفاق غريب في يد احمد بن سعيد فابلقه الى الحامية وخرج هؤلاء على أنهم سلموا الحصون الى احمد بن سعيد باسم ماجد ، والحقيقة ان احمد تسلمها بالخديعة . وبعد ذلك صنع وليمة عظيمة للايرانيين في برقة ، كانت نهايتها أن الاهالي هجموا عليهم وذبجهم ، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل فارس ، ولما كان ملاحه السفن هم من العرب ، احرقوا السفن لاهلاك الايرانيين الذين كانوا منهزمين بها الى بلادهم ، وقذفواهم أنفسهم في اليم ، ونجوا سباحة الى الشاطئ ومهارة العمانيين في السباحة واقتحام البحر معلومة . وهكذا انتهت غزاة الفرس ببلاد عمان .

ولما تم استخلاص بلاد عمان على يد أحمد بن سعيد ، اجتمع الرؤساء والاعيان ببلدة رستاق ونصبوه اماماً (١١٥٤ - ١٧٤١) فاحسن التدبير ، وسن للمملكة قوانين مالية ، وتجارية واستقى لنفسه امارة الجيش البري ، وعهد الى رجل من خواصه بنظر الاسطول ، ونظم جيشا دائماً . وبينما هو دائب في تدبير الامور اذ برز بلعرب بن حير ودعا لنفسه ، واعصوب حوله كثير من الناس ، فاراد أحمد بن سعيد ان يمتحن قومه ويعلم هل يثبتون معه الى الآخر ام لا ، فتخبأ في كسر بيت عند احدي العجائز ، وشاع خبر موته فاشتد عزم بلعرب ، وذهب بعشرين الف مقاتل يحاصر نزوة ، فبرز أحمد بن سعيد من مخبأه فوجد قومه على ولائهم له ، فزحف الى بلعرب بجيش كثيف وتغلب عليه وسقط بلعرب قتيلاً في

المعركة . وسنة ١١٧٠ وفق ١٧٥٦ استولى العجم على البصرة ، فذهب أحمد بعشر سفان حربية تبحر عددا كبيرا من القوارب حمل عليها ١٠ آلاف مقاتل ، وهزم الإيرانيين ، ونصر الدولة العثمانية نصر مؤزرا ، فسرت الدولة منه واجرت عليه راتباً سنوياً كان لا يزال جارياً على أئمة مسقط الى أواخر القرن التاسع عشر .

وكان من جملة اسطوله طراد اسمه « الرجائي » هو الذي كسر سلسلة الحديد التي وضعها الإيرانيون في شط العرب ، لمنع اسطول عمان من الدخول الى البصرة ، فارسله أحمد ابن سعيد الى مانغالور في جنوبي الهند سائلا عن السبب في حجز مؤونة الارز التي كانت ترد عمان كل سنة ، فاستقبل تيبو صاحب عامل السلطان اعلم في مملكة غرناتيك ، مندوب امام عمان بكل حفاوة ، واخبره ان السبب في ذلك هو من متلصصة البحر الذين بساحل المالابار ، فقصدهم الطراد الى ديارهم وقتل زعيمهم .

وكانت بلاد الزاهرة بمكانها من داخلية البلاد لم تخضع تماماً لأحمد بن سعيد . وكان علو الكلمة فيها لبني غافر ، فثار فيها أحدهم ناصر بن محمد واشتعلت الحرب بينه وبين أحمد ، فساق عليه هذا عساكره من العمانيين ومن المرتزقة من البلوجيين والمكرانيين . فانكسروا وأخيراً تصالح الفريقان على أن تبقى بلاد الزاهرة في يد بني غافر ، ويعترفوا بسيادة اسمية للإمام أحمد بن سعيد . وكانت قلعتا النخل والحزم لاتزالان في أيدي بني يعروبة ، فحاول انتزاعهما من أيديهم بدون جدوى . ولم يكف كون بني غافر مستقلين بالزاهرة وبنو يعروبة مالكين بعض الحصون حتى ثار على أحمد ولداه سيف وسلطان ، واعتصما بقلعة برقة ، ثم تماديا في الجرأة حتى أخذوا الحصون التي بظاهر مسقط ، ولكن أحمد أخذ هذه المسئلة بالتؤدة وانتهت بينه وبين بنيه بسلام . ومات هو في ذي القعدة سنة ١١٨٨ أو يناير سنة ١٧٧٥ وقد ملك مدة ٣٤ سنة كريتا . وكان خلاص عمان من غارة العجم على يده . وكانت الامامة في عمان من صدر الاسلام تقع دائماً بالانتخاب على حسب مذهب الخوارج . والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة والجماعة أيضاً ، ولكن تحول الأمر بعد أن صار ملكاً عضواً الى مبايعة الوارث الذي يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك في عمان أيضاً ، فبعد أحمد بن سعيد تولى ابنه سعيد . وكان بعض الأهالي فضلوا ابنه هلالاً لفضل ذكائه وحذقه ، الا انه كان كفيفاً ، فأقرت أكثر البلاد بامامة سعيد ، ثم

غاض الأهل من سعيد كثرة مآقارف من الاحتكارات ، وأحدث من البدع ، فأرادوا خلعهم ونصب أخيه قيس الذي كان في صحار ، فلم يتسق لهم ذلك . الا ان حامداً بن سعيد استولى على مسقط وعجز أبوه عنه ، وبقي إماماً بالاسم فقط فجعل حامد مسقط هي العاصمة بدلاً عن رستاق ، وعظمت مسقط في أيامه ، وتولى الأمر عشر سنوات ومات في ١٨ رجب سنة ١٢٠٦ وكان وقع خلاف بينه وبين عمه سيف ، وفصل سيف هذا الى مستعمرات عمان في شرقي افريقية ، فتبعه حامد الى هناك ثم مات سيف وعقب ذلك موت حامد وكان سعيد الامام الأعلى لايزال حياً ، فاسترجع الأمر الى يده بوفاة ابنه المتغلب عليه . ولكن لم يطل الزمن حتى وقعت الفتنة بين اخوته وأولاده ، وصار بعضهم يقاتل بعضاً . وانتزع سلطان أخوه مدينة برقة من يد علي بن هلال . ثم أخذ مسقط واستبد بالأمور . سنة ١٧٩٨ في ١٢ أغسطس انعقدت معاهدة بين شركة الهند الانكليزية وبين سلطان علي بعض مسائل تجارية ، وتبعها معاهدة أخرى بينه وبين الانكليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ بموجبها يحق لانكلترا اقامة معتمد بمسقط .

وأخذ سلطان يمد سلطته في البلاد ، فانتزع من يد أخيه سعيد ثغرى السويق والمصنع وافتتح جزائر قشم ، وهورمز ، والبحرين في الخليج الفارسي ، وجعل ابنه سلماً أميراً عليها . الا ان قبيلة العتوب التي كانت تلى أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها وطردت ابنه منها ، وفي هاتيك الايام غزا الوهابيون عمان ، واجتلبوا الزكاة من الزاهرة ومن الجهات الشمالية ، ووقع الخوف من تقدمهم الى الجنوب ، وكان سلطان قد حج تلك السنة فلما عاد من الحج وجد البلاد في المقيم المقعد ، فعمد جمعاً قرر فيه النفي العام لصد الوهابيين ، فلما بلغ ذلك قائد الجلة الوهابية عجل بالانصراف ، وظهر ان الأمر استوسق لسلطان . الا انه بقضاء الله وقدره هلك بعد ذلك بقليل في قصة عجيبة ، وهي انه زار البصرة وبينما هو قافل منها ، نزل من سفينته في مرسى لنجة وركب قارباً قاصداً بندر عباس ، وكان الوقت ليلاً ، فالتقاء ثلاثة قوارب عليها رجال من بني الشويحي سكان رأس موسى نديم ، فأرادوا أن يقبضوا عليه ، فقتلتوا ثم أرجأوا البراز الى الصباح ، فبينما كان سلطان بشدة بأسه وابسال نفسه على وشك الظفر بهم ، إذ فاته أحدهم بضربة كانت القاضية ، وذلك في ١٣ شعبان سنة ١٢١٩ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ .

وكان سعيد لا يزال في رستاق على امامته الاسمية ، وكانت البلاد أشبه بالفوضى ، والأعمراء كانوا متعددين ، عدا كون الوهابيين لهم جند في « البريمي » . وكان سالم وسعيد ولدا سلطان يجتهدان في لم الشعث ، وجع الكلمة ، فأجعا أخيراً على استصراخ فتح على شاه صاحب فارس ، وتعهدا له بتقديم المؤونة اللازمة للتجريدة التي يريدانها ، فأمدهما بثلاثة آلاف فارس ، ركبت البحر من بندر عباس الى برقة ، وهناك وقع القتال بينها وبين الوهابيين فلم يفر أحد بالآخر .

وكان قرصان رأس الخيمة الذين يقال لهم القواسم ، قد تبادوا في العيث ، وطالما اكتسحوا سواحل الهند ، فأرسلت شركة الهند الانجليزية أسطولاً دمر وكرهم في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٠٩ وسأقت رئيسهم حسناً بن رجة أسيراً . وبعد ذلك استعان السيد سعيد بالانكليز على أخذ قلعة شيناس التي كانت تصدر منها الغارات على بلاد صحار ، فتمكن سعيد من القلعة في ١ يناير ١٨١١ وقفل الانكليز الى الهند بعد أن نصحو سعيداً بالقبول الى بلاده ، فلم يتقبل النصيحة فوافاه مطلق المطيري قائد الوهابيين ، فهزمه وألزمه دفع الزكاة السنوية لابن سعود .

ولما خضد ابراهيم باشا ابن محمد على صاحب مصر شوكة الوهابية ، وأخذ الدرعية سنة ١٨١٨ تخلص سيد عمان من حكم هؤلاء ، وغزا جزيرة البحرين فصدته العتوب أصحابها عنها وقتلوا أخاه وجعاً من أصحابه . وكان قرصان رأس الخيمة عادوا الى عيشتهم ، فغزاهم الجنرال كير Keir الانكليزي من بدمای بقوة ، وظاهره عليهم السيد سعيد ، فأنتهى الأمر بعقد معاهدة بين الانكليز وحليفهم سيد عمان من جهة وبين زعماء رأس الخيمة وجوارها من جهة أخرى . وسار السيد وحلفاؤه الانكليز لقتال عرب جعلان الذين كانوا نبذوا مذهب الاباضية وتوهبوا ، وكان مع السيد ثمانية مدافع والفا بدوى ، فكسرهم الجعلانيون وجرح السيد سعيد في يده (٩ نوفمبر ١٨٢٠) .

وفي ذلك الوقت توفي الامام سعيد بن أحمد بن سعيد الذي هو آخر من لقب من رؤساء عمان بالامام ، وهو عم سعيد الذي اصطلحوا على تلقيبه بالسيد وأخيه السيد سلطان الذي كان عضداً لأخيه السيد سعيد . ولم يحدث موت الامام سعيد فراغاً كبيراً لأن أمر عمان كان بيد سعيد منذ مدة طويلة . وتوفرت همته على توسيع مستعمرات عمان في

سواحل افريقية الشرقية فذهب الى جزيرة زنزيبار ، وغزا جزيرة مومباسه بقوة عظيمة ، وما زال يشدد عليها القتال حتى افتتحها ، وعالج فتوح بلاد أخرى فاغتم فرصة غيابه الطويل بعض أعدائه مثل القواسم ، فرفعوا رؤوسهم واستولوا على بعض المراسي ، وأخذ جود بن عزان صحار وهلال بن محمد بلدة السويق . واضطر السيد سعيد الى استمداد حلفائه الانكليز فأرسلوا أسطولاً الى سواحل عمان لتمكين نفوذ حليفهم ، ووقع القتال بين السيد سعيد وابن عزان على صحار ، واستعان سعيد على هذا بالوهابيين ، وبعد وقائع يطول شرحها دخل الانكليز بينهما ، وأخذوا من ابن عزان عهداً بأنه لا يأتي بحركة . ولكن لم تمض مدة حتى أراد هذا أن يوسع اطماعه فنصح الانكليز بالسكون . وكان ابن عزان قد اعتزل الامر وترك صحار في يد ابنه سيف ، فامتنع هذا من ايتائه جانباً من الخراج لمعيشته واشتد الجفاء بينهما الى أن ائتمر ابن عزان وبعض خواصه بابنه سيف وقتلوه ، فأرسل السيد سعيد الى ابنه تويني بان يقبض على جود بن عزان ويطلق به في السجن ، فقبض عليه واعتقله في قلعة حيث مات . وخلف جود على صحار أخوه قيس ، وأراد أن يرفع رأسه فزحفت اليه جوع سعيد ، واضطرته الى الطاعة ، وانما عوضه السيد سعيد من صحار بولاية رستاق على أن ينصح في الخدمة ويقلع عن الجبر والخنزوانة وكان ذلك سنة ١٨٥٢ .

وعام ١٨٥٤ احتل العجم بندر عباس ومواقع أخر من ساحل كرمان ، واجلوا العمانيين عنها بعد أن شغلها هؤلاء نحو مائة سنة بحجة انهم مستأجرون أرضها ، واحيانا بقولهم انهم ينوبون فيها عن شاه العجم . فشق ذلك على السيد سعيد وأرسل قوة تحت قيادة ابنه تويني استردت بندر عباس وغيرها ، فأرسل ناصر الدين شاه قوة كثيفة من الداخل ومنع الانكليز السيد سعيداً من امرار جنود في البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم بحجة انهم لا يسمعون بحركات حربية في ذلك البحر . فسقط في يد السيد سعيد واضطر الى مصالحة العجم في شعبان سنة ١٢٧٢ أو ابريل سنة ١٨٥٦ وترك لهم جزيرتي هورمز وقشم وغيرهما . ومات سعيد بعد ذلك على ظهر بارجة كانت ذاهبة به الى زنزيبار (١٩ اكتوبر ١٨٥٦) وقد خلف ١٥ ولداً ، فدعا ماجد الرابع من اولاده لنفسه ، وكان تويني بكر اولاده والى عمان في حياة أبيه ، فوقع الخلاف بينهما وانتهى أول مرة بان يبقى

ماجد سلطاناً على زنجبار ويؤدى اناوة سنوية الى أخيه توينى فى مسقط . ثم قطع ماجد دفع الاتاوة فجهز توينى اسطولاً عظيماً لغزو زنجبار ، وبلغ الخبر الحكومة الانجليزية فتوسطت فى الأمر وحكمت اللورد كانينغ Canning والى الهند الاعظم فيما شجر بين الاخوين ، فتقرر انه لما كان الانتخاب هو أساس السلطة عند الاباضية فان أهالى زنجبار قد اختاروا ماجداً اماماً لهم ، كما ان اهالى عمان قد اختاروا توينى ، فيكون كل منهما سلطاناً فى محله . ويؤدى ماجد اتاوة سنوية الى أخيه بدلاً من حقوق عمان على زنجبار وافريقية الشرقية (سنة ١٨٦٢) وهكذا انحسرت هذه الفتنة . ولكن جدت فتنة ثانية ، وثالثة ، وصار توينى على حد قول القائل : كلما داويت جرحاً سال جرح . فان تركى ولد سعيد الثالث كان والياً فى صحار ، فثار باخيه توينى وألجىء هذا الى استصراخ الوهابيين لقمع ثورته . وسنة ١٨٦٤ تنزى عزان بن قيس على توينى واعلن الطاعة لابن سعود ، ولما كان الانكليز يعلمون ان الوهابية دعوة وان الدعوات الدينية لا سيما الى مبادئ السلف من الاسلام يخشى منها ، اهتموا بصددهم عن بلاد عمان ، وامتدوا توينى بالمدافع والاعتاد ، وأشاروا الى رؤساء البلاد بان ينضوا تحت لواء السيد توينى ، على شريطة ان لا يسيروا برجالهم بحراً - قد سبق لانكلترة هذا المنع فى النزاع الذى وقع بين ناصر الدين شاه والسيد سعيد ، فكأن انكلترة لا تطيق ان ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلاً واحداً ان لم يكن تحت رايتهما -

ثم ان توينى بن سعيد وجد مقتولاً ، قيل اغتاله بعضهم وهو نائم بمؤامرة ابنه سالم وجلس سالم مكان أبيه وتودد الى الانكليز ، واعترف هؤلاء به أميراً بحجة انه لم تثبت عليه تهمة قتل أبيه ، وبأن أهالى البلاد قد بايعوه ، فليس للغريب أن يدخل فيما لايعنيه . أما تركى أخو توينى فانه أخذ بمنأوة ابن أخيه ، واستولى على صحار والمطرح ، وكاد يدخل مسقط لولا كون الانكليز أرسلوا بارجة حربية وفتته عند حده ، ثم أخذوه الى الهند حيث أجرى عليه ابن أخيه رزقاً يقوم بأوده . ثم ثار السيد حامد بن سالم من أبناء عمومتهم ، وبعد وقائع بينه وبين سالم جرى الصلح بينهما . ثم انتقض عزان بن قيس ودخل مسقط ، ففر سالم منها والتمس من المعتمد البريطانى فى خليج العجم امداده ليعود الى كرسي حكمه ، فأبى المعتمد المشار اليه اجابة طلبه ، فحاول استرداد مركزه بقوته الخاصة ، فلم يفلح وظهر

أن الانكليز قد خنلوه ورجعوا عليه تركى أنا توينى ، الذى كان مقبها بالهند كما سبق ،
 نجاء من بمباى الى مسقط وتسلم زمام الامارة ، وطرده عزان بن قيس ، وكان الوهابيون ردا
 له فى حركته هذه واستوسقت له الأمور منذ سنة ١٨٧٤ وحصلت وقائع بينه وبين أهالى
 بلاده فتغلب على الثأرين بعضد انكلترة التى صارت هى ذات الحول والطول فى القطر
 العمانى . وسنة ١٨٨٨ خلفه ولده السيد فيصل بن تركى ، وذلك بموافقة انكلترة التى أصبح
 أمير مسقط لا يصدر الا عن رأيها ، وهى منذ سنة ١٨٧٣ أخذت على نفسها دفع الاتاوة
 السنوية المفروضة على زنجبار لمسقط ، وصارت بمثابة الولى على هذه البلاد .

ولما كانت انكلترة منذ وضعت يدها على مصر طمعت فى الاستيلاء على جزيرة
 العرب بأسرها ، وعملت لذلك برنامجاً خفياً منذ مدة مديدة ، تحقق منه قسم والقسم
 الثانى هى شارعة فى تمهيد عقباته ، وكانت ترى أن أعظم عامل فى استيلائها على مصر
 وعجز أهالى هذا القطر عن دفعها عنه بوجه من الوجوه ، هو فقدانهم للسلاح المادى الذى
 هو واسطة الدفاع الوحيدة ، فقد باشرت مشروع تعليم أطفال العرب ، وحظرت على تجارها
 بيع الأسلحة من أهالى اليمن ، مع كونهم يومئذ تابعين للدولة العثمانية ، وبديهى أن ذلك
 ليس لأجل تسهيل ادارة اليمن على الدولة العثمانية ؛ بل لأجل تسهيل استيلاء انكلترة على
 اليمن فى أول فرصة تقع ، وحرمان قبائل اليمن من أسباب الدفاع عن حوضهم ، عند
 ما تريد العساكر الانكليزية أن توغل من عدن ولحج الى داخل اليمن . وقد أرادت أن
 تجرد من السلاح أيضا قبائل العراق التى كانت اطماعها تحوم حوله من قبل الحرب العامة
 بزمن طويل ، فكانت ترسل من قبلها من يتناع البنادق من عرب العراق ، ويؤدى الى
 البدوى عن البندقية الواحدة ضعف ثمنها ، والبدو لا يعلمون ما وراء الاكمة ، ولا يشعرون
 بما هو مخبأ لهم وراء هذه المكاييد الخفية من الائتار بكيانهم ، والعمل لنزع كل وسيلة لحفظ
 استقلالهم . وقد نبهنا الأمة العربية مراراً فى مقالاتنا العديدة منذ بضع عشرة سنة الى
 السر الحقيقى فى منع بيع السلاح من أهل اليمن ، وفى انتزاع البنادق الحديثة الطراز من
 أيدي عرب العراق بصورة الشراء . وكان يحول دون سماع النصيحة الجهل الفاشى ، والغفلة
 المطبقة من جهة ، وسعى اجراء الأجانب فى البلاد العربية ، والضاربين على أوتار الانكليز
 ممن يدعون أنهم من مفكرى العرب فى ترويج السياسة الأجنبية الاستعمارية من جهة

أخرى . ولقد كشفت نتيجة الحرب العامة حقائق تلك الدعاوى والجد لله ، وفضحت أسرار تلك السياسة الخفية ، وعرف كل من عنده حصة من عقل مرمرى الدول المستعمرة من تجريد العرب من السلاح ، وكونها إنما تريد منذ زمن طويل أن تطبق في جزيرة العرب سياستها في مصر ، وإن لم يتسق لها أن تؤسس لخفر السواحل العربية ادارة كادارة خفر السواحل المصرية ، وتفحش في مجازاة من توجد عنده بندقية ممنوعة ، وتجزل مكافأة كل من يجبر بوجود بندقية ممنوعة عند جاره ، فانها كانت ولا تزال تنوى الوصول الى هذه الغاية من سبيل أخرى ، الى أن يتيسر لها فيما بعد تطويق جزيرة العرب كلها بادارة خفر فعليه ، تمنع وصول أى سلاح الى العرب ولو من طريق الجو . ولقد كان من جملة مواد معاهدات الحلفاء فيما بينهم بعد الحرب العامة ، منع تسريب السلاح ، وحظر بيع السلاح الى كل مملكة من ممالك الأعداء بتاتاً ، ولما رأوا أنه قد يعترض عليهم بأن مملكة الحجاز مثلاً من جملة ممالك الحلفاء ، وإن مملكة العجم ، ومملكة عمان ، ومملكة أفغانستان مثلاً ، وإن لم تكن من ممالك الحلفاء فليست من ممالك الأعداء ، والحال أن الدول الاستعمارية تعد جميع البلاد الاسلامية بدون استثناء ممالك أعداء ثم انه يجوز أن هذه الممالك تسعى في شراء أسلحة من أوروبا فيصعب فيما بعد ابتلاعها أو كسرها ، فقد احتاط الحلفاء لذلك بوضع مادة في تلك المعاهدة قيل فيها « ويمنع بيع الأسلحة أيضاً من الممالك التي مدنيته من الدرجة الثانية » فدخلت في حكم هذا المنع جميع الممالك الاسلامية الباقية على الاستقلال تماماً أو نوعاً . والمقصود من ذلك غير خاف ولا على الطفل الصغير وهو ان البلاد الاسلامية صديقة للحلفاء أوعدوة لهم محكوم عليها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلايجوز لها أن تسليح . وأما مملكة عمان فقبل الحرب العامة بستين حاولت انكثرة تجريد أهلها من سلاحهم حتى تريح بالها من جهتهم ، وتأمين كل انتقاص فيما لوزادت بسط سلطتها عليهم ، فأوعزت الى تيمور أمير مسقط بجمع الأسلحة من أيدي الأهالي ، وأصرت عليه بذلك . فلما حاول هذا الأمر انتقض عليه الأهليون ، وبايعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب ، وزحف الثوار الى مسقط وحصروا الأمير ، وكادوا يوقعون به لولا أن وردته نجدة انكليزية حفظت له حياته ، وصدت الأهالي عن مسقط ، ولم تنته هذه الفتنة التي استمرت نحو سنتين الا باقلاع الأمير عن فكرة جمع السلاح ، واقتناع انكثرة بان

سهمها في هذه القضية طائش عن المرمى ، وانها لاتقدر الا على منع دخول السلاح من طريق البحر ، فأما أخذ الأسلحة من أيدي العرب في أرضهم فليس من الأمانى الانكليزية التي يمكن تحقيقها .

هذه مملكة عمان التي كانت أقوى دولة بحرية في آسية ، لاني بلاد العرب وحدها والتي قرأت في بعض المؤلفات الأوربية انها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ بارجة حربية ، قد آل أمرها بتلاعب انكلترة بأمورها الى أن سقطت عن عزها وعاد بدرها عرجوناً وصارت امارة صغيرة لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً ، ولا يقدر أميرها أن يأتي بأمرهما كان تافهاً الا اذا أشار به المعتمد البريطاني . فنزف هذه الحقيقة الى أولئك البله الذين من أبناء جلدتنا لا يزالون يحلمون بأن انكلترة لا بد أن تؤسس لهم دولة عربية

وأما زنجبار والمستعمرات التي كانت لعمان في شرقي أفريقيا ، فقد تقاسمتها انكلترة مع ألمانيا وايطالية ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنزيبار سوى اسم السلطنة فقط . وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلو متراً مربعاً معدودة من أخصب البقاع ، وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ، ومعاصر الزيت ، وأهلها ٢٠٠ ألف نسمة منهم عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ، ومن الواحديمو أى أهل الجزيرة الأصليين ، ومن البانين أى الهنود الشماليين . وكانت زنزيبار مع جزائر Pemba ومافيه Mafia ولامو Lamou والسواحل الافريقية المقابلة لها مملكة عربية ، أسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط ، بعد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون ، فوضعت أيديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على أن يكون لانكلترة سلطنة زنزيبار التي هي عبارة عن جزيرتي زنزيبار ومبما وما يقابلهما من الساحل من « اوانغا » Auanga الى كيسمايو Kismayou .

وأن يكون لألمانية جزيرة « مافيه » والساحل الذي بين اومبه Oumba ورافومه Ravouma وأن يكون لايطالية بعض ثغور في السواحل .

وأهم هذه النقاط هي زنزيبار ، وفي الجزيرة مدينة باسم زنزيبار أيضاً أهلها ١٠٠ ألف نسمة وهي مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادراتها وواردها بنحو ٦٠ مليون فرنك وقد كان سلاطين عمان أسسوا فيها عمراناً وأثلوا مدينة وشادوا مدارس . وقرأت بعض

أسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية في زنجبار .

وخاصة سلاطين زنجبار اسماً وفعلاً ، كان السيد برغش بن سعيد بن سلطان ، تولى الأمر في ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة أخيه ماجد ، وتبقى في الملك الى أن توفي في ٧ مارس سنة ١٨٨٨ ، وكان برغش قد نازع أخاه ماجداً الملك وأخذ الانكليز الى بمباي حيث أقام سنتين ثم تصالح مع أخيه وعاد الى زنجبار . ولما مات ماجد خلفه على كرسى الامارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانيا العظمى أي ما ربهها الاستعمارية . وفي ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٥ أجبرته انكلترة على امضاء معاهدة الغاء الرقيق في بلاده ، فأمضاها ثم دعاه الانكليز الى زيارة انكلترة فزارها ، وزار فرنسا والبرتغال . وفي سنة ١٨٨٥ ألفت ألمانيا دلوها في الدلاء وأرادت تأسيس مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التي كانت تخص السلطان برغش بن سعيد ، ووضعت يدها على جانب عظيم منها ، واستبقى برغش لنفسه السلطنة الاسمية . وقبل وفاته بقليل اختلف مع البرتغال على الحدود بين أراضيهم ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف الى ما بعد وفاته حتى جرى التحديد بين الالمان من جهة والبرتغال من جهة أخرى . وفي آخر حياته ذهب الى وطنه الأصلي عمان لتبديل الهواء ثم عاد الى زنجبار ومات وخلفه أخوه خليفة .

وكان برغش متوقد الذهن ، على الهمة ، صعب المقادة ، أبنى النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للاوربيين الذين كانت لا تخفى عليه مقاصدهم ، وكان واسع العلم بأطوارهم وأحوالهم . ومن بعده لم يبق للعرب من سلطنة في تلك الجزائر الخصبية ، والسواحل الطويلة العريضة الا بالاسم ، لأن الاوروبيين لاسيما الانكليز التزموا هدم أركان القوة العربية في تلك الديار ، حتى لا يبقى لهم معارض ولا منازع في استعمارها ، وكما انهم أوهنوا الأصل الذي هو عمان ، فقد أسقطوا الفرع الذي هو زنجبار ، لأن كل دولة عربية عزيزة على جوانب الاوقيانوس الهندي هي قذى في أعينهم ، وخطر على الهند في نظرهم ، ويجدون انهم لا يقدر ان يعولوا في تلك الديار الا بسقوط العرب على حد قول القائل : -

وكم قائل مالى رأيتك راجلاً فقلت له من أجل أنك فارس

وسياتى ذكر سواحل زنجبار ومستعمرة الشرق الافريقية التي كانت للامانية ثم انتقلت الى يد انكلترة وجزائر القومور مما كان الحكم فيه كله للعرب فابتزته منهم الدول المستعمرة الأوربية .

البكطاشية

المؤسس

البكطاشية أو البكطاشية^(١)، طريقة من الطرق الاسلامية ، تنسب الى أحد الأولياء المسمى « الحاج بكطاش ولى » ، الذى يقولون انه ولد « بنيسابور » وجاء الى الاناضول ، وهدى الانكشارية الى الاسلام ، فى زمان السلطان « أرخان » ، وكانت له كرامات وخوارق عظيمة ، وهو الذى أسس الطريقة المعروفة به . ولكن كثيراً من المحققين يرتابون بوجود الحاج بكطاش هذا ، ويقولون ان المؤسس الحقيقى لهذه الطريقة ، هو « باليم بابا » المتوفى سنة ٩٢٢ هجرية ، والذى يلقبه الدراويش البكطاشية بالقطب الثانى . ولقد ثبت وجود هذه الطريقة منذ أوائل القرن السادس عشر للمسيح فى الاناضول ، ثم انتشرت فى الروملى وأكثر من مال إليها أمة الأرناؤوط ، حتى يقال ان أكثر هذه الأمة بكطاشيون . وان الفرقة المعروفة بالاناضول ، وبلاد الأكراد بقزل باش أو على الهى ، هى على عقائد تشابه مذهب البكطاشية وان كان هؤلاء جميعاً يدعون كونهم من أهل السنة والجماعة ، فالحقيقة ليست كذلك ، وهى انهم من غلاة الشيعة ، يعتقدون بامامة الاثنى عشر من آل البيت ، ويعظمون كثيراً جعفر الصادق ، ويقولون بالأربعة عشر ولداً معصوماً ، الذين أكثرهم ماتوا شهداء من أولاد على . ويزورون قبور الأولياء ، ويصلون ويدعون عندها . ويزعم مؤرخو الافرنج انه لا بد أن يكون البكطاشيون فى الأصل نصارى ، بحجة ان عندهم التثليث ، وذلك بقولهم : « الله : محمد . على . » وان عندهم نوعاً من الاعتراف بالذنوب يذهبون الى مشايخهم ويسردون لديهم ذنوبهم ، والشيخ يحل من الذنب نظير القسيس عند النصارى . وهم يبجحون الحجر ، والنساء لايسدن النقاب ، وكثير من البكطاشية يمتثلون ويعيشون مجردين من الأزواج ، مما جيعه يدل على كون أصل هذه الطريقة غير اسلامى وأكثرت المتبتلين منهم كانوا ينقطعون فى تكية « قيزل دلى سلطان » بقرب « ديموطوقه »

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

من ولاية أدرنه . ويعتقد البكطاشية بالعدد لاسيما عدد أربعة ، ويقرأون كتاب فضل الحروف المسمى « بالجاويدان » ويقولون بالتناسخ ، والشائع عنهم انهم لا يقومون بفرائض الدين الاسلامي ، فلا صلاة . ولا زكاة ، ولا صوم ، ولا حج ، وانهم وقد رفعوا هذه التكاليف ، بحجة انها تجب على المبتدئ لا المنتهى ، وانه بعد الوصول يصبح الانسان في حل منها .

والشيخ الأكبر للطريقة يقيم بتكية « يراوى » أى بيت القطب ، فى المحل الذى يقال له « حاجى بكطاش » بين « قير شهر » و « قيصرية » . وليست هذه الرئاسة اريثة فى الأصل ، وانما هى منذ ١٥٠ سنة فى بيت واحد تنتقل من الأب الى الابن ، وللبكطاشية المتبتلين شيخ كبير أيضا ، مركزه التكية المسماة « مجرد بابا سى » أى « أبو المتبتلين » . ويسمى شيخ كل تكيه « بابا » ، والدرويش المقيم بالتكية « مريدا » والعامى الذى له تعلق بالطريقة « منتسبا » .

وكان للبكطاشية شأن كبير ، وكانوا على ربابهم فى أيام « وجاق الانكشارية » الذين كان البكطاشية لهم شيوخاً ومرشدين ، حتى أصبح اسم « بكطاشية » يطلق على الانكشارية كلهم . وكان فى ثكنة الأورطة الرابعة والتسعين ، وكيل مقيم للطريقة معروف رسماً ، لذلك كان كلما نار الانكشارية يشترك مربدو الطريقة البكطاشية معهم فى الثورة الى سنة ١٨٢٦ ، إذ استأصل السلطان محمود شأفة الانكشارية ، فانقضت صواعق نقمته على جماعة الحاج بكطاش ، فتهدم قسم كبير من تكاياهم ، لاسيما ماجاور منها الاستانة وقتل بعض رؤسائهم ومريديهم ومنهم شيخ تكية « مردفان كوى » .

ثم استأنفت الطريقة البكطاشية بعض ما كان لها من الشأن والحول ، ولها من التكايا فى الاناضول غير مركز القطب الأكبر ، وغير تكية المتبتلين تكية « عثمانجق » فى الشمال . وتكية بقرب ضريح الشيخ بطال ، من جوار اسكيشهر ، ويقال ان لها تكية بجبل المقطم بمصر .

البابية

لفظ باب

البابية، نسبة الى «الباب»^(١)، طرية شهيرة، ظهرت في بلاد العجم، بل هي من أشهر الفرق الاسلامية التي ظهرت في العصر الأخير، وتميزت بكون أتباعها لم ينحصروا في الشرق والعالم الاسلامي، بل وجد منهم في أوربا وأميركا أيضا. ولفظة الباب متداولة كثيراً عند الصوفية، وعند بعض الفرق الباطنية، يطلقونها على بعض أركان دعوتهم، بمعنى أنهم هم واسطة الدخول، وسبب الوصول، من قبيل قوله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلى بابها». والباب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يوجد في داخل البناء من البدائع والنفائس وحزرات الأنفس، مما كان يبقى مجهولاً عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب. فالباب عند المتصوفة وعند هذه النحل، هو رمز الدخول، والابتداء، والواسطة والمحل، والمعرفة، وجميع أنواع المقاصد العالية، وقد شاع استعمال لفظة الباب في هذه المقامات كلها عند جميع الأقسام الذين يعتمدون على اللغة العربية، وامتد الى غيرهم. «فالباب العالى» هو مكان الوزارة، لأنها هي الواسطة بين الراعى والرعية. والكتاب المؤلف يقسمونه الى أبواب، فيقولون الباب الأول، والباب الثانى، والباب العاشر، والباب العشرون، اذ بهذه الابواب يطلع القارئ على ما يتضمنه الكتاب. ويقولون أبواب الرزق، بمعنى وسائله، وأبواب الخير بمعنى الطرق المؤدية اليه، وقولهم: «يامفتح الابواب» يعنون به ياميسر الاسباب. والفقراء يقفون عند أبواب الكبار وأبواب الملوك، والوسائل الذى يستجدى ويتكدى يقال انه «على باب الله» وقد أخذ الطليان هذه الجلة من العربية ففى لغتهم «Ala Baballa» بمعنى السائل. والحاصل ان الباب من أكثر الالفاظ العربية تداولا، وقد كنى بها الكثيرون عن الوسيلة والواسطة، ولكن لم يشهرها أحد بمثل ما شهرها به السيد على محمد الشيرازى، الذى سمي نفسه «الباب»، بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية، وتبعه اناس تلقبوا من أجله بالبابية.

ولد السيد المشار اليه في غرة محرم الحرام سنة ١٢٣٦ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ وتوفي والده وهو صغير، فكفله خاله ورباه الى أن بلغ الرشد، فشرع يشتغل بتجارة والده، ولكنه منذ نعومة أظفاره كان مغرماً بالبحث في الامور الاعتقادية، نازعاً الى النسك، حتى قيل انه حمل نفسه على التقشف والتعبد الشاق، بحيث كان يقعد الساعات الطوال في عين الشمس حاسراً عن رأسه. ثم زار كربلاء، ولقي هناك بعض رجال الطريقة الشيخية، فتلقى عنهم، وسمعت انه أخذ عن رجل يقال له الشيخ البحريني. ولما عاد الى شيراز شرع يقرأ في المساجد، ويحمل في الجدال على رجال الدين، فمال كثير من الى مذهبه، وخطبوا في حبله، ثم ذهب الى الحج من طريق أبو شير، فسقط، فالبخر الاجر. وأثناء رحلته الى الحج الف بعض رسائل يقال ان اتباعه يعتقدون ما فيها وحيماً أو الهاماً. ومن جلة ما نسب اليه انه قال ان علياً هو قبل نبيل. ونبيل هو عندهم اسم محمد ﷺ وقد أطلعني بعض أدياء العجم على مؤلف بالعربية لا أعلم درجة مطابقته لتعاليم البابية، لاننا تعودنا من أهل الفرق الكبرى شرقاً أو غرباً وفي الاسلام أو في النصرانية، انه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيهة. يقول في ذلك المؤلف ان الانبياء أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته، وانتهى دوره، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم، وبعد آدم نوح، وبعد نوح ابراهيم، وبعد ابراهيم موسى، وبعد موسى عيسى، وبعد عيسى محمد (صلوات الله عليه وعليهم جميعاً) وبعد محمد الباب مؤسس هذه النحلة المسماة بالبابية. فما انتشرت تعاليم الباب حتى ثار الناس وكثرت القالة، وكثرت الامر الحكومة الفارسية، فأرسلت رجلاً يقال له يحيى الدارابي للتحقيق عن هذه العقيدة الجديدة، فذكروا أنه هو نفسه اعتقد بها وتحول بابياً، ثم ظهر وباء الريح الاصفر في شيراز فبرح أكثر الاهالي المدينة، وتحول الباب الى اصفهان، وكان حاكمها رجلاً يقال له «معتمد الدولة» فألقى الله في قلبه الرحمة على الباب فدفع عنه الاذى بقدر استطاعته، الا أنه توفي بعد ذلك بقليل، فصدر الامر لخلفه بالقبض على الباب واعتقاله، فأرسلوه الى قلعة «ماكو» باذر بيجان.

وكان رجل يسمى حسين البشروي، قد تبع مذهب الباب، وأخذ يث له الدعوة، فكان ممن قبلوا هذه الدعوة في طهران الاخوان «ميرزا يحيى نوري» الملقب بعد ذلك

« بصبح أزل » و « ميرزا حسين على نوري » الملقب فيما بعد بيهاء الله ، وهما فرعان من دوحه كريمة وكذلك خاتون اسمها « زرین تاج » ولقبها « قره العين » كريمة الملا صالح الباراكاني من قزوین كانت بارعة في الجال متناهية في الذكاء ، اتبعت المذهب البابي على أثر مراسلات سبقت لها مع الباب . وأخذ يستفحل شأن الباب شيئاً فشيئاً حتى أجمع اتباعه على عقد اجتماع للتشاور في بدخت من خراسان ، وعقب هذا الاجتماع أجمعت الحكومة الفارسية على استئصال شأفتهم ، فاجتمعوا وقرروا المدافعة عن أنفسهم بالسلاح ، واعتصم الملا حسين البشروي في مقام الشيخ الطبرزي فحاصره جند الحكومة ، وهلك في اثناء الحصار واشتد الضيق بالباية المحصورين ، وعضهم الجوع بناه ، فطلبوا الامان ، ولكن لم يكادوا ينتهون من الاتفاق على التسليم ، حتى غدر بهم الجند فذبجوههم على بكرة أبيهم (١٢٦٥ هجرية) . وثاروا في بلدة يقال لها زنجان ، واستولوا على قلعة على مردن خان ، وجعلوا لانفسهم متاريس ، ولكنهم اخيراً استسلموا الى جند الدولة . وذهب يحيى الدارابي الى ناريز ، وكان ، اهلها ناقلين على الدولة أموراً فانضموا اليه واعتصموا بالقلعة . ووصل بعض البايين الى شاه العجم قاصدا قتله ، وكان الله اراد موته على يد واحد منهم لكن في اجل آخر اما في المرة الاولى فانه أصيب بجرح ، وحماه اجله من الموت ، وعند ذلك صحت عزيمته على النقمة ، واشتغل الامر ، وكان ذلك في ٢٨ شوال سنة ١٢٦٨ الموافق ١٦ أغسطس ١٨٥٢ ، فتعقبوا البايين في كل سهل وجبل وجدوا في أثرهم الى كل وبر ومدر ، واخرجوا صبح ازل واخاه بهاء الله الى بغداد ، ثم ارسلا الى ادرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ثم وقع الخلف بين الاخوين ، فارسلت الدولة بهاء الله الى قلعة عكا ، وصبح ازل الى جزيرة قبرص . وقيل بل قبض على بهاء الله ثم أطلق سبيله فاستأذن في الذهاب الى كربلاء واقام اولاً ببغداد . وقبضت الحكومة الفارسية على الملا كاظم بتهمة انه من البايية وقتل في اصفهان ، وقتل ايضاً ميرزا أشرف الآبادي ، وذلك في عهد متأخر (سنة ١٨٨٨) وقتل عدد كبير سوى هؤلاء ، وانهمز كثيرون من البايين الى عشق آباد في الاراضي الروسية ، وبنوا هناك جامعاً خاصاً بهم واما قره العين فانهم اخرجوها لعهد الباب نفسه الى بغداد ، وانزلوها في بيت الآلوسي مفتي بغداد ، فاقامت مدة طويلة عنده ، وكان من يطعنون في البايية يشنعونها ، ويقولون فيها ، الاقاول ، كما هي العادة في حق من فارق الجماعة ، الا أن الآلوسي قال فيما بلغني :

«ماعدت عليها من سوء» وكانت تناظره وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، حتى قال الى المرحوم عباس افندي الملقب بعبد البهاء ، ابن بهاء الله امام البابية ، وابن امامها ، ان قررة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتي الألوسى على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله . وانشدنى الامير فرمان فرما عبد الحسين ابن عم شاه مظفر الدين وصهره والذي تولى الصدارة في فارس ، ابياتاً بديعة من نظم قررة العين على اسلوب غريب ومأخذ طريف ، البيت منها ما سدها فارسي ولحته عربية ، وهي ابيات في مناجاة الحضرة الالهية مطلعها عربي كله ثم تشفعه بابيات محبوكة من اللغتين ، اما المطلع فهو : -

لمحات وجهك اشرفت وجمال طلعتك اعتلى

وكان الامير فرمان فرما يحفظ شعر قررة العين ولده الامير فيروز خان ، (الذي صار ناظراً للخارجية بعد الحرب العامة) ويستنشده اياه وهو بعد في عهد الطلب عند ما قدم فرمان فرما الى سورية واصطاف بجبل لبنان منذ نحو خمس وعشرين سنة ، واتيح لنا يومئذ حظ معرفته وصحبته .

أما الباب فانه لما تعاضمت فتنة البابية وسالت فيها الدماء جىء به من قلعة ماكو الى تبريز وقررت الحكومة قتله مع صاحبه محمد على اليزدى ، فرفعوه واوثقود بحبل ثم رموه بالرصاص ، فاصابت الرصاصة نفس الحبل فانقطع ، وسقط الباب حياً ، فعد ذلك اتباعه من كراماته ، ثم علق ثانية ونفذ فيه أمر الله ، وطرحت تجاليدته في حفرة ، فجاء اتباعه واخذوا جسده الى طهران ، حيث أبقى محبباً على ما يقال تسعاً وعشرين سنة ، وبعد ذلك دفن بفارس ، ، وقيل ان بهاء الله بعث فأنوه بالجثة الى عكا ، حيث دفنها هناك وكان قتل الباب في ٢٧ شعبان سنة ١٢٦٦ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠

أما من جهة تعاليم البابية فقد اختلفت الأقوال كثيراً ، وطعن فيها اناس كثيرون ، من جللتهم السيد جمال الدين الافغانى . ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل شريعة جديدة ، حال كون الشرائع كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية . فاما اذا تلقاها الانسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن في الطرق الصوفية المتعددة ، فانه يجد فيها كثيراً من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة . وعلى كل حال فانت لا تتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديله ، اذ كان ما قرأناه في باب البابية نقلاً عما حرره في هذا الباب بعض المؤرخين تأثره

كما وجدناه ، تاركين عهده على رواته . قال المسيو هوارت Huart المستشرق الفرنسي المشهور ، في فصل له على البابية ، في الانسيكلو بديية الاسلامية الفرنسية ما يأتي : « ان الباب تحت اسم اصلاح في الاسلام وضع ديانة جديدة ذات عقائد ومبادئ ، وشرحها هيئة اجتماعية جديدة . فالله واحد ، وعلى محمد الباب هو المرآة التي ينعكس بها النور الالهي ، ويمكن كلاً ان يشاهده بها . قال الباب : « ينبغي ان تجعلوا من انفسكم ومن اعمالكم مرآة حتى لا تروا في هذه المرآة سوى الشمس التي تحبونها » هكذ ورد في كتابه « البيان العربي » . ثم ان الله خلق العالم بسبع صفات تسمى « احرف الحق » وهي القدر والقضاء ، والارادة ، والمشيئة ، والاذن ، والاجل ، والكتاب . ولحساب الجمل دور عظيم ، وعدد ١٩ هو عدد مقدس ، اذ تجده حاصلًا من كلمة « واحد » وكلمة « وجود » . وبحسب ما ورد في بيان الباب تنقسم السنة الى ١٩ شهراً كل شهر منها ١٩ يوماً . ويجب أن تكون ادارة امور الفرقة بيد جمعية مؤلفة من ١٩ شخصاً ، والى هذه الجمعية تدفع سنوياً ضريبة مقدارها خمس الاموال ، هذا اذا لم يطرأ على رأس المال نقص تلك السنة . وواجب على المؤمن ان يؤدي هذه الضريبة ، الا انه لا يحق للسلطة الدينية ولا للسلطة الدنيوية ان تجبره على دفعها بالقوة . وجميع اصناف العقوبات ممنوعة الا الغرامة والحيولة بين الرجل والمرأة فترةً من الزمن . والتجارة حرة ، والعقود في التجارة مرعية ، ودفع فائدة على البضائع التي تباع الى اجل معين مباح . ثم ان الزواج من بعد سن الحادية عشرة أمر مفروض (كان يمكن الظن أن الناقل ذكر سن الحادية عشر سهواً لأنه باكر جداً ولكنه ذكر ذلك بالحروف لا بالارقام و اشار الى وروده في الصفحة ١٨٧ من بيان « الباب » والله أعلم) والطلاق مكروه (وهذا من السنة : ما من حلال أشد كرهاً عند الله من الطلاق) ويعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا . والزوجان اللذان تفارقا يمكنهما أن يستأنفا زوجيتهما بعد شهر من الطلاق وذلك الى حد ١٩ مرة . والارامل من الرجال والنساء عليهم ان يتزوجوا بعد الترميل بمدة مضروبة للرجال ٩٠ يوماً وللنساء ٩٥ يوماً والا فالغرامة . ولا يجوز ضرب الصبي في الكتاب قبل سن الخامسة ، واما من بعد هذه السن فيجوز ضربه على شرط أن لا يتجاوز ذلك خمس ضربات ، وان يوضع غطاء على محل الضرب . والادب من الوصايا الملتزمة عند البابية . ويسوغ لبس الخلى والجواهر ولو تجاوز

ذلك ما حدده الشرع . ويجب كل سنة صيام شهر واحد ١٩ يوماً من مشرق الشمس الى مغربها . والتكليف يقع من سن ١١ الى سن ٤٢ سنة . والوضوء مستحب وليس بفرض . ولا بد من وجود حمام للاغتسال في كل حارة . ويجوز رؤية جميع النساء بدون نقاب ، والكلام معهن بدون حرج ، الا انه لا بد من الحشمة والاقتصاد في الكلام معهن ، ويستحب أن لا يزيد كلام الرجل مع المرأة الغربية على ٢٨ كلمة . ويجب أن يزار البيت الذي ولد فيه الباب ويبنى هناك مسجد ، وكذلك البيت الذي اعتقل فيه وبيوت الكبار من اصحابه . ولا يستحب السفر الا في تجارة ، ولا ركوب البحر الا في حج أو تجار ، ولا تنزم صلاة الجماعة الا على الجنائز ، ولكن الوعظ في الجوامع مندوب . ولا يوجد رجم بعد الايمان بل كل من اتبع هذا المذهب فقد تطهر بمجرد اتباعه اياه ، وكل ما تحوزه يده صار طاهراً واما الماء فهو طاهر ومطهر . ثم يجب على البابي ان يقرأ كل يوم ١٩ آية من بيان « الباب » ، ويذكر اسم الله ٣٦١ مرة . ويدفن الاموات في قبور من البلور أو من حجارة منحوتة ومصقولة . ويوضع في يد الميت اليمنى خاتم منقوش عليه « لكيلا يستوحش الموتى في قبورهم » ولا يجوز لاحد ان يعتدى على احد ولا ان يكسر خاطر احد . واذا خاطبك احد أو كاتبك فلا بد لك من أن تجاوبه . واذا استودعك احد كتاباً لترسله أو توصله فعليك بتأدية هذه الامانة . وان الاشرية المتخمرة والمسكرات غير جائزة . وكلما مضت ١٩ يوماً فلا بد للؤمن من دعوة ١٩ رجلاً الى طعام أو شراب ، ولو لم يكن سوى الماء القراح . ولا يجوز الاستعطاء ولا اعطاء السائل ، بل التصدق على السائل اثم . اما تقسيم تركة الميت فيؤخذ منها من رأس العرمة نفقات الجنائز ، ثم يأخذ الاولاد تسعة انصبه والمرأة ثمانية والاب ٧ والام ٦ والاخ ٥ والاخت ٤ والمعلم ٣ ولا يرث وارث غير هؤلاء .

ولعلى محمد الباب عدة كتب منها « البيان » هذا بالعربي والفارسي ، وكتاب « بين الحرمين » و « تفسير سورة يوسف » انتهى .

هذا تعريب كلام المسيو هوارت الذي يقول انه اخذه من بيان الباب مشيراً في كل وصية من هذه الوصايا الى الصفحة التي قرأها فيها .

ثم ترجم المسيو هوارت نفسه بهاء الله ميرزا حسين على نوري في حرف ب ه من

دائرة المعارف المذكورة فقال : -

« انه ولد في نور من بلاد المازندران في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان أخوه لأمه ميرزا يحيى الملقب بصبح ازل قد أخذ بهذه العقيدة من قبل . ولم يشاهد بهاء الله الباب بذاته لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مردييه بل سبق الجميع في هذه العقيدة ، وشحط الاولين والآخرين في هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلى بعد الامام في المحراب . وفي سنة ١٨٥٢ أبعده الحكومة الفارسية الى بغداد على أثر محاولة أحد البايين قتل الشاه وتعاضم الفتنة ، فأقام بنواحي السلمانية معتزلاً معتكفاً مشيراً الى أنه هو الرجل الذي بشر بمجيئه الباب في قوله « من يظهره الله » ووضع هناك قواعد الدعوة التي قصد جعلها ديانة عامة . ثم نقل الى أدرنة سنة ١٨٦٤ ، ثم الى قلعة عكا في شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ حيث أدركته المنية في ٢٩ مايو (ايار) سنة ١٨٩٢ ، تاركاً خلافته الروحية الى ولده الاكبر عباس افندي الملقب عبد البهاء .

«وأما عقيدته فقائمة بأن لا يؤدي الانسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضاً ، ويتحملوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يشتغلوا الا بالخير ، وأن يوطئوا اكنافهم ويعنوا بأمر المرضى . هذه هي مبادئ البهاء وهي كما ترى صدى النصرانية . والغاية من هذه الحياة هي السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التي يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن تؤسس لها معهداً للاجتماع تجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة أعضاء يقال لها « بيت العدل » ويكون دخل هذا البيت من التركات التي لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ في المائة على رأس المال ، يؤدي مرة واحدة لا غير . وممنوع في مذهبه التقشف والتبتل ، لان الله خلق الانسان وأحل له الطيبات من الرزق . وللبهاء تآليف أهمها «الكتاب الاقدس» (طبع في بمباي و بطرسبرغ) وكتاب « الايقان » (ترجمه دريفوس وحيب الله الشيرازي في باريز سنة ١٩٠٤) ، وطرقات كلمات فردوسية واشراقات وتجليات (ترجمت في كتاب قواعد البهائية سنة ١٩٠٦) « وكلمات مكنون » (مطبوع بباريز سنة ١٩٠٥) و « دروس عكا » التي جعلتها مادام كليفور بارناي Mm.Cliford Barney و « النور الابهي » (مطبوع

بلندرة سنة ١٩٠٨) ترجمه عن الاصل الفارسى الميسود ريفوس
وأما كلمات البهاء الأخيرة فقد نشرها تومانسكى فى بطرسبرج سنة ١٨٩٢ . ولد ريفوس
المذكور كتاب على البهائية وتاريخها وأثرها الاجتماعى وقد ذكرها براون Eda.G.Brawne
فى كتابه : « سنة بين العجم » . انتهى

هذا ما نقله المستشرق هوارت عن البايية والبهائية أثرائه كما هو وعربناه بدون
زيادة ولا نقصان ، والعهدية فى كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم .
ومالا جدال فيه أن البهاء وأولاده بمقامهم هذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا
بأشخاصهم معروفين لدى أهالى بلادنا المعرفة التامة . بحيث صفا جوهرهم عن أن
تعتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد اللسنة . فاما البهاء فقد
أجمع أهل عكا على أنه كان يقضى وقته معتزلا معتكفا ، وانه ما اطلع له أحد على سوء ،
ولا مظنة نقد ، ولا مدعاة شبهة فى أحواله الشخصية كلها . وقيل انه عرضت خصومة بين
ولده عباس أفندى وبعض الممولين على حدود أرض فوصلت الى المرافعة فكتب البهاء
الى ولده : « يا عباس أنتنازعون وتترافعون على حفنة تراب ؟ » فترك عباس الدعوى
من فوره .

وأما أولاده فكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد على ، وضياء ، وبديع الله ، وقد
اعتبط منهم ضياء شابا وفى عام ١٩٢٢ انتقل الى الدار الآخرة عبد البهاء عباس ،
وقد ذرّف على الثمانين . وكان آية من آيات الله بما جمع الله فيه معانى النبالة ، ومنازع
الاصالة والمناقب العديدة ، التى قل أن ينال منها أحد مناله ، أو يبلغ فيها كماله ، من كرم
عريض وخلق سجيح ، وشغف بالخير ، ولوع باسداء المعروف ، واغاثة الملهوف ، وتعاهد
المساكين بالرّفد بدون ملل ، وقضاء حاجات القاصدين بدون برم ، هذا مع علو النفس ،
وشغوف الطبع ، ومضاء الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وسرعة الخاطر وسداد المنطق ، وسعة العلم
ووفور الحكمة ، وبلاغة العبارة ، حتى كأن فصاحته صوب الصواب ، وأقواله فصل
الخطاب ، وكتاباته الديقاج المحبر ، وفصوله الوشى المنمّم ، يفيض بيانه جوامع كام ، وتيسل
عارضته سيل عارض منسجم ، ويود اللبيب لو أقام العمر بمجلسه يجنى من زهر أدبه البارِع
ويرد من منهل حكّمته الطيبة المشارع استولى من المعقول على الامد الاقصى ، وأصبح فى

الالهيات المثل الأعلى ، وبلغ من قوة الحججة ، واصالة الرأي ، وبعد النظر ، الغاية التي تفي دونها المنى حتى لو قال الانسان انه كان أعجوبة عصره ، ونادرة دهره ، لما كان مبالغا ولو حكم بأنه من الافئذ الذين قلما يلدهم الدهر الا في الحقب الطوال ، لكان قوله سائغا ولقد كان يمكن أن يكون محيط فضله أوسع ، وأفق علمه أناي ، لو عاش في احدى العواصم الكبر التي يتسع فيها المجال لمثله ، ويكون فيها المحيط على نسبة نباهة قدره ، وسراوة نبهه ولكن ضاق الميدان على الفارس ، وصغر الكرسي عن الجالس ، واعتاض من سعة المحيط وعظمة المقر ، بحسن أخلاق أهالي عكا وكرم طبائعهم وكونهم قدروه وأهله قدرهم ، وعرفوا نبههم وأحلوهم المحل اللائق بهم ، فرفه بذلك عيشهم ، ووفرت حرمتهم وزهبت حرشة غربتهم ، ولانت خشونة نبوتهم ، ورافقهم الى منافعهم هذا نحو مائة وخمسين شخصا من اتباع طريقتهم من الايرانيين ، ليس فيهم الا صاحب صنعة أو عمل ، وهم جميعاً قائمون على خدمة هذا البيت الكريم ، قد هجروا أوطانهم حباً بجواره . وكان عباس افندي يكتفهم بظله ويتعاهد جميعهم بفضله ، وكان أحسن الله منقلبه مستوفيا شروط الرئاسة ، ذا وقار في رسوخ الجبال ومهابة يقف عندها الرئبال ، وحشمة لا ترى الا في الملوك أو في صناديد الرجال ، ومع هذا كاه فكانت مجالس حكمته مطرزة باللطائف ، ومحاضر جده مهلهلة بالرفائق ، وكانت رسائله على كثرتها تتلى وتؤثر ، وتحفظ حفظ النفائس في الخزائن وتدخر ، وانتي لا حفظ له كلمات من كتاب مداعبة بعث به الى أحد أصحابه من شعراء بيروت وهي « من صيدك في صيدا ، وحيفك في حيفا ، ونفخك في الصور ، ونقرك في الناكور » تعلم من هذه الكلمات المعدودة ملكته الأدبية ، وقدرته على التصرف بزماء العربية ، مع انها ليست لغته الأصلية . ولو وسع المكان لاوردنا له كثيراً من بدائع الترسل الدالة على تمام ملكته ، وسمو طبقته . وكانت له مع هذا العاجز مراسلات متصلة باتصال حبل المودة ، وعمران جانب الصداقة ، ومراراً قصدت عكا ولا غرض لي فيها سوى الاستمتاع بأدبه الغض والاعتراف من علمه الجم ، وداورته مرة على الكلام في موضوع العقيدة البابية بدون أن أسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت أجيء اليه من باب المعارض استطرافاً ، وأحاول أن أحمله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عما اذا كان من الممكن تمثيل الصفات الهية في أحد البشر اشارة بدون تصريح ، الى ما يقال من كون الباب أو

البهاء هو مجلي الصفات الربانية على الأرض ، فأجانبى بأن الصفات معان ، والمعاني لا تتجسم ولا تشخص ، وان المجردات لا تتجسد ، وأفاض في هذا الموضوع بالنفي وتبيين وجوه الاستحالة . فأجبتة : « فلماذا يقال إذاً ان بعض البشر يمثلون الصفات الالهية على الأرض أو انهم مظهر الالهية في الخلق ؟ » فقال لي : « ليس الأمر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداده . » وكررها : « بقدر استعداده ، بقدر استعداده » ففهمت من هذا أن مقصودهم هو كون بعض النفوس هي مستعدة للكمال أكثر من سواها ، فهي تقتبس من النور القدسي بقدر صفاتها . وان هذا مبلغ عقيدتهم في الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس افندي نفسه ، الذي كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من الباييين . واني أتذكر أنه كان يشرح مرةً عقيدة القضاء والقدر فقلت له . « الا أن هناك من يقول في التعريف ما هو كذا وكذا » فقال « هؤلاء هم العوام » . قلت له : « كلا بل من العلماء من يقول هذا » . فقال : و« العلماء فيهم عوام أيضاً » .

ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البايية ، فمنهم من يقول انهم زهاء مائة ألف نسمة في العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ ألفاً . ويقال ان منهم بالهند ، وبمصر ، بين الايرانيين المقيمين بهذه الحاضرة . ومنذ نحو ٢٠ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمرىكا وأنها قد ترجمت عقيدته الى الانكليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون . وان من جملة دعاة هذا المذهب رجلاً مسيحياً من أدباء لبنان من قرية بجمدون . وقيل ان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة البايية بأمرىكا كانوا يرسلون دائماً عبد البهاء عباس افندي ، ويستفتونه في المسائل ، ويستوضحون رأيه في المشكلات الدينية ، ومنهم من جاء من أميركا حاجاً اليه ليفوز برؤيته . وما نعلمه أن عباس افندي بعد إعلان الدستور العثماني وانطلاق حرية أن يذهب أين شاء ، سافر الى أميركا ، وتعاهد المريدين الذين له هناك . وبعد أن أقام بها مدة يخطب ويعظ ويبث الدعوة ، جاء الى أوروبا وطاف على المريدين الذين فيها ، ثم قفل الى عكا ، وبقى فيها الى أن لبي دعوة باريه في حيفا سنة ١٩٢٢ .

ولسنا نعلم عدد الباييين الذين بأمرىكا ، فيقال انهم صاروا بضعة عشر ألف نسمة . أما في أوروبا فانتى كنت سنة ١٩١٩ بمدينة برن ككرسى حكومة سويسرة ، وأثناء ذلك انعقدت في هذه المدينة مؤتمرات اشتراكية وشعبوية ، على أثر الحرب ، ومن جلستها مجمع اسمه المؤتمر السلمى الشعبوى ، كنت بمن شاهده وخطب فيه مرتين ، وقد حضره أناس من

أمم مختلفة ، ومن جلتهم رجل الماني اسمه البروفسوريك ، كان يتردد كثيرا الى الاستانة أيام الحرب ، وكان يلزق بأمبراطور المانية ، وهو الذي أسس في الاستانة نادياً سموه «نادى الولاء التركي الالماني» ، فالاستاذ «يك» هذا قدم لى رجلاً ليست بطاقة اسمه بين يدي هذه الساعة ، وانما أتذكر أنه فنصل حكومة نور ويح في شتوتغارت عاصمة ورتبرغ كما أن «يك» هو نفسه من هذه المدينة ، فعرفت من القنصل المذكور أنه رئيس الجماعة البائية في شتوتغارت ، وكلفني فيما لو كتبت الى عبد البهاء أن أكتب اليه سلامه ، واستعلمت منه عن عدد الفرقة في بلدهم ، فزعم أنهم يناهزون أربعة آلاف نسمة ، وأن محل اجتماعهم هو في بيته وأن ميعاد اجتماعهم نهار الأحد كل أسبوع . وسألته عما اذا كان يوجد منهم في غير شتوتغارت من ألمانية ، فقال لى ربما وجد في غيرها شذاذ ، ولكن معظم الفرقة هو في شتوتغارت ، وعلمت منه أن عبد البهاء عباساً زارهم على أثر رجوعه من أميركا .

بقي ثمة شئ لو أهملناه لكان خلا بواجب المؤرخ ، وجديراً بأن ينسب الى الضلع ، وهو أنه بعد انتقال بهاء الله الى الدار الباقية ، وقع الخلف بين أولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد على افندى ، وضياء افندى ، وبديع الله افندى ، من جهة ثانية . وهؤلاء الثلاثة هم أشقاء ، فاشتدت الشحنة وعجز الأحياء عن اصلاح ذات البين ، واتخذها من لا يخلو منهم مكان من عقارب الشر ، ليحطبوا فيما بينهم بالفساد ، وكانت دعوى عبد البهاء أن اخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى اخوته أنه خالف وصايا والدهم في كثير من الأمور . ولم يكن يخلو عباس افندى لعظم أنفته ، وشفوف حسه ، من حفيظة طبع ، وسرعة انفعال ، تذهبان به الى حد الحدة ، وتنبوان به عن درجة الحلم ، كما بما جاء ذلك عوذة لمحاسنه ، وتيممة لتام نبلة ، فأبني في آخر الأمر قبول اخوته ، وتمكنت النفرة من قلبه ، لما كان صدر منهم بحقه ، وأصر على الجفاء ، حتى بعد أن سلموا له ، وما زال على الصرم والهجران الى أن توفاه باريه في السنة الماضية ولم يعقب ولداً ذكراً ، فيقال انه لم يستخلف أحداً من أخويه الباقين ، وانه أشف عليهما حفيده من أولاد بنته فوقع الخلاف أيضاً بعد موته ، وانقسمت الفرقة البهائية الى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البهاء ، ومنهم من لا يرى له حقاً في ذلك ، ويوجب انتقال الزعامة الى أخيه السيد محمد على افندى ، الذي هو من الرشد . والعقل . والعلم . والفضل . وسعة الصدر . وطهارة الأخلاق . وجميع أدوات الرئاسة . بالمقام الذي يقربه كل من عرفه . والذي لا يدانيه فيه أحد من البهائية فيما نعلم .

المبادئ الاشتراكية فى الاسلام

للشيخ

فى الشريعة الاسلامية مبادئ اشتراكية ، عظيمة^(١) ، متينة ، تفرق عن المبادئ الاشتراكية المعروفة فى أوربا . بكون المبادئ الاشتراكية الاسلامية أوثق ، وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون ، لانها فى أوربا أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم . حال كونها فى الاسلام أوامر إلهية لا محيد للمسلم عن انفاذها اذا أراد أن يبقى مسلماً . فان الزكاة الشرعية هى من أركان الاسلام . وهى أخت الصلاة . وقد ورد ذكر الزكاة مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة فى القرآن الكريم كما لا يخفى . فلو قام المسلمون بإيتاء الزكاة على الوجه الشرعى . وأدوا واحداً من عشرة من غلات أراضيهم . واثنين ونصفاً فى المائة من نقودهم . واحداً من أربعين من حيواناتهم . أو كما هو مبسوط فى كتب الفقه . لم يبق على وجه الأرض مسلم واحد يصح أن يسمى فقيراً . وكان الأولى بمن يدعون المسلمين الى الاشتراكية . ويشون هذه الروح فيما بينهم لتكون سبباً للبغض والشحناء واثارة حرب الطبقات . الثائر عجاجها فى أوربا واميركا . أن يدعوهم الى إقامة هذا الركن العظيم من أركان دينهم الذى هو الزكاة . بشرط أن ينظموا جمعها وكيفية انفاقها . وتجعل لها الحكومات الاسلامية نظارة خاصة بها . وتحمل الأمة كافة عليها . فكان ينتفى بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين . ويقل تفاوت الطبقات فى درجات الرفاهية . وتتوفر وسائل التمرىض . والمؤاساة والتعليم . وتشمل نعمائها الجميع بدون منة غنى على فقير . ولا اعتداد كبير على صغير . لأنه كما لا يجوز لمسلم أن يمن ويعتد بكونه صلى . لا يقدر أن يمن ويستطيل بكونه يزكى . ولكن نقول مع الأسف الشديد . ان المسلمين . الا النادر . أهملوا الزكاة . وتهاونوا بفرائض الدين ولذلك هم مهددون اليوم بخطر الاشتراكية . والشيوعية التى لا بد من أن تنفذ مبادئها

اليهم مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها الى الشرق . واننا لانرى مجناً تتقى به هيئة الاسلام الاجتماعية هذه الفتنة القادمة عليها لاريب فيها سوى القيام بفرض الزكاة على الوجه الشرعى . على شريطة أن يكون لها وزارة أو ادارة فى كل حكومة اسلامية . تنظم أمر استيفائها . وطريقة انفاقها . تنظيمًا بحيث اذا دخلت الاشتراكية على بلاد الاسلام . دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق . بل كانت سبباً لحياء فرض من أقدم فروض الدين الا وهو الزكاة . ومما لا ينبغي أن ننسأه ان الاشتراكية تتفق مع الاسلام فى نفي الجنسية والقومية . إذ كما ان المسلم لا بد أن يعترف باخاء المسلم أياً كان أصله وفصله . فالاشتراكي لا بد أن يتضامن مع الاشتراكي فى أى وطن كان . ومن أى أمة كان . وان فضل الوطنية على الاشتراكية . كان شأنه شأن المسلم الذى يفضل القومية على الاسلام .

الشهيد أنور باشا ورفقاؤه

مكتوب

انه لما أخلى الجيش البلغارى جبهة الحرب أواخر صيف عام ١٩١٨ ، طلب البلغار الصلح من الحلفاء ، وتقدمت جيوش هؤلاء نحو البلقان بالغة خمسمائة ألف مقاتل ، سقط في يد دولة اوستريا - هنكاريا فأسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركيا ، خافت أن يتحول جانب من تلك الجيوش على الاستانة . فأخذ أنور باشا^(١) ناظر الحربية يحشد من بقى من العساكر للدفاع عن العاصمة ، واسترجع اليها أكثر العسكر الذى كان أرسله الى القوقاس ، وفتح به باكو وبلاد اذربيجان وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب المانية الى أن يتيسر صلح خفيف الوطأة على الأقل . ولكن انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسوية ، واستيلاء الوهل على القلوب واعتقاد معظم الاتراك بل معظم الناس يومئذ ان الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون ، فتبقي كل أمة مالكة للبلاد التي أكثر سكانها هم منها ، كل ذلك أحبط مساعي أنور باشا فى الاستمرار على المقاومة ، ومال الرأى العام حتى من الاتحاديين أنفسهم الى طلب الهدنة . فاستعفت وزارة طلعت باشا ، وحلت محلها وزارة المشير احمد عزت باشا الارناؤطى ومعه رؤوف بك ناظراً للبحرية ، وفتحى بك ناظراً للداخلية ، والتمس الباب العالى الهدنة ، وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبل كارهاً للحرب راغباً فى عقد الصلح ، فحمل حكومته على اتمام ذلك بأسرع ما يمكن . فأنفذت الوزارة الجديدة وفداً فيه رؤوف بك الى جزيرة مودوروس أمام الدردنيل ، لعقد المتاركة مع الانكليز وانعقدت حينئذ على شرائط ظهرت ثقيلة جداً فى أول الأمر ، لكنها صارت خفيفة جداً فيما بعد . عند ما دخل الحلفاء الاستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو أقامت الحلفاء على شروط مودوروس بعينها . وظهر لها ان الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به فى أثناء الحرب وما تعهدوا به فى نص المتاركة ، وان برنامج ويلسون صار نسياً منسياً وكان من جملة ما قرره الاتحاديون فى أثناء الهدنة برأى رئيسهم طلعت باشا ، الغاء

(١) راجع صفحة ٢٦٦ من هذا الجزء

فرقة الاتحاد والترقي وتألّف حزب جديد اسمه « تجدد » ، وكان ذلك من جلة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسى ، بدون ابقاء الاسم الذى كان من شأنه تنفيذ الدول الغالبة ، وتجفل رأى العام فى ذلك الوقت . وكان مرادهم اعتزال الحكومة مؤقتاً ، الى أن تكون انتهت تلك الأزمة ، وانعقد الصلح على وجه من الوجوه . ولكن لما قارب أجل دخول الحلفاء الى البوسفور واستيلاؤهم على الطرق براً وبحراً ، جاء من أنبأهم بأن السلطان وحيد الدين الذى كان من الأصل ناقماً عليهم يتربص بهم الدوائر قد يتفق مع الانكليز ، فيلقى القبض عليهم ، وقد يحاكون ، ويصلبون ، بحجة قتل الأرمن وما أشبه ذلك . فعقدوا اجتماعاً فى بيت أنور حضره أركان جمعية الاتحاد والترقي ، والذين كان بأيديهم الزمام عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرات الطويلة ، عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة وهم الذين كان عليهم أ كثر سخط الحلفاء : طلعت . وأنور . وجمال . وعزمى والى بيروت الأسبق ، وبدرى مدير البوليس الأسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكرى ناموس جمعية الاتحاد والترقي ، وكان هذا صديقاً جيماً لطلعت ألصق الناس به ، فلحظ طلعت منه انه فى نفسه لايميل الى السفر وانما أراد أن يرافقه حبا ووفاء فقال له : « ان كنت لا ترغب فى الباطن فى هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من أجلى » . فبقى مدحت شكرى بك فى الاستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافة المانية ، جاعلين وجهتهم القريم . ووقع ذلك فى أوائل نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٨ ، وبلغنى من أحدهم انهم فى الطريق تذاكروا فيما يجب أن يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التى حاقت بهم ، وبالامة العثمانية بسببهم ، إذ كانوا لايشكون فى الأهوال التى ستبتطش بالاتراك وسائر المسلمين على أثر هذه الدائرة العظمى التى دارت على ألمانية وحلفائها . فذهب أنور الى أنه يجب أن ينضموا الى البلاشفة ، ويشيروا تركستان . والقوقاس . ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتى الله بالفرج أو يموتوا . فخالفه طلعت فى هذا رأى وقال : « نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققتنا غضب الأمة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . فأقصد الطرق أماننا هو أن نذهب الى أوربا . ونقبع فى زوايا العزلة . ولا نأتى بأدنى حركة ولا نطمع فى شئ . بل ننظر الى ما يأتى به الدهر . فان لاحت لنا فرصة بعد مرور الأيام وكر العشى . اهتبلناها . ولكننا فى الوقت الحاضر لا يلىق بنا الا الانزواء والاعتزال . وترك النضال والنزال . فقد

أردنا أن ننفذ أمتنا ونزقى وطننا . فلم يسعفنا القدر . فلنترك هذا الأمر لغيرنا . ويظهر ان الباقين أجمعوا على رأى طلعت وما زالوا يدوكون في ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القريم . وكانت الجنود الالمانية محتلة تلك البلاد فهياًوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين المانية فوصلوا الى محطة كان لابد لهم أن يبيتوا فيها . فلما أصبحوا لم يجدوا أنور بينهم . وعلموا أنه استقل قطاراً يأخذه الى الشرق . مصمماً على ما كان اعتزمه من الاستمرار على المقاومة وكانت وجهة أنور القوقاس . حيث كان أخوه نوري ومعه طائفة سالحة من الجند . وكان يؤمل اثاره المسلمين الذين في اذربيجان وفي الطاغستان . وقد قال لى عزمى بك والى بيروت : « لو كاشفى أنور بما في نفسه من الانفصال عنا ذاهباً الى القوقاس لرافقته . ولكننا أصبحنا فوجدناه قد مضى » فأما الستة الباقون فجاءوا الى المانية كما سياتى خبر ذلك فى محله .

وأما أنور فبعد أن سار مسافة فى البر ، وصل الى مرسى من مراسى القريم ، ولما لم تكن هناك بواخر ولا سفن شرعية كبيرة ، استقل قارباً بقلع صغير ، وسار به قاصداً القوقاس ومعه خدمه : — فى أثناء الطريق ، ثار البحر وكاد يقلد عليهم ، بحيث اضطروا لصغر الفلك أن يقذفوا فى اليم جميع الحقائب التى كانت معهم ، ورجعوا أدراجهم الى ساحل القريم . فنزل أنور ملتث المزاج مما أصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقى متخبئاً فى تلك البلاد الى أن أبل من ذات الرثة التى حصت له ، فجاء أولاً الى المانية لم يعلم به أحد الا اثنان أو ثلاثة ، بل عمس خبره حتى عن رفاقة طلعت وجمال وعزمى الخ . وكان أنور كتامة لا يوجد أقدر منه على اخفاء مافى نفسه ، وكنتم حركته ، وذلك بخلاف طلعت ، الذى وان كان أدهى من أنور ، وأعلى كعباً منه فى السياسة ، فقد كان فاووهة يبيح بكل مافى نفسه . وبقى أنور متخبئاً تارةً ببرلين ، وطوراً باحدى المزارع فى أرباضها ، طلع سنة ، والناس لا يعلمون من أمره شيئاً وثيقاً ، والجرائد الانكليزية تكتب أنه ظهر فى القوقاس ، وأحياناً أنه فى التركستان ، وآونة أنه فى كردستان ، وغير ذلك وهو فى الحقيقة فى المانية لم يبرحها بعد ، الى أن جاء «رادك» الزعيم البولشفيكى المشهور الى برلين ، فعرف به أنور وطلعت وتلاقيا معه ، وأجعا على الحركة مع البولشفيكى . ولما كانت الطرق يومئذ بين المانية والروسية مسدودة ، استصحب أنور الدكتور بهاء الدين شاكراً ، واستقلا طيارة قاصدين

الروسية ، فقبل أن وصل بهما ربان الطائرة الى الروسية ضل الحدود ونزل بهما الى الأرض ، ظناً بأنه نازل بأرض روسية ، فاذا بهم نزلوا بأرض « لتونيا » وكان الحلفاء وقتئذ مسيطرين على كل تلك الديار ، فقبضت الحكومة المحلية عليهم ، ووقفهم ، فادعى بهاء الدين شاكر أنه طبيب ذاهب الى الروسية من قبل الهلال الأحمر العثماني لمعالجة أسرى الأتراك ، وقال أنور انه ممرض من مستخدمي الهلال الأحمر ، فعرف ألو الأمر في لتونيا عنهما المؤتمر الذي كان منعقداً بباريز ، فورد الجواب من المسيو كلنمصور رئيس المؤتمر . بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ويرسلوا ذلك الى باريز ، فأخذوا الصور والأجوبة التي جاوبها واعتقلاهما منتظرين ورود الجواب من كلينمصور . وفي أثناء ذلك كان أنور بعث الى الألمان يخبرهم بما وقع معه ، وكان قسم من العساكر الألمانية لا يزال محتلاً بلاد البلطيك فأجابوه بأنهم يرسلون اليه طائرة يمكنه أن يفر بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان . وكان أنور وبهاء شاكر يخرجان كل يوم للنزهة بعد الظهر بخفارة شرطي مسلح . فلما كان اليوم المعين خرجا على عادتهما للنزهة ، وتوجها الى المكان الذي ستأتي اليه الطائرة بحسب تعريف الألمان لهما سراً ، فأبطأت الطائرة في الوصول حتى كادا يقطعان الأمل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان . واذا بها قد ظهرت في الجو ثم اسفت ولمست الأرض فأقبلا عليها هما والشرطي الذي معهما كأنهما ينظران ماخطبها ، ولما قربا منها وجدوا فيها جندياً معه بندقية ، ثم أخذتا يتأملان في أدواتها ويتخللان داخلها والشرطي لا يشك في كونهما محبين للاستطلاع ، الى أن استقلا مقعدها وبدأت تنطاد ، فعرف الشرطي أنهما قد فرا وأن الأمر مدبر ، ففي الحال صوب نحوه أنور البندقية منذراً اياه بالرمي ان أتى بحركة ، فأبلس الشرطي أولاً ، ثم أطلق عليهم فيما بعد بندقيته ، ولكن الطائرة كانت قد علت في الهواء أمداً بعيداً . وبهذه الكيفية نجا أنور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطائرة الى المانية ، ولما وصل خبر فرارهما الى المؤتمر بباريز ، وكانوا قد عرفوا من صورهما انهما أنور والبهاء شاكر ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد حتى لايتهم الحلفاء بالتفريط ويهزأ بهم ، مع أن الجرائد كلها كانت قد نشرت الخبر قبل أن تحقق منهما . ثم ركب أنور طائرة ثانية قاصداً موسكو ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عرض في الجو ، وكادا يهلكان فأسفا الى الأرض . ثم استقل طائرة ثالثة وذهب بها الى موسكو حيث وصل سالماً . وأنزله .

البولشفيك في قصر قبالة « الكرملين » لا أظن يوجد مثله في أوربا نخامة وأبهة . واتفق معهم على العمل يدأ واحدة لمقاومة الحلفاء ، لاسيما انكلترة ، ثم جاء الى موسكو جال وبدرى فدخل فيما اتفق عليه أنور مع البولشفيك من الأب (التدبير على العدو من حيث لا يعلم) على انكلترة . وفي هاتيك الأيام جاءت عائلة أنور الى برلين من الاستانة ، فناء هو من موسكو الى برلين وشاهد حليلته التي هي ابنة أخى السلطان ، ولم يلبث أن عاد الى موسكو ، ولكنه هذه المرة ذهب في البر من طريق Réval عاصمة استونية . وكان معه رجل روسى شيوعى فقبض عليهما في ريفال وطلس بهما في السجن ، تحت شبهة أنهما من دعاة البولشفيك . وادعى أنور أنه من مأمورى الهلال الأحمر التركي فلم يثقوا في قوله وأخذوا رفيقه المسكوبى يضربونه ضربا أليما حتى يقر من هو هذا التركي الذى معه فتجلد على كل ذلك الجلد والضرب ولم يقر بشئ ، ولكن كانت نظارة الشرطة ترى من سيماء انور وشمائله وحسن صورته ، شيئا ينبئها انه ليس بمأمور بسيط الحال كما يقول . ولذلك كانت تلح عليه فى الابانة عن حقيقة امره ، وكان هو مصرا على الكتمان ، الى ان خطر لهم أن يضربوه يوما كما ضربوا الروسى رفيقه و بينما هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الانكليزية التي كانت هناك تفرس فيه النجابة والكرامة فقال لهم « مثل هذا لايجوز ضربه » فخلوا بعد ذلك سبيله . وكانت مدة اقامته بسجن ريفال نحو شهرين ، وجعلوه مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكلونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس . وجاء الى موسكو فاقام بها مدة ثم عاد الى برلين لصلة الرحم . وتلاقيت به هذه المرة بعد مكاتبة سبقت بيني وبينه حينما كنت في سويسرة . ثم ذهب ايضا الى موسكو ومعه بضعة نفر من الاتراك ، وكانت سفرته هذه فى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢٠ ثم عاد الى برلين اول مرة ثم ذهب وعاد ثانيا مرة وذلك فى اواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩٢١ وهذا آخر عهد رجه الله بأسرته . وولد له مولود ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة اشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهده . وذلك انه اختلف فى آخر الامر مع البولشفيك واثار التركستان عليهم ، واستشهد فى هذه الحرب فى أوائل اغسطس سنة ١٩٢٢ .

وتحريير الخبر انه كان بين انور ومصطفى كمال وحشة من قبل ، فلما اسس مصطفى كمال حكومة انقرة ، كان انور بدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس وحاول ان يجعل لها فروعا فى الاناضول ، فعارض مصطفى كمال فى انتشار هذه الفروع بحجة انها قد تؤدى الى الخلاف والشقاق

حال كون الدفاع الوطني يقضى بتوحيد الكلمة . فنقم انور عليه هذه المعارضة وعدها استبداداً ونفاة ، وازداد الجو بينها سفوراً بحيث انه لما جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق سابقاً الى طرابزون ، بادر مصطفى كمال باخراجه منها ، وكذلك عند ماورد عزمي بك والى بيروت الاسبق مدينة ارضروم ، ارسل اليه بأن يبرحها حالا ، ثم يقال ان مصطفى كمال اقصى من الجيش القواد المعروفين بالاخلاص لانور ، فكان انور يحتقد عليه هذه الامور كلها وكنا ننصح ان لا يوسع هذا الخلاف ولا يدع للقالة سيلاً واحدى المرار كنا عنده مجتمعين بمنزله في غرونفالذ بظاهر برلين فبينت له وجوب الوثام مع مصطفى كمال مادامت هذه الحرب بين الاتراك والحلفاء قائمة وكون خبر هذه المنافسة يسوء وقعه في العالم الاسلامى جميعاً ، وأيد كلامى هذا الدكتور ناظم ، فلم يجاب انور لاسلباً ولا ايجاباً ، وكان من اقدر خلق الله على كتمان ذات صدره كما سبق ، ولم يكن انور ممن يستطيره الغضب ، ولا ممن ينطلق لسانه بطعن ولا لعن ، ولا قديعة ، لم يعهد احد ان رآه غضبان ولا ان سمعه شاتماً ، وكان عجبياً فى هذا الامر لا يباريه احد فيه ، واذا اراد أن يتشكى لاذ بالمعاريض وعمد الى الاشارات ، بدون سلطة لسان ، فكان قصارى قوله فى مصطفى كمال ان الادارة فى الاناضول غير سائرة على مبدأ العدل ولا المساواة وان الامتة تتحمل استبداد السلطان عبدالجيد وهو ابن عثمان حتى تتحمل استبداد غيره . وكان بعض اخصائه يكتبون اليه من هذا القبيل ماثير حفيظته ، فكنت ابين له دائماً مايلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الاحدوثة ، ولو كان على حق فى بعض مايشكو منه . ولما فارقت فى موسكو فى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ لم انس وانا على نية الوداع الاخير ، ان احذر من التهور فى الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وايقاد فتنة فى ذلك الوقت الذى يتحتم فيه الاتحاد التام بين الاتراك ، ويظهر ان مصطفى كمال نفسه ارسل الى حكومة موسكو يشكو من حركات انور ، ويلتمس منها ان لاتمد انور بشىء مما كانت وعدته به من مال وسلاح . فامسك السوفيت بعد ذلك عن اجابة طلبه من هذه الجهة ، وجعلوا ذلك عنراً لهم بعدم الامداد ، وانا ما صدقت اصلاً منذ البداية ان البولشفيك كانوا يريدون الجذب بضعب أنور فعلاً وتمكينه من القتال والنضال ، وانما كانوا يأخذونه بالرويفة ويمنونه الامانى لىبقى فى يدهم ، وليهددوا به انكلاته ، وينالوا منها وطرهم على ظهر اسمه مع التيقظ التام لحركته وحركة اعوانه ، والحذر من سرىانها الى مسامى الروسية الكثيرى

العدد . لا سيما ان انور اعلن الحكومة الجراء مراراً انه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وان النقطة الجامعه بينه وبين البولشفيك هي مقاومة الحلفاء لا غير . والحال ان البولشفيكيين لا يركنون الا الى من كان شيوعيا مثلهم قولاً وفعلاً . وكنت نبهته مراراً الى خطر اقامته بموسكو قائلاً له . « ان الجر لا يجهلون انك اكبر دعاة الجامعة الاسلامية اليوم وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الانكليز لها أو اكثر ، لأن في الروسية لا أقل من ٣٥ مليون مسلم جميعهم متصلة بلادهم بعضها ببعض و بسائر بلاد الاسلام ، وهم يذكرون ماضى ملكهم وسابق عزهم ، فلا شك ان الروس يحسبون الف حساب للحركة الاسلامية بين هؤلاء ، ويحذرون منها ومنك بنوع اخص . وهم اذا كانوا يعلنون للعالم الاسيوى استعدادهم لمناصرتهم ، وتحفزهم لمعاذته ، في موقف تحريره هذا ، فلا يعملون ذلك الا على شرط البلشفة ، ولا ينصرون الاسلام وهو على قواعد الحاضرة ، اذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسى ما يرى الانكليز على الهند ، فكان انور يجاوبنى انى انا تعهدت لهم بأن لا آتى بحركة اسلامية فى ارضهم واقنعتهم بأن عندنا شغلا آخر مع غيرهم ، وحسبنا ان نخلص انفسنا من سيطرة الانكليز ولقد علموا أنه لما نار بهم أخى نورى فى القوقاس وقاتلهم وقاتلوه نهيته عن قتالهم ، واعلنت عدم رضائى عن عمله ، حتى اجهضته عن تلك الثورة . فكنت اقول له « الا أن ذلك لا يمنع حذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأى عندى ان تبرح موسكو الى بلاد أخرى قبل أن يقع الخلاف بينك وبينهم ، فاما أن تقيم هذه المدة بالمانية ، وأما أن تذهب الى بلد مثل افغانستان حيث يستقبلك أميرها برّاً وترحيباً» . وكان الامير امان الله خان قد أرسل الى انور باعلى رتبة فى مملكته ، مع نفحة مالية ، وكتاب اطلعنى هو عليه قد أوسعه به اطفاء وتثريفا . فلم أقدر على اقناعه بترك موسكو ووقع الذى جذرناه . اذ لما يئس انور من حمل الروس على امداده بالمال والسلاح ، ورأى ان كل ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقاً خلباً ، وكانت غايتهم منه ان يهددوا به الانكليز ويجعلوه رقيباً لمصطفى كمال حتى اذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور ، بدأ انور يضمر العداوة للحمر ، وفتح اذنه لاقوال المسلمين التتر الذين كانوا يطالعونهم بما فى انفسهم من السخظ من جراء نهب البولشفيك لاملاكهم واموالهم وسعيهم فى بلشفة المسلمين واهداهم دماء الألوف ، وعشرات الألوف منهم ، فى اذريجان ، وقازان ،

وتركستان وطاقسان ، ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التي بذلوها باعطاء هذه البلاد الاسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة الروسية القومية ، وبطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين ، الى غير ذلك مما وقر في نفس أنور ، وحداه على تغيير سياسته ، والرجوع الى سياسة أخيه نوري ، الذي كان يعذله على عمالاته للبولشفيك . فصار أنور يتربص فرصة للتملص من موسكو ، وينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذي أنزلوه به حبسا . الى أن زحف اليونانيون نحو أنقرة وصار الأتراك يتقهقرون الى الورا ، وخيف من دخول اليونان أنقرة ، فاستأذن أنور البولشفيك بالسفر الى القوقاس قائلا : « اذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل ، أو سقطت انقرة ، فلا يسعني الا تجنيد من يمكنني تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاس ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين » . فساعده البولشفيك بالسفر واتخذوا بكلامه ، فهبط مدينة باطوم ، وأقام بها مترقبا الاخبار عن الأناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك في معركة سقاريا ، وارتداد اليونان الى الورا علم أن لم يبق محل لدخوله الأناضول ، فولى وجهه شطر تركستان ، وذهب الى هناك وهو يعلم انه سينهض بيزلاء ، ويعالج مرتقى عقبة كأداء . اذ لما فصل من باطوم كتب الى جمال عزمى بك والى طرابزون الاسبق^(١) يوصيه بتعهد أمور عائلته بيرلين ويقول له انه لا يعلم هل يتيح له القدر الاياب الى أهله أم لا وهذا دليل على انه كان موطنا نفسه على الموت . وكان ذهابه من باطوم في أواخر أغسطس سنة ١٩٢١ متسكراً ومعه رفيق واحد يدرعان الظلماء ويتلحفان السماء . وأما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه الا بعد أيام ، وكان هو أجمع في نفسه على الانفصال عنهم ، وبرئت قائمة من قوب . ولست أعلم ماذا جرى معه في تركستان تفصيلا ، ولا أى طريق سلك الى هناك وقصارى ما علمت من خبره بعد بلوغه تلك الديار ، انه دخل بخارى وعضد فيها الحزب الاميرى ، وبطش بدعاة البلشفة وأوائلك الذين يقال لهم « مجددى » أى الحزب الجديد الذين يمشون بين أيدي الجر ، وانها استجمعت له هناك جميع الأمور وأخذ الأمر كله بيده ، وانضم اليه السواد الأعظم من الأمة ، وأرسل في تلك الاثناء صورته بالزى البخارى الى أهله وشاهدتها عندهم بيرلين ، وكان في نيته أن يستقدم السلطنة امرأته عن طريق الهند وافغانستان .

(١) هو الذى اغتاله الارمن مع بهاء الدين شاکر شفاء سنة ١٩٢٢ فى برلين

ولكن لم يكن زال الخوف من كرة البولشفيك ، بل بعد ان استوسقت له أمور مملكة بخارى ، وأزال البولشفيك وأشياعهم منها ، مد الصارخة الى خيوه والى فرغانة التى كانت فتنتها لم تحمد من أول انحلال القيصرية ، فعمت الثورة أ كثر التركستان ، وهاجم أنور عساكر البلاشفة فى مواطن عديدة ، وظفر بهم ، وغنم منهم مدافع واعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الأوربية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها أولياؤه وأحابه ، لا بل المسلمون جميعا ، وظن كثيرون ان قد استتب له الفتح ، ولكننى كنت متوجسا عليه خيفة هذه المطوحة ، معتقداً صعوبة موقعة وقلق وضينه . وفى هاتيك الايام شاع أن البولشفيك دعوه الى الصلح ، فقيل انه أبى ، وقيل بل اختلف معهم على الشروط . وعلى كل حال كنت أرى الصلح أولى لعامى بما ينقصه من السلاح والعتاد ، ولذلك عند ما كنا فى جنوى لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٢٢ الماضية ، قابلت تشيتشرين الذى كان رئيس الوفد الروسى فى المؤتمر وكنت عرفته بموسكو وتحادثت معه مراراً ، وبعد أن أبدينا وأعدنا فى القضية العربية ، سألته عن خطب أنور ، ولم أ كتم عنه انه لم يكن من الحكمة أن يفتوا مثل أنور من أيديهم ، وانه كان من الممكن ارضاءه بشىء من الأشياء . فأخذ يشرح لى عما فعله أنور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة أنقرة ، وما أقامه وأفعله من أحوال تركستان ، وكيف القى الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سببا فى هذه المصائب التى سالت فيها الدماء الخ فتكلمت معه فيما لو كان ممكنا تأليف ذات البين ، فأجابنى انهم هم أحب شىء اليهم الصلح . فقلت له : « ولكن مثل أنور لا يرضى بصلح يكون شرطكم فيه عليه ترك البلاد ومجرد الانصراف » . قال : « وماذا يريد انور » . قلت : « والله لا أعلم ماذا يريد ، وليس بينى وبينه مراسلة ، ولا أعلم شيئا من أحواله الراهنة اليوم ، وانما أقرأ أخباره فى الجرائد . فكلامى هو رأى من عندى أقدمه لكم حباً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم وبينه لا غير ، وهو : انكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلا وخارجا ، فتتركون أنور يصلح أمور بخارى ، لأنه رجل عظيم من جهة الادارة والترتيب . ويتم الاتفاق بينكم وبينه على أن لا يتعرض للتركستان الروسى ، وتؤخذ عليه بذلك الموائيق . قال تشيتشرين « وماذا يكون منصبه فى بخارى أميراً أم وزيراً ؟ » قلت له : « هذا عائد لرأى أهالى بخارى ، فان لم يكن أميراً ، يكون رئيسا للوزارة وقائداً

عاما . أو يصطلح أهل بخارى على جمهورية ويكون هو رئيس الجمهورية . قال : « لالا هذا خطر عظيم » . ولم يزد على ذلك . فلم أراجعه من بعدها في هذه القضية . ولكنني سمعت من أحد أصحابي الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك انهم كانوا يسعون في دعوة أنور الى الصلح . ويقال ان بعض الذين توسطوا في هذا الامر كانوا يقولون للحمر في موسكو : « مهما بذلتم في مرضاة أنور فلا يكون كثيراً لأنه هو روح هذه الحركة ان شاء سكنها ، وان شاء هيجها ، وهي قائمة به وحده » . وكلام كهذا كان من باب الخرق والحماقة ، لأنه جعل البولشفيك يعتقدون أن الاهالي كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من سوء وان حركتهم انما جاءت من قبل شخصية أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم للقبض على ذلك الشخص الذي تسبب لهم بمجرد ارادته ، بكل هاتيك الخسائر وأخرج أكثر تلك الأقاليم من طاعتهم . ولست على ثقة من خبر القوة التي ساقوها على أنور ، ولكن الناس الذين جاءوا من هنالك بعد الوقائع يبالغون في الكلام على الجحافل الجرارة التي بثها الروس في التركستان لاجناد نار الثورة ، ولخضد شوكة أنور . وما مضت مدة حتى روت الجرائد أن أنور تقهر الى الورا أمام القوة الجسيمة التي لم يكن له قبل بها . ولما علم أمير الافغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة الى أنور أسرع بدعوته اليه وبعث يقول له : « أنا محتاج الى مثلك لأجل رئاسة جيشي . فأقدم عليّ فلن تجد عندي أعز ولا أغلى منك » . ولكن أنور كان مغرما بالحرب ، وكما قال على فؤاد بك رئيس أركان الحرب في سورية ، في أثناء الحرب العامة ، وذلك في كتاب له على حجة ترعة السويس عربه الكاتب الأديب نجيب افندي الارمنازي : « ان حال السلم عند أنور عدد منفي وقصارى حياة المرء عند أنور أن يقوم في ميدان الحرب بحملات باهرة برؤوس الحراب . ويموت فيها شريفا » ولقد أصاب على فؤاد في قوله هذا كما أصاب في أكثر ما أورده بكتابه . فان أنور كان حلس قتال لا يمله ، ولكنه كان من أقدر الناس على الادارة والتنظيم ، وكل من شهد ترتيبه في الجبل الاخضر بطرابلس حيث كان مطلق اليد في العمل ، يعلم أنه يندر من يبلغ شأوه ، أو يدرك تبوعه ، في التدبير ، والترتيب وأساليب العمارة ، فكان في هذه الساحة فذاً . الا أنه لم يكن سياسياً كبيراً مع فرط ذكائه وأندكر أنه رغب الى أن أذهب الى ألمانيا لمعرفة حقيقة الحالة سنة ١٩١٧ فلما ودعته قال

لى : « لا يكفينى أن تخبرنى بما هو كائن هناك بل أعطنى على ماتشاهده رأيك الخاص » .
فكان هو نفسه لا يركن الى نفسه فى السياسة . وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فانه لا يوجد
آفة على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفى أوائل أغسطس من عام ١٩٢٢ ، كان أنور ، كما سبق القول ، فى بلدة يقال لها
بالجوان شرقى بخارى ، وكان أكثر جنده تفرقوا عنه بسبب العيد الكبير ، وبقي فى
شردمة من أعوانه ، فهاجته خيالة الروس فى عسكر مجر ، فخرج بنفسه ، وما زال يقاتل
حتى قتل رحمه الله . وكان لم يتجاوز الأربعين من العمر ومن رآه يظن أنه فى نحو الثلاثين
لوضاعة جاله ، ورونق شبابه . وانتشر الخبر فى الدنيا كلها ، ولولوع الشرقيين بأنور ،
وحرصهم على حياته ، لم يريدوا أن يصدقوا الخبر ، ومالوا الى تكذيبه ، لاسيما أنه ورد من
القوقاس برقية بأن ذلك الخبر كان من أراجيف الروس . وبلغنا ذلك اذ كنا عام أول فى
رومة ، فقلت لأول وهلة : هذا الذى كنت أستوقعه له ، وعزى بك والى بيروت كان قال
لى : أنور هذه المرة اما أن يعلو كثيراً أو يموت . على أن موته شهيداً فى سبيل تحرير
قومه هو أشرف ميتة ، وأنوه منية . ثم لما ورد نبأ التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً .
ولكننى كنت غير مطمئن البال . فلما عدت الى برلين سألت أخاه كامل بك وأهله ،
فوجدتهم مطمئنين ينتظرون البريد الافغانى ، وهم لا يشكون انه آت بمكتوب منه .
فسألهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً انه بنى على كتاب جاء من نفس أنور
بعد تلك الاشاعة ، فعلمت أنه لم يرد منه بعد الاشاعة شىء . فعند ذلك هجس فى فكرى
انه لو كان حياً لأسرع بالكتابة الى أهله تكديباً للاشاعة ، اذ لا بد من أن يكون بلغه
ما قيل . ثم كلفونى أن استقصى لهم الخبر من سفير أفغانستان الذى كانوا سألوه فلم يخبرهم
بسوء ، فأحفونى على سؤاله من قبلى أنا فلما سألته بصورة خاصة ، قال لى ان الخبر صحيح
ولكنه لا يريد أن يصرح لهم به ، ويكون ناعياً لأنور . وهو الذى أخبرنى عما أصاب الأمير
أمان الله خان ملك الأفغان من الحزن لفقد أنور ، لاسيما انه كان بعث اليه يستقدمه بالحاح
الى كابول فأبى . فلما عادوا يسألوننى عما سمعت من سفير الافغان ، أجبته ان السفير
لا يقول شيئاً ولكننى أنا شخصياً فى قلق من سكوته المطلق ، وأرى انه مادام الباشا لا يكتب
كالعادة بخطه الى السلطنة فيخشى من أن يكون هناك قضاء واقع . وما زالوا يعللون

أنفسهم بالآمال ويسمعون لأقوال من يروى لهم عن الجريدة الفلانية ان أنور حى ، وعن القادم الفلانى من تلك الديار بأنه وقع تشابه بينه وبين قتيل آخر ، وان الذى وجدت جثته وكان ظن أولاً انه أنور ظهر بالتالى انه غير أنور الى غير ذلك من الأخبار المبنية على « بشروا ولا تنفروا » ، الى أن قدم ضابط من القوقاس لقينى فى لوزان فى هذا الشتاء ، وأخبرنى بالقصة التى كنت عرفتها من سفارة الأفغان بيرلين قبل مجئى هذا الضابط بأشهر . ومع هذا فغرام الشريطين بأنور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً . وما زالوا يلهجون بذلك حتى أعلن أمير الالاي على رضا بك نائب أنور بياناً فى الجرائد الهندية يقول فيه : « مضى زمن على شهادة الغازى أنور باشا الذى كان يجاهد لتحرير تركستان فهو اليوم ليس فى أفغانستان ولا فى ايران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل الى جوار ربه الذى جاهد لمرضاته بماله ، ونفسه ، وقد اتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى أنقرة ، فرجاؤنا من مسلمى الهند أن لا يجدوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » .

هكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذى مهما قيل عن هنائه وأغلاظه ، فلم تخرجه عن كونه عظيماً . وان فيما ختمه الله له من الشهادة فى سبيل أمته ، ما يكفر عن سيئاته ان كانت هناك سيئات تذكر . لاسيما انه قد دعاه أمير الأفغان لأعظم منصب فى دولته ، فأبى وآثر الجهاد ، وهو يعلم مقدار قوة الدولة الروسية التى وقف فى وجهها . وقد انفق الناس ، من قصرى وعمى ، على كون أنور بطلا من الأبطال ، ليس فى هذا العصر بين المسلمين ، من يدانيه فى علو الهمة ، وبعد مرتى العزم ، واتقاد الحمية ، وكان يعجب جميع من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمسمية ، من جهة ، والحياء والرقه والتواضع من جهة أخرى ، جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثل الانسان فيه وداعة الحمام ، فى شكاسة الأسد . ولما عرف أحد أنور حتى من أشد الناس عداوة لمشر به الا أحبه وهفا قلبه عليه ، وكثيراً ما صرح لما أناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشناً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار فى صدورهم برداً وسلاماً ، وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو وكان يقول لى: أكره الكلام الكبير . وأكثر ما نقم الناس على أنور كونه من أعظم أسباب دخول الدولة العثمانية فى الحرب العامة . وكان أنور يرى أن الحلفاء تقاسموا

بلاد الدولة فيما بينهم شق الأباطمة ، قبل الحرب العامة . ففرنسة وانكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، كما اعترف بذلك المسيو بوانكاره في مجلس الشيوخ الفرنسي جواباً على المسيو بيرار في العام الماضي . وكذلك لم يكن بعيداً عن العقل ، أنه لو خرجت الروسية من الحرب العامة غالبية لكانت السلطنة العثمانية أثراً بعد عين . لأنه مما لا ينكر ان الاستيلاء على الاستانة كان أول أهداف الروسية في دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الأناضول . ولقد اعترف الحلفاء أنه لو لم تدخل تركية الحرب وبقي الدردنيل مفتوحاً بين الروسية وحلفائها لما انهارت الروسية . وكذلك ثبت أن بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على ألمانية تقسيم السلطنة العثمانية ، وأن تكون حصة هذه الأناضول فهذه الأسباب كلها ، مع غيرها مما ليس هنا محل شرحه ، جعلت أنور وطلعت أمام هذه القضية يقولان : ان تأيينا الانضمام الى ألمانية نخشى اما أن تنتهي الحرب بالاتفاق علينا ، وألمانية من الجلالة بما نكون قد تركناها . واما أن يتم النصر للحلفاء وحينئذ فيقع تقسيمنا بين هؤلاء فيما بينهم هم فعلى الحاليين نكون من الغابرين . أما اذا انضمنا الى الالمان فنحن بين أمرين : اما أن تفوز ألمانية فنخاص نحن من الخطر الذي يتهددنا من جهة الحلفاء . واما أن تنكسر ألمانية فلا يصيبنا شيء أكثر مما سيصيبنا لو أهملنا الانضمام اليها . هذا مع كونهما لم يتوقعا لألمانية الدائرة التي دارت عليها . إذ لم يكن متوقعاً دخول أميركا في الحرب وربما قيل ان الحلفاء عرضوا على تركية شروطاً مفيدة تؤمن لها استقبالها فيما ولزمت الحياد . والجواب أن تلك الشروط التي عرضها الحلفاء لم يكن فيها شيء من الأهمية ولا تعهدت روسيا بعدم مهاجمة تركية فوق ثلاثين سنة . ولعمري لو عقد الحلفاء مائة عهد لتركية ثم خرجوا من الحرب ظافرين فن الذي كان في استطاعته اقامتهم على عهودهم ؟ أفلم يعاهدوا الشريف حسيناً على استقلال جميع بلاد العرب ؟ فماذا جرى ؟

كانت معرفتي بأنور يوم التقينا في ظاهر درنة في حرب طرابلس . ويظهر انني لما فصلت من مصر قاصداً طرابلس ، أبرق أناس الى أنور - ولا يوجد أكثر من الساعة والمفسدين وبالأسف - يحذرونه مني ، ولا أعلم الى الآن ماذا زينوا له بل علمت فيما بعد أنه بناء على هذه البرقيات المتواردة عليه أصدر أمره الى أدهم باشا الحلبي قائد معسكر طبرق ، بأن يردني من طبرق الى السلموم . ولما كان أدهم باشا رجلاً منجداً قديماً ، أجابه

بأنه لا يعتقد أنني مظنة سوء . وان رده اياي بعد أن وصلت الى المعسكر والتف حولي العرب قد يؤثر في هؤلاء تأثيراً سيئاً ، فالأحسن ان أمكن من الوصول الى معسكر أنور بعين منصور فأكون هناك تحت مراقبة القائد العام نفسه ، فان رأى هو ما يريه منى كانت معه سعة من الوقت لاخراجي من هناك . فافتنع أنور بهذا الجواب وتركني أكمل السير الى عين منصور وأنا لا أعلم لى بشئ مما وقع . و بعد أيام من وصولي وملاقاتي به مراراً . وأخذنا بأطراف الأحاديث من كل موضوع ، علم أن الأخبار التي وردته هي دسائس محضة ، أو ناشئة عن خدعة وحيلة ، من أناس قصدوا أن يدسوها لأغراض لهم ، ومن ذلك الوقت انعقدت بيننا صحبة أكيدة ، واستمرت الى أن صار ناظراً للحربية ، فكان كلما علا رتبة ازداد تواضعاً بعكس ما عليه كثير من قومه . وفي تضاعيف الحرب رغب الى أن أذهب الى ألمانيا أول مرة لمراقبة الأحوال ، وما مضت مدة وجيزة حتى قال أنور لأجد نسيماً بك ناظر الخارجية « كم أنفذنا الى ألمانيا رجلاً من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الأحوال وأقاموا أشهراً فلم يقم أحد منهم ، ولا جميعهم ، بما قام به فلان (يشير الى) في ١٥ يوماً » ثم لما رأى مارأي من الحفاوة التي أظهرها الألمان بي عند مازرت ألمانية سنة ١٩١٧ اعتقد أنني أقدر من غيري على حل المشكلات المتعلقة بينهم وبين الأتراك ، فلما وقع الخلاف بين الفريقين من أجل باكو والقوقاس والأسطول الروسي في البحر الأسود قال لي : « ان هؤلاء القوم يجاونك كثيراً ويعتقدون ميلك الخاص اليهم ، فأرجو منك أن تذهب الى برلين ، وتسعى في نظارة الخارجية فيها في اعتراف ألمانية باستقلال أذربيجان والطاقستان ، كما اعترفت باستقلال كرجستان . وأسر الى غير ذلك من الأمور . فقلت له : « كنت على أوفاز الى سورية ، ولكن لأجل خاطر هذا أذهب ألمانية أولاً » . فقال لي : « يكفيك في برلين لهذه المهمة شهر أو عشرون يوماً ثم تعود الى هنا وتسافر الى سورية » . ففصلت من الاستانة في أوائل يونيو وأنا عازم على أن لا أمكث في برلين فوق ٣٠ يوماً . وها أنا ذا في أوروبا منذ ذلك الوقت ، وهي مدة تزيد على الخمس سنوات ، لم يتيسر لي فيها أن أضع رجلي في الشرق ، ومجنون من يظن أن المرء في حياته مخير لأمير . أما قضية الخلاف بين ألمانيا والأتراك ، فكنا على وشك انهاءها لابل قرر الألمان إجابة الترك الى طلبهم من جهة الاعتراف باستقلال أذربيجان . وألححت عليهم انا بناء على طلب الوفد الطاغستاني

الذى كان اعتمد على في قضية بلاده ، أن يسووا في هذا الاعتراف بين كرجستان ، والطاغستان ، وأذربيجان بل يعترفوا أيضاً باستقلال جمهورية أريفان الأرمنية وبينما نحن في هذا الصدد إذ ذهمننا خبر طلب البلغار المتاركة ، وارساهم وفداً الى معسكر الحلفاء بسلانك وكان ذلك مبدأ انهيار الجبهات الحربية الألمانية ، والنموسوية ، والعثمانية ، فطلبت كل من أوستريا - هنكاري ، وتركية ، الهدنة وتبدلت الوزارة بالاستانة .

وقبل تبديل الوزارة بقليل جاءنى الى برلين برقية رقية من أنور ، بواسطة السفارة العثمانية ، يستحث بها رجوعى الى الاستانة ، فلم أبادر الى السفر مترقباً سيرالحوادث الهائل يومئذ ، إذ في تلك الأيام كان من تتابع النوازل أعظم مشهد تاريخى يتهبأ للانسان . وكان يتم في الجمع مالا يتم في الحقب ، ولا في القرون . ففي نحو خمسة عشر يوماً رأيت سلطنة أوستريا والمجر التي كانت ٥٥ مليون نسمة ، قد تساقطت حتاناً ، وتفرقت أشتاناً ، وبعد مضى عشرين يوماً على برقية أنور قصدت الاستانة من طريق رومانيا وركبت الباخرة من برايلا فلما وصلت بنا الباخرة الى كوستنجه ، وردها الأمر بأن لاتكمل سيرها الى الاستانة ، وأن تنقلب على عقبيها قاصدة أودسا : فشق ذلك على ، ولكن عسى أن تكروهوا شيئاً وهو خير لكم . فان عدم تمكنى وقتئذ من دخول الاستانة ، أنقذنى مما وقع فيه أكثر زملائى الذين نفوا وغربوا وشربوا مياه مالمطة . فلما وصلنا الى أودسا سألتنا عن باخرة تذهب الى الاستانة فقبل لنا ان باخرة ألمانية اشتراها الأتراك ، أنت من الاستانة بعساكر ألمانية ، كانت بدأت تعود الى بلادها بحسب شروط الهدنة التي انعقدت في مودوروس فهذه الباخرة ستذهب لانزال العساكر المذكورة في نيقولايف ، وتعود الى دار السعادة .

فتحوّلنا الى تلك الباخرة ، وذهبننا بها الى مرسى نيقولايف فنزل العسكر الألماني الذى فيها الى البر ، وبتنا هناك على أن نقلع ثانى يوم الى الاستانة . ففي اليوم التالى ، بينما الباخرة على وشك السفر إذ وقع منى نظرة على رصيف الميناء فبصرت بعمام بيض فأسرعت أرى من هناك ، فاذا بالمرحوم الأستاذ الشيخ صالح الشريف التونسى ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسى وعبد الحميد بك سعيد المصرى والدكتور أحمد فؤاد المصرى ، وابراهيم بك راتب ، ويوسف بك مصطفى ، وغيرهم من مصريين وتوانسة جلتهم ستة عشر شخصاً ، يقصدون ألمانية وسويسرة منهم من توارى

من وجه الحلفاء الذين كان يمكن أن يقبضوا عليه ، ومنهم من كان يعلل نفسه بعقد صلح على مبادئ ويلسون ، إذ لم تكن ظهرت ماهية ذلك الرجل وقتئذ . وقد علمت من بعضهم أن الحكومة الجديدة في الاستانة كانت تعلم سفرهم ، وترى ذلك أحزم وأحوط ، إذ لو تعرض لهم الحلفاء بحجة أن هذا مصرى وذلك تونسي ، ما كان يمكن الحكومة العثمانية في هاتيك الأيام الصعبة أن تحميمهم كما أن واحداً منهم أسرّ الىّ بأشارة من رأس الحكومة الجديدة بأن أبقى في أوربا تلك المدة ، وأجاهد في القضية العربية على موجب برنامج ويلسون فأطلعت هذا الواحد على برقية أنور الواردة الىّ . فقال لي : وأين أنور ؟ قد انسلوا من الاستانة خيفةً : أنور وطلعت وجمال الخ .

فبعد هذا الحديث قررت السفر آيبا الى المانية ، ومنها الى سويسرة ، وجئنا جميعا من طريق الروسية الى برلين . ومن برلين قصدنا سويسرة ، فبقيت فيها من أواخر ١٩١٨ الى أوائل سنة ١٩٢٠ . وعدت الى منيخ فبرلين ، وهناك تلاقيت بأنور عائداً من موسكو . وكان يلح عليّ دائماً في الذهاب معه الى موسكو وأنا اعتذر له عن مشقة ذلك عليّ إلى أن رضيت أخيراً بأن أذهب على شرط أن لا أقيم فوق جعتين وكان مرادى مشاهدة حالة الجر بنفسى والفحص عما اذا كان يصح الاعتماد عليهم في المسائل التي نحن فيها أم لا ؟ وعما اذا كان هناك من أمل بأن تستفيد منهم البلاد الشرقية والأمم المستضعفة أم لا ؟ فأقت بموسكو شهراً أجريت فيها بنفسى التحقيقات التي أردتها . وفي أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ فارقتها وودعت أنور وهذا آخر عهدي به ،

يودع بعضنا بعضا ويمشي أواخرنا على هام الاوالى

أما خبر طلعت فانه وصل الى برلين ، وتوارى في مصحة (ساناتور يوم) بظاهر تلك العاصمة وكان عقب فرارهم من الاستانة حصل هيجان بين الطلبة الاتراك في برلين ، والتمس هؤلاء من الحكومة الالمانية تسليمهم الى الحكومة العثمانية . وأخذ هذا الهياج بين الطلبة يتزايد الى أن صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم أو يهينوهم . فاما أنور فلم يكن هناك ، وأما طلعت فأرسل الى الطلبة انه حاضر لمقابلتهم ، وجاء فيما بلغنى منهم جماعة ليوبخوه على سوء ادارته وأسباب سقوط الدولة على يده وأيدى رفاقه ، وكانوا يحرقون عليه الارم ، فلما شاهدوه وسمعوا الدفاع الذي دافعه عن نفسه والاسباب التي بسطها لهم سكتوا ، وكان

سريع الدمعة لا سيما اذا تكلم في المسائل الوطنية غلب عليه البكاء فلما أجهش امامهم زال ما كان من حذتهم وانصرفوا عنه . وأما الحكومة الالمانية فانها كانت تعلم أن الخلفاء لا بد أن يطالبوها بتسليم هؤلاء ، فأعلنتهم جميعا وجوب مفارقة المانية ، ولم تستئن الا طلعت وأنور . وكنت لقيت تصادفاً كلا من عزمى وبدرى فى منيخ ، فعلمت منهما أن الحكومة فى برلين اندرتهم بأنهم ان لم يبرحوا أرضها سلمتهم الى الخلفاء . وسألت عن أنور وطلعت فأجابنى عزمى : « بونلر مستثنى : أى انهما مستثنيان » ويظهر أن الحكومة الالمانية أبلغت جلالاً وعزمى وبدرى والدكتور ناظما والدكتور بهاء الدين شاكر أسباب سخطها عليهم، وعينت لكل واحد ذنوبه فجاء باشا وعزمى بك غضبت عليهما لاجل المسئلة العربية ، لأن عزمى استشهد بى وقال لى : انت كنت فى سورية فهل علمتني مسؤولا بشئ فيما أجراه جبال ؟ قلت لا . ولكننى عابته على أمور أخرى ليست من هذا الباب وكان مرادهم استعمال وسائل يتمكنون بها من دخول سويسره ويظهر ان جبالا دخل سويسرة متنكراً ولم نشعر بذلك وقتئذ ، بل علمناه من خاطراته التى انتشرت مؤخراً . ثم انه رجع الى المانية بعد أن سكنت الزعازع واقام بمنيخ حيث كان بعض قواد الالمان الذين كانوا بمعيتة فى سورية هم من ذوى الأمر والنهى بمنيخ .

وبقى طلعت متواريا عن الانظار مدة ثم بدأ يخرج وذهب الى هولانده ومعہ نسيم مازلياح من الاتحاديين اليهود ، الذى كان مبعوثاً عن ازميز وكان يلزم طلعت فى غربته ثم تلاقى طلعت مع هويمانس الاشتراكي الباجيكي وحصل بينهما حديث طويل ، فسأله عن قضية الارمن ، فاجابه طلعت بالواقع ولم يجتهد أن يتنصل مما فعل . فقال له هويمانس Huymans : « كان يجب أن تكتب هذه القصة كلها وتنشرها لتنير الرأى العام الاوربى عليها لأنه لا يعرفها كما تقول » فوقع فى نفس طلعت أن يحرر خاطراته فحررها من الاول الى الآخر بالتركية ولم يغيب فى الامور التى قصها ، ولا ستر حتى على اخوانه . ونال فيها من أنور ومن جبال فى بعض الموضوعات . ثم طبع الكتاب وقبل أن وزعه كان أنور قدم الى برلين فبلغه الأمر ، فأخذ عليه ما كتب . فأجابه طلعت انه هو لم يكتب هاتيك العبارات التى فيها نيل من أنور ، وانما أضافها أحد أصحابه ، وطبع الكتاب بدون أن يقف هو عليه ، ومع هذا فانه سيجمع نسخ الكتاب ويحرقها . وجعلها طلعت يومئذ

ولم يوزعها . ولكن أنور لم يقبل منه ذلك التعليل ووقعت الوحشة بينهما باطنا ، واسرّ الى أنور بعض أمور عن طلعت علمت منها غيظه منه ، وكنت أهون الأمر عليه ، ولكن لم تنقطع بينهما الزيارات ، وبقى طلعت يجالس أنور ويحاله . وكان طلعت يرسل مصطفى كمالاً ويؤازر سياسته من بعيد ، بخلاف أنور . وورده من مصطفى كمال كتاب قبل قتله بقليل يفوض اليه أمر السياسة في أوربا ويؤكد له ثقته فيه . ولم يقعد طلعت بدون حركة في برلين ، فأقام في شارع هاردنبرغ نمرة ٤ ، وه تحت اسم « ساعى بك » وكان يختلف اليه كثير من أصحابه الألمان ومن رجال السياسة من غيرهم . وكان يأتي أحيانا الى سويسرة والى رومة ، ويقابل فيهما من بينه وبينهم موعد . وأسس محلا خاصاً أشبه بدار قراءة كان يختلف اليه هو وأصحابه الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر والدكتور رسوخى وغيرهم للإذكرة والمطالعة ، وكنا نذهب الى هناك أنا والأستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويز ، والمرحوم محمد الباشهانبه التونسي ، الذى فقدناه أحوج ما كنا اليه ، اذ كان من أفراد شبان العالم الاسلامى علما وذكاء ، وعلوهمة ، وطهارة أخلاق ، وكنا قبل ذلك بسنة فقدنا أخاه على الباشهانبه ، الذى كان رئيس دائرة التشكيلات فى نظارة الحربية ، وكان على طراز أخيه فى كل مزية . فكان هذان الصنوان من مفاخر تونس ، وماتا فى الغربية ، وهما يندبان وطنهما كما أن وطنهما يندبهما .

وكان طلعت قد مال بادى ذى بدء الى البولشفيك ، وحصلت له صلة مع « رادك » أحد زعمائهم وتفاعل خيراً بالعمل معهم حتى حدثته نفسه أن يذهب الى موسكو . ولكن قبل قتله بقليل رأيته زاهداً فى مودتهم وصرح لى قائلاً : « إن هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسامين من الاستقلال والحرية ، واستأنفوا سياسة بلادهم القومية ، أفلا ترى كيف فعلوا باذر بيجان وضموها ثانية الى الروسية ، بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها . وبناء على اقتراح طلعت تأسس فى برلين النادى الشرقى ليكون جمعاً للشرقين قاطبةً ، بدون تفريق . بين الأجناس والأديان ، وعقد طلعت مجلس مؤسسين فى البداية واقترح أن يكون هذا العاجز رئيس المؤسسين ، ووافق الجميع .

ثم لما انتظم عقد النادى والتأمت الجمعية العمومية لانتخاب مجلس الادارة بالاقتراع السرى ، انتخبت رئيساً باتفاق الآراء ، وكان طلعت بمن سعى فى ذلك . ثم اجتمعنا فى

النادى للذكرة في أمر بناء المقبرة الاسلامية ببرلين ، فانتخب الجمهور لجنة وأول من اقترح أن أكون أنا رئيسها كما حصل هو طلعت . وكان لا يصدر عن رأى الا شاورنى فيه أثناء مقامنا في عاصمة الألمان . وكان يختلف الى صاحب بولونى كان أبوه ياوراً لساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان ، وأتاح له الزمن المجيء الى سورية ولبنان وتعرف بال أرسلان منذ أكثر من ٤٥ سنة . فلما شاهدنى ببرلين وهو مهاجر اليها من الروسية ، وأنا مهاجر اليها من الشرق ، صار يتردد على هو وابنه ، ثم توفى الوالد وبقي الولد على العهد ، وكان بين هذا وبين بعض رجال البعثة البريطانية ببرلين صحبة وصلة ، فشرع يرغبنى فى الملاقاة مع بعضهم ويبين لى مافى ذلك من الفوائد لمصلحة بلادى . فكنت أجابه : « لأرى فى ذلك مصلحة ولا أعتقد أنهم يريدون من مواجھتى سوى الاطلاع على الأخبار ، وبقيت متأبياً الاجتماع معهم مدة ، والبولونى يغادبنى ويراوحنى ، الى أن شاورت طلعت فأشار علىّ بأن أقبل الملاقاة معهم لئرى ماذا يريدون ، ولعل هناك خيراً . فلما عاد البولونى إلىّ أحبته الى الملاقاة ، وذلك فى الفندق « كونيمنتال » الذى يسكنه البولونى نفسه ، وحصلت المواجھة وطالت نحو ساعتين . وقد جرى البحث فى المسئلتين العربية والتركية ، فأبدت أفكارى فى كل منهما ، وصرحت بما يحتاج ضميرى من التعجب لسياسة بريطانيا العظمى الموصوفة عند الخلق بسداد الآراء ، كيف لم ترنا شيئاً بعد الحرب العامة من هذا السداد ، وكيف انها تستخدم بعكس ماتنوى السياسة البولشيفيكية فى الشرق . وليس هنا محل سرد مادار بيننا وبينهم من المناقشات ، اذ ذلك يطول ولكن هناك نقطة لا بد من تعيينها : كان الانكليز يريدون أن لا يرجعوا الى الوراء فى مسألة معاهدة سيفر التى كانت بنت فكر لويد جورج رئيس الوزارة ، ولكنهم كانوا بدأوا يدركون صعوبة تنفيذها ، فكانوا يحاولون اقناع الترك بقبول المعاهدة مبدأ ثم تعديل ما يلزم تعديله منها فيما بعد ، لكن على شكل يقال له تعديل فى كيفية التطبيق . فأخذوا يبينون لى استحالة الزكول عن معاهدة سيفر ، واصرار انكلترة عليها مع قبول تعديلات كثيرة فيما لو سلمت تركية مبدأ بها . فأجبتهم اننى لأرى امكاناً لامضاء الترك هذه المعاهدة ، اذ لم تبق لهم من أدوات الاستقلال شيئاً وكان يمكن الدول أن تقول للاتراك : ان كنتم لاتتمثلون لهذه المعاهدة فاننا نسلب من يدكم البقية الباقية فعليكم أن تختاروا أهون الشرين . هذا فيما لو كان ثمة بقية باقية ، وكانوا يخافون

بعد هذه المعاهدة على شئء تسلبونهم اياه . فأما وقد جردتهم هذه المعاهدة من كل أسباب الملك فلا تقدر ان بعد الآن أن تهددوهم ولأن تنذروهم بخطر أعظم . اذ يكون جوابهم : لن نفقد بالمقاومة شيئاً زيادة على ما سنفقد بقبول هذه المعاهدة ، لكن بالمقاومة نحفظ على الأقل شرفنا . فكان جواب الانكليز لى « كيف يقال هذا وقد تركنا لهم الاستانة . وكان ممكناً اخراجهم منها » فقلت : « بموجب هذه المعاهدة لا يبقى للاتراك حكم حقيقى لافى الاستانة ولا فى غيرها » . ثم قلت لهم : « انكم تناقشوننى فى أمر معاهدة سيفر فأنا أقول لكم بصراحة تامة انه لما دار البحث على المسئلة العربية ، جاو بتكم جواب رجل ذى علاقة وصلاحيه لأننى عربى وكثير من العرب يوافقون على ما أقول ، وقد كنت من نواب الأمة العربية فى الندوة العثمانية . فأما الجواب على المسئلة التركية فهما كان من ارتباطى مع هؤلاء الجماعة سواء برابطة الاسلام ، أو بالرابطة الشرقية ، فأقول لكم ليس لى أن أبدى فيها رأياً . والرأى فيها انما هو للاتراك أنفسهم » . قالوا : « وهل يوجد من تقدر أن تتذكر معه من الاتراك ذوى الصلاحيه للكلام » . قلت : « وهل تريدون ذا صلاحية أكثر من طلعت » ؟ وقد كانوا هم يعرفون أنه فى برلين ، ويعلمون علاقة أحدنا بالآخر . ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك تجاهل العارف « فقالوا : وهل يمكنك أن تجعل بيننا وبينه ملاقة ؟ » قلت : « ينبغى أن أسأله أولاً ثم أجابكم » . وبعد أيام دعوتهم ودعوت طلعت الى الغداء عندى ، ودار بحث طويل وسألوا طلعت فى نهاية الحديث هل اذا أعيد الى الصدارة العظمى يقدر أن ينفذ معاهدة سيفر ؟ فأجاب : « ان بقى الكلام على معاهدة سيفر هذه فلا أنا ولا غيرى يقدر على انفاذها . وان كان يمكن تغييرها فلا تبقى حاجة الى عودتى الى الصدارة لأجل تقرير الصلح » نعم وعدهم طلعت أنه اذا رضيت انكثرة بتغيير المعاهدة يذهب هو الى أنقرة ويحتهد فى اقناع الكمالين بالصلح . وأتذكر أنه شاورنى بعد انصراف الجماعة قائلاً : « هل تذهب معى الى انقرة فيما لورضى الانكليز بتغيير المعاهدة ، وتساعدنى فى اقناع الحكومة الملية بالصلح ؟ » قلت له : « أذهب معك بشرط أن يعطينا الانكليز ورقة رسمية بأنهم أصبحوا راضين بتبديل معاهدة سيفر ، وانهم يدعون تركية الملية الى الصلح ، والا لا يجوز أن نذهب بناء على مجرد القول ، لأننا نعلم أن رجال الدولة يفاوضون ويفوضون ثم لاقل سبب

يتصلون بما فوضوا به ، وينكرون ما فعلوه . فليكن بيدنا وثيقة تتوكأ عليها في أنقرة فقال « هذا لا ريب فيه » . ويظهر أن الانكليز وقتئذ لم يكونوا قطعوا أملهم من تنفيذ معاهدة سيفر ، وكانوا يظنون أن اليونانيين غالبون للترك لا محالة ، فلويد جورج الذي كان يرى النكوص عن معاهدة سيفر مسقطة له ، كان لا يزال منتظرا نتيجة الحرب الاناضولية فلذلك كتب الانكليز الذين واجهونا كل مدار بيننا وبينهم الى لندن التي كان منها صدور الأمر بمقابلتنا ، ولكن لم يردهم جواب صريح بقبول التعديل لمعاهدة سيفر وأما نحن فأرسلنا الى مصطفى كمال نخبره بما وقع معنا من المفاوضة . وبقى المأمور الانكليزي يجتهد بابقاء الحبيل معنا موصولا ، فتوالت الولائم وتبودلت الزيارات ، وارتاح طلعت كثيرا الى هذه العلاقة ، واغتبط بهذه المعارفة ، وصادف أثناء ذلك احدي جيئات أنور الى برلين ، فلم يسعني ولم يسع طلعت الا وقوفه على ما جرى بيننا وبين البعثة البريطانية . فلم يتلق أنور ذلك بالارتياح وقال : « كل هذه المفاوضات خداع في خداع » . وأظهر اصراره على العمل بالاتفاق مع الروس . ولما رجع الى موسكو قال للبشفيك ان طلعت اتصل بالانكليز وعول على صحبتهم . وفعلا كنت أرى طلعت في تلك المدة مقلعا تماما على فكرة البشفيقة ، يراها مضررة بالترك والاسلام ، كضرر الاستعمار لا سيما بعد أن ثبت له أن الجر عادوا فاستردوا الحرية التي كانوا أعطوها للأمم التي أعلنت استقلالها عن الروسية . ولم يقنعوا بسلب الحرية السياسية حتى نهبوا معها الاموال وقتلوا الرجال وأهلكوا الحرث والنسل . وكان لطلعت معرفة بمجلس نواب انكلترة محب لتركية منذ القديم يناضل عنها كلما لاحت له فرصة . فلما فر طلعت الى ألمانيا بعد الكسرة ، أرسل الى هذا الصاحب يلتمس ملاقاته في ألمانيا أو هولاندة ، أملا بحمله على السعي في مصلحة تركية ، فأجابه الانكليزي « ان التيران الآن على تركية شديد ، فلا أقدر أن أصنع لكم شيئا ، ولكن بمجرد ما أحس استعداد القوم لقبول الكلام ، لا أتأخر عن الدفاع عنكم » فلما رأى طلعت انه قد حصلت بينه وبين الانكليز هذه الصلة ، كلف المأمور الانكليزي الذي كان يختلف الينا أن يسبر له غور هذه المسئلة ويعرف له ، هل يمكنه أن يتلاقى بذلك « السير الأنكليزي » صاحبه وكان هذا الكلام امامي ، لأنه من الأول الى الآخر ما جرى منهم اليه ولا منه اليهم حديث الا كنت حاضره ، والقسم المشارك لطلعت في الرأي فيه . فأبرق

الانكليزي الى نظارة الخارجية بما وقع فاستدعوا ذلك المبعوث وأوعزوا اليه بأن يجيز المائش ويقابل طلعت في جهات الرين ، وضربوا موعداً للمقابلة . وأبرقوا بالجواب الى الرجل الذي كان الكلام معه في برلين ف جاء هذا الى وطلب مني ابلاغ مآل البرقية الى طلعت باشا حالا ، اذا كان لا يريد أن يخلف الميعاد . وكان طلعت ذهب الى منيخ لتبديل الهواء وأبقى عندي عنوانه موصيا اذا جد نبأ مهم ان ابرق اليه بالأوبة . فأبرقت اليه بأن صاحبه الانكليزي الذي ينبغي هو لفاءه جاء الى مدينة «هام» في الرين ينتظر مجيئه . فخف طلعت الى برلين وجاء رأساً الى وذهبنا الى الانكليزي الذي كان هو الوسيط فكرر له مآل البرقية التي وردته وذهب طلعت الى هام ، وتلاقى مع صاحبه المبعوث وعقدا جلستين طويلتين وتفارقا ، وعاد طلعت الى برلين فأعاد عليّ كل ماجرى بينهما من المذاكرات . وكان من جملة كلام المبعوث الانكليزي قوله هذا : اني أنا أشهد ان حكومتى تابعت نحو تركية سياسة خطأ قبل الحرب ، وأثناء الحرب ، وبعدها الحرب ، وان سياسة انكلترا العوجاء نحو تركية في السنين الأخيرة هي التي سافت الاتراك رغما الى مخالفة الألمان . ولقد بينت لقومى مراراً خطل هذه السياسة فلم يسمع وبلا لاسف لقولى ، لأن الأكثرية هي ضد تركية . والآن لست آتيا من قبل حكومتى ، ولا أنا منها ، ولكننى أقدر أن أبلغها مطالبكم ، وأن اعضدها بقدر استطاعنى . ولا لزوم لايراد مائته اليه طلعت لأنه معروف انه كان يطلب الغاء معاهدة سيفر ، واعادة استقلال تركية مع تراقية وازمير ، وكل بلاد أكثرية أهلها ترك ، وينزل عن كل حق للدولة العثمانية في مصر وبلاد العرب ، وبعده ذلك تمشى تركية مع انكلترا بحسب مبادئ الصداقة القديمة ، وان لزم عقد مخالفة فتركية متهيبته لذلك . ووقعت هذه المقابلة في أواخر فبراير (شباط) سنة ١٩٢١ . وفي ٩ مارس عقد الطلبة المصريون احتفالا كبيراً بتذكار الثورة المصرية ، وكان طلعت فيه ، وخطبت أنا خطبة هناى عليها ولم أشاهده بعدها .

اذ في ١٥ مارس (آذار) نحو الظهرية تلفن الى أحد أصحابى من رؤساء الدوائر بنظارة الخارجية في برلين قائلاً « ان رجلا ارمنيا قتل الصدر الأعظم الأسبق نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار . وما مضى دقيقة حتى دخل على الشيخ عبد الرحمن سيف الأيرانى صاحب مجلة «آزادى شرق» ومعه اثنان افغانيان ، ليخبرانى بالحادثة ، ثم وصل .

الشيخ عبد العزيز جاويز ، وذهبنا الى محل الفقيه معا . وكان لا يبعد عن منزلي أكثر من عشر دقائق ، كما أن القتل وقع في نفس الشارع الذي كان يسكن فيه طلعت غير بعيد عن بيته ، اذ كان هو يسكن في نمرة ٤ الى ٥ والقتل حصل امام نمرة ١٧ . وكان لذلك وقع عظيم بيرلين ، فبعض الجرائد المنسوبة للحزب الامبراطوري نذبت طلعت ، وتأسفت عليه وذكرت مزايه ، وانه كان مع أنور السبب في مخالفة تركية الألمانية . وأما الجرائد الديموقراطية واليهودية فغمزته . وعرضت بمسئلة الارمن ونسبت صداقته لالمانية . وأقيم له مأتم حافل حضره كثير من الألمان مع الجالية الشرقية ، وأودعت جثته محلا في مقبرة ألمانية الى أن اكملنا المسجد والابنية التي أنشأناها في الجبابة الاسلامية ، تحت نظارة هذا العاجز وبمساعي امام السفارة العثمانية حافظ شكري افندي . فنقلت التجاليد الى مستودع الاجساد الذي بنيناه فيها لأجل ايداع الاجساد التي يراد نقلها الى وطنها الأصلي . فهي هناك مع تجاليد جمال عزمي بك والدكتور بهاء الدين شاكر بك ، اللذين اغتالها الأرمن بعد واقعة طلعت بعدة أشهر عفا الله عنهم جميعاً . أما قتل هؤلاء كلهم فكان كله غيلةً وخلصه من الوراء بحيث لم يكونوا يشعرون الا وهم صرعى . وقد كان طلعت في البدء بلغه ترصد الأرمن له ، فكان يدارى ويرامق ولا يخرج وحده ، ولكن ما مضت أشهر حتى استرسل واستهتر وأخذ يخرج وحده في النهار الواحد مرتين وثلاثاً . فلما بلغ الأرمن ذلك أرسلوا اليه شاباً مصاباً بالسل موتوراً فيما يقال بقتل أهله اسمه تاليريان ، فقالوا له أنت لا تعيش أكثر من سنة ، فاذا كان لا بد من أن تفارق الحياة قريباً فألحسن أن لاتفارقها قبل أن تقتل طلعت هذا الذي قتل أمة بأسرها من الارمن . وقيل انهم تعهدوا له اذا قتل طلعت بتخليصه من القتل بل من الحبس ، وذلك بواسطة احدى الدول الكبرى ذات الكامة العليا . ومن المحقق انهم سعوا في ذلك لدى تلك الدولة العظمى ، كما انه يقال كثيراً ان سفير هاتييك الدولة سعى بمزيد نفوذه في برلين بتخلية سبيل القاتل المذكور ، وأخلى سبيله لشهرين من حبسه . فنقم الترك ذلك على الالمان الى هذا اليوم ، وعند ما طلب الخلفاء في مؤتمر لوزان بهذه الايام تصفية أملاك الالمان التي في تركية لحساب الخلفاء أجابوهم حالا الى طلبهم . ولما عوتبوا على ذلك من جهة الألمان أجابوا : « اننا لم ننس اطلاق سبيل تاليريان قاتل طلعت لشهرين من حبسه . ويكون من باب الفضول أن نقول ان طلعت كان عصامياً

فكل أحد يعلم انه رقى في مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سلانيك ،
بمعاش الف وخمسة قرش في الشهر ، الى الصدارة العظمى . ولا جرم أن سرعة هذا الترقى
كانت بسبب الانقلاب و اعلان الدستور ، و نفوذ جمعية الاتحاد والترقى التي كانت هي سبب
الانقلاب ، وكان طلعت من أعضائها . ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلاً خارق العادة في
ذكائه ، ومضائه ، وحزمه ، وعزمه ، لما أصبح هو رئيس جمعية الاتحاد والترقى بلا منازع ،
فقد تصرفت هذه الجمعية بزمام السلطنة العثمانية عشر سنوات تامة ، وتصرف طلعت بزمام
هذه الجمعية جميع هذه المدة . وكان هو دائماً روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلي ، ولو لم
يكن كل الاحيان رئيسها الرسمي . وكان هو المرجع الاول والاخير للدولة من قبل أن يتولى
الصدارة ، بل لحظت أن الصدارة لم تزده نفوذاً ، بل بالعكس أظهرت شيئاً من ضعفه ، وخطأت
في نفسى رأيه بقبولها . وأظن أن الذين حفزوه الى ذلك هم رفاقه مدحت شكرى ، والدكتور
ناظم ، والبهاء شاكر ، وضيا كوك الب ، والدكتور رسوخى هؤلاء الذين كانوا أثناء الحرب
عماد المركز العمومى للجمعية . وبالجملة فلو كان في جميع أعضاء هذه الجمعية من يضارع طلعت أو
يقادره ، مع كثرة عددهم وطموح الكثيرين منهم الى المعالى ، لما انفرد هو بالرئاسة على
جميعهم ، وقد قلت لمامات ان هذه الجمعية ماتت بموته ، والحق انهم لم يجدوا من بعده
رئيساً يتفقون عليه ويضم شملهم . ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم في المكاتب العالية ،
بل كان جميع عرفانه شديداً من هنا ومن هناك ، والتقاطاً من عشرائه الذين كان منهم عدة
نفر من أتم الناس تحصيلاً ، ولكن كان طلعت يجبر ما نقصه من العلم المسموع بالعلم
المطبوع ، ويسد جورة جهله ، بغزارة فهمه ، وسرعة لحظه . وهناك ميزة أخرى ضمنت
له حفظ تلك الرئاسة على أقرانه وهي معرفته أن يعصم نفسه من المطامع الدنيئة ، والمطاعم
الوئيئة ، وعدم استخدامه شيئاً من نفوذه الطائل ، في افادة مال ، أو جمع ثروة ، بحيث
سطع له من حالة فقره برهان دائم على نزاهته ، ويمكن له ذلك دعائم رئاسته ، بينما كثيرون
من زملائه قد غمسون أصابعهم في أدهان المنافع ، منهم من اشتط ومنهم من اقتصر . وكان
يقول : « أفلا يكفي كون هذه الأمة تحملتنى على جهلى ، أفاجلها أيضاً على سرقتى واغلالى؟ »
نعم تولى طلعت أمور الدولة العثمانية عشر سنوات ، لم تشبه فيها سائبة اغلال ولا اسلال ،

وستر كثيراً من عيوبه وكفر عن كثير من أغلاطه ، بعفة نفسه ، ونزاهة طبعه . ولما وصل الى ألمانيا سنة ١٩١٨ كان في جيبه ٥٠ الف مارك فلما نفذت أرسل اليه أحد أصحابه ممن أثرى بسبب انتسابه الى طلعت مبلغ ٢٠٠ الف مارك ، كان ينفق منها ، فإساعات كان باقياً منها شيء يسير . ووجدت عنده بعض علب ذهبية وقطع نفيسة ، منها ما أنعم عليه به السلطان ، ومنها تذكارات من بعض اخوانه ، كان قد ادخرها للبيع فيما لو انبتت به أسباب المعيشة . أما خاطرات طلعت فقد كانت احدى شركات الطبع بألمانية تقدمت لشراؤها بعد موته ، حتى تنشرها بالتركية ، وتنقلها الى سائر اللغات ، ولكن أرملة طلعت لم تبت الى اليوم في أمر هذه الخاطرات شيئاً .

أما جبال فقد تقدم شيء من ذكره وكيف كانت حركته بعد الحرب العامة ، وكيف ذهب الى أفغانستان وحظى عند ملك الافغان بمنزلة سامية ، وذلك انه تولى تنظيم الجيش الافغانى ، واستجاد لذلك ضباطاً من الجيش العثمانى ، وأفلح في ترتيب الجيش وتدريبه ووزعه على الأنماط العصرية الحديثة ، بحيث كان عند ظن الملك فيه . وبعد أن أقام بكابول نحو سنة جاء الى اوربا لمشاهدة عائلته التي كان تركها في مونيخ وقضاء بعض المهام المتعلقة بدولة افغانستان ، وكان قد انتدب ما يسنر باشا الالماني ، رئيس مهندسى السكة الحجازية سابقاً للذهاب الى افغانستان ، ومعه رهط من المهندسين والاختصاصيين ، لفحص البلاد فحفا مدققاً وعمل برامج للطرق الحديدية ، والاعمال الكهربائية ، والمشروعات الزراعية ، وعمليات استخراج المعادن وغير ذلك وقد لبي مايسنر باشا الطاب ، وانتدب لكل فن من أربابه من يوثق بعلمه وعمله . وليس أسهل من وجود هذه الطبقات في المانية ، لاسيما بعد الحرب العامة التي قلت فيها الاعمال وتوفر العمال . ولكن ابت الحكومة الالمانية ان تنفق على هذه البعثة من مالها أو ترسلها من قبلها - ربما كان ذلك خوفاً من انكلترة ، التي تحذر جداً من تشييف افغانستان على الطرق العصرية - فذهب جبال الى مونيخ واتخذ واسطة للدخول الى فرنسا ، وسمحوا له بالذهاب الى باريز ، وقيل انه قابل المسيو بوانكاره وعرض المشروع المذكور على الحكومة الفرنسية ، بشرط أن ترضى هي بالانفاق على البعثة الفنية من مالها ويكون للفرنسيس فيها بعد حق الرجحان على غيرهم في العمل . فرضيت الحكومة الفرنسية باقتراح جبال كما اخبرنى هو نفسه حيث لقيته ببرلين بعد ايايه من فرنسا ، وان

كنت لم اسمع الى هذا اليوم بأن بعثة فرنسية ذهبت الى كابولي لهذا الغرض ، بل سمعت
بذهاب بعثة فنية ايطالية . ثم ان جمال عاد قاصداً افغانستان من طريق موسكو ، وكان
ذلك بعد أن تولى انور كبر الثورة في تركستان على الروس ، فلم يتوقف جمال عن المرور
من الروسية انكالا على كونه من رجال الحكومة الافغانية ، لا يقدر الروس أن يمسه بسوء
ولكن السوفييت وضعوه تحت المراقبة كما كانوا وضعوا الدكتور ناظما وخليلا عم انور .
فتمكن جمال بذلك أن يقنعهم باستيائه من حركة انور ، وأعلن ذلك في الجرائد وطعن
في سياسة انور ثم اتفق معهم على أن يذهب هو الى انقرة ، ويتكلم مع الحكومة المليية في
عمل قرار يمنع انور من الاستمرار على عدااء الروسية . فذهب جمال قاصداً الاناضول ،
وهبط أولاً تفليس عاصمة كرجستان وأخذ يجول في الشوارع مطمئناً ظاناً انه باستصحابه
مرافقين يأمن شر الغيلة فكان الارمن هياؤا له من يغتاله هو وصاحبيه . وجاء خبر قتله الى
اوربا في نحو ٢٥ يوليو (تموز) عام ١٩٢٢ على أن قتله وقع في ١٨ أو ١٩ من ذلك الشهر
واتذكر اننا كنا يومئذ في لندن ، نحتج على القرار الذي اصدره مجلس عصبة الأمم بتأييد
منطوق المعاهدة السرية التي بين انكلترا وفرنسا ، بشأن سورية وفلسطين تلك المعاهدة
التي اعطوها اسم « انتداب » فدخل جنرال انكليزي علينا ونحن في فندق سسيل وهو فرح
مستبشر قائلاً « قد قتل جمال باشا ، وعسى أن يلحق به انور » فلم أرد أن أعرفه بنفسى
لا علم ماذا يقول ، وانما علمت منه ومن غيره من الانكليز ، ومن لهجة الجرائد انه مع كل
بغضاء الانكليز للروس ، وعلى الخصوص للبولشفيك ، كانوا في المصارعة التي وقعت بين
انور وموسكو ، يفضلون انتصار البولشفيك على انتصار انور . هذه هي الحقيقة . وبعبارة
أخرى يرون في انكلترا الخطر الاسلامي أعظم من الخطر البلشفي ، فيجب على المسلمين
والشركيين أن لا يتجاهلوا هذه الحقيقة ، لأن لها معنى كبيراً . فيكون بين موت جمال
وموت انور ، نحو جعتين فقط ، وبينهما وبين طلعت نحو سنة وأربعة أشهر الى سنة
وخمسة أشهر . وهكذا هؤلاء الثلاثة الذين تصرفوا بازمة الدولة العثمانية طوال الحرب العامة ،
وكان لهم دور في التاريخ العام كله ، اصبحوا في مدة سنة واشهر كهشيم المحتظر . والبقاء لله
وحده . واختلفت الروايات في كيفية غيلة جمال ، فقييل ان البلاشفة وان كانوا اذنوا له
بالذهاب الى الاناضول فقد كانوا غير واثقين به ، ويخافون أن ينقلب عليهم كما انقلب انور

أو أن يقاوم سياستهم في افغانستان بعد رجوعه اليها فاذنوا له بالمسير الى أنقرة من جهة ، ودبروا له مكيده القتل من جهة أخرى بواسطة الارمن الذين لهم علاقة بهم ، وهكذا استراحوا من غوائله . وقيل بل جمعيات الارمن التي قتلت طلعت وجمال عزمى والبهاء شاكرا والامير سعيد حلما الصدر الاعظم الاسبق ، هي التي قتلته . ترى البلاشفة يتصلون كثيراً من تهمة قتله قائلين . « لماذا نسعى في قتل رجل كان يسعى في مصالحنا؟ » وقد قبضوا على اناس كثيرين من المتهمين بقتل جمال ، ولكنني ما سمعت أنه قتل منهم أحد الى اليوم . وكان جمال ذكي الفؤاد ، متوقد الذهن ؛ سريع الفهم ، ماضى العزم كالسيف الصارم مهاب الطلعة ، لائقاً بأن يكون قائداً عسكرياً كبيراً لمضائه ، وسداد تدايره . ولكنه كان سريع الانفعال جداً ، متكهرب الاعصاب ، شديد الخنزوانه ، مغرماً بالجد ، مولعاً باكتساب دوى الذكر ، متنفجاً ، متعطرساً ، جباراً ، مفتوناً بأن يوصف بالجبروت ، محباً للانتقام والبطش ، جنت الدولة جنانية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بأن سلمته زمام سورية مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع ما في نخبته من الاستعداد للاستبداد ، والنشوة بخمرة النهى والأمر ، فصى في شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر الى شئ من العواقب . وكان بعض المتملقين له وبعض المتهورين في السياسة التركية الطورانية يزينون له أعماله ، ويشيرون من نخوته ، بقولهم له ان الآمال انما هي منعقدة به لا بغيره . فكانت تزيده هذه الأماديج طغياناً وجبروتاً ، ولم يكن يشك مع هذا في كون الحرب ستنتهي ان لم يكن بظفر المانية وتركية ، فبصلح يضمن لكل فريق مكانه ولم يكن من غروره يعتقد أصلاً بأن بلاد العرب يمكن أن تخرج من يد تركية . فكان ذلك من الاسباب التي حملته على الجور ، والعسف ، وارهاف الحد ، وارهاق الخلق ، ولما خرج الشريف حسين على الدولة بقي مدة أيام وهو لا يصدق الخبر ويظن أن أولاده انما خرجوا من المدينة وشنوا الغارة على سكة الحديد ، بدون علمه ، وانه متى بلغ الشريف الخبر يردهم الى الطاعة . وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجسر على هذا الأمر وأن رهبة الشريف من جمال تمنعه منه ، والحاصل أنه كان مغروراً بنفسه ، وقد زاده تمام حريته في العمل وانطلاق يده بما شاء غروراً وسكراً ، أيام كان في سورية . فخرج عن دائرة المعقول في كثير من الامور . ووصل الى أن صار يجمع أعيان بلدة بلدة ، ويحصى عددهم ، وينفي منهم ١٠ في المائة

آخذاً ايهاهم بالقرعة ، أو ترتفع الاوراق الى قيمة الذهب . أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسئلة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن نار الشريف على الدولة ، ولا انشق العرب على الترك ، فليس بصحيح . اذ علاقة الشريف بالانكليز وتحفزه للقيام على الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان الى أيام السلطان عبد الحميد نفسه ، الذي كان يعلم ذلك . ولما أخذ الاتحاديون على يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف على قال لهم : « انتي ابرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لاني أعرف حقيقته » . وقد كانت مداخلات الشريف لانكلترا في أمر الثورة من قبل الحرب العامة وسنة ١٩١٢ توجه أحد الأمراء المصريين الى لندرة مفوضاً اليه أن يسعى في اتفاق بين الانكليز والعرب على أن انكلترا تقدم للعرب السلاح وهم ينتفضون على الدولة ، ويكونون حلفاء لانكلترا في المستقبل . ولما عرض ذلك الامير المصري - وهو حي يرزق الآن - هذا الاقتراح على الانكليز تلكأت نظارة الخارجية بلندرة عن قبوله ، ولم تكتم السبب في رفضها هذا المشروع وهو : « ان انكلترا تريد هي الاستيلاء على بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطى جزيرة العرب سلاحاً . وبالفعل كان الانكليز منذ سنين قد بدأوا يمنعون تجارهم من مبيع السلاح الى عرب اليمن . وعرب عمان ، وعرب العراق ، بل كانوا شرعوا يبثون اناساً يشترون البنادق التي في أيديهم بزيادة على ما تساوي ، وكل هذا حتى اذا أرادت انكلترا احتلال تلك الاقطار ، وجدت أهلها عزلاً مقامى الاظفار . ثم ان الشريف راجع انكلترا في مشروع التحالف العربي الانكليزي لاول الحرب ، فلم يجيبوا نداءه أملاً باستغنائهم عنه فلما تمطت الحرب عليهم بصلبها ، وناءت بكلكها ، شعر الانكليز بالاحتياج الى العرب ، فعادوا الى قبول اقتراح الشريف وعلى كل حال فليست قسوة جبال في سورية وقتله من قتل هما سبب ثورة الشريف . وعلى فرض أن جبالاً لم يفعل ما فعله ، فكانت الثورة واقعة ، وكان ما ظهر من نفور الاهالي من الترك ، وشهامة كثير من العرب بالترك يوم دارت الدائرة على المانية وتركية ، لا بل فرح كثيرين من العرب ، لا سيما فريق الشبان منهم ، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية ، النصرى الكاثوليك بانتصار فرنسا ، والنصارى الارثوذكس بانتصار انكلترا والمسلمين أيضاً من ذلك الحزب المالىء للشريف بظفر الحلف العربي الانكليزي . كل هذا

كان وقع كما وقع سواء قتل جال من قتلهم أو لم يقتلهم ، يذنبى لنا أن نعترف بذلك ان كنا تنوخى حقيقة وتاريخاً ، ولكن خطأ جال في رأيه وجنائه الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية : -

أولاً - ان فريقا من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقى ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقى بل السلطنة العثمانية .

ثانياً - إن فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ، ولا قرائن قطعية تذهب في جزائهم الى درجة القتل . وقد برر جال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بأنه من باب « القتل السياسى » مع أنه كان الأولى بهؤلاء أن يتركوا الى حكم القانون ، فيحكم عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً - على فرض غير الواقع ، وهو أن هؤلاء مجرمون أعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأى ، فتح هذه المسألة أثناء الحرب ومجازاة أناس قد عفا عنهم ونكء القروح التى كانت قد سكنت نوعاً ، واثارت عواطف العرب وحفائظهم واطهار كون الترك يريدون الانتقام فى هذه الفرصة التى سنحت لهم للبطش ، وتعزيز النزعة الأجنبية بهذه السياسة .

رابعاً - ان الألوف الذين نفاهم الى الأناضول مع عيالهم وخرب بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم فى الغربة لم يكن منهم مائة شخص يدرون ماهى السياسة ، فضلا عن أن يكونوا قائمين للدولة فكان تعريبهم عن أوطانهم مجرد عذاب وقهر بدون أدنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ ليرة شهرياً فكان خطأ جال أنه سلح أعداء السلطنة العثمانية ، وأنصار الشقاق بين العرب والترك ، ورواد السياسة الأجنبية الكثيرين فى الشرق ، بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمال جال ومواقفاته فكان الذين يتذكرون فضل الدولة العثمانية اليوم « وبضدها تبين الأشياء » لا يجدون الأجوبة التى يجابها الآن سعاة السيطرة الأجنبية ، المدينون بهذه الأسلحة المعنوية لأجد جال وحده . فجمال خدم الحلفاء فى بلاد العرب أثناء الحرب كما أن الحلفاء خدموا الأتراك فى بلاد العرب بعد الحرب . . .

هذا هو أهم خطأ جال وجنائه على هاتين الامتين . ولقد خصصنا لهذه المسألة كتابه عن الحرب العامة نشرنا منه بعض مذكرات مؤخراً تناقلتها الجرائد ، فلا نجد لزوماً أن نزيد هنا من هذا الموضوع على ما ذكرناه . وقد نشر جال أثناء وجوده بسورية كتابه بالتركي والعربي شرح فيه الأسباب التي دعت الى محاكمة الذين قبض عليهم وقتل من قتل منهم ، ونفى من نفى واستظهر على حقيقة ذلك بالوسائل والشهادات مما رآه كافياً للقصاص . وان كان من يقرأ الكتاب لا يرى كل تلك البراهين نواضع ، ولا جميع أولئك الشهود مقانع . كما أنه قبل موته بقليل كان نشر خاطراته ، وتكلم فيها على الحرب العامة وعلى ثورة ملك الحجاز ومقدماتها ومصايرها وعلى مسألة سورية ، والأسباب التي حلتها على القتل ، والصلب والنفي من الأرض ، وما لها خيانة هؤلاء للجامعة الاسلامية وتألبهم مع الأجانب أعداء ملتهم على ملتهم ، وتمهيدهم للأجانب الاستيلاء على أوطانهم ، وربما كان بعض ما قاله صحيحاً ان لم يكن كله ، وكان هناك من العرب من لم يكن يبالي بجماعة اسلامية ولا شرقية ومن يعتقد أن انتصار انكلترا هو انتصار العرب ولكن ليس للطورانيين الذين هم أنفسهم قد نبذوا هذه الجامعة ظهرياً وقالوا بالقومية التركية البحتة أن يعاقبوا بالقتل من العرب من نبذ الجامعة الاسلامية وقال بالقومية العربية البحتة أفتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم هذا ما اخترنا ذكره من خبر هؤلاء القوم مما عرفناه بالذات ، وشاهدناه بالعين ، وسمعناه بالأذن ، فيكون ذا قيمة عند الخلف الذين يهمهم أن يعرفوا حقائق ما جرى في الحرب العامة وفيما بعدها لأنه بيان عن عيان . وقد علمت الخلق التجارب ، انه كلما تطاولت الأيام وتراخت الآماد على الحوادث ، زيد في الأخبار ، ونقص منها ، وما زالت تعتورها التصورات بالقلب والابدال الى أن تصبح الأخبار في واد والحوادث الحقيقية في واد ، ويعود التاريخ قصصاً موضوعاً ، فالخبر أمانة في ذمة المعاصر للحدث ، ولا سيما المطلع والمشهد ، ينبغي أن تؤدي تلك الأمانة على أصلها ، نصحاً بالرواية وحرصاً على التحقيق ، والله تعالى وحده من وراء العلم .

بعد تحرير ما حررناه من خبر المرحوم أنور بنحو شهرين أو أكثر ، قدم الى الاستانة الملازم محي الدين بك أحد مصاحبي (ياوريه) أنور باشا ، ومعه ضابط آخر اسمه محي الدين من فرغانة ، فأما الأول فقد عرفته جيداً في موسكو ، عند ما ذهب اليها بنا

على رجاء أنور كما تقدم عن ذلك الخبر في محله .

وقد أفضى الضابطان المذكوران الى جريدة (توحيد أفكار) عديدها المؤرخ في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ بالمعلومات الآتية نشرها تتمه لترجمة ذلك البطل وتصديقا بين يدي ما قدمناه . قالا : -

« ان أنور باشا رحمه الله بعد انتهاء الحرب العامة اتفق مع الروس البولشفيين ، بناء على مواعيدهم له بانقاذ العالم الاسلامي ، ولكنه ما عتم أن لحظ بعد عودته الأخيرة من ألمانية (وهي التي ألح علينا فيها أن نأتي معه الى موسكو) أن الروس كانوا يخدعونهم وانهم بدلاً من أن ينقذوا المسلمين ، كانوا يلحقون بهم فنون الأذى ، وأنواع العذاب ، فالحق بتركستان ، وأثار عليهم الأهالي هناك ، وما استقرت قدمه في تلك البلاد ، حتى نظم فيها قوة عصرية الشكل واشتغل بترقية أحوال الاهلين العلمية ، والصحية ، والأدبية والمادية ، فانضم اليه الأهالي من كل جانب ، وانسلوا من كل حذب لاسيما مهما كانوا يعانون من قسوة الروس ، والتحقت بجيشه خمسة آلاف فارس من فرسان تلك الأقطار ، وأسس معملا لصنع القرطاس الناري (الخرطوش) ، فأزاح بذلك علة عظيمة ، ومع نقصان الأعتاد والأسلحة بدأ الحرب ، وهزم الروس في وقائع عديدة ، وغنم منهم واحتلت جنوده تخمس ولايات من أصل الولايات التسع التي تتركب منها بلاد تركستان فعند ذلك ارتاعت الحكومة البولشفية ، وسافت عليه ٨٠ ألف مقاتل تحت قيادة قامانيف .

قالا : ولم يكن بإمكان الروس مع ذلك أن يتغلبوا على أنور باشا . لوتوفرت عنده عدة القرطاس ، فلما نفذت العدة من بين يديه اضطر أن يتقهقر الى الورا ، فبلغ بلد « بالجوان » وهناك وقع في مأزق آخر ، وهو أن جيشه لقلة الضباط أصبح لا يقدر على ادارة جناحيه فتمكن العدو من خرق ميمنة أنور ، فجاء المرحوم بنفسه وتولى قيادتها ، وكان ممتطيا جواده وهو يباشر الحرب والقيادة بنفسه . وكان الروس قد خبأوا رشاشات لم يعلم بها ، ووقعت الواقعة أمام ثكنة (آب دره) في بالجوان فأصابه رصاص من تلك الرشاشات أوداه شهيداً ، وذلك في الساعة التاسعة والدقيقة ٣٠ صباحا من أول يوم من أيام عيد الأضحى سنة ١٣٣٨ وبنلك انهزمت القوة التي كانت معه ، مع أنه الى تلك الدقيقة التي سقط بها كان النصر مرافقا له ، وكان تابور كامل من الروس قد استسلم له وبعد الواقعة باربع

وعشرين ساعة اجتمع نحو ٣٠ ألف من الأهالي وعملوا له ما تماً حافلاً جداً ، جرت به العبرات سيولا ، وجعلوا نعشه على الأكتاف ، وواروه التراب في مكان يقال له « جكن » وبنوا عليه قبة وجعلوا يزورونه أفواجا والآن يقرأ القرآن عند قبره ١٢ حافظا بالتناوب بصورة دائمة وكان برنامج الحرب لولم يقع شهيدا التراجع بانتظام الى (پامير) والاعتصام بجبل قلعة خوم حيث كان يتربق فرصة الكرة على العدو . ولم يكن معه عدد عديد من ضباط الترك بل كان معه ملازمان نافع وخلييل خلصا من تلك الواقعة وقريبا محضران الى تركيا . وقد استمرت حرب أنور للروس ١١ شهراً وأحبه أهالي تلك البلاد حباً جماً ، لما رأوه من تواضعه ودماثة أخلاقه وتوطئة كنفه لخاصتهم وعامتهم ، وقد أحدثت ثورته هذه انتباهاً لا يوصف في تلك البلاد ولا تزال الثورة مشتعلة ، ولا يشك أحد من سكان تلك الأقطار بأنهم لا بد من أن ينالوا استقلالهم » انتهى كلامهما

وقالت جريدة توحيد افكار التي يرأس تحريرها وليد بك أبو الضيا من كبار مفكرى الأتراك : ان المرحوم أنور باشا لم يحسن الادارة في تركيا ، وألحق بوطنه أضراراً لا تنكر ، ولكن له في جانب تلك المضار منافع عظيمة ، فقد خدم خدمة فائقة في حرب البلقان وفي حرب طرابلس الغرب ، ثم في تنسيق الجيش وكان شجاعاً ، دينياً ، عفيف المتزر ، حر السجية ، ثم استمطر عليه الوليد رحمة ربه ورضوانه .

ومما ذكروا عنه أنه وجد في جيبه ساعة شهادته كتابان من زوجته الأميرة ناجية ابنة الأمير سليمان أخى السلاطين عبد الحميد ، ومحمد الخامس ، ومحمد السادس . ووجد مصحف صغير كان مربوطاً بذراعاه تحت القميص ، وكان لا يفارقه . رحمه الله وأكرم مثواه .

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين

سيدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه

الملك الشكيبى

— ١ —

بعد أن أرسلت الى المطبعة تكملة سيرة السيد احمد الشريف (١) رضى الله عنه بما تجدد من أخباره منذ الطبعة الأولى من هذا الكتاب الى حين فراقه هذه الدنيا اتفق لى أن اجتمعت بجعفر باشا العسكرى سفير العراق فى لندن وهو الذى كان بطل المعارك التى وقعت بين السنوسية والانكليز فى جهات مرسى مطروح فى أثناء الحرب العامة فسألته أن يروى لى من فقه تلك الوقائع ولو على وجه الاجمال لأن روايتى الأولى كانت عما سمعته من فم السيد السنوسى وقد تكون ثمة أمور فانت السيد ولم تفت القائد العسكرى . فأخبرنى جعفر باشا بكل ما وقع وهو لا يختلف عما قاله لى السيد الا فى بعض تفاصيل حربية فالقوة التى كانت تحت امره السيد فى جوار السلوم هى ١٢ ألف مقاتل وكان عدد المقاتلة التى زحفت الى أرض مصر خمسة آلاف مقاتل وكانوا شطرين شطراً مع السيد نزلوا عند البئر المسماة ببيير تونس وشطراً وصلوا الى مرسى مطروح تحت قيادة جعفر العسكرى ونورى أخى أنور . فجاء الانكليز أولاً وقاتلوا الفئة التى كانت عند مرسى مطروح وكانوا خمسة آلاف جندى بين مشاة وخيالة ومدفعية وأحاطوا منها بشرذمة لا تزيد على ٨٠٠ رجل اعتصمت بأكام منيعة عند الوادى المسمى وادى ماجد فدافعت عن نفسها دفاع المستميت . ولم يقدر الانكليز عليها لوعورة الارض . وبقى القتال نحواً من ١٠ ساعات وخسر الانكليز أكثر من أربعمائة رجل بين قتلى وجرحى ونكصوا الى الوراى وبيناهم مشغولون بقتلاهم وجرحاهم تمكن العرب الذين كانوا مع جعفر ونورى من الانسحاب الى الوراى بعد أن

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى وصفحات ٣٧٤ — ٣٧٦ من الجزء الثالث

دفنوا قتلاهم وحلوا جرحاهم وكان قتل العرب ذلك اليوم ١٥٠ مجاهداً والجرحى مائتين أما الفرقة التي كانت مع السيد عند بير تونس فهاجتها قوة نظير القوة التي جاءت الى مرسى مطروح ودارت رحى الحرب واستشهد من العرب ٧٠ مجاهداً وجرح ضعف هذا العدد ولكن خسائر الانكليز كانت أعظم فشغلوا بقتلاهم وجرحاهم وجاءتهم نجات كان يمكنهم بها ان يحيطوا بالعرب لاسيما ان المكان حول بير تونس بسيط مستو ليس فيه شيء من وعورة وادي ماجد . الا ان الله رحم العرب بمزنة سخية أوحلت بها الارض وعافت سير الدبابات والانتقال الانكليزية فتمكن العرب من الانسحاب الى جهات سيدي براني وتلاقوا من فل مرسى مطروح فزحف اليهم الانكليز بجميع قواتهم وكانت بارجة حربية تخطر العرب قنابرها من البحر وهناك تغلبوا على العرب بكثرة العدد والعدد فنهزم من انهزم الى السلوم وعبر الحدود قافلاً ومنهم من استشهد ومنهم من جرح ومنهم من استسلم وبقى جعفر باشا يقاتل ومعه جماعة الى أن جرحوا بالسيوف وسقطوا فثقفهم الانكليز اسرى واتوا بجعفر الى الاسكندرية

وأما المرحوم السيد فانه انصرف بعد واقعة بير تونس الى واحة سيوه وبعد هذه الواقعة جرت معه الحوادث التي ذكرناها في ترجمة حاله

— ٢ —

منذ انطوى استاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله لم يشعر الخوف قلبي فيما عدا المصائب التي رزئت بها في أفراد عائلتي ما أشعره النبأ الصادع والخبر الفاجع الذي نقل الى الآفاق نبي الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين ومثال الغزاة المرابطين السيف الباتر السائر على هدى الصحابة الكرام في العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل في أيام الأواخر سيدي أحمد الشريف ابن سيدي الشريف ابن سيدي محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه وعن سلفه وأرضاهم وجعل في جوار قدسه مأواهم (١)

إن جبيعة العالم الاسلامي بهذا الرجل الكبير من رجاله بل بهذا الجبل الراسي من جباله هي من الحوادث التي تشغل مكاناً خاصاً في تاريخ مصائب الاسلام الذي أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب ، وان هذا الفقيه العظيم لو عاش في زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية

(١) كتب عطوفة الأمير هذه المقالة والتي تليها في جريدة الجهاد الغراء بمناسبة نعي الفقيه رحمه الله

والفتوحات العمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقتصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الاسلام في الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون الى جدار الصين . فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله ووقف مدة عشرين سنة في وجه دولة من الدول العظام في عصر دثرت فيه معالم الجهاد وانطفأت جذوة الاسلام حتى لم يبق منها الا الرماد واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوربية ضرباً من ضروب الجماقة وعم ذلك جوعهم الحاضر منهم والباد. وانتشر في الربى والوهاد . ومع هذا فان سيدى أحمد الشريف السنوسى قد أتى ببرهان ساطع ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين في قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الارادة وثبات العزم ومضاء الصريمة وإباء الضيم وترجيح المعنى على المادة وإيثار الشرف على الترف وامتلاء القلوب بالايمان ووقف النفوس على اعتزام عزائم الاسلام ان تثبت مدة ٢٤٠ شهراً بازاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليوناً مجهزة بجميع ماهى مجهزة به عظيمات دول العالم المتمدن لها من فيالق البر وأساطيل البحر وسيارات الكهرباء والمحلقات في الفضاء مالا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة في الصف الأول في ممالك الأرض .

وقد يقول المتعنتون الذين في قلوبهم مرض والذين لا يرونهم إلا أن يروا الاسلام ذليلاً مهيناً : وماذا أفادنا قيام السيد السنوسى في وجه ايطاليا وهل كان ذلك إلا سبباً في زيادة قهر المسلمين وإرهاقهم بأفانين الظلم وأساليب الاستئصال في طرابلس الغرب ؟ فلو كان هؤلاء الأهالى قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التى قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتها عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذى هم فيه والخطوب التى أبادت خضراءهم وما أشبه ذلك من الأعالي التى تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنى أياً كان .

وجوابنا على ذلك بسيط وهو : إننا مارأينا أمة أوربية مهما قل عددها وانقطع مددها قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوربية عظيمة مهما علا سلطانها وغلظت ملكتها في الأرض بل القاعدة عند الاوربيين - الذين هم قدوة الشرقين الآن في جميع المآخذ والتارك - هى أن الأمة المستقلة لا بد لها من أن تذود عن حوضها وتدافع عن شرفها الى النسمة الأخيرة من حياتها . وان الذى يموت بغير دفاع فلموت أولى به من الحياة بلا نزاع . وان

بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاماً وأرجى حياة من الكثرة المستنيمة الى الذل ولو كانت كالجراد المنتشر . وقد حققت الحوادث وأيدت التجارب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء وأن قول الشاعر :

قاتل عدوك باللسان وان قدرت فباللسان

إن العداوة ليس يصح لمحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث كما دانت بها دول العالم القديم . ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لاطاليا لما كان لذلك نتيجة سوى زيادة الطغیان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم ، وامتداد أيدي الأوربيين بدون أدنى تردد الى كل قطر من الاقطار الاسلامية قياسا على قضية طرابلس واعتقادا بأن هذه الأمة قد فقدت حسيب الحياة فهي لا تبنى ولا تعيد ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام لأنه ما لجرح بميت ايلام

قد استشهدنا على صحة مبدأ المقاومة ولو كان المعتدى قويا والمعتدى عليه ضعيفا بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حربا وسلما وعملا وعلمنا ولم نتعرض الى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينههم كتابهم عن الخضوع للاجنيين عنهم ويقول لهم « إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَهَسَاكُنْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ولم يكن تقديمنا الحججة الاولى لكوننا أشد بها اقتناعا من الحججة الثانية ولكن معرفتنا أن مثل هؤلاء المصايين بمرض الافتتان بالسلطة الاوربية ليسوا ممن يقبلون الجدل على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية وإنك ان لم تستظهر عليهم بكتاب أوربي أو سنة غربية لم يفدك الاخذ والرد معهم شيئا

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الاسلام الى هذا الوقت قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة والامير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا ١٧ سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد بن عبد الكريم الخطابي الريني الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة تواقف فيها مع دولتي فرنسا وأسبانيا

معاً وجها لوجه وزلزلنا في حربه زلزلاً شديداً ولولا السيد أحمد الشريف رحمه الله لكانت إيطاليا استصفت قطرى طرابلس وبرقة من الشهر الاول من غارتها الغادرة عليهما واننا لانزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الاوربية عن الحملة الايطالية يوم جردتها على ذينك القطرين اذ قال بعضهم ان إيطاليا ستقبض على ناصية الامر وتستكمل هذا الفتح في مدة ١٥ يوماً وقال أشدهم تشاؤماً وأقلهم تخيلاً وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور ان هذا الفتح الذى يستسهله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالاقل فليتأمل أولو الالباب كيف ان هذه الثلاثة الاشهر امتدت عشرين عاماً ورزأت الدولة الايطالية بمائة وخمسين الف عسكري قتلى عدا الجرحى وثلثمائة مليون جنيه من الذهب الواضح . هذا كان مجموع خسائر إيطاليا منذ سنتين بحسب الاحصاءات الرسمية . وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند

نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريثاً ولم تشرب هنيئاً وعلق في حلقتها من سمك الاسلام حسك لا يزول في الاحقاب ولا في القرون وكل ذلك بما أراده الله على يد رجل قد كان يفهم الاسلام حق الفهم ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة . ولم يكن في قلبه شئ من الدنيا بجانب الآخرة وكانت جميع حطام هذا العالم الفانى لا توازى عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الاسلامى وهذا الرجل هو السيد السنوسى الكبير الذى لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئاً ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً . وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار الاحسنه من حسنات السيد أحمد الشريف وقائداً من قواده

قلت ان السيد السنوسى لو كان في عصر السلف لكان يلز في صف أعظم أبطال المسلمين فكيف وهو في عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب . وان هذه المقابلة تذكرني بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما قام أحد بأمر الاسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المدينى المحدث الشهير : ولا أبو بكر الصديق ؟ فأجاب ولا أبو بكر الصديق . وذلك لان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان له رجال وأعوان وان أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان وانما كان يناضل بقوة نفسه وحدها

ونحن نقول لو كانت الدولة العثمانية قاومت إيطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من إيطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحياناً بموالاة الهزائم عليه لما كان في ذلك ما يقضى بالعجب . ولكن الذي قام هذا المقام الشريف ووقف هذا الموقف التاريخي النادر النظير هو رجل لا يملك سوى قوة إرادته ومتانة إيمانه وإيمان رجاله وعزة أنفسهم بالاسلام وصبرهم في البأساء وحين البأس . وبينهم وبين عدوهم في الأعداء والأسلحة والمال والعدد من الفروق الهائلة ما لا يحتمل التنظير في قليل ولا كثير . ففضله إذن أعظم جداً من فضل الدولة العثمانية في جهادها وان كان فضلها عظيماً . وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التي أنشأت باذن الله هذا الجهاد الطويل العريض وحفظت شرف الاسلام المعتدى عليه في طرابلس وغير طرابلس لانه مما يجب أن لا نتأخر فيه أن أوروبا لا تعترف في ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً أن السيد أجد الشريف هو بنفسه أمة ، وأن سيرة السيد أجد الشريف هي بذاتها تاريخ . وإن كل من عرف عن كذب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه وزهده في الدنيا وحبه لمعالى الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومؤاسانه للفقراء وحنانه على الضعفاء وشدهته مع ذلك في الدين وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين ومحافظة على الفرائض والسنن وغير ذلك من الأخلاق العالية والهمم الشماء والمنازع القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام ولا أقول هذا في مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة وأن يحملهم الموت على طي الهنات وتناسي السيئات بل أقول انه كان هذا لسان جميع من خالطوه والفقيد رحمه الله ملائح حياة وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها ويعرف أكثر منها . وطالما كان يقول الأمير سعيد حلیم الصدر الأعظم : ان الأمة الاسلامية والدولة العثمانية لم تقدر هذا الرجل حق قدره .

ولقد ترجمت السيد أجد الشريف في حياته في الجزء الأول من حاضر العالم الاسلامي في ثمانى عشرة صفحة مطبوعة بالحرف الرفيع أوردت فيها خلاصة مواقف المرحوم في الحرب الطرابلسية من بدايتها الى أن قضت عليه الأحوال بمغادرة طرابلس في غواصة ألمانية الى الاستانة الى آخر مدة إقامته بتركيا ، ولما عزمنا مؤخراً على طبع هذا الكتاب استثنافاً وأضفنا اليه هذه المرة ضعف الحواشى التي علقناها في المرة الفائتة ألحقنا بهذه الترجمة عدة

صفحات عن بقية تاريخ المرحوم بعد مفارقتى إياه فى مرسين وكيفية رحيله الى الشام فالحجاز حيث ألقى عصا التسيار ولم يزل يتردد فى تلك البقاع المباركة الى أن لقي ربه فهذا التاريخ الزاهر قد كتبناه فى حياته ولا نخشى فيه لومة لائم ولا قولة قائل إننا أعطينا السيد أكثر من حقه . ولست مقتنعاً بما حررته فى «حاضر العالم الاسلامى» من سيرة هذا المجاهد العظيم الذى لا ينجب مثله الدهر فى مبات من السنين فى علو الهمة مع التواضع وشدة الأنفة مع الخشوع والتناهى فى التقوى مع مزيد الكياسة والاسراف فى الخير واکرام الضيف مع الاقتصاد على النفس والجمع بين الاضداد التى كانت تجتمع بمقاييس ولا شك أوسع فى جده أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . أقول جده على بن أبى طالب لأنه ثابت بقدر ما يمكن ثبوت الانساب أن السادة السنوسية أبناء هذا البيت الكريم هم خطايون أدارسة من ذرية إدريس صاحب المغرب حفيد الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام . فلا بد لى إن شاء الله من أن أجمع مناقب الفقيد فى كتاب خاص أنشره فى العالم الاسلامى شرقاً وغرباً وأسميه « التعريف بمناقب سيدى أجد الشريف » وأفضل فيه ما أجمته فى الترجمة السابقة وذلك لأن الجميع لا يتسنى لهم أن يقتنوا «حاضر العالم الاسلامى» أربعة مجلدات وأرى من مصلحة هذه الأمة أن تقرأ سير مثل هؤلاء الرجال حتى تقتدى بهديهم وترى ما كانوا عليه من احتقار هذه الدنيا فى سبيل الواجب المقدس . إذ ليس هذا الخلق بكثير مع الأسف فى هذا العصر الذى تنكاب الناس فيه على المادة وعبدها الكثيرون من دون الله وكذلك أرى من الواجب على نشر هذه السيرة الشريفة لأننى أوسع الناس اطلاعا على أحوال هذا الامام الذى كنت له خليلاً وكان بحق إمام السيف والقلم ولأن سيرته هى جزء من التاريخ العام الذى لا يمكن أن يكتب بانصاف إن لم تتسع منه صفحات حافلة باعمال السيد أجد الشريف السنوسى قدس الله روحه

ولذلك ترانى فى هذه المقالة مقتصراً على هذه اللوحة الدالة تاركا التفصيل لما بعد . وانما أحب أن أذكر من مناقبه بعض الشيء الذى اطلعت عليه تمام الاطلاع أيام إقامتى بمدينة مرسين ملازماً له . فانى بعد استقلال تركيا كنت عازمت على السكنى فى الاستانة فرحاً بجلاء الأجانب عنها وانكشاف تلك الغمة ولله الحمد وكان السيد يومئذ ساكناً فى مرسين . فعند ما علم بورودى الاستانة أسرع بالكتابة الى يلتمس منى أن أسكن بقربه فى

مرسين لأننى كنت من قبل فى مراسلة متصلة معه من أيام زهابى الى الجهاد فى برقة ، وكان بعد التجربة الطويلة لا يثق بأحد ثقته بى وكان يفضى الى بكل ما فى نفسه وكنت أنا أقوم بتبليغ الدولة أكثر ما يهمنه من مهامه وكنت وسيطه الدائم لدى صديق أنور رجه الله وهذا كله قبل أن تعارفنا بالوجوه . فلما حصلت أنا فى الاستانة سنة ١٩٢٣ لم يكن أسرع منه إلى دعوتى الى السكنى بجواره فى مرسين لتم بيننا المعرفة . وكانت الحكومة التركية قد أنزلته فى دار فسيحة ذات حديقة غناء فى ظاهر مرسين وجئت أنا فاكترت داراً فى البلدة وكنت أختلف الى السيد كل يومين مرة أجلس فيها وإياه ساءت طوالا فى ذلك القصر المشرف على الرياض والبساتين فكان كل منا يأنس بالآخر مالا يأنسه بأحد لما بيننا من ارتباط القلوب من قبل ومن بعد . وما من أحد تعمق فى معرفة حقيقة هذا الرجل الا ازداد له حرمة وتوقيراً . فكانت معرفة الوجوه بيننا سبباً لزيادة الحرمة وتضاعف الاحتباب بالصحبة وما أمتن الوداد اذا كنت تحترم من تحبه وتحب من تحترمه

وإنى لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان فى مرسين وذلك سنة ١٣٤٢ فكنت أفطر فى منزلى بالبلدة ثم أذهب الى خرستيان كوى حيث يقيم السيد ونصلى وراءه العشاء والتراويح . وكان يجتمع المغاربة الذين فى مرسين نحواً من أربعين شخصاً ويصلون وراءه أيضاً . فكان يختم القرآن الكريم فى كل خمس ليال مرة أى كان يقرأ خمس القرآن فى كل صلاة وكنت صليت وراءه التراويح مرة أو مرتين فرأيتة يبق فيها زيادة على ساعتين ، فعجزت عن ذلك وصرت أقصر على صلاة العشاء وكانوا هم يصلون التراويح وبعد الصلاة نجلس إلى السحور ، وكان فى القراءة يتدفق كالسيل ولا يتوقف ولا يتردد ولا يتلثم وكنت أفضى من ذلك العجب العجاب وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الحسين والسنتين من العمر وتحمل من الهموم والأثقال ماتنوء به الجبال وهو لا يزال يتذكر كتاب الله كله ويقرأه عن ظهر قلبه كقراءته للفتحة . لم أتذكر أنه مدة الشهر من أوله الى آخره وفى الختمات الست التى ختمها لكتاب الله توقف فى القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات كان يقف قليلاً ليتذكر الآية وكان وراءه شاب تونسى حافظ فيسرع بالقائه إياهاله فيمضى فى القراءة . ضاء السهم وهذا غريب فيمن بلغ تلك السن وانطوى على ذلك الهم العظيم من فراق الأوطان وتنوع الأشجان وجور الحدنان .

ولم يكن للسيد غرام فى الدنيا الابأمر هذه الأمة ولما سألته عند اجتماعنا فى مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالا أجنبي : قد صاروا الآن رجالا وما أنا بمفكر فى أمرهم . وإنما يهمنى أمر هذه الأمة المعذبة فى طرابلس . وكان فى قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله ولكنه كان من إيمانه فى ثبات الجبال وكان يرى فى هذه المصائب مقدمات يقظة الاسلام .

وقد أنشر فى الكتاب الذى أخصه به صور مكتوباته الى هذا الفقير الى ربه فانه لا يزال محفوظاً عندى لأقل من عشرين كتاباً وان كان فقد منها الكثير بتوالى الأسفار .

وكم من مرة تزلفت اليه ايطاليا بأصناف المواعيد والتعهدات على أن تبقى على رياسته الدينية والنظارة العامة على جميع الزوايا السنوسية وأوقافها فى جميع البر الطرابلسى وأن تكون كلمته هى العليا الخ . . وكانت أجوبته كلها واحدة وفى احدى المرات حررت الجواب أنا بقلمى وهو طاب الاستقلال التام فى الداخل وعقد اتفاق مع ايطاليا لا يمس الاستقلال فى شئ . وغاية ما كان يتساهل به هو توكيل ايطاليا فى العلاقات الخارجية . وأما سبب خروجه من تركيا فقد كنت أريد أن لا أتعرض لبيانه الآن حتى لأشوب جلاله هذا التأبين بنشر أحداثه مستهجنة ان كانت قد رضيت بها حكومة أنقرة لنفسها فلا شك أن الأمة التركية الكريمة لن ترضى بها ولا بد أن يأتى يوم يناقش فيه الأتراك الكرام جماعة أنقرة الحساب على معاملتهم لرجل كانوا لجأوا اليه قبل أن انسق أمرهم واستنجدوه فى أخرج الأوقات ودعوه وهو فى بروسه أن ينضم اليهم واستفادوا من نفوذه فى فتنة قونية وفى فتنة الأكراد الأولى حتى عرضوا عليه الخلافة الاسلامية بالحاح مكان السلطان وحيد الدين وامتنع عن قبولها ولم نزل أنقرة تبره وتكرمه وتتودد اليه الى أن أمنت على نفسها بعد معاهدة لوزان فقلبت له ظهر المجن واتخذت لاجراجه من تركيا وسيلة واهية وهى أن شيخنا تركيا من مريدى الطريقة السنوسية ألح على الاستاذ المرحوم فى اعطائه توصية الى الأمير سليم ابن السلطان عبد الحميد ليذهب الى بيروت ويتعرف الى الأمير بهذه الوصاة . فدافعه السيد كثيراً وقال له إنه ليس بينى وبين الأمير سليم مكاتبة .

ولكن هذا الشيخ كان ساذجا لا يفهم تلك القصص ولما كان السيد بسائق فطرته من كرم الأخلاق والحلم بحيث لا يكسر خواطر المنكسرين وكنت أنا غائبا حينئذ فى جنيف فكتب له سطرين الى الأمير سليم وختمهما بالآية الكريمة (والله مع الصابرين) فقبضت الشرطة

على حدود سوريا على هذا الرجل ووجدت معه هذا المکتوب فبعثت به الى أنقرة وهناك كانوا ينتظرون سبباً . ليتخلصوا من السنوسى بعد أن انقضت حاجتهم اليه ومن أحببك حاجة أبغضك عند انقضائها فصدر الأمر فى الحال الى والى مرسين باخراجه من تركيا ونسيت أنقرة جميع ماسبق من جليل خدماته للدولة والملة ولتركيا الانقرية نفسها وكافاته بهذه النهاية التى تبقى سبة على الدهر فى حقها . لابل نشروا فى جرائدهم انه قد خان حكومة تركيا !! وأما هو فلما حصل فى الشام ثم فى الحجاز لم يكن يقول فيهم إلا الخير وكان يذكر حسن صنيعهم ويدعو لهم بالهداية والتوفيق ولم يكن يمين عليهم بخدماته ولا يعتد بشئ من أعماله وكان أكل من أن يذكر شيئاً من ذلك . وقال لأخى حسن يوم خروجه من مرسين : لو كان أخوك هنا ما هفونا هذه الهفوة

ذكر الأخ السيد محمد على الطاهر صاحب الشورى قصة المکتوب الذى كنت أرسلته فى الأيام الأخيرة جواباً للفقيد على كتاب جاءنى منه منذ أشهر وكلفت الأخ أبا الحسن بإرساله الى السيد بواسطة ذكرتهاله . وفى الحقيقة لست أعلم ان كانت هذه الرسالة بلغت قبل وفاته أم بقيت فى الطريق وسأعلم ذلك . وسواء بلغت أم لم تبلغه فقد كنت معه وكان معى وكان يهمنى من أمره ما يهمنى من أمر نفسى وكان بين نفوسنا بر يد دائم والأرواح جنود مجندة كما ورد فى الحديث الشريف

اللهم انه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق وأصلب المتمسكين بكامتك الحق وانه كان القدوة المثلى بين خلائك والحجة الوثقى بحقائقك والرجل الذى أدى الى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب عليه لدينه ولقومه ولناسه وللانسانية التى كان لها مثالا ، فأعل درجته يارب فى جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوئه فى عقباه المقام الكريم الذى يليق بكرمك العميم وبشوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم واستحقوا النعيم المقيم انك أنت الرحمن الرحيم آمين

— ٣ —

فى الطبعة الجديدة من حاضر العالم الاسلامى التى تم من الآن الى شهرين يجد الفارئ ترجمة للمرحوم سيدى أحمد الشريف أوفى معلومات من الترجمة التى فى الطبعة الاولى ومن جملة ذلك الكتب التى وردت على السيد من اللورد كيتشنر والجنرال ماكسويل وغيرهما من رجال الانكليز ومنها تتجلى المساعى التى سعتها انكثرة لاستجلاب مودة السيد والمحافظة على رضاه وهى مكثوبات لم تنشر فى محل ولن يجدها أحد إلا فى «حاضر العالم الاسلامى» الطبعة الجديدة

وبرغم جميع ما بذلته انكثرة للسيد من وسائل الاستعطاف فلما بلغ السيد أن بعض الناس يتهمونه بموالاته الانكليز وبالتلكؤ عن الزحف الى مصر زحف الى مصر مجتازا السلام بالقوة التى معه وهو واثق بأنه لا بعددها ولا بعددها تقدر أن تقاوم القوة الانكليزية التى كانت مرصدة لها

ولولا شجاعة العرب خارقة العادة لوقع الخسة آلاف مقاتل الذين كانوا مع السيد فى الأسر بأجمعهم ووقع السيد نفسه أسيراً كما أن البطل جعفر باشا العسكرى - سفير العراق اليوم بلندن - جرح وأسر ذلك اليوم وما أمكن العرب أن يخلصوا من خطر إحاطة القوة الانكليزية بهم إذ كانت هذه القوة ثلاثين ألف مقاتل إلا بمعجزات من البسالة واشتغال الجيش البريطانى بدفن الالوف من قتلاه وحمل الالوف من جرحاه . وهكذا تمكن السيد ومن معه من العرب أن يخلصوا من الوقوع فى يد العدو ويقطعوا السلام راجعين وأفات نورى أخوانور بأعجوبة .

وبعد هذه الحملة قلب الانكليز للسيد ظهر المجن وزحفوا لقتاله فاضطر أن يتقهقر الى سيوه فقصدوه الى سيوه بقوة عظيمة فدافع السيد تلك القوة دفاع المستميت ودحرها وخرّب كثيراً من دبابات الانكليز المصفحة واتهز فرصة ارتداد الانكليز الى الورااء ففارق سيوه الى جغوب الى آخر القصة مما ذكرناه فى تلك الترجمة وانتهى الأمر بذهاب السيد فى غواصة من ساحل العقيلة الى الأستانة .

وقد كان من نتائج عمل السيد هذا أن ضبّطت السلطة الانكليزية أملاكه فى سيوه وفى الواحات الدواخل وأن باعتهها جزاء له على مهاجمة مصر .

ولما جرى الصلح في لوزان سنة ١٩٢٣ بين تركيا ودول الحلفاء وأعاد الانكليز جميع ما ضبطوه للاتراك في أيام الحرب كان من الواجب على تركيا أن تسترجع أيضا أملاك السيد أحمد الشريف السنوسي التي لم تضبطها انكلترة إلا بسبب حرب أصلاها إياها السيد بينما الانكليز يتزلفون اليه . وذلك قد كان من السيد لاجل خاطر تركيا وكان مصطفى كمال باشا وعد السيد عند انعقاد مؤتمر لوزان بأن الاتراك سيجعلون من شروط المعاهدة اعادة أملاك السيد بمصر

فاما انعقدت المعاهدة لم يجد عصمة باشا ومن معه حاجة للاهتمام بالكلام في قضية أملاك السيد مع كونهم استرجعوا جميع ما كان الانكليز ضبطوه من أملاك التركة ، ولم تكن هذه المسألة عبئا ثقيلا عليهم لانها طلب حق لا يقدر الانكليز أن يقولوا فيه شيئا .

ولما تم امضاء معاهدة لوزان ذهب السيد الى أنقرة مهنئا وقابل الغازي ومن جملة الكلام سأله عما فعلوه من جهة أملاكه حسبما كان الغازي وعده به . فوجد السيد أنهم أهملوا هذه القضية لان الغازي ارتبك في الجواب وأحاله على عصمة باشا . ولما تكلم السيد مع هذا في القضية لحظ أنهم لم يفتحوا هذا البحث في لوزان . وأخذ عصمة يقول له انهم يقدرون أن يراجعوا الانكليز ولو بعد عقد المعاهدة .

أخبرني المرحوم السيد بهذا في مرسين . فقلت له : أفسأتمهم مرة ثانية هل راجعوا الانكليز في هذا الأمر ؟ فان هذا حق لك ومن الواجب على تركيا أن تسترد لك أملاكها ذهبت عليك بسببها .

فقال لي السيد : كلا ما راجعتهم ولن أراجعهم ولن أتلفظ بعد كلمة في هذا الموضوع . نعم يمكنني أن أسعى لدى الحكومة المصرية في رد هذه الاملاك لي فان ردوها لي فذاك والا فلست معاودا الكلام لاجلها مع أنقرة وكان من الأنفة بحيث لم يكن يريد أن يحمل نفسه على مراجعة أنقرة في قضية كانوا وعدوه بها وأهملوها .

وهذه الاملاك تساوي مائة الف جنيهه بالاقبل . وقد بلغني فيما بعد أن الحصة التي للمرحوم في سيوه استردها له الامير ادريس ابن عمه . ولا أعلم ماذا جرى بالاملاك التي في

الواحات الدواخل . فعسى أن تكون الحكومة المصرية أعادتها للسيد أيضا .
 و خلاصة القول أن حكومة أنقرة كلفت السيد أحمد الشريف على مواقفه العظام
 في جانب تركيا عموما وجانب أنقرة هي نفسها بجأزتين :

احدهما اهمال قضية أملاكه في مؤتمر لوزان مع معرفتها أنه انما خسرها بسبب
 تركيا ومع استردادها أملاك جميع الأتراك الذين كان الانكليز ضبطوا أملاكهم في أيام
 الحرب .

الثانية الأمر له بالخروج من تركيا بسبب مكتوب للأمر سليم العثماني كتبه بناء على
 الخاج أحد مریدی طريقتة من الأتراك . وكان ساعة كتابته هذا المكتوب كارها ولم يقل
 في هذا المكتوب شيئا يمس تركيا سوى أن هذا الرجل طاب منى هذه الوصاة ولم أجد بدأ
 من اجابة طلبه . وختم المكتوب بآية « والله مع الصابرين »

ولما كان الواجب التعريف بهذه الحقائق ألحقت هذا الخبر بالترجمة السابقة

الاسيف

« شكيب أرسلان »

جنيف ٣ ذى الحجة

مطبوعات هدية تطلب من مكتبه ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

كاسر المساعي

في مناقب

الامام أبي عمرو والاوزاعي

رضى الله عنه ونفعنا به

نشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه وتصديره بمقدمة

عن الامام الأوزاعي وبتراجم العلماء له

الأمير شكيب أرسلان

المجاهد الاسلامي الكبير

— ssc —

قاموس آيات القرآن الكريم

يعد نسيج وحده وفذا في بابه فان مؤلفه الفاضل جمع آيات القرآن مينا عددها وما قيل فيها وضم كل نوع منها الى مثيله منها على السورة التي هي منها مع ذكر فوائد جلية في العلوم الكونية وغيرها

لطائف المعارف

تأليف الشيخ الامام الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي وهو في المواعظ مرتب على شهور العام الهجري ، ذكر في كل شهر ما فيه من الوظائف وما يطلب فيه من نوافل الصلاة والصيام وغير ذلك ممحسا ماورد في ذلك من الأدلة مميزا بين صحيحها وسقيمها ليكون مرید العبادة على بصيرة مما يأتي به

جِئْنَا لِلشَّرِّهِ

دَوْلِهِ وَسَعُوبِهِ وَمَاضِيهِ وَمَحَاضِرِهِ

بقلم الكاتب الكبير

مُحَمَّدُ لَطْفِي جُمُعَةُ الْمُحَامِي وَعُضْوُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعُرْبِيِّ

كتاب متمم لحاضر العالم الاسلامي وفي نفس الموضوع وقد احتاج المؤلف لمراجعة .ه كتاب بعدة لغات ليصل الى الحقائق التي دونها والاستاذ لطفي جمعه غنى عن التعريف لكثرة مؤلفاته وكتابه المتواليه في امهات الصحف العربية

الجامع اللطيف

في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف

تأليف مولانا المرحوم جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن

أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي المخزومي

كتاب عنوانه يدل على بعض محتوياته وهو جامع لتاريخ مكة المكرمة التي بها البيت المعظم فتاريخها أهم شيء ينظر اليه المعتنون بالدين * وهذا الكتاب لأهميته طبعت في أوروبا الكراسات القليلة التي وجدت منه ولما وجد المرحوم والدنا أثناء حجه المقبول هذه النسخة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الترحية أحضرها معه وخدمناها خدمة لأمثيل لها بعمل فهارس لأسماء الرجال والنساء والأما كن هذا بخلاف فهرست الكتاب العمومي وقد جاءت هذه الطبعة كافية مستوفية وهو مطبوع في حجم الربع وعدد صفحاته يزيد عن الأربعمائة صفحة ولا يستغنى عنه كل من يهيمه أمر مكة المكرمة وتاريخها

نظرات الشورى

للاستاذ الكبير السيد محمد على الطاهر

صاحب جريدة الشورى الغراء

هي خواطر ونظرات في الشؤون الشرقية فاض بها قلب كاتبها الغيور لما تعطلت جريدته فن شعر بفقد حملات جريدة الشورى الغراء في حملتها على الاستعمار وخدمتها للعالم الاسلامى والعرب والشرق واشتاق الى ابا الحسن صاحب الشورى وتحفه ونقداته للاستعمار وروحه الخفيفة الجذابة التى تسيطر على كتاباته أن يطلب نسخة من نظرات الشورى فيجدها تحفه تهدي وخير ما يقرأ

بهجة الحاوى

لعلامة زمانه . وفريد عصره وأوانه زين الدين

أبى حفص عمر بن الوردى . قدس الله

روحه ونور ضريحه

وبهامشه كتابان

التيسير نظم متن التحرير ، والتدريب نظم غاية التقريب

وكلاهما للعمريطى

ثلاثة متون فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه جامعة لأصول المذهب مختصرة مفيدة سهلة الحفظ وقد وضعنا الكتاب فهرسا مطولا ليسهل المراجعة فيه وطبعناه على ورق ناعم بحروف كبيرة مشكولة شكلا كاملا ليتجنب الطالب التحريف ويحفظ على صحة كما جعلنا ثمنه زهيدا حبا فى نشر مذهب امامنا الشافعى رضى الله عنه

قاموس الاعلام

للمستاذ العالم المحقق غير الدين الزركلى

هو معجم تراجم لنحو ٨ آلاف شخص بين رجال ونساء من العرب والمستعربين من العصر الجاهلى الى سنة ١٣٥٠ هـ و ١٩٣١ ومن مزايا هذا القاموس المبتكر فى بابہ باللغة العربية أنه وضع على الطريقة الجديدة اختصار وإيجاز وتحقيق ومما يزيد أهميته أنه لا يترجم الاحياء وهو يقع فى ٣ مجلدات ضخمة

مسئلة ترجمه القرآن

تأليف سماحة الشيخ مصطفى صبرى افندى شيخ الاسلام سابقا
فى الدولة العثمانية

وهو يبرهن على أنه لا يصح - بناء ما حدث فى تركيا الجديدة - الصلاة بالترجمة على أى مذهب اسلامى وقد ادحض شبه الكاتين فى جوازها ونقض مساندهم الفقهية والاجتماعية فى ١٤٦٦ صفحة كبيرة وقد شهدت له مجلات معمر الدينية المحترمة بالمنزلة الفريدة الممتازة

تفسير الجلاين مشكول الآيات

للامامين جلال الدين محمد المحلى و جلال الدين عبد الرحمن السيوطى جزآن وبهامشه أربعة كتب حلينا بها هذه الطبعة الصحيحة
(الأول) فى أسباب النزول للسيوطى (والثانى) فى معرفة الناسخ والمنسوخ لأبى عبد الله محمد بن حزم (والثالث) رسالة جليلة تتضمن ما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل للامام أبى القاسم بن سلام (والرابع) ألفية الامام أبى زرعة فى غريب القرآن وقد رتب أحسن ترتيب